وزارة الثقافة • دار الكاتب العربي للطباعة والنشر

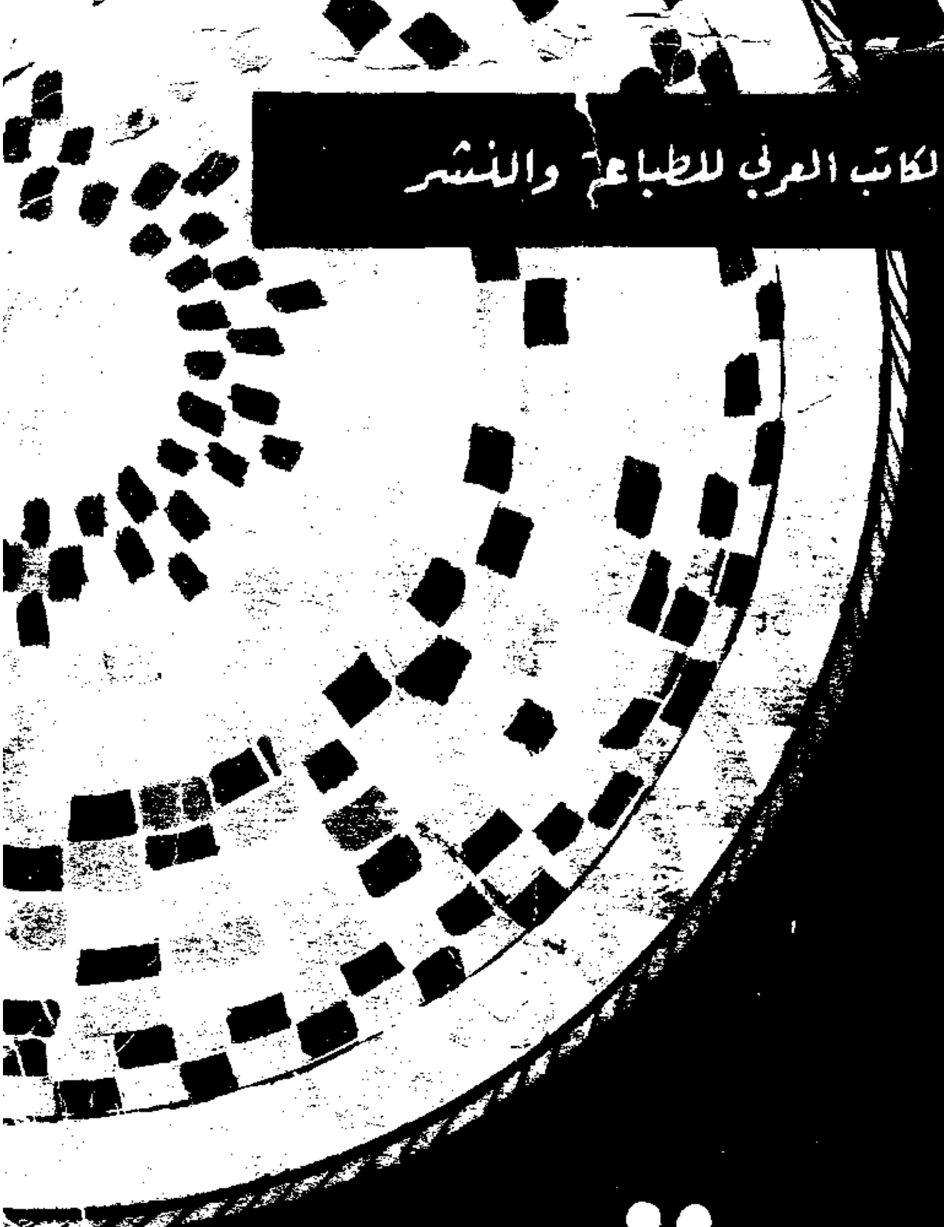

الشمندورة

محمّد خليل قاسم

الشمندورة

أول رواية نوبية فى تاريخ الأدب العربى

دار الكاتب العربى للطباعة والنشر
بالقاهرة

تنويه ☆☆

الأسـماء في هذه الرواية أسـماء شائعة بين النـوبيين ، فاذا ما حدث تشابه أو تطابق بينها وبين أسـماء أشخاص معينين حقيقيين ، فليسـوا مقصودين بالمرة

هذا فيما عدا الشخصيات الهامة التي قامت بـدور بارز في حيـاة النوبيين ..

١

كل شيء فى هذا الاطار هادىء ساكن ، فأشجار النخيل لاتهز أعطافها ، والنيــل يرقد تحت أقدامنا هامدا لا يتحــرك ، والدوامة التى تتوسطه ما بين الشاطىء والجزيرة الخضراء خامدة تغط فى نوم عميق ٠

حتى المراكبية ، أصواتهم خافتة تردد أغنيات دافئة عن عذارى ، وأكواب شاى فى الضحى ، أعددنها على نار هادئة من خشب السنط ، فلا تصل الى أسماعنا الا غامضة حزينة ٠ فمراكبهم ماتزال بعيدة ، ونقرات أصابعهم على الدف تخنقها غابات النخيل هناك عند المنحنى الذى يفصل شمالَ قريتنا « قته » عن «الدر» عاصمة المركز ، أو عند المنحنى الذى يفصلَ جنوب « ابريم » توأم قريتنا عن « الجنينة والشباك » ٠

اننا نتشبث بمواقع أقدامنا على الجرف ، لا نريد أن نعترف بالرعدة التى تسرى فى مفاصلنا خوفا من النيل والســكون الذى يلفنا ٠٠ بل نتطلع الى وجه « برعى » زعيم أطفال النجع ننفعل بما ينفعل به ! ٠٠

ونحن فى حقيقة الأمر لا نفعل شيئا غير التأمل فى النيل وتحديق البصر طويلا ، لأن الباخرة ، ذات النوافذ والثريات الكهربية ، ستهل علينا فى هذه الأمســية من المنحنى الشمال تحمل رسائل وطرودا من المهاجرين ٠٠ وتحمل فى هذه المرة ، كما قال آباؤنا ، أفنــدية بوجوه بيضاء ، وطرابيش حمراء ، وملابس عجيبة لم نرها من قبل على جســم بشر !

مضينا نغالب الخوف وننتقل من قدم الى أخرى ونقتل الرعب الذى تملكنا بثرثرة متصلة حتى صاح « برعى :

ـ ها هى !

وقفز قفزته العالية وهو يشير بأصبعه عبر أجمات النخيل ، ثم أطلق ضحكة عالية ساخرة حين صاح « بكر » :

ـ ستكون لى واحدة مثلها !!

نه ٠٠ من أين !؟

ـ أبى سيشترى لى واحدة !

فضحكنا جميعا لأول مرة فى أمسيتنا ، وعيوننا لا تبارح شريط النور الأبيض السابح ، ولا العلم الذى مضى يرفرف فوقه ٠

وتلفت برعى نحو بكر وأسكته باشارة من يده ثم تبسم فى وقار ليقول :

ـ أرأيتم الأفندية ؟ والطرابيش حمراء مثل القوطة !

وكانت الباخرة تواصل سيرها وتتجاوزنا دون أن تقع عيوننا لا على الطرابيش الحمراء ، ولا على الوجوه البيضاء ، الا أن برعى أخذ يؤكد ويصف تلك الوجوه : مستديرة تلمع كما تلمع المرايا ٠ واسترسل فى حديثه حتى يؤكد زعامته فلم يعترض أحد الا «صالح جلق» الذى همس فى حياء : لا أرى شيئا ٠ أين ؟ ٠٠ خلف النور ؟!

واتجه ناحيتى وكأنه يحتج :

ـ ولكن لماذا لا تربط الباخرة عندنا أبدا ؟

ولمحت الغضب يرتسم على وجه برعى ، فلم أجب بينما بادره برعى:

ـ نه ؟ ولماذا تقف هنا ؟! ستربط هناك فى « ابريم » ٠

ثم تظاهر أنه يعرف ريس الباخرة ، فمضى يرحب به ونحن من خلفه بصيحات داوية ، الا أنها ابتعدت دون أن يأبه بنا أحد ٠

ولبثنا لحظة والغيظ يأكل قلوبنا ، ثم نكس برعى رأسه وابتعد عنا فى خطى سريعة فبدأنا نعود ، حتى تفرقت بنا الدروب ٠

وأخذت أنا أشق الطريق الطويل الذى يفصل بين صفوف طويلة متراصة من النخل ، تشكل غابة كثيفة لا ترى العين من خلالها الا أنوارا هامسة تنبعث من بيوتنا ، هنالك عند السفح ٠

كانت أشجار النخيل المثقلة بحبات البلح الحمـراء تهتز فى بطء شديد ، وتتصافح شواشيها ويسرى بينها همس أضفى عليه المساء الساكن كثيرا من الغموض ٠ كل واحد فى قريتنا كان يملك منها خمسين أو ستين ، حتى أن صفوفها كانت تمتد من الشاطىء الى المزارع الضيقة ، ثم تترامى بعدها فى صفوف أخرى ، تنفرج عند السفح ، عند بيوتنا المتلاصقة لا يفصل بينها الا أزقة ضيقة غير مرصوفة وان دكتها أقدام السابلة على مر السنين والأجيال ٠

ومن داخل هذه البيوت ، من فوق أسوارها المسلحة بقطع من الزجاج كانت هذه الأشجار تطل علينا ، سفح الجبل نفسه كانت تعلوه هذه الأشجار ، وقد لفت رءوسها بعصائب خضراء من السعف والجريد والسباطات الصفراء المثقلة بحبات البلح ٠

وفى الطريق ، عند نهاية الأشجار ، رأيت أبى بجلبابه الطويل الأبيض وعمامته المزهرة ، ومداسه الأحمر اللامع ، الشامخ بأنفه ، ومسبحته وعصاه ذات المقبض النحاسى ٠

كان منهمكا فى حديث طويل مع فضل الماساوى وجعفر وآخرين من رجال النجع ٠ كانت أياديهم ، وعذبات عمائمهم ، وعصيهم تلوح نحو الشاطىء ٠ يبدو أنهم كانوا يتحدثون عن الباخرة والأفندية والوجوه البيضاء والطرابيش الحمراء ويرددون أسماء بعض الباشوات والصحف ٠

وسمعت الشيخ جعفر يهتف :

ـ أرض الله واسعة وسيعوضنا أحسن من أراضينا !

فتنحنح عبد الله الجزار وقال :

ـ ويرزقنا بيوتا غير بيوتنا ؟

ويبدو أن « فضل الماساوى » لم يقنعه كل ما قيل ، فانحنى على الأرض فجأة ، وأنشب أنامله فيها ، ليعود بها تحمل حفنة من التراب أخذ يتشممها ٠ ثم تركها تتخلل أصابعه الى الأرض من جديد بينما اتجه « جعفر » بناظريه الى السفوح وهو يقول فى لهجة حزينة :

ـ من يدرى ٠٠ ربما أراد الله بنا خيرا ٠

وفتح أبى فمه ليقول شيئا ثم أطبق شفتيه فجأة حين رآنى فاستدار ناحيتى وابتسم فى حنان وأمسك برأسى حين دنوت منه وهمس :

ـ لم تأخرت هكذا يا ولدى ؟

وتابع سؤاله وكأنه لا يتوقع اجابة منى :

ـ والباخرة ٠٠ هل رأيتها أنت والعيال ؟

ـ نعم يا أبتى ٠

ـ والوجوه البيضاء ؟

ـ كلا ٠٠

ـ ولا طربوشا ؟

وخشيت أن أقول لا فى هذه المرة أيضا فوجدت نفسى أردد : نعم !

وما أن نطقت بها حتى سمعت الشيخ فضل يهمس فى حزن :

ـ اذن فقد جاءوا !

ودارت عيناه فى وجوه الآخرين ثم أضاف :

ـ مساكين ٠٠ نحن مساكين ٠٠ لنا رب اسمه الكريم !٠٠

وغمغم عبد الله الجزار :

ـ غدا يكونون هنا فى النجع بأوراقهم وأقلامهم !

الشيخ حسين :

ـ ومن يدريك ٠٠ وهل أنت أفندى حتى تعرف ؟

وأحس أبى بما يدور على وجهى من أمارات الحيرة فأشفق على وربت فوق ظهرى ، ومسح بيده على رأسى وأدار الحديث مدارا آخر :

ـ وماذا حفظت اليوم يا ولدى ؟

وصمت لحظة يستحثنى حتى قلت :

ـ الربع الأول من سورة يس ٠

فبسملوا جميعا وكأنما أخذوا على غرة ومضى فضل يعبث بخصلة الشعر المجدولة المنسدلة خلف أذنى اليسرى وشفتاه تتمتمان :

ـ بارك الله فى ولدك يا « أمين » ٠٠ قريبا يعود الينا من الأزهر يلقى علينا دروس الدين بدلا من الأغراب !

وتبسم الشيخ جعفر وقال :

ـ ولا تنس الجبة والقفطان الشاهى اللميع !

فضحك أبى ضحكة مقتضبة وشكر للشيخ فضل أمنيته ودعاه الى العشاء وهو يقول :

ـ ولا تنس أن تأتى معك بأدوات الحجامة ٠٠ فالوجع الشديد قد عاود ظهري ، وكاسات الهوا أفضل علاج !

فبادره الشيخ حسين :

ـ أوجاع فى ظهرك ! لا أصدق ، فان لك زوجتين !

وقهقه الجميع ، بينما دس أبى يده فى سيالته وقدم لى حفنة من التمر ودفعنى فى ظهرى وهو يأمر :

ـ عد يا ولدى ٠٠ لئلا ينشغلوا عليك ، فالدنيا ليل ، والظلام يشتد بعد أن يغيب الهلال ٠

كنت أريد أن أتريث الى أن يعاودوا حديثهم عن الأفندية والطرابيش الحمراء ، ووددت لو فهمت معنى لكل ما يقولون ، وما سبب الحيرة المرتسمة على وجوههم ، ولماذا يشم الشيخ فضل تراب الأرض ؟! ولماذا هذا الحديث الحزين عن بيوت غير بيوتنا ، وسماء تعوضنا بدل ما نفقد ؟

وكنت أعرف أنهم لن يعاودوا حديثهم الا بعد أن أنصرف ، وأن شقيقتى وأمى وجدتى لن يهدأ لهن بال الا بعد أن أعود ٠

وعلى ضوء الهلال الباهت أخذت أدب على أرض الطريق الزراعيـة

الى أن حاذيت شونة البلح ، وانحرفت الى الطريق العام الذى يخترق صفوف البيوت ٠

كانت أعمدة التليفون والبرق تنتصب على هذا الطريق ، نفس الأعمدة التى اعتدنا نحن الصغار أن نلصق آذاننا ونصيخ السمع الى كركرة جوفها ثم نتصايح : مصر تكلم ابريم ! مصر تكلم الدر !

وفى تلك الأمسية ، وعلى غير العادة ، صاح برعى فى زهو وخيلاء :

ـ مصر تكلم بلدنا !

ومن يدرى ؟ فربما كانت مصر تكلم بلدنا بالفعل فى تلك الليلة عن الطرابيش الحمراء والوجوه البيضاء ٠٠ ربما ٠٠

وكان وطواط قد حط على الأسلاك ثم لم ندر ما حدث له ، فقد سقط صريعا أمام عيوننا فأسرعنا ندفنه الا أن « برعى » تشبث به ومضى يغمغم بكلمات مبهمة عن تجفيف الوطواط ودقه الى مسحوق أسمر ! وعن « شريفة » جارته الصغيرة !

وتركناه يحتضن وطواطه وانصرفنا بعد أن تواعدنا على التلاقى ، بعد صلاة العشاء فى الساحة ، نلعب الهندوكيـة « الحجلة » حتى يثقل النوم جفوننا ٠

كان بيتنا هنالك فى بداية الطريق ، تتصدره « مندرة » يفتح عليها الباب العمومى ذو الضبة الخشبية الغليظة ، وندلف منها خلال باب آخر صغير ، الى فناء واسع تراصت على جوانبه ثمانى غرف مسقوفة بجذوع النخيل والجريد المضفور بحبال الليف ٠

وفى جانب من هذا الحـوش دقت أوتاد للأغنـام والماعز تسـعى الدواجن والحمام بين أقدامها ، تنق وتهدل بينما « لورد » يرقد على مقربة يحرسها بعين يقظة ٠

هذا الجانب ينتهى بمطبخ ، وفى ركن من هذا المطبخ ثلاث صوامع كبيرة من الطين وصومعتان متوسطتان لشقيقتى وأخرى صغيرة لى أنا ٠

ومن خلف البيت ترتفع مئذنة الجامع ، وعلى يسار الجامع بيت برعى على مسافة يسيرة من بيت « داريا سكينة » أم « شريفة » صديقة أطفال النجع ٠٠

***

دلفت من الباب العمومى ، ووجدت نفسى فى « المندرة » . وتوقفت هنيهة عند الزير الفخارى المنتصب عند الباب ، أعب من مائه فى صوت مسموع ، وأنا أختلس النظر من فوق الكوز الى « بطة » شقيقتى الصغيرة وهى تطل على وعاء كبير منهمكة فى اعداد وجبة العشاء ، بينما استدارت جدتى نحوى فى هدوء تسأل عن سبب تأخرى دون أن تقتنع بما لفقته من أعذار فمضت تعنفنى ، تساندها بطة بنظراتها الحادة .

وهنالك فى الركن الآخر كانت أمى .

مخلوقة غريبة تعمل أناملها دائما فى الأرض ترسم خطوطا تدور وتتشابك ، ثم تبسط يدها لتمحوها فى أناة ، لتعاود رسمها من جديد !

ولم أدرك طيلة حياتى معنى لتلك الخطوط ، ولكنها على كل حال كانت شغلها الشاغل الذى لا تكف عنه فى عزلتها الأبدية ..

كانت أمى من هذا الركن القصى الذى استقرت فيه منذ أعوام سبعة تنفعل معنا بكل شىء : تبكى اذا ما بكينا ، وتبتسم اذا ما ضحكنا دون أن تتبادل معنا كلمة واحدة ، دون أن تشاركنا طعامنا من اناء واحد !

ولكنها رغم ذلك كانت تحبنا جميعا ! أمها وبنتيها وولدها الوحيد ، الا اننا لم نكن نستبين هذا الحب فى بادرة أخرى غير نظرة طويلة حانية من عينيها الواسعتين ترسلها نحوى حين ترانى أدلف من الباب أو أخرج ..

نظراتها الحانية هذه كانت تبدو حين تنتهرنى جدتى ، أو حين تتعلق بى « بطة » لتضربنى .. أو حين يصب أبى غضبه على رأسى .

كانت ترتفع برأسها وتسدد اليهم نظرة قاسية صارمة ، ثم ترتد بطرفها نحوى بتلك النظرة العذبة الحانية ، فأرتعش أنا بالحب ، الا اننى رغم ذلك لم أجرؤ فى يوم من الأيام أن أقترب منها ولم تجرؤ هى أن تدنو منى ، فاذا ما أرادت أن تهدينى شيئا قدمته لى من بعيد ، فقد كان فى أعماقها شىء ينأى بها عنى ، فلقد أخبرتنى شقيقتى الكبرى « جميلة » أن أمنا أصيبت بالصرع قبل مولدى ، وأن نوبة اغماء منكرة ألمت بها ذات يوم وهى ترضعنى فبركت على دون أن تعى وكادت تخنقنى ..

هاج البيت يومذاك وماج ، وأبعدونى عنها منذ ذلك الحين ، أما هى فقد أفاقت من غيبوبتها وأدركت كل شىء وقررت أن تبتعد عنى الى الأبد !

عـ ـى في صدرها خوف رهيب من ملامستي خشية أن تخنقني ، وظل عـ الشعور يساورها حتى بعد أن كبرت ، فاكتفت طيلة حياتها ، بتلك ـضرة الطويلة الحانية تنفذ الى قلبي في عذوبة دافقة .

وما كدنا ننتهي من تناول عشائنا حتى تناهى الى أسماعنا وقع خطى في الشارع الملاصق وأصوات رجال ميزت منها صوت أبي والشيخ فضل ورجل آخر لم أكن قد عرفته بعد ..

وفتح الباب العمومي ، وفجأة ولأول مرة ، ولأمر لا أدريه أسرعت شقيقتاي ، ودفعتا بي دفعا معهما الى الفناء الداخلي ..

كان الرجل الثالث هو شعبان ، الذي تزوج شقيقتي الكبرى ، وقد جاءوا في تلك الأمسية يتحدثون عن هذه الزيجة ويستعدون لها ، ويبدو أن أمي كانت تعرف أمر هذه الزيجة ، فقد استمعت الى كل ما دار هنالك وأقبلت تنحني على « جميلة » وتطبع قبلة على جبينها !

وتقدمت « بطة » تعانق شقيقتها بينما وقفت أنا حائرا لا أدري ماذا أفعل ، وأدركت « جميلة » ما أنا فيه .. فانحنت تقبلني وهي تبتسم ، ولا أدري لماذا أحسست في تلك اللحظة بالضيق . لقد أردت أن أسألها عما يدور هناك داخل « المندرة » .. الا أن أصوات الرجال كانت تعلو ومعها صوت عائشة ـ جدتي ، كانوا يتحدثون عن الطرابيش والباخرة ذات الثريات المتلألئة ، فمضينا نصيخ السمع بينما اقتربت الأم من الباب الصغير الذي يفتح على « المندرة » من الفناء ، وتريثت حتى قام أبي بتوديع شعبان وفضل وعاد الى مجلسه فانطلقت الى « المندرة » .

ومن خلال الباب الصغير ، تناهى الينا ، ونحن تحت سماء زرقاء صافية ، ينيرها هلال فضي باهت ، صوتها الواهن الرقيق يتسلل في هدوء وحزم ، وأبي يحاورها ويداورها ..

ودون أن ندري ، لماذا ارتفع صـــوتها ، واحتـــد على أبي ، كانت تتحدث عن الباخرة ودفاتر التسجيل ، حديثا أنهته في كلمات حازمة :

ـ « أمين » .. هذا البيت يكتب باسم « حامد » !!

وصمت الرجل صمتا أدركت هي كنهه فانبرت تقول :

ـ يمكنك أن تسجل باسمك ذلك البيت الذي تعيش فيه مع الزوجة الأخرى .. ضرتي ـ وكذلك البيت الثالث الذي ورثته عن أبيك مع النخيل التي نملكها هنا وهناك ، خذ كل شيء لنفسك الا هـــذا البيت ، فقد بنيته معك طوبة بعد طوبة ، وجذع نخلة بعد آخر ، وعشت فيه مع

أمي العجوز هذه ، وأولادى هؤلاء سنة بعد أخرى ، ويجب أن يسجل باسم ابنى ٠٠ باسم « حامد » !

ولا أدرى ما الذى دفع أما مريضة ، أن تقول كل ما قالته ، الا أننى عرفت حينذاك أن أمي تملك شيئا ما غير النظرات الحانية ، حبا لا حب بعده ، أملا عريضا تحاول أن تسعدنى به ٠٠ كانت تملك رغم مرضها قوة مواجهة زوجها ! تسجيل بيت باسمى كان شيئا كبيرا بالنسبة لى أنا الطفل ، كنت لا أفهم له معنى ، ولكن كلمات أمي حملت الى قلبى ماجعلنى أوقن انها تدافع عنى ، بيد أننى رغم ذلك لم أدرك أية علاقة بين الطرابيش الحمراء وتسجيل بيتنا ذى الغرف الثمانية باسمى ٠

واشـتد الحاح أمي بينما ازداد صمت أبى حتى نفد صبره ، فأخذ يقذفها بكلمات جارحة : مجنونة ! مخبولة ! مالك ولهذه الأمور ٠٠ انزوى فى ركنك يا ٠٠ فأجهشت بالبكاء وارتفع صوت جدتى ، تحاول عبثا أن تهدىء من روعها وأن تسكت أبى الذى ارتفع صوته يهدر كأمواج النيل ٠

وفى الفناء كنا نحن الثـلاثة نلتصق ببعضنا فى صمت لم يقطعه الا صوت « جميلة » وهى تبتسم : لماذا يا أبى ٠٠ لماذا !؟ ٠٠

ثم بعد صمت قصير :

ــ دعها وشأنها ٠٠ انها مريضة ٠٠ أنت تعرف انها مريضة !

وهمست الأخرى فى صوت دامع :

ــ كل هذا من تحت رأس العقربة ، حجوبة ٠

وقاطعتهما فى كلمات مختنقة :

ــ جميلة ٠٠ بطة ٠٠ أنا لا أريد بيتا ٠٠

واختنق صوتى بالبـكاء بينما صـوت أبى مايزال يهـدر ، وبدا « لجميلة » اننى أتململ فى موقفى فأمسكت بيدى فى عزم ، وأفلت أنا منها رغم ذلك فجأة واندفعت كالسهم الى « المندرة » ثم الى الركن الذى تقبع فيه أمي أحاول أن احتضنها بيدى الصغيرتين ، وهى تدفعنى بعيدا عنها فى حنـو ، وتنهانى عن الاقتراب منهـا فى تلك اللحظة المشحونة بالصدام ، ولكننى اندفعت اليها أهمس :

ــ أمي ٠٠ أنا لا أريد بيتا ٠٠ لماذا تريدينه لى ؟ ٠٠ سأختم القرآن وأسافر الى الأزهر !!

ولم أستطع أن أواصل حديثي ، فان دمعة ساخنة كانت قد سقطت على يدى فألجمت لساني وهمت هى لتحضنني غير أنها ترددت ، ثم اربد وجهها فجأة وغامت عيناها فى سحابة من الدموع وبان فيهما بريق غريب اتكأت بعده على الأرض براحة يدها اليمنى ، ثم انكفأت على وجهها ! وأخذت تحرك ساقيها فى تشنجات ·· ثم هدأت مستكينة بينما يغلى بين شفتيها سائل أبيض مثل رغاوى الصابون ·

وتحركت الأقدام من حولنا ، تروح وتجىء ·· بينما أصابنى الذعر واحساس بأن روحى تنسل من بدنى ، وقطرات من الدمع تنسكب على خـدى ·

ثم انكفأت على أمى متغافلا تحذيرات جدتى وأبى الذى بدا عاجزا وحائرا فى نفس الوقت ·

هذا الرجل : أبى – يعرف متى بادأها هذا المرض الغريب وأين !·· هنالك فى القاهرة ، فى حى البغالة بالذات ، أيام كان يعمل غفيرا فى الكونتنتال فى أعوام السلطة ، وهو ما يزال يذكر أنه لم تجد معها أضرحة جميع الأولياء والأطباء ، فعاد بها من مصر ، كان يحبها وقد ازداد حبه لها بعد مولدى ولكنه فى نفس الوقت لم يحتمل العذاب بجانبها فهرب منها الى زوجة أخرى· وخليق به اليوم ألا يحتمل الموقف الذى استثاره بعناده ، فذرف دمعتين وهو يهتف : فاطمة ·· فاطمة ·· سامحينى ···فلم أقصد شرا !!

ومضى الى الباب ·· وجدتى تستمطر اللعنات على رأسه ورأس أهله ··

وحين رأيت الدموع فى عينيه ، وفى عيون الأخريات أحسست ان أمى ستموت فى تلك اللحظة فارتفع صوتى بالبكاء ··

ومع صوت بكائى ارتفع عواء الذئب : أووو ·· أووو ! ··

وبرعى هو الذى أطلق صيحة الذئب ·· ومن كل الأزقة والبيوت أخذ الأطفال يرددون مثله هذه الصيحة التى اعتاد دعوتنا بها الى الساحة الواسـعة أمام شجرة الجميز لنلعب « الهندوكية » (الحجلة) فى ضوء القمر ·

وكان من واجبى ، شأنهم جميعا ، اطلاق نفس العـواء ·· لأسرع اليهم · ولكننى ألقيت نظرة على وجه أمى فأدركت أن واجبى هو البقاء

الى جانبها ريثما تفيق فألتقط من عينيها نظرتها الطويلة الحانية .

تردد العواء مرة بعد أخرى .. واستجاب له أطفال النجع الا أنا .. فقد احتبس هذا العواء فى حلقى .. وبدلا منه أمسكت بالمصحف أرتل منه وقد وضعت يدى على رأس أمى التى كانت ماتزال تعانى نوبة اغماء منكرة .

وبينما عادت جدتى من الديوانى تحمل زجاجة عطر نفاذ ، كانت بطة تهرول الى الخارج لتستدعى خالتى أمينة بايا .. فهى خبيرة بأمى وبنوبات اغمائها .

وفى نفس الوقت كان عواء الذئب يتردد فى النجع .

٢

منذ أن ارتفع صوت المؤذن بالفجر .. وأنا مستلق على ظهرى فوق « العنجريب » .. أحدق فى جذوع السقف .. وفى أطباق الخوص والصينى المزخرفة المعلقة على الحائط منكفئة على وجهها !

فالأضــواء الخافتة التى تلقيها المسرجة على الحائط والأطبــاق .. والأبراش الخوصية .. الى جانب الظلال المرتسمة عليها ترسم عالما خياليا أمام عينى يشغلنى من حين الى آخر .. عن مراجعة صورة ياسين .. عالما خياليا لم يتبدد الا حين أخذت أشعة الشمس تتسرب الى « المندرة » فى حياء ، من خلال الكوة العالية المنحوتة فى الجــدار .. يعلق بها غبــار يتراقص أمام عينى .

وفى صمت ، وحتى لا توقظ أحدا ، هبت شقيقتى « جميلة » من نومها.. ومضت تتحرك خفيفة الوطء لتعد افطارنا : شرائح من «الخمريد» (العيش المخمر) وسلطانية لبن رائب مزجته بقليل من عسل البلح .

وازدردت افطاری علی عجل ٠٠ وعلقت لوحی من عنقی علی صدری ٠٠ وكيس الكتب على كتفى ٠٠ وطوقت رأسى بالكوفية المزركشة ٠٠ وأخذت أمد أذنى عبر الجدران والكوى والأبواب علنى أسمع نداء « برعى دولحظ » فلقد تباطأ نداؤه اليوم ٠٠ ونفد صبرى فدلفت الى الفناء أشاغب « لورد » وهو يتمسح بى ٠٠ ويهز ذيله بتحية الصباح !

وفجأة ، ومن بعيد ، تردد عواء الذئب ٠٠ الا اننى لم أتحرك ٠٠ فقد اعتاد « برعى » أن يطلق عواءه الأول ٠٠ أمام بيت شريفة علها تكون فى يقظة ٠٠ فتستمع الى صوته القوى ٠٠ كان يطلق نداءه ثم يتمهل قليلا أمام بيوت الأطفال ٠٠ فيحملون مثلى ألواحهم وأكياس كتبهم ٠٠ وينطلقون معه ٠

وعند الناصية ٠٠ على مقربة من شونة البلح رأيت «برعى» يلصق أذنه بعمود التليفون والى جانبه صديقاه « صالح جلق و « بكر » يقضم كل منهما شريحة الخمريد يزدردها مع التمر وهو يهمهم بآيات سورته ٠
كان « برعى » ، رغم قامته المبشرة بالامتداد وعضلاته المفتولة ٠٠ ووجهه الأسمر اللامع ٠٠ وأنفه الأفطس وشفتيه الغليظتين الحازمتين ٠٠ وقدميه الضخمتين المتشققتين فى روافد صغيرة ، مريضا بأمعائه وصدره ٠٠ كان يجرى فى قوة الأسد ٠٠ ويطلق فى نفس الوقت سعالا عنيفا يخرج من حلقه فى أنغام خشنة مبحوحة تتناهى الى مسمعيك وكأنه يقول: « دولحظ ٠٠ دولحظ » ٠٠ ولم يعد هو ، على مر الأيام ، يبالى حين نناديه ببرعى دولحظ ٠

أقبل على حين لمحنى وسلم بطريقته الغريبة اذ مد قدما لامست قدمى بينما مد يدا الى يدى ٠٠ كان حافيا ٠٠ قدمه خشنة متشققة ، فهو يؤم الكتاب ويكدح فى نفس الوقت مع أبيه وخاله الشيخ فضل فى حقليهما الصغيرين بقية النهار وبعض الليل ٠

ورغم ذلك كان أكثرنا حفظا واستعدادا ، يلتهم كل الدروس ، ويتقدم علينا جميعا ٠٠ يكاد يختم القرآن هذا العام ٠٠ وحينذاك ستنتهى حياته الدراسية ليعمل مع أبيه فى الغيط ٠٠

كان فى الثالثة عشرة ٠ يكبرنا بأربعة أو خمسة أعوام ، ولذلك أحسسنا جميعا بالولاء له فهو حامينا أمام أطفال النجوع الاخرى الذين يتربصون بنا كثيرا خلف جذوع النخيل وعند منعطفات الطريق ، وقد حدث مرة أن اشتبك بكر بواحد من أطفال نجع « السواردب » فضرب

حتى احمرت عيناه ، فتواعدنا على ملاقاتهم بعد يومنا الدراسى لنتضارب ، ونسف التراب ، فالتقينا بين غابات النخيل متخذين من جريدها الاخضر الطويل كرابيج وعصيا نتبارز بها ·· وعدنا ظافرين فى ذلك اليوم ، وفى ضحى اليوم التالى كنا ، نحن وأطفال « السوارذب » معا فى الكتاب نتبادل النكات ، وحفنات التمر كأن نزاعا ما لم يقم بيننا ، ثم تربصوا بنا وأذاقونا الهزيمة متحينين فرصة غياب « برعى دولحظ » فى تلك الظهيرة الحارة ·

ومنذ ذلك اليوم لم نعد نسير الا وعلى رأسنا برعى · ولا نلعب الا وهو معنا ، ولا نمر فى طرقات نجع الآخرين الا اذا كان معنا ··

كل واحد منا كان على استعداد لأن يقدم له كل شيء يملكه ، النبلة والفخ والسنانير والرطب المبكرة ، والبسر الاحمر ، وسنابل القمح الخضراء ، بل كنا فى بعض الاحيان نمضى لنسهر معه فى الغيط ، اذا ما اضطر الى البقاء هناك فى الليل ، ونطارد معه الثعالب والفئران ·

كان تلميذا مجدا وفلاحا ماهرا فى نفس الوقت ·· ذا صوت جميل يغرد به وهو يروى الارض ويرمم البتون والجداول ·· ويحفظ عن ظهر قلب أغانى قريتنا ويتصرف فيها بالتحوير · ويعدل كلماتها كيفما شاء !.

كان آباؤنا يتهمونه بافساد الاطفال ، اذ اعتاد أن يقتطف شواشى الذرة ويجففها ويلفها لندخنها كما يفعل الكبار ، وأن يطارد « شريفة » فى كل مكان ، فقد نضج قلبه ، وتفتح على مشاعر الحب فى تلك السن المبكرة !

أما صالح جلق ·· فهو طفل رقيق الحاشية ·· مهندم الثياب ·· عزيز النفس ، يؤم الكتاب ·· وهو يرتدى جلبابا أفرنجيا ، ويزين رأسه بطاقية مزركشة عليها جمال باركة ، وأخرى تنهض ، وينتعل صندلا أصفر أرسله أبوه من مصر أم الدنيا ·· لا يتقدم فى دراسته كما يتقدم برعى ، بينما بكر ، عفريت ، كثير الشغب ·· الثغ ، تعود أن يتسلق النخيل وأشجار السنط بحثا عن أعشاش العصافير ·· مكثنا طويلا نلصق آذاننا بأعمدة التليفون ونرسل بين الحين والآخر نداءنا الداوى الى ان جاء أوش الله واكتمل جمعنا ··

فانطلقنا مسرعين ، والشمس تحلق فوق بيوتنا المائلة على سفح الجبل ، والمئذنة المطلة خلف بيتنا ، كنا نجرى موهمين انفسنا إننا نمتطى ظهور حمير أسرجناها · كان برعى يسبقنا ثم يتوقف رافع الرأس فى

غطرسة · حتى نكاد نقترب منه ثم يجـرى وهو يرســل عواءه ، يمطه ويشتد به اذا ما دخلنا دروب « السوارذاب » ليلقى الرعب فى صدور أطفاله الذين كانوا يتسابقون مثلنا ، وعلى رأسهم « أحمد البسطاوى » يطلق صياح الديكة ـ الشارة التى اتفقوا عليها لنجعهم ··

وعلى مقربة من سفح الجبل عند الاطراف الشمالية لنجع السوارذاب كان بيت الشيخ طه ، وعلى جانب منه كتـابنا العتيق « مندرة » طويلة وطاقات أربع تتسرب منها أشعة الشمس ·· مسـقوفة بجذوع النخيل والجريد ، فرشت أرضها بالرمل الأصفر الناعم ، فى مقدمتها مصطبة عالية عليها حصيرة خوصية ملونة فوقها وسادة يتكىء عليها الشيخ ونحن نعيد على مسامعه ما حفظنا ، جلوسا على الارض عند قدميه ·

وعند الباب مباشرة اناء ماء تناثرت حوله قطع صـغيرة من الحجارة الجيرية البيضاء ، فقد كنا نحفظ ما على اللوح ثم نمحوه بالماء ونعيد طلاء صفحته بهذا الجير الابيض ونتركه يجف ثم نكتب عليه آيات أخرى ·

وها نحن ندخل الكتاب ، ونصطف جالسين نواجه الجدار ، وقد امسك كل منا باللوح نرتل ما على صفحته من آيات فى همهمات عالية تختلط فيها الكلمات حتى يخيل لك أن خلية نحل تطن فى أذنيك ··

كنا نهتز يمنة ويسرة : بسم الله ، يس والقـرآن ، مرج البحرين يلتقيان · أعوذ بالله ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ·· بسم الله ·· يس ·

وفجأة انطلق صوت العريف ·· هس ·· فسكتنا جميعا ، وشعرنا أن عشرات من الابقار كانت تخور ثم توقفت فجأة عن خوارها الرهيب ·

وطرقع العريف بكرباجه ، ومر به فى مس خفيف على ظهورنا ، فأسـندنا الالواح الى الجدار ·· واستدرنا نواجهه وهو ينتقل بين هذه المجموعة او تلك يملى مسائل الجمع والضرب والقسمة والطرح لنخطها على الرمل ، فيراجعها بنشاط وذكاء ·

ومرة أخرى طرقع العريف بكرباجه فرفعنا عن الارض وجوهنا ، ثم مضينا نردد معا وفى كلمات متكسرة ، مصر العزيزة لى وطن ··· فتنداح أصـواتنا عبر البيوت والاشجار وترن اصـداؤها على الصخرة العالية المعلقة فوق كتف الجبل مباشرة خلف الكتاب وترتد الينا : لى وطن ·· لى وطن فى نغم جميل ·

- وفجأة وبينما نحن هائمون فى النشيد ، ارتفع عند الباب همس

- سيدنا الشيخ ! سيدنا الشيخ !

فنشطت الحلوق سيدنا الشيخ سيد ٠٠ سى ٠٠ سى ٠٠ ثم صمتنا صمت القبور واتجهنا بأبصارنا الى باب صغير يصل ما بين الكتاب وبيت الشيخ فرأيناه ، وهو الرجل الضرير ، يتحسس طريقه بنفسه ويرقى العتبة دون معين الى ان تقدم العريف وخطا به الى منصته العالية ، فخلع مداسه وأسرع أوش الله لينفضه بينما تربع الشيخ على المصطبة وشفتاه مشغولتان بترديد كلمات من القرآن ٠٠ ثم كف عن همهماته وساد الصمت العميق وهو ينادى على برعى ليكرر عليه ماحفظه فى نغم لاهث ٠

ونجا برعى ونهض وتنحى جانبا وهو يرمق البسطاوى بنظرات شامتة متشفية ٠٠ فقد مد المسكين فى الفلكة ٠٠ أما أنا وبكر وأوش الله ٠٠ فقد تلعثمنا كثيرا اذ أخذتنا الرعدة بعد أن سمعنا صرخات البسطاوى وهو يتلوى فى الفلكة كما يتلوى طائر جريح ٠٠ وقد احتجزنا الشيخ فى بيته لنسقى شتلات نخل كنا قد غرسناها له فى فناء بيته ٠٠٠ واختصنى الشيخ بالتقريع وهو يذكرنى بأمنية أبى ، أن اختم القرآن لتقلع الباخرة بى الى الازهر الشريف !

وخبا بريق الطفولة المتشيطنة فى عيوننا ونحن نحتجز ، وأحسسنا بالجوع يملأ نخاع عظامنا بالالم ٠٠ فطفرت الدموع وسالت ونحن نراقب الآخرين وهم يتأهبون للانصراف ٠٠

لقد كان يستبد بى حنين جارف الى نظرات أمى التى تركتها فى الصباح راقدة فى ركنها تئن وتتوجع ٠٠

وأخذنا نتجه فى يأس الى الدلاء ، بيد أننا تلكأنا فى اللحظة الاخيرة نراقب رجلا من النجع الآخر ، ينحنى على الشيخ ويلثم يده ٠٠ ثم يهمس فى أذنه همسات استدعى الشيخ بعدها برعى والبسطاوى وأمرهما فتصايحا على الاطفال الذين كانوا قد خرجوا الى الساحة الممتدة أمام الكتاب ، فعادوا والحيرة مرتسمة فى عيونهم ٠٠

وتجمعنا فى موكب وسرنا خلف الشيخ ، عبر طرقات النجع ، الى نهايته ، الى أن تراءت لنا خيمة كبيرة رصت فيها أسرة وعنجريبات متناثرة تربع عليها الرجال يهمهمون ، ويترحمون ويتكلمون عن مشاغلهم بينما فناجين القهوة السادة ولفافات التبغ الماكينة تدور عليهم ٠

كان مأتم رجل شيع الى قبره منذ أسبوع .

وفى ركن من الخيمة ، وفى نهاية صفين متقابلين من الابراش الخوصية ارتكزت مقاطف كبيرة منبعجة تلمع فيها آلاف من قطع الحصباء : صفراء وحمراء ، بيضاء ومجزعة ، تنتظر أيادينا النحيلة .

وتربعنا جميعنا متقابلين ، وبدأ الشيخ يرتل بصوت منغوم والناس مشغولون عن تلاوته بأحاديثهم .

ـ عند النتوء الشرقى مرت باخرة الافندية .

ـ ولماذا جاءوا

ـ من يدرى ؟..

ـ ألا تعرف ياشيخ ؟.. للتسجيل !

ـ مسكين محمود .. مات قبل أن يرى الطرابيش ..

ـ دنيا ..

ـ رحمة الله عليه ..

ـ ولا رحمة ولا يحزنون ، أنا لا أبكى عليه بل على زوجته وعياله .. مساكين !.

ـ ترزق ... ربنا موجود يا شيخ !

ـ يقولون أن معهم دفاتر لتحصيل الميرى .

ـ الميرى !؟ ومن أين ندفع الميرى ؟ أباطك والشمس ..

ـ كما خلقتنى يا مولاى ..

ويستمر الشيخ فى ترتيله رغم كل شيء ، ويختلط ترتيله بأصواتنا ونحن نردد : لا اله الا الله .. لا اله الا الله .. فقد كنا نؤدى طقوس المرحمة فنلتقط الحصباء قطعة قطعة ونحن نرتل .. ونقذف بها فى سرعة الى مقاطف أخرى فارغة .

كان الشيخ يهتز وتهتز معه قاماتنا الصغيرة ..

وانتهينا والشيخ يقول : صدق الله العظيم ، فأشعل الرجال لفافات التبغ ، وعادوا الى أحاديثهم ، بينما حشرنا نحن فى الركن الآخر ... تحملق عيوننا فى اتجاه الباب ، فقد كنا جياعا تصرخ أمعاؤنا بالالم .

وما هى الا لحظة حتى تهللت أساريرنا فقد أطلت « أناجر » الفتة يتصاعد منها البخار ٠٠ قصاع مليئة عليها قطع كبيرة من اللحم اللذيذ المسلوق ، فتخاطفناه فى هرج ، وعضلات وجوهنا تتقلص مع المضغ ، ونحن نكور اللقمة ساخنة ونلقى بها فى أفواهنا ، نعاجلها بأخرى قبل أن تنتهى ٠

وانتهى المأتم ، وتجمعنا فى موكب خلف الشيخ والرجال ، نحمل المقاطف على رءوسنا ونخترق دروب النجع الى الجبانة البحرية ٠

وتوقفنا والحزن يتملكنا على قبر الفقيد ، ننسق الحصباء على صدره ٠٠ ونروى بأباريق الماء ، صبارا متجهما ينمو عند رأسه ، والرجال وقوف من حولنا ، تتناهى أحاديثهم الى أسماعنا ٠٠ كانوا يتحدثون عن النيل والفيضان ٠٠

واستدار الرجال ليعودوا الى بيوتهم وحقولهم ٠٠ وحسبنا أن الشيخ سيصرفنا ٠٠ الا أنه أصدر أوامره فتبعناه الى الكتاب من جديد !

وهناك ، أمرنا عن طريق العريف أن نجلب الى صومعة الكتاب ، يوما بعد يوم أربع طورات من البلح !

— أسمعتم ؟ ٠٠ كل واحد أربع طورات ؟٠

ثم مد كل واحد منا ساقه فمر عليها العريف بالقلم البوص ، ورسم عليها علامات يجب أن نعود بها يوم السبت ٠٠ والا قام ذلك دليلا على اننا قد نزلنا الى النيل ، ثم يأتى دور الفلكة والكرباج !

فالفيضان الذى ملأ مجرى النيل بأمواجه المتلاطمة ، قد بعث الخوف فى قلوب آبائنا فتوسلوا الى الشيخ أن يحذرنا ، فاهتدى الى هذه الطريقة العجيبة ، علامات بالحبر على سيقاننا يفحصها الشيخ ليتأكد أننا لم ننزل الى النيل وأمواجه الصاخبة ٠

ولكم تحايلنا على هذه العلامات ، وعبثنا فى النيل ، وعدنا بها دون خوف من فلكة الشيخ ٠

وقبل أن تغيب الشمس انصرفنا من الكتاب ٠٠ وعدنا وعلى رأسنا برعى يردد عواءه ٠٠ بينما انطويت أنا على نفسى أفكر فى الطورات الأربعة وفى الطرابيش الحمراء ٠ وبركات أفندى الذى أخذ اسمه يتردد فى قريتنا فى كل يوم على المصاطب وفى الساحات الممتدة أمام دكاكين التجار !

٣

كل شىء كان بهيجا وجميلا فى قريتنا فى تلك الايام ••

فالنيـــل العجوز ، وســـواعد الرجال والنســـاء ، والشمس المشرقة اللافحة قد كسا الغيطان والشواطىء بخضرة يانعة تتخللها مقاطع شتى من الالوان تبعث البهجة والتوثب • ونبات الترمس يتمـــو ويترعرع فوق الجـــروف المبتلة « والكشرنقبق » ينشر خضرته بين سيقان أشجار النخيل•• يزخرفها نوار أحمر وأصفر وأبيض هنا وهناك، وعيـــدان الذرة ، ترتفع وتميس على نغمـــات النسيم ، وتمـــد أصابعها الصـــغيرة تثقلها ، فتنحنى وكأنها تصلى للارض الطيبـــة ، وعلى النخيل

عناقيد بلح تتزاحم كعصائب من المرجان تلف أعناقها •• والنيل العالى تتلاطم أمواجه الحمراء الدسمة ويهدر كأنه حانق على نجعنا وعلى الجزيرة التى كاد يبتلعها ويحطم بيوتها المبنية من الطين •

ولقد تعاون النيل الطامى والشمس الملتهبة فى ارهاق الابدان حتى أصاب الرجال لهاث ·· فسقطوا اعياء · وافترشوا المصاطب حول أشجار النخيل وأستسلموا للنوم بعد أن ملأوا بطونهم بشرائح كبيرة من الحمريد والسبروجة والاتر حريفة بالشطة الحمراء ··· يزدردونها الى جانب قضمات من البصل الاخضر ··

وفى يوم من هذه الايام اللافحة · كنت أتربع على هودية الساقية - تدور بى وأنا أستحث بقرتنا : تنزح المياه فتصبها القواديس الفخارية الحمراء فى الجدول الكبير ، ليستقبلها « حسن المصرى » ويجريها فى هذا الحوض أو ذاك ·· مترنما بألحانه الصعيدية الحزينة التى لم أدرك لها معنى · فقد كان لا يكف عن ارسال مواويله الا ريثما يلف سيجارته أو «يدقنها» على حد تعبيره ، ويرسل دخانها فى حلقات متتابعة متعجلة بين شواشى الذرة ثم يفرك بقاياها بقدمه العارية ، ويعود الى أغانيه يرسلها فى شجو ، وعيناه تتجهان الى الشمال ·

عاش هذا الرجل سنوات طويلة فى قريتنا ·· دون أن يدرى أحد من أين أقبل ولماذا وكيف ومتى يترك النجع ؟· ورغم ذلك فقد رحب به الجميع · على مصاطب بيوتهم وحفلاتهم ·· أحبوا فيه رجلا قويا يصنع ضلوع سواقيهم ويرمم جدران بيوتهم المتشققة ··

وأحب الرجل نجعنا وأطفاله ، وأحبوه هم كأنه واحد منهم ··· كانوا يتطلعون الى وجهه ·· فاذا ما وجدوه مرحا ضاحكا أقبلوا عليه يشاغبونه ويتصايحون به : الاحمر أهوه ·· الاحمر أهوه ! أو يمدون أناملهم الصغيرة الى شاربه الطويل الذى غطى نصف وجهه المائل الى الحمرة ، وقد ارتفع طرفاه المدببان الى عينيه الحادتين ، يعلوهما حاجب كث وجبهة عريضة تشير تجاعيدها القليلة الى الخامسة والثلاثين ··

وذات مرة فى يوم عيد تجمع الاطفال حوله بملابسهم الزاهية يريدون مشاغبته ·· الا انهم ابتعدوا عنه بسرعة ·· اذ بدا لهم فى جلسته الحزينة ، وقد اعتمد ذقنه على مقبض العصا ، شاخصا بعينيه الحادتين فى اتجاه الشمال مهموما مربد الوجه ، قاسيا يثير الرعب فى قلوبهم الصغيرة ·

ابتعدوا عنه بينما أطرق هو الى الارض ·· يفكر فى قريته البعيدة ·· ويجتر ذكريات أعياد قضاها فى « الكلح » الى شمال أسوان ···

فاستبد به حنين جارف كسا ملامحه بتعبيرات كالحة هزت كيانه ، ونأت به عن العيد ومباهجه وعن التحطيب الذى علمه لبعض شباب النجع ٠

لكن جلسته الحزينة الى الجدار لم تطل ٠٠ فقد هب على قدميه ومضى بخطوات متثاقلة الى أبى أمام المتجر وانتصب أمامه بقامته المديدة ٠ ثم تنحنح حتى رفع أبى رأسه وحرك عينيه فى دهشة متسائلة ، فعاجله حسن المصرى بكلمات مختنقة ٠

ــ ياشيخ أمين ، لو تكرمت نسوى حسابنا ! وعجب أبى من كلماته وحسبه يحكى نادرة من نوادره فقهقه عاليا وقال ، بينما يده تشد « حسن المصرى » من جلبابه الى المصطبة :

ــ حساب ! ليس بين الخيرين حساب يا حسن ٠ تعال يا رجل ٠٠ وصمت الرجل ٠٠ فاستطرد أبى يقول :

ــ ولماذا نتحاسب ٠٠ الدكانة دكانتك والغيط غيطك !

وفتح الرجل فاه ليقول شيئا الا أن أبى استرسل :

ــ وأولادى هم أولادك يا حسن ٠٠ أم أن ٠٠ وتردد ، والرجل يحملق فيه ثم أضاف ٠

ــ أم ان شيئا ينقصك ؟!

وتلفت نحو باب البيت على مسافة مترين ونادى :

ــ « بطة » بنت يا بطة ٠٠ هاتى شايا لعمك المصرى ٠

وعاد يتفرس فى وجه « حسن المصرى » ٠٠ فوجده ما يزال مربدا فسأل :

ــ مالك ؟! أمريض أنت يا أخى ؟ اجلس ٠

فبلع ريقه وقال فى صوت دامع : كلا ٠٠ الحمد لله ٠٠ لكن مصير الغريب « يردع » لبلده !

فلم يصدق أبى أذنيه فانشغل باصلاح عمته وغمغم لنفسه : بلده ! أى بلد هذا الذى يتحدث عنه ؟ ثم ارتفع بصوته :

ــ يا سلام يا حسن ! أكرهت مقامك بيننا يا رجل ؟! يبدو انك قد كرهت مقامك بيننا يا حسن !؟

وبصق على الارض وكأنما يستهجن شيئا وأضاف ٠

ـ أغضبت من أحد ، أم لعله الحنين الى تراب بلدك ؟٠٠ لا ياحسن ٠٠ اننا لم نشبع منك بعد ٠

وقدم له سيجارة ماكينة وهو يواصل حديثه :

ـ ولماذا أنت حـزين فى العيـد ؟ فرفش يا عم ! يمكنك أن ترجع لبلدك ٠٠ لكن بعد العيد ، يا بنت يابطة ٠ أين الشاى ٠٠ يا بنت الايه ٠٠ تفضل يا حسن ٠٠ اجلس ٠٠ اجلس ٠٠ قعمز يا سيدى قعمز ٠٠

وقطب أبى جبينه وفكر برهة ثم سأل :

ـ وبالمناسبة يا حسن ٠ أين بلدك ٠٠ ومن هم الذين ٠٠

وأربد وجه الرجل٠٠ واعتصره حزن شديد أخذ يغالبه، وتصاعدت الكلمات الى حلقه شيئا فشيئا ، كأن فى اعماقه سرا دفينا ٠ كأن يريد أن يشكو لو وجد أذنا صاغية ٠

وتهاوى فجأة على المصطبة ، وأصابعه تتشنج على مقبض عصاه ، ثم رفع فنجان الشاى الى شـفتيه ، وأخذ يحتسيه فى اللحظة التى بدأ يتكلم فيها ٠

ـ فى « الكلح » عرف فتاة خمرية ٠ غرق فى حبها لشوشته ٠٠٠ وتلاقيا وتعاهدا على الزواج ، وراح يعد نفسه لحياة آمنة هادئة ٠٠٠ ثم تقدم لأهلها ٠٠ فاذا بهم يحقرون من شأنه هو العامل ! عامل لا يساوى شروى نقير ٠٠ هكذا قالوا ٠٠

ولمح الاصرار فى عين فتاته فازداد حبه لها ، الا أن الايام كرت وهو لا يستطيع لقاءها ٠٠ ثم كانت الكارثة ٠٠ تزوجت الفتاة من ابن عمها ، جن جنونه ومضى يطوف ببيتها ويتلصص خلال الكوى وخصائص النوافذ الخشبية ٠٠ حتى رآها مرة ترتمى فى غنج ـ نصف عارية ـ فى أحضان زوجها الجلف ، فنفرت عروق رقبته ٠ وبدأ يسمع نبضات قلبه خلف أذنه طبولا داوية تدق وتدفعه دفعا فاقتحم الباب وأطل فوقهما والشرر يتطاير من عينيه ٠

ثم ارتفعت يده القوية ببلطة صغيرة أهوى بهـا على رأس الزوج ففصله ، وانكفأ عليها يطعن ، الا أن صرختها الدواية حفزته الى النجاة ، فولى هاربا ، وقد ترك بين يديها لبدته الصفراء ٠

ثم بدأت مطاردة اهل القتيل والبوليس ، وبدأ طوافه فى ادغال القصب حتى ضاق الخناق عليه فهرب الى الجنوب وهو يأمل العودة الى زينب في يوم قريب ، وساقته قدماه الى اسوان ، فعمل فى تعلية الخزان حتى حامت الشبهات حوله فركب الباخرة خلسة الى القرى النوبية ٠٠ ثم هذا النجع يحتمى فيه ٠٠

وأجهش فى بكاء مرير ، وأبى يربت على كتفه وصوته المختنق مازال يقول :

ـ لكن مصير الغريب يا شيخ امين يردع لبلده ٠٠

وربت ابى على كتفه ٠٠ وهتف :

ـ لكنهم يا مجنون ٠٠ ينتظرونك هناك ، حبل المشنقة ٠٠ ينتظرك ٠٠

ثم أشار بيده وكأنما يبعد خاطرة بدت له وأضاف :

ـ وأهل القتيل !

ـ لا أخشى حبل المشنقة ٠٠ ولكن زينب ٠

ـ هوه هوه ؟ تزوجت ٠٠ لابد انها تزوجت ٠٠ اولى بك ان تعيش هنا حتى توافيك اخبارها ٠

ـ وكيف ؟

وبدأ أبى عاجزا عن الاجابة ، فأطرق برأسه ثم قدم له سيجارة أخرى اشعلها ٠٠ واخذ يرسل دخانها فى حلقات تحوم فوق رأسه ٠٠ ولانت مع نفثات الدخان عضلات وجهه ، وانطفأ البريق القاسى فى عينيه واسترخى على المصطبة ٠٠ وبدا واضحا أن نزوة « الردوع » الى بلده قد فارقته الى حين ! فقد عاينته ساكنا هادئا بعد أن انتهى من قصته ،يرتشف الشاى الثقيل فى نهم ٠

زال من قلبه اى حماس يدفعه الى التفكير فى العودة ، أو تمثل السجن والمشنقة ٠٠ فوازن بين حياة القرية النائية المؤلمة ، وبين القبر المظلم البارد فى سجن قنا فقرر البقاء بعيدا عن الصعيد وادغاله ومطارداته التى لا تنتهى ٠

وكثيرا ما كان حسن المصرى يتداعى ويخلد الى الصمت ، فلا يبارح

الشونة لينطلق بعد ذلك يضحك ويرسل اغانيه الشجية ، وناظراه يتجهان الى الشمال !

وفي ذلك اليوم القائظ ، والقيلولة تشوى الابدان لم يكن عند الشاطىء غيره ، يتلقى مياه الجدول الكبير فى احواض الذرة النامية ، وغيرى انا متربعا على هودية الساقية اتأمل ظهر بقرتنا وهى تدور فى صمت ·· وأفكر فى النيل ، تلطم امواجه الشاطىء فى قوة ثم تعود الى شاطىء الجزيرة الغارقة لشوشتها ، البادية كباقة خضراء القاها سكير فى أليم ·

ولم يكن على شاطىء الجزيرة الا برعى وقد تعلق بذراع شادوف ينحنى ويقوم معه ·· والا بعض الاطفال عرايا « يبلبطون » فى الماء ··

ومع كل دورة وأخرى للبقرة ، ومع القواديس الفخارية الحمراء ·· تصب الماء فى الجدول الكبير ·· ومع هدير تروس الساقية وحفيف النخيل · ووشوشة وريقات اللوبيا والترمس «وزمتة» القيلولة ولطمات الموج ، كان صوت حسن المصرى ينسكب فى أذنى ·· بينما عيناى تجولان هنا وهناك لتلتقى مع الظل فوق الصخرة المعلقة على كتف الجبل ، والتى اتخذناها ساعة تحدد مواعيد عملنا ، ولنلتقى عند الافق بسفينة ثلاثية الشراع · سوداء ضخمة تقترب من المنحنى الشمالى ، غاطسة فى النيل الى غور ·· تغالب الموج وتصعد الى الجنوب ·· نفس السفينة التى تفد الى شواطئنا فى كل عام ·· تحمل الفرحة الى قلوبنا نحن الصغار ·

فيما بعد الجزيرة الخضراء ــ الى الغرب ــ عبر النيل كان « كران نوج » ·· الاثر الرومانى القديم يربض بقممه الشامخة على الصحراء ، تمتد الى ثلاثين ميلا ما بين قريتى « عافية » ·· و «عنيبة» بمحاذاة قريتينا قتة وابريم ··

هذه الصحراء كانت رهيبة تملأ قلوبنا نحن الاطفال بالرعب ·· فالقصر مسكون كما تحكى جداتنا ·· يغشى الهلع نفوسنا حين نرى رجلا يسير الهوينى على دابته عبر الصحراء ، امام القصر المباشر ·· فنبسمل خشية أن تخرج العفاريت اليه لتنتزعه هو ودابته الى داخل القصر فلا يعود الى ذويه !

وعلى الشاطىء الغربى ــ أمام القصر ــ بمحاذاة الشمندورة الحمراء ·· كنا نراقب وفرائصنا ترتعد ذئابا تعوى وثعالب بلون الرمل تجرجر ذيولها حول القصر ، وضباعا تستدير حول نفسها ، وتماسيح تربض فى

المغارات السوداء على الجرف ، تماسيح تنهش الابقار والاطفال وتحملهم الى المغارات تتركهم هناك حتى تتعفن الاجساد فتزدردها لتعربد بعد ذلك بين الشاطئين ٠

وفجأة ، وأنا أمد بصرى الى الشاطىء المقابل ، تسمرت عيناى على الماء وهو ينشق عن جسم هائل يخترقه من الغرب الى الشرق ، حتى وصل فى سرعة البرق الى « الموردة » الملاصقة للساقية ، ولطم الفلوكة لطمة كادت تقلبها٠٠ لطمة أثارت موجة عالية من الماء ورذاذا تساقط على يدى، ثم استدار دون تمهل فى حركة لولبية الى وسط النيل يشقه تماما مثل محركات البواخر ٠٠ فارتعدت فرائصى لمرأى التمساح ، وكدت أقفز من الهودية هاربا بجلدى ، تاركا بقرتنا تدور وتدور حولها فى الساقية ٠٠ الا ان اختفاء التمساح وصوت حسن المصرى سكبا فى قلبى هدوءا أخذت أستعيده لحظة بعد لحظة ٠٠ وأنا أتلفت هنا وهناك ، تكاد عيناى لاتستقران على شىء !

ومن الناحية الشرقية ، فى الطريق العام ، لاحت فتاة أخذت تتحرك ببطء وعلى رأسها « كوبيه » نحاسى (وعاء كبير يستخدم كالجرة) تتوهج الشمس عليه وتنعكس منه أضواء باهتة صفراء على وجهها الأسمر ذى التقاطيع النوبية وأخذت احدق البصر لأميزها ، غير أنها اختفت فجأة على مسافة قريبة من ساقيتنا ٠ بين عيدان الذرة ، وفى نفس الوقت سكت حسن المصرى عن ترديد اغنيته ٠

وتملكنى الفضول فأخذت أرنو ببصرى فى اتجاه الفتاه ، افتش عنها هنا وهناك الى أن وجدتها تنحنى بين عيدان الذرة ، وقد تعرت ساقاها ، تلتقط بعض الحشائش والعيدان ٠٠ ومن خلفها حسن المصرى يقترب فى هدوء وحذر ٠٠ بينما انا أمعن النظر فيهما ، فى الفتاة المنحنية لاتبالى بشىء مما يدور حولها ، وفى الرجل المتسلل اليها ٠

وقفز قلبى فجأة ، فقد رأيته ينكب على الفتاة ويحيطها بكلتا يديه، ويمد يمناه الى خاصرتها ويجذبها اليه وهى تقاوم فى عناد ٠٠

ومد الرجل يسراه وقبض على فخذها ، وقد كمم فمها بيده اليمنى ثم انكفآ على الارض ، وتدحرجا فوق عيدان الذرة التى تكسرت تحت ثقلهما ٠٠ وبدت الفتاة ضائعة ، الا أنها تمكنت منه ودفعته دفعة كفأته على وجهه ٠٠ ثم استوت على قدميها وهرولت الى الطريق العام ، وهى تنفض ترابا

علق بجلبابها وشعرها ثم حملت « الكوبيه » واتجهت الى الشاطىء وهى تتلفت خلفها ، وتضم ثيابها التى تمزقت عند صدرها وتتحسس فخذها.

ولبث حسن المصرى لحظة يتتبعها بعينيه صامتا حتى توارت عن ناظريه ، ثم عاد الى غنائه وكأن شيئا لم يحدث .

لحظة خاطفة تم فيها كل شيء ، وفى سرعة أذهلتنى .. وتبدى لى حسن المصرى شخصية جديدة ، فلقد شهدته يصلى ويبكى ويحمل الاثقال ويرمم الجدران ويتسلق اشجار النخل ليجنى لنا نحن الصغار رطبا جنيا مبكرة .. فاذا به اليوم يبدو رجلا قاسيا .. وتذكرت هنا قصته مع زينب فى الكلح ، واصابتنى رعشة الا اننى ادركت ادراكا غريزيا ان ما يحدث يجب الا يذاع ، اذ كنت احب الرجل واتعلق به منذ اربعة اعوام .. منذ كنت فى الرابعة من عمرى .

***

وها هى الفتاة تقبل على « الموردة » فى خطى لاهثة .. تتلفت الى الوراء خشية ان يلحق بها الرجل ، وهالنى الامر فانها « شريفة » صديقة كل أطفال النجع ، فتاة فى سن برعى دولحظ .. ممتلئة القوام ، بديعة القسمات سمراء ، واسعة العينين تتهدل ضفائرها على كتفيها من تحت طرحتها الخفيفة السوداء .. متوسطة الطول . خفيفة الحركة مثل الفراشات ، يتيمة ، تعيش مع أمها « دارياسكينة » .

توقفت عند الشاطىء ، وهى تلهث ، ثم انحنت بعد أن استدارت قليلا لتلقى نظرة على الطريق .. وطفقت تغمس « الكوبيه » النحاسى الأصفر فى الماء .

واختلط صوت ارتطام الوعاء بالماء ، بصوت حسن المصرى وهو يسكب الحانه ، بينما انشغلت من جديد بالبقرة ودورانها وحركة القواديس والموج وهو يعلو ويهبط ، والتيار المندفع بلونه الداكن الحمرة الى الشمال ، والمراكب الشراعية وهى تشق طريقها فى جهد ، وبرعى وهو يجهد نفسه مع الشادوف على شاطىء الجزيرة ، والقصر الاثرى والرياح تنفذ من قممه المتثلمة ، ومن حوله رمال سافية تدور فى اتجاه الريح ..

وفجأة ارتفع صوت نسائى حاد يخترق طبلة أذنى ، وينتشلنى من تأملاتى الصغيرة فى استغاثة باكية .

وحانت منى التفاتة الى موضع شريفة فلم أجدها !! فقفــزت من مكاني وجريت الى الشاطىء والصراخ يعلو ويندفع بعيدا • بينما الرجال على مصاطب النخل يفركون عيونهم ، وحسن المصرى يجرى على الطريق العام مندفعا كالسهم •

وأدركت بعد لحظة معنى تلك الاستغاثة •• فقد كانت الامواج العالية تبتلع شريفة بينما طرحتها تعوم فى مكان غير بعيد من « الموردة » •

وتغلب رجـــلان على اضطرابهما ، رصاحا بالرجال النـائمين على المصاطب • ثم اتجها الى الفلوكة واندفعا بها فى النيل •• الا أن حســن المصرى كان أسرع منهما ، اذ خلع جلبابه والقى بنفسه الى التيار ، يحمله بسرعة الى أن حاذى شريفة •• فاذا بها تغوص للمرة الثالثة !

المرة الثالثة ! نهائية وحاسمة ، اقدر للنيل اذن أن يطوى بين ذراعيه نوارة النجع وابتسامتها المشرقة !؟ ابنة داريا سكينة ، حبيبة برعى دولحظ، والتى مزق حسن المصرى جلبابها تماما فوق الصدر منذ حين قصير ، بين عيدان الذرة فى حقلنا •

أخذت أفكارى تلهث بى وأنا اجرى على الشاطىء ، ثم توقفت افكارى حين لمحت برعى هنالك على جرف الجزيرة يترك الشادوف ويلقى بنفسه بين احضان النيل الهائج المائج وترددت أنا لحظة ثم ألقيت بنفسى تحملنى الامواج الى حيث تغوص شريفة وتموت ، واخذت العن نفسى على ترددى ، ولا أدرى ما الذى كنت سأفعله اذا ما بلغت موضع شريفة ، بجســدى الصغير ، ولكن « برعى دولحظ » زعيم النجع قد ألقى بنفسه فى النيـــل لانقاذ نوارة النجع •• النوارة التى نحبها جميعا •

وتذكرت التمساح بينما التيار يندفع بى الى الشمال ، فتيبست مفاصلى ولم تعد قدماى تحركان الماء حتى كدت أغوص ، بيد أن التيار كان قد حملنى بسرعة حتى حاذيت الفلوكة ، فمد أحد الرجلين يده وانتشلنى على ظهرها ثم أخذا يجدفان بقوة ليبلغا الموضع الذى رأيا شريفة تغـوص عنده ••

ولكن أين شريفة الآن ؟

سرحت ببصرى الى الشمال •• فرأيت برعى والتيار يجرفه حتى غلب على أمره •• فأسلم نفسه للتيار يحمله أنى شاء •

وهناك قريبا من الشاطىء الشرقى ، فى مواجهة نتوء من الارض

يمتد داخل النيل ، كان حسن المصرى ينتشل نفســـه من النيل ويجذب وراءه كومه سوداء !! وحدقت فى الكومه ·· اهى شريفه ؟ ·· ربما ·· فذلك هو جلبابها الاحمر بنقطه البيضاء المستديرة ·· المرة الثالثة ! ·· آخر مرة ·· أتراها ماتت مخنوقة فى النيل ؟

واتجهت فلوكتنا الى برعى وانتشلته ·· وما ان استوى على الفلوكة واسترد انفاسه حتى اتجه الينا يسأل ·

ــ ما الذى جرى ؟

ورد عليه احد الرجلين :

ــ اهدأ الآن وسترى ·· صبرك بالله ··

ــ أماتت ؟

وأردف فى لهفة قبل أن يجيب عليه أحد

ــ ومن هى ؟

ثم أشـــار الى فلم أجب ·· شىء غريزى دفعنى الى عدم الافضاء بالسر ·· أأقول له ان شريفة ماتت ؟ ولما لم يجد منى جوابا اتجـــه الى الآخرين ببصره وقال فى توسل :

ــ رأيتموها ؟

وواجهاه بصمت مطبق فأردف :

ــ أهى ··

وقاطعه أحد الرجلين بحدة : سبحان الله ياولد ! لماذا تتعب نفسك؟ لا أحد يعرف ، لكنها من نساء نجعنا ·· لعنة الله عليها ·

واضاف الآخر ·

ــ نساء ناقصات عقل ودين ·· العفاريت تنام فى مثل هذه القيلولة ·· العفاريت ··

وحدق الآخر فى وجهى وقال وكأنه تذكر أبى ·

ــ والشيخ أمين هو السبب ·· لو أصلح الموردة ·· لما زلت قدمها·

فقلت فى حدة :

ـ والموردة مالها ٠٠

فانبرى برعى يصرخ فى وجهى :

ـ لو كانت سليمة مبطنة بجذع نخل لما تآكلت ولما انزلقت المسكينة الى التيار ٠٠

وفى هذا الوقت ، كان جمع من الناس ٠٠ قد ازدحموا على شاطىء الجزيرة وعلى النتوء الممتد الى النيل ٠٠ بينما السفينة الشراعية الكبيرة ذات القلوع الثلاثة تتوسط الطريق بين ساقيتنا والمنحنى الشـــمالى ، وعليها رجال سمر يتجهون بعيونهم الى النتوء وايديهم ممسكة بالسكان والشاغول ٠٠ وبحبال متينة من الليف والتيل ٠٠ يلقونها على بكرة عالية ٠٠ وشغلنى منظر السفينة عن النتوء وعن الرجال والنساء الذين تجمعوا هناك ٠ بل كنت فى حقيقة الامر امعن النظر فى السفينة حتى لا تتلاقى عيناى ببرعى ٠ فيفهم من حيرتى وارتباكى كل شىء ٠ كنت وحدى اعرف الحقيقة ٠٠ فماذا أقول له لو سألنى ! أأكذب عليه وأختلق له اسما آخر ٠٠ غير اسم شريفة ؟ لم نكن قد تعودنا بعد أن نتبادل الاكاذيب حتى ولو كانت بيضاء ! ٠٠

انه يكبرنى ٠٠ ولكنه فى نفس الوقت يصغر الرجال ٠٠ وليس مسموحا لمن فى سننا توجيه الاسئلة الى كبارنا ٠٠ ولذلك أخـذ برعى يصب أسئلته على رأسى أنا ، على واحدا منهما يتفضل بالاجابة ٠ ولكنهما كانا لا يعلمان شيئا ٠ أنا وحدى كنت أعرف القصة كلها ، وتمنيت لو استطعت أن أقول له :

ـ محبوبتك شريفة زلت قدمها عند الموردة ٠

فيطلق صرخة مرعبة ثم يسأل :

ـ أماتت ؟

ـ كلا ٠٠ مازالت تعيش ٠٠

تمنيت أن أقول له ذلك : لكنى وجدتنى اسبح مع أفكارى هـــذه وأنا أشيح بوجهى عن برعى ٠٠ وأحدق فى الأمواج ٠٠ وأحسست بحزن شديد ٠٠ ومن يدرينى انها لم تمت بعد ٠٠ من يدرينى ؟ مسكين أنت يا برعى ٠٠ والمسكينة الاخرى هى داريا سكينة ٠٠ أم شريفة ٠

فشريفة وحدها تؤنس وحدة أمها الأرملة الشابة التى لم يعد لها

في الوجود غير ابن اضطر ان يهاجر الى مصر أم الدنيا ليعمل هناك ٠٠ ولكن سنة كاملة مضت دون أن يكلف نفسه عناء ارسال خطاب واحد شأن كل المهاجرين ٠

« داريا سكينة » المسكينة تعيش فى النجع على محصول بضعة نخلات والعمل فى البيوت ٠ تطحن وتغسل وتغربل وتعجن ٠٠ وتربى فى بيتها المتهدم بعض الدواجن والحملان ٠ أما القيرطان اللذان تملكهما فقد رهنتهما عند أبى وفاء لبعض ديونها ٠٠ غلبانة ٠٠ أنها ستحرم حتى من ابنتها ٠٠ سنحرم منها نحن جميعا ٠٠ داريا ستجن ٠٠ وتقتل نفسها من الحزن ٠٠ ستذرف الدموع وتصبغ وجهها بالنيلة ٠٠ كما فعلت أمى حين مات أبوها ٠

واشتد قلقى على الأم ٠٠ وانشغلت بالتفكير فيها عن برعى وأسئلته ٠٠ فكف عن ملاحقتى ٠٠ وانتصب على مقدمة الفلوكة يمد بصره الى النتوء الشرقى يستكشف ما يدور هناك ٠٠ الا أن التجمع الصغير من الرجال والنساء كان يحجب كل شيء عن ناظريه فتنهد وضرب كفا بكف ، بينما الرجلان صامتان يضربان الماء بمجدافيهما ٠٠ ، ويسرعان بالفلوكة الى النتوء الشرقى ٠٠ ولا يهمسان أو يقطعان صمتهما الا بكلمات مقتضبة ٠

ــ دنيا !

فيبتلع الآخر ريقه ، ويبصق فى راحة يده ويقول وكأنه يردد قطعة من المحفوظات :

ــ غرورة !

ويمصمص الاول بشفتيه ، ويطرقع بلسانه ويضرب الماء بقوة وقد برزت عروق رقبته ويردد لاهثا :

ــ لا اله الا الله ٠

ــ لا حول ولا قوة الا بالله ٠٠

وأرسلت الفلوكة أنينا خافتا ٠٠ وهى تجنح الى الشاطىء عند النتوء الشرقى ، فقفزنا جميعا الى الارض ٠٠ وفى سرعة كنا عند التجمع الصغير ٠٠ رجالا ونساء يستديرون بالكومة السوداء التى لم استطع تبينها من خلال قاماتهم الطويلة ٠٠ فأخذت أتنقل من رجل الى آخر ، حتى وجد برعى ثغرة يطل منها فأسرعت اليه ، نتلصص معا الى داخل الحلقة ،

وأصـــابنى رعب شديد وتقزز حين رأيت شريفة ملقـــاة على الأرض وقد التصقت ضفائرها بجبينها الملطخ بالوحل ٠٠ وتذكرت المعركة التى دارت بينها وبين حسن المصرى حين رأيت نهدها يبرز من خلال جلبابها الممزق على الصدر ٠

والتفت برعى الى وفى عينيه بريق خاطف وسأل :

ـ من ؟ شريفة بنت « داريا سكينة » ٠٠

ولكن أحدا لم يجب ٠٠ فانسحب بعيدا وقد غطى عينيه براحتيه حتى لا يرى حبيبته ملطخة بالطين عارية النهد ٠٠

كان رجلان عجوزان ينكفئان على جســدها الصغير يجســان بدنها ويتناوبان تدليك صدرها ٠٠ وهى ماتزال جثة هامدة ٠٠ حتى اقبـــل عم محمود حلاق الصحة والقى نظرة عليها ثم أمر :

ـ ابعدوا ٠٠ اتركوها تتنفس ٠٠

فاتسعت الدائرة ، وركع هو على ركبتيه بينما تنحى العجوزان ثم أمسك بها من قدميها ٠٠ ورفعها فى الهواء حتى بان فخذاها ، وفغرت فاها ٠٠ فاندلق الماء غزيرا من جوفها الى الارض تحت اقدام الرجل ٠٠

كان منظر برعى فى هذه اللحظة مشهد انسان ماتت أمه أمام عينيه ٠ دموع تسيل على خديه ، وعينـــان تتقدان ، ووجه مطرق الى الارض ٠٠ وقدمان ملطختان تتحركان به هنا وهناك ٠

كل أطفال النجع كانوا يعرفون حبه لشريفة ٠٠ لكم بطش بأطفال « نجع السوارده » اذا ما تغنى احدهم باسمها ٠٠ أنا بنفسى سمعته مرة يهدد ويثور لانه سمع أحد النوتية يتغنى باسمها على نقرات دف ٠٠ كان يريد اسمها وقفا على لسانه فهى له ٠٠ ولن ينزعهـــا منه احد ٠٠ لـــكن ها هو الموت !

ولم يستطع برعى ان يتحمل الصدمة ٠٠ فانزوى بعيدا على جذع ميت ينبش الارض بقدميه ٠٠ وينهض من مكانه بين الحين والاخر ليقترب من الحلقة ٠٠ ويلقى نظرة محمومة ٠٠ ثم ينأى بنفسه فى سرعة ٠٠ ليعود الى مجلسه القديم ٠٠ وشفتاه تتمتمان بدعاء غير مسموع ٠٠ بينما محمود الحلاق قد أعاد شريفة الى الارض وأخذ يدلك صدرها وراحـــة يدها ٠٠ وتجرأ أحد الواقفين وسأل ٠

ـ ترى هل تعيش ؟

ـ غوروا من وجهها وسوف تعيش ·· باذن الله سـوف تعيش ··

ولامر لا أدريه شعرت بالارتياح ·· وانا استمع الى كلمات الرجل وأطالع صفحة وجهه ·· فقد أوحت كلماته بالثقة ·· كما بدت حركات يديه على صدر الفتاة مريحة تبعث الحياة فى جسدها الممدد على التراب ·

ثم توقف الرجل فجأة وقال :

ـ الحمد لله ·

فتفتح الامل فى قلوبنا جميعا ·· بينما مضى هو يقول :

ـ البنت تتنفس ولكنها متعبة من الماء الذى ملأ بطنها ··

وتلفت وهو يصرخ :

ـ هاتوا ملاءة من اى مكان ··

فقفز برعى على قدميه ·· وأسرع عبر النخيل واختفى عن أنظارنا ثم عاد بعد ساعة من الزمن · وفى صحبته داريا سـكينة تحمل ملاءة بيضاء متسخة ·

كانت داريا تصرخ وتلطم خديها وتشد شـعرها ·· فرق قلبى لمنظرها وذرفت دمعتين وانا اراقبها وهى تنتفض بشدة ·

كانت فى الثامنة والثلاثين ·· ما تزال شابة تجرجر جلبابها الاسود الطويل ·· وتلف راسها بطرحة سوداء تمزقت أطرافها ·· يرتسم فى عينيها وعلى جبينها حزن شديد ··

وانحنت المسكينة على ابنتها وهى تعول وتصرخ :

شريفة ! بنتى ! والهفى عليك يابنتى !

وجالت بناظريها فى الحاضرين الماثلين فى حزن ثم صرخت :

ـ يالى من مسكينة · أبوك مات ·· اتودين الذهاب اليه ··

أهو شرير حتى يدعوك الى جواره وانت عروس ·· واخوك جمـال سافر ولم يعد ·· يا الهى ·· يالى ··

وحاول البعض أن يمسك بها ليبعدها لكنها ثارت كالهرة البرية المتوحشة ، وانكفأت على ابنتها تقبلها فى كل مكان ·

ـ بنتى ٠٠ ردى عليه ٠٠ أنا أمك ٠٠ أنا داريا ٠٠ مالك لا تردين ٠٠ لايمكن أن تكون السماء ٠٠ ماذا سأقول لجمال ٠٠ انا الغلطانة ٠٠ تركتك تنزلين الى النيل فى هذا اليوم الهائج ٠٠ شريفة ٠٠ ردى عليا ٠

ثم انعطفت فجأة الى الرجال وصرخت فى وجوههم :

ـ وأنتم ٠٠ الا تملكون شيئا من اجلى ٠٠ خدمتكم جميعا ٠٠ أنا اختكم ٠٠ سأجن ياناس حرام عليكم ٠٠ اعملوا معروف فى ولية غلبانة ٠٠ شريفة بنتكم ٠٠ اختكم ياهوه ٠٠ مالكم لاتتحركون ؟!

وانكفأت من جديد تقبل ابنتها ٠٠ والشيخ محمود يحاول انتزاعها ٠٠ لكنها ناضلت فى عناد حتى لاتترك ابنتها ٠٠ كانت تهذى وتدق بيدها على صدرها وترسل آهات تعقبها تنهدات تغوص فى قلوب الناس فيبكون ٠٠ وفجأة رأينا على ثغرها ابتسامة واهنة ٠٠ فان شريفة كانت تحدق فى وجه أمها تحاول ان تقول شيئا ٠

وترددت على الشاطىء زغرودة طويلة ٠٠ وتنفس الناس الصعداء ٠٠ وراحت الام تمسح على شعر ابنتها وعلى صدرها ٠٠ وهنا فقط تنبهت لحال ابنتها وللعيون التى تحدق فى جسدها ، وجلبابها الممزق فوق صدرها ، فانبرت تقول :

ـ ابعدوا من هنا ٠٠ لماذا تقفون هكذا ؟ ٠٠ أنجاس اولاد انجاس ٠٠ الا ترون ابنتى عارية ؟

وألقت بالملاءة على شريفة ٠ ومضت تنوش الرجال بيديها ولم تسمح الا لبرعى والشيخ محمود بالاقتراب منها ، فحملاها الى حظيرة عبد الله الجزار ٠

كنت خلال هذه الاحداث قد نسيت حسن المصرى ، فلم يكن احد يفكر فيه ٠٠ اليس غريبا هنا ؟ لقد انتشل شريفة وانقذ حياتها ، ولو ٠٠ فان هذا هو ما يجب أن يقوم به من كان مثله ٠٠

وتلفت حولى أبحث عنه ، فوجدته على كومة من السباخ ٠٠ يرسل نظراته الى التجمع الصغير والى الحظيرة ، مبتل الملابس منتفش الشارب٠

ولربما كانت شريفة هى مدار تفكيره فى تلك اللحظة ٠٠ شريفة التى قاومته ثم ألقاها القدر بين يديه بجسدها الناعم ٠٠ فحملها الى بر النجاة ٠

وارتفع صوت المؤذن بالعصر من مئذنة الجامع خلف بيتنا ، ومع صوته خرجت شريفة من الحظيرة ، تستند على ذراعى أمها وعلى كتف برعى ، فبدأوا ينصرفون ..

وسارت شريفة خطوات حتى حاذت حسن المصرى الذى ظل متربعا على كوم السباخ يراقبها وهى تتعثر فى خطاها ، ملفوفة فى الملاءة البيضاء وتلاقت عيناها بوجهه ، واستقرتا عليه برهة وشفتاها تتمتمان بشىء أدركت منه داريا سكينه ، أن حسن المصرى هو الذى أنقذ وحيدتها من الموت ، فاندفعت اليه تشكره ، فى كلمات عربية متكسرة ، تختلط بها كلمات نوبية كثيرة ، اعتاد الرجل أن يفهمها من فرط ما سمعها فى قريتنا منذ مقامه بها ..

وتبسم الرجل ، ثم قام واتجه الى الساقية .. كانت البقرةالمسكينة ما تزال تدور ، والقواديس ما تزال تصب الماء فى الجدول الكبير ، الا أن هذا الجدول كان قد قطع فسال منه الماء حتى كون بركة فى أرض عبدالله الجزار ، فى القيراطين المنطرحين خلف الجدول ، غائرين عن الاراضى المرتفعة حولهما ..

وارتقى الرجل الى الساقية ، وأوقف البقرة عن دورانها ، وتناول فأسا ومقطفا ، ومضى الى الجدول يرممه ، فاندفع الرجال اليه يعاونونه ، بينما وقفت أنا على الشاطىء بعيدا عن الموردة التى تآكلت ، انظر فى غضب الى النيل وكأننى الومه على فعلته المنكرة ..

كانت امواجه ما تزال تهدر وكأنها تتحدانى ، فأخذت أسائل نفسى :

ترى من أين يأتى النيل ، والى أين ؟ ولماذا يتجه دائما الى الشمال! ولماذا لا يعود مرة واحدة الى الجنوب ؟! وقلت لنفسى : ربما يعود فى يوم من الايام ..

سمعت احدهم يقول ان النيل ينتهى عند الشيخ « شبيكة » بعد المنحنى الشمالى فانبرى له أحمد عودة ــ خالى ــ يقهقه ساخرا ويؤكد أن النيل لا ينتهى هناك ، بل هو لا ينتهى أبدا ! انه يمضى بعيدا بحيث لا تدرك العين منتهاه !!

واقتربت السفينة الشراعية من ساقيتنا ، وأنا غارق فى أفكارى ، وألقت ظلال أشرعتها طويلة على صفحة الماء ، ومعها ظل ملاح أسمر .

كانت تجرجر نفسها فى بطء • كانت سفينة كبيرة سوداء ، محملة بعشرات الصناديق ، غاطسة فى الماء حتى لا يبين منها غير مقدمتها والا زيق ضيق من الخشب المطلى بالقار ، ينسـجم مع لونه دخان ضـئيل أخذ يرتفع من داخل السفينة ، من كانون زوجة الملاح التى انهمكت فى اعداد وجبـة العشاء لزوجها ولاولادها ملاحى السفينة ••

انهم فى كل عام يقبلون بهذه المراكب قبـل بداية الموسـم : تظهر احدى السفن ، وتتلوها اخريات من الشـمال • تظهر أولا عنـد المنحنى الشـمالى وتصعد الى الجنوب ، وترسو على مرافئنا فى أماكن متباعدة من شواطئنا الجنوبية ، وتفرغ حمولتها وتظل راسية هناك ، شهرا أو شهرين يعرضون بضاعتهم فيها حتى ينتهى الموسم ••

وكنا جميعا : نحن الصغار نحب هـذه المراكب ولذلك دنوت من الموردة ، وأخذت أتأمل السفينة السوداء فى شغف ولهفة والى جانبى عم محمود •

وحين دنت السفينة من الساقية ، وحاذتهـا ، ارتفع صـوت الملاح يوجه كلماته الى عم محمود :

ـ أنان هالى •• كيف حالك ؟

ـ اشرى يا •• الحمد لله •• وانت ؟!

ـ سكاركالاجا •• مثل السكر ••

وقهقه الرجل الواقف على الشاطىء ، فقد عرف الرجل من لهجته وصوته والفاظه وسمته :

ـ آه •• ها ! ازيك ياباشرى ؟

ـ الحمد لله ، موسم خير ان شاء الله ••

واندفع عم محمود خطوات أخرى الى الشاطىء ليدقق النظر فيمـا تحمله السفينة ثم سأل :

ـ واين ترسو : أليس هنا مكانك ؟

وأرسل باشرى ضحكة قصيرة وقال :

ـ كلا ؟ ليس الآن • نحن مسافرون الى حلفا بحمولتنا هذه ثم نعود فى زمن الموسم ••

أما برعى فقد ظل يتردد على العنجريب الذى رقدت عليه شريفة يلقى عليها نظرة اشفاق ، ثم يعود ليجلس على المصطبة قلقا وكأن زوجته تلد في الداخل ..

واقتربت منه ورويت له عن سفينة باشرى فأعرض عنى ، وكأنه لا يبالى بشىء ، وبدا على وجهه أنه يفكر ويصيخ السمع الى الحاصل ..

ثم أقبل على يفضى الى بسر اختزنه فى صدره :

ـ سأشترى لها شيئا فى هذا الموسم .. غوايش أو طرحة ملونة، مشغولة بالخرز ..

وأطرق ثم أضاف :

ـ وسوف أصلى فى الفجر من أجلها عند مقام الحاج مكاوى ، فى الجبانة ...

وأخذ يهز رأسه وقدميه المتدليتين على المصطبة ، وكأنه قد انتهى من همومه ، وقلت له : لكن صومعتك فارغة .. لا بلح فيها !

فقال بحدة وكأنه يصفعنى :

ـ لا شأن لك بهذا .. سأملؤها فى أى وقت .. اشجار النخيل كثيرة ..

٤

فى قريتنا تعود آباؤنا وأشقاؤنا ، أن يسافروا ، يودعون فى ألم مجبرين على الرحيل ويشربون سطل لبن ، وهم يخطون أولى خطواتهم على عتبة البيت خارجين ، يزدردون معه حبتين من التمر ، ثم يرحلون فى جمع من أهل النجع الى المحطة النيلية ، راكبين أو راجلين ، ثم تقلع الباخرة الى الشلال ، ثم يحملهم القطار الى مصر أم الدنيا أو الى الاسكندرية ..

ومنهم من يعيشون هناك سنوات طويلة ، وقد لا يعودون ابدا ، ومنهم من يغيب بضعة شهور يعود بعدها الى أهله ، ومنهم من يتوهون فى زحام المدينة ، فلا يعرف أحد مصيرهم ، حتى خطاباتهم تنقطع ، فيلح أهلوهم فى السؤال عنهم ، ويلحفون فى السؤال حتى تمر الايام ، ويصيبهم اليأس ، فيسكتون طاوين صدورهم على حزن مرير ..

وعند الرحيل ، يبكى الناس ، أما عند عودة الغائب فانهم يفرحون ، الزوجة تفرح ، والخالة والعمة والابنة والاعمام والخيلان يفرحون لعودته بالسلامة ، ولانه غالبا ما يحمل اليهم من مصر أم الدنيا أشياء قد تكون فى متناول اليد ، يمكنهم شراؤها من الدكاكين المنتشرة فى كل قرية ، أو فى عاصمة المركز اذا أرادوا ، أشياء قيمتها ان تهدى اليهم ، أن تكون جسرا بين قلب العائد الى قريته وقلوب الذين ظلوا ينتظرونه ، يسألون عن صحته ويوم عودته شهورا أو سنين طويلة ، لا ينسونه مهما طال بهم الزمن أو ابتعد المكان . حفنة شاى ، جانب سكر ، طرحة خفيفة ملونة لهذه الفتاة ، قبضة صغيرة من الحناء لشعر هذه العجوز ، ومداس أحمر للصغيرة ، وطاقية ملونة للولد ، وسبحة طويلة من الكهرمان لهذا العم ، وحفنات من الفول السودانى والحمص . وملبس لهؤلاء الاطفال ، ومصحف لشيخ الكتاب او المأذون ، وأنواع من العطارة لحلاق الصحة ــ عم محمود ــ وزجاجة عطر نفاذ من « حسنين الماوردى » فى التربيعة للزوجة ، وقوائم طويلة من اخبار الغائبين المزمنين لامهاتهم وآبائهم وزوجاتهم وعيالهم !

كل عائد فى قريتنا ، يستقبل كما يستقبل المولود أو الحجاج . كل واحد ، كل واحدة تستقبله ، وفى قلبه أو فى صدرها أمل ..

وياويل العائد حين تخلو جعبته من اخبار الناس ..

ذلك الوداع الحار هو ما ودع به خالى ــ أحمد عودة ــ منذ شهور : زوجته تودعه ، وأمه تدعو له ، وامرأة أخرى من الجيران تستحلفه : أن يتصل بابنها الوحيد الغائب ، وأن يعود لها بأخباره ، فقد انقطعت منذ شهور ، واذا كان « خالى شغل » أو « بطال » فليس عليه من حرج ! ماعليه الا أن يعود ورزقه ورزقنا على الله !

وهذه أخرى تدنو منه وتميل على وجهه وتسر فى أذنه ، كلاما دامعا يظل سرا بينهما : ان يحمل زوجها على استدعائها فى مصر ! لقد طال غيابه وهى فى القرية لا تريم ، انه يرسل طرودا وحوالات مالية ورسائل تكفل عيشها . انه لا يقصر فى كل ذلك ، ولا يتخلف شهرا ، ولكن الحياة

كما تعلم يا أحمد عودة ليست مجرد خطابات وطرود ‥ فالاطفال زينة الحياة الدنيا ‥ لقد كبر ابننا ابراهيم دون أخ يؤنس وحدته أو أخت تساعدنى فى شيخوختى !

ويضحك أحمد عودة ويداعبها ، ثم يقرصها من خدها على مرأى ومسمع من الناس ، ثم يعدها خيرا ليفرغ لغيرها ‥

هكذا رحل منذ شهور ، الكل يأمل من رحيله خيرا ، والكل يأمل فى عودته خيرا ‥

والخالى فى كل عام رحيل وعودة ٠ الناس جميعا يثقون فى أنه سيقوم بكل ما أوصوه به ، فهو لا يرحل الى مصر ليقيم ، بل جدير به أن يعود سريعا اذا ما رحل ، فله أعمال فى النجع : زراعته ومتجره ، وصحابه الذين لا يملهم ولا يملونه ‥

وهو رجل مستنير ، كثير الصلات بتجار القرى والمركز ، خبير بدروب القاهرة وشوارعها وملاهيها ، معتز بنفسه ، يصلى كل فرض ويصوم رمضان ، ويؤدى كل فريضة وان كان لايهمل ذاته ، فهو يحب من الطعام أجوده ، ومن الشراب اشهاه وأطيبه ، ومن الملابس أزهاها وأنعمها ملمسا ، ومن الاصدقاء أرفعهم ذكرا ، يعرف لنفسه حقها فى الحياة ، وللعمل قيمته فلا يتوانى ‥

ورحيله ليس الا نوعا من العمل ، يرحل وفى جيبه دفتر طويل ، فيه ما على الناس من ديون ، يستوفيها من ابنائهم فى مصر وبقية المدن ، فهو يرحل اذن للترويح عن النفس وفى نفس الوقت للعمل ، يرحل ويبقى أبى فى المتجر ــ فهما شريكان ــ يديره بمفرده ريثما يعود الخال ‥

كان أبى لا يقرأ ولا يكتب الا بصعوبة شديدة ، وكان على أنأساعده فى تدوين ما يصرف من المتجر وما يستورد اليه ، وما على هذه وتلك من ديون ‥

وكم رأيت أبى حين تستهويه الكتابة ، يفترش الارض وينكفىء على الدفتر ، ويمسك بالقلم فى قسوة بين أنامله ، ويكتب الكلمات فىخطوط عريضة متعرجة ، فيملأ السطر كله بكلمتين : داريا سكينة ٠ ووقة سكر ووقية شاى ، فأهرع لمساعدته فيتأبى ، ويدفعنى بعيدا عن الدفتر فى كبرياء ، ثم تتعب عيناه وتكل انامله فيسلم الدفتر لى ، ويظل يراقبنى فى حذر وأنا أكتب ‥

وكان من الطبيعى أن يختصم أبي وخالى على بعض حسابات المتجر ، فيصر أبى وهو يشد قامته أن تتم المحاسبة فى وجودى أنا الذى لا أدرك كثيرا مما يقال ، ولكن أبى رغم ذلك كان يصر ، ثم يطمئن اذا ما حضرت، ولكن المحاسبة كانت تتم فى نهاية الامر كما أراد خالى لها أن تنتهى ، فلم يكن حضورى اياها ذا شأن كبير أو صغير ·· ولكن الرجل كان يطمئن اذا ما حضرت ··

خالى هذا لم يكن الا ابن عم لامى ، ولكننا فى بلادنا نحب أشقاء أمهاتنا وأبناء أعمامهن الاقربين والابعدين ، ونعتبرهم خيلانا نعتز بهم ، ويعتزون بنا ، فان أخلاق المدن وعاداتها لم تكن قد أفسدت بعـد حياتنا ! فظلت علاقاتنا الاجتماعية على الدوام بقية وشائج من التعاطف والحنو ·· وكان أبى فى نفس الوقت خاله شقيق أمه ، ومن هنا كانت فرحة أبى تتزايد ، وترتفع روحه المعنوية حين يعود هذا الخال سالما ، فيستريح من تدوين حسابات المتجر ومن مناهدة كل زبونة،فكم كان يعانى منهن وكم كن يعانين منه !ويطمئن عليه بعد هذه الغيبة فى مصر ذات العربات والعجلات والنساء

وكان هذا الخال يعتبرنى ابنا من أبنائه ، يتعهدنى كما يتعهدهم ، ومن هنا كانت فرحتى ، وفرحة جدتى وأمى وشقيقتى ، وكل أهل النجع بعودة هذا الغائب العزيز · الجميع يذكرون أياديه ، ويحمـــــدون له صنائع قدمها لهم ···

فبعد رحيله بأيام كان يتحقق للناس كثير مما أوصوه به ، فتسافر الزوجة الى زوجها ويأتى الخبر بعد عام أو عامين انها انجبت اطفـــالا ، ويرسل الابناء مزيدا من الطرود لذويهم ، وبعد عودته يعمر المتجر بالجديد من الحلوى والشيت والفوال والطرح الملونة ، فيحمد الناس له عودته ··

كان لعودة الغائب فى قريتنا شأن وأى شأن ··

منذ شهر أو يزيد والناس فى نجعنا يعلمون بعودته ، فقد أرســل منذ ايام تلغرافا أخذنا بعده نتهيأ لاستقباله على مرسى الباخرة فى «أبريم» · وبدأنا نفرش داره بالرمل الناعم الاصفر ، ونطلى جدرانها ، بينما البنات والام والزوجة يخرجن من السحارة ، اطباق الخوص الملونة ، وأطبــاق الصينى المزخرفة يلصقنها فوق جدران الدهليز والديوانى « والمندرة » منكفئة على وجوهها ، وملاءات بيضاء نظيفة ، والحفة لامعة ، يفرشنها على أرائك وعنجريبات رصت فى الدهليز والمندرة ·

كل من فى الدار يتحـــرك · والجـــيران وجيرة الجيران يأتون

للمساعدة ، كل واحدة تتقرب الى زوجه وأمه ، لتكون أقرب الناس الى الغائب حين يعود ٠٠

كانت الباخرة تصل عادة في المساء ، وللنوبيين في انتظار هـذه الباخرة « البوستة » عادات وتقاليد ، ، فهي همزة الوصل بينهم وبين مصر ، فلا قطارات تصل بلادهم بالسودان أو بالمدن الزاهرة في مصر ، ولا عربات ، كل ما هنالك هو أعمدة التليفون والبرق ، والجمال ، والنيل والبواخر تمشي على الماء كالسلحفاة مابين الشلال وحلفا في يومين أو ثلاثة، لا تربط في قريتنا الا مرة كل اسبوع ٠٠ ورغم ذلك فقد اعتمدوا عليهـا في حياتهم ، في اتصالهم بالعاصمة وبمن فيها من الابناء الغائبين ، وفي نقل السلع والغلال من المتاجر واليها ٠٠

وفي كل اسبوع ٠٠ كنا نذهب الى المحطة النيلية ، وننتظر الباخرة، فتتبغدد علينا ولا تصل في مواعيدها ، فنظل ننتظر وننتظر حتى يصيبنا الكلال ، فننام على الشاطىء ، حتى تصوصو في عيوننا بأنوارها الزاهية من بعيـد ٠ فيهلل الصغار وتصفو نفوس الرجال والنسـاء ٠٠ ثم تدنو وتتهادى رويدا رويدا الى أن تعانق المرسى ، وترمي بالسقالة الى الموردة وتفرغ حمولتها من العائدين والطرود والرسـائل ويبتاع ركابهـا الصاعدون الى الجنوب علب التبغ ومئات من ثمار الليمون ٠٠

ومنذ الاصيل في ذلك اليوم ٠ رحنا جميعا ، أبناء العم والخال نسوق فلوكتنا الى المحطة النيلية ٠٠

وأقبلت الباخرة كما تقبل العروس : علم يرفرف ، وثريات تسطع، دنت حتى جاوزت الشمندورة الحمراء ، ثم انعطفت الى الشاطىء ورست ، وأطبقت شفتي قلاباتها عن الحركة فأطل العائدون علينا ٠٠

وعلى غير العادة ، كان العائدون كثيرين في تلك السنة ، وكم كانت مؤثرة مشاهد استقبال الناس لهؤلاء العائدين في تلك السنة بالذات ٠٠ فقد كانوا اشكالا والوانا من الناس ، لم تعهدهم القرية منذ زمن بعيد ٠٠

فهذا رجل أشيب الفودين ، ابن من أبناء القرية ، تركها منذ ثلاثين سنة شابا ، وها هو يعود مع أبنائه اليوم عجوزا ، وهذه البيضاء امرأة من مصر ، تزوجها رجل نوبي هناك وأنجب منها ثم مات ٠٠ عاد بها ابنهـا في هذا العام الغريب الشاذ في حياة قريتنا ٠٠ عودة لم أدرك مغزاها الا بعد شهور طويلة ، فهي تتصل ببركات أفندي ، والطرابيش والوجـوه البيضاء ودفاتر التسجيل ٠٠

وهذا هو عبده الفرنساوى : صغير الجسم ، لقب فى مصر وفى القرية بلقب « عبده بتيت » .. فقد كان يعمل عند عائلة فرنسية منذ كان طفلا صغيرا فاستحق هذا اللقب بجدارة ، لا يعرف من لغتنا الا كلمات متآكله الحروف والنهايات ، ولا يجيد العربية ، ويتقن رغم ذلك لغات سبعا منها الانجليزية والفرنسية يلوى بهما لسانه ، كما يلوى الخواجات السنتهم ..

لم يعد « عبده بتيت » الى وطنه الا فى هذه المرة ، وكانت له أم وأخت . والام والاخت قد كبرتا حتى بلغتا سن الشيخوخة والكهولة ، أقبلتا متساندتين فى صحبة نفر من الاهل تستقبلان الابن والشقيق الغائب طيلة العمر . بالعواطف الجارفة التى تجتاحهما وهما تنتظران الباخرة : احداهما ببصر كليل ، والاخرى أرملة ، عاشت منذ زمن بعيد تتمنى هذا اللقاء وتتشوق اليه ، جدران بيتهما مزدانة بصوره التى أعتاد أرسالها . فصورة له وهو يعمل فى مصر ، وثانية فى باريس وثالثة فى زيورخ وكارلسباد ، ومن حوله شقراوات بصدور عارية وعيون .. ياللعيون ! .. لقد طاف بكثير من عواصم العالم ومرافئها وزار مختلف البلدان الاوروبية ..

نزل هذا الرجل من الباخرة ، فأحاطت به الام والاخت ونسوة العائلة يقبلن صفحة وجهه ورأسه ، ويلثمن قدميه ويديه وصدره وفخده ، كل قطعة من جسمه ..

توقف الرجل على الضفة التى ولدته ، برهة قصيرة يمعن النظر فى أشجار النخيل الباسقة ، وقف وعلى شفتيه رعشة ، لا يفوه بكلمة وكأن شيئا ما يقف فى حلقه ، ثم انثالت دموعه ، وهو يحاول أن يتجلد ، ويظهر بمظهر الرجال أمام نسوته اللائى التففن به ، يمسكن به ويبتعدن عنه . يراقبن طوله وعرضه وقسمات وجهه ثم تصرخ احداهن :

.. آه ياابن سبيلة خليل .. كم كبرت ؟!

فيرد عليها بكلمات عربية متكسرة فلا يفهمن منه شيئا ، ويبدين سرورهن بعودته .. ألم يعد غائب مزمن الى وطنه ؟!

وانشغلت أنا بهذا الرجل لحظة ، ولم تطب نفسى الا بعد أن علمت أن أمه جارتنا فى النجع القريب من نجعنا ، وأننا سنراه اذن فى كل يوم، فاستدرت عنه الى خالى الذى توسط جمعا من المستقبلين ، يبش لهم ،

ويتندر بهم •• وكان كما عهدته : متوسط الطول ، عريض المنـــكبين ، شامخ الانف أفطسه ، أسود الشعر غزيره ، الا شعيرات قليلة بيضـــاء تناثرت في فوديه ومؤخرة رأسه • أسمر الوجه تشوبه حمرة خفيفة ، ساخرا قوى العزيمة البادية فى عينين واسعتين ، يشع منهما ذكاء التاجر الريفى الرحالة الذى عرك الدنيا وعركته ••

وتبسم حين رآنى ، ثم شدنى اليه ورفعنى الى صدره ، وقبلنى وهو يمطرنى بأسئلته عن أبى الذى تخلف فى المتجر ، وعن أمى والمتجر وشيخ الكتاب ، وعما حفظت وهل تهيأت للازهر أم ما يزال أمامى شوط بعيد ؟ وهل دونت أنا كل شيء يتعلق بالمتجر ، أم تركت أبى يمـــلأ الدفاتر بكلماته العريضة غير المقروءة ، فأخذت أجيبه فى اقتضاب ، وأنا أتأمل وجهه وأشم رائحة ذكية تنبعث من ثيابه •• رائحة مصر ••

ثم انهمكنا فى حمل شنطه وأمتعته ، نتحسسها ونجس ما فيهـا ، ففيها ولا شك بعض ما ترقبناه ، وسريعا ما حملناه الى الفلوكة ، فأقلعت بنا وبه لترسو على الموردة قبالة ساقيتنا ••

وبعد العناق والاحضان ، خلص الرجل الى « المندرة » وتربع على أريكة ، وبدأ الناس من نجعنا ومن النجوع القريبة يتـــوافدون عليه ، والكوانين مشتعلة واكواب الشاى ، وفناجين القهوة تدور عليهم ••

وأمرنا الرجل فأدرنا على الضيوف صندوق سجائره الماكينة ، ذلك أن بعض الناس تململوا فتماكروا ، وأخرجوا من جيوبهم علبا صفيحيـة وأخذوا يعبئون بوريقات البفرة ، موهمين أنهم يلفون لانفسهم لفافات من الدخان الأخضر المهرب من السودان عبر الحدود ، موعزين اليـــه من طرف خفى وكأنهم يقولون :

ـ وأين الماكينة يا أحمد عودة ؟ لقد انتظرناك طويلا ! •

وتتسع الحلقة وتكبر ، والرجل يحكى عن مصر ، وعن القطـــار ، ويصف المناظر : مناظر قرى كاملة ، وخضرة واسعة اخترقها القطار ست عشرة ساعة كاملة من بوابة الحديد الى الشلال ، وكوبرى ســـوهاج ، والتغيير فى الاقصر ، ثم عن الباخرة التى أتعبتـــه وأرهقت بدنه يومين كاملين ، وعن مراكب سوداء ، ثلاثية الشراع سماها بأسماء اصحابها ، شاهدها تشق النيل نحونا ، ثم لف بالناس أحياء مصر والاسكندرية : معروف ، البغالة ، باب البحر وعمارة شارع عدلى والحسين والســـيدة عيشة والامامين والعطارين وعساكر البوليس ، وقمن عابدين والفرنساوى

فى بولاق ، واستمعوا اليه فى لهفة ، وضحكوا كثيرا ·· ولمعت أسنانهم بيضاء من خلال وجوههم السمراء الطيبة ومن خلال سحب الدخان المنعقدة فوق رءوسهم · ثم تجرأت واحدة فى منحدر العمر وابتدرته :

ـ احمد ياعودة ··

وانبعث صوتها نشازا بين أصوات الرجال فانتهروها :

ـ اخرسى ياحرمة ··

ـ حرمة فى عينك !

وتلتها همهمات اصوات النساء ، وانبرت ام الغائب تقول :

ـ دعوها لشأنها ·· أليست اختك يا احمد فى الرضاعة ؟

وهدأت الاصوات ، فقامت اليه ، وقالت متشجعة بالصمت الذى ران بعد كلمات الام :

ـ كيف حال عقيد ؟

وتريث العائد الى أن رأى أمه تنصرف ، فقال بعد أن عبث بشاربه ، وأمعن النظر فى وجه المتسائلة ، ورسم على شفتيه ابتسامة ساخرة :

ـ نسا ·· ناقصات عقل ودين ··

واختلس نظرة الى الزوجة واضاف :

ـ أهكذا تسألين عن زوجك أمام الناس دون حياء ·· لعلك تحلمين به طول الليل ··

وأضاف الشيخ فضل :

ـ سمعتها تحلم به فى النهار : عقيد ·· عقيد ·· عقيد ··

ومضى يقلد صوت امرأة تتحرق شوقا الى رجل ، فضج الدهليز بقهقهات الرجال ·· واحتجاجات النساء · ودارت المرأة خجلها فى ضحكة خافتة تكتمها بطرف طرحتها ، لتقول بعد تردد :

ـ الله ·· انما اسأل عن صحته !

ـ وماله ·· على كل حال اعرفى انه أوصانى بك ! ··

وسكت هنيهة وأضاف وهو يغمز بعينيه :

ـ طلب منى أن أحل محله ·· وكتبت له كمبيالة !

فعادت الضجة والتهليل فقالت غاضبة :

ـ لماذا لا يرسل جوابا ؟ أنا أسأل عن هذا ، ولست افكر فى السخام الذى تعنيه ·

ـ السخام ·· وهل يريد هو هذا السخام ولماذا يريدك للسخام·· النسـاء بعـدد الليمون فى مصر ، وجوه سـمحة ونهود ·· وسراويل قصيرة ··

فصاحت :

ـ ليتزوج عشرا منهن ·· لن أبـالى ! ·· فقط يرسـل لى كلمـة بأخباره ··

وأضافت بسرعة قبل أن يضحك الرجال ··

ـ لكى أطمئن عليه ··

وأجاب العائد :

ـ عشرا ! ·· ليس له الا أن يتزوج أربعا فى الشرع ·

واندفع حسن المصرى يقول :

ـ ياه ·· ولماذالاينزل لى عن واحدة منهن ··

فارتجت « المندرة » بالضحك من جديد ، واكتسـب المجلس حيوية دافقة ، يتندرون بالمرأة ويضحكون على لهجة حسن المصرى ·· وأمنيتـه عسيرة المنال ·

ثم يشتد الضحك حين يقول العائد :

ـ طيب ·· ترضى بهذه ياحسن ؟

فارتفعت القهقهات هنا وهناك ، وراح حسن يتأملها ليلوى شفتيه .. فقد كانت عجفاء معروقة اليدين ، ضامرة الصدر ، فى عينيها ذبول ، تحلى كل أصابع يديها بخواتم ثقيلة ..

وأحس العائد أنه قد أثقل على المسكينة ، فقربها وشد على يدها ، وأخذ يروى لها أخبار زوجها بسرعة ، ثم أمر « أش الله » فأتى لها

بطرد كبير أرسله زوجها ، فحملته كما تحمل طفلا صغيرا ، وتبخترت به عبر الناس ، وتركت الدهليز – بين اعجاب النساء – ثم تبعتها شقيقتي بطه بطرد كبير الى بيتنا ووددت لو تركت العائد ، وانطلقت خلفها لأمتع عيني بمحتوياته ولكن ..

ومادامت أخبار المهاجرين قد بدأت فان هنـــاك من يتحرقون شوقا الىمعرفة أخبار أبنائهم وأزواجهن .

ففى ركن بعيد من « المندرة » قبعت « داريا سكينة » وابنتها شريفه ملتصقتين ، وعلى وجه كل واحدة منهما سؤال تترددان فى القائه .. يتمنيان أن يسألا عن الابن والاخ الغائب الذى لا تعرفان عنه شيئا .. أهو حى يرزق ؟ أم هو فى عداد الأموات ؟ أيعيش أم ابتلعتــــه عجلات الترام ، أو بسمات الغوازى العاريات الصدور .. وتفكران فى قسوة الولد العاق ، قسوة لا تفوه بكلمة ، ولا رسالة واحدة . الولد يعرف كم تتمزق الأم خوفا عليه ، وكم تتحرق الأخت لكلمة واحدة منه .. الا أنه رغم ذلك لا يتكرم .. أوصتا العائد به حين ســـافر ... وأيقنتا أنه لابد ملاقيه لاقتضاء ديونه .. أوصتاه أن ينصحه بالعودة .. فهما فى حاجة الى رجل . أى رجل فى هذه الأيام..أيام بركات أفندى والطرابيش الحمراء .

السؤال ينضح على وجه الأم .. ويكاد يقفز الى شفة الفتاة ... ولكنهما تترددان اذ تخشـــيان اجابة محزنة . مجرد توقع رد جاف كان يحول بينهما وبين الافصاح عن هذا السؤال الحائر بين شفتيهما !

وتجرأت داريا لحظـــة واقتربت من العائد . وفتحت فاها ثم أحجمت وتعثرت فى ذيل جلبابهـــا الجرجار الطويل ثم تحركت شريفة البادية الحسن من خلفها . تتبعها عيون حسن المصرى وبرعى ، وتنزلق الى شفتيها المتلثتين ، ثم الى الكرتين اللتين تثقلان صـــدرها ، تنســـدل عليهما أطراف طرحتها فى استرخاء ..

وتجاوزت الفتاة أمها وواجهت الرجل الذى نظر اليها متفحصا ، ثم مضى يداعبها بكلمـــات مرحة عن الزوج المرتقب ، فتغض حيـــاء وهى تتذكر معركتها مع حسن المصرى وتوددات « برعى دولحظ » .

وترددت لحظة كأنها تقرأ شيئا حزينا فى عين الرجل ، ثم تجرأت فجأة وألقت بالسؤال .. وكان السؤال كلمة واحدة أطلقتها ثم سكتت .

ـ جمال ؟!

وصمت الرجل لحظة .. وقطب كأنما يتذكر شيئا ، وفى هذه اللحظة اندفعت الأم تبكى فى صوت متهدج ، وذرفت الفتـــاة دمعة ، أخذت تضغط على شفتيها لتحبسها ولكن .. وأدرك الرجل حرج الموقف فقال :

ـ صبرك بالله ياداريا .. لم أره فى مصر .. سألت عنه .. حسين النجار هو الذى قال لى .. انه سافر الى طنطا !

فقال أحدهم :

ـ عال ٠٠ شىء لله يا بدوى ؟

وسألت داريا فى صوت مختنق :

ـ وطنطا .. أهى بعيدة ؟

ـ لا ياست .. وحسين النجار وعد بارسال جواب حالما يراه ..

وران على المجلس صـمت ثقيل ٠ ثم بعض النهنهـــات تنبعث من حلوق نساء ، بينما أخذت داريا تنسحب وهى تشد طرحتها على فمهـــا ومن خلفها شريفة .. تسللتا عبر الباب الضيق ؛ فمصمص الرجال بشفاههم ؛ وبكت النسوة وجمعن أطراف ثيابهن وخرجن الواحدة بعد الأخرى .

وجاء دور الرجال والسـياسة ٠٠ فتكلم العائد عن اخبـار نشرت فى كوكب الشرق والجهاد والمقطم والاهرام ، وعن شـباب متعلمين من أبناء النوبة يكتبون فى الصحف دفاعا عن حقوقنا . وعن بدر أفندى والمستر هيس والتقديرات الاولية للتعويضات والمنسوب الذى ستبلغه المياه وأراضى بور لاتعرف الماء نوعد بها فى الصعيد ثم انتقل الى اشاعات تدور على دكك البوابين وبالذات بوابى وسـفرجية وطبـاخى عمـارات وقصور موظفى الرى من الانجليز والمصريين ٠٠ وخدم الباشوات والحكام وسفرجية وطباخى القصور الملكية فىعابدين ورأس التين والقبة .

رأى الخزان وهو عائد : البناء فيه يتم بسرعة وما هى الا ســـنة أو سنتان حتى يوفى البناء على غايته ثم يقبل الطوفان ٠٠ ولن ننتظر الحكومة الا ريثمـــا يتم الحصر والتعداد وضـــبط مناسيب النيــل ٠ وحينذاك لن يكون لنا الا الله ٠

والامل كما يقول العائد معقود على سقوط حكومة صدقى باشا • فالمظاهرات تصخب ضدها والناس « خالين شغل » وساخطون ، وآلاف الشكاوى ترسل من المدن والقاهرة يكتبهـا المتعلمون : عجيب والباقر وعبد الصادق ومكاوى والطرابيشى وجمال وبدر أفندى • وحسين طه •

وقال أحد الجالسين وكان رجلا ربعة قصير القامة أصلع تتسم كلماته بطابع الحكمة والجد ••• شفتاه تحتبسان بعض الحـروف فتخرج مضحكة .. قال :

ــ ولكن الطوفان لن يجرؤ على مقـام الحاج مكاوى ، فنحن فى رحابه ، وبلدتنا هذه عالية .. عالية جدا ..

ورفع يديه فوق رأسه واستطرد :

ــ ولن يبلغها أى طوفان .. حتى طوفان سيدنا نوح ..

ورد الشيخ طه فى سخرية :

ــ أستغفر الله •• لا عاصم اليوم من أمر ربى ••

وتهكم آخر :

ــ أنت يا حموى تحسب الطوفان كوز ماء يندلق على رأسك ، أنت لا تفهم شيئا ياحموى •• أنت لا تعرف الا كيف تبطح الرءوس !!

فأسكته الجميع ، فان كلمات حموى رغم سذاجتهـا بعثت الامل والسلوى فى قلوبهم •

فقد ولدوا جميعا على هذه الارض ، ومن قبلهم ولد عليها آباؤهم وأعمامهم ، انهم جميعا يعشقون أشجار النخيل ويحبونهـا هى والأرض الزراعية والبيوت المبنية من جالوص الطين •• والطوب الأخضر والنيل ــ شريحته المتدفقة ــ أمام قريتهم .. يعشقونها كما يعشقون زوجاتهم، دار فى خلدهم دائما أن بلادهم أجمـل بلاد الدنيا ، وناسها أحسن ناس فى العالم ..هم الناس وغيرهم ركش لاطائل تحته ! حلب لا قيم لديهم! يرحل الواحد منهم ، ويحمله الرحيل الى عواصم بلاد كبرى .. ثم يدنو الاجل فيعود حاملا كل ما ادخره الى هذه الأرض ليموت بين أشجار النخيل ، وليدفن فى الجبانة المترامية الى جوار الحاج مكاوى •• فى ظل شفاعته .

فلماذا يصدقون اليوم ان طوفانا يمكن أن يأتى على كل هذا الذى يعشقونه ؟ أولى لهم أن يصـــدقوا كل التعلات ، أولى بهم أن يحلموا بسراب ، يعرف الكثيرون أنه مجرد أمل خادع . الا أن فى امكانهم تخيله والتعلق به ما دام لم يتحطم بعد .. أما الطرابيش فلتتحرك كيفما تشاء وأنى تشاء .

واذا كان ما يحلمـــون به سرابا ، فهنـــاك على الاقل هذا الامل الغامض الذى أقامه العائد تمثالا أمام عيونهم الحالمة : أن يسقط صدقى وأن تحل وزارة أخرى محل وزارته ، انهم لم يفكروا لحظة واحدة ان أية وزارة أخرى ، حتى من ابنائهم ستمضى فى طريق واحد ينساب الطوفان منه الى أرضهم الطيبة ، أرضهم التى تحبل وتلد مرتين أو ثلاثا فى كل عام ، زفوق تخيلهم التى يعبدونها ، فان الطوفان مثل القدر لا مفر من ملاقاته والاذعان له ..

لم يفكروا لحظة فى ذلك ، فتعلقوا بكلمات حموى ، وبالتمثـــال الوهمى .. تمثال الامل فىوزارة أخرى ، تحـوش عنهم الطـــوفان والراجحون وحدهم تعلقوا بتلك الشكاوى ، شكاوى ومقالات المتعلمين من أبنـــائهم . أدركوا أن الخزان ضرورة لوطنهم الاكبر ، مصر ، وفكر بعضهم فى كتابة أمثال هذه الشكاوى وانبرى الشيخ فضل يقول :

ـ حتى النعاج تفعل شيئا حين تساق الى الذبح ! .

وسكت وكأن عبارته هذه قد عبرت عن كل شىء ، وتدخل عبد الله الجزار ، فى الصمت الذى أعقب كلمات الشيخ فضل وقال وهو يتنهد :

ـ لو كان اللورد كرومر على قيد الحياة .. لما نزلت بنا هــذه المصيبة !

ولم يمهله العائد بل بادره بحدة ساخرة :

ـ دايما تمدح فى النصارى ياعبد الله .. انت غبى وجبان .. مثل الحيوانات النافقة التى تذبحها ولا تعرف الا كرشك . ملأتهـا بلحم الخنزير حينما كنت تخدم فى سراى اللورد كرومر ..

ورفع يديه الى السماء وهو يهتف :

ـ رحمة الله عليك يامصطفى كامل .

فترحم الجميع عليــه ، وان كان الجــزار قد طوى صــدره على

عقيدة جازمة بأن اللورد كرومر كان فى امكانه انقاذهم من المصيبة التى تكاد تلم بهم ·

وتكلم أحدهم عن النحاس ومكرم ولجنة الوفد فى الدر ورئيسها الشيخ عبد الغفور .. فقاطعه الجزار :

ـ سفرجى باشا الملك من البلد المجاورة · لماذا لا يتوسط عند الملك أو الملكة ليمنع هذا الطوفان · ألم يتوسط لسعد بن عبد الله ·· ليتعلم فى بلاد بره ؟

فأجاب العائد : سعد نفسه من الذين يكتبون الشكاوى والمقالات ·

ثم تلفت الى الباب ، وانتفض يرحب بصديقه الشيخ « شليب » الذى تبدى على عتبة الباب متهلل الأسارير ·· شاب أسمر اللون ·· ملفوف الجسد · قوى البنية ، واضح الذكاء ، يجيد القراءة والكتابة ، يقوم بتجارة صغيرة تكفل عيشه ··

وتعانق الصديقان وتحدثا مليا فى بعض شئونهما بينما أكواب الشاى ، وفناجين القوة تدور من جديد ، على الرجال الذين استأنفوا مناقشاتهم ··

وقبل أن ينتصف الليل كان شليب قد أشار الى حل سكت عليه الرجال جميعا دون تعليق ·

ـ لماذا لا نذهب الى « الدر » نستشير بدر أفندى ··

ثم فتر النقاش · وبدأ الرجال ينصرفون واحدا بعد آخر ، فهب خالى من مجلسه ، وعبر الساحة الممتدة أمام المتجر ، ودلف الى بيتنا ، فزار أمى وجدتى ··

وانتصبت أمى أمامه بعد أن شدت على يده تتفرس فى وجهه مليا ، وحار الرجل فى أمرها ثم أدرك أنها بدورها تسأل عن أخويها محمد وعثمان ، فطفق يحكى عن أخبارهما بعضا مما أثلج الصدر ، وبعضا آخر مما سبب القلق والحزن فى قلوبنا ، فهما يعملان ويكسبان ·· لكن محمدا تزوج واحدة من باب البحر ·· وعثمان واحدة من الاسكندرية ··

وابتهجت الأم ثم ابتأست ·· وفرحت الجدة ثم قطبت جبينها ·· وشعرنا نحن الصغار بحنين جارف يشدنا الى هذين الخالين اللذين لم نرهما ·

وانصرف العائد ٠٠ فقامت أمى الى السحارة ٠٠ ورفعت غطاءها المزخرف بنقوش عربية ٠٠ ولبثت تدور بأصابعهـا فى محتويات الطـرد دون أن تخرجه من السحارة ، ثم استدارت نحوى ٠٠ واقتربت خطوتين وتوقفت ثم مدت يدها بحيث لا تلامسنى ٠٠ وابتسمت ابتسامة خافتة وهى تقول ٠

ـ خذ ياحامد ٠٠ خذ ٠

فاندفعت الى يدها فى لهفة ، وتناولت الطاقية الملونة ٠٠ التى كانت تحملها بين أناملها ٠٠

كانت مطوية على حفان من الحمص والفول السودانى المقشر ٠

٥

الغائب يملأ قريتنا بالبهجة ٠٠ فعند عودته نسـمع نحن الأطفال الصغار عشرات القصص عن المدينة الكبيرة اللاهية ٠٠ وقد نستمع لأول مرة الى تلك العلب التى تدار بيـد مثـل « المانيفلة » توضع عليها أقراص سوداء تدور وتسكب فى أذنيك أصواتا حلوة ٠٠ نساء ورجال لا ندرى أين يختبئون ٠٠ ومتى يستريحون وأى طعام يتناولون ؟! لا بد أنهم يأكلون البسكويت ٠٠ «والحلقوم» ولا يقربون طعاما غيرهما ٠٠

واحد من هذه الاقراص كان يقول : « أكل الباشوات والأمراء ٠٠

الحزمة بمليم يادرة ٠٠٠ صوت امرأة تغنى يختلط به صوت أجش غليظ القلب شرس النبرات يحول بينها وبين الغناء ثم تعود ٠ عصفور حصان المولد ٠٠ الحزمة بمليم يادرة ٠٠ أكل الباشوات والأمراء !٠

فيقهقه أحد الرجال ويهتف :

ـ الفاجرة !! باشا يأكل دره وبمليم !!

ثم تنطلق من أحد الاقراص قهقهات عالية ، قال بعدها أحد الكبار ٠

ـ هذا القرص معجون من البانجو والحشيش والافيون ٠٠ وقليل من عرقى البلح المضبوط ٠٠ والا فلماذا يقهقهون بهذا الصوت الذى لايخجل، ومن هو سيد قشطة هذا الذى يتحدثون عنه ؟

ثم ينطلق قرص آخر لا يقل سوادا عن الأقراص الأخرى ، يلمع كما تلمع ، ويدور كما تدور ٠ ولا يستغنى عن المانيفلة كما لاتستغنى عنه الا انه يختلف عن الاقراص الأخرى بشىء واحد هز كياننا بتلك الكلمات التى سالت منه مفهومة ميسورة تنفذ الى قلوبنا ٠٠

كنا لانفهم ماتقوله الاقراص الأخرى ٠٠ أما قرصنا هذا فقد كان يصيح : اسطوانات ميشان خوجلى عبد المجيد ، ويضغط على المقطع الثانى من خوجلى هذه وكأن السحر والالهام يكمنان فى ذلك المقطع ٠٠ كانت اسطوانة بلغتنا نحن ٠٠ كانت تقول :

أبدن أبدنا بالنا تون فابا يمونا

برو وش المراية بالناتون فأبا يمونا ٠٠

فيصرخ الشباب ، ويهب بعضهم واقفين ٠٠ ويصفقون بأيديهم ٠٠ ويتراقصون ويهزون أقدامهم ٠٠ فترج الارض بدقاتها ٠٠ ويبتسم الكبار ابتسامات وقورة وتتكسر أعطاف البنات ٠٠ ويميل بعضهن الى الخلف٠ وقد أمسكن بين أسنانهن بأطراف الطرح ، وتقفز أقدام الأطفال فى مرح وتتلاعب عيونهم فى شيطنة وترد الأغنية من جديد الى المطلع :

ابدن ابدنا بالناتون فابايمونا

برو وش المراية بالناتون فابا يمونا

ويحاول أحدهم أن يرفع القرص ، ويدير الحزمة بمليم يادرة ٠٠

فترتفع احتجاجات الآخرين وتلمع عيونهم بالغضب ، فتعود اسطوانات ميشيان : خوجلى عبد المجيد بالتأكيد على المقطع الثانى من خوجلى ·· وتفتح أبواب وفى حياء يقبل سرب من الفتيات : سعدية ، بخيته ، وشريفه · كل واحدة تشعر انها بعينها « برو » هذه التى يتغنى بها خوجلى ، فتمر بأصبعها على الخدين تتحسسهما لتتأكد ان وجهها كالمرآة فى نعومته كما يتغنى هذا القرص اللعين · ويلاحظ الشبان ما يبدينه من خفر ودلال نابع من أعماقهن دون أن يشعرن به ·· فيتغامزون ويضحكون ، وتزداد الأكف تصفيقا ، وتشتد الأرجل دقا على الارض ·· وبدا حسن المصرى ضائعا وسط هذه الضجة ·· لا يفهم شيئا من كلمات الاغنية ·· ولا يعرف معنى لكل هذه الضجة ·· فأخذت عيناه تنتقلان من وجوه الفتيات الى شفاه الرجال ·· ثم تطوع المأذون يترجم له كلمات الأغنية ·

لن يغيب عن خاطرى

الى الابد ·· لن يغيب

وجه عذراء

ناعم مثل المرايا

لن يغيب ! لن يغيب !

فتهللت أسارير حسن المصرى ، وعبث بشاربه وأسدل جفنيه ، ليلقى من خلفهما نظرة حب الى شريفة التى أحست فى نفس الوقت بنظرات برعى النارية من خلفها ، تنفذ الى قلبها ، فحار عقلها الصغير وألم بها اضطراب شديد أنكرته أول أمرها به ، ثم وجدت فيه عذوبة لا تدانيها عذوبة الرطب التى أخذت تلوكها ·

ثم تدار « المانيفلة » من جديد ، ويدور قرص آخر لا يثير نفس الضجة بيد أن الصوت السودانى الحنون أسال رقة دغدغت أحلام الشباب والفتيات : ابراهيم عبد الجليل ، خليل فرح عزة فى هواك · عزة نحنا الجبال ونحنا كيلزهور فوق ليل تلال (فوق التلال) نشاهد النجوم الحارسة الهلال ، خدينى باليمين أنا راقد شمال ، فيكاد الشباب يميلون على جنوبهم اليسرى متلهفين أن تأخذهم احداهن باليمين !

الحزمة بمليم ، « برو » وش المراية · وش المراية · خدينى باليمين

٠٠٠ باليمين ونحنا كالزهور ٠٠ كالزهور ٠٠ ثم ينتهى الليل ويشحب القمر ليختفى خلف التلال الغربية أو يغوص فى مياه النيل بعيدا هنالك عبر المنحنى الشمالى ، بينما أحمد عودة وشليب والشيخ فضل يتفقون على عبور الجبل الى الدر ، عاصمة المركز لزيارة بدر أفندى ، واستطلاع أخبار غد قريب يتوقعونه ، بقلوب متوجسة هالعة ، يزيد من اضطرابها انهم لم يقرروا بعد ما الذى يفعلونه لمجابهة ذلك الخوف الذى ينبجس فى صدورهم ٠

وهدأت القرية ، ونام الاطفال بعد أن مروا بأعمدة التليفون والصقوا آذانهم بها يصيخون السمع الى كركرة لا يفهمون لها معنى ، لقد تأخروا ولعنة الله على تلك الاقراص السوداء التى تبيع الحزمة بمليم يادرة ، وترقد بالشمال لتؤخذ باليمين ، وتقهقه كالمجنونة ـ سهروا طويلا ، وربما لن يكون لهم فى السحر وقت كاف لرحلتهم المعهودة عند الغسق ٠٠

غاب القمر واستقر على فراشه الوثير ، فوق الرمال الناعمة الصفراء خلف التلال الغربية ٠٠ بينما الشمس تفرك عينيها وتتمطى دون أن تحسر رداء الليل البارد عن وجهها الخاطف الوضىء ٠٠

وبعد آذان الفجر ، وقبل أن يلقى الليل وشاحه ، تردد فى النجع عواء الذئب يرسله برعى ، ينادينا الى رحلتنا المعهودة ، فبالليل هز نسيم نشيط أعطاف أشجار النخيل ، والمراكب السوداء المحملة بكل أنواع الهدايا ، قد بدأت ترسو على مرافئنا ٠

وفى مثل هذا السحر من كل يوم فى الموسم اعتاد أطفال نجعنا أن يحملوا فوانيسهم المضاءة يهبطون بها الى غابات النخيل ، فيجوسون خلالها ، ويجمعون من تحتها ثمارا نضجت وتيبست فناءت بحملها الاشجار ونفضتها حين هز النسيم جذوعها ، ويعودون مع الشمس ، وقد ملأوا بالثمار سيالاتهم وطواقيهم ، الى الصوامع الطينية الصغيرة ، فيدسونها هنالك فى انتظار بداية الموسم ليحملوها الى المراكب السوداء ٠٠ فيشترون المزامير والسنانير وألوانا من المباهج لا يعرفونها الا فى أيام الموسم ٠ ٠

وما زلت أذكر تلك الصوامع الصغيرة الرابضة فى بيتنا الى جانب الصوامع الكبيرة ، واحدة منها كانت لى أجمع فيها من التمر ما استطيع جمعه ، وأسرق لها ما أستطيع سرقته من صومعة « بطة » شقيقتى

الصغرى، وكم تشاجرنا أنا وهذه الشقيقة. كم خدشنا وجهينا ، وحطمنا صومعتينا وأعدنا بناءهما ؟! . كانت تضربني وتأخذ لنفسها كل ما أجمعه . فأتحايل حتى أثقب صومعتها نافذا اليها من القاع ، من تحت الارض لاضم حفنات من البلح الى صومعتي .. فتكتشف جريمتي فتتعلق بي تضربني لا يفصل بيننا الا جميلة شقيقتنا الكبرى .

***

تردد عواء الذئب مرة ثم أخرى ، ومن كل بيت كان يتسلل فانوس الى الطريق ، تتلوه فوانيس أخرى ترسم أضواؤها الشاحبة هالات من النور حول أقدام فتية تنتعل المداسات الحمراء ..

ويتحول النجع كله في دقائق معدودة الى نقط مضيئة متناثرة تتقارب ثم تتباعد ، تهدأ ثم يطوح بها فوق الرءوس هنا وهناك .. ثم تسرى في طابور جميل لا تنتظم خطاه هابطة بنا الى أجمات النخيل ، تسرى في نجعنا وفي الجزيرة وفي النجوع التي تلي بيوتنا ، وفي كل القرى في نفس اللحظة التي تصوصو فيها مشاعلنا الهادئة ..

والثمار المتناثرة تحت النخيل في السحر مشاع لجميع الاطفال ، وليس في مقدورك أن تحول أحدا دون التقاطها من تحت نخيل أهلك بل ان أقوى الأطفال ، وأكثرهم حذقا هم الذين يستطيعون جمع أكبر قدر من الثمار ..

والغريب أننا نحن الذين كنا نرتعد خوفا بين غابات النخيل وعلى الشاطىء اذا ما تمشى الليل بظلامه الكثيف كنا ننسى هذا الخوف في السحر على ضوء فوانيسنا وعلى صيحاتنا الصاخبة ..

وكان يكفي أن تلتفت حولك لترى كل أطفال النجع ينحنون ثم يستقيمون ويتقافزون من نخلة الى أخرى ، والبله منهم هم الذين كانوا يتطلعون الى ما فوق رءوسهم ، بدلا من الانكباب على مواطن الاقدام ، ودون أن تخلبهم المناظر الساحرة التي تتلون حولهم مع الشفق .

التنافس يبعث الحرارة في الاقدام فتجرى هنا وهناك ، فها هو « اش الله » يطرح بكرا على الارض .. ليسبقه الى جمع ثمار أشار اليها صالح جلق بصيحة مرحة من فمه ، وتريث بكر حتى يرى اش الله منحنيا على الأرض ، فيقفز ويطرحه على الارض بينما شريفة وبطة تصرخان ،

ويحول بينهما برعى بصرخة غامضة وبلكمتين ، فيتوقفان٠٠ثم يواصلان نقارهما فى سباب متصل ٠٠ ثم ينكبان على جمع الثمار ٠ وقد تناسيا ما حدث بينهما ٠

وفى ذلك السحر بالذات تم شىء لم يكن يحدث من قبل ! اذ تلفتنا حولنا فلم نجد برعى ولا شريفه ، فقد اعتادا أن يجمعا الثمار معا ، ويبدو أن برعى انتهز فرصة انتقار والنجاج بين اش الله وبكر ، فابتعد بها عن انظارنا مخفيا فانوسه أمام جسديهما ، ثم تواريا خلف غابة أخرى من النخيل ٠

وترددت صوت بطة وبخيته فى الغابة ٠٠

ــ شريفة ٠٠ شريفة !

وهتف اش الله ينادى :

ــ برعى ٠٠ أين أنت يا برعى ؟

ثم استأنفنا عملنا من جديد حتى امتلأت سيالاتنا ، وفى النهاية أشارت بطة الى اشعاعات الشمس الباهتة وقالت :

ــ يجب أن نعود فجدتى تستيقظ الآن ٠٠

وأبيت أن أعود معها بل قررت انتظار برعى وشريفة ، فقد تملكنى فضول غريب آنذاك ، فلوت «بطة» بوزها ودفعتنى فى صدرى ثم انطلقت ومن خلفها بخيته وبقية أطفال النجع واستندت أنا الى جذع نخلة وأخذت أراقبهم وهم ينعطفون الى الطريق العام ٠٠

كان الليل يلفظ أنفاسه والكون يتمطى ٠٠ والشمس تكاد تقفز فوق التلال الشرقية وتتبدى كقطعة مستديرة من الخشب تتوهج فى كانون بعيد وتلقى أضواءها الحمراء الشفافة على المخمل الأخضر المنطرح فى استرخاء كسول على الأرض فوق الشاطى وفى الجزيرة ، وبين الجذوع وتعكس ظلال النخيل وأشجار السنط والاتل والدوم طويلة على مد البصر والجنادب تنتقل من حرش اللوبيا الى حرش آخر ، والعصافير تستعد للزقزقة ، والقصر الأثرى الى الغرب يلقى قتامته على الرمال الغافية حوله ، والجروف المبتلة تحتضن الترمس وتغفو ، والامواج الهادئة المرتعشة تدغدغها الريح لتستيقظ وتنهض لتشترك فى زفة الصباح ،

بينما السواقى النائحات الدامعات أبدا ، والشواديف الراكعات الساجدات مطرقات لا يبدين حراكا ، مرهفات من نوح الامس وصلاته الخاشعة ٠

انها الطبيعة تنهى احلامها الفجرية لتبدأ نهارا صاخبا من الامواج الهادرة المتلاطمه فوق خد الشمندورة الحمراء الغارقة المناضلة ابدا لتتخلص من قيودها ، لا تخلد الى اليأس الا اذا ما هدأت الريح واستكان النيل ٠٠

ولكن فى نفس الوقت كان يستيقظ فى قلبى تطلع جارف لمعرفة ما يدور هناك بين برعى وشريفة ، فجعلت استحث الخطى بين أشجار النخيل وعيناى تدوران هنا وهناك بحثا عنهما ٠ وعبر أشجار النخيل « صوصو » فى عينى ضوء خافت وجهت خطاى نحوه ثم تناهى الى سمعى همس ووشوشة يختلط بهما حفيف الاشجار وهمهمة النيل » ٠

وأخيرا وجدتهما غائبين عن كل ما حولهما فلم ينتبها لوقع خطاى : الفتاة بسمرتها الناضرة وصدرها الناهد وفى عينيها بريق عجيب ٠٠٠ والفتى بملامحه الفتية الصارمة عليها شفافية الفجر ٠٠

وأشارت الفتاة الى نخلة يملكها أبى وقالت :

ـ سباطة واحدة من هذه تملأ صومعتى !!

ونفش برعى صدره وصاح فى زهو :

ـ لك النخلة كلها اذا أردت !

وعضت الفتاة يدها وهزت اصبعها فى وجهه وهى تقول :

ـ أتسرق !؟

ـ فى سبيل رضاك أسرق يا شريفة ٠٠

فشقشقت بلسانها تنهاه ولكنه أولاها ظهره وأقبل على النخلة يحيط ساقها بذراعيه ٠٠ ويهزها هزات مسعورة تساقطت الثمار معها على الأرض ـ كالمطر ـ والفتاة تصرخ مرحة وتضحك ثم تحسر طرحتها عن شعرها ، وتنحنى وتجمع البلح المتساقط فيها وهى تصرخ :

ـ يا لله ٠٠ كم هى كثيرة !؟

وتوقفت كأنما أنبها ضميرها وتلفتت هنا وهناك ، بينما تواريت أنا

ثم تغلبت على ترددها ومضت تجمع حتى ملأت طرحتها وهى تهتف :

ـ كفاية .. كفاية !

وحدق الفتى فى الأرض ثم ترك النخلة وساعدها فى جمع الثمار حتى أوفيا على غايتيهما من سرقة نخلتنا وأردت أن أصرخ فيهما لكننى ترددت وأحجمت ابقاء على صداقة برعى وخوفا منه ، وحبا فى استطلاع ما سيدور بينهما بعد جمع الثمار ..

كانت الفتاة قد استندت الى جذع نخلة .. ومضت تحدق فى السماء خلال السعف والجريد فتنعكس الاشعاعات الاولى فى عينيها فتبرقان بينما يداها منطرحتان الى الخلف ، وصدرها بارز الى الامام ، وضفيرتاها منسدلتان فى استرخاء على منكبيها ، ثم انزلقت بعينيها الى الفتى الاسمر الذى طفق يتملاها ويتأمل وجهها صامتا !!

ثم قرر الفتى شيئا ، وخطا خطوتين نحوها حتى توقف أمامها ، وبدت الفتاة وكأنها تنكمش وتندمج فى الجذع ، لقد رأت فى عينيه شيئا روعت منه ، نفس الشىء الذى لمحته فى عين حسن المصرى يومذاك ، بين عيدان الذرة !

ثم تحول الشىء الى غضب أحست به فاضطربت وأرادت أن تنفلت وتعدو ، ولكنه مد يده اليمنى وثبتها على منكبها ، يضغط بشدة وهو يهدىء من روعها ..

ـ لا تخافى يا شريفة .. أريد ..

وأجفلت الفتاة وقالت فى فزع :

ـ ما الذى تريده ؟

فتلعثم الفتى وهو يهمس :

ـ أريد أن أسأل ..

وازداد ضغط يده على كتفها وهى تقول :

ـ هوى .. برعى .. انك تؤلمنى . .فلم يبال .. بل ثبت عينيه فى عينيها وقال بحزم :

ـ ماذا يفعل حسن المصرى فى بيتكم ؟

حسن المصرى ؟ ماذا يفعل فى بيتنا ؟ انه لا يفعل شيئا ٠٠ ولكن لماذا يسأل برعى عما يفعله الرجل ٠٠ وما شأنه ؟ أيكون أحد قد افضى اليه بما حدث بين عيدان الذرة ؟ ربما يكون حامد ٠٠ برعى لا يزال يضغط على كتفى وفى عينيه بريق ٠٠ انه مجنون ٠٠ لماذا يسألنى ؟ انه يكرر ٠

ــ لماذا تصمتين ٠٠ ردى ٠٠ لماذا يتردد عليكم فى الضحى وفى الليل وفى العصر يا شريفة ٠٠ لماذا ؟

وأحسست أنه يعرف كل شيء وتساءلت ، ولكن لماذا يعترينى هذا الخوف أمام نظرات برعى ؟! لقد قاومت الرجل الى أن تغلبت عليه ٠٠ لماذا لا أقول لهذا الآخر كل شيء ؟ كلا لا يجب أن يعرف ٠٠ وتذكرت نفسها وهى تغوص بين الامواج، وتذكرت حسن المصرى وهو يسبح بها الى النتوء، وأحست بصوتها يخترق سمعها ٠

ــ حسن المصرى ! لا شيء يا برعى ٠٠ لا شيء ، انقذنى من الموج يا برعى ٠٠

وابتلع الفتى ريقه وتنحنح ثم قال فى غيظ :

ــ أنقذك ! ليته ما أنقذك !

فروعت الفتاة وصاحت :

ــ تتمنى لو مت !

فأسرع ينفى بشدة ٠٠

ــ لا ٠٠ لا والله العظيم ٠٠ بل أردت أن أقول : ليتنى أنا الذى أنقذتك ٠٠ ثم ، أيحق لحسن المصرى أن يدخل بيتكم لأنه أنقذك ٠٠ كلام الناس يا شريفة ٠٠

صمتت الفتاة لحظة وشفتاها ترتعشان ، ثم صاحت :

ــ لكن ٠٠ ألا يدخل حسن المصرى بيتا غير بيتنا ؟!

ــ البيوت الاخرى فيها رجال يا شريفة !

وتذكرت صراعها مع الرجل ، وافلاتها منه بين دغل الذرة بعد أن كفأته على وجهه فقالت فى حماسة :

ـ أنا الاخرى رجل !

فضحك برعى ضحكة جافة وكرر تهديده :

ـ الكلب ٠٠ لو جاء عندكم مرة واحدة ٠

وأمسك عن اكمال تهديده، وتريث بينما الفتاة تواصل تفكيرها حتى اهتدت الى فكرة نفذتها على الفور :

ـ انما يأتى لاصلاح الباب والعنجريب ٠٠ و ٠٠

وتفرست فى وجه برعى ثم أضافت فى صوت هامس :

ـ ولماذا لا تأتى أنت أيضا ؟ أمى تقول ان سقف البيت فى حاجة الى اصلاح ٠٠

وتنهدت تنهيدة عميقة ثم قالت :

ـ لو كان جمال هنا ٠٠ لو لم يسافر !

ثم ابتسمت ابتسامة واهنة٠٠بينما قهقه برعى وكأنه وجد الخلاص ومضت هى تغوص فى دوامة أفكارها ٠٠ انهـا تحذر من حسن المصرى وتخشاه ، ولا تسمح لنفسها أن تلقاه على انفراد ٠٠ بيد أنها رغم حذرها منه لا تكرهه أبدا ٠٠ وكيف تكرهه وهو الذى أنقذ حياتها ؟! ولا يزال يقدم يد العون لها ٠٠ حتى روث البهائم يجمعه ويجففه ويحمله الى بيتها ٠٠ وهو حين يغشى البيت لا يأتى منـكرا ٠٠ صحيح انه يغشى البيت فى الضحى ٠٠ ويغشاه فى الاصيل ٠٠ ثم ماذا ٠٠ لقد رأته مرة يترك البيت فى منتصف الليل ٠٠ ولاحظت الارتباك على وجه أمها التى أشارت بسرعة الى جذع نخلة قائلة :

ـ جاء به من شونة الشيخ أمين فى الليل حتى لا يراه أحد ٠٠

كان يأتى ويجلس على المصطبة الداخلية يشرب الشاى ويزدرد حفنة أو حفنتين من التمر والفشـار الابيض ، ويظل يدردش مع أمهـا ، حول الغربة والابن الغائب ٠٠ فلماذا لا يأتى برعى مثله ؟ « آه » كم أتمنى لو رفع يده عن كتفى ، ثم أحست بموضع فى فخذها يلتهب ، موضع قبضة حسن المصرى التى لن تنساها ، القبضة التى لا يكررها ٠٠ ولن تسمح له أن يكررها ، فانه ليس من ولد العم ولا من ولد الخال ، وليس من شباب النجع ٠٠ انه غريب ٠٠ من مكان بعيد ، لا تعرف عنه شيئا ٠٠

وبدأت العصافير ترسـل دفقات طروبة من الشـقشقة ، وترفرف بأجنحتها الصغيرة فوق رأسيهما ، ولمع على صفحة النيـل ، رفاص مضت قلاباته تشرخ النيـل ، فاتجهت شريفـة كما اتجهت أنا ببصرى الى هـذا الرفاص .. أما برعى الكلف بكل ما يجرى فى النيل من مراكب ودوامات وبالشمندورة وبكل رفاص أو باخرة ، فقـد انشغل عن النيـل فى هذه اللحظة بما كان يعتمل فى صدره ، من حيرة ورغبة عارمة ..

راقت له فكرة اصلاح السقف، وسيعمل من غد على اصلاحه وليذهب الـكتاب وشيخه الى الجحيم . انه مشغول فى هـذه الايام بالرية الخامسة للذرة ، وبزراعة بعض المحاصيل الشتوية مثل الفول واللوبيا تحت الذرة ويشتل الباذنجان ، وغدا سينشغل بقطع الذرة والنخيل ، ولن يذهب الى الكتاب .. أبوه نفسه يقول ذلك .. وفى وسعه أن يفرغ حينا لاصلاح هذا السقف ..

كان الرفاص لا يزال يدمدم على صفحة النيـل وينفث الدخان من منخره العالى العريض ، بينمـا برعى لاه عنه ، يفـكر فيما قالته شريفة ، فرصة طيبة يجب انتهازها ، وليس فى وسـع الجزار أو البسطاوى أن يعترضا بحجة قرابتهما لداريا سكينة..سيسميها خالته ، ولا دالة لهما عليها اذ لا يهتمان بشئونها ولا يقدمان لها أية مساعدة ..

ومد يده الاخرى ووضعها على الكتف الاخرى وخطا خطوة وهم بها يريد أن يقبلها فاشاحت بوجهها فى سرعة تركت له فرصة للتفكير : فمضى يقول لنفسه : الذين يريدون الزواج من فتاة فى قريتنـا .. لا يقربونها بسوء ولكنها جميلة ومغرية . شفتاها . صدرها . ثناياها . واللمعة التى فى عينيها ، وضفيرتاها الفاحمتان .. يده ما زالت تضغط على مكنبيها ، وجسده يكاد يلاصق جسدها وأنفاسه الساخنة ، مختلطة بندى الصباح ، تلفح وجه الفتاة ..

وأحست أن عضلات يده تتراخى ، ثم رأته يرفع يديه ويهوى بهما الى جانبه ، ثم يخلى سبيلها ويتراجع خطوتين وهو يهمس :

ــ آن لنا أن نعود ..

فأفاقت لنفسها على كلماته ، وجالت بعينيها فى بطء فيما حولها ، فى أوراق الشجر والغصون ، واشعاعات الشمس المتكسرة ، بسبح الغبار فى ثناياها ، وفى الدنانير المضيئة المتناثرة على الأرض ، وفى لمعة الماء على

صفحة النيل ، وفى الدخان المتصاعد من بيوت الجزيرة وقالت :

ـ تأخرنا ٠٠

وانحنت على الارض ، ترفع الطرحة المثقلة بحبات البلح ، فلمحتنى وارتسمت الدهشة على شفتيها حين رأتنى ، وتراجعت يداها عن الطرحة ، وأحسست بالحرج فتركت مكانى ٠ ومضيت استحث الخطى بينما انعطفا الى دروب أخرى وأسرعا الى الطريق العام يواجهان الشمس التى كانت قد ارتفعت من خلف التلال ، فوق الصخرة المعلقة فى كتف الجبل ، وانفصلا عند تحويشة عبد الله الجزار ، وتفاديا مجموعات الرجال الذين أقبلوا من البيوت الى المزارع ٠٠

ومضيت أفكر فى برعى وشريفة وأيقنت أن مابينهـــما محظور ، والا لما اختفيا عن الأنظار بين النخيل ٠٠

٦

فى مثل هذه الأيام من كل عـــام ، من أوائل سبتمبر الى نهاياته ، يزدحم المتجر بالرجال والنساء من نجعنا ، ومن النجوع القريبة ٠٠ وينهمك أبى وخالى طول الليل والنهار فى مراجعة دفتر «الأستاذ» واليومية ٠٠ الدفاتر تفتح فى مثل هذه الأيام كثيرا وتطوى ، حتى تتمزق أوراقها ، فالتشطيب بقلم الكوبيا ، يمر على صفحاتها بقسوة ولاسيما دفتر اليومية ، بعض الرجال يأتون من الغيط ٠٠ والطوارى والفئوس معلقة بين الأعناق والأكتاف يركنونها على الحائط ويتربعون على البرش ويديرون الحســـاب فى هدوء ، ثم تعلو الأصوات أحيانا ، وترتفع الأيدى وتعم الجلبة ، وتنطلق أغلظ الألفاظ من أفواه الرجال :

ـ سبع كيلات ذرة ٠٠

ـ لا ٠٠ بل خمس ٠٠ ولا حبة زيادة !

وعلى الطلاق من مراتى ، عليك أربع كيلات من القمح ٠٠ كلا ٠٠ على الطلاق ما على الا ثلاث كيلات وطرحة ونصف قمح سكر ، لا غير ٠ ثم يسوى الحساب التفصيلى فى نهاية الأمر ٠٠ لكن الرجل يكتشف انه مطالب بخمسة جنيهات كاملة فيشتجر الخلاف ويتفرع ٠ ثم يضطر خالى الى فتح دفتر اليومية من جديد ليبدأ العنت ٠٠ وعلى الطلاق من مراتى ، وراس السيد الميرغنى ومقام الحاج مكاوى ٠٠

وينفد صبر التاجر فيصرخ :

ـ ياضلالى ٠٠

وتتقد عينا الرجل ، وتنبض عروقه وهو يهتف :

ـ أنا ضلالى ، والله والله انت الضلالى ٠٠ انت وخالك ، ويضحك أبى ، ويعبر البنك الزنك ٠٠ ويهدىء من روع الرجل ثم يجلسه من جديد وهو يقول :

ـ طيب ٠٠ طيب ٠٠ نبدأ الحساب من الأول ، واحدة واحدة ويلتفت الى خالى ويوعز اليه :

ـ افتح الدفاتر من جديد ٠٠

ويضرب خالى كفا بكف ، ويتمخط ٠٠ ثم يبدأ الحساب من أوله ٠٠

ـ ألم تأخذ خمس أقات سكر ؟

ـ متى ؟

ـ يوم تنزيلة الذرة خلف المحراث ٠٠

فيسكت الرجل ، ويعتبر التاجر سكوته علامة الرضا فيؤشر بقلم الكوبيا ليقول من جديد :

ـ وأخذت من الولد حامد ثلاث قطع صابون فرنساوى يوم تلقيح النخيل منذ أربعة شهور ٠٠ وعشرة أمتار دبلان يوم تعشير بقرتك ٠٠

ويتذكر الرجل ذلك جيدا ، ويومىء برأسه ٠٠ ويعترف بكل شىء اما بهزة من رأسه ٠٠ أو تكشيرة فى وجه التاجر ولكنه فى نهاية الأمر لا يعترف بالحساب الاجمالى ، ويقسم أن التاجر ضلالى ، خرب الذمة ثم

يتملص وينهض غاضبا ، يسب ويلعن التجار · كل التجار وينصرف ، فيطوى التاجر دفاتره ، ويشعل سيجارة ينفث دخانهـا وهو يزفر ، ويضرب كفا بكف ، وتأتى خديجة وتدلف من الباب «فضيلة» ثم تنصرف لتحل محلها أم سعدية ويدور الحساب وينتهى على خير أو على نكد ·

ومن جديد يعود الرجل الأول مع ابنه الصغير رقيبا على الحساب : غلام فى الثامنة من عمره لا يعرف غير فك الخط ، ثم يدور الحساب من جديد ، والولد لا يفعل شيئا غير الدوران بعينيه على رفوف الدكان ، الا أن الحساب ينتهى بعد أن يكون الرجل قد طلق أم هذا الولد مرات عشرا ·· تنتهى بتنازل دفتر الأستاذ عن ستين أبيض ، فيقول الرجل لا راضيا ولا ساخطا ، مطمئنا الى أن ابنه الذى يعرف القراءة والكتابة كان رقيبا على التاجر فى الجمع والطرح ·· يقوم ويعلق طوريته بين عنقه وكتفه ويبارح المتجر والولد مازال يدور بعينيه على الرفوف فى نهم ·

وتأتى زبونة أخـرى · صاحبـة زار · معطرة ، يلمع الذهب فى معصمها وحول رقبتها ، شعرها المصبوغ بالحناء يتنافر مع الوجه الاسمر المتعرج ·· ويدور الكلام قبل الحساب عن مصر وعن ابن تملص من دفع ديون أمه هذه ·· دع الاسياد يدفعون لها فهى تبدد كل ما تكسب فى الزار ! وعن شقيق رفض أن يدفع الا خمسين قرشا يخصمها التـاجر بالكوبيا من حسابهـا مطمئنا الى ان تخيلهـا الكثير سيفى بديونهـا ، وينهضان الى البنك ويعرض الرجل عليها طرحا سوداء فتأبى أن تأخذ منها وهى تحتج :

ـ أتحسب اننى عجوز ·· هات طرحة من ·· أم التاجر ! ··

فيضحك التاجر ويشب على قدميه ، ويفض صندوقا ، ويضع أمام عينيها طرحة من ·· أم التاجر ، ملونة ، ناعمة وخفيفة ··

تلك كانت حالة المتاجر وعملائها فى قرانا قبل بداية الموسم ، يكاد التعامل بالنقود فيهـا لا يوجد اذ لم تكن قد اكتسـبت بعد قدسـيتها المعبودة ! ··

كل أسرة تفتح حسابا فى المتجر وتجر ما تشاء ، واثقة أن الموسم سيأتى ·· ثقتها فى طلوع الشمس من خلف التلال الشرقية كل صباح ، وحينذاك يستوفى التاجر ديونه على داير مليم ، يستوفيها تمرا ، كيلة الذرة بكيلة بلح ، والقمح بكيلتين ·· وقد يفيض ماتقدمه فلا تأخذه بل

تتركه رصيدا لها ، وقد يقصر المحصول ، فلا يكف التــاجر عن تقديم الديون ، الا انه قد يتخذ بعض الاجراءات مثل كتابة كمبيالة أو تحــول اليه الاسرة ما يصلها من حوالات مالية من الابن أو الزوج الغائب فى مصر يكدح ويرهق نفسه فى احدى العمارات أو الفنادق والمشارب ، طباخا أو بوابا ، مرمطونا أو سفرجيا ٠٠

وقد تنقطع الحوالات شهورا بل سنين طويلة ، فيطمع التـــاجر فى قيراطين تملكهما الاسرة وتعض عليهما بالنواجذ ، فتبكى وتستعطف ، ثم ترهن وترسل ابنا آخر صغيرا أو زوجا الى مصر ٠٠ ليعمل هو الآخر فى نفس العمارات والفنادق والمشارب ، فليس من المعقول لرجل أو لطفل صغير يرحل فجأة على هذه الشاكلة أن يمتهن عملا لا دربة له عليه ، عملا قد يكلفه اتقانه وقتا طويلا ، فيندفع الى أسهل المهن ، مرمطونا يرتقى الى سفرجى بعد كدح طويل ، ثم يرسل كل مايكسبه الى الاسرة لتســـدد ديونها وتبقى على القيراطين فى حوزتها ، فالارض ضنينة فى قريتنا ، وان كانت تجود ـ فى زعمهم ـ كما لاتجود أرض فى الدنيا بحالها ٠٠

كانوا جميعا يحتضنون القيراط ، والقـــيراطين ٠٠ كما يحتضن الانسان أطفاله ، أو معشوقته ٠٠ ثم يهاجرون ويتركون هذه المعشــوقة لتبقى لهم على البعد ٠٠

هكذا هاجر الألوف ، فعاشوا بعيدين حتى شاخوا ، ثم عادوا الى القيراطين اللذين دفعوا حياتهم ثمنا لاستبقائهما ، عادوا اليهما يخربشون فى الأرض بفئوسهم ، ثم ماتوا ليمزقهما الارث الى شرائح تتبدد ما بين الجسور والأقنية والبتون ٠

ـ ومنذ عام هاجر البعض ، ومنذ شهور عاد آخرون يتوج الشيب رءوسهم ، وهم الذين تركوا القرية سود الشعر فى ميعة الصبا ٠٠

ومنذ عامين هاجر جمال : وحيد داريا سكينة ٠٠ ليعمل ويستبقى قيراطين أودعتهما أمه رهينة عند أبى ثم تناساهما جمال ٠ تناسى أمه وشقيقته ، لقد ابتلعه زحام المدينة العاتية !

وها هى أمه الحائرة تدلف من باب المتجر والنكد باد على وجههــا رغم أمل خافت يداعب صدرها : أن يرحمها التاجر فلا يثقل عليها ٠

ويدور الحساب ، وهى ترسل دمعة مع كل رقم وآهه عنــــد كل صفحة تقلب ، لتتجمع ديون الأيام الطويلة كما تتجمع الغيوم وتنذر بحساب

كبير تنوء المسكينة بحمله ، فتغص بدموعها ، وتلهث وكأنها قطعت شوطا كبيرا على قدميها ·· من بداية العام الى نهايته وتهتف :

ـ وونور ·· يارب ·· لماذا تركتنى ياجمال ؟ !

وتنزلق دمعتان على دفتر الاستاذ وتذيبان السكر على الشاى ·· والجاز على الزيت ·· فتختلط الأرقام ، فيقطب التاجر ويزوى مابين حاجبيه ، لكنه يكظم غيظه حين يرى مايرتسم على وجهها من نكد جاثم كما يجثم الكابوس ، فينشغل برش حفنة من التراب الناعم على موضع الدموع فى الدفتر ثم يطويه ويتمخط ويبصق قبل أن يشعل لفافة ويقول مواسيا :

ـ صدقينى يا داريا ·· أنا لم أره ·· آخرون رأوه رأى العين ·· أبعدى الشر عن قلبك : فجمال خالى شغل ··

كل الناس تمر عليهم الأعوام دون أن يجدوا عملا ··

ورفعت داريا رأسها فى تثاقل ·· ثم همست من بين الدموع ··

ـ ولكن لماذا لا يرسل لنا أخباره : تعريفه ·· بارة ستين أبيض !

ـ مكسوف منك ، ماذا يقول فى خطابه ·· عما قريب يعمل ·· لن ينساك الله ياولية ·· استغفرى الله ياداريا ·· ياحلوة !

وأحست المرأة بالرقة التى تخللت كلمات التاجر ، فتشجعت وسألت :

ـ ولكن ماذا أفعل فى الديون ؟

فمد يده وربت على كتفها ثم همس :

ـ ماعليك ياداريا ·· المحصول ، والذى يتبقى تسددينه حين يعمل جمال ·· انه يحبك ·· ألا تذكرين تعلقه بك ؟ ··

نعم ! انها تذكر ، ولكن الرجل يكذب لتهدئة خواطرها ، وغدا يطالبها شريكه بكل ديونه ـ اضرب ولاقى ـ وجمال ·· قلبها يحدثها · انها ستعرف خبرا عن جمال ، فان براحة يدها اليمنى دغدغة متصلة منذ أيام ، أمارة على أنها ستتسلم خطابا ·· و (كلو) أيضا وزيارته ·

وعاشت فى أحلام اليقظة لحظة وبان البريق الناضر فى عينيها من جديد ، وأحس الرجل بما أحدثته كلماته فى نفسها ·· فواصل حديثه :

ـ حرام عليك ! أنسيت أيام الشباب ٠٠ وأنت رخصة مثل ورقة اللوبيا ٠٠ كنت لا تبكين ٠٠ أما الآن فانك تذبلين من فرط البكاء ٠٠ انك تدفنين جمـــالك ، ولكنك مازلت جميلة ٠٠ ومازلت صـغيرة ، لا تستطيع العين أن تفرق بينك وبين شريفة ! ٠٠

كانت هذه الكلمات تتدفق من لسان خبير ٠ وداريا تتغلب على انفعالاتها المؤلمة وتبتسم حتى خيل لى انها قد نسيت « جمال » تماما ٠٠

ـ أنت عروس : الشيخ أمين لن تضيره زوجة ثالثة ٠٠

ومدت يدها ودفعته فى صدره وهى تقول :

ـ بلا زواج بلا سخام ٠٠ هىء ٠٠ هىء ٠٠ هىء ٠٠ زوجة ثالثة !

ـ ايه ٠٠ وكم تطلبين مهرا ؟

فتتثنى المسكينة ، رغم انها تعرف أن الرجل يمازحهـا ثم تفيق لنفسها وعيناها تقعان على البنك ، فعليه تعودت أن تجلس «جمال» وهى تشترى له الملبن والحلوى ، وأمام هذه النتيجة وقف يوم رحيله يودع التاجرين، ويقسم لهما أنه سيسدد ديون أمه، ويوصيهما بها خيرا ويوصى « حامد » الصغير بأخته شريفة ٠٠ عيدان مرا دون أن يرسل شيئا ٠٠ لماذا لا يرسل ؟ أتراه مات ولا يعرف أحد عنه شيئا ٠٠ وهنا ســالت دموعها من جديد ، وأحست أنها ضائعة ، ولا يزال أحمد عودة يتحــدث ضاحكا عن الزواج ٠٠ هكذا دائما يتحدث أحمد الى النســاء ٠٠ ولكن لو رضى الشيخ أمين هل يرضى جمــال ؟ كلا : أمين طاعن فى السن ولن يجديها ٠٠ وهل من المعقول أن يتزوج رجل مثل أمين امرأة مثلها ابنة جارية وعبد اعتقهما جد عبد الله الجزار ؟ ٠٠ أغلب الظن أنه يعرف شيئا عن الاشاعات التى تدور حولها وحول حسن المصرى ! جسمها يسومها العذاب ٠٠ فهى لاتزال شابة ! ٠٠ ولكن هل تقبل الزواج ؟ ٠٠ وماذا تفعـل شريفة اذا ماتزوجت هى ؟ والقيراطان ٠٠ وهل يرضى جمال ؟ ٠٠ ثم رفعت رأسها فجأة لتهمس فى صوت مبحوح مختنق :

ـ اسمع يا أحمد : القيراطان فى ذمتك وفى ذمة الشيخ أمين ٠٠

وتلفتت لترى أين أبى فوجدته عبر البنك الزنك فحذرته بأصبعها :

ـ ليس من حق أحد أن يبيع القيراطين ٠٠ جمال لن يرضى ٠٠

وأطرقت ثم قالت فى عنف :

ـ خربتم بيتى ، أخذتم القيراطين وكل مصاغى ومعيزى ٠٠ كل شىء أخذتموه ، حتى جمال أرسلتموه الى مصر ٠ دمه فى رقبتكم يوم القيامة ٠٠ يوم القيامة !

فصاح بها أبى :

ـ الحق علينا يا ولية ٠٠ سكتنا له دخل بحماره ٠٠ اخرسى ٠٠ منذ عامين ترددين هذا الكلام الفارغ !! ٠٠

ـ حرام عليك يا « أمين كلثومة » ٠٠ أمك كانت صاحبة أمى بالروح ٠٠ زوجى المرحوم كان صاحبك ، وشريفـــة ابنتك ٠٠ حرام عليك ! لم تترك لى الا معزة واحدة والآن تريدون بيع الأرض ٠٠

وتدخل أحمد عودة ، وأمسك بيدها ودفعهـا الى الباب وهـــو يقول :

ـ اذهبى الآن ٠٠ اقصرى الشر واذهبى ٠٠ وتعالى بعد قليل ٠٠ كلا ٠٠ ابعثى بشريفة ٠

فخطت خطوتين ، وتوقفت عند الباب ، تعانى احساسا غريبـــا بأن الدنيا تدور بها ، ان الرفوف والبنك يطبق عليها ، فتشد ضفيرتيها المجدولتين بينما أخذ أحمد عودة يطوى دفاتره وهو يردد :

ـ لا اله الا الله ٠٠ لا حول ولا قوة الا بالله ٠٠ ابعدى يا ولية عن الباب ، اتركى الخير يدخل علينا ! ٠٠

فانبرت لتهاجم ، لكنها أطبقت شفتيها على صوت خشن يلعلع من خلفها ، عند مدخل الدكان :

ـ السلام عليكم ٠٠

فتلفتت لترى « ماهر أفندى » بجلبابه الافرنجى تنسدل من فوقه جاكتة صفراء قديمة ، وفى يده حزمة من الخطابات ٠٠

وتفاداها الرجل ودخل وصافح أحمد عودة ، وسلمه حزمة الخطابات وانصرف بعد أن اعتذر عن شرب الشاى ٠٠

ونشر أحمد عودة الخطـابات على البنـــك ومضى يقرأ فى همهمة مسموعة : عبد الراضى مختـــار ٠٠ خويلد ، الحاج على ســلطان ٠٠ ثم

توقف عند خطاب ، كتب عنوانه بخط منكوش مثل نبش الفراخ ، المحترم الفاضل أحمد عودة ومنه الى الست الماصونة ..

كانت داريا لا تزال عند الباب ، تختلس النظر فى لهفة الى حزمة الخطابات ، فقد دب الأمل فى قلبها ، جمـــال هناك بين يديك يا أحمد عودة .. قل لى بربك .. لا تخف على شيئا .. لن أبكى .. لن أجن ؟ .

وأخذ شىء ما يدق فى رأسها ، وانطلق وجيب قلبها يعربد بين ضلوعها ، ثم أحست بقدميهـــا تتحركان بها الى الداخل حتى توقفت خلف التاجر ، وهو لا يزال يفك طلاسم الخط ويهمهم : ومنـــه الى الست .. آه .. انها هذه المرأة المنكودة المسكينة داريا سكينة ..

وتلفت خلفه فوجدها تحدق فى يده بعينين دامعتين :

ــ داريا .. جواب يا داريا ..

فشهقت شهقة والهة ، ومدت يدها واختطفت الجواب . وانطلقت تجرى عبر الباب مرتطمة بأبى ، وخرجت منه الى الطريق ، لم تفكر لحظة واحدة أن عليها أن تتوقف لتقرأ الخطاب ــ ولماذا تقرؤه ، فانه الخطـــاب الذى تنتظره منذ عامين وكفى .. انها تتحسسه وتجسه ثم ترفعـــه الى شفتيها وتستقر به على رأسها ..

مضت تصرخ وهى تجرى ، وتزغرد وتهتف : يارب .. وونور .. الله يحرسك يا جمال ... يا ابنى .. أخيرا تذكرت أمك ! ثم سكتت فجأة وتوقفت عند المنعطف وكأنها حائرة : أين تتجه !؟ ومضت تهتف بعد تردد : وأختك شريفة .. « افتكرتها » بعد كل هذا الوقت .. ابن حلال ..

ثم ارتفعت بصوتها تنادى فى النجع كله .. شريفة .. يا بنت يا شريفة شريفة داريا ، جواب من جمال .. من جمال .. من جمال .. ياهوه يا ناس .. باركوا لى .. ياهوه .. تعالوا باركوا لشريفة ! ..

وفتحت أبواب ، واندفع منها أطفال ونساء وهى تجرى لا تلوى على شىء ، حتى ارتمت على عتبة البيت بين أحضان شريفة التى اختطفت الجواب منها تقبله وتبلله بدموعها ، وأمها لاتزال تهذى ..

ــ نلنا المنى بعدما صبرنا ، يا سلام يا شريفة .. أخوك افتكرنا .. وسوف يتذكرنا على الدوام ..

وامتزجت دقات قلبيهما ، ثم تهالكت الأم على المصطبة ، تروح بطرحتها ، وتهتف : جمال ياحبيبى ·· ضنايا ·· ياكبدى ·· أخيرا ·· كنت خالى شغل ، الله يجازى أمين كلثومة ·· هو السبب ·· شريفة هاتى قمع السكر بليه ووزعى الشربات ··

ورفعت رأسها لتجد ابنتها واجمة تتفرس فى الظرف ، فانه لم يكن قد فتح بعد ··

أدركت الفتاة أن أمها لم تعرف بعد مضمون الخطاب ، فدق قلبها بسرعة ثم انتزعت طرحتها وأسدلتها على شعرها ، وتخلصت من يد أمها وانطلقت تعدو فى الطريق الى المتجر ، ثم تعدل عنه حين تصادفنى ، فتندفع نحوى وتمسك بيدى وتجذبنى بشدة وهى تصيح فى صوت متهدج :

ـ حامد ·· تعال يا حامد ·· تعال ··

وقادتنى مهرولة بى عبر الطريق حتى مثلت أمام أمها التى كانت لاتزال تزغرد وتغنى أغانى شبابها ، وأمسكت بالخطاب تفضه بيد مرتعشة حتى بدا أنها ستمزقه فانتزعته أنا من يدها وفضضته بعنايه ، ولمعت عيناهما ببريق الأمل ، فقد أضاءتهما ورقة صفراء ، حوالة بريدية ، جنيه كامل تلقفته الفتاة منى وطبعت عليه قبلة ، ثم جذبتنى من كمى وأجلستنى على المصطبة بينها وبين أمها ، وأمرتنى أن أقرأ ·

كان الخط رديئا ، نبش فراخ لا أكثر ، من رجل اسمه حسين النجار ، وما ان نطقت باسمه حتى وجمتا ، فانهما تعرفانه ، وهو نفس الرجل الذى أرسلتا له تستفسران عن جمال ·· وماذا يقول الرجل ؟ ولماذا كتبه هو ولم يترك « جمال » نفسه يكتب الى أمه أم أنه مريض ، أم مات وانتهى أمره !؟ ··

وضغطت شريفة بصدرها على ظهرى ، تتفرس من فوق كتفى فى كلمات الرسالة ، تحاول أن تقرأها ، بينما الأم مطرقة الى الأرض تصيخ السمع فى صمت الى الكلمات وقد جمدت نظراتها ، وبدت قسوة الحياة على ملامح وجهها ·· اذن فمازال جمال سادرا فى جموده ! ياللمغفل ابن المغفل ، الكلب ابن الكلب ·· ماذا يقول حسين النجار عن ولدى ياحامد ·· انه يشكو من جمال ، اختفى منذ عام ·· لم يعد أحد يراه لا فى مقهى البلديات ولا فى الجمعية الخيرية ، بحثت عنه منذ رسالتكما ·· هنا وهناك

.. فى باب البحر فلم أجده وفى مصر الجديدة والبلاقسة وبولاق .. وفى الجيزة ، فلم أجده حتى عثرت به صدفة فى شبرا خلف جامع الخازندار ، حاول أن يتحاشانى ولكننى لحقت به ، فأسقط فى يده ، ودعانى الى بيته فانتزعت منه هذا الجنيه لكما بعد محاورة ومداورة ..

واتسعت حدقتا عين الفتاة ولمعتا عند ذكر الجنيه ، ورفعت الأم رأسها فى زهو ، ثم جف البريق ، وانحنت الأم تحت وقع الكلمات التى تلت : وهل تعرفين يا داريا من الذى يعيش مع جمال ؟! وزوجته !..

قرأت الكلمة ثم توقفت ، ولا أدرى لماذا توقفت ؟ ربما لأراقب يد الأم التى تشنجت على معصمى وكأنها يد ميت ، وربما لأن الفتاة اندلقت على كتفى وكأن نوبة اغماء قد ألمت بها حين فاجأتها الكلمة .. فلقد تزوج جمال كما يقول حسين النجار هنالك فى مصر ، من بيضاء فى سن شريفة ، أمها كانت تمورجية فى القصر العينى ثم ماتت فعملت خادما مع جمال فى قصر أحد الباشوات فى مصر الجديدة ..

رأيتهما بعينى فى مسكنهما على سطوح عمارة فى شبرا ، ولم أسترح لها ، فارغة العين .. تلعب كثيرا بحاجبيها ، وتلاطف دون حياء ضيفا اسمه حسين ، وتقهقه كما يقهقه الرجال ! والولد جمال مفتون بها تلطخ وجهها بالاحمر والابيض ، وتكسم الملاءة على جسدها وتتقصع .. سأعمل على اقتضاء هذا الجنيه كل شهر وان كنت أخشى أن تقطع هذه الزوجة بينه وبين أهله .. ولسوف أعقد له جمعية من أبناء النجع فى مصر ، لتحمله على تسريح هذه الزوجة بالحسنى .. لا تشغلى نفسك طويلا .. اتكلى على الله ومن بعده وباذنه على حسين النجار ..

وانتهت كلمات الرسالة ، وغاض الدم فى وجه الأم التعيسة وأخذت شفتا شريفة تتمتمان :

— زوجة من مصر .. تلطخ وجهها بالأحمر والأبيض !! ..

ونهضت من مكانها ، ومضت الى الباب توصده فقد كان صوت أمها قد ارتفع بالعويل تنعى فرحة لم تتم ..

لقد رأيت الناس جميعا يفرحون حين يتم زواج ، رأيت برعى ينتعش حين يتباهى بأنه سيتزوج من شريفة ، وتوسمت الفرحة على وجه أمى يوم زارنا شعبان ، وهأنذا ألمس اليوم شيئا غريبا لمسته يوم زارنا العائد وأنهى الينا أن «عثمان ومحمد» قد تزوجا من مصر .. شيئا

بائسا معتما يرتسم بقسوة على وجه هذه الام المنكودة ، ويحفر الحزن على وجه ناضر مثل وجه شريفة ..

وزاد من حيرتي ان الفتاة مضت تهذى مرة بعد أخرى : زوجة من مصر .. وونور ... رحمتك يارب . وأحسست انني أقف على شاهد قبر ، وشعرت بالدموع ترتفع الى عيني وأنا أقرأ البؤس والحزن الجاثمين على وجهيهما ، الباديين في أعراض بارزة . فقد تقلصت عضلات وجه الأم، وضاق ما بين حاجبيها واستوت خياشيمها ، ولمعت دمعة حائرة في عين الفتاة تركتها تسيل على خديها ، وان بدت أكثر جلدا من أمها ..

كانت الحوالة لا تزال في يد الأم تكاد تمزقها .. فأشرت الى الفتاة من طرف خفي ، فانكبت على يد أمها ، واختطفت الحوالة ورجتني أن أحملها الى المتجر ثم عادت تغمغم : بيضاء تتقصع .. تلطخ وجهها بالابيض والأحمر !!

وربما كانت هذه البيضاء ينبوع سعادة لجمال .. ربما كانت أشرف النساء واكثرهن تعلقا بجمال .. ربما كانت طيبة طاهرة ، وجدت في جمال مبتغاها ، فضحت بالكثير في سبيل حبها .. وربما كان ذيلها أطهر من ذيل هذه الام نفسها ، كل ذلك جائز ومعقول ولكنها رغم كل ذلك تعتبر — وهذا ما ادركته بعد سنوات طويلة — تعتبر مجرمة في نظر المجتمع الصغير الذى يعيش في نجعنا .. وليس الفتى أقل اجراما منها هي التي تصيدته .. فقد سلبت هذه الزيجة البيضاء عصارة الحياة من جسد هذه الام ، وبريق الامل من عين هذه الشقيقة التعسة.

أرسلتاه الى مصر ليكدح ، ابقاء على شريحة الارض الصغيرة ، ووفاء بديونهما ، فاذا بمصر تبتلعه وتبعده عنهما .. وربما الى الابد ، تقصيه عن الام التي تعبده ، والتي ضحت بالزواج من أجله ومن أجل هذه اليتيمة .. جمال هذا في الحق ليس الا سبق شيطان .. ابن حرام ! .. كلا فانها تعلم علم اليقين انه ابن حلال ، ولكن قلبه من صوان لا يلين ، تماما مثل قلب أبيه .

داريا سكينة تعرف تماما معنى هذه الزيجة البيضاء ، فلسوف تنقطع بسببها صلة جمال بأهله هنا ، وهناك في مصر ، فلا يزورهم ولا يزورونه ، لا يحس بواجب ازاءهم ولا يحسون بواجب ازاءه .. هذا الولد الجاحد لن يجد من يقف الى جانبه ويشد من ازره ، اذا ما ألمت به مصيبة .. اذا ماتت أمه مثلا ، لن يسمحوا له بتلقى التعازى في

جمعية القرية فى عابدين ٠٠ آه من الدنيا ومن جحود الابنـــاء ٠٠ كتب علينا الشقاء فى الحياة الدنيا وفى الآخرة .

وتداعت المسكينة ، وانكفأت على تراب المصطبة تكبش فيه بيديها وتهيله على رأسها بينما لوت شريفة بوزها فاستطال وجهها اليانع وكساه حزن قاتل .

وتتالت الطرقات على البـــاب ، وقمت لافتحه ، فوجدت نســـوة النجع وقد جئن للتهنئة .

واندفعن فى هرج تلمع الابتسامات على شفاههن ثم صمتن صمت القبور حين وقعت العيون على جسد الام المتكوم على المصطبة .. ثم عرفن الخبر فانقلبن باكيات واستدرن بالأم وأخذن فى عويل منظم منفعل داعيات على مصر ٠٠ وعلى بنات مصر الغوازى ٠٠ بنـات لا أهل لهن ، والا فلماذا تركوهن هكذا على « حل شعورهن » يتصيدن أبناءنا ورجالنـا هناك !! ألم يتزوج عثمان خال حامد من الاسكندرية وأخوه محمد أبايا ألم يتزوج من باب الشعرية ؟ ٠٠ وأخذن فى تحريض الام ! ٠٠ ارسلى لكل الناس فى مصر ليسعوا حتى يطلق تلك الفاجرة ..

وراحت أم سعدية تحاول بظرفها المعهود تخفيف لوعة الام فقالت: وإذا ما عاد جمال بالسلامة فعندى له عروسة ..

وتغامزت مع الاخريات ثم أضافت ٠

ـ سعدية بنتى .. قمر فى ليلة أربعتاشر .

وبعد صمت وتردد خلصت فضيلة صوتها من الدموع لتقول :

ـ سعدية ليست فى جمال بنت شبرا !

وتدخلت أخرى :

ـ وليس جرجـارها الذى يكنس التراب والشـوك والعقـارب والخنافس من خلفها مثل فساتين البيضاء : قصيرة ، تحت الركبة .. تكشف عن سمانة الساق .

وتبتلع جرعة ماء وتستطرد .

ـ ولا جدائل سعدية الملتصقة بفروة راسـها ، المدهونة بزيت الخروع مثل شعر الاخرى : فاحم تعطره وترسله لينزلق على الكتفين

أو تحبسه داخل منديل يزينه الترتر المشغول ، وتغضب أم سـعدية وتخجل ابنتها وتتوارى بينما تسترسل السـيدة التى عـادت من مصر منذ سنين :

ــ نه ٠٠ اسكتى انت ٠٠ كلكن عبيطات ، رأيتهن بعينى هاتين فى مصر ، وكتر خير رجالنـا الذين يرضون بنا ومن حولهم كل تلك الوجوه البيضاء اللامعة ٠

ــ فترد أخرى فى حماس :

ــ وقلوب مثل قلب ابليس ٠٠ لا تعرف الرحمة ٠٠ الا أنهن على كل حال مريضات ، ممصوصات العود ولا يصلحن للفـراش ، ولا أدرى ما الذى جعل « جمال » يندب فى حبائل هذه الغجرية البيضاء ؟!

وتطوف بعينيها فى وجوه الأخريات ثم تضيف :

ــ ابنك ياداريا هبيل ، وانت نفسك هبيلة ٠٠ لو كنت فى شطارة كل الناس لما وقع ابنك فى حبائل البيضاء لتمتص عوده ولا تعيده اليك الا ليمونة صفراء ٠

وتضج الدار بالضحك ، حتى داريا سـكينة سمحت لنفسها أن تضحك وتضحك : ذلك أن زوج هذه الشاطرة التى عادت من مصر منذ شهور هجرها الى زوجة بيضـاء ، فعادت تندب حظها وتنفث حقدها كلما جرى اسم المدينة على لسان الناس ، تكره كل وجه أبيض ، تكره سعدية لأنها بيضاء ولا تتصور حسن المصرى ٠

ثم أخذن فى ألوان شـتى من الحديث ٠٠ واستمطرن اللعنات على بنات مصر وعلى المدينة نفسها ، وتمنين على الله أن تفقد البيضاء التى تصيدت « جمال » وغير جمال من أبناء النجع نعمة النظر فلا ترى ٠٠ ونعمة السمع فلا تسمع ٠٠ وأن يسد باب الرحم فى بطنها فلا تلد ٠٠ فالحية لا تلد الا حية تمسك بجمال وغير جمال وتشـدهم اليها ، فلا يستطيعون الفكاك ، وربنا قادر على كل شىء ٠ هو الذى أعطى وهو الذى يأخذ !!

وأقبلت نبوية ــ سيدة من النجع الآخر عرفت بخفة الدم ، يروى الناس نوادرها فى كل نجع ، علمت بالمصيبة التى حلت بداريا سـكينة فأقبلت لتواسى وتخفف من لوعتها ٠

فتحت الباب ووقفت باسمة الثغر لحظة ثم راحت تتحرك وتقهقه

وتلقى بمقطع أغنية مرحة تنم عن الدلال ، فأخذن يوجهن اليها نظرات تحذير فلم تبال بهن بل اندفعت وقامت وسطهن ولفت جلبابهـــا حول ساقيها حتى بانت سمانتاها ، وراحت تتثنى بينهن تقلد بنات مصر ، تغنج وتدل وتتقصع فى مشيتها وتطرقع بلســـانها وكأنها تلوك اللبان مثل بنت مصر ، ثم أمعنت فى المحاكاة وهــزت أردافهـا وبطنها وهى تعلن :

ـ هكذا تفعل بنت مصر ·· تعلمى ياشريفة · فترسل الفتاة شهقة وتتوارى خلف أمها بينما راحت نبوية تحوم بينهن تهز أعطافها وخاصرتها وترعش صدرها ·

ـ تعلمى حتى لا يفلت منك زوجك ·

لقد عادت نبوية هذه منذ شـــهور من الاسكندرية بعد سنوات طويلة عاشتها هناك ، كانت تبالغ فى دلالها وحركاتها ولكنها تمكنت من انتزاع بعض الضحكات والبسمات حتى من داريا سكينة نفسها ومن شريفة التى وقفت مشدوهة تتصور زوجة جمال فى الصور التى عرضتها نبوية ·

وعندما حل المساء انصرفن الا نبوية ، فانها لم تبرح الدار الا بعد أن مسحت الدموع وطبعت على ثغــر الأم والفتاة الجريحة بســـمة ، وحفرت فى قلبيهما أملا فى جمال ··

٧

قبل أن يبدأ الموســم وفى انتظاره ، ظل المتجــر يعمل طول النهار على ضوء الشمس : وفى الليل على ضوء كلوب كبير خالى روحه تكاد تزهق من فرط العمل ، وأبى يسب ويلعن « خاش » الزبائن · يتغيب الخال ساعات بالنهار ـ وبالليل ـ يستقل فلوكته الرابضة على الموردة الى الجزيرة ، وقد علق طوريته بين كتفه

وعنقه ، وفى جيبه دفتر طويل بالديون التى على أهل الجزيرة ، ويظل هناك يشخط فى أبنائه ثم يعود مرهقا ليسهر مع الكلوب · يشـــطب صفحات من دفتر اليومية بالقلم الكوبيا ؛ بينما يعلق أبى فأسه على كتفه وينحدر الى الغيط ليعاون حسن المصرى وبطة ·

فقبل مهرجـان النخيل يجب أن تتعرى الأرض من الذرة فتترك لتستريح وتستجم فى ضوء الشمس ·

وثمة حركة دائبة فى الحقول ، تنغمها خشخشة أعواد الذرة ، وصوت الشراشر والمناجل، ودبيب أقدام وأكف تطلس مساحات عارية من الأرض تكوم عليها قناديل الذرة ، ثم تدب الأقدام والهراوات على هذه القنـاديل لتخليص الحبوب منها ، بينما النساء يستدبرن الريح ، ويذرين · وكل طفل يمد يده الى ظهره وصدره من خلال تقويرة الجلباب الأزرق ليهرش وينفض عن جلده الملتهب ذرات القيشة المتسربة اليه ·

وما زال وجه داريا سكينة متجهما ، تلمع الدموع فى مقلتيها ، وما زالت شريفة متحفزة الاعصاب · تدوران هنا وهناك ، تلتقطان قناديل نسيها أصحابها وتذريان وتقتضيان أجرهما فى العصر : قدحا تحملانه

الى دارهما وهما تلهجان بحمد الله وتستمطران اللعنات فى نفس الوقت على مصر ، وبنات مصر ، وعلى جمال •

وبين الحقول أناس ليس من عادتهم العمل فى الحقول •

فهذا هو نجار السواقى وحلاق الصحة والمأذون وشيخ الكتاب والمؤذن وجزاز الأغنام •• يتوافدون على الاجران جماعات وفرادى يلقون بالتحية ، ويتمتمون بالدعاء ، فيهز الناس رءوسهم ويفهمون ، فان هؤلاء قد صلوا بهم طوال العام وفى الأعياد وعلموا أبناءهم • وقصوا شعورهم وجزوا أغنامهم عند نهاية الحسوم ، والصقوا « كاسات الهواء » على ظهورهم •• ومن حقهم اليوم كيلة أو كيلتان يجود بهما الناس طواعية ، فلسوف يجزون أغنامهم ويصلحون سواقيهم وفئوسهم من جديد حتى يحل موسم جديد ••

والى المتجر ترحل بعض غرارات المحصول ، فيعمد القلم الكوبيا الى تشطيب صفحات كاملة من دفتر اليومية الا سطورا تنقل الى دفتر جديد لتستوفى فى موسم البلح ، الموسم الذى يقف الآن على مشارف القرية ، ينتظر انتهاء الناس من مهرجان الذرة البهيج •

وأمام البصر وتحت الشمس المحرقة تأخذ الأرض العارية ببصرك وهى ترقد متشققة ، تنبثق منها هنا وهناك نباتات ابرية غاضبة ، فيمسك العاقول بأقدام الناس ، ويلتصق ، « حسن شبكة » بثيابهم وجلودهم ، فيصرخون •

كانت هذه النباتات الغاضبة تبدو مثل شعيرات تبقت على رأس عجوز أصلع ، بينما الارض نفسها تبدو كامرأة أسلمت مولودها للدنيا ورقدت لاهثة على فراشها ، متشققة الشفاه ، تهمس وتتوجع • وعليها تنطلق قطعان من العجول والماعز والاغنام ترعى وتجتر الحشائش والعاقول المزهر وبقايا البوص الناتئة • وتخور وتثغو وتهش الذباب بذيولها ثم تحملق فينا بعيون بلهاء •

وفوق سباطات البلح وعلى تلال الذرة ، وبين أحراش اللوبيا تنتقل العصافير وأسراب القمرى واليمام ، تطير من فنن الى آخر وتغرد لنا ونحن ندب بأقدامنا على قناديل الذرة ، وتأتى ساعات الراحة فنترك العمل ، ونكسر بصلة نزدرد بها لقيمات من الخمريد ، ثم نسعى وراء الهدهد ،

وتاجه الملوكى الخاطف اللون ، تكيد له ، فيتآمر علينا ويطير بعيدا عنا بعد أن نكون قد ضيقنا الخناق وكدنا نوقعه فى شراكنا ..

وتظل الاقدام والهراوات تهوى على قناديل الذرة ، والنساء يذرين ويظل العرق يتصبب على الجبال حتى يتكوم الحب تلالا صغيرة ، فيتجمع حولها الورثة يصرخون ويتشابكون بالأيدى ، وبالهـراوات كما صرخوا وتشابكوا منذ مئات السنين .

عائلتنا الصغيرة نفســها كان جوها يتوتر فى مثل هذه الايام ، فليس من حق هذه العمة أن تركن قنديلين جانبا ، ولا من حق هذه الخالة أو الزوجة أن تجلس هادئة على جدول تراقب جباهنا الغارقة فى العرق . الا « بطة » شقيقتى الصغرى فلقد تعارفت الاسرة عن رضا أو على مضض أن من حقها وحدها أن تفعل ماتشاء بالقناديل ، فقد سهرت على الزرع . وانتزعت « الهالوك » من بين جذوره ، وعزقت الارض وبتنتها وحولت الماء ، وحفظت مواقيت الرى .. فمن حقها اذن حين يكوم المحصول أن تعزل لنفسها كيلة أو كيلتين وتشترى لنفســها شيئا من المتجر أو من السفينة السوداء التى ترسو على مرافئنا فى الموسم .. ومن الغريب أنها كانت تحجم عن دكان أبيها ، وتشترى من غيره وتقـول حين يعاتبها : الدكانة دكانة أبى .. وكل ما فيها لى فكيف أشترى منها ؟.. وهل يمكن أن أفاصل أبى أو أن ادفعه فى صدره وأسبه اذا ما غشنى فى الكيل ؟!

الناس جميعا فى أسرتنا يعترفون لها بهذا الحق الا حجوبة .. فقد دأبتا على النقار معا فى كل موسم ، تصر بطة على أن تستوفى حقوقها ، رغم أنف حجوبة ، زوجة أبيها .

وكان الأمر يصل بينهما الى حد التشابك باليد . وقد تشابكتا فى هذا الموسم ، ففى أحد أيامه . والاسرة كلها مجتمعة فى الغيط تعمـل وتدق وتذرى أقبلت حجوبة فى خطى متثاقلة . فقد كانت فى شــهرها السابع أو الثامن ، وألقت نظرة هنا وهناك حتى استقرت عيناها على بطة ثم جلست فى محاذاتها على الجدول الكبير ومضت تراقب حركات الصغيرة وسكناتها .

وأخذت بطة تختلس النظر اليها ويداها تعملان بسرعة ، وتعجب منها . سيدة فى مقتبل العمر ، معتدلة القوام ، بوجه مستطيل ، وشعر مجدول ملتصق بعناية تحت الطرحة على جانبى رأسها وعينين واسعتين

فيهما ترقب تقولان : اننى أراك من مجلسى فاحذرى · وبشرة سمراء يلمع فوقها لون الذهب الأصفر من قطع مثلثة تتراقص على الجبهة ، وأخرى مستديرة ، صغيرة تحيط بالجيد · وشفتين ممتلئتين تتدلى أسفلهما · ويدين تتشابكان على بطن منتفخة، تربتان عليها بين الحين والآخر وكأنهما تهدئان الجنين الكامن فيها ، وتمتدان مرة بعد أخرى ، وتغوصان فى الغلة تنقبان عن قطع صغيرة من الطين تندفعان بها الى فمها بسرعة فتزدردها اذ تتوحم على الطين يقينا منها أن ذلك يزيد من سعة البطن ويترك براحا للجنين يتحرك ويتنفس فيه ··

ظلت تزدرد الطين حتى انتهرها ابى فكفت ، ثم مدت يدهـا الى سيالتها ، وعادت تحمل بها علبة مستديرة من الصفيح فضت غطاءها وركزتها على الارض ، وتناولت قطعة صغيرة من النطرون ضمت حولها حفنة من الدخان ودفعت بها الى شدقها الأيمن ، وأعادت العلبة الصفيحية الى مكانها ، وراحت تلوك المضغة · وتزم شفتيها · الا فتحة صغيرة ترسل منها بين الحين والآخر خيطا طويلا أصفر من الرذاذ · يمتد مترا أو يزيد ·· رذاذ يحمل لعابا اختلطت به رائحة الدخان وطعم النطرون · ومضت بطة تختلس النظر اليها حتى وقع المحذور فقد امتد الرذاذ الى يدها مرة فتململت وتذرعت بالصبر · ثم مرة أخرى فتحفزت حتى كانت المرة الثالثة فانتفضت تصرخ فى وجه حجوبة ، وتعبر عن احتقارها الشديد ·

والحق أن حجوبة كانت تعد فى غير محيط أسرتنا الصغيرة ورغم الأوصاف التى أجملناها امرأة ظريفة تهش للناس وتبذل لهم من جودها ، وقد عرفت عنها فصاحة لسان وحلاوة صوت وفطنة وخفة دم ··

ولا يدرى المرء سببا محددا لذلك الشعور الغريب الذى تربى فى صدورنا ازاء زوجة أبينا ·· أهى السبب أم الرجل الذى تبنى بها على كبر أم تلك الاوهام الغريبة التى تصبها كل أم وجدة وشقيقة نحو زوجة الأب ، فنخاف منها ولا نقرب طعاما تقدمه لنا !! الا اذا اكلت منه هى أو زوجها ، فقد تدس السم لنا فيه ؟!!

اننى أنفجر بالضحك اليوم وأنا أتذكر مشاهد موغلة فى الشذوذ بينى وبينها ·· كنت أصحب أبى الى بيتها ، فتخلو بى ، وتحاول أن تتقرب الى وتقدم لى رطبا ، وحلوى يتحلب لها ريقى ، وأكاد أدفع بها الى فمى ثم أتردد حين أتذكر تحذيرات جدتى : اياك ·· ستدس لك السم

فى الطعام ، فأقذف بها الى جيبى ثم انتحل عذرا واترك بيتها ، واعرج على الخرابة القريبة ، واقذف بقطع الحلوى واحدة بعد الأخرى الى التراب واقلب سيالتى أنفضها باتقان من آثار السم !

انكفأت بطة تعمل من جديد بعد أن ابتعدت عن نطاق الرذاذ الا أن حجوبة كانت مصممة على التحرش بها ، اذ بدأت تشهر فى وجهنا سلاحا تعرف جيدا أنها تصيب به مقتلا فينا حين تشرعه ·· بدأت تغنى وتلقى كلمات مزدوجة المعانى ، حمالة أوجه ··

تنظر الى شقيقتى جميلة العروسة وتقول :

ـ داريا · مالبنتك شريفة تتقصع ؟ ويدها متحنية ·· دعيها تتجشم !! وتدرك بطة أن شقيقتها هى المعنية بذلك فيملأ الغيظ قلبها بينما جميلة تبدو هادئة باردة الاعصاب كعادتها تتحرك وكأن ما قيل لا يعنيها فى شىء ··· وتتأكد بطة من مقصد حجوبة حين لا ترى شريفة فى الغيط على مرمى البصر ·· وتحس حجوبة أن سهمها قد طاش فى هذه المرة ، فتستعد لجولة أخرى وتتخذنى مرمى ، وتتحدث فى كلمات منغومة عن الخيبة التى أعيش فيها : لا شغل ولا مشغلة ·· نهايته يتلو القرآن فى المياتم ·· ولا يغيب عن بطة ماتعنيه ولكنها تتذرع بالصبر بينما خالتى أمينة بايا تحذر حجوبة بنظرة جانبية فلا تبالى بل تمضى قدما الى القاء قذيفة أخرى :

ـ داريا ·· مالك مخطوفة اللون مثل المجنونة ··

وتغمز ثم تضيف :

ـ ·· ومن أين رغاوى الصابون التى تسيل بين شفتيك ··

مخطوفة اللون ·· مجنونة ··· رغاوى الصابون بين الشفتين ·· حجوبة لا تعرض الا بأمى ، تتهمها بالجنون !! أدركت كل ذلك وأمسكت بقطعة حجر بعد أن رأيت أبى بعيدا فى نهاية الغيط ورفعت يدى لاقذف بها فى وجه حجوبة ، الا أن جميلة اختطفتها من يدى ، وانتهرتنى ، وقررت بطة أن تنتقم من حجوبة فى نفس اللحظة التى انشغلت جميلة فيها بأمرى ، فأمسكت بقطعة مستديرة من الصوان وطوحت بها على رأس الزوجة التى أطلقت صرخة داوية انكفأت بعدها على الارض والدم الاحمر ينبجس من رأسها بينما الصغيرة تعدو هاربة لتختفى بين أشجار النخيل ·

لكنها اصطدمت بأبى لسوء حظها فأمسك بها ، ثم ضربها علقة ساخنة لم تنسها طوال حياتها ٠

أخذ الرجل يضربها الى أن سقطت على الارض فاقدة الحس ، وركلها وأقبل على حجوبة ، فوجدها منطرحة على الارض ، فجن جنونه خشية أن يكون مكروه ما قد أصاب الجنين فى بطنها ، فارغى وأزبد وصفعنى صفعة أطارت صوابى ، وأنحى باللائمة على جميلة وكأنها هى المسئولة ثم أقسم وأغلظ فى ايمانه وتعهد ألا تدخل حبة واحدة من الذرة أو القمح هذا العام فى بيتنا ٠٠

ورفعت أمينة بايا رأسها ٠ من فوق الراس الجريح فى غضب ثم انكفأت على الجرح تغسله وهى تصرخ فى ابنتها :

ـ عيشة ٠٠ بسرعة ٠٠ قليلا من البن ٠٠

فأسرعت هذه الى البيت عدوا ، ثم عادت بالبن ، فمضت أمينة بايا تحشو الجرح به وحجوبة تتأوه وتئن ٠

وتجمع رجال ونساء النجع حولنا واجمين الا الشـيخ فضل ، فقد أطلق ، بعد أن ألقى نظرة على حجوبة ، ضحكة مقتضبة والتفت الى أبى يسخر منه :

ـ هيه ٠٠ الزوجة الصغيرة ٠٠ مسكين ٠٠ وحبلى ٠ مسكينة !!

فثار أبى فى وجهه !!

ـ الوقت ليس وقت مزاح يا فضل ٠٠ الا تراها تموت ؟

ـ تموت !! وتلك الاخرى الا تموت ؟

وتلفت نحـــو بطة التى كانت قد أفاقت ونهضت تنفض الغبار عن ثيابها ، وتختلس نظرة جانبية الى أبيها ، متأهبة للجرى فى أى وقت ، ورمقها الشيخ فضل باعجاب وقال :

ـ عفريتة وشقية ، زوجها لى يا أمين ٠٠

فتفرس أبى فى وجهه نافر العروق ثم مضى يلعن أمى وجدتى حتى أقبلت عليهما أمينة بايا تبتسم ابتسامة ذات معنى وتقول :

ـ حجوبة بخير ٠٠ جرحها ليس الا خدشا بسيطا ٠٠

وتفحصها أبى بنظرة غاضبة ، ثم مد يده الى بطنه يشير الى الجنين
ـ فى بطن زوجته ـ فقالت على الفور :

ـ لا شىء ‥ لم يحدث له أى ضرر ‥

فارتخت عضلات وجهه قليلا ، وبدا لأمينة ان الجو ممهد لاصلاح ذات البين فاقترحت ‥

ـ وأين تلك العفريتة ‥‥ هاتها يا فضـل نصلحها على الزوجة الغاضبة ‥ البنت الثانية «على وش» فرح ، ولا داعى لكل هذا النكد ‥

وأشارت باصبعها الى « جميلة » فانعطف الشيخ فضل الى «بطة» وأخذ يحاورها ويشدها من يدها شدا الى « حجوبة » ‥

ـ تعالى ، بوسى راس حجوبة فهى فى مقام أمك !!

فتقفز الصغيرة وتكاد تفلت منه وهى تصرخ ‥

ـ وأنا مالى !!‥ هى التى شتمت أمى ٠ ويميل عليها فضل ويسر فى أذنها شيئا ‥ تتلفت بعده الى شقيقتها ثم تنقاد فى تقزز لكن فى يسر الى حيث كانت حجوبة ترسل رذاذها الاصفر وقد لفت رأسها بقطعة بيضاء من القماش لطختها بقعة مستديرة من الدم ‥ توقفت بطة برهة على رأس الزوجة التى أشاحت بوجهها ، تبدى تمنعا ممزوجا بالتشفى ‥

فأمسك الشيخ فضل برأسها وأماله على الزوجة ٠ فأطاعت الصغيرة وطبعت قبلة خاطفة على رأس الزوجة واستقامت لتهمس :

ـ معلهش ‥ سامحينى ‥

ولكنها لم ترد حتى فى هذه اللحظة أن تفلت الفرصة منها ، فانعطفت وبصقت على الأرض بصقة تعبر عن اشمئزازها ، فكظمت الزوجة غيظها وبيتت فى نفسها أمرا : أن تثير حفيظة الأب على البنت وعلى الأم ، فهى ترمى الى اجلائنا عن بيتنا الكبيرذى الغرف الثمـانية لتحل فيه هى ، والرجل لا يمانع ، لكن الضرة ـ أمى ـ والجدة تقفان دون تحقيق رغبتها ، انها فى كل يوم تسر الى الرجل : بيتك لا يليق بك وبضيوفك ‥ لماذا لا ننتقل الى البيت الكبير ؟

البيت الكبير الجديد المبنى من جالوص الطين مجال حرب أخرى بين الزوجتين ، حرب لا تهمد ، والرجل حائر ماذا يفعل ، فهو يعانى من هذه

المشكلة منذ سنين طويلة ، يخلو الى فراشه فتثير الزوجة الشابة حفيظته ثم تثير جدتى اشفاقه علينا وعلى الام المريضة فيسكت ..

وبدا واضحا فى تلك الظهيرة ان الرجل نادم على ايمانه التى أطلقها لحرمان بيتنا من الذرة والقمح ، ولكن التراجع أيضا كان عسيرا ، اذ لابد من استشارة الشيخ عبد العزيز فى استرجاع يمينه ولا بد له أن يدفع كفارة !!

وبدت الشقيقتــان حائرتين .. ماذا تفعــلان ؟ .. الصغرى ترمق شقيقتها نادمة على ما بدر منها من أذى ومن تنغيص !! والكبرى تخفف عنها ببسمة رانية حلوة وتهمس :

ـ انت تعرفين أبى .. يقسم كثيرا ولكنه سيرجع كعادته ..

ـ ولكن الايام قد تطول الى أن يتراجع !!

ـ صحيح .. الا أنه سيتراجع فى آخر الامر ..

ـ ولكن لا بد لنا من قمح للشعرية ولزفافك .

ـ بدرى « يا بطة » .. لا تشغلى نفسك ..

ـ كيف ؟! ألم تقولى ان فردوسة وحفيظة شقيقتى شعبان ستزوران بيتنا ؟!

ـ وماله ؟ .. لا تهتمى فذلك لن يتم الا بعد أيام ..

فدعت الصغيرة على نفسها بالعمى والكساح ، ثم أقبلت على عملها بهمة كانما تريد أن ترضى أباها الغاضب المتهجم ، بيد أنه أغاظها أن رأت حجوبة مرحة ضاحكة ، لا تبالى بجراحها بل تبدو وكأنها سعيدة بهذه الجــراح ..

وحل الأصيل باشعاعاته الذهبية ، وهب نسيم نشط هززنا له نحن الصغار رءوسنا طربا فى انتظار سحر لذيذ نتعقب فيه الثمار المتساقطة على أضــواء فوانيسنا .. ولربما توارى فيه برعى وشريفة عن الانظار وتهامسا كما فعلا بالامس القريب فأستمتع بتناجيهما والتلصص عليهما !!

وامتلأت الحقول بسحر الاصيل ، ونشطت الايدى ، وأخذت داريا سكينة وشريفة تحشران فى كيس كبير ما جمعتاه من كدهما طول النهار فى الدق والتــذرية ثم انسحبتا عائدتين ، وعيــونهما لا تزال شاخصة

غائمة ، كأنهما لا تريان أمامهما الا وجوها بيضاء ملطخة بالأحمر والابيض، وملاءات تكسم أجسادا ملفوفة ، تقتنص أبناء النجع هنالك فى مصر ، لعنة الله على الشيخ أمين وعلى القيراطين فلولاهما لما هاجر جمال ولزرع شريحة الارض وكفاهما مشقة العمل فى الشمس لغيرهما ـ انهما تلهثان من فرط العمل، بينما حجوبة تراقبهما وكأنها سيدتهما أو سيدة قصر تشرفان هما على خدمته تماما كما يفعل جمال فى مصر !! ورغم كدهما ، فان دفتر أحمد عودة ما زال يحمل اسم داريا سكينة ، وأمامه أرقام كبيرة رهيبة ، تسبب الهم بالليل والعرق المتصبب بالنهار دون جدوى الا لقمة العيش · ومن يدرى ، هل يكفى محصول البلح أم يقصر ؟ فتذرفان الدمع طوال الشتاء فى انتظار موسم جديد ··

وتميل الشمس ، لتغوص فى مياه النيل الى الغرب عاكسة أشعتها الواهنة على صفحة الشمندورة الحمراء التى تناضل فى الضحى ، وتناضل فى الظهيرة وعند الاصيل وعند السحر ، لتنعتق وتجرى فى النيل كما تهوى ، دون تلك السلسلة اللعينة التى تشدها الى القاع ··· وتنحدر الشمس وهى تتبدى قرصا أحمر بظلال الاشجار فتمدها وتجلدها على الارض ، وتهبط معها العصافير من تحليقها لتستكن فى أعشاشها ، وتشرع الجنادب فى ارسال صريرها الخافت يطغى عليه تقيق الضفادع ، وثغاء الحملان الصغيرة وخوار البقر ونهيق حمار · ونباح « لورد » يطارد كلبة عبد الله الجزار ··

حينذاك بدأنا نعود فرادى وجماعات ··

كنت أدب على الطريق العام بين شقيقتى ، وأنا أفكر فى بطة الثائرة دائما وفى جميلة التى لا تثور أبدا · وعن لى أن أسأل جميلة عن شيء ما ، فالتفت ناحيتها ، وذهلت اذ وجدتها تنسحب بسرعة لتتوارى خلف جذع نخلة ··

وحانت منى التفاتة الى الناحية الشرقية ، وعرفت السبب فى اختفائها المفاجيء ، فان شعبان الرجل الذى اختارها عروسة له كان يقبل على نجعنا فى خطى متوثبة ، فاختفت حتى لا يراها !! فهكذا جرت التقاليد فى قرانا ·· والشيء العجيب حقا أن جميلة نفسها كانت تلتقى بهذا الرجل قبل أن يخطبها ، فلا تختفى منه بل تحييه وتقدم له الشاى فى المتجر سافرة ، فلماذا تختفى اليوم عن ناظريه !؟ لماذا ترتبك ويصيبها الاضطراب لمرآه ، فلا تشعر بالهدوء الا حين تجد نفسها فى مأمن من عينيه !؟··

هكذا كانت كل فتاة تستقبل الزواج ·· تتوارى حين يلوح رجل.

المستقبل ، وقد تراقبه من طرف خفى ٠٠ ولكنها لا تسمح له أن يراها ٠

وما زال الناس فى قريتنا يذكرون ماحدث لأمينة ٠٠ عروسة أمين حجى ، توارت عن عينيه بعد أن خطبها ٠٠ الا أن الفتى اتفق مع لداتها فاستدرجنها فى أصيل يوم الى شاطىء النيل لتفضى اليهن بدخائل نفسها، بينما يراقبها هو من طرف خفى ٠٠

ركزن الكوبيهات على الشاطىء ، وأخذن فى اثارة أمينة الى أن انفجرت تتباهى ، وتذيب على شفتيها كل ما تحلم به فى ليلتها الاولى مع أمين عريسها : سأذله وأتغلب عليه ! ثم لا أستسلم له الا بعد أن يجن . وهزت أعطافها وهى تتدلل ، ثم تبسمت وهى تقول : بعده ٠٠ لن ينالنى الا بعد أن يتعذب ، انه يتعقبنى فى هذه الايام ، رأيته وهو يراقبنى من سطح بيت خالته ٠٠ فرميته بحجر واختفيت عن ناظريه ٠٠

ومضت تحكى وبالتفصيل ، كل ما سيتم بينهما وبينه فى ليلتهما الاولى ! واستمع الفتى بقلب نابض الى أحلام فتاته ، وقرر أن يفاجئها فخرج اليها من خلف نخلة وتوقف أمامها بينما الخبيثات يتظاهرن بالدهشة والغضب ! أما هى فقد احتبست الكلمات فى حلقها ، فمضت تغمغم جاحظة العينين ثم أطلقت صرخة داوية أخذت تعدو بعدها الى سفوح الجبل الشرقى ٠٠ ظلت تعدو والفتى يناديها ، واللدات يستصرخنها ، ثم كانت الكارثة فقد سقطت أمينة وهى تعدو فى بئر جافة انتشلت منها فاقدة الوعى مختلة العقل وعاشت بعد ذلك تلطم خديها حتى فارقتها الحياة ٠٠٠

ويبدو أن جميلة قد تذكرت قصة أمينة حين لاح شعبان عند منعطف الطريق ٠٠ فتوارت عن عينيه ريثما تفحصنا الرجل ، وشق طريقه الى المتجر ودلف من بابه ، فانضمت الينا من جديد ثم أخذنا نسرع الخطى لنعبر باب الدهليز وصوت عم نوح يلعلع بآذان المغرب بطلقه من مئذنة الجامع خلف بيتنا ٠

وفى ركن من الدهليز رأيت أمى ، مطرقة الرأس ترسم خطوطها وتذرف الدمع وتبكى بحرقة ، فقد سبقتنا اليها أخبار معركة ابنتها مع حجوبة فى الغيط ٠٠

ومضت جميلة تواسى أمها ، وتهدىء من روعها بينما انكفأت بطة مع جدتها تعدان لوجبة العشاء ٠٠

وران صمت ثقيل على الدهليز ، وبدت وجوهنا على ضوء المسرجة

متجهمة غاضبة يعتمل الغيظ على قسماتها ، الغيظ من حجوبة ومن الاب الذى أسلم نفسه للغضب ، فأغلظ فى ايمانه وأوقع علينا الحرمان ..

الا أن الوجوم لم يطل بنا ، فان شيئا جديدا قد انبثق بيننا فى تلك الامسية ، وجوه باسمة ضاحكة : وجوه فردوسة وحفيظة ومسكة شقيقات شعبان ، أقبلن علينا بعد العشاء فى زيارة ودية للعروس ، كل واحدة كانت مثقلة بهداياها للعروس وللام والجدة وللشقيقة الصغرى ..

وفرحت أنا بهديتى : طاقية مزركشة عليها جمال باركة بأحمالها وأخرى على أهبة النهوض ومن خلفها نخيل .

وسهرنا الليل كله فى مرح تضج الصالة بضحكات متشرخة تنبعث من بين شفتى جدتى العجوز وبضحكات شابة ، حتى أمى تناست خطوطها واشتركت بابتسامة بينما جميلة محرجة مرتبكة يزداد اضطرابها كلما داعبتها مسكة أو حفيظة ..

وانتصف الليل ، ونحن ما نزال فى دعاباتنا .. وانقضت السهرة، وحينذاك أمسكت « مسكة » برأسى وهى تقول :

ـ ألست رجلا ؟

فهززت رأسى فى زهو :

ـ رجل وألف رجل !

ـ ألا تخاف من الضباع ؟

فارتعش جسدى كله عند ذكر الضباع .. ولكننى أجبت رغم ذلك :

ـ ضباع !.. أنا لا أخشى الضباع ولا الفئران ..

وضحكت جدتى فانها تعرف اننى أرتعش لمجرد ذكر الضباع ، ثم توجهت الى مسكة تسأل :

ـ ولم تسألين ؟..

ـ ليقوم حامد بتوصيلنا ..

وتدخلت فردوسة :

ـ ما عليه ، شعبان ينتظرنا فى الدكان .

وأقسمت جدتي ألا يبارحن الدار الا في الضحى من غد ، وتشبثت جميلة بمسكة وبطة بفردوسة ، بينما تعلقت أنا بحفيظة ٠٠ فقد أصبحنا صديقين منذ أول لحظة ــ أرجوها أن تبقى الليل كله معنا ، فأذعن ورجونني أن أخبر شعبان في الدكان ٠٠

وعدت بعد حين لاجدهن يتهيأن للنوم ٠٠

ولا أدرى ما الذى حفز شقيقتى الكبرى ٠٠ فقد سمعتها تقول بعد تردد :

ــ مسكة !٠٠

قالت : نعم ٠٠

ــ وانت يا فردوس وحفيظة ٠٠

قلن : نعم ٠٠ ماذا تريدين ٠٠ أتريدين أن تسألى عن شعبان ٠٠٠ اسألى عنه دون حياء ! طوله وعرضه ! هواه وملبسه ! ومراجه ٠٠ اسألى وسوف نجيب بصراحة ٠٠ انه زين الرجال يا ست ٠٠

وارتبكت جميلة لكنها قالت :

ــ كلكن مثل بطة ، طويلات اللسان ٠٠ لا نفع فيكن غير المهزأة ٠٠ فاحتجت الصغيرة ٠٠ ثم انبرت تقول :

ــ جميلة خجلى ٠٠ تريد أن تقول : يابنات انتن ضيفاتنا بعد اسبوع من تاريخه ٠٠ يوم الاثنين ٠٠ من الصباح الى ضحى اليوم التالى ٠

ــ ولماذا ؟٠٠ لست أنا التى أتزوجك ٠٠ بل شعبان ٠٠ اعزميه هو ٠٠

قالتها مسكة ثم أردفت :

ــ سمعت انك تصنعين أحسن شعرية في البلد يا جميلة من دقيق القمح ، سوف نرى ، أينا الاشطر ٠٠ أنت أم أنا ؟٠٠

القمح والدقيق ٠٠ يالله ٠٠ ومن أين لنا بهذا القمح بعد أن أقسم أبى ٠٠ ولمحت دمعة تسيل من عين « بطة » دارتها بطرحة ٠٠ وتوسمت ربكة في عين جميلة ، وندما على الدعوة التى وجهتها دون تفكير في القمح !

★★★

ومرت أيام ثلاثة على سهرتنا ، وأبى لا يزال على خصامه معنا ،

لا يعرج على بيتنا ولا يدعونا للعمل فى الغيط ، ولا يوجه كلمة واحدة الى بطة حين يراها ، كان يجتاز بيتنا بسرعة دون أن يلقى نظرة واحدة الى داخل الدهليز ، وبدا وكأنه قد تناسانا جميعا وأسقطنا من حسابه .

وباتت الجدة والشقيقتان يعانين .. فقد تورطن ودعون شقيقات العريس ، وها هى الايام تقترب دون أن يكتمل لهن ما تتطلبه الوليمة .. اللحم يمكن تدبيره ، فالدواجن تملأ فناء البيت .. ولكن أنى لهن بالسمن، وفى الصومعة ذرة وفول ، وفى السحارة سكر وشاى ولكن لا بد لهن من دقيق القمح ، يعدون منه خبز ذلك اليوم ناعما رقيقا شفافا أبيض مثل بياض اللبن . والشعرية .. ؟

أيلجأن الى الجيران ؟.. عيب ! أم يلذن بمتجر حسن حسين يستدن منه ؟.. عار كبير ! ابنة تاجر تستدين لتولم لضيوفها ؟.

وحارت جميلة فى أمرها وتشفعت بخالتها .. لكن أبى كرر ايمانه من جديد مما غرس اليأس فى قلب الفتاة فراحت تنتحب وتبكى سوء حظها ..

اتقدم لهن عيش الذرة ؟ دون ذلك قطع الرقاب .. لابد من قمح .. والغريب أن القمح متوفر فى المتجر ، فى مخزنه الصغير - على بعد شبرين من الدهليز - عبر الحائط الرقيق الذى يفصل بينهما ..

وقررت الجدة فى نهاية الامر أن تستدين ولكن من قرية أخرى ، أن تسافر الى عنيبة فى البر الغربى ، عند أبيها الذى لم تره منذ سنين طويلة ، وشق الامر على جميلة وأخذت تستعطفها ألا « تسافر » فلسوف يعرف الخبر مهما حاولنا اخفاءه : أولمت لشقيقات عريسها من قمح استدانته ، مع ان القمح فى دكان أبيها على بعد شبرين !!

وتمنت لو عاد أحمد عوده من أسوان ، فقد سافر اليها منذ أسبوع لقضية رفعها أمام المحاكم تشغل باله منذ سنين طويلة ..

***

كانت جدتى تعرف أن مشكلة القمح ستحل بطريقة ما ، باذن الله ، فراحت تستعد للوليمة .. وتنظف البيت فى انتظار الفرج ..

كلفتنا أنا وبطة أن ندور بكل الجدران .. ونرمم كل الشقوق والجحور فى الدهليز .. ونطلس الجدران من جديد ، ونرتب العنجريبات كما يحلو لنا ، ونطارد خيوط العنكبوت ، حتى يبدو البيت بهيجا يوم الوليمة ، فشمرنا عن سواعدنا ، وغرسنا أيدينا فى مونة أعددناها منذ

الليل ، وبدأنا بالحوش منذ الصباح ·· وعرجنا على الحاصل والديوانى ، ثم على الدهليز نوصد الجحور والشقوق ·

وفى الدهليز توقفت بطة أمام جحر صغير ·· وفى يدها قطعة كبيرة من الطين ، ومضت تصيخ السمع ، فمن الجحر كان ينبعث صوت خافت رفيع عرفته هى على الفور ، فألقت بالطين جانبا واقتحمت الجحر بهراوة صغيرة ، فازدادت الصوصوة ثم هدأت ، ومضت بطة تعربد بالهراوة فى الجحر حتى وسعته ، فأدخلت يدها ·· تدور بها فى جوانبه لامعة العينين، ثم أخرجتها ممسكة بفأر كبير صرعته الهراوة !·

وأخذت أنا ألهو بالفأر بينما مدت هى يدها من جديد فى الجحر ، وأفقت من لهوى بالفأر على صرخة مكتومة أطلقتها بطة ، وجزعت فربما يكون ثعبان قد لدغها داخل الجحر ، فانكببت عليها أسأل :

ـ مالك ·· ألدغتك عقربة ·· ثعبان !؟··

ولكنها لم تجب بل استمرت تحرك يدها داخل الجحر :

ـ يا مجنونة ماذا تفعلين ؟ ··

ـ اخرس الآن ··

ثم لمعت عيناها ببسمة وهى تشير الى مقطف كبير فى الركن :

ـ هذا المقطف ·· عجل يالكعى ·· عجل !

وأخرجت يدها تحمل حفنة كبيرة من القمح مختلطة بالطين ، فان جحر الفأر كان يصل ما بين الدهليز ومخزن القمح فى الدكان عبر حائط رقيق !··

ومضت تطلق صرخات الفرح ، وتندفع بيدها فى الجحر ، وتعود بها محملة بحفنات كبيرة تصبها فى المقطف الكبير وأنا أراقبها بشغف ، وأحاول أن أدخل يدى معها وهى تدفعنى بعيدا وتهتف :

ـ لا تدخل يدك ، ألا ترى القمح ؟ ليأكل أبى ايمانه وسوف نقيم الوليمة ! ··

وبدا انها تنتقم لنفسها من أبيها ومن حجوبة :

ـ لا تقل لجميلة شيئا ، سأقول لها اننى اشتريت القمح ··

ـ من أين ؟

ـ لا شأن لك ·· اياك أن تقول شيئا لأحد ··

وامتلأ المقطف الكبير بسرعة ، فأتت بمقطف آخر ، ومضت تملؤه ··

وبينما هى منكفئة على عملها فتح باب الدهليز فجأة ، ووجدت نفسى أمام أبى ، فتيبس لسانى وجف حلقى ، ولم أستطع حتى أن أحذرها ، وفى لحظة صغيرة كان أبى يقف على رأسها والغضب يتقد شررا فى عينيه · كان صامتا يراقبها فى ذهول ، وهى لاهيـة عنه ، تعمـل يدها فى الجحر بشراهة غريبـة ، والتفتت لتأمرنى بشىء ، ووقعت عينـاها على الرجـل يتفرس فيها ، فأطلقت صرخة وهبت واقفة لتعود الى الفناء أو الى الخارج ·· لكن الرجل عاجلها وأمسك بها وهو يقول :

ـ مجنونة ·· أتسرقين يا بنت المخبولة ؟

وتأوهت وهى تحاول أن تتخلص منه ·· وعجزت فانحنت على يده ، لا لتقبلها ، بل لتغرس أسنانها ··

فلم يتمالك نفسه ، بل أهوى بيده على صدغها ، فصرخت صرخة أسرعت بخطى جميلة من الفناء الداخلى الى الدهليز ··

وبنظرة واحـدة أدركت هذه كل شىء ، فقد رأت الجحـر وحفنات القمح والمقطفين وأدركت موقف أختهـا وغضب أبيهـا فانبرت تقول فى هدوئها المعهود !··

ـ مجنونة ! أتحسبين اننا سنقيم وليمة من السرقة ؟!··

وهتفت بطة من بين دموعها وهى « تفلفص » لتنفلت من يد أبيها كلمات مضحكة :

ـ سرقة ! انه مال أبينا وليس مال ابيه ·

وعند هذه الكلمات أطلق أبى ضحكة عالية وأفلتها من يده وأقبل على الكبرى التى وقفت جامدة ، وربت على رأسها ثم مضى يهمس :

ـ مجنونة مثل أمك ·· انت الاخرى مجنونة !

فتفرست فى وجهه بنظرات باردة وقالت :

ـ أنا مجنونة ! أنا يتيمة لا أب لى ، وأمى مريضة ؟

وأجهشت بالبكاء ثم ارتمت على صدر أبيها الذى ضمها اليه ، يربت على ظهرها فى حنان ، وهو يهمس فى صوت خافت :

ـ أتحسبين يا جميلة أننى أمنع القمح عنك !٠٠ أصدقت !؟٠٠ انت غشيمة مثل هذه الشعنونة ٠٠ تعالى ٠٠ تعالى ٠٠

وأمسك بطرف طرحتها ومسح دموعها ٠٠ وقادها من يدها وهو يأمر :

ـ وانت يا مجنونة ٠٠ هاتى هذين المقطفين ٠

والتفت ناحيتى وقال :

ـ وانت يا ولد عليك أن تسد هذا الجحر بالطين ٠

فانهمكت فى عملى بينما خرجتا معه ٠٠

وما هى الا لحظات حتى عادت بطة ، تهز رأسها فى عجب وتغنى ، وراحت تقفز وتحجل حتى دلفت الى الفناء ، وهى تنادى على جدتها ٠

ثم فتح باب الدهليز من جديد ، ووقفت جميلة على عتبته ، تحمل فوق رأسها مقطفا كبيرا ، ملأته بقمح نظيف لا يختلط به التراب ٠٠٠ وفى يدها اليمنى عشرات من قصاصات الحرير اليابانى الملون ، اعتزمت أن تعد منها مناديل وهدايا لشقيقات العريس : مناديل حمراء وصفراء وخضراء ، وما عليها الا أن تبعث ببطة الى السفينة الشراعية السوداء ، أو الى دكان الف صنف فى ابريم لتعود بالخرز الرفيع اللامع ٠٠ تطرز به هذه المناديل ، وسوف تساعدها فى ذلك شريفة وسعدية ٠٠ ويقولون ان يد البيضاء التى وفدت من مصر منذ أسابيع يد صناعة ٠٠ ولسوف تستعين بها ٠٠

وشغلت أنا بالقصاصات الملونة فترة ، ثم ارتفعت بعينى فأحسست أن الدهليز قد تغير منظره : كل شىء كان فيه بهيجا ، الاطباق الخوصية والصينية المنكفئة على وجوهها ٠٠٠ حتى الطين الذى كان لا يزال طريا على فوهة الجحر بدا شيئا جميلا ، على ضوء الابتسامة العذبة التى رفت على شفتى جميلة ، فأضاءت وجهها الاسمر الطيب ، وألقت بظل مشرق على غمازتيها ٠٠ وانعكست كالنغم الحبيب فى صوتها وهى تنادى :

ـ بطة ٠٠ تعالى يا بطة ٠٠

فهرولت هذه مع جدتها من الفناء الداخلى ٠٠ وارتمت بين أحضانها ، تتلقى على جبينها قبلة عرفان بالجميل ٠٠

٨ تعرت الارض ، ورقدت تستحم فى ضوء الشمس ، ومع ذلك فمئات الاقـدام لاتزال تدب عليهـا من السفوح الى الشاطىء ومنه الى السفوح من جديد ، والهرج والمرج يبلغان مداهما فى كل مكان ٠٠

فلقد بدأ الموسم الكبير ، موسم البلح ٠٠

وفيه منذ بواكيره الاولى ، تعج القرية بصنوف من الغرباء ، يملئون الدروب ، وينزلون على المصاطب ، ويملئون عيوننا بمشاهد من البهجة والفرح ، مشاهد تحفر فى الذاكرة فلا تنسى ٠

انه غزو غريب ، تتلقاه القرية بالترحاب فى كل موسم ، ونهيص له نحن الصغار ، ونهجر الكتاب ونترك كل عمل لنغمر أنفسنا فى أحداث هذا الغـزو ، نسـعى فى ركاب الحلب ·· وطبولهم الداوية ، وخيولهم المزدانة الراقصة تدك الارض بحوافرها ، وتمـلأ الجـو بصهيلها المنغم ، وأغانيهم على الربابة ، عند عتبـات الدور ، وفتيـاتهم يخطرن ، خلف الركاب ، قسيمات الوجوه ، تكاد الارداف تثقل بهن عن السير ·

ويبدو أن بعض رجال الدين يقررون عند بداية الموسم أن مواعظهم لا يمكن أن تروج الا فيه ، فيتوافدون على النجع يستدير بهم الناس فى دروس الدين والذكر ، ويتبركون بهم ثم يبذلون لهم فى سخاء ··

وكم عانيت من هؤلاء فان أبى اعتاد أن يجبرنى على الجلوس اليهم أستمع الى شيء كثير مما يشقشقون به دون أن أفهم شيئا مما يقولون ··

وما زلت أذكر واحـدا من هؤلاء بالاسم : الشيخ الرحمانى ··· ما زلت أذكر جبتـه الجـرباء وقفطانه الشـاهى الذى كبت لمعته ، وزر طربوشه المغربى وقامته الطويلة العريضة ووجهه الاملس ·

أقبل فى أصيل أحد الايام ، وتربع على سجادة صغيرة فى الساحة الممتدة بين الشونة والمتجر، فاستدار به الناس ، يلثمون يده ، ويتبركون باطراف ثيابه وهو لاه عنهم بتسبيحاته وايماءاته الوقورة !

تمهل حتى ازدرد عددا من فناجين القهوة ، وتريث حتى طوى فى حشائه من الحمام زوجين ·· ثم تجشأ ومسح فمـه بظهر يده ، وراح يتلو من القرآن آيات يفسرها فى كلمات طنانة وجمل مسجوعة عسيرة الفهم ··

توقف هـذا الرجـل مرة عند مقطع ، وترك عيون النـاس تتعلق بشفتيه برهة من الزمن حتى بان فيها التشوق والتطلع وهز رأسه ثم قال :

ــ هذا ما يعنيه المفسر ·· والله اعلم !

ثم تفرس فى الوجوه الطيبة السمراء واردف :

ــ أما الواو هنا فهى واو الحال ··

ولأمر ما سمعت الشيخ طه يردف على الفور فى صوت خافت :

ــ واو الحال ·· والمحتال !؟··

بينما رأيت وجه أبى يتجهم ، وجبينه يتقلص كعادته ، حين يحاول أن يفهم شيئا ‥ وبدا انه سيرفع أصبعه فى وجه الشيخ مثل تلميذ صغير ليسأل ، ولكنه تريث حتى طاف بنظراته فى وجوه الآخرين الى أن استقر بها على الشيخ فضل فوجده هادئا لا يتغضن جبينه ‥ وأدرك أن فضلا قد فهم تماما حال هذه الواو فتردد فى القاء سؤاله ثم نكص فى نهاية الامر مؤثرا السلامة ، فان هذه الكلمات الكبيرة غير المفهومة تصدع رءوس الناس ، ولكن هؤلاء ظلوا يرحبون بالشيوخ فى كل موسم ، ويبذلون لهم العطاء ، فلا تنتهى جولاتهم الا بأكياس طويلة من التمر يبيعونها هنا أو هناك .

وقد امتلأ قلبى باجلال هؤلاء الشيوخ فى تلك الايام ، فانهم ، كما أدخل أبى فى روعى ، رجال لا يكذبون ، ولا يرتكبون المعاصى ، قريبون من الله ورسوله ، تتهدج أصواتهم أسفا على كل انسان ضل سواء السبيل ، بل تسيل الدموع من عيونهم ، عند أقل معصية ترتكب .

ثم بدأت أضيق شيئا فشيئا بهم عند أقل هفوة يرتكبونها ، بدأت الصورة الحلوة التى رسمتها لهم فى ذاكرتى تتشرخ ‥

والشيخ طه هو أول من فتح عينى على الحقائق الصغيرة التى أخذت تهوى على هذه الصورة لتحطمها .

ففى أحد هذه الامسيات ، وأنا أنعم بلذة صب الماء على يد الشيخ طه ، أساعده فى وضوئه وشفتاه تتمتمان .

ـ بارك الله فيك يا ولدى ‥ أنبتك الله نباتا حسنا ‥

فى هذه الامسية ، ولسبب لا أذكره أهو الغيرة من الشيوخ الوافدين أم الغيرة على الحق ترك الشيخ طه تمتماته وقال على نحو فجائى أصابنى بالرعب :

ـ اذا أردت أن تكون من مريدى الازهر فاياك من هؤلاء !!.

وأشار الى الشيخ الرحمانى ثم أردف :

ـ فليسوا من الدين فى شىء !‥

ومسح بيده على رسغه ثم طاف بأصبعه فى أذنه واستطرد :

ـ انهم محتالون ‥ كذابون لا يعرفون الله !.

يا لله ! ·· كذابون ، محتالون ولا يعرفون الله !؟ ومن الذى يعرفه اذن !؟··

وانزعجت لهذه الكلمات ، ورحت انكرها كلما أدرتها فى ذاكرتى ، الا اننى بدأت أراقب حركات الرحمانى وسكناته ، الى أن كان الليل بعد صلاة العشاء ، فنشبت معركة رهيبة بين الشيخين على مسمع من رجال النجع ·

كانوا يلتهمون ، فى هدوء ، شرائح من البطيخ والشمام ، وطاب للرحمانى أن يسلى مائدة القوم ، فأدلى بحديث نبوى عن البطيخ زعم فيه ان آكله يدخل الجنة دون حساب!! وانتظر الشيخ فضل الى نهاية الحديث، وقال وهو يضحك !

ـ اذن فسوف أدخل عشرين جنة ·· بل مائة جنة !··

وصاح عبدالله الجزار ·

ـ اللورد كرومر نفسه سيدخل الجنة رغم أنه نصرانى ·· فكم أكل البطيخ بالثلج ·· أحسن بطيخ ، يا سلام ··

وتلمظ وفرك فمه بيده بينما ضج الآخرون بالضحك ، وراح الشيخ يعيد الحديث من جديد ، ليضيف فى نهاية الامر :

ـ بشرط أن تكون موحدا مؤمنا بالرسول يا عبد الله ·

فردد الحاضرون فى صوت واحد :

ـ عليه الصلاة والسلام ·

بينما تأسف الجزار ، ومضى يبحث عن كلمات يعتذر بها ، كلمات لم يجدها فاكتفى بالقاء قطعة أخرى من البطيخ فى فمه ··

وأحس الشيخ طه أن فرصته قد سنحت فانبرى يتكلم فى وقار ، وفى كلمات هادئة يسفه الحديث وقائله ، ويتهمه بالذمة الخربة · وأبى يحاول أن يهدىء ، ويلطف من كلماته · فالرجل على كل حال ضيف على النجع ·

وتشرخت الصورة الحلوة مرة أخرى ثم تلطخت فى اليوم التالى ··

فعند الضحى من هـذا اليـوم وقفت أمام الرجلين : أبى والشيخ الرحمانى أصب الشاى فى فنجانيهما ، وقبل أن أنتهى رأيت « برعى »

يجتاز الساحة من الطرف الشمالى للشونة ·· ويقترب من مجلسنا حتى حاذانا وحيانا ، ثم جلس على طرف البرش ، فى أدب وحياء جديرين بمن كان فى مثل سـنه ، وتريث الى أن فرغ الرجلان من شرابهما وابتـدر أبى :

ـ عم أمين ·

ـ هيه يا ولدى ·· خير !··

ـ خير يا عمى ··

وصمت وكأن أبى قد فهم ما يعنيه · واتجه بناظره الى الشونة ثم أضاف :

ـ مشوار بسيط الى ابريم ··

ولعب الفأر بعب أبى فتيقظت حواسه وهتف :

ـ ومالى أنا وما لهذا المشوار يا ابنى يا برعى ؟

وتردد برعى لحظة : ثم قال متلعثما ··

ـ لو سمحت بالركوبة ··

فاربد وجه أبى بينما استطرد برعى :

ـ والسرج واللجام والفرو ··

كنت أعرف أن «برعى» ، اتخذ أحسن ثيابه · وتهيأ للرحيل على الركوبة الى ألف صنف فى ابريم ، ليشترى شيئا لشريفة ، واعتقدت وهو رابض أمام أبى انه يريد السرج واللجام والركوبة ، فأشفقت عليه· وخفت أن يرده ابى خائبا ·· وتمنيت لو استجاب له أبى ليحقق رغبته الجارفة لكن الرجل مضى دون تردد واقسم ثلاثا :

ـ والله والله العظيم يا برعى ·· الركوبة أخذها نوح ··

وبانت الدهشة على وجه برعى بينما أبى يستطرد فى حديثه قائلا:

ـ منذ الفجر ولم يعدها بعد !

فقال برعى متلعثما :

ـ لكن الركوبة ··

وقبل أن يكمل جملته انبعث من الشونة ، من مكان قريب ، نهيق متصل ، نهيق حمارنا الأبيض الفاره ، وبدا وكأنه يقول :

ـ أنت تكذب يارجل ٠٠ انا هنا لا نوح ولا حاجة !!

فأصاخ أبى السمع اليه وراح يتلعثم :

ـ ولد ٠٠ ولد يا حامد ٠٠ لماذا لم تقل لى ٠٠

وانبرى برعى يقول :

ـ الركوبة هنا من الصبح ٠٠

فقاطعه الرحمانى :

ـ اخرس يا ولد ، الشيخ أمين أكد لك انها كانت مع نوح ٠٠ وقد رأيت بنفسى « نوح » يركبها فى الفجر ٠٠

وفتحت فمى لأقول شيئا بيد أنى آثرت الصمت ، وتحطمت تماما صورة الشيخ فى ذاكرتى ، وبدا حمارنا وبرعى يخرجه من الحظيرة ٠٠ وكأنه يخرج لسانه لهذا الشيخ ! انت تكذب يا شيخ ٠٠ شخشخ ركبك ٠

واكتمل النهـار ، وعاد الشيخ الى مجلسه فى الأصيل وحيدا بعد أن بارحه أبى الى داخل الدكان تتبعه شريفة لتشترى شيئا ٠

كان الرجل مشتبكا معى فى حديث ولكنه انشغل عنى حالما رأى شريفة فأتبعها عينيه يتفحصها من رأسها الى خديها ، الى صدرها فحص المعجب الولهان ، فازدريته : شـيخ بجبة وقفطـان ولا يتورع ! ٠٠ اسفخص ٠٠

ولا أدرى كيف انبثق « لورد » يجرى عبر الشيخ ويطأ طرف جبته ويزوم ! لا أدرى الا أننى رأيت الشيخ ينعطف فجأة على الكلب بهراوة غليظة نزلت بساقه فهشمتها فى الحال ٠٠

وارتمى « لورد » على مد الذراع وأخذ يرسل عويلا متصلا نفذ الى قلبى كما ينفذ جرح غائر ، لينعكس فى كراهية شديدة للرجل ٠٠ صممت بعدها أن أنتقم منه ٠٠

لورد العزيز يتلوى أمام عينى ! ، صـديقى الاليف الذى يتمسح بى كل صباح ، ويهز ذيله بالتحية ، ويحزن اذا ما حزنت ولا يأكل الا اذا أكلت ٠٠ « لورد » يرقد جريحا ٠٠٠ لا يتحرك الا ليعوى ويصرخ

ويقطب غرته المســــتديرة البيضاء !! انكببت عليه ، ألف ساقه بخرقة كانت ملقاة هناك بينما أبى يعاتب الشيخ فيرد عليه هذا فى وقار وبالاحاديث المزعومة كأنه لم يفعل شيئا ..

ـ الكلاب لن تدخل الجنة يا أمين .. ظلها .. مجرد ظلها ينجس ..

وودت فى تلك اللحظة لو تجمعت كلاب الارض كلها ، لتلقى ظلالها على هذا الشيخ ، بل وددت لو طرحته الكلاب أرضا وراحت تبول عليه ، أو على قصاع الفتة التى يزدردها كل ليلة .. الكلب ابن الكلب ..

وحملت كلبى الى الدهليز ، ثم عدت فى غبش المساء أبحث عن أصدقائى أطفال النجع وأسر بكلمة واحدة فى آذانهم ..

وفى الأصيل من اليوم التالى ، والرجل يغادر نجعنا تربصنا به ، عند مشارف النــــجع الآخر نمطره بوابل من الحجـــــارة وروث البهائم حتى تركناه دامى القدمين ، ملطخ الثياب .. يرسل صرخات فزع ، وولينا الادبار ضاحكين من عويله !! ..

وعدت الى الشونة أشـــــترك مع أبى وحسن المصرى ، فى تغطية أرضها بأكوام من الرماد .. تحول بين السوس والبلح ، فهنا سوف نكوم جرن « الابرتموده » والى اليمين « القنديلة » .. و « الحجازى » و « القرقودة » ، والى الشمال سنكوم « السكوتى » الى آخر أنواع البلح الابريمى التى اشتهرت بها قرانا ، ورحنا نعد غرارات طويلة ، يمر على ظهرها زيق أحمر عريض ، وننظف المكاييل ، فمن غد ، منذ الصباح سنحمل كل أدواتنا هذه الى غابات النخيل .. نستوفى ديوننا ..

***

مئات .. من الرجال والنساء والاطفال يهبطـون مع الشـــمس الصاعدة الى الشاطىء على موعد مع عشرات الالوف من أشجار النخيل، ومئات الالوف من السباطات ، وملايين حبات التمر .

فالنجع يبدو وكأنه ليس الا غابة نخل ... نخل من كل لون ، من كل مذاق ، ولكل نخلة حياة كاملة ، وصفات متوارثة يحفظها عم نوح .. عن ظهر قلب ..

هذه نخلة سامقة ، حانية على النيـــل ، قمتها منفوشـــة اصفرت نهايات شواشيها ، تهتز مع النسيم ، وتحتضن ثمارها فى حنان ، تنحنى قليلا ثم تهمس لجارتها :

ـ أتعرفين يا صغيرة كم بلغت من العمر ؟

ـ كم يا جدتى ؟ •• عشرين سنة ؟ ••

ـ عدى على أصابعك •• استراح المماليك تحتى منذ ••

ـ مماليك !؟ ••

ـ نعم مماليك •• ألا تعرفينهم ؟ هربوا من مذبحة ، ومروا من هنا ، رحل بعضهم وبقى آخرون ، سعدية من بناتهم •• بيضاء ، جميلة •• في عينيها بقايا زرقة ••

وتتلفت الشجرة الصغيرة لترمق سعدية ثم ترفع قامتها لتهمس :

ـ مماليك !! سعدية •• انت تخرفين يا جدتى ، فتصخب الكبيرة، وتمد جريدها تصفع حفيدتها ، بينما انبرت عجوز تهمس فوق الاتير :

ـ دعى الصغيرة ، انها لا تدرك شيئا •• ولا تعرف ان الدراويش استراحوا فى ظلى •• وهم يطاردون الكفرة ببنادق الصيد والسهام •

ـ صحيح يا بنتى •• رأيتهم بعينى ونجوت منهم فقد كانوا جائعين• ينزعـون من النخلة قلبها ، ويفترســـون البلح وهو ما يزال مرا •• ولا يتركون شيئا أخضر ـ تماما مثل الجراد ؟

ـ ويلتهمون الجلود التى تمسك بضلوع الساقية ، أيام صعبة ، لا أعادها الله على أحد من المؤمنين ••

ثم تضحك وكأنها تذكرت شيئا وتهمس :

ـ انظرى الى هـذا الرجل : الشيخ أمين •• يمشى وكأنه ملك ، لقد شهدته فى تلك الايام مربوطا الى حبل ـ ربطه الانجليز ـ يشـــد مراكب ذخيرتهم حين توقف النو •• أيام حرب الدراويش •• كان يبكي ويصرخ والسياط تلسع ظهره •• والآن ـ دنيا !! ••

فنطلق العجوز الاخرى ضحكة متشرخة وتردد :

ـ انظرى الى ســـاقى ، ألا ترين اللون الأحمر •• انه دم •• دم عسكرى انجليزى ، أراد أن يعتدى على فضيلة ••

ـ فضيلة !؟

ـ زوجة الشيخ فضل صاحبى ، بالطبع قبل أن يتزوجها ••

ـ وتركته يعتدى عليها ؟! ••

ـ كلا ، فقد عاجله فضل وقطع رأسه بفأس ‥ ألا تسمعينه دائما يضحك فى زهو وهو يقول : كلب ومات ولم يسأل عنه أهله ٠

ثم صمتن فى أسى حين لاح بريق الشراشر فى يد نوح وصحابه ، فقد أقبلوا يقطعون السباطات ، وليتهم يقطعون السباطات فحسب انهم لا يرحمون بل يخربشون بمناجلهم فى القلوب بحثا عن الجمار ، فيتوقف نبض القلب حين ينتزعونه ‥

وتضحك الصغيرة مرة أخرى وهى تقول :

ـ انظرى يا جدتى الى هذا الرجل ، انه سكران ! ‥

فتهمهم العجوز وتشقشق لتقول :

ـ شرب العرقى بالامس ، فمنذ أسابيع أشعلوا النار تحت آنية ٠ كبسوها بالبلح ـ يستقطرون الخمر ‥

وتردد العجوز الاخرى فى صوت متهدج باك :

ـ عروا جسدى من الكراديف ، والشتاء آت ببرده ، أشعلوا فيها النار فى الكوانين تحت أوعية الخمور ‥ حتى العيال الصغـار يشربون الخمر ـ العرقى فى الموسم ـ انظرى الى هذا الطفل ! ‥

فتقاطعها الصغيرة :

ـ دعيهم يمرحون فانهم مازالوا صغارا !

ثم تقطب وتزوى ما بين عراجينها وتقول :

ـ الادهى من ذلك يا أمى انهم يغازلون البنات مباشرة تحتنا ودون حياء ! ‥

ـ اسكتى يا ابنتى ‥ ربنا أمر بالستر ‥ قلبى يبكى على بدنك ، تحولت الى جذع يمتد على سقف بيت هناك ‥

وأشارت الى بيت الشيخ فضل :

ـ وعلى قوامها الطاهر حصيرة من جريدى ، وحبال من ليفى أنا ، لعنة الله على الدنيا ! ‥ وفوق الجدران أطباق وأبراش من خوصى أنا ٠ وخوصك ، وعراجين هذه الجارة المسكينة ‥‥ الحياة قاسية لا تستحق كل هذا العناد ! متى يأتى الطوفان الذى يتحدثون عنه متى !؟

وهب نسيم نشط فتراقصن معه ، وأرسلن أغنية مرحة سكتن بعدها فجاة ، حين تكاثر الرجال والنساء تحتهن ، ولمعت الشرشرة فى يد نوح ، وهو يتسلق النخلة العجوز ، فرسلت انينا خافتا أعولت له الجارة الصغيرة وهى ترمق أبى يرص زكائبه ويرتب مكاييله ، ونسوة العائلة وهن يتجمعن فى الظل ، ويتطلعن الى هامات الأشجار فى انتظار السباطات التى ستختنق وترتمى على الارض ٠

وتقع السباطة الاولى : دب ٠٠ دب ٠٠ والثانية والثالثة ٠٠ دب ٠٠ دب ٠٠ بين تهليل الاطفال ، فتمتد أيدى النسوة يجمعن البلح المتناثر ويكومنه فى جرن كبير ، ثم يستدعين أبى فيجلس القرفصاء ويغمغم بالحمد لله ٠٠ ويغرس المكيال فى كومة البلح يسنده بيده اليسرى ، بينما اليمنى تمتد الى المحصول فى شراهة ، وتنتقل فى خفة بحفنات كبيرة منه الى قاع المكيال الكبير ، دفعة بعد أخرى الى أن يمتلىء ويتكوم البلح فوق فوهته ، وتحسب « داريا » انه سينتقل بالمكيال الى فوهة الشوال فتتأهب لتقول : الله واحد ماله ثانى ، فاذا بالرجل يضرب بيمناه على ضلوع المكيال ضربة قاسية ٠٠ ترج البلح فيتقلص ويتراجع الى القاع من جديد ، فتتنهد المسكينة وتقول لنفسها :

ــ المحصول لن يفى بالديون ٠٠

ثم ترفع صوتها وتحتج :

ــ حرام عليك يا أمين كلثومة ٠٠ قطعت فرط البلح ! ٠٠

فيرميها الرجل بنظرة غاضبة ثم يواصل عمله فتنكب على يده وهى تصرخ :

ــ بددت بركته يا شيخ ٠٠ حرام ٠٠ أولادك يا أمين كلثومة ٠٠

فلا يبالى بل يدفع يدها عنه ، ويتمتم فى غيظ : فى كل موسم تأتى هذه الولية تناكف وتتشكك فى ذمتى ، بنت الكلب تتهمنى ٠٠٠ ما عدت احتمل ، وتكاد بطة وشريفة تشتبكان لولا صداقتهما الوطيدة ، فتكتفيان بنظرة عتاب ٠٠ بينما ينفد صبر الرجل فيهب غاضبا :

ــ خلاص ياداريا يابنت سكينة ، حرمت التعامل معك ، ابحثى عن غيرنا تستدينين منه ٠

ثم يرفع يده فى وجهها محذرا :

– لكن بعد أن تسددى ديونك على داير مليم ! ..

فتتعلق شريفة بكمه وتهمس فى تضرع :

– لا عليك ياعم أمين ، من غيرك نتعامل معـه ، المرحوم أخوك ، صاحبك بالروح .

فيتذكر الرجل أباها ، ويصمت هنيهة تتشجع فيها داريا وتهتف:

– ولكن المكيال كبير وأنت تدكه يا أمين بيدك .

– ياولية .. حرام عليك ، لا تكفرينى ، المكيال عليه خاتم الحكومة ..

ويرفع المكيال أمام عينيها ثم يقذف به الى كومة البلح وهو يهدر ، فتعترض طريقه ثم ترفع المكيال من جديد أمام عينيها وتقول :

– صحيح ؟ عليه خاتم لكنه اتسع بسبب الشروخ !

ثم تمسك بقطعة حجر ، وتدق عليه من جوانبه لتضم الشروخ ، بينما أبى يصرخ فيها وهو يضرب كفا بكف :

– بخلاص .. خلاص .. هاتى كيالا آخر .. الحق علينا ، تركنا له دخل بحماره ..

وتلح المسكينة عليه ، فيعود الى التكييـل والدك والتعبئة من من جديد ، ويظل يدك ويحصى ويسجل فى دفاتره ، ونظل نحن ننقل كل زكيبة تمتلىء على ظهور الدواب للشونة الى أن حلت الظهيرة فركنا الى الهدوء ، وافترشنا المصاطب ثم تحلقنا حول صحاف الأكل : شرائح من الخمربد ورؤوس بصل نكسرها على الركب ، وحفـان من الشـطة نزدردها بسرعة .. لا نبالى بالالتهاب الذى يكوى أشداقنا ، فقد اعتدنا نحن الصغار أن نتبارى فى التهام الشطة ونحن نردد كلمات تنتهى بالحاء : قدح : بلح .. قمح . صح ..

وما أن انتهينا من تناول طعامنا حتى لاح « باشرى » عند الساقية يتسمت مجلسا مديد القامة ، نحيل الجسد ، جاحظ العينين . أحمرهما، يكاد شـعر صـدره الرمادى ، يخترق قميصه الـكريشة الأبيض ، فى شفتيه عزم .. صفحة وجهه تلمع ببريق يوحى اليك انه يعيش على مدار السنة فى الماء .

دنا منا ثم ألقى بالتحية فى صوت خشن يحمل الى أذنيك صوت

الشمندورة المرتطمة بسلسلتها وهدير الدوامة واصطفاق قلوع المراكب ٠

وتلقاه أحمد عوده بالترحاب ، فضمه الى صدره مرة ثم تباعدا وشدا الأيدى ، وعادا بهما الى الصدر تحت القميص ، تماما فوق القلب ٠٠ وهما يرددان :

ــ حبابك عشرة ٠٠

ــ حبابك عشرة يا باشرى

واستدار الناس بباشرى يستعيدون ذكريات المواسم ، ويرددون النوادر عن رحلاته فى شمال القرى وجنوبها ، فالرجل من « الكنوز » « المتكية » ، قبائل الشمال ، فيما يلى الشلال الى الجنوب ، والتى تنتسب الى عرب الشرق وتتكلم لغة أخرى غير لغة الجنوبيين ، أغرق الطوفان الاول والثانى ، منذ بناء خزان اسوان ثم تعليته لاول مرة فى سنة ١٩١٢ قراهم فانتقلوا الى قمم الجبال يحاولون ان يعاشروا الطبيعة القاسية ثم أصابهم اليأس فهاجروا الى المدن الكبرى أو الى الجنوب ، واتخذ بعضهم من سفن شراعية كبيرة متاجر تنتقل بهم من مرفأ قرية الى موردة قرية أخرى وترسو شهرا أو شهرين على مرافينا فى كل موسم ٠

والرجل فى كل موسم ، ومنذ عشرات السنين يحل بنجعنا حتى انعقد بينه وبين رجال النجع ونسائه أواصر ووشائج ود ، يعرفهم بالاسم ويعرفونه كأنه واحد منهم ويهتمون بشـئون زوجته وعياله مثلما يهتم بشئون زوجاتهم وعيالهم ٠

تربع الرجل على المصطبة المستديرة بالنخلة العجوز ، وأخذ يدور بعينيه هنا وهناك كأنه يبحث عن شىء أو يخزن فى ذاكرته صورة يخشى أن يطويها النسيان ، ودار الحديث مليا عن الاسعار وعن أبنـائه بحـر وعبدون حتى أقبلت بطة تحيى وتقدم فنجـان شاى أعدته تحت جـدار الساقية فتلفت اليها وهو يقول :

ــ باسم الله ما شاء الله ٠٠ هاتى يا عروسة ٠٠ يا سلام !

والتفت الى أبى باسما يغمز بعينيه ليهتف فى مرح :

ــ كبرت بطة يا أمين وطاب الأكل للأكال !

فغضت الفتاة حياء وهربت وهى تخفى ابتسـامتها خلف طرحتها بينما أبى يضحك ويقول :

ـ طاب الأكل يا باشرى والأكال أهتم لا أسنان له ٠٠

فدفعه الرجل فى صدره بلكمة وهو يصرخ :

ـ هيا نجرب ، زوجها لى يا أمين ٠

ثم انشغل فجأة عن هذا الحديث وأخذ يحدق فى قامات النخيل السامقة وهو يغمغم : مساكين ٠٠ سيطويكم الطوفان مثلما طوانا ، ولا نخلة واحدة هناك !٠٠ ثم قطع أبى عليه كلامه وهو يسأل :

ـ وكيف حال الكنوز يا باشرى ، ومشاريع الرى فى بلاد المتكية ٠

فانتفض الرجل كأنما لسعته عقربة وتنهد ودار بعينيه فى النخيل ثم قال :

ـ كنوز !٠٠ ما عاد هناك أحد ٠٠ الكل هاجروا ٠٠

وتذكر قمم الجبال الشاهقة التى لاذ بها الناس بعد الطوفان الاول والثانى فى « دابود » و « الكلابشة » و « خور رحمة » منذ عشرين عاما ٠٠ تلك القمم التى لا ينبت فيها الا الصبار المتجهم ٠ كأنما هو وجه الموت نفسه ٠٠ وتذكر الدروب الثعبانية المنحدرة منها ، وتذكر نساءه وهن ينحدرن من تلك الدروب الى النيل ، يجلبن الماء ، فيتبدين ديدانا سوداء تزحف ، تذكر كل ذلك وهتف فى يأس :

ـ أى مشروع رى تتحدث عنه يا أمين ! ولا نخلة واحدة هناك ، مذاق البلح نسيه الناس هناك ، الا ما نشتريه من هنا ٠٠ وماذا سنفعل غدا اذا ما ٠٠

وضرب صفحا عن تكملة نذيره ٠٠ وقال :

ـ النبى عليه الصلاة أمر بالتمر ففيه شفاء ٠٠

ثم أخذه سعال حاد جعل عروق رقبته تنفر ٠٠ وعينيه الحمراوين تجحظان ، فتريث حتى تمخط وبصق فى اتجاه الخزان ثم أكمل : شفاء سبعين « داقا » ـ بعد حين لن نجد ولا حبة واحدة من التمر ٠٠ مساكين مساكين نحن !

وتلفت الى أحمد عوده ، وهو يقلب عينيه فى حيرة :

ـ أتعرف يا أحمد لقد مررت « بالديوان » فرأيت رفاصا راسيا هناك ، فانقبض فؤادى ، وأحسست أن دمعة تقفز الى عينى ٠

وتأثر أحمد عوده بكلماته الحزينة وصاح فيه :

ـ ماذا جرى ياباشرى ·· مالك تبكى مثل النســاء ·· حرام عليك ·· الله موجود ·· الرفافيص كثيرة ·· كلها تمر من هنا ··

وهرش باشرى على رقبته وأكمل :

ـ الا هذا الرفاص يا أحمد ·· كان المستر هيس واقفا على حافته يراقب النخيل والبيوت والجبل بمنظاره المكبر ··

وأصاخ فضل السمع الى كلمات الرجل وقال :

ـ ومن هو المستر هيس هذا ؟ أهو عزرائيل ؟ ·· لماذا تخاف منه؟

وتردد باشرى قبل أن يجيب :

ـ اننى أخاف عليكم أنتم ·· فبعد الرفاص سوف يأتى الطوفان··

وتلهى عنه فضل فجأة وانتبه الى مشهد استثاره وصاح :

ـ يا بنت يا شريفة ، أتركى هذه الخلفة ·

وسرسع صوت الفتاة فى حدة :

ـ لماذا ؟

ـ عجايب ! سنشتلها يا بنت الرفضى ·· اتركيها والا ··

فأجابت الفتاة بجرأة :

ـ النخلة نخلتنا والخلفة خلفتنا يا عم فضل !··

وقطب الرجل جبينه ، وقذفهــا بقطعة صــغيرة من الطين تفادتهــا الفتاة ، ثم عادت تجذب فى الخلفة ·· كانت تحاول انتزاع جمارها الحلو لتمتصه ، وانتبه برعى الى النقار الدائر بين شريفة وخاله ، فأسرع اليها يهمس فى صوت خافت :

ـ اتركى هذه ·· أنا سأنتزع لك جمارة أخرى ··

ورمقته الفتاة بنظرة متسائلة ثم لوت شفتيها وتركت المكان :

وأطرق باشرى يفكر ··· هؤلاء الناس لاهون عن الكارثة المعلقة فوق رءوسهم ، انهم لم يجربوا النــار بعد ، لقد جربتهــا أنا ·· جربتها صغيرا ورأيت الموت يزحف أمواجا على نجوعنا هناك فى الشمال ·· انهم

لا يعرفون ما قاله النائب عبد الصادق عبد الحميد ، ولا ما قاله سليمان عجيب ، لا يعرفون ماعرفناه نحن هناك فى أسوان عندما كانت سفينتى ترسو فى مينائها قبل أن تجتاز هاويس الخزان ، يجهلون ان مجلس الشيوخ ناقش تعويضاتهم : قروش قليلة عن كل نخلة ، والارض بتراب الفلوس .. مساكين يساقون الى الذبح كما تساق النعاج ... لم يعد أحد يدافع عنا بعد عبد الصادق وعجيب ، أما النائب الحالى على طه فلا يفعل شيئا غير تملق حكومة صدقى ، لا يدافع عنا بل عن الحكومة :

وهنا تمخط من جديد وبصق ، وأنشأ يتكلم عن أفكاره ، والناس يستمعون الى أشجانه فى ذهول ، بينما نهض أبى من جديد الى العمل يكيل وأنا أمسك له بفوهة الزكيبة .

كنت أعمل ، وذهنى منصرف بكليته الى باشرى وكلماته عن النواب والانتخابات فسرحت بفكرى الى سنوات مضت ، وعشت من جديد صور جموع كبيرة من الناس تطوف بالنجوع ، تحجل وتهتف : فتى أسمر ممصوص القوام ، يطوح بخيزرانته ويرفع عقيرته ويهتف :

الطير يقول :

ويسكت لتردد الجموع من خلفه :

ـ سليمان عجيب .. سليمان عجيب .. سليمان عجيب .

ـ ززوور يقول :

ـ سليمان عجيب .

ـ زغلول يقول :

وأخذت أربط بين تلك الهتافات وكلمات باشرى عن النواب والتعويضات فلم أستطع أن أدرك العلاقة فازددت حيرة وأرخيت يدى وأفلتت فوهة الزكيبة التى كنت أمسك بها فطاشت كيلة البلح التى رفعها أبى ليصبها .. فدفعنى بعيدا عنه وهو يسب ويلعن :

ولد خيبان ، ينام واقفا على قدميه ، وعاد يدك الكيل ، ويغرس يده فى المحصول المتكوم .. والنسوة من حوله يصرخن فى احتجاج ويملى هو على أحمد عوده دون أن يبالى بالصرخات .

ـ اكتب عندك .. داريا سكينة .. ١٣٠ كيلة .. ٥٠ سكوتى .. ٧٠ ابرتموده والباقى قرقوده !..

وينهض الى جرن آخر من البلح لعـائلة أخـرى ، وتبـدأ المناهدة والنقار بينما ينضم الشيخ شليب الى المصطبة ويشترك فى الحديث الدائر عن الحكومة ومجلس الشيوخ ويقول متأنيا :

– أسمعتم بتليغراف بدر أفندى ..

فسأله فضل بعد أن نفث دخان سيجارته :

– بدر أفندى !؟.. أى تليغراف !؟

– تليغراف شكر الى « أبو الفضل الجيزاوى » .

ومضى يشرح معنى هذه البرقيـة ، فالرجل كان مأمورا فى مركز الدر يعرفه جميع النوبيين ثم أحيل الى المعاش وأصبح عضوا فى مجلس الشيوخ ، وهناك دافع عنا بكل ما يملك من بلاغة وحب .. هكذا قال بدر أفندى ، فالرجل جدير بالشكر .. هو الوحيد الذى دافع عنا .

وكعادتهم .. كعادة كل القرويين سكت أهل النجع فى كل شىء فلم يبالوا بكلمـات الشيخ شليب بل صمتوا ، ثم عـادوا الى أحاديثهم المليئة بالشجن والحزن ، تمتزج بما يدور حولهم من ضجة وجلبة ، النساء وهن يصرخن فى وجه أبى ، وصوت عم نوح وهو يصرخ فى ابنته ... وأصوات مزامير وخشخشة غوائش زجاجيـة ملونة اشتريتهـا من مركب باشرى ، وصرخات نقـار يثيرها الاطفـال ، حـول الافخاخ والسـنانير والطواقى الملونة ، قايضوها عند باشرى بالبلح الذى جمعوه ، فى السحر من كل يوم ، قبل بداية الموسم .

وعلى مد البصر، كانتجماعات من النسوةيتحلقن بمصاطب النخيل، يتشاجرن ، ومواكب ألوان جميلة من الطواقى والطرح ومناديل الرأس الحمراء والخضراء والصفراء .

وفجأة صمت كل شىء ، وأحس الانسان أنه قد سقط فى هاوية ، فى نفق عميق غائر لا حس فيه ولا صوت ، فقد توقفت « الغوايش » الزجاجية عن همسها ، والتوت الألسنة ، وتوقف دك المكيال ولجاج النسوة واستدارت العيون كلها فى اتجاه واحد .. كل العيون كانت تنظر فى اتجـاه النتوء الشرقى ، حتى عم نوح الذى هبط من آخـر نخلة ألقى بالشرشرة فى يد ابنته مندوهـة ، وأشرأب بعنقه يرمق النتـوء بنظراته الكليلة ، فعنده كان « رفاص » أبيض جميل المنظر يلقى مرساه بعد أن أوقف قلاباته ، ومنه كان يقفز الى الشاطىء رجال بملابس غريبة محبوكة

على أجسادهم فى ضيق شديد ، وطرابيش حمراء وبرانيط تنعكس عليها اشعاعات شمس الاصيل ٠

وعلى الشاطىء توقف العمدة يلقاهم بترحاب شديد ، وما هى الا لحظة حتى انعطف بهم الى الطريق العام يقودهم الى داره ، هناك فى الطرف الشمالى من القرية بينمـا بدا الرجال والنسـاء والاطفال تحت أشجار النخيل وحول أكوام البـلح عيونا واسـعة تحملق فى الوجوه البيضاء والطرابيش الحمراء ، والبرانيط ٠

ومرت لحظات مثقلة بالرعشة واللهفة والخوف ٠٠ لحظات دامت حتى توارى الوافدون الجدد خلف الربوة الفاصلة بين نجعنا ونجع «السواردة» ٠٠ قبالة الصخرة المعلقة على كتف الجبل ٠٠

ثم انكفأ الناس على أعمالهم ، يراقبون الشمس المائلة الى الغروب يلمع ضوؤها الباهت على سطح الشمندورة الحمـراء التى طفقت تتحرك فى قلق شديد تحاول الفكاك من أسارها الأبدى ٠٠

ونفض أبى يده من التراب ، بعد آخر كيلة ٠٠ أفرغها فى الزكيبة وبدأ يجمع أدواته ويتأهب للعودة ، بينما ودع باشرى صحابه ، وانطلق بخطى واسعة هاربا الى متجره العائم ، ومن خلفه الشيخ فضل يضرب كفا بكف ويهمس :

ـ مسكين باشرى ، الرفافيص تخيفه ٠٠ مسكين !

وقال أحمد عودة :

ـ معذور يا فضل ٠٠

٩

الشرشرة تلمع فى يد نوح · والبساطات تتهاوى الى الارض فى جلبة دائمة، والدواب تتحرك من الشاطىء الى الشونة تنوء بحملها ، والأطفال يتواثبون فى ضجيج لا ينقطع من النتوء الى السفينة الشراعية السوداء ، ويحشـــون أفواههم بالحلوى .. وحفنات الفول الســـودانى والحمص ، وبين النخيل ألحان تنبعث .. مختلطة بوشـــوشة الأجراس الصـــغيرة المنتظمة حول « الخلاخيل » المحدقة بالسيقان ، موسيقى ينتظم ايقاعها مع الخطى الصغيرة الواثية والاكف الرخصة المخضبة السارحة فى دلال بين الطرحة المسدلة تصلح من وضعها وبين الجرجار الطويل تخلصه من التراب والعاقول .

فى مثل هذا الجو الساحر ، كنت امسك بفوهة الزكيبة لابى ، وهو يدك المكيال دكات تختلط بشهيق النسوة ، وفجأة انبعثت على الشاطىء صيحات مسرسعة وضحكات ألهتنا عن مشاغلنا فأدرنا الرءوس فرأينا حلقة صغيرة من الاطفال تتشكل ، يتوسطها « أش الله » وهو يردد فى نغم راقص :

ــ هيه هيه ، كلو هيه

ــ هيه .. هيه ، كلو هيه ..

وابتسم الرجال والنساء ، وتواثب الاطفال من كل مكان لينضموا الى الحلقة يرددون نفس النشيد . ويلقطون حجارة . يطوحون بها من فوق رءوسهم الى رجل كان يسرع الخطى ، على الشاطىء . رجل غريب الأطوار والمظهر ، مديد القامة ، عريض البدن ، مستدير الوجه ، لامع السواد ، تنفرج شفتاه الغليظتان عن أسنان ناصعة البياض ، ينتشر شعره على رأسه مثل حبات الفلفل ويغزر وينسدل طويلا على صدره وبين فخذيه ، عارى البدن تماما كما ولدته أمه .. طيب الملامح ، يسيل اللعاب من بين شفتيه على نحره ، يختلط به ، نثار كلمات خافتة .. يرددها عند كل خطوة :

ــ واحد .. أحد .. لا شريك له .. واحد .. أحد ..

ظل يدنو وصيحات الاطفال تنداح من حوله ، الى أن توسط الحلقة كرجل يسعى الى حتفه بظلفه ، ثم توقف يتلفت حوله .. يلمس وجوههم فى حنان وهم لا يبالون به ، بل يدورون حوله يرددون نفس النشيد ، ويرجمونه حتى سال الدم من عقبيه ..

وبينما الصغار يتراقصون ، انعطف اش الله .. الى الجدول الكبير ، ومضى يجدل من الشوك اكليلا قفز به الى منكب الرجل وأحاط به رأسه فانغرز الشوك فى فروته ، والرجل يتواثب محاولا الفرار ..

مخلوق غريب تراه فجأة فى طرقات النجع ، تراه ثم لا تجده ، يتبدى لك عبر النيل ، على شاطىء الجزيرة ، ولا يمر وقت طويل حتى تراه يدب على الشاطىء الآخر ! يظهر ولا تعرف لماذا ، ويرحل دون أن تدرى سببا لرحيله .. كان يعرف الناس جميعا ، ويحفظ أخبارهم ، ويتنبأ لهم بما سوف يحدث فى غد قريب .. يستقبله الرجال بالترحاب ، ويحاولون أن يغطوا عورته فلا يبالى بما يفعلون ، ثم يتبدى مرة أخرى كما ولدته أمه ، الى أن كفوا عن محاولاتهم ،

وترمقه الفتيات فيغضضن البصر عما بين فخديه ، ويتبركن به ، فبركته تحل بأى مكان يضمه ولو للحظة واحدة ! لقد بات فى خلد النساء جميعا والرجال أيضا أن « كلو » ولى من أولياء الله ، انكشف الحجاب عنه يوم طرق باب الرحم ، وخرج الى الوجود ، ألم يدخل منذ شهور بيت أحمد عوده - قبل عودته - وطاف بحجراته وفنائه والزوجة تتبعه الى أن توقف عند سحارة ينفض عنها الغبار ، وعند طبق من الخوص يتلمسه ، وعند كرباج طويل يلقى به الى سطح الجيران ؟ ألم يتوقف عند صورة لاحمد عودة يتأملها ليتركها الى الفناء .. يبارك الدواجن والحملان الصغيرة ، وينفلت منه ليعود عبر باب الدهليز وهو يشير بيديه الى السماء ؟ ثم ألم تتسلم الزوجة فى نفس الامسية برقية عاجلة بعودة زوجها ؟! ومتى خاب « كلو » ؟ ولماذا يخيب ؟ .. أليس من أولياء الله !؟

هكذا عاش « كلو » ينتقل من قريته الى كل الدروب والنجوع يستدير به الصغار ويشاكسونه .. ويغرزون الشوك فى أديمه ، فيتأوه ويبتسم فى نفس الوقت ، ولا يمد يده ليؤذيهم ... فالعيال أحباب الله ، أحباب « كلو » ثم يقيل الكبار عثرته ويترفقون به وينتظرون الوحى من بين شفتيه ، ويتوقعون معرفة أحداث الغد منه ، فلربما دارت هذه الخواطر فى أذهان فضل وأحمد عوده وأبى الذى توقف عن العمل حالما سمع صيحات الاطفال الذين راصلوا غرز الشوك فى جسده، ثم قام فضل اليهم يلسع ظهورهم بخيزرانته ، فتفرقوا وأصواتهم ماتزال تملأ الجو بنشيدهم وتسبيحاتهم ..

أمسك به فضل من معصمه وقاده بين نظرات النساء وهن يتصنعن الحياء من بدنه العارى ، وأجلسه على واحدة من مصاطب النخيل ، تربع عليها ومضى يغمغم ويتلفت حوله ليتفرس فى العيون الوالهة التى تراقب حركاته وسكناته ، ثم كف عن تقليب عينيه ، وتحسس شعر رأسه وتأمل فناجين الشاى مليا ، ثم مد يده واختطف فنجان داريا سكينة وتفل ثلاثا فيه وأعاده وهو يأمرها أن ترتشفه جرعة بعد أخرى .

فتهللت أسارير داريا ، وقربت الفنجان من فم ابنتها ، فزام كلو وعبس فى وجه شريفة يأمرها ألا تشرب ، فذهلت داريا وترددت لحظة وأبعدت الفنجان عن شفتيها ثم عادت فشربته حتى الثمالة حريصة على كل قطرة من الشاى تتحلبها وتمتصها ..

وانتهزت جدتى الفرصة وراحت تشدنى من كمى وهى تغمغم :

ــ تعال لكى تقبل يد « كلو » ..

ولاحظت ترددى فأضافت :

ــ ستحل بركته فيك ، وتسافر الى خالك فى مصر .. الى الازهر ..

ولا أدرى لماذا انبعثت صورة الرحمانى فى تلك اللحظة ، ولماذا تراقصت أمام عينى كلمات الشيخ طه ، اياك من هؤلاء .. لا تقبل الا يد أبيك والشيخ الذى تعلمت القراءة والكتابة على يديه .. اياك ..

فتوقفت عن متابعة خطوات جدتى وهى ما تزال تشدنى وظلت المسكينة تناضل وأنا أقاوم دون أن أدرى سببا للعناد الذى ركبنى .. حتى هب الرجل واقفا وقفز فوق أعناق الرجال .. وأسرع الخطى والناس مذهولون حتى حاذى الجدول الكبير ثم الساقية وتوارى عن أبصارنا خلف بنائها الكالح المتشقق ، وهنا أطلقت الجدة آهة متحسرة ثم تركتنى لتداعب شريفة التى بدت تعيسة منذ أن أبى عليها الرجل أن توتشف جرعة واحدة من فنجان أمها فلربما دل ذلك على أن شرا ما سوف ينزل بها ، بيد أن همهمة النيل ووشوشة النخيل وأزير الفلوكة .. وخشخشة الفوايش الزجاجية الملونة « الاضانى » ومزامير الأطفال وبريق الخرز الرفيع فوق ذؤابات المناديل على رءوس لداتها وصيحات حسن المصرى : عا .. عا .. يستحث بها الدواب ، ربما ردها عن خواطرها الحزينة .. فاستسلمت لدعابات جدتى ، وعادت تعمل وتغرز يدها فى أكوام البلح تساعد أمها ..

وفجأة تمايلت الأم وانحنت تمسك ببطنها وتتأوه وفى عينيها ألم ، وعلى جبينها تقلصات .. وفزعت الصغيرة حين أرسلت أمها قيئا أصفر ، فأحاطت أمها بذراعيها ، وساقتها الى مكان تستريح فيه وهى تنادى على بطة :

ــ ينسون يا بطة .. اسرعى يا بنت ..

فأسرعت هذه الى مركب باشرى لتعود بسرعة

ولأمر لا أدريه تمايلت كل امرأة برأسها نحو داريا ، يرمقنها

بخناجر النظرات المليئة بالشـــك والريبة ، لقد فهمن ما لم يفهمه الرجال : تيوس لا يدركون شيئا ، وهمست فضيلة ومن خلفها سبيلة زوجة المأذون : ملعونة .. نجسة .. ثم اتجهن بنظراتهن المتوهجة الى حسن المصرى الذى استند على كتف حمارنا ، ووقف يبرم شاربيه سارحا ببصره فى كل شىء .

وحارت الصغيرة فى أمر أمها ، فمنذ مدة يغشاها هذا القىء تعالجه بالكراوية واليانسون والحلبة المغلية دون جدوى ، حارت وقررت أمرا لكنها تريثت الى أن استعادت داريا أنفاسها فأنهضتها تستند على منكبها وانعطفت بها الى الطريق الزراعية وهى تهتف ببطة : امتعتنا .. خذى بالك منها ، ثم عادت بأمها الى دارهما هنالك عند السفح بينما النسوة يحدجن حسن المصرى بنظرات مسمومة ..

وفى نفس اللحظة كان « لورد » يعوى ويحاول أن يجرى فيزك بساقه المكسورة ، وعجبت من أمره بيد اننى أدركت كل شىء حين رأيته يتعقب كلبة عبد الله الجزار التى توقفت غير بعيد رافعة ذيلها موجهة اليه نظرات بلهاء .

وحز فى نفسى أن الكلبة تغرى « لورد » فيلهث للحاق بها ، حتى اذا مادنا وكاد ينالها هربت منه ! فظل المسكين يحاول مرة بعد أخرى ، والكلبة بنت الكلب تعبث به مرة بعد أخرى الى أن تهالك واستكان ، وخيل لى حينذاك أن فى غرته البيضاء بقعة سوداء .. وأن فى عينيه دمعة تكاد تسيل وهما ترمقان ساقه الجريحة فى أسى ، فرحت أطارد الكلبة وأقذفها بالطوب حتى ارتطمت عيناى بمشهد آخر شغلنى عنها ، مشهد جماعة متنافرة الثياب تتسلل من بين نخيل السواردة ، وتتجه الى النتوء ، ثم تعرج علينا فى خطى ثابتة ... توقفت لحظة أراقبهم ثم أدرت ظهرى وعدت لافضى بالخبر الى المتجمعين هناك حول أكوام البلح ، فوجدتهم يشرئبون بأعناقهم الى الوافدين الجدد ، ويرمقون ملابسهم بانفعالات غاضبة حائرة تبدت على وجوههم ..

ومن فوق الرءوس كان النسيم يعبث بهامات النخيل فبدت وكأنها تتقارب وترسل همسا خافتا متوجسا ، ومن تحت أقدامهم انتفض النيل فى حركة ضجت لها ضلوع الشاطىء !

وفى حدقات العيون ـ خلال الاشجار ـ حلقت أسراب من الغربان تتجه الى الشرق ، وعصافير ترتعش أجنحتها ترسل زقزقة خافتة

يطويها نعيق الغربان الملقاة ظلالها على الارض وهى تولى الادبار ، بينما استعاد لورد أنفاسه وتفرس فى الوجوه البيضـــاء والطرابيش الحمراء والقبعات ، ثم أطلق عواء طويلا متصلا راح يزك بعده ليطارد فراشــة صغيرة بين أحراش اللوبيا ٠٠ مطاردة يئس منها ، فتوقف فى بلاهة يهز ذيله لشريفة التى عادت على الطريق ..

وجدت الصغيرة وجوه الفتيات والرجال والنساء مربدة ، تنظر فى اتجاه واحد ، اتجهت اليه بعينيها ، فرأت رجالا غرباء ، يدبون على الشاطىء ، وفى صحبتهم العمدة والمأذون ومشايخ الحصص ، وقد ارتدوا أحسن ملابسهم ، ومن خلفهم شيخ الخفر على رأس عدد من رجاله فى أزياء الخفر المعتادة ..

وعجبت شريفة من الملابس الغريبة التى تبدى فيها الغرباء فوقفت تراقب رجلين كانا يتقدمان الموكب كله ، أولهـــما ممتقع الوجـه ، على رأسه شىء كالطبق الصينى ، وفى يده عصـــا ذات مقبض مثل رأس الثعبان ، يطوح بها وهو يتلفت هنا وهناك ، والثانى قمحى على رأسه طربوش أحمر ، ومن خلفهمـــا شاب بملابس رثة وشعر منــكوش يحمل علبة ملطخة باللون الاحمر تتدلى منها فرشاة صغيرة ، ظل يتفرس فى كراديف النخل وسيقان أشجار السنط ..

دنا الرجلان من موقف شريفة يتبعهما الآخرون .. يطئون أحراش اللوبيا بنعالهم الغليظة دون تحرج ، وودت هى لو صرخت فيهم لكنها أحجمت .. ثم تنحت لهم عن الطريق وأسرعت الخطى لتنضم الى بطة وغيرها ممن توقفن غير بعيد من رجال النجع ..

وتحفز الشيخ فضل ، ونفض أبى يده مرة بعد أخرى من التراب بينما علق أحمد عوده قلمه الكوبيـــا على أذنه اليمنى ، واختلس النظر الى ملابسه المعفرة نادما على أنه لم يعمل حسابه لمثل هذا اللقـــاء ٠٠ فهاهم العمدة ، ورجال القرية قد اختاروا من الســـــحارات أحسن ملابسهم ..

ولا أدرى فيم كان يفكر الشيخ فضل ، فقد انحنى على الأرض، وأنشب فيها أنامله ، وعاد بها محملة بحفنة من التراب أخذ يتشممها ليتركها بعد حين تتسرب من بين أصابعه الى الأرض من جديد !!

وقبل أن ينفض يده كان الرجل ذو القبعة يتوقف بالقرب منه ، على مبعدة قليلة من أبى وخالى ، يلقى بالتحيــة فى لكنة كادت تطلق

ضحكة من فم برعى الذى كان مختفيا وراء ظهر أبى ، ومن خلفه النساء والأطفال .

لقد أزاح الرجل قبعته وقال بصوت له رنين الذهب :

ـ السلام على أنتم .

وتلعثم الرجال فأطبقوا شفاههم ، لا يدرون ماذا يقولون : أيقولون له : عليكم السلام ياسعادة الباشا أم سعادة البيه أم ياخواجه؟! ولاحظ الرجل ارتباكهم فقال وهو يبتسم :

ـ مسكاجرو ..

فما أجاب أحد بل صمتوا وكأنهم أصيبوا بالبكم ، فران على وجه العمدة خجل ، وتقدم ينتهرهم :

ـ انه يقول : السلام عليكم .. مسكاجرو فلماذا لا تردون ؟!

وفى نفس اللحظة عاد الرجل يكرر تحيته ويمد يده ففتح الله على فضل واحمد عوده فصاحا على الفور :

ـ عليكم السلام ياسعادة .. يا فخامة ..

وضحك الرجل ضحكة عريضة أطبق بعدها على أيديهم يصافحهم واحدا بعد آخر ، لا يبالى بالتراب العالق بأكفهم .

ثم استدار الى الخلف ليصرخ فى زميله :

ـ بركات أفندى .. بركات أفندى .

فتقدم الرجل يشد على الأيدى ، وعلى شفتيه ابتسامة عريضة تشع من عينيه بطيبة وثقة بادية ، ثم أخلى مكانه لرئيسه الذى مضى يتلفت حوله ، وهو يهتف فى مرح :

ـ الله ها الله فنتى كويس .. بلخ بتاع سنه دى .

وبدا أن الرجل يريد أن يتباسط مع القرويين ويذيب الخوف المرتسم على وجوههم بينما هم مرتبكون لا يدرون ماذا يفعلون ، فقد أخذوا على حين غرة ، وفى الغيط حيث لا مكان يستريح فيه الضيوف. كانوا يظنون أن الرجل وصحابه سيمضون فى طريقهم دون أن يشرفوهم بالتحية ، وها هو الرجل يريد أن يكمل حديثه ، ثم جاء الفرج على يد عبده الفرنساوى الذى أقبل لاهثا ، وتسلل بين الرجال بسرعة فحاذى

العمدة ، وأسر فى أذنه بكلمات أومأ الرجل بعدها الى الخواجة فاقترب منه يحيى برطانة غريبة فاستدار اليه والفرحة تتراقص على أرنبة انفه ، ثم أطبق على يد الفرنساوى يهزها ، والرطانة نفسها تنطلق من فمه يرد عليها عبده الفرنساوى دون خوف ، دون أن يرمش له طرف، ومن حولهما رجال النجع يتغامزون ويعجبون بصاحبهم الفرنساوى الذى لا يهاب الانجليز ، ويلوى لسانه برطانتهم ، لسوف يتندرون بالحادث طول عمرهم . انفرجت التكشيرات والتقطيبة التى انعقدت على وجوههم منذ لحظات فراحوا يضحكون فى صوت خافت ، ويراقبون الغريب وهو يعبث فى جيوبه ويخرج غليونه ويطبق عليه بين شفتيه ويشعله وينفث دخانه دون أن يتوقف عن الكلام ، بينما اشتبك العمدة فى حديث طويل مع بركات أفندى أخذ الاخير خلاله يشير الى أشجار النخيل والى الارض تحت أقدام الرجال ، والى الجزيرة والساقية ، والى البيوت هناك عند سفوح الجبل ..

وعند رأس الطريق كانت جماعات من رجال النجع ونسائه قد تجمعوا حائرين يراقبون الغرباء بعيون متوجسة ، ثم اطمأنوا قليلا حين تناهت الى أسماعهم ضحكات عبده الفرنساوى وشيخ الغفر ، فراحوا يتناقشون حتى تعالت أصواتهم حين تساءل أحدهم :

ــ ومن الرجل ؟

فقال نوح فى ثقة غريبة :

ــ ألا تعلم ؟ وأنى لك أن تعلم يا ثور الله فى برسيمه ؟ !

وغضب الآخر وقطب جبينه وصاح فى وجه نوح يتحداه :

ــ وهل تعرفه أنت يا جحش ؟

ــ كيف لا ؟ .. اننى أعرفه .. أليس هو مدير أسوان ؟

وتمعن حموى فى الوجه المتقع وصاح فى ثقة :

ــ كلاكما لا يفقه شيئا !!

فأربد وجه نوح وهو يصرخ :

ــ ما شاء الله يا حموى .. وهل تعرفه أنت ؟ أقول لك انه مدير المديرية .

فأسكته حموى باشارة من يده وقال فى زهو :

ـ بل هو مدير خزان أسوان !

وضحك عبد الله الجزار من عبط الجميع وقال :

ـ وهل للخزان مدير ياعبيط يا « أفق » ! فراح حموى يزوم : آخر الزمن .. أنا أفق .. أنت الهبيل ياعبد الله وليس غيرك . اياك أن تسبني مرة اخرى والا ...

وكاد الاثنان يتشابكان بعد أن ارتفع صوتاهما فجأة ومن حولهما رجال النجع يهدئون من روعهما وهم يرددون :

ـ عيب يارجاله . ماذا يقول العمدة عنـــكم .. ماذا يقول الغرباء .. غجر .. حلب !!.. صعايدة !!.

واحتج حسن المصرى بغمغمة صغيرة استدار بعدها يبتعد عن الرجال الذين واصلوا صراخهم وأخذوا يتدافعون .

وأومأ العمـــدة الى الخفر والجنـــود فراحـــوا يدفعون القرويين ويشهرون الهراوات فى وجوههم ، فيزومون فى غضب دون أن يتراجعوا الا خطوة أو خطوتين .

ولاحظ الرجل الغريب ذو القبعة ما هم فيه فابتسم ثم صاح :

ـ جناب العمدة .. خلو ييجوا هنا !

فتركهم شيخ الخفر بعد أن أمر حموى بالابتعاد عن المجلس فان ثيابه كانت متهرئة تكاد لا تستر عورته ، فانزوى خلف نخلة يتطلع الى المشهد من مكمنه بينما الآخرون يقتربون من الغريب ، والعمدة يتجهم فى وجوههم .

وأشعل الرجل غليونه من جديد ، وربت على كتف الفرنســـاوى ورطن معه مليا قال بعده الفرنساوى :

ـ المستر هيس باشا مدير مصلحة المســـــاحة والرى يريد أن يكلمكم .

وسادت الهمهمة لحظة انبرى الرجل بعدها يحدثهم فى هدوء ، وعيناه تلمعان وتتفرسان فى الوجوه السمراء الطيبة تقرآن ما يرتسم عليها من انطباعات ، ظل الرجل يتكلم ويتلفت من حين لآخر الى العمدة والى عبده الفرنساوى ويلقى اليهما بكلمة ثم يعود الى حديثه .

واستمع الناس الى كلماته باحساس متبلد كأن شيئا مما قاله لا يعنيهم ، فقد أفاض الرجل بلكنته المضحكة عن الملك فؤاد المعظم وصدقى باشا ، ومحمد شفيق باشا وكيل وزارة الأشغال ، وحبهم المفرط للنوبيين ، والرحمة التى تفيض من قلوبهم ، وأنهى اليهم أن بركات أفندى وصحابه من الأفندية ضيوف فى القرية ، سيمكثون عند العمدة ، ويسجلون الأطيان والنخيل حتى تستقر الحكومة على تقديراتها الأخيرة للتعويضات !

وانطلق الرجل يضحك مرتين أو ثلاثا أثناء حديثه وبالذات عندما كان يتملق شعور الناس ، وعندما ذكر أنه صديق حميم للنائب على بيك أبو زيد ، وفى نفس الوقت لسفرجى باشا الملك ، وعندما أكد أنه يحب البلح مثلما يحب التفاح ، وعندما تريث ليلتقط حبتين من التمر ، نفخ فيهما ثم ازدردهما فى بساطة أذهلت الناس من حوله ، فمضى الشيخ فضل يغمغم ويتهامس مع أبى ، وخالى يحاول أن يسكته .

كان واضحا أن الرجل يتقرب اليهم ، ويفضى اليهم بدخيلة نفسه دون أن ينفذ الى قلوبهم اذ يبدو أن كل واحد كان يفكر فى الكارثة وفى الطوفان ، فهاهو بركات أفندى الذى تحدثوا عنه طويلا على المصاطب يقف خلف الخواجة ومن حوله رجال يتأبطون دفاتر طويلة ذات جلدات سميكة . ويبدو أن وجه المستر هيس قد ذكر أبى بوجوه أخرى أيام السلطة حين كان يعمل فى الكونتننتال .. نفس الوجه أعاد الى ذاكرة الشيخ فضل سحنة رجل آخر تشبه وجه هذا الرجل . سحنة فصلها فى يوم من الأيام عن جسدها بفأس ، هنا تحت هذه الشجرة التى يجلس المستر هيس على مصطبتها . ومن يدرى فربما كان هذا المستر هيس قريبا لذلك الآخر !

وانتهى الرجل من حديثه . وهب واقفا وعاد أدراجه الى النتوء الشرقى ، الى الرفاص الذى كان لا يزال راسيا هناك ، وقفز اليه وهو يلوح لبركات أفندى والعمدة ويهتف فيهم :

ـ سأزور معبد « أبو سمبل » وأعود ..

ثم بعد صمت :

ـ انتهوا من عملكم فى أسرع وقت ..

وظل الرجال صامتين يراقبون الرفاص وهو يقلع ثم يتوسط النيل ويجتازهم ، فانقلبوا يتهامسون ثم يصخبون ويضجون بالضحك

وهم يلومون أنفسهم . لقد دارت عشرات الأسئلة فى خواطرهم : متى يكون الطوفان والى أى مكان يذهبون ، وهل سيمنحون أرضا غير الارض وبيوتا غير البيوت ، وشتلات نخل ؟ أم سيتركونهم للضياع ، وكم سيكون التعويض عن كل نخلة وفدان وبيت ؟ ..

كانوا يريدون أن يعرفوا من الرجل كل شيء ولكنهم صمتوا .. صمتوا جميعا كما يصمت البكم ! وتوهم بعضهم أن الفرنساوى حينما رطن معه تكلم بالنيابة عنهم ، ثم شعروا بالحسرة فان الرجلين قد تكلما طويلا عن لندن وشوارعها وهايدبارك وغوردون : أمور لا يدركون عنها شيئا ، وما بهم حاجة الى ادراكها .

اتهموا بعضهم ، ثم تناسوا كل شيء الى حين ، وعادوا يدكون المكيال ويغرسون أيديهم فى البلح المكوم ، بينما انطلق برعى يقلد الرجل ، والاطفال والفتيات الصغيرات من حوله يضحكون .. كان قد عرى دومة صغيرة من لحائها وثقبها ثم دفع فيها قطعة من البوص مضى يمتص نهايته وعلى رأسه طبق من الخوص ، كبسه الى أذنيه ومنديل أحمر عقده حول رقبته وترك نهاياته تتدلى الى كرشه . وطاب له أن يلوى لسانه مثل عبده الفرنساوى فألقى نظرة جانبية على شريفة فوجدها مهتمة به وبحركاته ، فداخله سرور انقلب بعده ينادى وهو يشير بأصبعه :

ـ خامد .. نو خامد .. خامد .. ييس !

وأراد أن يواصل رطانته بين ضحكات الجميع فصاح وهو يضرب على فخذه بكفه : خامد .. فاشيه ترانتاريه يا خامد ..

ورنت الضحكات داوية من جديد على نفس الشاطىء . رنت ومازال الرصاص يلمع على صفحة النيل ويستدير عند الطرف الجنوبى من الجزيرة الخضراء .

١٠

بخطى ثابتة متثاقلة الى النتوء الشرقى على الشاطىء وفوق راسها عمرة كبيرة على جانبيها زخارف ، وفى يدها مقطف صغير . وعلى رأس الطريق ، قبيل انعطافها الى النتوء ، وجدت نفسها وجها لوجه أمام فضيلة فألقت عليها بتحية الصباح فردت فضيلة عليها بابتسامة ماكرة وسألتها :

ـ الله .. هذه البلدة أحسن من غيرها .. الى أين يا داريا ؟

فضحكت هذه ضحكة جافة مقتضبة وقالت :

ـ منذ زمن وأنا لم أزر خالتى فى « عافيه » فى البر الغربى .. المركب هناك .

فسكتت الاخرى لحظة قالت بعدها :

ـ مع السلامة . لا تغيبى . سلمى لى على خالتك .

ـ سبعة أيام وأعود .. خلى بالك من شريفة .

ـ فى الصون يا داريا .

واستدارت أم شريفة ومضت الى النتوء بينما عادت فضيلة تحدجها بنظراتها وتفكر فى أمر داريا : لماذا تسافر الى خالتها العجوز بعد ذلك الفىء ! الموسم شغال فى أوجه ، وما زالت لها نخيل لم تقطع بعد ! عجايب ! ولكن مالى أنا بالناس .. ربنا وحده علام الغيوب .

ومرت أيام سبعة عادت بعدها داريا غائرة الخدين ، منهوكة القوى رغم الهدوء الذى شمل اعصابها ، وتلاقت فى طريق العودة من

ـــحى بواحدة وثانية وثالثة من نساء النجع مضت تبادلهن التحية ، وعلى شفتيها ابتسامة واهنة ، فأخذت تحدجها بنظرة مسمومة لتعقب من وراء ظهرها :

ــ نجسة .. ماذا فعلت فى عافية .. خالتها ! هيه .. خالتها !

فترد أخرى : دائما تعيبين فى الناس يا فضيلة !

ــ يوه .. أنت دائما هكذا : مثل اللقمة اليابسة فى الزور !

ــ والله انت عبيطة .. رأيتها تقىء .. وحسن المصرى بشواربه !

وظللن يتحدثن عن داريا بينما هى تنعطف عند الطريق العام الى دارها وفى رأسها دوامة : التعسات يتقولن على أنا ، والله اننى أشرف منهن جميعا ، آه لو كان جمال هنا ! ثم تفكر قليلا وتتنهد لتهمس لنفسها : كلا .. خير له ولى أن يكون بعيدا عنى فى مثل هذه الايام ، فحسن المصرى ليس الا رجلا شرسا ، قتال قتلى ، لقد سر اليها بذلك فى ساعة صفاء ..

ولاقتها شريفة بفرحة ، وقادتها من يدها الى المصطبة الداخلية وهى تسأل :

ــ كيف تركت خالتك ، جدتى ؟

ــ بخير يابنتى ، تدعو لك الليل والنهار بالعريس ..

ــ كبه ! وانت أما تزال بطنك

ــ لا شىء .. أرينى ماذا فعلت فى البيت .. غبت عليك .. آه يا بنتى ..

ــ استريحى على صدرى ... مابك يا أمى ؟ ..

ــ لا شىء غير جمال .. لو كان هنا ..

ثم بعد دمعتين سالت على الخد أمسكت بذقن ابنتها وهمست :

ــ اذبحى دجاجة واسلقيها لى ، أما زال عندنا ينسون ؟!...

واضطجعت فى مكانها بينما انهمكت الفتاة فى اعداد شوربة دجاج وحلبة مغلية تجرعتها المرأة وهى تتحدث دائما عن جمال وعن الفازية البيضاء التى تصيدته فى مصر ، ثم قامت وطافت بصوامع البلح وذرت

عليه رمادا من الكانون وعادت تستسلم لنوم عميق بينما ظلت الفتاة حائرة فى أمر أمها ، والقيء الذى يصيبها ولماذا أصرت على الرحيل الى عافية دون سبب ، رجتها حينذاك أن تأخذها معها لترعاها فى الطريق اذا ما فاجأها القيء ولكنها أصرت أن تذهب وحدها ، وها هى تعود شاحبة الوجه غائرة الخدين متشققة الشفاه مثل الارض البور .

واصابها الملل فتنهدت وأسندت رأسها الصغير ونامت ساعات الظهيرة تحلم بجمال وعودته فلربما تستعيد الام صحتها وشبابها حين يعود .. ولم يكتمل الحلم فقد أفاقتا معا – هى والام – على صوت حاد يملأ النجع كله وينداح الى سمعيهما من خلف مئذنة الجامع – عبر الخرابة الملاصقة .

وروعت الفتاة وشبت على قدميها الا أن داريا ابتسمت وهمست :

– لا تخافى . امرأة جاءها المخاض !

ثم أصاخت السمع وقالت :

– الطلق والصوت لامرأة لم تلد من قبل . آه .. انها حجوبة زوجة الشيخ أمين .. فهذا هو شهرها التاسع .

وهدأت شريفة ولكنها ظلت قلقة تسأل نفسها : أهكذا تتألم كل أم .. أهكذا تألمت داريا يوم جمال وفى يومى أنا ؟ ثم : هل أتألم أنا مثل حجوبة فى يوم من الأيام .

وأصابتها رعشة وقشعريرة عند هذه الخاطرة فطردتها بهزة من رأسها ثم رفعت عينيها الى أمها فوجدتها تحدق فيها مليا ثم تقول :

– عجلى ياشريفة الى بيت حجوبة وسوف ألحق بك هناك ..

فهبت الفتاة من مجلسها صامتة وأسدلت الطرحة على رأسها واتجهت نحو الباب واستدارت لتقول :

– استريحى أنت فانك متعبة ..

– لا يا ابنتى ! فالعتاب ثقيل على النفس . سأغتسل ثم ألحق بك .. أما أنت فأسرعى فقد يحتاجونك هناك .

وبعد لحظة دقت شريفة بقبضتها على باب بيتنا الصغير ودلفت منه لتشهد منظرا مفجعا .. حجوبة جاحظة العينين ، منتفشة الشعر ،

لامعة الوجه بخطوط من العرق ، تطلق صرخات متوالية وتستند الى جدار ثم تنكفىء وتحبو على الأرض ، لترقد وتكبش فى التراب وتحثوه على رأسها وتركل وترفس بقدميها فى اتجاه معاكس لاهتزازات بطنها !

وبين يديها الست آسيا ، المولدة وشقيقتاها هى وبطة وجميلة وبقية نساء العائلة يتمنين من الله أن ينتعها بالسلامة .

استندت شريفة على كتف الباب تغالب احساسا بالغثيان . فظلت تردد : وونور .. وونور .. يارب .. ورأت من بين سحابة الدموع بطة وجميلة وشقيقتى حجوبة يتحركن ويطلقن بخورا فى فناء البيت ، ويتنقلن بسرعة بين المطبخ والفناء وفى أيديهن صحاف تتصاعد منها البخار ، والست آسيا المولدة تنهرهن بينما حجوبة تطلق صرخاتها وتتكىء على الجدران ثم تنفرج ساقاها وتحتهما طشت كبير ، وتترك مكانها وتنكفىء على الأرض وتحبو من جديد . مسكينة .. يالله .. انها تتألم وتخور مثلما تخور بقرة ، ولا تدرى شريفة كيف تغلبت على الغثيان والشعور بالاغماء ، فقد وجدت نفسها تتحرك مع بطة هنا وهناك ، وتنفخ فى الكانون ، وتطيع أوامر الست المولدة ، وترمق حجوبة فى اشفاق ثم تألف النظر اليها وتشترك فى حديث الاخريات ..

قالت امرأة فى التسعين :

ـ مسكينة . أمها ولدتها بعد ثلاثة أيام من الطلق !

فوجدت نفسها تقول دون وعى :

ـ لا ياشيخة . ستلد اليوم باذن الله .

ـ ان شاء الله بحياة النبى محمد عليه الصلاة والسلام .

ورقدت حجوبة علي الأرض ، وقد أطبقت شفتيها تصر على أسنانها ثم هدأت وبدت كأنها لا تعانى شيئا وقالت فى صوت مختنق :

ـ لعنة الله عليه !

وأردفت بعد آهة طويلة :

ـ هو السبب فى كل هذا .. يستريح هو .. وأموت أنا !

وتلفتت حولها وأشارت الى النسوة واستطردت :

ـ الرجال قلوبهم من الصخر لا تعرف الرحمة .. انهم السبب .

وعادت تطلق آهاتها الحزينة بينما انبرت آسيا المولدة تقول وهى تطرقع بلسانها :

ـ كفاك معرا . أنت سمحت له بملء الجراب ثم تشتمينه !

ثم أعملت يدها فى بطن الزوجة وهى تقول :

ـ اعدلى نفسك .. دعينى أقوم بشغلى .

ثم من بين شفتيها المزمومتين :

ـ ساعة حظ فى الليل ثم تندمين .. ألا تذكرين ساعة الحظ ؟!

وانبرت سبيلة زوجة المأذون تهاجم :

ـ كلهم بلا رحمة .. مثل الثيران ..

وضحكت فضيلة وقالت :

ـ تماما مثل التيوس !

وقهقهت زوجة حموى ثم همست لنفسها :

ـ أما زوجى أنا فمثل الديك ينقر بسرعة ويمضى لحال سبيله . لا يترك أثرا .. كم أتشوق لجنين أحمله فى بطنى !!

ومضين يهاجمن الرجال فى جلبة غطت على انين حجوبة ، فأشارت اليهن المولدة تأمرهن بالسكوت وقالت فى سخرية :

ـ اسكتى أنت وهى . كلكن تشتمن الرجـال ومن يدرى ماذا كانوا يفعلون بكن ليلة البـارحة .. ومن يدرى ماذا سـيتم الليلة .. أوف .

وانبرت سبيلة تقول وهى تشمر كمها الواسع :

ـ وأنت ؟

فاستدارت آسيا المولدة فى حدة وصاحت :

ـ اخرسى يابنت .. قطع لسانك .. قلة حيا ..

وأدارت الحديث مرة أخرى الى الرجـال ويدها تتحرك فى بطن الزوجة :

ـ والرجال أيضا لا يصـــدقون .. قلت لهم عشرات المرات أن القيء علامة الحمـــل الا اذا كان عندها برد فى البطن ، أو أكلت شـــيئا مسموما .. اخص على الرجال .. داهيتهم داهية لا تنتهى !!

وتنبهت شريفة الى الكلمات الأخيرة ومضت تفكر : القيء والحلبة المغلية واليانسون ؟ الا اذا كان عندها برد فى البطن ، أو أكلت شـــيئا مسموما !. عجيبة .. لمـــاذا تقيء أمى ؟.. وأرســـلت نظرة الى البـــاب فوجدت أمها تدخل وتحيى وتجلس بين النسوة ذابلة العينين ، ثم عادت الى دوامتها : مستحيل .. أبى مات منذ سنوات ..

كلا .. كلا .. أمى عندها برد فى البطن وسألف شالى الاحمر على بطنها اليوم حتى لا يغشاها القيء من جديد .

وأفاقت على صرخة حادة أطلقتها حجوبة لتجد المولدة تنتزع قطعة من القماش الابيض من يدها هى ..

***

وعلى المصطبة الخارجية جلس أبى ، متقلص الجبين ، تتشنج أصابعه على سبحته الطويلة ، ومن حوله رجال النجع ، يهدئون من روعه ، بينما صرخات حجوبة تنطلق وتنفذ الى قلوبهم مثل جراح غائرة فيهب من مجلســه ويكاد يقتحم الباب ثم يتردد ويعود الى مجلســـه يهذى ويخطرف !

ـ يارب .. انها تموت .. دعونى أقوم فأجهز الكفن !

فينتهره فضل فيهدأ ثم تنطلق الآهة الطويلة الممدودة ، فيعود الى حديثه عن الموت ، ويزيح عمته الى الخلف ويمر بمنديل محلاوى كبير على صلعته وهو يهتف غاضبا :

ـ كفى يا مســــــكينة .. نامى .. لا تمـــزقينى بصراخك .. ستموتين !

وتغرورق عيناه بالدموع ، فيدعوه الرجال الى ذكر الله والتذرع بالصبر ويرددون حكايات طويلة عن أمهات تعذبن ثم قمن بالسلامة ، ولم يكفوا عن أحاديثهم الا حين ارتفع صوت المؤذن بالمغرب ، فلم ينهضوا من مجالسهم ، بل ظلوا يرتشفون فناجين شاى أقبلت بها بطة عليهم .

وفجأة هدأ الصراخ ، وعمت فى الفنـــاء الداخلى جلبة وصخب قام أبى بعدهما ومضى يتسلل الى الباب ، وهو يكاد يسقط اعياء ، يحسب أن الموت قد أراح زوجته من العناء .

وقفز فضل اليه يسنده ويدعوه الى ذكر الله ، ثم رنت من الفناء زغرودة طويلة ممطوطة ، اقتربت الخطا بعدها من البـاب ، ثم فتح هذا الباب وأطلت منه بسمة عريضة تلمع فى ظلمة المساء ، بسمة تكشف عن أسنان متآكلة فى فم المولدة والعرق لا يزال يتصبب على جبينها .

وتنحى لها فضل فاندفعت الى أبى تدفعه فى صدره وهى تهمس :

ـ جدع يا أمين .. جدع . مبروك !!

ونظر اليها الرجل فى ذهول وقال بصوت يمزقه البكاء :

ـ الله يبارك فيك .. أهى بخير ؟

ـ ولا الثور ..

وصمت الرجل ، فمدت يدها تهزه كأنما توقظه من نوم عميق :

ـ ألا تسمع ؟ أقول لك مبروك .. ولد .. يا .. أمين !

فراح الرجل يردد : ولد ! بالله .. ولد ! .أحقا ما تقولين ؟

ثم مد يده وأمسك بمعصمها وقادها وهى تتعثر الى المتجر ودس فى يدها ورقة خضراء ، وقمع سكر ، وشكرها وودعها وهو يقول :

ـ تعالى يوم السبوع .. وفى الطهور .

ـ باذن الله .

واتجهت الى الباب فاصطدمت بها بطة تقول فى كلمات متعجلة :

ـ تعالى يا خالتى .. نسينا الذرة !!

وعادتا الى الفناء ، وصبتا كيلة كاملة من الذرة فى عمرة كبيرة من الخوص الملون ، ثم شدتا المولود ووضعتاه على الذرة تعمدانه وأمه تراقبه من خلف جفونها المسدلة .

ثم مدت بطة يدها الى المكحلة وعبثت فيها قليلا ثم قربت المرود من جبين المولود ورسمت عليه فى عناية شديدة صليبا مضت تتأمله ثم أعادت المولود الى أمه !

وفى غمرة الفرح تناست حجوبة وبطة خصامهما ، وبدتا صديقتين تجمعان على حب الانسان الجديد ، تتلقفانه وتعنيان به .

وجاء يوم السبوع وتنادى الناس فى النجع الى بيتنا ، وأرسلوا أغانيهم على نقرات الدف ، وشربوا ثم أكلوا ووقفوا صفين يرتلون المولد وبردة الميرغنى حتى كلت أقدامهم فاتكأوا على العنجريبات ، وعادوا الى أحاديثهم عن الطرابيش وبركات أفندى والمستر هيس باشا ، يرددون نوادره مع عبده الفرنساوى .

وعند الأصيل نهض رجل من رجال العائلة وتسلق نخلة أفضت به الى سطح البيت ، فتخير مكانا مرتفعا منه ، ورفع يديه الى أذنيه وكأنه يؤذن للصلاة ثم نادى فى النجع ثلاثا باسم أخى الصغير منغما يتردد فى النجع ثم يرتد من الصخرة المعلقة فى كتف الجبل وينداح بين أشجار النخيل :

ـ محمود أمين !

١١

الموسم يزدهر ، ويبلغ أوجه من الصخب والضجيج ..

وتحت كل نخلة كومة من البلح ، وكومة أخرى من النساء والأطفال ، والنقار بينهم يبلغ أشده ..

ـ النخلة غرسها حمزيلى جدى وانت تلهفين فى كل موسم نصيبى ..

ـ نصيبك ! جدى هو الذى رواها والارض أرضه ..

ـ أنا حفيدته ومن صلبه ..

ـ من صلبه ! من صلبه ! ولكنك لست الا ابنة جارية .. ابنة مراسيلة ! .

وتقوم المرأة الاولى وتنشب أظافرها فى عنق الاخرى :

ـ أنا ابنة جارية يا شر ٠٠ يا بنت الكلب !!

ـ أنا بنت كلب ٠٠ أنا ! وهذه الأبعدية ٠٠ أبعدية أبى !

وأشارت الى قيراطين منطرحين خلف الجدول الكبير بعد أن خلصت نفسها من براثن الأخرى ٠ ثم وقفت فى مكان غير بعيد تردح وتحكى عن أمجاد أسرتها وزوجها بينما الأخرى منكسة الرأس تنتظر دورها ، والأخريات يحاولن تهدئتهما عبثا ، ويتوقف حموى عن التكييل، وينتزع عصا من الجريد الاخضر ، يهوى به على النسوة ، فيتفرقن وهن يعولن بينما يأخذ فى بعثرة كومة البلح وشفتاه تصبان سيلا من الشتائم والسباب ثم يتوقف على كومة أخرى من البلح يحدجهن بنظرات غاضبة وبكلمات تصيب كل واحدة فى شرفها ومقامها :

ـ نسوان ! .. نسوان !

ويصمت قليلا وهو يجز على أسنانه ثم يضيف :

ـ كيلة بلح واحدة .. لا عقل : ماشية .. غنم .. كلاب ..

ويتريث ريثما يزدرد بلحة استطابها ويقول :

ـ عام أول نالك أنت ٠٠

وأشار الى عجوز يبرق الحناء على شعرها ..

ـ نالك قدح .. قدح واحد .

فاقتحمت حديثه بحدة :

ـ بل قدحان ..

فيتميز غيظا ويصرخ فى وجهها :

ـ اخرسى ياضلالية ٠ وانت نالك ربع كيلة ، والأخرى نصف ! ثم تعيرين غيرك : بنت جارية ! وكيت وكيت ٠٠ والأبعدية ٠٠ هاها ٠٠ أبعدية يا ستى ! وكأنما أنتن قريبات الخواجه ٠٠ اسفخص عليكن ٠٠ بنات الكلب ! .. هيه ..

ثم نزل من كومة البلح وطفق يجمع البلح الذى كان قد بعثره فتغامزن ثم تحركن ببطء اليه وأعملن أناملهن بعناية فى جمع كل ثمرة خشية أن تتبدد ، وهو يرمقهن بنظرات غاضبة فى أول الأمر ثم بنظرات باسمة يسترحن لها فيعدن الى نقارهن الأول لكن فى أصوات خافتة ٠٠

ومن فوق رءوسهن ، وعلى نخلة ملاصـقة كان فخذا نوح يتدليان ، ويداه تتحركان بالشرشرة بينما العصافير تطير أمام بريقها وتهرب الى أشجار السنط القريبة ، ثم توقف نوح لحظة عن قطع السـباطات وتشذيب القحوف ومد أصبعا الى فمه يمتصه بين شفتيه ليبصق دما ، فقد انغرزت « سلاية » حادة فى جلده ، وأراد أن يستريح قليـلا فسكن لحظة وأخذ يصيخ السمع الى النساء والثرثرة الدائرة من تحته ٠ حول كومة البلح ، وكاد يصيح بهن فى صوت غاضب :

ـ وأين نصيبى ؟ !

ولكنه تريث حتى خلص جلبابه من الشوك ثم مضى ينتقل بقدميه فى خفة من كردوف الى آخر حتى قفز بينهن ، بساقين عاريتين يسيلان دما من خدوش انتشرت عليهما وجلباب أزرق شـمره الى أن بلغ به الركبتين ، وشـده الى خاصرته بحبـل غليـظ من الليف الخشن ، يحز فى جلد بطنه ، ومن فتحة الجلباب ـ عند الرقبة ـ بانت ضلوع صـدره وتجاعيد عنقه النحيلة التى تحمل رأسا صغيرا أشيب ، وفما واسعا خلا من بعض أسنانه ومنخرين أفطسين ، وعينين صغيرتين تلمعان فى وجه أسمر وتشهدان بالطيبة وان اتقدتا بالغضب فى تلك اللحظة : غضب اختمر منذ الليل ، حين طفق يفـكر فى هؤلاء النسوة والملل الذى أصابه من طول لجاجه معهن فى كل موسم ، يبكرن الى بيته ، ويطرقن على الباب ، وتفتح لهن منـدوهة الصـغيرة ـ ابنته الوحيدة ـ ويبددن حلاوة النوم من عينيه حين يصرخن من فتحة الباب وكأنه أصم : نوح .. يانوح .. اليوم قطع نخل أصيلة عثمان فى النجع القبلى فينهض ويتبلغ بكسرة جافة وكوب شاى ثم يبكر الى هذا النجع ويظل ينتظرهن ساعات طويلة حتى يتكرمن بعد طول تمهل بالمثول تحت النخلة ، ويظل يعمل ويكدح ويشقى كأنه عبـد ثم يلقين فى طرف جلبـابه بحفنتين من البلح تتناقصان فى كل موسم ! ثم يرمقنه بنظرات حاسدة تقول : حفنتان كاملتان يانوح !

ومضى نوح يبرطم يائسا من لجاجتهن

ـ بنات الكلب ! أيحسبن أن النخلة تلقح نفسها ؟ لولاى لما أثمرت ، أيحسبن أن السباطة تلقى نفسها بين أيديهن ؟! عجـايب ! وتعال قسم لنا يا نوح .. انت عجوز وحضرت القسمة وأنا لا أزال طفلة ، ألا تذكر كم حفنة كانت أمي تأخذ ؟ انك تذكر فأنت عجوز ! كنت فى سن ابنتك مندوهة ، عروسة ، وأنت كبير تتسلق النخلة مثل العفاريت ، تعال

يانوح ، أليست هذه النخلة من غرس جدى ؟ كلا .. بل رواها عثمان ولكن الارض أرضه ! بنات الايه ·· لقد أصابنى الملل ·· ليتنى أكف عن تسلق النخيل ·· ولكنى أعشق النخيل ، وانغراز السلايات فى سمانة ساقى لا يهم !

انه ينتظر هذا المشهد منذ البارحة وقد حدث ما توقعه ، اذ أستدرن به يتكلمن فى نفس واحد ، لا يبالين بحموى وتهديداته فصرخ نوح فيهن ؟

ـ لا أذكر شيئا .. أريد نصيبى الآن .

ويظل نوح يردد :

ـ نصيبى أريده الآن !!

فتنبرى له ذات الشعر المصبوغ بالحناء :

ـ وهل أنكرنا نصيبك ؟ ستأخذه بزيادة حبتين ·

ـ ياسلام .. يافرحتى بالحبتين ! أريد اليوم كيلة كاملة ..

ـ كيلة ! وماذا فعلت حتى تأخذ كيلة كاملة !

ـ عشر نخلات ثم لا آخذ كيلة . أتستخسرين كيلة على نوح .. طيب يابنت الأماثل ·· طيب ··

ورمى بالشرشرة جانبا وأخذ يلوح بيده يهددهن :

ـ طيب ... ابحثى عمن يقطع لك بقية النخيل ؟

صحيح ! من الذى يمكنه أن يحل محله ؟ هناك غيره ولكنهم لا يقربون نخلة أعتاد نوح أن يتسلقها ، كلهم تعلموا على يده .. كلا .. تعال يانوح ، لا تغضب ·· ولكن الكيلة شىء كبير ! تعال ياعجوز · خذ نصف كيلة ..

ويقبل فى نهاية الامر ويقسم بينهن ثم ينطرح على المصطبة ويخلو لذكرياته : دنيا .. مات أصحاب النخلة وهاهم الورثة يتقاتلون على حفان من التمر ، والخواجه ذو الوجه الاحمر جاء ليسجل كل نخلة ! وضحك ضحكة جافة أعقبها سعال حاد هز جسده النحيل فارتطمت قدماه بحافة المصطبة فاتكأ على كوعه ، وعاد الى ذكرياته ··

عشرون سنة مضت وهو يتسلق كل نخلة فى هذا النجع ، زوجته

المسكينة ماتت تاركة له مندوهة : صغيرة لا تعى شيئا ، الا أنها كبرت وأصبحت راعيته والساهرة على راحته . أتراه يعيش حتى يزفها الى زوج ؟ أم أن الأجل قصير ؟ رحمتك يارب . لا أريد شيئا من الدنيا ، ارحنى منها بعد أن تتزوج مندوهة فانها يتيمة لا أعمام ولا أخوال .. وحيدة فى الدنيا ! ومضى يهز رأسه ويمد أصبعه بسرعة الى أذنه يحجب عنها ضجيج المزامير ، وصخب الأطفال ، ثم يعجب من أمر الصغار . انهم يسألونه فى كل يوم ! كيف تعرف عمر النخلة يانوح ؟ .. هذا سر حفظته عن أبى .. ولماذا تريدون أن تعرفوا ؟ حتى الرجال الكبار لا يصدقون حين أقول لهم : هذه النخلة لن تثمر بعد عامين ! خير لكم أن تستفيدوا من جذعها وسعفها ؟ فيهزون رءوسهم مكذبين ! وأرفع عينى مرة وأصعد النخلة وأصرخ فيهم : هذه النخلة عمرها مائة سنة فلا يصدقون ! عجائب ! ..

لقد تحول نوح على مدار السنين الى رجل خبير بأشجار النخيل يحبها ويعشقها ، ويتكلم عن خصائصها ، وينام الليل والنهار فى ظلالها ، ويطارد الثعابين التى تأوى اليها ، وينوش العصافير والغربان والبوم عن شواشيها وعراجينها ، ويحدد عمر كل نخلة بتصعيد نظراته على ساقها . ولكم ألححت عليه أن يفضى الى بسره فأبى وألح فى ابائه .. سرقت له مرة باكو دخان من الدكان لأغريه فردنى بلطف بعد أن أخذ الباكو ووضعه فى جيبه ..

***

وانتهى النقار بين النسوة ، وعاد نوح الى تسلق شجرة بعد أخرى ، يهوى بالشرشرة على اعناق السباطات ، ومن حوله صخب وضجيج ومهرجان من الالوان ، وأقدام فتية تروح وتجىء بين النتوء الشرقى وسفينة باشرى ومساومات مع رجال من قبائل « البشارية » يبيعون الدخان الأخضر المهرب من حدود السودان : عراة الأجسام الا من مئزر يستر عوراتهم، وشملة بيضاء واسعة تنسدل من أكتافهم ، حاسرى الرأس الا من شعر مثل حبات الفلفل ، ترك حتى طال فتشابك ، ثم دهن بالزيت والشحم وغرس فيه سواك ، ينيخون بجمالهم ، وعيونهم تتلفت هنا وهناك فى يقظة ، خشية أن يرسو رفاص ينزل منه رجال المركز فيسوقونهم الى السجن بتهمة تهريب الدخان والبانجو من السودان ..

أناخ واحد من هؤلاء جملة عند جدار الساقية .. فأقبل عليه رجال النجع ، ومن بينهم أبى الذى اعتاد أن يبيع هذا الدخان فى متجره .

ومضى الرجل بقامته الفـارهة وشعره المنعقد فوق رأسـه وكتفيه العاريتين ،وقدميه اللتين دسهما فى صندل متشقق ـ مضى يرمق رجال النجع فى كبرياء وأنفة وكأنه اله لا يقبل فصالا ٠ شنوا يازول ! ٠٠ هذا الدخان من أرض الجبل ٠ أحسن دخـان فى السـودان ، لصق بلاد الاحباش ! .. سافرت به عشرين يوما بلياليها بين الجبال ، عشر كيلات بلح سـكوتى إكيلة من هـذا الدخان .. ماذا تقولون : بشير باع لكم بخمسة ،حمار والله أو غشاش ، أنا لا أغشكم مثله ، بشير يستغفلكم ويخلط الدخان بورق السكران ٠٠ شنو ؟!٠٠ ما أبيع اليوم يازول ٠٠ بعد أيام أبيعه بعشرين كيلة هنا أو فى النجع الآخر !! ٠٠

وأذعن أبى ورجال النجع واكتالوا الدخان وهم يعطسون ، ثم ركب الرجل جمله ٠٠ عا ٠٠ عا ٠٠ وانطلق به بين أشجار النخيل وهو يغنى « واحد وأربعين بنت اللبيب عبد الله . ماحامت فريق ، ماجالست بالحلة .. نهدك برتكان .. حاجبك هلال هلا .. شوفتك تسند اللى ادوه الشهادة وولى ٠٠ ما حامت فريق ، ما جالست بالحلة » والجمل يخب به حتى توارى عن الأنظار ٠٠

وحينذاك أسرع الرجال لاخفاء الدخـان الذى اشتروه بعـد أن اوكلوا الينا مراقبة الطريق وصفحة النيل ، وبينما نحن نحدق بأبصارنا الى الشمال انطلق على الشـاطىء عواء ممطوط ، لوينـا له رقابنا ، فاذا ببرعى قد تناسى نفسه ، وارتقى ربوة عالية ، ورفع عقيرته يطلق عواءه ٠٠ ومن خلفه اش الله يردد نفس العواء ٠

ومن خلال العواء تسرب الى آذاننا نغم جميل كنا نتوقعه منذ أيام ٠٠ دم ٠٠ دم ٠٠ تراتتتا ٠٠ طبول ينداح صوتها فى الوادى وينفذ الى قلوبنا ٠

١٢

استيقظت النجوع على دقات الطبول ، تتناهى الى أسماعنا بين النخيل ، فتهتز أجسادنا الصغيرة معها ، ونجتر ذكريات موسم العام الماضى ، بقلوب متشوقة وعيون تلمع فيها رغبة فى الجرى ، لولا مشاغل صغيرة تشدنا الى أكوام الرجال والنساء تحت أشجار النخيل ، نفس المشاغل التى الهت الكتاب عنا فى هذه الأيام .

وضربت باشرى كفا بكف وأخذ يجمع حاجياته ويضمها فى صناديق ليبارح النجع ، فقد انتهى موسمه ، وبدأ طواف الحلب فى القرية ، وهو يعلم أن الصغار لا يقربون مركبه عندما يلوح هؤلاء فى القرية من طرفها الشمالى .

وتوقف برعى عن تفريط عناقيد البلح مع خاله ، وجنح الى مرتفع انطرح عليه مرتفقا كوعه يرسل أغنية خافتة تردد فيها اسم شريفة مرة أو مرتين ، وسرعان ماانضم اليه بكر ثم جلق واش الله وراحوا يثرثرون من حوله وهو لاه عنهم لا يشاركهم الا بكلمة مقتضبة بين الحين والآخر .

ـ فرقة الشيخ حمدان هى التى دخلت النجع الشمالى ..

ولأمر لا أدريه ارتفع صوت صالح جلق محتدا ..

ـ لا يا بكر .. قلت لك انها فرقة الشيخ مسعود .. ضع أذنك على الأرض واسمع : أليس كذلك يا برعى ؟!..

فأشاح برعى بوجهه ولم يقل كلمة واحدة وانتهز اش الله الفرصة: وانبرى يقول : لا حمدان ولا مسعود ..

وسكت وكأنما قال الكلمة الفاصـــلة ، ثم رأى فى عيون الآخرين حيرة وتساؤلا : أغير اش الله رأيه ؟ .. ألم يعد من أنصار فرقة الشيخ مسعود !! انهم يذكرون كم تنازعوا على الفرق وتمنوا أن يأتى اليوم الذى تتجمع فيه كل هذه الفرق لتتسابق خيـــولها وحميرها فتفوز واحدة من الفرق ويفوز أنصارها من كل نجع ..

كان اش الله من حزب الشيخ مسعود ... لكنه بالامس فقط خلا ببرعى الذى طفق يحدثه عن فرقة الشيخ « أبو رحاب » فى حماس شديد ،الفرقة التى فيها « فكيهة » ضاربة الرمل والودع ، والشيخ الشاذلى كاتب الحجابات .. لقد غير برعى رأيه ونقل عواطفه الى هذه الفرقة التى كان منذ عام يحقر من شـــأنها .. لماذا ؟ هذا مالم يفهمه اش الله ولا أحد .. الا انه فكر بالليل واستقر هو الآخر ، وصب عواطفه فى نفس هذه الفرقة .. لكنهم على كل حال سوف يتابعون كل فرقة ويتمتعون بمباهجها ..

ـ ماذا تقول يا اش الله : لا حمدان ولا مسعود !..

ـ نعم يابكر .. لا حمدان ولا مسعود .. أبو رحاب ..

ـ لماذا ؟ ..

وهنا فقط ارتفع برعى برأسه واعتدل فى جلسته ، فالتفتوا اليه فى انتباه شديد فقال :

ـ لماذا ! ؟ لأن « أبو رحاب » أحسن ..

فسكتوا جميعا وأصاخوا السمع مرة أخرى فاذا بدقات الطبول ترتفع دقة بعد أخرى حتى أصبحت واضحة فصاح برعى :

ـ هم فى نجع « السواردة » ..

فتقاذف اش الله وبكر وصالح وأخذوا يصرخون :

ـ الحلب ! الحلب فى السوارده .

وكنت منذ الضحى منهمكا مع أبى أمسك له فوهة الزكيبة ، ريثما يدك المكيال ويفرغ البلح فيها ، ويهتف مع كل كيلة : الله واحد ماله

ثانى ثم أربعة ، سبعة ، عشرة ، ويتوقف ليرد على احتجاجات النسوة، كنت بائسا أراقب برعى وشلته فى شغف ، وأستمع الى كلماتهم .. وأكاد أترك الزكيبة وأعدو اليهم ، وقد بان نفاد صبرى فى قدمى اللتين بدتا وكأنهما تتحركان وتركضان ، وفى التواء رقبتى ، وفى السهوم الذى تجلى فى عينى ، وقد لاحظ أبى ذلك فأخذ ينتهرنى ويأمرنى بالانتباه لعملى .. قاطعته مرة بعد أخرى حتى كانت الصرخة الاخيرة .. الحلب فى السوارده .. فلم أتمالك نفسى حينذاك وتركت الزكيبة فجأة ، منتهزا فرصة انهماك أبى فى لجاجه مع النسوة ، وانتقلت فى هرولة الى شلة برعى التى كانت تتقافز وتصرخ وتنادى: هيا بنا يا حامد.. هيا .. فأخذنا نعدو على الطريق الزراعية ، نسابق بعضنا حتى انعطفنا عند الطرف الشمالى من نجع السوارده على الشاطىء ، وتريثنا قليلا نصيخ السمع ثم عاودنا الركض الى أن لاحت البيارق فى عيوننا ، وتبدى الموكب فى الساحة الممتدة أمام دكان حسن شاهين ، وهناك كان مصطفى ابن التاجر يركب حصانا من خيول الحلب يرقص به ، فملأنا الغيظ عند مرءاه ، وبدا واضحا لنا أن الحلب قد باتوا ليلتهم فى هذه الساحة مكرمين وأصبحوا ليعاودوا طوافهم بالنجوع ..

توقفنا نراقب مصطفى يتشبث بعرف الحصان فى خوف ، ويدور به بين صفوف من الناس ظلوا يرمقونه فى اعجاب ، فقد أصبح مصطفى هذا منذ شهور حديث الناس فى القرية بعد أن قرر أبوه أن يهجر الكتاب وأن يلحقه بالمدرسة الابتدائية فى الدر ــ عبر المنحنى الشمالى ، فلم يعد يتخذ من الجلباب الازرق زيا ، بل استبدل به جلبابا من البوبلين المقلم بياقة تنسدل على كتفيه ، وأطال شعره الناعم حتى كاد يغطى مؤخرة رأسه ..

وتعالت أصوات الطبول فجاء فتوقف الحصان وترجل مصطفى عنه وأسلم لجامه لرجل طويل القامة يكبس رأسه فى لبدة صفراء ، ظل ممسكا به حتى ظهر الشيخ على عتبة المتجر عريض المنكبين ، مستدير الوجه ، على رأسه عمة خضراء لفها باحكام حول طربوش مغربى واسع . حليق الذقن والشارب ، تنسدل على جسمه جبة رمادية فوق قفطان من الشاهى كبت لمعته ، وما ان وقعت عينا برعى عليه حتى صاح فى مرح :

ــ الحمد لله .. الشيخ « أبو رحاب »

ومضى يلكز اش الله بكوعه ويقول لبكر :

— ألم نقل لك .. لا حمدان ولا مسعود !

فأطرق بكر ثم قال :

— سوف يأتيان بعده .. أسبوع ثم ..

لكن برعى لم يعره انتباها بل شدنى من ساعدى ؛ وبدأنا ننتقل فى الساحة ونلقى نظرة على الموكب كله .

كان الشيخ قد ترك عتبة المتجر ، وامتطى صهوة جواده الذى ازدانت غرته بقطع فضية وأخرى بلون الذهب ، حولها أجراس صغيرة تصلصل كلما أدار الشيخ رقبته باللجام أو كلما هز الجواد رأسه ، منتشيا بدقات حافريه الأماميين على الأرض ..

وعلى شعره البنى الداكن الذى ينعكس عليه ضوء الشمس فيبرق تناثرت قطرات من العرق تلمع كلما رفع رأسه ولاك لجامه بين شدقيه ليرسل حمحمة وصهيلا ينسجمان مع دقات الطبول ، وعلى السرج من مقدمته سارية متوسطة فى نهايتها بيرق أخضر مطرز بكلمات مذهبة متشابكة مثل الطرة وفى اطار المثلث زيق أحمر تتدلى منه شوارب صفراء ، تتناسب مع لون الكلمات المتماوجة على البيرق كلما تماوج مع النسيم ليلقى ظلاله المتراقصة على وجه الشيخ وجبته .

ومن حول الحصان وعلى بعد خطوتين منه رجلان قصيرا القامة ، عريضا البدن ، بجلبابين باهتى اللون ، من الزفير المقلم ، ولبدة صفراء عليها عمامة بيضاء ضئيلة الحجم ، بذؤابات صغيرة مبرومة . وعلى عنق كل منهما سير غليظ من قماش خشن يحز فيهما ، يتدلى على الصدر ويشد على البطن جانحا بها الى الجانب الأيسر طبلة كبيرة ينقر عليها بمطرقتين تنتهيان برأس مستدير من الجلد الأسمر يمسكهما فى خفة وبراعة بيديه اليسرى واليمنى ويميل رأسه الى الجانب الايسر . ومن خلفهما رجل آخر مرصوص القوام بنفس الزى ، يحمل دفا ينقر عليه ، وآخر يزامله وفى فمه ناى يصفر فيه منتفخ الاوداج ، جاحظ العينين لامعهما ، ثم بقية الموكب : الشيخ الرفاعى : طويل القامة معروق الرقبة، أسمر الوجه ، بعينين حادتين مثل عينى الصقر ، وجبهة عالية تطل عليها عمة خضراء باهتة اللون ، يهز رأسه ، وهو يزم شفتيه ويضمهما،

ثم يربت على « مرجونة » من الخوص محكمة الاغلاق ، ويهتف كلما خطا خطوتين : حاسب ! حاسب ! مدد يارفاعى .. حاسب من الحنش !

وفى مقدمة الموكب رجل متوسط القامة بوجه أحمر على صدغيه رسم عصفور يحمل ربابة ويعزف عليها ، ويرسل ابياتا من الشعر .. أول ما نبدى نصلى ع النبى المختار ، يختلط بصوته المبحوح صوت جميل .. صوت امرأة ملفوفة القوام ، بجلباب طويل من الفوال يضيق عند الصدر فيشرئب النهدان ويكادان يقفزان فى العيون ، ثم يستوى الصدر بعدها الى اعلى حتى بدايات عنق تحمل وجها ما يزال شابا ، قمحى اللون ، بوشم أزرق على الشفتين ، وشم يمتد من الشفة السفلى الى الذقن فى ثلاثة خطوط متوازية ، وفى الوجه المستدير عينان واسعتان مكحولتان ، تلمعان تحت جبهة مشرقة تتسعان وهى تمط صوتها الجميل أبين زين أبين ، وأوشوش الدكر ..

ثم عشرة أو اثنا عشر رجلا آخرون بأزياء متنافرة ، ومهن شتى يتقدمهم الشيخ الشاذلى كاتب الأحجبة ..

أخذ هذا الموكب يتحرك الى أن حاذانا الشيخ الشاذلى فرمقه برعى فى تطلع وثبت عليه نظراته وهمس فى أذنى :

ـ ألم أقل لك ؟ .. الشيخ الشاذلى سيحقق لى أمنيتى .

ـ أمنية .. أية أمنية ؟

فضحك وربت على ظهرى وهمس مرة أخرى :

ـ مازلت صغيرا لا تفهم !

والتهب وجهى وأحسست بالمهانة ، وأردت أن أحتج عليه الا أن الموكب المتحرك ، والطبول الداوية ، والبيارق المتماوجة وأصوات النساء والرجال .. كل ذلك قد جرفنا نحن الاثنين فتبعناه بعيون والهة واقدام نشطة .

أخذ الموكب يتحرك وينعطف عند كل طريق ويتوقف عند كل بيت ، الفارس الشيخ يرقص بحصانه ، والربابة تتقدم الى ربة البيت وتغنى ثم تتقدم فكيهة ضاربة الرمل ، وتفرش على الرمل وتوشوش

الدكر وينفلت الرفاعى من الموكب ، يتلصص على الجحور والشقوق فى البيت ويخرج وهو يحكم أغلاق مرجونته ، ويغمز لامرأة أخرى تزحف مع الموكب ، دون عمل نستبينه نحن .

وتتقدم ربة البيت بحفان من التمر لأتباع الشيخ ولفكيهة وللربابة وللرفاعى ، ثم تحمل صغيرها الى الشيخ ، فيردفه على الحصان من خلفه ثم يهمز الجواد ، فتدق الطبول دقة خاصة يدق معها الجواد بحافريه على الأرض فى دلال فتاة صغيرة « دلوعة » ، ويظل الطفل يضحك مع رقصاته منتشيا حتى يمله الشيخ : كفى ! ثم يتحرك الموكب ليتوقف عند بيت آخر ، ونبين زين وأول ما نبدى ومدد يارفاعى ..

وعند الكتاب دنا برعى من الشيخ الشاذلى ولمس ثوبه ثم سأل فى حياء :

ـ اتبيتون فى نجعنا ؟

فنظر اليه الرجل مليا لعله يتذكره ثم أطلق صيحته : الله .. الله .. الله ..

ومال عليه يسأل : أين ! ..

فأشار برعى الى الجنوب ، الى نجع الزينية فاتجه اليها الرجل بعينيه كأنه يقيس الأبعاد ، ثم قال فى رزانة قبل أن يتراقص :

ـ ان شاء الله .. ان شاء الله .

وتقدم خطوات وعاد الى برعى يسأل :

ـ ولماذا تسأل يا ولدى ؟

ـ أريدك ..

فلمس رأسه بيده يباركه ثم مضى يذكر الله ويهتز مع النغمات والطبول الداوية ..

الموكب يزحف ويزحف الى أن بلغ نجعنا وأطفال كل النجوع يتراقصون حوله ، ويقلدون كل رجل فى فرقة الحلب التى توقفت لحظة عند الدكان ، باعت فيها كل ماجمعته من بلح ، بينما تقدمت أنا والتصقت بأبى أوحى للشيخ اننى ابنه . فأردفنى من خلفه على

جواده الراقص ، وأنا أنظر الى الآخرين من أطفال النجع فى زهو ٠٠ ثم توقف الموكب على عتبة بيتنا ٠٠

وعلى العتبة استندت جدتى وأمى الى كتفى الباب ، ومن خلفهما – فى الدهليز – شقيقتاى ..

وفجأة والجواد لا يزال يتراقص بى انطلق الرفاعى بصيحته الداوية .. مدد .. مدد . مدد ، وانفلت يعدو ، ومرجونته تهتز على جانبه ، حتى توقف أمام جدتى وأمى يشير اليهما بهزات من رأسه أن يفسحا الطريق . كان يتشمم بأنفه هنا وهناك ، ولما لم تفهماه فتح المرجونة فأطل منها رأس ثعبان فزعت له الشقيقتان . وتنحت الجدة والأم عن الباب عندما بدأ الثعبان يتلوى على يد الرجل ..

وفى اللحظة التى تنحتا فيها عن الباب انطلق الرفاعى الى داخل الفناء يدور هنا وهناك وهو يطلق صرخاته : أخرج يا ملعون ، حتى عاد الى الدهليز وتوقف عند الجحر الذى اغترفت منه بطة حفان القمح منذ أسابيع ، وهو يسب : يا ملعون ، يا عدو الله ٠٠ اخرج ، ثم مضى يتمتم برهة وشقيقتاى تطلان من فوق كتفه حتى أطل من الجحر ثعبان أخذ يتلوى برأسه .

فمد الرجل عصا صغيرة لف رأسها بقطعة من القماش الناعم وألقاها فى فم الثعبان ، وشدها بسرعة ثم مد يده وأمسك بالثعبان وهو يلعنه وألقى به فى المرجونة .

وأحست بطة بنوبة اغماء فانزوت فى الركن الآخر من الدهليز بينما تركت جميلة الدهليز كله الى الخارج تبتعد عن البيت الى الساحة ، وتوقفت عند حلقة من النساء أستدرن بذات الوشم .

وقدمت جدتى قدحا كاملا من التمر للفرقة ، دار الحصان بى بعدها مرتين .

ثم ترجلت ومضيت فى خطى مرحة الى حلقة النساء . وهناك رأيت فكيهة تفرش الرمل وتخطط عليه وتغنى بصوت حلو : أبين زين أبين .. واوشوش الدكر ..

وهمست أختى فى أذنى :

– أتريد أن تكشف على بختك يا حامد ؟

قلت : نعم

فأوعزت الى فكيهة التى جذبتنى من كمى وأوقفتنى الى جانبها وسألت :

ـ أسمك

ـ حامد

ـ أمك ؟

ـ فاطمة

ـ آه .. حامد بن فاطمة

ومضت تخطط على الرمل ثم تفرست فى عينى وفى وجه شقيقتى كالمترددة .. ثم قالت :

ـ حامد .. فى بختك شىء غريب !

فسألت جميلة فى جزع :

ـ خير !

ـ خير .. لكن هناك خطوط أخرى غريبة !

ـ قولى يا فكيهة .. كله خير ان شاء الله . فجابهتنى ذات الوشم الأزرق وقالت عابسة الوجه :

ـ ستقف ياحامد مرات ثلاثا أمام المحاكم !

فهتفت أختى فى هلع :

ـ محاكم !

ـ محاكم .. محامى .. يتزوج أو يطلق

ولم أفهم انا شيئا مما تقوله فكيهة ، الا أن خالى أحمد عودة كان يطل علينا فى هذه اللحظة فاستمع الى كلماتها وقال فى صوت حاد :

ـ ماذا تقولين يا مجنونة ؟ !

فاستدارت اليه فى عنف .

ـ مجنونة حرام عليك .. الرمل هو الذى يقول .

فمد يده ودفعها فى رأسها ثم وطىء الرمل بقدمه وأمرها : قومى من هنا وابتعدى قبل أن ..

وأمسك عن وعيده حتى جمعت أدواتهـا على عجل ومضت الى نهاية الطريق وفرشت رملها من جديد .

ثلاث مرات أمام المحاكم ؟ ويلى فربما تصدق الملعونة .

وصل المساء ، وعسكر « أبو رحاب » وفرقته فى الباحة أمـام بيت الشيخ جعفر .. فى نجع المجراب ، باحة من حولها أحراش نخيل تطل على مستنقع من الماء الراكد انعكست عليها أضواء خافتة من كلوب وفوانيس علقت على غصون اشجر .

ومن كل مكان ، من كل نجع ، توافد الناس ، الرجال والنسـاء والأطفال على معسكر الحلب .. يقايضون ويشترون ويقيمون حلقات الذكر ويصيخون السمع الى شاعر الربابة يحكى لهم عن « أبو زيد الهلالى » ودياب بن غانم .. وعنتر الاسمر ..

وعلى حافة المعسكر من الناحية الشرقية ، تحت شجرة جميز باسقة يطل منها فانوس جلس الشيخ الشاذلى .

ويبدو أن برعى كان يبحث عن هذا الرجل .. فقد اتجه اليه وهو يحمل كيسا من البلح ألقاه تحت الشجرة . وجلس اليه صامتا حتى فرغ الشيخ من غمغماته ثم أدلى اليه بسره فقال :

ـ وما اسمها يا ولدى ،ما اسم صاحبتك يا ولدى ؟

ـ شريفة ..

ـ بنت من ؟

ـ ابراهيم عثمان .

ـ كلا .. أمها يا ولدى ؟

ـ داريا .. داريا سكينة !

وتأمل الرجل وجه برعى مليا ، وفتح كتابا ثم نظر الى وجهى .. وفهمت انه يأمرنى بالانصراف .. فابتعدت قليلا ، وربضت عند مكان قريب أستمع منه الى كلمات متفرقة من همسات الشيخ

ـ خذ .. ورقة من الحجاز .. اكتب .. مرة .. على ذراعك.

ثم قدم له برشامات ثلاث صغيرة ومسح على رأســه بيده وهو يهمهم .

ـ وفقك الله يابنى ..

ثم انصرف برعى الى حلقة الذكر بعد أن أخفى هدية الشيخ فى جيبه .. فوقفت عند الحلقة أراقبه وهو ينتشى بذكر الله .

ولأمر لا أدريه حانت منى التفاقة الى الطرف الآخر ، وهناك رأيت حسن المصرى يستند الى جذع نخلة .. ويحرك يديه فى اشارات خفية تتبعتها بعينيى ، فذهلت من نفسى حين رأيت فكيهة ذات الوشم الازرق تزين نفسها على عجل ، ثم تتحرك فى بطء وفى حذر حتى تسللت اليه فقادها الى حيث لا أدرى . هنالك خلف المستنقع ولربما انكفآ على الارض وتدحرجا كما تدحرج مع شريفة بين عيدان الذرة . ولربما قبض على فخذها كما فعل بشريفة . ربما .. الا أنها عادت بعد ساعة ، ومرت بى ، وفى عينيها بريق .. تسوى شعرها بيد بينما اليد الاخرى تحمل كيسا .. ومن خلفها حسن المصرى الذى انعطف الى حلقة الذكر وانهمك فيها .

وعند الظهر فى اليوم التالى سئمنا الفرقة .. بعد أن طاردناها الى حدود القرية .. وعدنا أنا وبرعى ندب على الطريق فى خطى متثاقلة . أمام بيت شريفة ، وفجأة قلت لبرعى :

ـ قادها الى المستنقع فى الظلام .

فتوقف برعى واستدار ناحيتى وسأل :

ـ من ؟

قلت : حسن المصرى ..

قال : لا أسألك عن الجلف .. من هى ؟

وتريثت حتى أتذكر اسمها فعاجلنى :

ـ لماذا لا تنطق ؟ !

وأمسك برقبتى وهو يهدر

ـ قل لى .. أهى شريفة ؟!

فتحشرح صوتى وأنا أقول :

ـ كلا .. شريفة لم تكن هناك بالقرب من حلقة الذكر .

ـ بل كانت هناك مع أمها ..

ـ لم أرها .. لم أرها ..

ـ أنت تكذب .. قل لى من هى ؟

ـ فكيهة ..

فأرخى يديه ثم قال :

ـ ابن الكلب .. الحلبى ابن الحلبى .. تعال معى يا حامد ..

ـ الى أين ؟

ـ الى بيتنا ..

ـ لا يا برعى .. لا أريد أن أتأخر

ـ بل سنتغدى معا فى بيتنا .

ولم أستطع أن أفلت من أساره .. وهناك فى الحاصل الصغير فى بيته أعد برعى محبرة وقلمين من البوص ، ثم أخرج ورقة بيضاء من جيبه ومد يده لى بشطر منها وهو يهمس حتى لا تسمعه أمه :

ـ اكتب ..

فأمسكت بالقلم وأنا أسأل : ماذا أكتب ؟

ـ اسمها ..

ـ فكيهة !

ـ آه يا ملعون .. ياغبى .. مالى أنا وفكيهة .. أكتب على الورقة بخط جميل ورفيع اسم شريفة ثلاثمائة مرة .

وعجبت لأمره ، بيد أننى أطعته وأخذت أكتب حتى فرغنا معا عند الأصيل .. وقمت لأنصرف ولكنه جذبنى من كمى وقال :

ـ كلا .. ليس الآن .. سنذهب معا الى حاكم الاسكافى ..

ـ لماذا ؟. لقد تأخرت يا شيخ .

ـ كفى لكاعة واتبعنى .. اياك أن تقول لأحد عما فعلناه .. أسمعت ؟

ـ .. .. ..

نعم سمعت .. ولكن لماذا يكتب اسمها ، ثم لماذا يخفى عن الناس كل ذلك ، ولماذا يقودنى الى عم حاكم الاسكافى ، وأحسست انه سيضربنى اذا لم أجب فتلعثمت .

ـ حاضر .. ليصبنى الله بالعمى والكساح اذا قلت لأحد .

فهز رأسه وتقدمنى الى أن دلفنا معا الى بيت الاسكافى وورشته الصغيرة ، فهش فى وجهينا .

وأسر برعى اليه برغبته ، فمضى الرجل يعمل حتى أحاط الورقتين والبرشامات الثلاث بكيس من الجلد بينما انصرفنا نحن نداعب « نور » الصغير ابنه ، ندغدغه فى جنبه ، فينقلب ، ويرسل ضحكات مرحة ويبرطم بكلمات غير مفهومة ، مضى أبوه يفسرها لنا ، حتى أقبلت أمه فاختطفته من بين أيدينا وهى تنتهرنا :

ـ ستقتلون الولد !.

ـ يقتلونه ! دائما تخافين عليه ! دعيه .. لن يقتله أحد ..

ـ طبعا .. طبعا .. انت لا تخاف عليه كما أخاف .. لم تتعب فى ولادته ..

وتركها الرجل وسأل :

ـ وما هذا الحجاب يا برعى ؟..

وسكت برعى فاستطرد الرجل :

ـ من الذى كتبه لك .. الشيخ يعقوب ؟

ـ كلا .. الشيخ الشاذلى ..

فأطلق الرجل ضحكة ثم قال :

ـ نصاب .. يكتب حجابات للمغفلين !

فذهل برعى لكنه قال :

ـ عمتى فضيلة جربت حجاباته ..

ومد يده واختطف الحجاب واحتضنه فعدنا أدراجنا حتى توسطنا الطريق العام وفجأة تركنى برعى واتجه الى تحويشه عبد الله الجزار ..

فوقفت أنأمله ثم عاودت سيرى دون تعجل ٠٠ حتى وجدت نفسى أمام بيت سعدية ٠٠ وقبل أن أجتازه برزت سعدية ولوحت لى بيدها وهى تقول : حامد تعال يا حامد ٠٠ تعال هنا !٠

ـ ماذا تريدين يا سعدية ؟٠٠ ربما ترسلين بى فى مشوار كعادتك

٠٠ كلا ٠٠ لن أذهب فى أى مشوار ٠٠ أنا متعب اليوم ٠

ولكننى رغم ذلك تقدمت نحوها حتى حاذيتها وسألت ـ هيه٠٠ ماذا تريدين ؟

ـ تعال فى الداخل ٠٠ فأنا خائفة ٠٠

ـ خائفة ٠ ٠مم تخافين ؟٠٠

ـ أمى ليست هنا ٠٠ وهناك عفاريت فى الحاصل ؟٠٠

ـ عفاريت !٠٠

ـ نعم وهم يخروشون فى الحاصل طول الوقت ٠٠

وأمسكت بيدى ، واندفعت بى الى الداخـل ، وأنا أحاول آن أفلت منها ، ثم توقفت فى الديوانى أمام سـحارة أمهـا ورفعت الغطاء قليلا ثم مضت تعبث وجسدها يخفى عنى ما تفعـله ٠٠ ثم استدارت الى ووضعت فى فمى مصاصة أخذت ألوكهـا وهى ترمقنى بنظرات غريبة ! وطوقتنى بذراعيها ، ثم رفعتنى الى صدرها ٠٠ ومضت تضغط على صدرى بنهديها ، وتحتك بى وأنا ألهث وأحاول أن أنشب أظافرى فى عنقها ٠٠ « المجنونة » ماذا تريد سعدية منى ؟٠٠ انها تخنقنى وأنا أصرخ : دعينى ! دعينى ٠٠ اتركينى يا بنت الكلب !٠٠

فلا تبالى بل تظل تمرغ صدرها بصدرى٠٠ وتطوقنى بقسوة ، وتكاد تهشم ضلوعى وتلهث كمـا تلهث الـكلاب ، والعرق البـارد يسيل على وجهى ٠٠

وأحسست أن زمنا طويلا قد انصرم منذ طوقتنى بذراعيها فمضيت أتساءل :

متى تنتهى المجنونة من لعبتها السخيفة هـذه ؟٠٠ ثم غامت عيناها وتراخت يداها حتى ارتمت على السحارة وتركتنى وهى تهمس :

ـ هبيل وعبيط !٠

ومدت يدها بالطرحة تمسح العرق من وجهي وهي تبتسم وتهمس :

ـ ألا تعرف هذه اللعبة يا عبيط ؟.

قلت : أي لعبة ..

ـ لعبة حلوة ! مسكين .. انك لا تعرفها .

ونظرت مليا في عيني ثم قالت :

ـ اياك أن تقول لاحد .. خذ ..

وملأت طاقيتي بحفنتين كبيرتين من الحمص . وأحسست أنها تقترب مني ، وخفت أن تكرر لعبتها ، فقررت أن أهرب ..

وفي هذه اللحظة فتح الباب الخارجي .. وسمعنا معا صوت أمها :

ـ سعدية .. يا بنت يا سعدية ..

١٣

وقفت وحدها على الشاطىء الرملي ، لا تفعل شيئا غير مراقبتنا ونحن نتبارى في العوم .. ونغوص في الماء لنظهر فجأة في مكان آخر أو نعبر شريحة الماء الضيقة ، الى شاطىء الجزيرة ونتسلق نخلة مائلة ، ونقفز منها الى النيل ، نتحداه بعد أن شاخ وهزلت قواه ، وجلا عن مساحات واسعة من مجراه لينحسر في شريط ضيق يلمع تحت وهج الشمس رائقا من الحمرة الداكنة التي تشوبه أيام الفيضان ..

ومن حول المجرى الضيق ـ على الشاطئين ـ بدت الارض خالية من كل خضرة ، الا سعف النخيل فقد أنشب الخريف أظافره في كل شجرة أخرى وعراها من ثيابها المخملية ، بينما بدا النتوء ربوة عالية ، من حولها على الجانبين أخاديد عميقة من الرمل تتخللها برك صغيرة من الماء تخلفت فلم تستطع اللحاق بالنيل في هروبه أمام الخريف ، برك تربض من خلفها

أراض عاطلة من كل زينة ترعى فيها القطعان دون رعاتها الذين تركوها تسرح وعادوا يلعبون السيجة والطاب فى ظلال الاشجار والبيوت ٠

ولولا صرخاتنا ، وعبثنا وأجسادنا العارية السمراء ، لبدت القرية مكانا مهجورا لا يتنفس فيه أحد غير الاطفال والفتيات الصغيرات ٠٠

فقد استقر آباؤنا فى البيوت يستريحون ريثما يعودون لحرث الارض وبذر القمح ٠ لم يعودوا يخافون علينا من النيل وسطوته ٠٠ ولم نعد نحن نهاب منه ، فاننا نستطيع أن نخوضه أو نعبره على أقدامنا ، الا فى موضع الدوامة والصخرة الناتئة التى انطرحت عليها الشمندورة الحمراء٠

حتى الفتيات بتن ينزلن اليهويلعبن كما نلعب، ويجمعن قطع الحصباء الملونة ، ويتعلمن العوم ، مستعينات بطوفة أو « قرع » يعلقنه حول الظهور بحبال من الليف ، يطفو بهن فوق الماء ، الا مندوهة فانها أبت أن تنزل الى الماء وان بدت سعيدة فى وقفتها هنالك على الشاطىء الشرقى تراقبنا دون أن تسمح لنفسها بالنزول والعوم معنا ٠

تعللت أن « نوح » اباها سيضربها اذا ما ابتل ثوبها الجديد الذى اشتراه من كده طوال موسم قطع النخيل ، ولكن بخيتة وسكينة أخذتا تهتفان لتخلع ثيابها الجديدة وتتركها على الرمل ، بينما تسلل اليها اش الله من خلفها ودفعها الىالماء فكادت تسقط فيه غير أنها تشبثت بعارضة الفلوكة ، ورفعت جلبابها الى صدرها وهى تصرخ :

ــ أتركنى يا اش الله ٠٠ أقول لك دعنى ٠

فصاحت نبيهة :

ــ بشرط أن تنزلى الى الماء ٠٠

فترددت لحظة ثم قالت :

ــ أتركونى وسوف أنزل ٠٠

وتركها اش الله وهو يهتف بها :

ــ احلفى برحمة أمك ! ٠٠

ــ ورحمة أمى ! ٠٠

ثم تخلت عن ثوبها ، وارتمت فى الماء متهيبة الى أن اعتادته ،

فمضت تعوم فى المجرى الضحل وتحاول أن تسابقنا عبثا ، ثم سئمت وقالت فى مرح :

ــ جعنا ولا بد لنا من الأكل ..

فأطلقت سكينة ضحكة صغيرة سكبتها فى الماء ثم قالت :

ــ مفجوعة .. لا تشبعين ! ..

ــ وأنت .. ألا تريدين أن تأكلى ؟ ..

ــ ولكن ماذا نأكل .. أنترك كل هذا اللعب ونعود الى البيوت ؟..

ــ كلا .. تعالوا نصطاد سمكا ..

فرحبنا باقتراحها وانطلقنا الى برك الماء وارتكزنا فيها على اعجازنا ، كل اثنين يمدان سيقانهما منفرجة ، يحجزان بينهما مياه البركة الضحلة ، ويعبثان بالايدى فى الماء ويلتقطان الاسماك الصغيرة التى تخلفت فى البرك ، فبدت فريسة سهلة ، تنوش أفخاذنا بزعانفها الصغيرة ثم تقفز محاولة الفكاك ، فننقض عليها ونرمى بها الى الشاطىء الرملى لتجمعها مندوهة عارية الجسد ، بينما ركزت سكينة قطعة من الصفيح مسطحة على كانون صغير أعدته وقبست له النار من قمينة الفحم التى أقامها بشير عثمان خلف جدار الساقية ، فقد اعتاد أن يبيع فحما يصنعه من خشب السنط بعد كل موسم ..

مضينا نصطاد صغار السمك ونشويها ونلتهمها دون أن نبالى بالشوك .. حتى امتلأت البطون ..

وبينما نحن نحفر فى الرمل ، نتصيد منه الماء البارد ، بدا على الشاطىء شبحان يتحركان من خلف النتوء فى اتجاهنا ..

وهنا تنبهت مندوهة لعرى جسدها ، فاندفعت الى ثيابها ولم تجدها فمضت تصرخ :

ــ يا عيب الشوم ! أين ثوبى .. جلابيتى يا هوه ! ..

وصاحت بها سكينة ..

ــ ومن يدرى يا مندوهة .. أين جلابيتك ؟

وراحت بخيتة تضحك وتقول :

ـ الملائكة أخذوها ! ..

ـ الملائكة ! انهم لا يسرقون .. قولى الشياطين ..

ـ طيب .. الشيطان هو الذى أخذها ..

وتلفتنا جميعا الى « بكر » الـذى جلس على الارض يشيح بوجهه بعيـــدا ..

وكان الشبحان يقتربان ، والفتاة تكاد تجن وتحاول أن تخفى نفسها فى مكان ما ، ثم تخلت عن فكرة التوارى ، واندلقت على بكر تخربش جسده لتجبره على استرداد ثوبها ، والفتى يقسم انه لم يأخذها ..

واجتمعنا من حولهما نحاول ان نحمل « بكرا » على الاعتراف ، غير انه لم يتخل عن عناده الا حين أشارت الفتاة الى الشبحين .. فرأينا بركات أفندى والعمدة على مقربة منا ، وقد انهمكا فى الدوران حـول زكائب سكر وقمح مرصوصة بعناية على الشاطىء ، هنا فقط قال لها بكر :

ـ والحـــلاوة ..

ودفعته بقدمها وهى تقول :

ـ الحلاوة ! خذ يا ابن الكلب .. أين جلابيتى ؟ ..

ـ الحـــلاوة ! ..

ـ طيب .. ماذا تريد ؟ ..

وصمتت وهى تتوارى خلف أجسادنا ثم قالت :

ـ ســـنارة ! ..

ـ كـــلا ..

ـ طيب .. فخ أسرقه لك ؟ ..

ـ عندى فخــان ..

ـ ماذا تريد يا ألدغ ؟ ..

ـ تتزوجيننى الآن ! ..

ـ الآن ! ؟ ..

ـ الآن ! ..

ـ لكن أبى يقول اننى سأتزوج حين أكبر !

ـ يا غشيمة .. نتزوج فى لعبة العروسة .

وتلفت الجميع نحوى ، فان مندوهة ، أبت دائما أن تتزوج غيرى فى هذه اللعبة لكنها قالت :

ـ طيب .. سأتزوجك اليوم وأتزوج « حامد » فى نفس الوقت ..

ـ أنا الاول ..

ونظرت الى ، ثم قالت :

ـ موافقـــة ..

ـ أحلفى ..

ـ ان شاء الله أعمى ويصيبنى الكساح لو لم اتزوجك اليوم قبل حامـد ..

ـ وتموتـــين ..

ـ وأموت يا رب ، وونور ..

واطمأن بكر وجرى الى الفلوكة ، وأخرج جلابية الفتاة ، والقى بها أمام قدميها ، ثم مضى يحجل فى الارض الرملية ، وهو يرسل أغنية عن مندوهة عروسه ، ويرمقنى فى زهو ملأنى بالغيظ فانعطفت على مندوهة أقـول :

ـ أنت يا كذابة .. لن تتزوجيه قبلى ..

ـ لكننى سأموت أو أعمى أو يصيبنى الكساح ما لم أتزوجه قبلك !..

فجزت على أسنانى وأنا أقرر أمرا أنفذه حين يأتى أوانه ..

وكنا قد قطعنا مسافة من المجرى الجاف واقتربنا من الشاطىء نحاول أن نتفادى بركات أفندى والعمدة ولكن صوتيهما كانا قد ارتفعا ، فتوقفنا تحت الجرف الطينى نستمع الى ما يقولانه :

ـ ولماذا يتركها الشيخ أمين هنا ؟ ..

ـ اعتاد التجار ذلك . ينقلونها ـ على راحتهم ـ يا سعادة البيه..

وصمت بركات أفندى هنيهة ثم قال :

ـ ألا يخشون من اللصوص ·· ففى الغرارات سكر وقمح ! ··

ورن صوت العمدة عاليا ، وكأنه يفتخر :

ـ لصوص ! ليس فى بلدتنا لصوص ··

وبانت الدهشة واضحة فى صوت الآخر :

ـ ألا يسرق أحد هنا شيئا

ـ السرقة عـار ··

وطفق يتحدث فى كبرياء عن الامن فى قريتنا ·· لا سرقات يا سعادة البيه ، الا الاطفال الصغار فيسرقون أفخاخ بعضهم أو الرطب أول ظهورها، أما الكبار فانهم لا يسرقون ·· والا وصمت القبيلة بعار كبير ، ولا جرائم قتل يابركات بيه ، مرة واحدة قتل فيها مدرس من بحرى حمار زميله ، وليست هناك فى القرية الا مشادات صغيرة بالنبابيت لا يجرح فيها أحد ، ولا تشج رءوس ! ·

ـ عجيبة يا حضرة العمدة ·· كنت فى أبنوب الحمام ، والدم هناك للركب والرصـاص فى كل مكان ·· الاطفـال ·· حتى الاطفـال يلعبون بالبنادق ، لقد سرقوا منزلى أمام عينى ، بعد أن أوثقونى ، وكمموا فم زوجتى ؛ وحشروا الصغار فى المطبخ ··

ـ وأين أبنوب هذه · ·ليست من قرانا ؟

ـ فى أسيوط يا حضرة العمدة ·· أجارك الله·· خسارة أن بلدتكم هذه لن تعيش ·· أنا معجب بأخلاق أهلها ، الصراحة ، والذى فى القلب يرتسم مباشرة على الوجه ، ولا سرقات ولا رصاص ، لم أصدق المأمور ، وهو يروى لى عن الامن فى المنطقة ، سأقابله وأعتذر له ··

وسر العمدة بهذا الحديث ، وتقافز مثلنا نحن الأطفال ، وهو لا يعى بنفسه ، فمضينا نكتم أنفاسنا حتى لا يسمعا ضحكاتنا ، ولكن العمدة توقف فجأة وقال :

ـ ولكنك تشكو يا بركات بيه من العمل !

ـ وماذا أفعل غير الشكوى ؟·· أهل القرية طيبون ولكنهم يتنازعون عند تسجيل النخيل والأرض فيعطلون عملنا ·

وسكت ريثما أشعل سيجارة وقال :

ـ ألا تذكر الرجل ·· اسمه ··

ـ الجزار ·· عبد الله الجزار ··

ـ والآخر ·· اسمه فضل ، أبى كل منهما تسجيل قيراطين من طرح البحر باسم الآخر ، مدعيا انهما من أملاكه ، والقيراطان يواجهان أرض الجزار وقطعة صغيرة من أرض فضل ·

ـ الليلة ستحل المشكلة ؟ مجلس الصلح سينعقد ··

ـ ولكن العمل يتعطل ، والمستر هيس سيعود ويسود عيشتنا ··

ـ سود الله وجهه !··

ثم بعد صمت :

ـ النـاس يقولون انه كلمـا تعطل التسجيل كلما تأخر الطوفان ، ولذلك فاننا لسنا متعجلين ··

ـ صـدقنى يا حضرة العمدة ، سجلنا أم لم نسـجل ، سوف يأتى الطوفان بعد أشهر ·· ويصخب الماء فوق نفس المكان الذى تقف عليه ·· بل فى بيتك وبيوت الآخرين ··

وأردف بعد صمت :

ـ أنتم طيبون ، ولكنكم لا تعرفون مصالحكم ·· وهذا الرجل الذى تسمونه بدر أفندى وكيل البريد يملأ رءوسـكم ·· الحكومة قوية ، وصدقى باشا اذا صمم على شىء لا يتنازل أبدا ·· ألم يدفن عمال العنابر أحياء ·· فهل يبالى بكم ؟ ··

ـ سمعت ذلك من أحمد عودة .. لنا الله .

ـ والانجليز يتعجلون ··

ـ ولماذا يتعجلون على خراب بيوتنا ·· خربالله بيوتهم ·

ـ القطن يا حضرة العمدة ·

ـ ومالنا نحن ؟ نحن لا نزرع قطنا هنا ·!

وطفق بركات أفندى يشرح للعمدة وهما يبتعدان فى خطى متثاقلة ، فظللنا نحن نراقبهما حتى تواريا ، ثم ران علينا الصمت ، وانغرزت حيرة

وقلق غامض فى ضـلوعنا ، فمضينا نعبث بأقدامنا فى الرمـل ، ولا نكاد نلفظ كلمة حتى ضاقت مندوهة بالصمت فقالت :

ــ مازلت جائعة ·· تعالوا نصطاد السمك من جديد ··

فصاح بها بكر :

ــ بل نلعب لعبة العروسة يا مندوهة ··

فهللنا ، ودبت الحيوية فى موكبنا الصغير ، والتقط اش الله قطعة الصفيح وأخذ ينقر عليها، ويردد على ايقاعها مقاطع أغنية الزفاف·· بينما نخب فوق الرمال ، ونتجه الى غابة صغيرة من غابات أشجار النخيل ، ذات ظلال وارفة ، يتشابك فيها السعف والجريد ، بحيث تبدت الغابة وكأنها سقيفة تظلل الارض كلها من حولنا ··

أسرعت مندوهة بعد أن لـكزها بكر بكوعه الى جذع شـجرة سنط باسقة بين النخيل ·· واستندت اليه ، واصطفت لداتها من حولها يسدلن شالا أحمر على وجهها ، ويطلقن الزغاريد بأصوات مسرسعة ويعرنها غوائش وحلقانا تتزين بها ··

وتقدمت سكينة وبخيتة ووقفتا عند ممر ضيق بين نخلتين، تحجبان العروسة عن عيوننا ·· وتوصدان الطريق اليها ··

ومن بعيد أقبلنـا نحن نزف بكرا الذى أسدل على رأسـه وكتفيـه وصدره عمة بيضاء طويلة ·· وعلق على ساعده خنجرا اصطنعه من جريد النخل ، وتأبط كرباجا طويلا من الجريد الاخضر الطرى شذبه وطواه تحت ابطه فى عناية بالغة .

بدا بكر سعيدا مرحا ، ينقل خطاه فى خفـة ونحن من حوله نطرقع بالكرابيج فوق رأسه الى أن دنونا من بيت العروسة ، فتوقفنا قليلا نتغنى بمندوهة وجمالها الآسر ، وبالفتى الفارس وأبعدية أبيه !·

وتحركنا من جديد بموكب الزفاف حتى بلغنا الممر الضيق، فتصدت سكينة وبخيتة لنـا ·· تحولان بين العريس وبغيته ، فظللنـا نحاورهما ونهددهما فلم تباليا ، بل تمادت بخيتة وقالت فى صوت حاولت أن تقلد به صوت عجائز النساء :

ــ المعلوم يا بكر ؟!

وغمزت بعينها وأردفت :

ـ الأميرة بنت الأمرا لا يدخل عليها أحد بدون المعلوم ! ٠

فتقدم منهــا بكر وعبث في جيبه ، ثم القى بخمس قطــع من الحصى الملون والقواقع في يدها ، وهو يعد في فخار :

ـ عشرة ٠٠ عشرون ٠٠ خمسون قرشا !

ثم توقف ، فهزت الفتاة رأسها في اصرار ٠٠ فعدنا نحاور ونداوز بينما مندوهة منكفئة عند الجذع ترمقنا في حياء تتصنعه، وعلى رأسها نبيهة تقف مثل وقفة الخادم تروح عنها وتعدل من وضع شالها ، وتبدو صارمة الوجه ، تزم شفتيها حتى لا تضحك ثم تفتحهمــا لتطلق زغرودة صــغيرة تعود بسرعة بعدها الى وشوشة سيدتها العروسة ٠٠

ومضى بكر يعد من جديد :

ـ ستون ٠٠ سبعون ٠٠ ثمانون ٠٠

وتوقف فهزت الفتاة رأسها من جديد فاستأنف بكر : ـ تسعون ـ جنيه !

وهنا تنحتا عن الطريق ، وهما تطلقان زغرودة حلوة ، فانطلقنا بموكبنا ، وقد رفع اش الله من صوت نقراته على الدف ، وتعجــل بلحن أغنيته ، فأصبحت هادرة كالموج ، ثم توقفنا على رأس مندوهة ٠٠

وصلى بكر ركعتين ، ثم وقف ، على بعد خطوة واحدة منها ، ومد يده بين تهليلنا الى ذؤابة مرتفعة من شعرها ومسها وهو يقول :

ـ انت زوجتي الآن ٠٠ مبروك ! ٠٠ زوجتي على سنة الله ورسوله !٠

فلمعت أسنانها الدقيقة من تحت الطرحة السوداء بابتسامة بيضاء الا أنها أطرقت بسرعة في حيــاء ، دون أن تنبس بــكلمة واحدة ، بينمــا صديقاتها يتغامزن ويشرن اليها من طرف خفي ٠٠ من وراء ظهر العريس :

ـ اياك ٠٠ اياك ٠

وأشرن بالسبابة الى الشفاه ، في هســهسة فهمتها مندوهة ، فزمت شفتيها تكتم ضحكة ، واشاحت بوجهها بينما بكر يحاول أن يظهر بمظهر الرجال ويهدر كما يهدرون :

ـ تكلمى ٠٠ أين طاجن الحمام ؟!٠

وانبرت خادمتها تهمس فى اذن العريس :

ـ الاميرة تطلب المعلوم !٠

فصاح بكر :

ـ لا معلوم ولا حاجة ٠٠ اخرسى انت !٠

وانتزع كرباجه الطويل ، وفرقع به فوق رأس العروسة ، يكاد يلسعها لكنها تفادته بحركة خفيفة الى الخلف ، مطلقة آهة خافتة لتزم شفتيها وتطرق من جديد ٠٠

ومضى بكر يحاول ، وهى لا تبالى حتى فقد صبره فأمسك بمعصمها ورفعها اليه ، يريد أن يضمها الى صدره ، فتمنعت فى دلال ، بينما لداتها يشجعنها باشارات وتلميحات وكلمات خافتة ، وخادمتها تتدخل بينه وبينها ٠٠

وأذعن بكر ومد يده الى جيبه ، ودفع الى يد الخادمة بالمعلوم ٠٠

ـ خذى ٠٠ عشرة ٠٠ عشرين ٠٠ خمسين ٠

ثم قبض يده وقال فى توسل :

ـ تكلمى يا ابنة الاكابر ٠٠ تكلمى ٠٠

فهزت الفتاة رأسها ، ولوت الخادمة شفتيها تستشوى المعلوم ، فأسقط فى يد بكر ، ومضى يهتف من جديد :

ـ ستون ٠٠ ثمانون ٠٠ مائة ٠٠

وهنا هتفت بخيته :

ـ كفى يا مندوهة ٠٠ كفى !٠

فافتر ثغر العروسة عن ابتسامة ثم قالت وهى تشير الى زوجها :

ـ وماذا تريد ؟٠٠ الطاجن ؟٠٠ هناك ٠٠

ثم أومأت الى الخادمة فى دلال :

ـ هاتى عشاءه ؟٠٠

وارتدت الى جذع النخلة تستند عليه وهى تروح عن وجهها بفضله الشال ، تنتظر الزوج ريثما يفرغ من عشائه ، لكن اش الله انبرى يقول :

ــ بلا لكاعة ·· هيا يا بكر أأنت وراء بطنك أم زوجتك ؟·

وتدخلت بخيتة تهمس :

ــ لو كانت شاطرة لما تركته ينصرف عنها الى الطاجن ··

واندفع صالح جلق ليقول :

ــ ولو كان للمغفل عينان لما تركها ··

فالتهب بكر بالحماس واندفع اليها ــ تعالى ·

فهمست وهى تومىء الى خادمتهــا ــ ماذا تريد ؟ فتفرس بكر فيهــا وقال :

ــ الرطب الحلوة من شفتيك ··

وتلفت نحونا ووجدنا نشجعه فأردف :

ــ والدوم الاخضر من صدرك ··

فابتسمت وقالت :

ــ ألا ترى ؟· الدنيا نهار ، وفى الليل تطيب الرطب والدوم ··

فمد يده واختطفها من بين صويحباتها واحتضنها وهى تصرخ وتتمنع، ونقرات الدف تعلو ، تمتزج بها زغرودة طويلة ·

وأشار الفتى الينا أن نجلو عن بينهما السعيد فى الحال ، فخطونا الى الخلف ، وتوارينا بين أشجار النخيل ، ومكثنا نتسمع الى الوشوشة التى تدور بينهما ، الا أن عيشة التى كانت تتلصص وجدت بكرا يحاول أن يغشى عروسه كما يغشى الرجال نساءهم بينما هى تحاول الافلات منــه ، فاندفعنا اليه نحثو التراب على رأسه ونحول بينه وبينها ··

وتوقفت مندوهة تنفض التراب وتبتسم لتقول :

ــ فلنزف « حامد » الى عيشة ··

وصاحت هذه : كلا ·· ليس اليوم ·· فقد تأخرنا ··

وصاحت مندوهة من جديد : كلا ·· زفوه الى أنا ··

واتكأت الى الجذع من جديد ، وأنا أتأملها فى غيظ واتمتم : سأنتقم منك يامجنونة ·· لقد رضيت ببكر قبلى ، سوف ألسع جلدك بالكرباج ·

وانطلقت الى الشاطىء مع رفاقى ، ثم عدنا فى زفة كبيرة على نقرات الدف وترانيم اش الله ، واجتزنا الممر الضيق بين النخلتين الى أن توقفنا على رأس مندوهة ، فلم أبال بشىء بل اندفعت بيدى الى ذوابة الشعر ، وهى تطرق فى حياء، وقبل أن تلمسها يدى مزق الصمت شىء يشبه العويل أخذ يعلو ويعلو ، ويملأ الشاطىء ، تمتزج به أصوات رجال مبحوحة تسب وتلعن ··

وانتزعت العروس نفسها وانطلقت تعدو ·· وانطلقنا نحن من خلفها ، والعويل لا يزال يعلو ويعلو ويرج المكان كله ··

١٤

والتقت أبصارنا ونحن ما زلنا نعدو بالعمدة يولينا ظهره ، فوق ربوة مرتفعة · كان هائجا يلوح بيده هنا وهناك ، ويصرخ بكل ما يملك من قوة :

ـ آه يا ولد ·· يا ابن الكلب ·· امسكوه ·· بلد بهايم ·· لا شىء يا بركات بيه ·· لا تخف ، انت وصحابك ·· تفضلوا من هنا ·

وأشار الى مصطبة عالية ، تحدق بمجموعة من أشجار النخل ، وتلفت يتابع اشارته فلم يجد أحدا ممن يوجه اليهم كلماته المشجعة ، وابتأس حين رآهم يركضون هنا وهناك ، يتعثرون بالجداول وينهضون ليركضوا من جديد ولا يبالون بالتراب الذى علق بثيابهم ، حتى بركات أفندى أسلم ساقيه للريح ، وترك قبعته تنزلق وتتمرغ فى الوحل الأسود ، ومضى

يقفز من جدول الى آخر حتى أوفى على الشاطىء والقى بنفسه الى الفلوكة الرابضة ، وتوارى عن الأنظار فى خن الفلوكة ..

والعويل ما يزال يعلو ، لا يقطعه الا أصوات سباب ولعنات وآهات تنبعث من تحت سحابة كبيرة داكنة تنعقد فوق أشباح ، ترتفع الهراوات والنبابيت فى أيديها . وتهوى فى سرعة على رءوس أشباح أخرى . فتشجها أو تلقى بأصحابها الى الارض ، يهدرون بالأنين ويسفون التراب .

وثمة أذرع ترتفع بالنبابيت تطوح بها فى الهواء ، فتبعث هسيسا ينقلب الى صفير ينتهى الى ارتطام ، وصوت تكسر اذا ما اعترضت طريقها هراوات غليظة ، تمتد افقيه على الرءوس تحميها لتنقض هى الأخرى ، وترتطم بجماجم الرءوس وتهشمها .

ومن كل درب ، فى كل لحظة ، هرع الى الساحة رجال ونساء ، الرجال يندفعون الى جوف السحابة الداكنة ، يطوحون بنبابيتهم ، ويهوون بها على الرءوس ، ولا يدرى المرء كيف أمكن لكل واحد منهم أن يميز خصومه فى الزحام ، لينهالوا عليهم دون غيرهم ..

أما النساء فاندفعن الى الأخريات ، يطلقن نفس العويل المتصل الطويل ، ويتراشقن بالحجارة ، والألفاظ الجارحة ، ألفاظ مثل السياط تلسع الأعراض والأنساب ، وأكف مثل المخالب تتشابك بالضفائر فتتجندل على الارض ..

ولم يشعر العمدة فى يوم من الايام بمثل المهانة التى شعر بها فى تلك اللحظات ، فمنذ ساعة كان – هو وبركات بيه – يتحدثان عن الأمن فى القرية ، والكلمات لاتزال تطن فى أذنيه : حتى المشادات لا توجد .. ولا جراح .. ولا نقطة دم تسيل .. أعوذ بالله .. أبنوب الحمام .. مجلس الصلح سينعقد الليلة.. ثم ها هم أولاد الكلب يلطخون شرفه! ويصفعونه أمام الأغراب !. الحق على أنا .. لم أكن حازما معهم مثلما كان أبى ، ولا يجدى معهم الا الكرباج والفلكة ، ومندرة السلحليك المظلمة ، لا بد من الحزم مع عبدالله الجزار بالذات.. أأنزل عن هذه الربوة التى أقف عليها ؛ وأدخل فى هذه الدوامة بنفسى لاجرجر الجزار وفضل وأقيدهما بنفسى ؟! تأخر الغفر .. ها هم يركضون وينعطفون ، ومن خلفهم العسكرى يخب فى التراب بحذائه الثقيل .. ويتعثر فى جلبابه .. ابن الكلب كان يغط فى نومه ثم أيقظوه .. لكاعة ! لماذا لا يأتون بسرعة ؟ لقد وقع الطربوش .. اتركه ياابن الايه واسرع ..

ثم التفت فجأة الى الساحة ، وعويل النساء ما يزال يخترق أذنيه ، ويتغلغل فى كل ذرة من أعصابه ، ورأى السحابة تزداد كثافة واتساعا ، ونبح النبابيت تعلو وتهوى ·· واستمع الى كلمات السباب ، ثم صاح فجأة :

ـ ملعون أبوك يا حموى ·· امسكوه !

وأشار الى أول غفير وصل الى المكان :

ـ آه ياابن « سبيلة » ادخل وامسك حموى .. كتفه .. اسرع ياولد .. ماذا تنتظر .. تعال .. مطرحى .. أدخل وهات حموى واكسر ضلوعه ·

وقبل أن ينهى أوامره اندفع الى الدوامة من الناحية الاخرى شاب طويل نعرفه نحن الاطفال جميعا ولا نميل اليه : البسطاوى زعيم أطفال نجع السواردة ، وفى يده نبوت طويل ·· وسرعان ما سمعنا تكسره وارتطامه فوق الرءوس ·· ولا ندرى لماذا عدل العفريت عن الرءوس فانحنى ، وأخذ يهش بالنبوت على سيقان الرجال ، يدور به مثل المجنون ، يضرب هنا وهناك دون رحمة ، ومن خلفه صوت عبد الله الجزار يهتف :

ـ عفارم يا ولد ·· عفارم ياابن الاخت ·· برافو !·

ثم أطلق آهة، هرع اليه بعدها حموى «البطاح»، فهكذا اعتاد الناس أن يلقبوه ، ليسنده ويطمئن عليه ، ثم انطلق بهراوته يضرب هنا وهناك دون رحمة ، والدوامة تزداد اتساعا · والغبار يزداد دكنة وظلاما ، فالخفر والعساكر الذين طفقوا ينفخون فى صفاراتهم دون أن يفعلوا شيئا ، كانوا قد دخلوا الدوامة ··· وراحوا يدورون بين المتنازعين ، يحاولون الامساك بأحد ، ويفلتونه فجأة حين يشعرون بأزيز نبوت ينهال على أكتافهم ، ومضى العمدة يصرخ فى رجاله وأبناء قبيلته الذين جاءوا يفضون النزاع الناشب ··

ـ أمسكوهم ·· اقبضوا عليهم جميعا ·· لاتتركوا واحدا منهم ··

ثم استدار الى الناحية الأخرى ، فان قطعة من الحجر الصلد مرت لصق أذنه اليسرى وأطارت عمته فاحتدم غيظه وراح يسب ··

ـ وانتن يا ·· ماذا أفعل بكن يا بنات الكلب ··

وتفرس فيهن وهو يهدر ··

ـ وانت يا عجوزة ياكركوبة ٠٠ ماذا تفعلين يا مجنونة ! انت يا فضيلة ٠٠

ثم دوت صرخة عالية من الدوامة انطرح بعدها الشيخ فضل على الارض يمسك بساقه ويتأوه :

ـ كسرتني يا ابن الكلب ٠٠ الهي يكسر قلبك يا بسطاوى ٠٠

وفي هذه اللحظة أطلق صالح جلق صرخة :

ـ برعى ! برعى ! ٠٠

فقد اندفع هذا الاخير ، الى الدوامة ، في نفس اللحظة التي كان فيها العساكر يجرجرون خاله الى الربوة ، ومضى يصول بنبوته ويفسح طريقه بضربات طائشة هنا وهناك ، حتى دنا من البسطاوى ودهمه من الخلف ، وأمسك به من رقبته وطرحه أرضا ، ثم برك عليه ، ومد يده الى عنقه يخنقه ، ففتح البسطاوى فمه ، وهنا كف برعى عن ضربه ، ودفع بيده اليسرى حفنات من التراب الى فم الآخر الذى أخذ يصرخ :

ـ برعى يا ابن البهيم ٠٠ سأقتلك ٠٠ لو كنت «جدع» اتركني ٠٠

ورنت ضحكة في صفوفنا نحن الأطفال ٠٠ فقد احسسنا براحة عميقة ونحن نرقب برعى زعيم نجعنا يجندل البسطاوى ويحشو فمه بالتراب ٠٠ لم نكن قد نسينا مشاداته معنا ٠٠ ولا تربصه بنا عند كل منعطف ، ولا سرقة شراكنا ، وهاهو برعى يجثم على صدره ٠٠ ويحشو فمه بالتراب :

وتحمس اش الله وهتف :

ـ أيوه ٠٠ البسطاوى سيقتل برعى ! ٠٠ الجبان يهدد ٠٠ ها ها ها ٠٠ أرفعوه من فوقي وسوف أقتله ! هيا نرفعه يا بكر !٠٠

وضحك بكر ، وقفز ينكت رأسه في التراب ويرفس بقدميه في الهواء ، ومضينا نضحك بينما الكبار يتأوهون ٠ ثم انطفأت الضحكات في الحلوق ، فقد أهوى أحد العساكر بهراوة على رأس برعى القته على الارض ، فأخذ يجرجره الى الربوة حتى طرحه الى جانب خاله الشيخ فضل ! ٠٠

وأصابنا الفزع ، ولا أدرى ما الذى دفع بكرا وحفزه ؟ ربما الضربة

التى تلقاها برعى هى التى دفعته الى الانقضاض على «مبروك» أحد صغار « السواردة » نجع البسطاوى يضربه ويخربش وجهه ..

ودون أن نعى تجمع الصغار من كل مكان وتشابكوا يتضاربون بالايدى وبجريد النخيل .

ظللنا نتضارب ونحثو بعضنا بالتراب .. ثم توقفنا فجأة لنجد العمدة قد بارح مكانه ، والخفر يحملون الشيخ فضل ، على أكتافهم ، ويوثقون يد حموى وبرعى والبسطاوى .. ويسوقونهم لينعطفوا بهم فى السكة السلطانية الى بيت العمدة ، فتوقفنا عن التضارب .. وخطونا بسرعة الى السكة نتعقبهم . وهنالك عند المنعطف وقفت شريفة منكسة الرأس ... ترمق برعى فى حنان والعساكر يسوقونه مكبل اليدين ، أصفر الوجه وازدادت حيرتها حين رأت البسطاوى ، ولمع فى عينيها بريق غضب واحتقار اخفتهما بسرعة . فانه من أبناء عائلتها وأن كانت تكرهه ..

وقفت تشيعهم جميعا حتى ابتعدوا ... فانخرطت فى البكاء لحظة استدارت بعدها وبارحت المكان ، تتعثر فى جلبابها الطويل .

ومن خلف جذوع النخيل ، ومن خن الفلوكة انبثق بركات أفندى وبقية الموظفين ، ينفضون التراب عنستراتهم ، ويمسحون العرق المتصبب على جباههم ..

وتنحينا لهم عن الطريق ، لكنهم توقفوا على رأسه حائرين ، لا يدرون الى أين يتجهون ! وزاد الصمت بينهم لحظة وهم يتأملون ميدان المعركة ثم تمتم بركات أفندى :

– شريحة أرض صغيرة ثم ..

وانبرى بديع افندى يقول ..

– لا شيء غير قوة من الجيش .. لابد من ضباط وعساكر .. والمصيبة أن علينا تسجيل آلاف أشجار النخيل ، داهيتنا سوداء ، لن ننتهى من عملنا الا بعد سنوات ..

وتقدم عزيز أفندى ، الموظف الصغير من بركات أفندى وغمغم ..

– والمستر هيس سيعود ويسود عيشتنا .. متى نعود من هذا المنفى ؟ ..

فهز الآخر رأسه وهمس :

ـ كل نخلة يعقبها نزاع ، كل قيراط •• الغـريب ان العمدة منذ ساعة فقط كان يحدثنى عن الهدوء الذى يشمل قريته ••

صاح عزوز افندى فى طيش ••

ـ ثور الله فى برسيمه • •ومن أدراه•••ثور وحكموه فى بلد !••

ووجه بركات أفندى نظرة صارمة الى عزوز أفندى وأمره :

ـ اياك أن تردد مثل هذه الكلمات •• فانهم يسمعونك ••

وأشار الينا نحن الذين توقفنا نراقبهم •• الا أن عزوز أفندى لم يبال بنا ، بل أطلق ضحكة ساخرة وراح يقول :

ـ أتحسبهم يفهمون ؟ ••

وطاف على وجوهنا بنظراته ، ثم أشار الى بكر :

ـ انت ياولد •• أتفهم ؟ •• انت ياحمار !

واستدار الى بركات أفندى وقال وهو يشير الينا من جديد :

ـ أرأيت ؟ انهم لا يفهمون شيئا •• حيوانات لا تعرف غير ••

ودار على عقبيه ليواجه صحابه ضاحكا ، وفى هذه اللحظة ارتفعت يد بكر ، وانطلقت منها حجرة صغيرة أصابت مؤخرة رأس الافندى فتأوه بينما أطلق بكر ساقيه للريح ••

***

واعتدنا فى هذه الأيام أن ننفلت من الكتاب عند الظهر ، ونجرى سراعـا الى بيت العمدة فى النجع الشـمالى ، لنتجمع أمام دهليز السلحليك وننادى :

ـ برعى •• برعى يادولحظ ••

فيرتفع صوته من خلف الجدران غليظا خشنا :

ـ أيوه يا حامد •• وأين بكر وصالح !؟

ـ هنا ••

ثم نشب على أقدامنا ونروى له أخبار النجع ..

وفى اليوم قبل الأخير سألنا برعى من خلف الجدران :

ـ وساق الشيخ فضل ..

فقلنا له بعد صمت :

ـ بخير .. يتوكأ على عكاز ويزك بقدمه ، الشيخ محمود الحلاق يؤكد انها ستشفى عما قريب ..

وهنا ارتفع صوت حموى والبسطاوى :

ـ والجزار .. هل أصابه شيء !؟

فأجاب بكر :

ـ لا يابرعى ..

وساد الصمت لحظة ريثما انعطف شيخ الخفر عند الركن الشمالى ، ثم ارتفع من خلفنا صوت يقول :

ـ ستخرجون باكر يا حموى .. برعى .. كيف حالك ياولدى ..

وعرفه برعى من صوته فصاح :

ـ الحمد لله . طيبون ياعم حاكم ..

حاكم الاسكافى هو الذى كان قد تسلل من خلفنا ليفضى بهذه الأخبار الى الذين عاشوا فى السلحليك منذ أيام سبعة طويلة :

ـ لقد تم الصلح ، وقبل الجزار رأس الشيخ فضل بحكم المجلس .

فسأل حموى ..

ـ والأرض ..

ـ أجل بركات أفندى تسجيلها ، الى أن يسأل رؤساءه .. الشيخ فضل هو الذى أرسلنى لك يا برعى ، بعد أن سمعنا انكم تتشاجرون هنا مثل الأطفال الصغار ..

وبان الخجل فى صوت برعى ، وتذكر ليلة الأمس ، حين حاول أن ينشب أظافره فى عين البسطاوى لولا حموى الذى حال بينهما ... آه لو تمكن من ابن الكلب .. آه لو رأيته يا حاكم وهو يتكىء على كوعه ، ويرتفع برأسه ثم يسأل تماما كما يسأل الرجال :

ـ عم حموى ، أصحيح يا عم حموى ؟

ويسكت ليلقى نظرة على برعى ثم يردف :

ـ أصحيح أننا اخوة فى الرضاع ٠٠ شريفة وأنا ؟ ٠٠

وحار حموى ثم قال :

ـ لا ياولدى ٠٠ من الذى أدخل هذا فى مخك ؟

ـ يقولون !

ـ لا تصدق ٠٠ أنت ولدت فى مصر ! ٠ وولدت هى هنا ! ٠٠

فأطلق البسطاوى ضحكة وقال :

ـ اذن ، يمكن أن أتزوجها ٠ كادت المسكينة تقتل نفسها حين رأتنى أساق ٠٠ أما غيرى ٠٠ أما أنت فان أحدا لم يسأل عنك غير زوجتك ٠

وأدرك برعى أن البسطاوى يعرض به ، فهب من مكانه وأمسك به وهو يهدر : اخرس يا كلب ٠

ثم مد قدمه وضرب بها فى ساق الآخر ، وانكفأ على الارض وراح حموى يصرخ ويستنجد بالخفر ، فدفع الباب ودخلوا وفرقوا بينهما وساقوهما الى العمدة الذى مدهما فى الفلكه ، وأوسعهما ضربا وهو يلعن خاشهما ٠

***

وعاد برعى يدب فى طرقات النجع ، متوتر الاعصاب ، يتحرش بالبسطاوى ، ويثور كلما رأى خاله يزك على قدمه ، ويعكف على العرقى ، « يطفح » منه ولا يبالى بتهديدات أبيه العجوز ٠

ومرت أيام ، دون أن يفكر برعى فى زيارة «داريا سكينة وشريفة» لعله غضب من حديث البسطاوى وتعريضه به وبها ، لعله فكر طويلا فى صلة القرابة التى تربطها بعائلة البسطاوى ، ولعل الهواجس ملأت قلبه من ناحية حسن المصرى ٠٠

كل ذلك كان يحول بينه وبين زيارتهما ، الا أن رغبة عارمة فى رؤيتها اجتاحت قلبه فى أحد الايام ، وهو يلقى بكومة من الدريس على سطح بيته ، فقد تذكر فى هذه اللحظة كلمات شريفة :

ولماذا لا تأتى أنت أيضا ؟ .. أمى تقول ان سقف البيت ..

وأمام عينيه فى الفناء كان جذع طويل ممددا · فلماذا لا يحمله الى بيتها ، والفرصة موانية .. فقدرأى من مكمنه فوق سطح البيت داريا سكينة تترك بيتها منذ لحظة ولن يجد هنـاك غير شريفة ، الا اذا كانت بطة شقيقة حامد هناك فهى صاحبتها بالروح ولاتفترقان ·

ووجد نفسه يهبط من السقف الى الفناء ، ويحمل الجذع · ويتسلل به مارا بأعمدة التليفون ، ثم يدق بقبضته على الباب ، ويدفعه بقدمه ويدخل ، ويلقى بالجذع على الارض ثم يهتف :

ــ دستور يا أهل البيت ·· احم ··

ومن الدهليز برزت شريفة ، حاسرة الرأس منبجعة الصدر حتى كاد جلبابها يتمزق عن الصدر ··

حارت قليلا لكنها تمالكت نفسها ، وقالت

ــ أهلا .. حمد الله على السلامة ..

وبأن فى صوتها رنة عتاب فانتهز الفرصة وقال ..

ــ هاتى السلم ، ودعينى أصلح السقف ·

ورآها تستدبره ، وضفيرتاها تهتزان على عنقها وظهرها ، ثم تقبل وهى تجرجر السلم الطويل على الارض لامعة العينين ، منفرجة الشفتين عن ابتسامة واهنة ··

وتذكر السحر الجميل واستنادها الى جذع النخلة هناك · والفانوس المنطرح عند جذع آخر · تذكرها ناضجة ، رخصة القوام مثل الرطب ، وشاقته الابتسامة الحلوة التى رفت على شفتيها واستدارة ردفيها وتكور صدرها ، ثم التهبت حواسه فجـأة ، فألقى بالسلم جانبا وأمسك بمعصمها بقسوة وهو يتمتم :

شريفة ·

ــ هيه !

قالتها وهى تتنهد وكأنها تعنى :

ــ أعدت الى فعالك مرة أخرى ·· ماذا تريد ؟

وتفرس الفتى فى وجهها وقال :

ــ شريفة ·· ألم أقل لك ··

وصمت ريثما يبتلع ريقه ثم أردف :

ـ حسن المصرى !

وبانت الدهشة فى عين الفتاة ، وأحست بالكلمات الغاضبة تصرخ فى جوفها : مالك تسأل عنه ؟ .. ولماذا تأمرنى ؟ لست أختك وراحت تنظر الى الارض وقدمها تغوص فى الرمل :

وتأملها الفتى مليا ثم غمغم :

ـ لا تزعلى ، فأنا زوجك .. أقصد .. سأكون زوجك ! أم انك تريدين البسطاوى ؟

فأسرعت تقول دون وعى منها :

ـ البسطاوى ؟ .. لا أريد البسطاوى .. أنا لا أطيقه ..

ـ واستدركت ـ ولا غيره !

وأضافت بعد صمت :

ـ لكنه من أقاربى

وهمست لنفسها ـ ما من رجل قال لفتاة ، سأتزوجك .. انهم يفكرون فى الزواج ثم يقررون ، ولا يقربون الفتاة ، بل يتقدمون الى أهلها ويستعدون للزفاف ، أما هى فقد تكتفى بفنجان شاى بالنعناع تقدمه ثم تنزوى عن عينيه ، وها هو برعى يفاتحها فى الزواج ، مجنون ! لو كان جمال هنا لما تجرأ ، ولكن مالك تتلكئين ؟! .. لماذا لاتقولين له .. لأ .. لماذا تتركينه فى حيرة ؟ .. ربما كنت تميلين اليه ؟؟ .. كلا ..

ثم حانت منها التفاتة عابرة الى وجهه ، فأحست بنفس الشىء الذى أحست به وهى تواجه حسن المصرى بين عيدان الذرة ، ثم واصلت تفكيرها ، وقد قفزت صورة هذا الرجل أمام عينيها ، وربما أحست بخدر غريب يدب فى كيانها ، ويلتهب عند فخذها ، فى الموضع الذى فركه حسن المصرى منذ شهور هنالك بين عيدان الذرة .. آه من تلك القبضة .. انها ماتزال تنز من جسدى مثل الجرح ، ثم ينتقل الى القلب فى ألم استعذبه وأحبه !

وغامت عيناها وهى تفكر ، وأهوت بيدها على فخذها تتحسسه وتهدىء من روعه ، وظلت منحنية فى صمت تستند الى السلم بيد وتدلك فخذها باليد الأخرى ، ثم أفاقت على صوته :

ـ شريفة .. مابك ؟ أمريضة أنت ؟!

فأسرعت تقول متلعثمة :

ـ لا شيء .. لا أعرف ، لا أريد أن أتزوج .

ثم ارتفعت برأسها وشدت من قامتها واندفعت برأسها الى الخلف تحاول أن تبعد وجهها عن مرمى أنظاره ، فبرز نهداها ، وبدت جميلة تنغرز في قلبه بآلاف الصور البديعة ، فلمعت عيناه ببريق غريب ، أدركت كنهه : نفس البريق الذى رأته في عين حسن المصرى .. أدركت كنهه فتراجعت خطوة الى الوراء وانعطفت بوجهها تريد أن تستدير وتتركه الى الدهليز الداخلي ، الا انه اندلق عليها فجأة ، وجذبها من منكبها وضمها الى صدره بقوة ، فأحست بأنفاسه تلفح وجهها ، وبرائحة العرقى تفوح من فمه ، وأفاقت على صوتها يصرخ صرخة ممطوطة ارتبكت لها .

وازدادت حيرتها وارتباكها حين فتح الباب الخارجي فى هذه اللحظة وأطلت من فتحته « داريا سكينة » بوجهها المستدير الاسمر ومن خلفها عم نوح . كانا عائدين بعد تسوية حساب بينهما فى المتجر منذ قطع البلح .

وبدت الحيرة والاضطراب واضحين في عين برعى ، ودون أن تدرى كيف واتتها الفكرة راحت تبحث عن أكذوبة تعلل بها صرختها الطويلة وقد وجدتها عند برعى فتبرعت بها .. وجدته يشير الى السلم ، منحنيا على ساقه يفركها ، ويتأوه ، فاندفعت تقول بسرعة وفى ألم ..

ـ أمى .. عجلى . .وقع المسكين من السلم .

يالله .. انها تحبنى وتريدنى . والا فلماذا تكذب ؟ أم انها تخشى الفضيحة أن تنكشف أمام نوح ؟!

رغم ذلك فقد وجد نفسه سعيدا ، ومضى يمثل دور انسان كسرت ساقه ، فتأوه كما يتأوه خاله ، حين أخذت أنامل نوح تدلكها بعناية فائقة ، وراحت الفتاة وأمها تجريان بين الغرف ، تعدان ماء فاترا وزيتا سخنتاه ، تدهنان به ساقه .

ومكث برعى ساعة أو تزيد هنالك حتى شرب شاى العصر ثم نهض واتكأ على عصا ، وبارح البيت يزك على ساقه اليمنى ، ثم القى بعكازته ، وأسرع الى بيته وهو يطلق قهقهة عالية سمعتها وأنا أمام المتجر .

١٥

أخـذت أطوح بالكيس فـوق رأسى ، وأصـفر وأنا أراقب الطريق ، على واحـدا منهم يشـق الدرب الخالى بقـامته ، يحمل بلطته الصغيرة وكيسـه ، وينتظر فى هذا المكان مثلى الى أن يأتى الآخرون .

تأخروا . وها هى الشمس تتخطى الظهر ، وتخطو بأشعاعاتها الى الأصيل دون أن يبدو واحد منهم ، حتى برعى الذى انقطع عن الكتاب منذ شهور . وعد بمصاحبتنا فى رحلتنا الشـهرية المعهودة الى قمـة عالية فى الجبل ، تمـاما خلف الصخرة المعلقـة على كتف الجبل ، خلف مئذنة الجامع ، ففى مغارة صغيرة هنـاك منجم جير نقتطع منه بالبلطة قطعا بيضـاء نطلى بهـا « الواحنا » قبل أن نخط عليهـا بالحبر آيات القرآن ! ..

وفى المغارة ، وبالذات منذ الأصيل ، ترف الخفافيش بأجنحتها وتكاد تلطم وجوهنا ، ولقد أخذ برعى منذ شـهور يهتم باصطياد هذه الخفافيش يدقها مسحوقا أسمر وهو يتمتم بكلمات مبهمة عن شريفة !

ومرت لحظات طويلة ثم سئمت الانتظار ، فأطلقت من جديد عواء الذئب أقلد برعى وأوش الله . كررته مرة بعد أخرى دون أن يستجيب أحد لندائى ، فاستندت الى جدار البيت أفكر فى الأزهر والشيخ الرحمانى وبركات أفندى وقلمه العجيب . فقد رأيت هذا الأفندى مرة يجوس بين أشجار النخيل ، يتأبط دفترا طويلا يتوقف به عند كل نخلة يسأل عن صاحبها ثم يخرج قلمه الأسود اللامع ، ويرفع عنه الغطاء ويشير بسنه

الى الصفحة ، فيظل يكتب ويكتب دون عنـاء ، دون أن يغمس طرفه فى المحبرة كما نفعل نحن ، فى الكتاب ، بأقلام البوص ..

قلم عجيب ! لايحتاج الى حبر ! ولا يتوقف عن الكتابة أبدا حتى أصبح حديث كل أطفال النجع · كنت أول انسان عرف سره الغريب ، ومن أين يتسلل الحبر الى سنه ؟ فأخذت أحكى لهم عنه فى كل يوم ، وأزعم أن خالى عثمان سيرسـل لى قلما مثله من مصر فى يوم من الأيام حرصت الا أحدده ، ولم أفض لأحد كيف عرفت سر القلم العجيب الا بكر فانه تحدانى مرة ، وهو يسخر منى :

ـ أنت تكذب .. أنت لا تعرف شيئا عن قلم بركات أفندى ·

وملأنى الغيظ فقلت :

ـ أنت أنف كذاب .. عبده الفرنساوى هو الذى قال لى ·

ـ عبده الفرنساوى ؟ .. وماذا قال لك ؟ وهل يعرف ؟ وتريثت لكى أثير انتباهه وتشوقه ورحت أحكى :

ـ فى القلم مكان للحبر .. بداخله دواية · والرجل يملأ هـذه الدواية كل يوم فى الصباح ·

وتفرست فى وجهه ثم أضفت ..

ـ وأنا أعرف اسم القلم أيضا ·

ـ لا يا شيخ .. وحياة أبوك .

ـ وحياة أبويا اسمه أبو نوس « قلم أبو نوس » تعال نصـنع قلم أبنوس شبيها له !

وانكببنا على أعواد البوص الجافة نفرغ جوفها ونبريهـا ونملؤها بالحبر ثم نحاول الكتابة .. ولم نعدل فى نهاية الامر الا منذ عرفنا أن البوص يتشبع أو يندفع بالحبر مرة واحدة على ملابسنا ، وكراريسنا ·

منذ ذلك التاريخ والقلم « الأبونوس » لا يبارح مخيلتى · كنت أفكر فيه وأنا آكل ، وأهتم به وأنا نائم ، والح على أبى أن يشترى لى قلم أبنوس فاضطر وكتب لخالى عثمان يطلب منه أن يرسله فى طرد هـدية لى فعشت أترقب وصول الباخرة والطرود فى كل أسبوع الى أن سئمت

.. الا أن صورة هذا القلم ظلت تنبثق أمام عيني كلما خلوت لنفسي ، ولهوت مع أترابي .

ولا أدرى لماذا عاودني التفكير في تلك اللحظة في تلميذ المدرسة مصطفى ؟ » .. ربما دفعني الى تذكره ادعاؤه مرة انه يملك مثل هذا القلم في المدرسة ، تخيلته يمسك به ، ويدفعه الى الكتابة دون توقف ، ثم يحكم غطاه ويعيده الى جيبه الصغير ، مزهوا بنفسه كأنه ابن العمدة ، ودون أن أدرى سمعتني أقول :

ـ أبوك ـ انعل أبوك .. لأبو أبوك !

فعجبت لكلماتي غير أنني تناسيتها بسرعة ، ومضيت أشب على قدمي ، وأشرئب بعنقي ، أفتش في الطريق ..

ومن بعيد ، لمحت « أوش الله وبكر » يتأبطان كيسين ويدبان على أرض الطريق ، ومن خلفهما برعي ، يدفعهما دفعا وكأنهما معزتان صغيرتان جافلتان .

اقتربوا مني وهم يتلاحون في أصوات عالية برعي : بلا لكاعة .

بكر : تأخرنا ولا فائدة اليوم من تسلق الجبل ...

والتفت الى أش الله يطلب تأكيدا لكلامه الا ان برعي لم يترك الفرصة لأحد بل قال : ـ حامدليس في كيس كتبه قطعة واحدة من الجير .

فهززت رأسي أؤمن على كلماته ، فاندفع بكر يقول :

ـ سأهديه أنا قطعة ..

وأسقط هنا في يد برعي فصاح في ملل وغيظ :

ـ والخفاش .. أنا أريد خفاشا الليلة .. ويتبرع أوش الله يقول:

ـ في هذه الخرابة خفاش يطير في كل مغرب .

ـ أين !؟

ـ هنا ..

وأشار الى الخرابة الملاصقة لبيت داريا سكينة فانطلقنا جميعا بأبصارنا اليها وأوش الله لا يزال يشرح .

كان واضحا اننى وأوش الله وبكر وصالح جلق نخشى تسلق الجبل فى الاصيل ، فسوف تغيب الشمس وتظلم الدنيا •• ونحن على قمة الجبل أو عند سفحه • وقد نضل طريقنا •• أو تصادفنا الضباع والذئاب التى يقشعر بدنى حين أذكرها !

وأراد برعى أن يكذب أوش الله ويدفعنا دفعا الى الجبل الا أن شيئا بدا فى بداية الطريق جعلنا نتوقف ونطيل التحديق ••

كان مصطفى « تلميذ المدرسة » بشعره الناعم المرجل ، وطاقيته التى تنزلق الى الخلف وجلبابه البوبلين ذى الياقه يقبل علينا ، وقد أرخى لجام حماره الابيض الفارة والذى أسدل مصطفى على سرجه فروا طويلا بنى اللون يتدلى على جانبيه ••

لقد تبدل مصطفى وأصبح انسانا آخر غير الفتى الذى اعتدنا تمريغه فى التراب حين مشاداتنا مع أطفال « السواردة » •• تبدل منذ أن ترك الكتاب وهجر القرية •• وعبر المنحنى الشمالى الى الدر •• والتحق بالمدرسة الابتدائية هناك •• تبدلت ثيابه وعاداته • فلم يعد يجرى مثلنا فى الطرقات •• لم يعد يلعب فى النيل •• ولم يعد يشاركنا التهام قصاع الفتة فى « المياتم » بعد طقوس المرحمة •• لم نعد نراه الا يوم الخميس فى العصر أو يوم الجمعة اللذين يقضيهما أمام متجر أبيه ، متكئا على دكة طويلة يتصفح كتابا أو مجلة مصورة • وتبدل موقف الناس منه منذ أن أصبح حديثهم : الافندى جاء ، والافندى راح •• الافندى نام •• الافندى فى الحمام •• مشغول فى استذكار دروسه ! هذا الولد المفعوص الذى اعتدنا حشو فمه بالتراب أصبح مثل بركات افندى ، حديث القرية ، فالصغار يحسدونه أو يهزءون به • والكبار يتندرون بأقواله وافكاره الغريبة •• فالارض كروية •• هذه الارض التى ترتفع البيوت والجبال فوقها تدور وتدور دون أن تقع ! وهى كروية مثل الدوم أو البيضة •• يالله !! والعفاريت والجن لا وجود لهم •• والشمس حين تغيب لاتنام •• بل تصحو فى مكان أخر •• والقمر ساهر الى الابد !!

ولم يعد هو يبالى بنا ولا بالكتاب وشيخه • بل تناسانا جميعا منذ أن رحل •• وها هو يقترب ، وفى صدورنا يتكون شعور غريب بالتحدى والتطلع الى مساجلته وهزيمته ••ومعرفة كل شىء عن مدرسته •• فلماذا لا نلاقيه فى هذه اللحظة ؟ لماذا لا نعترض طريقه ونشبع فضولنا الدائب

الذى لا يمل ؟ ·· نفس الفضول الذى يتحرك فى صدرى وفى صدور كل الصغار ·

فى هذه اللحظة ماتت رغبة برعى فى تسلق الجبل ·· واطمأن بكر واوش الله وتغلبت أنا على ترددى ·· وقررنا ـ وكأننا لم نتشاجر منذ لحظة ـ أن نهجر رحلتنا وأن نبقى لحظات مع صديقنا القديم ·· فانتصبنا فى عرض الطريق نسد عليه السبيل ·

أخذ يدنو حتى توقف فجأة ، يقلب الطرف فى وجوهنا ·· وفى عينيه خوف بالغ تبدى فى اتساعهما وفى رعشـــة يده باللجام ·· ثم حاول أن يفلت منا الا أن برعى أمسك باللجام وهو يقول : علام العجلة يا مصطفى ؟ ·· تفضل ، فارتبك الغلام وتلعثم :

ـ ماذا تريدون ·· معى جوابات من البوستة ·

وقلت له ، وعيناى تنزلقان على هندامه وعلى جيبه الصغير :

ـ كيف حالك يا مصطفى ·· لماذا لا نراك ؟

وقبل أن يجيب انبرى بكر يهتف ، وهو يرمق السرج والفرو ·

ـ ولا حمار الملك ·· انزل حتى نمتحنك لنرى أينا أجدع ·· أنت أم نحن ؟ !

فتلفت الفتى من حوله ولم يجد مناصا ·· فترك السرج وقفز الى الأرض ·· ثم تخير مكانا نظيفا جلس عليه وهو يرمقنا بنظرات حائرة ، بينما استدرنا به خشية أن يفلت منا ، وران الصمت وبرعى يحدجه ، وأنا أتلصص على جيبه الصغير فوق صدره ، وفى الجيب الآخـر حتى أخذته الهيبة فسأل ·

ـ ماذا تريد ؟ ليســـت معى أية حلوى ··· فتلعثمت وأطـرقت برأسى أدارى خجلى وابتلع ريقى ·· ثم قلت هامسا :

ـ لا أريد حلوى ·· متى كنت آخذ منك ؟

ورفعت عينى الى وجهه أسأل :

ـ أين القلم الابنوس !؟ ·· انما أبحث عنه ··

ـ أبنوس ·· آه ·· فى المدرسة ·· فى « الدر » ·

فأطلق برعى ضحكة ثم صاح ··

ـ كذب ·· ليس عندك قلم أبنوس ··

ـ أنا كذاب ·· طب والله العظيم ·· أنا عندى قلم ··

ـ أبنوس ؟

ـ أيوه ·· أبنوس ··

ـ أسود مثل أبنوس بركات أفندى ؟

ـ أكثر سوادا منه ! ··

ثم تقدمت نحوه أرجوه :

ـ وحياتك يا مصطفى ·· دعنى أراه يوم الجمعة ·· أريد أن أراه ·

فرمقنى وهو يبتسم فى ارتباك وقال ·

ـ لا ·· لا ·· أنا لا أحمله معى أبدا ·

ـ ولماذا لا تأتى به لنراه يا ··

وقبل أن أنهى كلماتى انتهرنى برعى بينما انطلق بكر يقول :

ـ كيف وجدت الدر يا مصطفى ·· أهى أحسن من بلدتنا ؟

ـ ألف مرة ·

فاحتد برعى : اخرس ·· بلدنا أجدع بلد فى الدنيا ·· ناسها أجدع ناس ··

ثم طامن من صوته وهو يقول : وكتاب الشيخ طه أجدع من مدرسة الدر !

فتأمل الغلام وجوهنا وكأنه يسخر منا نحن البلهاء ·· ثم مضى يتكلم عن مدرسته التى تفضل الكتاب عشر مائة مرة ·· ألف مرة :

ـ فهناك لا نفترش التراب ونكتب عليه ··

ـ وعلام تكتبون اذن ؟ وأين تجلسون ؟ اننا لا نصدق ··

سؤالان انطلق بهما بكر وأوش الله ، أجاب عليهما الغلام فى هدوء :

نكتب على التختة بالطباشير ، وفى الكراريس بريشات معدنيه جميلة ·

وما هى التختة يا مصطفى ، والطباشير ؟ ·· فمضى يشرح ونحن من حوله ذاهلون ·· وهناك لا يمد التلاميذ فى الفلكة ·· ولا يأكلون اليخنى الذى ينفخ البطون بل يأكلون الصلصة والعنب ·

وسأله برعى : الا يضربكم أحد بالكرباج ؟

ـ اذا أخطأنا يفرك الشيخ مرسى آذاننا بأصابعه ‥ ويضربنا مكى أفندى بالمسطرة على أطراف أصابعنا ‥ وكذلك المصرى أفندى ‥

فقهقه برعى وصرخ فى نشوة :

ـ هنا ضرب ‥ وهناك ضرب ‥ كتابنا أجدع ‥

ـ ولكننا نتعلم هناك الجغرافيا والتاريخ والحساب والانجليزى !

ومضى يلوى لسـانه ، ويلوك الفـاظا غريبة كتلك التى لاكها عبده الفرنساوى ‥ والمستر هيس فى تلك الظهيرة بين أشجار النخيل‥ ثم سكت ليتأمل دهشتنا ، وعلى وجهه أمارات النصر ‥ كان يرمقنا وكأنه يقول : ألم أقل لكم : المدرسة أفضل من الكتاب عشر مائة مرة ٠

الا أن برعى تحداه وصرخ فى وجهه :

ـ وماذا يهمنا نحن ‥ لماذا نتعلم الانجليزى ‥ كلام نصرانى ؟

ثم اردف بعد صمت :

ـ وعلى كل فاننا نعرف الكلام النصرانى كما تعرفه أنت ‥

ومضى يلوى لسانه وهو يقول لى :

ـ خامد ‥ ييس يا خامد ‥

وقطب جبينه وهو يصرخ فى بكر :

ـ قلت لك « نو » يا بكر ‥ أما انت يا مصطفى فلست الا فاشيه ترانتاريه !

وخجل الغلام ونحن نغرق فى الضحك ‥ وتريث حتى عاد الهدوء٠ فقال فى صوت حانق :

ـ وهل تعرفون الكسور ٠

فقال برعى بسرعة : الكسور ‥ هاها ‥ كيف لا نعرف الكسور ٠ غشمم ‥ جبر الكسور على الله ‥ ها ‥ ها ‥ أهع ٠

وجاء دوره فضحك طويلا ثم استدار وهو يقول :

ـ أنا أسألكم عن الكسـور العشرية ٠ أتعرف يا حامد كيف تكتب ٥ر ؟

خمسة من عشرة المسألة أبسط مما تظن يامصطفى ٠ أتحسب أننى

لا أستطيع كتابتهــا ، أنا الذى كنت أتفوق عليك دائمــا فى الحساب ‥ عجايب !

ومددت يدى وسويت التراب وكتبت « خمسة من عشرة » وصحت ـ والباقى خمسة ٠

فأطلق الفتى ضحكته من جديد وقال :

ـ الكسور العشرية ! انك لاتعرفها ، حتى الشيخ طه لا يعرفها ‥

وبسط راحته على التراب وسواه وكتب الرقم بطريقة غريبة أذهلتنا جميعا ‥ ثم مضى يشرح معنى الـكسور العشرية والاعتيــادية ثم رسم خطوطا أخذ يضع نقطا فوقها هنا وهناك ‥

ثم تأمل الرسم لحظة وقال فى نشوة وزهو :

ـ هذه مصر ، وهذه هى اسوان وهنا الدر ٠

فغفر برعى فاه ، وانكببنا على الارض جميعا نسأله :

ـ وأين بلدتنا ؟

وأشار الفتى الى نقطة صغيرة وقال :

ـ هنا ‥

وحملقنا بعيوننــا وعدنا نســأله : وأين البيوت ‥ وأين الجزيرة والجبل ‥ وأين الكتاب يا مصطفى ‥ والنيل وأشجار النخيل ٠ ٠وقبة الحاج مكاوى ‥ اتحسب أننا نصدقك ؟‥ نقطة صغيرة مثل حبة القرطم نسميها بلدة ؟٠ اتحسب أننا معاتيه يا معتوه ؟

ولم يستطع برعى أن يحتمل ‥ بل بان الشر فى عينيه ‥ كما تحفز بكر وآوش الله يناوشــــان الفتى ويسبانه ‥ وهو يحاول أن ينفلت ليتعلق بلجام حماره ويهرب من حصارنا ٠

أما أنا فقد احسست بالاشـفاق عليه ‥ اذ امتلأ قلبى بحب كبير نحــوه ‥ وباعجــاب لا حد له دفعنى الى التنحى عن طريقــه ‥ وترك الفرصة له ‥ فانفلت من قبضة برعى الذى انطلق خلفه يريد أن يدفعه عن حماره لولا آن ظهر حسن المصرى عند المنعطف عائدا بركوبتنا من البئر القبلية عند نجع المحراب بعد أن سقاها هناك ‥ فقد أبى حمارنا دائما أن يشرب الا من مياه الآبار ‥ فاعتاد حسن المصرى أن يسوقه فى كل أصيل الى ذلك النجع ويعود به يمتطيه دون سرج أو فرو ٠

وبينما كان مصطفى يبتعد عنا توقفت أنا فى الطريق اعترض طريق حسن المصرى وأنا أهتف به :

– عم حسن .. اركبنى !

ولم أكن أدرى لماذا اعتاد حسن المصرى أن يضحك كلما سمعنى أردد هذه الكلمات.. كان يضحك ثم يستعيدنى ليعاود الضحك من جديد الا انه كان يردفنى من خلفه فى كل مرة ولا يتركنى الا أمام بوابة بيتنا الكبير ..

وتوقعت أن يتوقف بحماره ليردفنى خلفه . فاذا به يبتسم فى وجهى قائلا : ليس الآن فعندى مشوار أعود بعده !

فأخرجت له لسانى وعدوت خلفه أريد اللحاق به الا أنه ابتعد بسرعة وتركنى انهث مستندا الى عمود التليفون .. أراقب الآخرين ينصرفون .. وتنصرف معهم ظلالهم الطويلة التى ألقتها الشمس المائلة الى الغروب وتختلط بالظلال المديدة لاشجار النخيل وأعمدة التليفون والبيوت ومئذنة الجامع . حتى ظلال العصافير والحمام كانت تبدو هائلة تمتزج بالصور الغريبة التى انبرت تصرخ فى جوفى : مصطفى فى الدر وفى المدرسة ولا يمد فى الفلكة .. ولا يجبر على حفظ القرآن بالكرباج. مصطفى لا يكتب على الارض باصبعه بل يمسك بريشات معدنية للرقعة وللثلث والنسخ .. ويعمم كلماته بحروف التاج .. والصلصة الحمراء بدل اليخنى .. أتراهم يفترشون الارض فى الازهر ؟ أذكر أن الشيخ الرحمانى روى لابى مرة عن شىء مثل هذا فى الازهر .. أتراهم هنالك أيضا يمدون فى الفلكة ولماذا لا أذهب الى المدرسة مثل مصطفى الذى قال لى وهو يتعلق بلجامه :

– ابى كان يكلم اباك ويسأله : لماذا لا يذهب حامد الى المدرسة ؟

فسألته فى لهفة ؟

– وماذا قال أبى ؟

– سيبعث بك الى الازهر لتعود كما قال أبى مثل الشيخ الرحمانى الذى لا يعرف الا كرشه واناجر الفتة .

وددت لو بقى ليكمل حديثه معى .. الا أن برعى وملاحقاته دفعته دفعا . فاستحث دابته وانطلقت به فى اتجاه نجع السواردة ..

ومضيت أنا أقفز من ظل شجرة الى ظل أخرى وأنا غارق فى أفكارى الصغيرة بينما الشمس تردف نفسها خلف التــلال الغربية لتزف وتنام فى فراشها الرملى الوثير · كلا يا حامد ·· انها لا تنام بل تظل تحلق فى سماء أخرى ؟ كيف ؟ · ·عجائب يا مصطفى ·· فى المدرسة يمكننى أن أعرف ·· هــل الشمس تنام فى النيل أم تصحو فى مكان آخر ؟ وهــل الارض مثل الدوم كمــا يقول مصطفى ·· أم هى مبســوطة مثل سطح البيت ··

أمسكت هذه الدوامة بى · وأنا أمشى متثاقل الخطا بعد أن غابت الشمس ·· ولف المساء كل مكان فى النجع بظلامه الشفاف ·

وعند الباب وجدت « بطة » ترتفق كتف الباب وتحدق فى وجهى وهى تقول :

ـ أين كنت ؟·· أبوك عند جدتى ··

فقلت لها :

ـ وأنا مالى ··

ـ ملة تمل جنابك ·· انه ينتظرك يا قليل الحيا ·· تعال ··

وأمسكت بكم جلبــابى وأخذت تشــدنى وأنا حائر اتساءل : لماذا ينتظرنى أبى ·· وارتعشت من الخوف ·· فقد يكون الشيخ طه قد عاود شكواه منى ·· ولعل أبى يريد أن يعاقبنى بلسعات خيزرانته ؟

وودت لو أفلت كمى وانطلقت الى بيت خالى أستجير به ·· الا أننا كنا قد دلفنا الى الدهليز ·· ولم تعد هنــاك الا فرصة الافلات الى الفناء الداخلى ·· والفرصة متــاحة لولا بطة التى تتشبث بذراعى لا تريد أن تتركنى ·· فالمسرجة لا تنير الا الركن الذى فيه عنجريب جدتى ·· تلقى بنورها الباهت على وجههــا وعلى رأس أبى وعلى أمى التى كانت ما تزال منكفئة فى ركنها مطرقة ترسم خطوطها الازلية ·· كما أن أبى كان منهمكا فى حديث طويل مع جدتى ·· فلم ينتبها لدخولنــا ولا لوشوشاتى وأنا أعاند بطة وهى تعاندنى وتشدنى من ذراعى اليهما ·

وفجأة استطعت أن أخلص نفسى منهــا وانطلق لأعبر الدهليز ·· وأختبىء خلف الصوامع هنالك فى الفناء الا أننى ارتطمت بصفيحة فارغة عند الباب الداخلى فرفع أبى رأسه وصرخ :

ـ حامد ٠٠ تعال هنا ياحامد !

فأسقط في يدى ٠٠ ودفعت بطة في صدرها بشدة فراحت تشهق وتشكو بينما مضيت أنا متثاقل الخطا الى أبى أنحنى على يده أقبلها فجذبنى اليه وهو يقول :

ـ أين كنت ؟ برعى سيفسدك علينا ٠٠

وأردف بعد صمت :

ـ الشيخ طه يشكو منك ٠٠ لم تعد تحفظ شيئا ٠٠ بل تنسى كل شىء حفظته ٠٠

وخيل لى لحظة أنه سيطرحنى أرضا ٠ وينهال على بخيزرانته الا أنه تحول عنى وصرخ فى وجه جدتى :

ـ أنت تفسدينه ٠٠ تربية نسوان ٠٠ وعلى أنا اللوم ٠٠

فصاحت بحدة فى وجهه وعضلات وجهها ترتعش :

ـ أنا ٠٠ وأنا مالى ؟٠٠ خذه عندك فى بيت زوجتك !

وهنا رفعت أمى رأسها فى انكار شديد ٠٠وحدجت أمها بنظرة قاسية ٠٠ بينما واصل أبى حديثه :

ـ خذه عندك ! وكأنك ترضين ٠٠ الولد يضيع وأنت السبب ٠٠ أنت السبب !

وانعطف نحوى وأمسك برأسى وهو يهمس :

ـ لا تخف ٠٠ لكن عليك أن تختم القرآن لتلتحق بالأزهر ٠٠

وسكت هنيهة يتأملنى ثم قال :

ـ ستعيش هناك عند خالك عثمان ٠٠ فهو يحبك وان كان يكرهنى !

فصاحت الجدة تحتج :

ـ لماذا يكرهك ؟ حرام عليك ٠٠ أليست المسبحة الكهرمان التى فى يدك هدية منه ٠٠ ولماذا تحشو رأس الولد بهذا الكلام الفارغ ؟ أسأت معاملة أخته أم الولد فى مصر ٠٠ فغضب عليك عامين ثم رضى عنك ٠٠

ولم تعر أمى هذه الكلمات أى انتباه ٠٠ بل مضت تخطط فى الرمل كعادتها دون أن ترفع رأسها بينما انشأ أبى يقول :

ـ نهايته الواد لازم يروح الازهر ٠

وأردف بعد صمت وكأنه يقدم رشوة :

ـ البيت سجلته باسم حامد يا فاطمة ٠

ولوح لأمي بيد بينما الأخرى تعبث بالسبحة الكهرمان ، فلهجت جدتي بالشكر والدعاء لأبي بطول العمر أما أمي فقد اكتفت بحركة واحدة : رفعت رأسها قليلا وتفرست في أبي بنظرة لاهي بالراضية ولا هي بالغاضبة ، ثم عاودت الانكماش والانطواء على نفسها ٠

وترك أبي قصة البيت ، وعاد يؤنبني ويشرح لي أحلامه ٠٠

ـ يا سلام على الازهر ياولدي ، يا سلام حين تعود بالجبة والقفطان، فيقبل الناس يدك وأنت متكيء على المصطبة في أجازتك ٠٠

ونظر في وجه جدتي مليا ثم همس :

ـ ادعي لي يا ست عيشة بطول العمر الى أن أراه في هذا الزي ٠٠ ادعي لي أن يطول عمري مثل ابيك الحمزيلي ٠

كل انسان كان يتمنى على الله أن يطيل عمره مثل جدي الحمزيلي جد أمي والد جدتي عيشة ٠ رجل نحيل القامة حاد العينين٠ لم تتآكل سنة واحدة من فمه ، ورغم انه كان قد بلغ المائة كان ما يزال يتزوج ويزرع ويقلع في « عنيبة » ، وجدتي فخورة بأبيها ، تحبه وتزوره وتعود محملة بالهدايا في كل موسم ٠ وما أن ذكر اسمه حتى رفعت عينيها الى السقف ومضت تدعو له أولا ، ولنفسها ولأمي ولنا ثم لأبي في نهاية الأمر ٠

وهنـا كانت شقيقتي جميـلة قد أقبلت من المطبخ بفنجان القهوة لأبي ٠ فأحسست وهي تقف الى جواري بالأمن ، وشعرت انها ستقف الى جانبي ، اذا ما أفضيت بما كان يدور في صـدري ، ففي كل لحظة كانت الكلمات ترتفع الى حلقي ثم تحتبس نفسها هنالك لا تبارحه هاربة من وجه أبي ومن الأزهر أمنيته العزيزة ٠ في كل لحظة كانت صورة مصطفى ومدرسته ترتفع أمام عيني وتقف بيني وبين أبي كأمل اتطلع اليه ، بينما يتراءى لي هذا الأزهر الذي يتحدثون عنه خرابة واسعة ذات أعمدة متثلمة مثل « الكره نوج » يتحلق فيها جماعات معممة فاغرة الافواه والكروش تلتهم قصاع الفتـة في نهم وتتلفت هنا وهنـاك ، وتهشم ضلوع كلاب ذوات غرة بيضاء في رأسها مثل « لورد » جماعات تشبه الرحماني طولا

وعرضا . فى كل لحظة أصرخ صامتا : لا يا أمى ، لا يا جدتى ، أنا لا أريد الازهر ، بل المدرسة هنالك فىالدر مثل مصطفى وفوزى ابنعمدة ابريم. ابن عمدة وابن تاجر . أنا لست أقل منهما وليس مصطفى اشطر منى .

هذه الأفكار مع الخوف من أبى كانت تعتلج فى صدرى وتنضح على وجهى عرقا باردا لاحظته جميلة وانحنت على فى حنان الام ورفعت رأسى وأدارته الى الضوء ثم قالت فى صوت هادىء وهى تتأملنى :

ـ حامد .. أمريض أنت ؟..

فصرخ أبى فى وجهها :

ـ دعيه وشأنه . كفاه تدليلا ، انه ليس مريضا ، بل يفكر فى مصر وفى خاله وفى الازهر بعد أن يختم القرآن ..

لكنها أصرت على موقفها وانشأت تهمس :

ـ ألا ترون العرق على وجهه .. دائما يشكو من بطنه .

وبدأت تنصرف الى المطبخ وهى تهمس :

ـ سأعد لك فنجال حرجل !.

الا انى أمسكت بيدها !

ـ لست مريضا يا جميلة .. ابقى معى .. فأبى يحدثنى عن الازهر ..

فأذعنت وافترشت الارض بجانبى بينما مضى أبى يقول :

ـ ألم أقل لكما .. انه يفكر فى الأزهر وليس مريضا ..

ثم التفت فجأة الى بطة التى شرعت تفرك بالرمل اناء نحاسيا فقال يأمرها :

ـ انت يا بنت ، عليك بالحوش ودعينا نتكلم .. قلة حياء ..

فمطت شفتيها ولوت بوزها وانحطت الى جانب أمها تنفض يديها من التراب وترمق أباها بنظرات غاضبة ..

وعلى حين غرة وأنا أمسك بيد جميلة انفجرت الكلمات من حلقى فجأة وجدتنى اصرخ ، وأنا اتزحزح من مجلسى قليلا الى الخلف هاربا من مرمى عصاه .

ـ أبى .. أنا لا أريد الازهر !

وغلت الدهشة وجوههم وانبرى الرجل يقول :

ــ هيه ٠٠ ماذا يقول الولد ؟!

وتلعثمت وأنا أقول من جديد :

ــ لا أريد الازهر !

فضرب كفا بكف وأدار عينيه في لا شيء ثم صرخ :

ــ ما شاء الله ٠٠ ما شاء الله ٠٠ وماذا تريد اذن ٠٠ اتريد أن تعمل سفرجيا ٠٠ أو مرمطونا ٠٠ أو فلاحا في الارض ؟

وهنا صاحت بطة وقد رفعت رأسها واشرأبت بعنقها :

ــ جدع يا حامد ، بلا أزهر ، بلا مدارس ٠٠ دعه معي يا أبي في الغيط ٠٠ بلا مياعة ودلع وتعليم ٠

فرد الرجل عليها بغلظة :

ــ اخرسي يا بنت الـ ٠٠ غوري من وجهي ٠

فزامت لحظة ، وغمغمت ثم سكتت بينما انبريت أقول في صوت خافت كأنني أريد ألا يسمع الرجل كلماتي :

ــ بل أريد أن أدخل المدرسة ٠٠ مدرسة مصطفى ٠٠ في الدر ٠٠

فمد يده وصفعني فأطار صوابي فقبضت على حفنة من التراب نثرتها في وجوههم دون تمييز ، وانطلقت أعدو الى الفناء ، ومنه الى جذع النخلة التي ترتفع لصق الجدار الفاصل بين بيتنا وبيت خالي وتسلقته بخفة دون أن ألقي بالا الى لورد الذي أخذ يزوم ويخدش ساق النخلة بمخالبه ويهز ذيله كأنما يسألني :

ــ لماذا تهرب ٠٠ والى أين ؟

ومن جذع النخلة ألقيت بنفسي على سطح البيت ، وتكومت على حزمة من الدريس أبكي وأراقب من خلال سحابة الدموع هلالا باهتا كان يرتفع في السماء ، واصيخ السمع الى هدير أبي وتوسلات جدتي ، والى نداء بطة وجميلة اللتين اندفعتا الى الحوش تبحثان عني في كل ركن ٠٠

١٦

سارتا فى الطريق العام · والشمس ترتفع فوق البيوت ، وتبرق على قمم الاشجار ، وعلى كتفيهما فأسان ، وفى يديهما مقاطف من ليف النخيل · وعلى جبينهما امارات جد · وتوقعتا نهارا شاقا تقضيانه تحت وهج الشمس بين الحقول ··

وتعثرت الكبرى وكادت تنكفىء على الارض · ثم تماسكت وخلصت جلبابها الازرق الداكن الطويل من العاقول واستدارت تقول :

ـ شهلى ، فقد تأخرنا !

وترددت الاخرى لحظة ثم همست :

ـ ألا يعترض أحد علينا ؟

ـ كلا يا ابنتى ·· اتفقت مع الجزار ليلة أمس ، والبسطاوى وعد بمساعدتنا ··

فمنذ شهر قررت داريا أن تزرع قطعة أرض ·· فراحت الى الدكان وجاءت تستعطف أبى ليخلى بينها وبين قيراطيها المرهونين حتى يئست ·· فلجأت الى عبد الله الجزار :

ـ ديونى تراكمت يا عبد الله ، ولاشىء فى البيت ، اعطنى قيراطين أزرعهما أنا وابنتى ·· لو كان جمال هنا ··

وتأملها الرجل قليلا ثم قال :

ـ أنت تزرعين !؟

ـ لماذا لا أزرع ·· أنت تعرف أننى كنت أزرع أيام المرحوم ··وقبل أن يسافر جمال ·· القيراطان كنت أزرعهما قبل ان يأخذهما التاجر ··

ـ ومن أين أعطيك الارض ؟ الارض ضيقة ياولية !

ثم اطرق قليلا بينما راحت تهمس :

ـ المرحوم قريبك ، وشريفة ابنتك .. استرنا .. ربنـــا يستر ولاياك .

ورفع الرجل رأسه وكأنما قرر شيئا ، وأشار لهما الى قطعة أرض صغيرة تنطرح خلف الجدول الكبير .. بالقرب من ساقيتنا .. قطعة أرض غائرة بعد أن اتخذت معجنا .. تنضح الاملاح على ســـطحها ولا تنبت الا العاقول .. قطعة تلاصق أرضه ومن أملاك زوجته .

وفرحت « داريا » وعادت فى جنح الليل الى بيتها بعد ان استعارت فأسين من حسن المصرى .. وانهت الى ابنتها بالبشرى ..

وها هما تدبان على الطريق ، تريدان ان تنقلا طينا من الجرف الى قطعة الارض الغائرة ..

وتساءلت شريفة :

ـ ترى هل يساعدنا برعى أم انه سيغضب .

ثم أفاقت على صوت امها الضاحك .

ـ من أجل عين تكرم ألف عين يابنتى ! ..

البسطاوى يريدك ..

وصمتت الفتـــاة . وغرقت من جديد فى أفكارها الحائرة ، وحسن المصرى ، ألا يساعدنا ؟ كلا .. انهم جميعا مشغولون لشوشتهم فى هذه الايام .

وتنحت « داريا » عن الطريق وتبعتها شريفة ، فمن حولهمـــا كانت قوافل من الحمير تروح وتجىء بين الحقول وسفوح الجبال وحظائر المواشى .. تنقل السباخ البلدى من هذه الحظائر .. ومن الأنقـــاض الأثرية القديمة المنتشرة عند السفوح ، ومن خلفها اطفال يهشونها بعصى صغيرة من الجريد الاخضر ، وعلى وجوههم عرق يختلط به الطين والغبار والذباب. وعند كل حقل كانت بعض الحمير تتوقف وتلقى بأحمالها ثم تعـود ومن خلفها او على ظهورها نفس الاطفال يستحثهم آباؤهم الذين أخذوا منذ الصباح ينحنون ويهوون بالفئوس ويخربشون الارض ويعزقون ويسوون ما بين البتون والجسور ويرممون الجداول الكبيرة والقنوات الصــــغيرة المطموسة ..

ثم عاودتا سيرهما لا تنبسان بكلمة حتى حاذتا الرجال الذين كانوا يكدحون لا يبالون بسياط الشمس ، تفكران فى العمل الشـــــاق الذى ينتظرهما ٠٠ والارض من حولهما كانت ماتزال ترقد متشققة عارية ٠٠ وليس فيها الا العاقول والشوك البرى والنجيل ٠ وأعشاب برية لايقطع عليها السبيل الا شرائح صغيرة هنا وهناك من الباذنجان وأحواض الفجل والبصل الاخضر والخس بأوراقه العريضة اللامعة فى وهج الشمس ٠٠ وخافت داريا أن يشمت فيها الرجال ٠٠ فمضت تتلفت اليهم ، تلقى بالتحية ، تداعبهم وتعرض عليهم المساعدة فيضحكون ، بينما زمت الفتاة شفتيها كارهة لمداعبات أمها وغزل الرجال فيها ٠٠

ـ كيف الحال يا أمين ؟

ـ الله ٠٠ ستزرعين يا داريا ؟

ـ زرعى سيكون أجدع من زراعتك !

ـ باذن الله ٠٠ لو اشتغلت ٠ لكن قطعة الارض مالحة ٠

وأردف حسن المصرى :

ـ لو كان فى الغراب خير مافاته الصياد ؟

ـ غراب ٠٠ يا غراب البين ٠٠ بدل الهذر تعال ساعدنا ٠٠

ثم انحنتا على قطعة الارض الغائرة ، ومضتا تغالبان الملح بمقاطف من الطين والوحل تجلبانه من الجرف ٠

وبين كل نقلة وأخرى من السباخ كان البسطاوى يمنحهما نقلة من الطين الاسود ٠٠ يرشدهما الى العزق والتبتين ٠

ومضت داريا تشمر كمها الواسع وجرجار جلبابها وتمسك بالفأس وتتأفف ثم تبصق فى راحة يدها وتهوى بالفأس وتتوقف لتلهث ثم تعود الى العزق والتسوية فى سرعة ٠٠ حتى يتعب قلبها فتتوقف قليلا ملقية برأسها الى الخلف بينما تستند بيدها على مقبض الفأس وتتأمل الرجال من حولها وتتنهد :

ـ شريفة ٠٠ استريحى يا ابنتى ٠٠ لو كان جمال معنا ؟

قزرت الفتاة عينيها وراحت تهوى بالفأس وكأنها لا تسمع كلمات امها :

ـ قلت لك استريحى وامسحى العرق الذى يسيل على وجهك ٠٠

– ألم تقولى اننا سنزرع ؟

– ولكنك تهلكين نفسك يا ابنتى ٠٠

– أمر الله ٠٠ ماذا نفعل ٠٠ ارادة ربنا ٠٠

وجالت الام بعينيها ٠٠ تعجب للحماس والنشاط اللذين دبا على الارض من حولها : برعى ينحنى ويقوم فى سرعة ، لايبالى بسياط الشمس ولا بالعرق ، ومن خلفه أبوه يسوى ٠٠ بينما أمه تبـــذر القمح والفول والشعير ، ومحيى بن الشيخ جعفر يجرى خلف أبيه هنا وهناك ٠ يرقع الارض بأكوام من السباخ يتصاعد الغبار منها ، وبطة تبتن وتسوى الجسور ، بينما حسن المصرى يرسل أغنيـاته الصعيدية ، والفأس تتأرجح فى يده وكأنها قطعة عصا رخوة ٠٠ يطوح بهـــا ، والشيخ أمين يخبط خبطتين ، ثم ينهض ويتكىء على مقبض الفأس تماما مثلها ، ويمسك بخاصرته وأنا أجرى اليه أخبط خبطتين ثم أمسك بخاصرتى مقلدا أبى ، فتضحك داريا وتعود الى اجهاد نفسها ٠ فتمل ثم تراقب شريفة وتفكر فى الشتاء وليالى الجوع فيعاودها الحماس فتنحنى من جديد ٠

حتى أحمد عودة رأته يقفز من فلوكة أقلتــــه من الجزيرة وقدماه ملطختان بالطين وعلى كتفه فأس ٠

ومر بهما وهما غارقتان فى العمل :

– هيه ٠٠ داريا ٠٠ ماذا تفعلين ؟

– ازرع يا أحمد ٠٠

– عال ٠٠ ماذا تزرعين ٠٠ أعندك تقاوى ؟

– كيلة قمح أخذتها من خالك الشيخ أمين ٠

– الله ها الله ٠٠ يظهر ان خالى يريد أن يتزوجك ٠

– ولماذا لا تتزوجنى أنت ؟

– نتزوجك نحن الاثنين ٠٠ كلا ٠٠ بل يتزوجك هو وأتزوج أنا هذه !

وأشار الى شريفة فأطرقت وأشاحت بوجهها بينما راحت أمها تضحك وهو ينصرف بعد أن شجعها وارشدها الى مكان عند السفح تجلب منـــه السباخ ٠

***

التعب والارهاق يشمل الرجال والنساء والاطفال ولكنهم سعداء ٠٠ ولا يخلو الجو من دفء يرسل نقراته ٠٠ وأغنية عمل يتردد صداها بين أشجار النخيل ٠٠ وصيحات يرسلها عم رمضان نجار السواقي ، وهو يشد ضلوع الساقية بسيور من الجلد نداها بالماء منذ الليل ٠

على الجباه آثار تعب ولكن العيون تبرق بفرحة غريبة ٠٠ ببهجة تدفع الى العمل والى مزيد من الارهاق ٠

فكل رجل وكل امرأة كان يمكنه أن يتخيل حبة القمح التى يبذرها وقد رواها الماء وشدتها حرارة الشمس لتنبثق وتشق الارض برءوس خضراء صغيرة ، كل انسان كان يمكنه ان يتخيلها وهى تنمو وتستوى على سوق نحيلة ، وتهز رأسها للنسيم ، ضاحكة مثل الاطفال ، ثم تشب عن الطوق فتشتد عيدانها وتتراقص فى الغيطان ـ فى اتجاه الريح ـ أمواجا خضراء متلاحقة ، ثم يكتسب حفيفها خشونة وبحة تختلط بصرير الجنادب ونقيق الضفادع ، نشوى بنسيم الليل وندى الصباح ، ثم تبرز سنابلها كالنهود تمتلىء باللبن ٠٠ يتحول مع لفح الشمس الى حبيبات دهنية متسقة فى ابداع ترسل شواربها الابرية الدقيقة وتتطلع الى السماء ٠

وتبلغ النشوة مداها عند فضيلة ، وآسيا المولدة وأصيلة ٠٠ عند كل طاعن فى السن أو صغيرة مثل شريفة وبطة ٠٠ عند كل امرأة أو فتاة حين يتصورون الحب الذى يبذرنه فى الأرض المعزوقة حبوبا وفيرة يفصلنها عن التبن بالتذرية ، ويطبقن عليها الرحى ٠٠ يحولها الى دقيق ناعم يعجن فى المواجير الفخارية ٠ ويدحى على الدوكة فطائر لذيذة تقدم فى الصباح ، يحف بها فى السلطانيات لبن يشوب بياضه الطازج عسل البلح بحمرته الداكنة ، فيغرزن فيها الايدى دون رفق ، ويلعقن الاصابع ويمصمصنها فى حمد وشكر لله ، أو يفتلن هذا الدقيق ٠٠ « شعرية » جميلة يقدمنها للرجال فى السحور من كل رمضان ٠

كل حبة تبذر ٠٠ كل فأس تهوى ٠٠ كل جدول يرمم ٠٠ كل حبة عرق تلمع على الجباه تتحول الى أحلام وردية تدفع الايدى والاذرع ، وتقيم الاصلاب ، فيندفعون ، لايكادون يستريحون لحظة واحدة ، حتى داريا وشريفة اندفعتا فى حماس بالغ ٠٠ تردمان وتسويان التراب ٠٠ كادتا تسقطان من الاعياء لولا برعى الذى انتهى من عمله وقدم لهما يد العون ٠٠ حتى حسن المصرى هوى بفأسه فى شريحتها الصغيرة يساعدهما ٠٠ فمصمص أبي شفتيه وحاول أن ينتهره لولا أنه انشغل عنه بمشادة صغيرة

بين حجوبة وبطة كادت تؤدى الى نفس النزاع القديم ففصل بينهما وأمر حجوبة أن تعود الى البيت بصغيرها محمود ، الا أنها تشبثت بموقفها من الارض ٠٠ فهى تحب الارض وتعشقها وتتأملها وهى تعزق وتعانى ، وتقضى فيها الساعات وهى تخضر ٠

ولاحظ أبى عنادها فتركها ثم امتلأت عيناه بالدهشـــة وهو يرى الشيخ فضل يتجه الى الجدول الكبير ، يتوكأ على عـــكاز ويزك بساقه الجريحة ، فمضى يراقبه فى حزن حتى حاذاه فابتدره غاضبا :

حرام عليك يافضل ٠٠ لماذا لا تستريح ، ساقك يافضل ٠٠

ولم تتحرك شفتا فضل بكلمة بل تقلص وجهه ٠٠ ولوح بيده فى وجه أبى ٠٠ ومضى يزك الى أن جلس على حافة الجدول الكبير يتمتم :

ـ دنيا !!

ثم غرق فى دوامة أفكاره الحزينة بعد أن أشار على برعى بترفيع شريحة من الأرض ازدادت ملوحتها ربما قال لنفسه : أنا طريح الفراش وغيرى يعمل ٠٠ حتى داريا وشريفة تعملان ٠٠

وسقطت دمعة ساخنة على ظهـر يده مسحها بسرعة ٠٠ وعاد من جديد الى أفكاره ٠٠ منذ عام ، منذ عشرات السنين عاش فضل على هـذه الارض يفلحها فتجود بما لا تجود به أى أرض ، فليس فى القرية كلها بل فى كل القرى المجاورة رجل له مثيل خبرة فضل فى الأرض ٠٠ هو الذى اعتاد أن يجوس فى الأرض يتأملها ليقول فى ثقـة : أريحـوا هـــذه الشريحة ٠٠ ازرعوها فولا ، وهـذه شعيرا ٠٠ أما التى على يمين الجدول فازرعوها قمحا ٠٠ لا بد من تسميد هذه الشريحة قبل الجـدول بالرماد وبتراب الكفرى ٠٠ هذا السباخ لم يخمر ويقلب !

فضل قعيد الدار ، يزك بساقه ، وهو الذى لم يمسك أحد بالفأس ولم يهو بها أحد على الأرض بالسهولة ولا بالحذق اللذين تعود أن يهوى بهما على الأرض ٠ هو الذى لم يشرب الخمر ليسكر بل اكتفى برائحـة الأرض المحروثة ٠٠ يعبها فى رئتيه فيسكر ٠٠ وبالماء يترقرق وينزلق من الجداول الكبيرة الى القنوات ، ويتأمل النبت الجديد الأخضر يشق الأرض وينمو ويتماوج فى قبضة النسيم ٠٠

أما الآن ٠٠ الجميع يشفقون عليه وينصحونه ٠٠ وليس فى مقدوره الا أن يتكىء علي المصطبة الداخلية ويتحرق شوقا الى الأرض والى العمل

•• فلا يستطيع أن يتحرك ، فينتظر وينتظر الى أن تعود زوجته فضيلة ، وتقص عليه قصة الحرث والعزق والجداول التى وسعت ، فيعنفها ويشير الى أخطائها دون ما خطأ تشعر به ••

ـ دنيا !

قالها ورفع رأسه ليجد أبى يطل عليه فى حزن ثم يقول :

ـ تعشق الأرض يا فضل •• تموت فيها مثل أبيك ؟

فمضى فضل يقلب الطرف حتى استقر به على شريحة طرح البحر التى قام النزاع بسببها •• فوجــــدها مهملة •• فقد تم الاتفاق على ألا يزرعها أحد الى أن يفصل فى الأمر •• هكذا أمر العمدة ••

وغاظه أن يجد الأرض السوداء الخصبة ترقد كما ترقد امرأة عقيم ، فتحسر وأرسل تنهيدة روعت أبى فأسرع يهمس :

ـ لا تثقل على نفسك يا فضل فالأرض لم تعد لنا نحن !

فانتفض فضل يسأل :

ماذا تقول ؟

ـ الأرض سجلها بركات أفندى فى دفاتره ، الطوفان ••

ثم صمت وكأنه يغالب حزنا ثقيلا يرين على قلبه وأردف :

ـ سجلوها كما تسجل الوفيات فى الدفاتر •• آخرة الدنيـــا وما الفائدة ؟ ولماذا نجهد أنفسنا ؟

وألقى بالفأس بعيدا فى يأس ، وانطرح على الارض الى جانب فضل الذى أنشأ يقول :

ـ احمد الله يا أمين •• احمده يا شيخ !

ـ الحمد لله •• نشكر فضله ••

ـ فضله كتير عليك •• فان لك متجرا باسم الله ماشاء الله يدر عليك وعلى أولادك خيرا •• زادك الله من فضله ••

ولوح أبى بيده وهسهس :

ـ وما فائدة المتجر لو جاع النـــــاس •• واذا ما ضاعت الارض والنخيل •• بم يشترون •• بم يسددون ديونهم ؟!

ورمقه فضل فى نظرات مشفقة تقول :

ـ معك حق ..

ثم مد يده الى ساقه وتحسسها ثم أرسل آهة قال بعدها :

ـ أخشى من السوس يا أمين ..

فصاح أبى على الفور :

ـ سوس ! لا تيأس من رحمة الله يا رجل . جرح .. كسر بسيط ثم تحدثنى عن السوس .

ثم مال برأسه وأردف :

ـ ولماذا لا تسافر الى مصر ؟

ـ مصر ! ماذا أفعل هناك ؟!

ـ الأطباء .. الحكما ..

ـ الطبيب الله يا أمين .. ماذا أفادوا زوجتك فاطمة .. اتكل على الله من دون عبيده !

وتنهد أبى فى عمق وهو يتذكر أمى وامراضها المستعصية . وانصرف فضل عنه يصرخ فى حسن المصرى :

ـ أترك هذه الشريحة .. لاتبذرها قبل أن تسبخ بالرماد ..

وأراد حسن أن يداعب « فضل » فاتجه اليه وهو مايزال يبذر القمح ، فاستشاط الرجل غضبا وحاول أن يقوم اليه لينتزع منه مقطف البذور ..

ثم راحوا جميعا يقهقهون وهم يتفرسون فى أقدام تتدافع من الارض الزراعية الى السكة العمومية الى الشاطىء ..

وضحك فضل فى سخرية وصاح :

ـ الافيون ! مسكينات ! ..

فان كل امرأة فى الغيط كانت تلقى نظرة واحدة على الرجال ثم تلقى ما بيدها وتلتقط أية قصاصة من الورق تصادفها ، تطويها وتدسها فى صدرها .. ثم تسرع الى الجرف تسدل طرحتها على الرأس والنحر وتمسح وجهها بيدها وتنفض الغبار العالق بثيابها وعيناها ترمقان شراعا أبيض يخفق من خلال الأشجار ، فوق سفينة بيضاء صغيرة مزدانة بالبيارق

الملونة والأجراس الصغيرة المصلصلة ·· الشراع مرخى الشاغول واللبان، والمدراة ملقاة على الشاطىء ·· والدفة منعطفة الى الغرب بينما المقـدمة جانحة على الشط ·· وفوق مقبض الدفة « تندة » مستطيلة بيضـاء بزيق أحمر ·· يدور حولها شراريب صفراء تنتهى بخرز رفيع لامع ··

ومن تحت التندة نقر دافىء على الدف وصوت رخيم يرسل أغنية شابة تنداح خافتة على الماء فتجعد صفحته ·· أغنية صفقت لها العصافير بأجنحتها ثم حطت على الصارى ترمق التندة بعيون خرزية ·

وعلى الموردة أمام السفينة تجمعن : كل واحدة تدس قصاصتهـا فى صدرها ·· وتدس أحلامها فى قلبها المكدود ، وتنسى ارهاق العمل لحظة ·

وتنبرى أصيلة وتنادى :

ـ هيه ·· لماذا تختفى تحت التندة ؟

فلا يجيب أحد ، بل تتصل الأغنية ، فترمقها الأخريات فى عتاب ، ثم ينفد الصبر فتنبرى أم سعدية تنادى :

ـ أنت يا حسين ·· يا حسين يا فييس يا فشار أأنت نائم ؟!
فتسخر واحدة منهن :

ـ نائم !! يالك من عبيطة ·· ألا تسمعينه يغنى ؟

ومضين يستمعن :

انت يا سـمراء مثـل الليمـون
أنت يا رقطـاء الفـراش
اسـمعينى ضحكتك العـذراء
لترتد روحى فاننى أمـوت
أموت يا رقطـاء ·· أمـوت

النقر خافت والآهة حرى ، والصوت عميق يسرى ويتسلل الى القلوب، الى الروح كما يسرى الخدر اللذيذ ··

وسكت الصوت ، ورفع باب التندة ، وبرزت يد سمراء دقيقة ·· ثم رأس ·· ثم رجل خطا خطوتين وتوقف على حافة السفينة يرمقهن فى فضول واعجاب ·· وظله يرتمى على صفحة النيل ··

بدا فى وقفته على حافة المركب رجلا فى الأربعين ، أسود اللمة الا شعرات قليلة بيضاء ‥ مستدير الوجه ، حاد العينين ، متوسط القامة ٠ على رأسه عمامة عليها شملة داكنة الحمرة تتدلى على الكتفين وتنطرح على الصدر معقودة الطرفين ‥ تحت الشملة جلباب مفتوح على الصدر ، ينسدل فى اتساع ، بألوانه الزاهية حتى يغطى صفحة مداس لامع الحمرة فى قدميه ‥

وبرز حسين فبيبس من تحت التندة ‥ وانتصب على حافة المركب يرمقهن فى اعجاب ٠

وتبسمت كل واحدة حين برز اليهن فأخذن يداعبنه فهو معروف فى كل نجع ‥ يملأ مركبه بالفلايات والمناديل وعصائب الرأس ‥ وأنواع العطور والعطارة ، يتوقف بها عند كل موردة ، فيقبلن عليه فى لهفة ويشترين ويدفعن فى الحال أو يؤجلن الى موعد آخر ٠

ولكن أحلى وأعذب سلعة يبتغينها عنده كانت تندس فى حلقه وفى ذاكرته العجيبة وفى عذوبة لسانه ٠

كان الرجل يعرفهن جميعا : يعرف أحزانهن والأحداث التى جرت لهن ، فينسج لهن منها أحلاما وردية جميلة ، يسكبها فى الآذان مسجوعة فتخلب اللب وتبعث النشوة فى النفوس ٠

وأنشأت واحدة منهن تقول :

ـ سلام يا حسين ‥

فلم يجب ، بل راح يتفحصها بعناية ليقول فى نهاية الأمر :

ـ ما شاء الله ‥ ألم يأت العريس بعد ‥ جمالك زاد وفاق كل جمال !

فرن الشاطىء كله بضحكات ناعمة بينما أطرقت هى لحظة انغمست بعدها فى الضحك تجارى الأخريات ، فليست الا عجوزا تطبق شفتيها على خواء وتمضغ الكلمات مضغا يجعلها مثار تندر الأخريات ‥ قالت :

ـ لا يا حسين ‥ لم يأت بعد ٠ أمر الله !

وترددت قليلا ثم أضافت :

ـ لماذا لا تتزوجنى أنت يا حسين ؟!

فضحك وهتف بها :

ـ فى المرة المقبلة .. اسأل أبى وأرد عليك !

ثم التفت الى أم سعدية ، والى ورقة أبرزتها له ، فمد يده عبر الماء وتناولها وهو يقول فى نشوة :

ـ عال .. جواب .. سأقرأه لك ..

ومضى يقلب الورقة ويدقق النظر فيها ، ويعرضها لضوء الشمس ثم هتف فى ضجر :

ـ نبش فراخ .. مغفل هو الذى كتب الجواب .. نهايته سأقرأه لك ..

وجلس على حافة المركب وفرك عينيه ومسح عليهما بطرف شملته وانطلق يتلو كلمة كلمة ، فى لغة نوبية مسجوعة ، يرفع صوته لحظة ثم ينخفض به الى وشوشة خافتة ، ويرفع عينيه حينا ، يجول بهما على الوجوه المحيطة به فى شغف ، وعلى العيون العالقة بشفتيه :

ـ يا روحى يا جنتى .. سأعود .. سأعود مهما طال الزمن ، لأتربع من جديد فوق العنجريب .. لتتشابك ساقانا فى جنح الليل والأطفال نيام .. يا جميلة مثل نوار الفول ، يا جرة العسل المصفى ، يا زبدة حياتى ، كم أحن اليك .. أنا ظمآن .. ظمآن وكاسات الخمر لم تعد تشبع حسى .. تذكرى أيامنا تحت أشجار النخيل .. قبل الزواج .. كم كانت جميلة يا نور عينى .. لا تيأسى فسوف أعود لنسترجع أيامنا الخالية ، يا حمامتى الوادعة يا بلطية النيل الهائمة .. يا سمراء قلبى ..

وبدت أم سعدية ، وهى تستمع الى هذه الكلمات وكأنها تعيش فى حلم : غائمة العينين ، منفرجة الشفتين ، ويدها اليسرى ممدودة معلقة فى الهواء ..

مسكينة .. تعرف أنه ما من جواب يصل الى زوجة أو الى أية فتاة فى القرية بمثل هذه العواطف الجميلة المنمقة .. تعرف أن زوجها لم يبادلها كلمة حب واحدة .. تعرف أنه لم يصلها منه جواب .. ورغم ذلك فها هى تهيم فى الأحلام ، وتنتشى .. والأخريات من حولها يتغامزن عليها الى أن يأتى دورهن فتتغامز هى عليهن ..

وتقدمت أصيلة بقصاصتها .. حتى سبيلة زوجة المأذون والتى

تعيش معه ليل نهار تقدمت بجواب أخذ حسين فيبيس يقرأه وينسج لها أحلاما وردية جميلة ‥ ثم ألقى بقصاصتها الى الأرض فتلقفتها ونظرت فيها فاذا بها قطعة ممزقة من المقطم تنعى رجلا فى الفيوم ‥

وأفاقت على ضحكات وصرخات فان حسين فيبيس كان قد التفت فجأة الى « داريا » يقول لها :

ـ مالك تمطين بوزك ‥‥ أهو لا يريد ؟ · المغفل من الذى يراك ولا يريد ؟ ‥ تعالى هنا تحت « التندة !! » ‥

وارتسمت ابتسامة واهنة على وجه « داريا » ، ثم تراجعت الى الخلف وكأنها تخشى أن يقفز اليها ويضمها الى صدره ويعبر بها السقالة الى المركب تحت التندة ‥ ولاحظ هو حركتها وهتف ضاحكا فى سخرية :

ـ آه اننى أرى ‥ ما هذا التبن العالق بشعرك ‥ مغفل ‥ قلبك على ظهرك فى حاصل التبن ‥ أو فى مربط حمار ‥

وأردف بعد ضحكة عالية رنانة :

ـ مسكين لم يستطع الاحتمال ‥

ومدت المسكينة يدها دون أن تشعر الى شعرها تزيل التبن عنه، التبن الوهمى الذى خلقته خيالات حسين فيبيس ‥ وأحجمت فلم تتقدم بقصاصتها · وراحت تراقب وجه فتاتها شريفة التى توارت من الخجل ·

وظل حسين ساعة أو تزيد يسكب فى آذان النسوة أنفاسا جميلة وأحلاما وردية ، تذكر كل واحدة بأنوثتها المهدرة المهجورة بعد أن تغيب الرجال وارتحلوا منذ سنوات ، فتتخيل أنامل الزوج على فخذ جفت عصارته ، تتخيلها فى الكلمات العطرية الدافقة من بين شفتيه ·

وانتهى صف النساء من جواباتهن ‥ ولم تبق الا « داريا سكينة» التى مضت تقبل وتحجم بعد سخريته اللاذعة ‥ فنظر الرجل اليها مليا ثم استعد لفتح صناديقه لتشترى كل واحدة ما يروقها من فلايات وزجاجات عطر نفاذ ؟ الا انها استوقفته ودفعت اليه بورقتها الصغيرة فقلبها وعرضها للشمس ثم اعتدل فى جلسته وأخذ يقرأ :

« أمى الحنون ، أمى التى أعبد وأطيع ‥ أمى يا أحسن أم فى الدنيا

.. سأعود عما قريب .. لا تصدقى تخاريف حسين النجار . اننى لم أتزوج لا بيضاء ولا سمراء .. سأعود يا أمى الحنون . لقد كبرت شريفة .. زوجيها من رجل شهم مثل حسين فيبس » ..

« جمال »

والتصقت بهـــا شريفة بينما مضت هى تشرب الكلمات وتغرزها فى قلبها ، وتنتشى بها وتسكر : اذن فانه لم يتزوج !! يخرب بيتـــك يا حسين النجار .. لماذا تكذب ؟ .. لا بيضاء ولا سمراء .. سيعود .. سيعود يا شريفة !

وتنسى زمانها ومكانها وتهيم وتتأمل ولدها الحبيب عائدا يرتمى بين أحضانها ، ويملأ دنياها بالأمل والبهجة . متى .. متى يا ولدى جمال ؟! ..

ويعود حسين فيبس الى مزاحه .. ويأخذ فى عرض بضـاعته : الصندلية والجاولى ، والفلايات الحديد ومشابك الشـــعر والغســـيل والصابون الفرنساوى .. وعصائب الرأس والطرح الملونة من ماركة .. أم التاجر .. فتشترى أم سعدية شيئا وهى ما تزال هائمة فى أحلامها الوردية ، وتبتاع فضيلة شيئا آخر وتنفصل لتعود الى الغيط وتتبعها داريا وابنتها . وتتجه فورا الى فأسها . وتهوى بها من جديد على شريحة الأرض .. تردم وتسوى بينما يراقبها حسن المصرى ، ويتأمل حركاتها وانحناءات قوامها ، وهو يتكىء على مقبض فأسه ..

ويأخذ الشيخ فضل فى السخرية منهن ، فلا يبالين بل ينهمكن فى العزق والتبتين ، لا يبالين به ، فانهن يعرفن الرجال وكيف يهزأون بهن عاما بعد عام ، حين يحل حسين فيبس فى النجع ، ويبيع لهـــن أحلام الورد والعطر والمناديل من مختلف الألوان ..

انهم يسخرون ويتركونه ينصرف بمركبه . ثم يحل المســـاء ، فيهرعون اليه ، يلتمسونه فى مرافىء النجوع الأخرى ، ويســـهرون معه ، يغرقون آلامهم وهمومهم وخوفهم من الطوفان فى نفاثات البانجو وكئوس العرقى ثم يعود كل رجل الى بيته وقد قبس منه مرحا تستطيبه كل زوجة عندما ينتصف الليل ..

١٧

رفع أحمد عودة رأسه وتأمل النتيجة المعلقة على الحائط وطوى الدفتر الطويل وأسند القلم الكوبيا خلف أذنه ، ونهض الى الجدار ، ورطب بلسانه اصبعا امتد به الى النتيجة ، وقطع الورقة الأخيرة من شعبان وتمتم وهو يستدير لأبى :

ـ رمضان ٠٠ غدا نصوم ٠٠

فيعبر أبى بنك الزنك وهو يمسح الزيت العالق فى يده بخرقة بالية طوح بها بعيدا ثم قال :

ـ على خير ٠٠

ثم جال بعينيه فى المتجر وتأسف على رفين خاليين ، وتطلع الى « داريا » التى استندت الى كتف الباب وفى عينيها دموع فصرخ فيها

ـ لولا رمضان يا داريا ٠٠

ـ الله يخليك يا أمين ٠٠ البنت طرحتها مثل المنخل ٠٠

وصمتت هنيهة لتضيف فى لهفة :

ـ مسكينة ٠٠ الصداع يشق رأسها ٠٠ لم تشرب شايا منذ الليل ٠٠

فانشغل عنها أبى بأوراد يتلوها فلم تنصرف بل تعقبته :

ـ وجمال لن ينسانا يا أمين ٠٠

فقطع الرجل تلاوته وقطب جبينه وزوى مابين حاجبيه وهتف لها :

ـ دائما جمال ٠٠ جمال ولا خبر عن جمال ٠٠ كلام فارغ !

وعادت هى الى كتف الباب تعتمد عليه وفى صدرها احساس بالاغماء ٠٠ وفى قلبها حزن ينغرز الى الأعماق ٠٠ فتغالب دموعا تصعد الى العين فلا تنجح بل تطلقها فى صمت دون أن تعول ٠

وران الصمت لحظة قطعته هى بكلمات متهدجة :

ـ الدنيا رمضان يا أمين ٠٠ اتق الله فى الشهر المفترج ٠٠ لماذا أصبح قلبك كالصوان ٠٠ لماذا ؟

وتلفتت الى أحمد عودة تستعطفه :

ـ خالك يا أحمد ٠٠ كلمه وحياة أمك خديجة ٠٠ كلمه ٠٠ ما الذى جعله يتبدل ويقسو علينا ، كان المرحوم صاحبه بالروح ٠٠

وقبل أن يفتح أحمد فمه ارتفع صوت أبى :

ـ مثل الصوان ! عجائب ! ٠٠ تحسبيننى أعمى يا وليه ٠٠

فصاحت على الفور : بعيد الشر عنك يا أمين ٠٠

فلم يبال بها ، بل انطلق يهدر :

ـ تركت « حسن المصرى » يعمل عندك : فى البيت وفى الغيط ٠٠ وتركتك ترعين أغنامك فى أرضى ٠

ـ أغنامى : أخذتها أنت ولم تبق الا معزة واحدة ٠٠

ـ وهو الذى يخفى لك ذرتى ويحملها الى بيتك ، والجذع سرقه ليصلح سقف بيتك ٠٠ أتحسبيننى لا أرى ٠٠ وكل هذا دون مقابل ٠٠ والديون تتراكم عليك ، ولماذا تريدين طرحة جديدة وجلابية جديدة ٠٠ على قدر لحافك ٠٠

فصاحت به : لم يعد هناك لحاف يا أمين ٠٠ البنت تعرى جسمها ، استرها يا أمين ٠٠ الله يستر بنتك جميلة وبطة ٠٠

وتهدج صوتها بالبكاء ثم رفعت صوتها :

ـ أمين ، أمين يا كلثومة ، بنتى منذ أيام لا تترك البيت ٠٠ تمزق جلبابها عند الصـــدر ، رقعته فانتسل الجلباب عنـد الرقعة وتحول الى شراريب ، وفوق الفخذ خرق واسع يكشف فخذها ٠٠ حرام عليك ٠٠ حرام !! ٠٠

ـ حرام ٠٠ حرام وأنا مالى !

ورغم ذلك فقد لان قلبه وغمز لخالى الذى عبر بنك الزنك ومد يده الى رف ، عادت منه محملة بأثواب من الشيت والدبلان يعرضها على البنك وهو يقول :

ـ تعالى يا داريا ٠٠ فالدنيا رمضان ، وربنا أمر بالستر ٠٠ تعالى ٠٠ أهلا وسهلا يا حسن يا مصرى ٠٠ أعدت من الجزيرة ؟

ـ عدت قبل أن أكمل عملى فان برأسى صداعا أليما ٠٠

ـ سلامتك ٠٠ تعالى يا داريا ٠٠

فنظرت مليا الى رأس حسن المصرى لترى الصداع الذى يشكو منه ثم تقدمت ، تنتقى قطعتين من الشيت وطرحتين تلفهما بعناية ، وتتأمل يد الرجل وهو يقيد دينا جديدا فى الدفتر الطويل فتنقم عليه بينما أبى يقول لهـــا :

ـ خلاص يا داريا ٠٠ اتركينا لأشغالنا ٠٠

ـ والسكر والشاى يا أمين !؟

وهنا يعود أبى الى تقطيب جبينه ويصرخ فيها :

ـ كفاك دلالا يا وليــه ٠٠ كبرت ومع ذلك تتدللين مثل الفتيـــات الصغيرات ٠٠ ليس فى الدكان سكر ولا شاى ٠٠ تعالى بعد يومين ٠٠

ـ يومين ! ٠٠ البنت ستموت من الصداع يا أمين ؟! ٠ ٠

ثم تسكت وهى تحاول أن تفهم اشارات حسن المصرى ، وتتنهد وتتخلى عن السكر والشاى وتنصرف وهى تفكر فى قسوة التاجر ٠٠ لماذا يكذب ؟ ٠٠ عندهم سكر وشاى ٠٠ ومع ذلك ينكر ٠٠ رأيت « بطة » ابنته تخرج من باب الدكان وفى يدها قرطاس سكر وشاى ٠٠ سأذهب اليها وأستلف « تلقيمة شاى » الى أن يفتح الله علينا أبواب رزقه ولربما حمل الينا حسن المصرى بعضه فيغنينا عن مد اليد ، وونور ٠٠ لمـــاذا لا ترحمنا يا رب ٠٠٠ وونور ٠٠

وتناهى الى سمعها وهى تنصرف صيحات الأطفال وتراءى لها على مد البصر فى كل الطرقات هالات مستديرة من الضوء تبرق فى غبش المساء ، فتذكرت «جمال» فى صغره ، كان يلح عليها فتجلب له سلبة طويلة يشعل طرفها يوم رؤية الهلال ويطوح بها فوق رأسه ويدور بها وهو يرســل صيحات ٠٠ تماما مثل هؤلاء الأطفال ٠٠ حتى البنات يلعبن بالسلب

المشتعل ٠٠ ما أسرع ما يكبرون ويهجرون ٠٠ وما أجحد الأبناء ! ليتهم لم يولدوا ٠٠ ليتنا ٠٠ ولكن علام الندم !؟ ٠٠

ودنت من عتبة الباب ووجدت شريفة بجلبابها الممزق تطل من الباب حائرة كأنها تفكر فى سر غامض ، فمنذ لحظات جاء كلو عاريا وجلس فى الفناء والحاصل وأمسك ببراد الشاى هنيهة وهى تدور من خلفه ثم بارح البيت ، دون أن تنال منه نظرة واحدة ، دون أن تمسك بيده وتضعها على رأسها ٠٠ لعل الصداع يتلاشى ٠٠

وارتسمت ابتسامة صغيرة على وجه شريفة وهى تتلقى أمها وتتلقف منها الشيت والطرحة ٠٠٠ ولكن البسمة تلاشت حين لم تجد الشاى والسكر فى يد أمها ٠٠ وكادت ترفع يديها الى السماء وتدعو على الشيخ أمين وتلعن الصداع ولكنها تأنت ومضت الى الداخل لتشعل فانوسا تعمل على ضوئه طول الليل فتخيط جلبابها لنفسها ٠٠

***

ومن المئذنة العالية خلف بيتنا يرتفع صوت نوح يسبح ويكبر ويعلن فى النجع كله رؤية هلال رمضان ٠٠ ويهتف فى كلمات منغومة :

ـ يا عباد الله ٠٠ وحدوا الله ٠٠

ويهبط درج المئذنة فى أناة وعند الباب نستقبله نحن الصغار بالتهليل والصياح ونستدير به ٠٠ نرج الأرض بأقدامنا ، ونطوح فوق رأسه بهالات الضوء ثم نسرى خلفه فى الطرقات ندق بقبضاتنا على كل باب ٠٠ وحدوا الله ٠٠ يا عباد الله ٠

وبينما نحن لا نزال ندور يقودنا عم نوح : يا عباد الله ٠٠٠ وحدوا الله ٠٠ شهر البركات والصيام ٠٠ مرحبا بك يا رمضان ! ارتفع صوت يقول :

ـ لا مرحبا ولا حاجة ٠٠ زمبليطة فاضية ٠٠ بهايم ٠٠

كلمات غريبة ارتفع بها من خلفنا صوت مبحوح ٠٠ كلنا نعرفه ونعرف صاحبه ، فعلى ناصية الطريق عند ملتقى نجعنا بنجع المجراب تراءى المحامى لنا ، يطوح بخيزرانته فى الهواء ، ويشق الطريق بقامته الطويلة ٠٠ قامته النحيلة ، ويحرك يديه المعروقتين البارزتين من أكمام واسعة ذات حفيف متصل كلما اتصلت الخطى ٠٠

ويرمقه نوح فى غضب ·· ويستعيذ بالله ، ويحاول أن يتفاداه ·· لكنه لا يملك نفسه فيسأل :

ـ لماذا تكفر بكلام الله يامحامى ·· ؟

فيرسل ضحكة ساخرة ويهتف :

ـ أكفر ·· ما أصنى فؤادك يا عجوز ·· نور الله فى برسيمه ·

فيتلعثم نوح ويرتبك ثم يهمس :

ـ التيران ستدخل الجنة ·· أما انت فجهنم تنتظرك ·· هداك الله ياولدى ·· هداك الله ··

ويدفعنا من جديد فى الطريق الا أن المحامى يستوقفه :

ـ بالله عليك يا نوح ·· لماذا تصوم رمضان ؟

حقا ·· لماذا يصوم الناس رمضان يا نوح ؟ سؤال غريب ··· لأنهم يطيعون الله ، لكن لأى غرض يا نوح ، ما الحكمة يا نوح ··

ـ الحكمة ·· الحكمة ··

ويتوقف لحظة ثم يقول : وفى صوته احساس بالنصر :

ـ ليشعر الأغنياء والموسرون بجوع الفقراء ·

فيعاجله المحامى :

ـ وانت غنى ؟

ـ كلا يا ولدى لكن الغنى غنى النفس ··

ـ وهل أنا غنى ؟

ـ أغناك الله ·· لماذا تحسد الناس ··

ـ أنا لا أحسد ·· لكن ·· لماذا لا نترك الاغنياء يصومون ليشعروا بجوعك وجوعى ؟ خمسة او عشرة ميسورو الحال فى البلدة كلها ··· يصومون هم وحدهم ·· أما نحن ·

ويرسل قهقهة عالية حين يلاحظ ارتباك الرجل الذى أخذ يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم ، الشيطان الذى سكن جسد هذا الشاب ··

نوح يعلم ·· كل الناس يعرفون أن الفتى لا يفيق من خماره منذ أن حط رحاله فى النجع بعد غربة طويلة : فى لسانه فصاحة ينفر منها

الناس ، كثير التذمر ، يحن الى مصر لكنه لا يجد سبيلا الى العودة ٠٠ فقد طرد من هنـاك ، طرده شـباب نجعه هنـاك وتخلصـوا منه لكثرة مشاجراته ، وهرب اليها مرة مخالفا نصح رجال نجعه هناك فى مصر ، فأعادوه من جديد ليستقر فى النجع ويفكر فى مصر ومباهجها حيث عمل ساعيا فى مكتب محام كبير ، تلقى القانون على يده وحضر معه المحـاكم يحمل دوسيهاته فحفظ كثيرا من جمله الطنانة ، مضى يتفاصح بها فى المقاهى ٠٠ ثم مله عملاء المحامى فطرده ، فراح يتسكع فى المقاهى ويشرب الطافيـا والسـبرتو والبوظة اذا ما ضاقت به الحال ، يلعب القمار وهو يثرثر فيخسر كل قرش معه حتى ساءت حاله فطفق يستدين ويتهرب من دفع ديونه ٠٠

وانتهى به المطاف الى القبوع فى مقهى شجرة الدر بعابدين يرتع الذباب على وجهه والقمل فى ملابسه ٠٠

وعافه الناس هناك ، ثم تخلصوا منه فى سخاء !! استداروا به مرة وساقوه الى الموسكى ، اشتروا له ملابس جديدة ، ودسـوا فى جيبـه جنيهات قليلة ، ولم يتركوه الا بعد أن قطعوا له تذكرة الى البلد متعهدين بنفقات عيشـه فى النجع ، فعاش فيه ، يتفاصح على الرجال والنسـاء ويحضر مجالس الصلح ، ويترافع فيها بصوت داو حتى أبعد عنها ٠٠٠ فاكتفى بكتابة جوابات النسـوة الى الازواج الغائبين ، وبقراءة الصحف للناس على المصاطب وكتابة شكاواهم الى المسئولين ٠٠ كان يكتب بجرأة ويفصل كل حالة ، ويعتقد أن كلماته تعزل المآمير اذا ما ظلموا٠٠ وتخيف الحكومة وقد تسقطها اذا ما عاندته ٠٠

طافت هذه القصة برأس نوح وهو يدفعنـا الى الطريق نهلل من خلفـه ، وراح يرويها لنا بينما توقف المحـامى يرمق « نوح » بنظرات محتقرة متعالية ٠٠ ثم هتف :

ـ لا ضرر فى رمضان ٠٠ ففيه أشهى الاطعمة والسهرات ٠٠

ـ هداك الله يا ولدى ٠٠ يرزقك الله ٠٠

ـ بهيمة ٠٠ ما أصنى فؤادك ٠٠ اننا دككنا الجبال دكا دكا ٠٠

ثم رسم شيئا فى الفضـاء بحـركة من خيزرانته ومضى الى حال سبيله ٠٠ بينما واصلنا نحن هتافاتنا خلف « نوح » : وحدوا الله يا عباد الله ٠٠٠

وكعادتهم فى كل رمضان ، يتجمع رجال النجع فى العصارى ، فى الساحة الممتدة بين الدكان والشونة يسلون صيامهم بقراءة الأوراد جلوسا على الأبراش الخوصية الملونة ، ومن حولهم صوان نحاسية صفراء رصت فيها القلل القناوى ذات الأغطية النحاسية البارقة فى وهج الشمس الغاربة ، بينما تنهمك فضيلة فى المطبخ شأن كل زوجة ، فى التشطيبات الأخيرة لمختلف الأطعمة التى تقدمها فى الافطار لزوجها ، وتفكر فى جارتها أم سعدية وفنونها فى الطهى ، وفى تعليقات الرجال فى الساحة على شطارة هذه أو تلك فى نوع محدد من الطعام ، فتتفنن وتبدع ، وتشعر بالزهو حين تتناهى اليها كلمة طيبة قالها الشيخ فضل أو شليب فى طبق قدمته ، وتحس بالحزن حين تتسرب اليها كلمة استهجان قالها أبى أو أحمد عودة :

– لماذا لم تغسلى القلة · والأبريج ساخن · فتطرق وتشتم ابنتها الصغيرة ··

– ياللعار · كسفتينا يابنت !! بلى الابريج فى الماء البارد وزيدى السكر قليلا ، ولماذا لم تقدمى لهم شعرية يا بنت فى رمضان المفترج ·

فتلوى الفتاة شفتيها وتذرف دمعة ثم تعتزم زيارة بطة أو سعدية لترى كيف تعدان افطار الرجال ··

فمنذ شهر أو يزيد استعدت كل امرأة لهذا الشهر : تتلقى طرود قمر الدين ، وتفتل الشعرية من دقيق القمح ، وترعى حقول الفجل والطماطم والبصل والرجلة لاعداد السلطات والمشهيات اللازمة وتفرك بالرمل أغطية القلل لتلمع ، وتدفن حبات الليمون فى الطين ، تعصر منه قطرات فى الماء ، وتخمر دقيق الذرة تدحو منه ابريجا شفافا مززا تنقعه فى ماء مسكر ، تملأ منه سلطانيات بيضاء ، وتتركها فى مهب النسيم ثم تقدمه شرابا مرطبا للزوج أو الابن يتبلغ به فى المساء ويبل به ريقه بعد صيام مرهق أما هى فقد تتجرع رشفة من هذا الابريج ، وقد تكتفى بالماء القراح أو بحفنة من التمر تزدردها ·· المهم أن يرضى الرجال المتجمعون فى الساحة ، المهم أن تسلم من سخرية فضل وشليب والمحامى ، ومن ثرثرة الولد الصغير « سعيد » شقيق سعدية الذى يتخذ مكانه – من دون كل العيال – بين الرجال ، يستمع الى نوادرهم ويتلصص على كل اناء ، وينقل كل كلمة الى أمه · فتكون الفضيحة التى تسرى كالنار ··

لكنها تلقى نظرة على ما أعدته وتتنهد فى ارتياح وتهمس لنفسها :

ـ ولا فضيحة ولا حاجة ! ما زلت أقدم أشهى طعام لزوجى وضيوفه ..

وتلقى نظرة أخيرة لتتأكد ثم تأمر ابنتها :

ـ هيا فان الشمس تكاد تغيب !

وتلقى بقطع الخبز « الكابيد » فى الفالاكا .. فتعوم على « الباميا » .. وتغطى الفالاكا وسلطانية الابريج والسلاطة بأطباق خوصية مزخرفة، ثم تخرج تتقدم ابنتها ، وقد حملت الفالاكا على رأسها دون أن تسنده بيدها ، فاليمنى مشغولة بسلطانية الابريج ، واليسرى ممسكة بطرف الجلباب خشية أن تتعثر فى الجرجار الطويل وتصرخ فى ابنتها :

ـ هاتى انت طبق السلاطة .. عجلى .. مالك تقفين مثل العبيطة..

وتخطو على الطريق خطوة خطوة وتتوقف على حافة الساحة وتهمس:

ـ هوى .. هوى !!

وتظل تردد : هوى .. هوى دون أن تذكر اسم الرجل ، فيبتسم أحمد عودة ويقول :

ـ يا سلام يا ست فضيلة .. مكسوفة مثل العروسة !!

فيضج الرجال بالضحك ، وترمقهم الزوجة فى غيظ وتهمس :

ـ هوى .. هوى .. الاكل سيبرد ..

فينهض برعى بسرعة ويتلقى عنها ما تحمله ، فتعود متثاقلة تصيخ السمع الى كلمات الرجال ، وتستنكر صوت عبدالله الجزار الذى تعالى بقهقهة بائخة ..

وفى الساحة رفع الشيخ فضل غطاء « الفالاكا » وهو يتلمظ وأعاده ونظر ليرى الشمس الغاربة تكاد تختفى بين غابات النخيل ، فيعاود التسبيح بينما أبى يتوضأ ويتجه هو الآخر الى الشمس يرجو أن تغيب بسرعة ، فلا تبالى به بل تخرج من بين الاشجار كرة حمراء تلقى اشعاعاتها الذهبية على السعف ، والكراديف .. وترسم ظلال البيوت والناس طويلة ..

وسعيد الصغير يجلس بجوار الشيخ جعفر الذى تحفز نافذ الصبر من الشمس التى لا تريد أن تغيب ويسب عم نوح الذى لا يرضى أن يؤذن، فيميل الى الصغير :

ـ ولد ٠٠ كيف حال أمك ؟

ـ الحمد لله ٠٠

ـ وهل تصوم أمك ؟

ـ تصوم ٠٠

ـ وأنت ؟

ويتردد الصبى قليلا قبل أن يقول :

ـ أنا أيضا أصوم والله العظيم ٠٠

فيضحك الرجل ويمسح على شعر الصبى ويسأل ضاحكا :

ـ ومن الذى يغطى أمك بالليل ٠٠ قل لى يا ولد من يغطيها بالليل

فيصمت الولد ولا يجيب بل يطرق برأسه فى حياء ، ويعتزم ترك الساحة والركض الى أمه ، لكنه يواصل جلسته ، فأمه ستضربه وتصرخ فى وجهه ! ألست رجلا ، أبوك مسافر ٠٠ وأنت رجل البيت ، تحل محله فى مجالس الرجال ! اياك أن تلعب كما يلعب الاطفال ٠٠٠ اجلس كما يجلس الكبار ٠٠ كل كما يأكلون ، اشرب مثلما يشربون ، وصل حين يصلون ، وحاذر أن تضيع ملاعقنا هناك فى الساحة ٠٠

وها هى أمه تقبل بالأكل ، وتتوقف عند حافة الساحة وتنادى :

ـ هوى ٠٠ هوى ٠٠

لعلها تتخيل زوجها ، فلا تذكر اسمه ، فالصبى هناك ليمثله ٠٠ ويضحك فضل وأبى وينهض اليها أحمد عوده ويتلقى عنها طعامها وهو يهمس :

ـ أتعرفين ماذا قال جعفر لسعيد ؟

ـ ماذا قال ؟ لعنة الله عليه ٠٠

ـ سأله من الذى يغطيك أنت بالليل ؟

فترسل ضحكة وتسب الشيخ جعفر ٠

ـ رجل ضلالى ! لا يصوم رمضان !

ـ والله أنا صائم ٠٠ أما زوجك هذا فهو المفطر ٠٠

ويشير الى الصغير : أما انت فلا تصومين ٠

ـ أنا ! فشر ٠٠ زوجتك هى التى لا تصوم ٠

ـ والله انها تصوم حتى فى الليل ٠٠ لا ترضى أن أمسها بحجة الصوم ٠٠ والمصيبة انها تصوم كل شهور السنة !٠٠

فتضج الساحة بالضحك من جديد ، وتنسحب أم سعدية هانئة تبتسم لنفسها ٠٠

وتختلج الشمس ثم تصفر وتتكىء على الرمل وتغيب وتنطفىء فيرتفع صوت نوح بالآذان وتنطلق معه صيحات الأطفال ، وقبل أن يكمل تسبيحته تندفع الايدى الى سلطانيات الابريج ، وتعب الأفواه ثم تزدرد حفنة من التمر ، ويقوم الرجال للصلاة ، ثم يعودون فى شوق الى السلطات وآنية الاكل ، ويرين الصمت لحظة ، لا يسمع المرء فيها غير صوت المضغ ، وخرير الماء في الحلوق ، ثم يرتفع صوت الشيخ شليب :

ـ قال النبى :

ـ عليه الصلاة والسلام ٠٠

ـ قال : تحدثوا على الطعام ولو بثمن أسلحتكم ٠٠

ويصمت ريثما يرسل لقمة الى حلقه ويضيف :

ـ كنت فى الدر وهناك اشاعات تدور فى المقاهى :

وينتظر حتى يسأله الناس ، ولكنهم يواصلون المضغ ويصيخون السمع ، فيطول الصمت ولا يقطعه الا فضل بسؤال :

ـ هيه ماذا يقولون يا شليب ؟

فيزدرد الشيخ شليب لقمته ثم يقول :

ـ فى مصر كادوا ينسفون بيت صدقى باشا ٠٠

فلا ينصتون بل يندفعون جميعا ٠

ـ الله يخرب بيته !

ويتردد عم نوح ويهمس :

ـ اللهم أعمر بيوت المسلمين !!

فيسكته الشيخ فضل باشارة من يده ويسأل :

ـ وهل قتلوه يا شليب ؟

ـ لأ يا شيخ ٠٠ عمر الشقى كما يقولون طويل ٠٠

ويمضى الشيخ فضل يسرد قصصا عن الطاغية ، أسر بها صفوى

الذى يعمل فى بيت الباشا : وبرغم ذلك فهو يبطش بالشعب ويهشم رءوس الطلبة بالرصاص ، ويكسر ضلوعهم وسيقانهم ··

ويصمت قليلا ، ويلمس ساقه الجريحة ويحدج الجزار بنظرة قاسية ثم ينشغل بالمضغ بينما صوت شليب يرتفع من جديد ··

ـ وفى مصر ·· الشوارع تموج بالمتظاهرين يهتفون بسقوط الباشا ··

ـ فى داهية ·· الله يخرب بيته ··

فتلمع عينا المحامى ويهتف :

ـ اذن فسوف يستدعون النحاس للوزارة !

ولكن أحدا لا يسمع اليه بل الى شليب الذى استرسل :

ـ وعشرات الصنايعية فى السبتية قتلوا أو دفنوا أحياء فى أماكنهم وهم يهتفون بسقوط الباشا ··

وهنا يصيح الجزار :

ـ عفارم ·· يموتون من أجلنا ! يرحمهم الله ··

ويتدخل أحمد عودة فى الحديث :

ـ لا يا عبد الله ، انهم يتظاهرون فى سبيل الدستور ·

وينتهى الافطار ، ويواصل الرجال أحاديثهم الشجية عن الارض والطوفان ، وبركات افندى أثناء رشفات الشاى ثم يقومون لصلاة التراويح ··

***

وتمضى أيام رمضان تباعا ، ينامون فى النهار ، لا يعملون الا قليلا ويسهرون الليل كله الى السحور ، بين حلقات الذكر والاستماع الى القرآن يتلوه الشيخ يعقوب عليهم فى الساحة مرتين أو ثلاثا فى الأسبوع ، وقد يديرون أقراص الحزمة بمليم يادره ، أكل الباشوات والأمرا ، أو يستمعون الى أساطير البطولة ، يتلوها عليهم المحامى أو المأذون من كتب صفراء : غزوة أحد ·· غزوة بدر ·· أبو زيد الهلالى سلامة ·· وعنترة··

ويستقر رأى أبى فى احدى الليالى أن يفخر بى أمام الناس فيسره فى نفسه الى أن تنتهى صلاة العشاء فيصفق بيديه ويدعونى :

ـ حامد ·· ولد يا حامد ·· تعال هنا ··

فأهرع اليه أخشى أن يكون الشيخ طه قد شكانى اليه من جديد ، ولكنه يقربنى اليه ، ويمسح على رأسى وهو يتمتم بالدعاء ، ثم التفت وتناول كتابا أصفر وضعه فى يدى وأمرنى :

ـ اقرأ لنا يا حامد ··

وارتبكت وأنا أزن الكتاب الاصفر وأقلبه لاقرأ عنوانه :

« قصة سيف بن ذى اليزن » ··

وشجعنى فضل بنظراته فمضيت أقرأ قصة هذا الرجل : فارس مقدام يحارب ويجندل الابطال ، ويغشى مجاهل الغابات والأحراش ، ويصاول الوحوش ثم يقرر أن يكتشف منابع النيل ، فحط به سهل وشال به جبل ، جبال القمر · وهناك يحمل حملا الى الجنة ·· وفيها ينابيع النيل ··

وفغر الرجال أفواههم وهم يستمعون الى قصة النيل : واستثيرت حماستى ، فاندفعت أقرأ واقرأ : أفهم بعض ما أتلوه ويغمض على فهم معظمه ، لكن القصة رغم ذلك كانت جلية واضحة ، فالرجل نفسه ، سيف بن ذى اليزن ، يتوقف فى ذهول وخشوع أمام عيون ثلاثة ، ترتسم فى شكل ميمات ثلاثة ، تسيل منها المياه وتتجمع وتجرى فى أرض الجنة ، ثم تنفذ الى أرض الدنيا من حيث لا يدرى ، وتشق السهول الى السودان والى مصر ، تحمل الخضرة والرفاء للمسلمين ولأهل الكتاب من غير المسلمين ··

ويدقق الرجل ويفحص فى الميمات ـ ميمات العيون ـ فيجدها ميمات البسملة ، فيخر ساجدا لله شكرا على آلائه ونعمه ··

وأحسست اننى وأن الرجال المستديرين بى يخرون سجدا مثله يشكرون الله ، فقد عرفنا من أين ينبع النيل ! والى أين يتجه ؟! ولماذا يسيل بالخير فى وادينا ؟ كشف عجيب أزال الحيرة التى ارتسمت دائما فى ذهنى كلما وقفت على شاطىء النيل ··

انهم يكتشفون الله فى النيل فيحبونه ولكنهم يخافون منه كما يخافون من الله نفسه · أليس مبعث رحمة ·· وفى نفس الوقت مبعث نقمة اذا ما فاض أو غاض ؟

وتوقفت عن القراءة : أفرك عينى ، وأنا غارق فى الميمات الثلاثة وسحرها العظيم ، لكن « الشيخ فضل » يلكزنى بكوعه ويهمس :

ـ اقرأ يا ولدى بارك الله فيك ··

والرجل ·· سيف بن ذى اليزن ، يقطع وهادا أخرى ، وينزل فى بلاد : وجوه أهلها سوداء مثل القار ويتساءل : لماذا اسودت البشرة ·· لماذا لم يخلق الله الناس جميعا بيضا مثل القمر ·· ثم يروى :

« فى غابر الأزمان نام النبى نوح عليه السلام فى خباء أعده فى الصحراء ، يسهر عليه ولداه سام وحام ، ثم هبت الريح واصطفق باب الخيمة ، واصطفقت معه ثياب النبى ، فتعرت ساقاه ثم فخذاه وبانت عورته !!

« ولا يبالى حام بمقام أبيه ، فيشير الى العورة ، ويضحك ساخرا فيلاحيه سام وينتهره فيرتفع صوتاهما باللجاج ··

ويستيقظ النبى ، فيدرك ما هما فيه ثم يرشق حاما الذى لم يرع حرمته بنظرات غاضبة ··

« ويبدو أن الغضب قد استبد بنوح ، اذ رفع يديه الى السماء وقال: رب يا ذا الجلال ·· رب يا من وهبتنى نعمتك ·· رب ··

ويرتفع صوته حادا حانقا يختلط بالريح المعولة ، ويقول :

« رب ·· لتجعلن وجه حام ولدى الجاحد أسود مثل القار !!

وعلى الفور بدأ وجه الولد يتحول ، يربد ويغبر ثم يسود ، حتى أصبح لامعا مثل الأبنوس ··

« ولم يكن غليل النبى قد شفى بعد ، فقد ارتفع صوته مرة أخرى ·

« رب يا ذا الجلال ·· وليكن أولاده جميعا سود الوجوه ··

ثم احتدم وأردف :

« وليكونوا جميعا خدما عند سام وأولاد سام ، فى الحل وفى الترحال ·· آمين ··

فردد سام من خلفه : آمين ·· بينما أطرق أخوه الى الأرض كاسف البال نادما على ما بدر منه ، ثم طرده النبى من أرضه ، فحط به سهل وشال به جبل حتى كان فى هذا الوادى الذى توقف فيه

سيف بن ذى اليزن ٠٠ يدب فى طرقاته ، يلمع تحت وهج الشمس كما يلمع الأبنوس ، بين جماعات بيض الوجوه ، يحارون فى أمره ، ويتجمعون حوله ثم ينفذ الله أمره ، فتقع عينا أميرة البلاد ـ ابنة الملك ـ على الابنوس اللامع فتجن به وتشغفه ، ثم تضمه الى قصرها وتتزوجه !

وجاء الابن الاول أسود مثل القار ، والثانى والثالث ، وجاء الاحفاد سوداً مثل جدهم ، يلمعون فى وهج الشمس مثل الأبنوس حتى امتلأ بهم الوادى الذى سمى باسم السودان فيما بعد » ٠٠

وتوقفت عن القـراءة ، ولم يلكزنى الشيخ فضـل ولا غيره !! لم يأمرنى أحد بمعاودة القراءة ، فقد كانوا يعلمون جميعا بقية المأساة !! أليسوا هم جميعا سود الوجوه بأمر النبى ، بأمر الله سبحانه وتعالى ؟ أليس أبناء حام من النجع : جمال وخالى عثمان ومحمد يعملون فى الحل والترحال خدما فى مصر عند أولاد سام ؟ خدما فى كل مكان عند أولاد سام !! صدقى والملك وبركات أفندى والمستر هيس ؟ ٠٠ أليسوا جميعا من أولاد سام ، أما عبده الفرنساوى ، أما هم فليسوا الا من أولاد حام الذين غضب عليهم النبى ، فاسودت وجوههم مثل جدهم حام !!٠٠

لقد تحققت النبـوءة واكتملت حتى أوفت ، بل انهـا لم توف على غايتها بعد !

وعلى وجه فضل كان يرتسم ألم ٠٠ وهو يتذكر أهله جميعا الذين يعملون فى مصر ، عند أولاد سام ٠٠ ولعل فضلا كان يتساءل :

ـ ماضرك يا سيدنا نوح رضوان الله عليك ، ماضرك لو عفوت عنه ؟

ويبدو أنه كان ينكر الأسـطورة كلها اذ مد يده فى غضب وانتزع الكتاب منى وهو يهمس :

ـ قم فنم يا ولدى ٠٠ لقد أتعبت عينيك !!

وقاموا جميعا يصطفون لصلاة التراويح ؛ بينما اتجهت أنا بخطى حزينـة الى دهليز بيتنـا ٠٠ وارتميت بظهرى على العنجريب الى جانب جدتى أقص عليها قصة الميمات الثلاثة ، وحام وسام فلم تتركنى أكملها بل أمرتنى :

ـ نم يا ولدى ولا تفكر فى مثل هذه الأمور ٠

فأطبقت شفتى وأخذت أفكر : ترى كيف كان حام ٠٠ أكان مثل

الشيخ فضل أم مثل أبى ، أم فى لون جدتى هذه التى ترقد الى جانبى فوق العنجريب ..

ثم شملنى النوم وأنا لا أزال غارقا فى أفكارى ، فاذا بى أرانى فيما يرى النائم واقفا على حافة جبل ، أراقب الميمات الثلاثة وعيونها ، الا أن العيون كانت تفرز لهيبا أحمر ، يتدفق مثل السيل ويخترق الوديان ، ويشق مجراها ليسيل أمام نجعنا ، أمام الساقية والفلوكة الرابضة عند الموردة ، واذا بى أنتقل فجأة الى هودية الساقية أراقب بقرتنا ، وهى تدور وتدور ، ثم أفزع على صوت عويل ومرأى طرحة تعوم فى اللهيب ، فأرى شريفة تغوص فى السيل ، سيل اللهيب ، للمرة الثالثة !!

فأقفز من الهودية كالمسعور وأرمى بنفسى بين أمواج اللهيب لأنقذ شريفة فأرتطم بالنار ، وأفيق على صرخة داوية تنبعث من حلقى وترج الدهليز كله ..

١٨

فى الأيام الأخيرة من رمضان يتطلع الناس الى العيد بأمل ، ويراقبون السماء فى لهفة ، ينتظرون ليلة القدر التى هى خير من ألف شهر ؛ فتتحول رءوسهم دائما بعد صلاة التراويح الى الفضاء ، وتحدق العيون فى كل نجمة ونتوقع أن تنشق السماء عندها عن القدر نفسه !

فيواصلون السهر ، وقد أعدوا دعاء موجزا مقتضبا يهتفون به جميعا دفعة واحدة أمام القدر حين يتجلى لهم !

ويندرون عند الشونة فيتساءل أحمد عودة :

ـ ماذا تطلب من القدر يا فضل لو تجلى لك ؟

فيتنحنح الشيخ فضل ويهمس :

ـ ومن قال لك انه سيتجلى لى ! النحس يلازمنى يا أحمد ٠٠

ـ ليس شىء على الله ببعيد يا فضل ٠٠ هب انه تجلى لك فماذا تقول للقدر !!

فيصمت الرجل ولكنه يرمق ساقه الجريحة فى ألم ، فلا يلح عليه أحمد عودة بل يتركه ليداعب المحامى ٠٠

ـ وأنت يا أستاذ ٠٠ ألنفسك تدعو أم لنا جميعا ؟

فيتمخط ويبصق ، ثم يتنحنح ليقول فى صوت يدوى فى الساحة :

ـ لا جدوى ٠٠ سيان بعد الطوفان أو قبله ٠٠ الفقر هو الفقر والبؤس نفس الشىء ! فلماذا نتعب القدر معنا ؟

ـ لا يا شيخ ٠٠ كفاك فصاحة ! ألا تريد أن تتزوج بدلا ٠٠٠ ثم يصمت اذ يقاطعه المحامى :

ـ القدر لم يمنعنى من الزواج ٠٠ المصيبة التى نحن فيها هى ٠٠ ما أصنى فؤادك يا أحمد ٠٠ مالك بليدا لا تفهم ؟

ويسكت ويبتلع ريقه ثم يضيف :

ـ سأقول جملة واحدة : اللهم مر الطوفان أن يكف أذاه ، ويسر الآخرون هذه الكلمات فى نفوسهم ، سيهتفون بها للقدر فى سرعة الى جانب أمنياتهم الشخصية ٠٠

وينصرفون الى شئون العيد ، ويدلفون الى المتجر ويقطعون أمتارا من الدبلان والبفتة والباتستا والشيت والطرح الملونة وقدرا من السكر والشاى ، ويعودون الى بيوتهم ظامئين يقولون لأنفسهم : أيام خمسة ثم ينتهى الصيام ويهل العيد ٠٠ مرحى !

الحركة دائبة بين الدكان والبيوت وجزارة عبد الله ودكانة عم شاهين الترزى ٠ والفتيات فى البيوت يطرزن ، وينظفن كل ركن فى البيت ، لاستقبال العيد ويسهرن على ضوء الفوانيس ، لكشكشة الجلابيب عند الصدر وتطويقها بزيق أحمر ، ويجددن تسريحة الشعر بعد بله بمنقوع الشاى ، والصغار ينشرون جلابيبهم على الصدور ويقذفون بها بعيدا ٠

ـ جلابية صالح أحسن من جلابيتى ٠٠ أريدها بياقة ٠٠

ويمزقون بالموسى مداســاتهم ثم يلحــون فتتوسل الام عند حاكم الاسكافى ليعد زوجا آخر٠٠ وأين جيب الساعة !؟ وأين الجوذلان والكاتينة والسلسلة ٠٠ اما الطاقية المزركشة فمخبأة فى السحارة ٠٠

حتى أمى تنسى خطوطها ، وتنصرف لمشاغل العيد ، وتراقب ابنتيها وهما تعدان ملابس العيد لها ولجدتى ولنفسيهما فترشدهما وتنهاهما عن تحزيق الجلباب عند الصــدر ، والكشكشــة فى الجرجار يجب أن تكون عريضة حتى لا تجمع التراب والشوك ، ويجب أن تتسع حتى لا تشتبك بالخلخال ، ثم بخى يا بطة طاقية حامد واطويها حتى تلمع ٠٠ تقول هذا وترمقنى فى حنان وتشمل وجهى بنظرتها الطويلة المشفقة ثم تسأل :

ـ حامد ٠٠ ماذا تتمنى على الله فى ليلة القدر ؟

حقا ماذا أتمنى ؟ المدرســة ؟٠٠ أى شىء ؟ حــرت كيف أجيب ثم قررت مثل المحامى أن أطلب من القــدر أن يكف الطوفان أذاه ، لكنهــا انشغلت عنى قبل أن أجيب لتلقى نظرة على جميلة وهى تجرب جلبابها٠

واذا ما كان المساء خلوت الى بطة أوشوش فى أذنها :

ـ ماذا نتمنى يا بطة فى ليلة القدر ؟٠٠

فتركت الابرة فى الغرزة ومالت بوجهها وقالت :

ـ أمنا يا حامد مريضة ٠

أمنا مريضة !٠٠ يالى من غبى !٠٠ لماذا لم أفكر فى هذا ؟٠٠ سوف نطلب من الله أن يمن عليها بالشفاء ، فلا تنتابها الاغماءة ولا ترسم على الأرض تلك الخطوط ٠

واستقر الرأى واتفقنا أنا وبطة أن نسهر كل ليلة فى فناء البيت وأن ننام مباشرة بعد الافطار وننسحب بعد أن نصحو الى الفناء نتلفع بحرام ثقيل لننتظر طاقة القدر حين تفتح ٠

قررنا أن نحظى وحدنا بشرف هذا الدعاء ، فلم نفض به لأحد ٠٠ لا لأبى ولا لشقيقتنا ٠٠ وحين تشفى الأم سيكون فى مقدورنا وحدنا أن نتباهى ونحظى بأكبر قدر من عطفها ٠

وأخذنا منذ تلك الليلة ننام بعد الافطار ، ثم نصحو ونتوضأ ونصلى ونسهر فى الفناء ، ثم شعرت أننا بعيدان عن الســماء ، فأخذنا فى كل ليلة نتسلق جذع النخلة ونهبط منه الى السقف ، ونرتكز هناك فى صمت

نرقب السماء ونتطلع الى الشرق والغرب وفي كل اتجاه · وقد تنام بطة فألكزها بكوعى وقد أنام فتزغدنى هى لتوقظنى ·

قلت لها مرة : ولكن هل يطلع القدر لنا نحن الصغار ؟ ·· سيطل على الكبار يا بطة وليس لنا ! قالت : كم أنت عبيط ! انه يطل على الصغار ما داموا طاهرين · ألم نتوضأ ؟·· ثم زغدتنى وهى تهمس : لا تشغلنى فقد تنشق السماء وأنت تثرثر فلا نراها ·· اصمت ولا تتكلم ··

والتصقنا تحت الحرام نلتمس الدفء ، وعيوننا تتفرس فى السماء التى بدت صافية كعين الديك · زرقاء ، مزدانة بالقمر وبآلاف النجوم تبرق هنا وهناك ؛ وتنهض اليها مئذنة الجامع : كتلة طينية سـوداء ، طويلة ، مدببة ـ يتصل النور بينها وبين الصخرة المعلقة على كتف الجبل ، بينها وبين غابات النخيل ، والنجع صامت الا من همهمات عند دكانة النرزى ، وأدعيـات التراويح تنبعث من الجامع ، وضحكة خلية ، وآهة مكتومة ، السماء كبيرة واسعة ، وقد خلا الفضـاء فى شهر رمضـان من مواكب الجن الذين يحاولون تسلق الملكوت الأعلى واختراق السماء · انهم محبوسون فى قماقم بأمر الله ! بصرانا لا يكلان ، بل يتفرسان · ونحن صامتان نكاد نسمع دقات قلبينا ، يفزعنا من أحلامنا سعال الجدة وهمهمة « جميلة » فى منامها ·

وفى منتصف الليلة الثانية قبل الأخيرة من رمضان ، كنا لانزال نتفرس فى السماء ، ونحملق بعيوننـا فى النجـوم ، وفى الزرقة المعتمة المحيطة بأنوارها البارقة ·

وفجأة ، وبينما نفتح أفواهنا لنقول شيئا انشقت السماء عن خط لامع بارق يجر ذيلا طويلا من خلفه ، ذيلا من النـور الزاهى ، تزايلت النجوم فيه وتلاشت الزرقة الصافية فى حواشيه ·

وشملتنا نحن رعشة أفاقت منها بطة تصيح : حامد ·· حامد ·· ليلة القدر يا ولد ؟ فدب الارتباك فى جسـدى ، وأحسست بشىء يقف فى حلقى مثل الخازوق ، أحرك لسانى فلا تخرج الكلمـات من فمى ، ثم تألقت الدموع فى عينى ، وبطة مازالت تصرخ : ليلة القدر ·· آه ·· لقد اختفى كل شىء ، وعادت السماء الى زرقتها المعتمة ، وعادت النجـوم تتألق والقمر يسطع ·· وحينذاك عاد لسانى الى حركته واختفى الخازوق من حلقى فرحت أهتف ، واقفا على قدمى ، مطوحا بيدى للسماء : أمى ·· أمى ·· أشف يا رباه أمى ·· ثم اختنق صوتى بالبكاء ، وتهاويت على

سقف البيت ، وارتمت بطة فوقى وهى تبكى وتصرخ : رباه ٠٠ أشف أمى يا رباه ٠

وصمتنا ، وفى قلبينا احساس بحزن ثقيل يجثم علينا ، وعلى الكون كله ، حزن تضاعفه قتامة المئذنة والصخرة المعلقة على كتف الجبل ، حزن يتسرب الى كل ذرة من جسدينا ٠ ثم تحول الحزن الى ندم شديد ينيخ على صدرينا ٠٠ ألم نغفل ؟٠٠ ألم نعجز عن الدعاء حينما انشقت السماء لنا ؟٠٠ تعيسان منحوسان ٠٠ لم ننتهز الفرصة المتاحة ٠

وانكفأنا نبكى ونصرخ الى أن تنبهت جميلة التى استيقظت لتعد السحور الى صوت بكائنا فراحت تنادى :

ـ من الذى يبكى فوق السطح ٠٠ من ؟

وصمتنا فجأة حين وقفت تحتنا مباشرة تستمع الى وشوشاتنا ثم أصابها الذعر فراحت تهمس لنفسها : باسم الله ٠٠ باسم الله ٠٠ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، وأقبلت عليها الجدة من الداخل تقول فى صوت متثائب :

ـ جميلة ٠٠ أين حامد ٠٠ أين بطة ؟

ـ أليسا فى الدهليز يا جدة ؟

ـ كلا ٠

وصمتت لحظة ثم أضافت :

ـ البنت العفريتة سحبت أخاها لتسهر فى انتظار ليلة القدر ٠٠ شعنونة ٠٠

ورفعت جميلة رأسها الى السقف وقالت : بطة ٠٠ أنت يا ولد ؟٠

فأجبنا بعد صمت ، ثم تسلقنا جذع النخلة من جديد الى الارض ، وارتميت فى أحضان جدتى وأنا أصرخ : ليلة القدر ٠٠ انشقت السماء ٠٠ لكننا ٠٠ سامحينى يا أماه ، فأدركت الجدة كل شىء من كلماتى المتقطعة ، فتحسست شعرى وساقتنى الى العنجريب ، ولم تتركنى الا وأنا أغط فى نوم عميق لم أفق منه الا حين طرق « نوح » بقبضته على باب بيتنا يدعونا للسحور ، ومضى ينشد فى طرقات النجع انشودة الوداع : لا أوحش الله منك يا شهر الصيام ٠٠ لا أوحش الله منك يا رمضان ٠

ومر يوم الوقفة فى هرج ، وازدحم الناس على دكانة عبد الله الجزار والترزى ، ورواج متجر أبى ، وعاد الرجال من الحقول مبكرين يسوقون دوابهم •• وانفض مجلس الافطار ورقد الاطفال ، وسهرت كل أم الى أن غلب النعاس عيون الصغار ، فاقتربن منهم على أطراف الاصابع ، وفى أيديهن زجاجات عطر نفاذ يسكبن منها قطرة واحدة على الشعر ويفردن القبضات الصغيرة المطوية ، ويلقين فيها بقطعة صغيرة من الحناء ، ثم يلتفتن الى الازواج يداعبنهم ثم يسلمن أنفسهن للنوم وعلى الشفاه بسمة، وفى العيون المغلقة تطلع الى شمس العيد ••

وسهرت داريا عند أم سعدية وعادت بقلب مثقل ، فخيال جمال والبيضاء لا يبارح فكرها • صحيح أن جلبابيهما ـ هى وشريفة ـ مازالا جديدين ، ولكن العيد ليس جلبابا فحسب بل لحوما مشوية ومسلوقة وأنى لها بكل هذا ، ولولا الكوارع التى تخلى عنها الجزار لهما لما عرف بيتهما « الزفر » فى يوم العيد • والعصيدة التى تقدم فى الصباح لا بد لها من سمن وعسل • والعسل ميسور • أما السمن فحسبها ما استعارته من أم سعدية •

دلفت الى بيتها فوجدت شريفة ساهرة فمضت تدردش معها الى أن نامت الفتاة بعد قبضة من الحناء فى يدها ، وقطرة ماء كبتها على شعرها بعد أن رجتها فى زجاجة عطر قديمة فارغة اختلستها من بيت فضيلة ، وواصلت « داريا » تفكيرها فى جمال ، بينما حسن المصرى فى الشونة ينطرح على برش ، يقلب طرفه فى السماء ، ويغمغم بأغنية صعيدية ثم يصمت وفى عينيه حنين جارف الى قريته وصباه فى ليلة العيد ••

١٩

وعند السحر أفاقت أشجار النخيل من نعاسها ومضت توشوش ، وتنبهت عيدان القمح القصير على النسيم يعانق خصورها الضامرة ٠

ومن خلال الغلالة الفجرية الرمادية الباهتة لا تتناهى الى أسماع الكون ولا الى الأبصار الا همهمات وأشباح نفر قليل من الرجال تناثروا على الشاطىء عاكفين فى ضوء فوانيس على المراكب الشراعية الصغيرة البيضاء، يرتقون ثقوبا فى الشراع ، ويعلقون فوق الصارى والشاغول والراجة ـ بيارق ذات ألوان وأجراس صغيرة ذات صليل مثل صليل الفضة والذهب٠

ثم أطلت الشمس وفتحت الابواب المرصدة ، وتغير لون النجع كله اذ انتشر فى الطرقات كرنفال تنعكس عليه أشعة الشمس الصباحية الفاترة كرنفال رجال ونساء وأطفال يندفعون الى سفوح الجبل ، فى زحام من الاردية الملونة ، جلاليب طويلة تجرجر ذيولها خلف مداسات النساء الحمراء ، جلاليب من الباتستا والشيت والفوال المقلم والحرير اليابانى برسومه الصارخةوجلاليب بياقاتوعباءات وقفاطين وعممبيضاء ، «وطواقى» عليها جمال باركة وأخرى رابضة ، وطرح تنسدل على جدائل بارقة بالزيت يهتز طرفاها فوق النهود ، وأكف مخضبة ومناخر مثقوبة تتدلى منها حلى ذهبية مستديرة ، وقطع مثلثة تتراقص على الجباه ، ولبات صغيرة صفراء تهتز على النحور فى نغم يوشوش وينسجم مع الخطى الصارخة برنة الخلخال ٠

« داريا » عاطلة فقد باعت مصاغها كله للتاجر منذ شهور ولم يبق لها الا خلخال صامت يضيق الخناق على ساقها ، تخب على الطريق وفى يدها ابريق ٠٠ تنسكب قطرات الماء من بزبوزه ، ومن خلفها شريفة تتعقب خطاها فى صمت ، مطرقة مثل أمها ، تفكران فى «جمال» وزوجه البيضاء٠ تلك الفاجرة فلولاها لكان جمال هنا فى العيد !

العصى المقوسة ذات المقابض النحاسية المعقوفة تنغرز فى التراب لترتفع الى مستوى الاكتاف ، حيث يتأرجح كرباج مطوى تحت الابط ، ومصاحف صفراء تنبعث منها رائحة العتة والقدم ٠

وعند التقاء نجعنا بنجع المجراب ارتفعت همهمة أخذت تتضخم حتى أصبحت داوية : الله أكبر ٠٠ لا اله الا الله ٠٠ الله أكبر الله أكبر ٠٠ تنبعث فى صوت عميق من حلق الشيخ عبد العزيز ٠٠ يرتلها من خلفه عشرات الرجال ، انضم اليهم موكبنا الزاحف ، فسرى التهليل والتكبير ينداح بين أشجار النخيل ، ويتردد فى الوادى كرجع الصدى يرتد من الجبل ٠

من كل فج كان الموكب والتهليل يتحرك : من الغرب والشرق ، ومن النجوع القبلية ، والبحرية ، ولا يتوقف الا عند الجبـــانة ٠ حيث يرقد أعزاء ، لا تدل عليهم الا شواهدهم : حجارة بيضاء مدببة ، وصبار متجهم ظامىء يطل على رجال راحوا ، رجال تسلقوا أشجار النخيل مثلما نتسلقها، وعبروا النيل كما نعبر ، نساء شغلن هؤلاء الرجال فى يوم ٠ ووهبن الحياة لزهرات سمراء دبت هى الاخرى على نفس الطريق ، زهرات ضاعت كما ضاع جمال فى زحام المدينة اللاهية ٠

وتوقفوا قليلا فوق الشواهد وترحموا ، وذرفوا دمعة وفاء لاتباح الفرحة بالعيد الا بعدها ، ثم انفلتوا تاركين نساءهم يبكين على المقابر ٠٠ انفلتوا الى الساحة الرملية الواسعة الممتدة أمام قبة الحاج مكاوى، يتخففون من مداساتهم ثم يفترشون الرمل الاصفر ، ويندفعون بحناجر داوية : الله أكبر ٠٠ الله أكبر ٠٠ لا اله الا الله ٠٠ الله أكبر ، الله أكبر ٠ الله أكبر ٠٠ حناجر يتردد صداها على الجبل الشرقى ، وينعكس على القبة البيضاء وينداح على الرمل الأصفر ٠

ثم أنهى الامام ، تكبيراتهم ، اذ وقف ولوح بيده ثم نشر ورقة أمام عينيه وألقى خطبته التى نسخها من كتاب أصفر ، عاش فى القرية يحمله تحت ابطه فى غدوه ورواحه ، ثم انتهت الصلاة ، وتشابكت أيدى الرجال،

وقفزت الامنيات الى الشفاه ، الا الشيخ «فضل» ، فقد حيا الجميع ، وأبى أن يمد يده الى عبد الله الجزار ، فاستشاط هذا غضبا وانتفض ٠

وكاد جلال العيد يتبدد ٠

ثم توقفوا على المقابر يرتلون آيات : الهكم التكاثر حتى زرتم المقابر٠ واذا جاء ٠٠ والضحى ، ومن شر النفاثات فى العقد ، وراحوا يستمطرون شآبيب الرحمة على أرواح عزيزة تعيش فى دار الأبدية ، وانسلوا ينفضون أيديهم من كل حزن ويطلقون الضحكات الداوية ، ويشرقون بالابتسامات العريضة ترتسم على وجوههم الطيبة السمراء ٠

وعاد الكرنفال يدب من جديد على طرقات النجع ويتفرع هنا وهناك بألوانه الزاهية ـ وعند المنعطف توقفت جدتى تستقبل داريا ، وتهلل :

ـ داريا ٠٠ داريا «سكينة» كروج آجانلى ٠٠ تعيشين ياداريا أعواما سعيدة ٠٠ عدد الرمل والحصى ٠

فافتر ثغر داريا عن ابتسامة مضيئة مشرقة وراحت تهلل :

ـ تعيشينها أنت وابنتك فاطمة وأحباؤك ، وأحباء أحبـــائك مدد الشهور والسنين والأعياد ٠

وتتعانقان ثم تنفصلان الى أخريات ، يسرى بينهن أطفـــال صغار يملئون الدنيا هتافا وصياحا مرحا فى أصوات مسرسعة ٠

وتلتقى جدتى بزوجة حاكم الاسكافى وتبـــادلها أمنيات غالية ثـم تنعطف على «نور» الصغير ترفعه الى صدرها وتقبله ولسانها يلهج : مبروك عليك ثوبك الجديد ياولدى ٠٠ لتعش حتى يذوب غيره وغيره ، وليحفظ الله أباك وأمك ورعاك لهما يانور ٠

فيبتسم الصغير ويلثغ ثم يقفز الى الارض ويجرى ليختلط بالصغار الآخرين الذين مضوا يتقافزون وينسلون بين سيقان الرجال والنساء ٠

وعلى المصاطب ، أمام كل دار صفوف من الأوانى الفخارية ، تغطيها أطباق الخوص ٠٠ ثم تلال صغيرة من التمر والفشار الابيض ، والى هذه الاوانى تسابق الرجال والشباب يرفعون الأغطية عن الاوانى ، ويتأملون لحظة عصيدة تسيل فوقها ـ فى قنـــوات ـ قطرات من السمن البلدى وعسل البلح ، فيأتون عليها فى سرعة مذهلة اذا ماراقت لهم ، ويتلفت

الشباب ، ويكبشون حفنات من التراب يدرونها فى سرعة على كل عصيدة لا تروقهم ، وينفلتون ضاحكين الى صفوف أخرى ٠

وعلى عتبة باب بيتها توقفت داريا سكينة ، وانقبض قلبها بالأسى وهى تراقبهم يكبشون التراب وينشرونه على عصيدتها ٠ خسارة أرهقت نفسها فى الصباح لتعدها ، وقطرات السمن التى أراقت ماء وجهها فى سبيلهـــا ، والعسل ٠٠ كل ذلك نثر عليه التراب ! انقبض قلبهـــا ، وتهامست : ياالله ٠٠ عفاريت ٠٠ أولاد ٠٠ لو كان جمـال هنا ٠٠ آه يا قلبى !

ثم انسحبت الى الداخل كاســـفة البال حزينة تدق على صدرها ، تسب وتلعن صالح جلق ، وبرعى وسعيد الصغير

وسمعتها شريفة تقول :

ـ جمال ٠٠ لو كنت هنا ياجمال !

فابتسمت وهمست : ثلاث سنوات مرت على غيابه ٠ وقبلهـا كان جمال نفسه يعفر بالتراب مثلهم عصيدة الآخرين ، وكنت تفرحين لشقاوته

فاستدارت داريا اليها دون غضب ، فلعلهـا استعذبت الذكرى ـ ذكرى ابنها الغائب ، لعلها أرادت أن تستعيد الذكرى حين قالت :

ـ فاكرة ياشريفة حين جاءت أم سعدية تشكو «جمال» فى يوم عيد بعد أن عفر ما قدمته بالتراب ٠٠ كانت كاسفة البال مثلى ٠٠ حزينة مطرقة مثل حزنى ياشريفة ٠

وتريثت لحظة ثم أضافت :

ـ وانت ياشريفة كنت ساعتها تنظرين اليها فى شماتة ٠٠
بينما المسكينة تذرف الدمع ٠٠ قلة أدب ٠
فعبست الفتاة قليلا ثم قالت :

ـ وانت ضربتينى ياداريا فى يوم عيد ٠٠ ما كان من حقك ياأماه ٠٠ ما كان من حقك !

ـ اسكتى يا ابنتى ٠٠ ولا تقلبى المواجع الهى يرزقك بمن يسعدك٠

ثم مضت ترمق صدرها الناهد فى اعجاب وأردفت : كنت صغيرة ٠٠ أما الآن فقد طاب الثمر للأكال ٠٠ الهى يسعدك يا بنتى ٠٠

فضحكت الصغيرة ثم قالت فى تردد : لا أريد أحدا يسعدنى ٠٠ ثم لاحقتها الدوامة من جديد ٠٠ الافكار والذكريات ، ووجدت نفسها تفكر فى برعى وفى السحر الجميل وفى حسن المصرى

وتراخت عيناها لحظة وهى تلوك هـذه الافكار فى مكان ما خلف رأسها ، فنحت بيدها ضـفائر ظللت عينيها ، وهزت رأسها بعنف ثـم استسلمت وانحنت تمسك بفخدها ٠ ثم شدت من قامتها ، وألقت نظرة سريعـة على صدرها متـوهمة أن جلبابها تمزق عند النهدين الصلبين ٠ فأسدلت طرحتهـا بدافع غريزى ثم أفاقت من دوامة أفكارها على صوت داريا يطن :

ـ يوم زفافك سيكون يوم عيدى يابنتى !

وصمتت فجأة وكأن شـيئا رهيبا ضغط على صدرها ، وشخصت ببصرها الى الفتاة ثم همست : شريفة ، تتزوجين بشرط واحد ٠٠ تبقين هنا معى ولا ترحلين ٠ وأشارت بيدها : هذا الديوانى سيكون لـكما ، والدهليز ، أما أنا فهذا الحاصل يكفينى ، ولقمة صغيرة ، وفنجان شاى ، سأعيش معكما ومع أطفالكما الى أن أسلم الروح ، ستسمين أحدهم باسم جمال ٠٠ والثانى ـ وقاطعتها الفتاة قبل أن تكمل جملتها : لن أتزوج يا أماه ٠٠ لن أتركك ماحييت ! فتقدمت الام منها واحتضنتها وهى تهمس: لا شىء ينتزعك منى ياحبيبة ٠٠ ثم كفكفت دمعة وواصلت حديثها : كفانى ماعانيته من جمال ٠٠ آه منك ياجمال ٠ وتهدج صوتها واكتست عيناها قتامة رمادية محزنة : فقط لو أرسلت لى خطابا واحدا فى العيد ٠٠ طردا صغيرا لا يزيد عن قبضة اليد ٠٠ ياخيبتك فى ولديك ياداريا سكينة ، مات البكرى وصاع الثانى !

ومضت تبكى بينما الصغيرة تحاول تهدئة روعها فلا تملك نفسها ، بل تبكى هى الاخرى فى صمت بينما تسترسل الأم : الولد سر أبيه ٠٠ كان أبوه يهجرنى أعواما ٠٠ لا يسأل عنى ٠ ثم يعود ليهجرنى من جديد٠٠ لعنة الله عليه ٠٠ فتنتفض الفتاة وتتملص من أحضانها وهى تقول اتركى أبى فى حاله ٠ انه هناك ينام فى قبره لهفى عليك يا أبى ٠ لو كنت معنا٠٠ وتهدج صوتاهما بالبكاء مرة بعد أخرى وقد عادتا الى أحضان بعضهما ، ثم تشعر داريا انها افسدت بهـجة العيد على ابنتها ، فتنتزع ابتسامة ترسمها على شفتيها وتبعد وجه الفتاة وتنظر اليها مليا ثم تهمس : ابنة أمك ياشريفة ٠٠ جميلة ٠٠ وتلمس الكشكشة عند الصدر وتردد : فى

أيامنا لم يكونوا يسمحون لنا بهذه الكشكشة • فتبتسم الفتاة وتمسح دموعها بطرف طرحتها وتقـول : أيامنا غير أيامكم •• أما رأيت جلابيه سعدية •• حتى أمها العجوز •• فتتنهد داريا وتقول : أيامنا يابنتى كانت أحسن : السمن فى البيت •• والقيراطان ••كل شىء • وأبوك •• وجمال •• وتوقفت عن الكلام مع صرير الباب •• واستدارت اليه بوجه متهلل تستقبل نسوة جئن للتهنئة بالعيد : نبوية التى رقصت يوم جواب حسين النـجار والسيدة البيضاء «أم زين» وانفلتت شريفة تعـد أكواب الشاى وعيناها لا تتركان هذه الزائرة الجديدة : بيضاء ، جميلة •• تعدت الخامسة والثلاثين • شعرها فاحم ورغم ذلك ، ينسدل على كتفيها ورقبتها من تحت الطرحة الخفيفة ويلامس تقويرة الجلبـاب الذى لا يختلف فى شىء عن جلابيب نساء القرية الا فى ضيقه هنا وهناك ، حتى انه امتـلأ بجسدها البض ، وانبعج عند صدرها وفوق ساقيها • فى عينيهـا ذكاء وشطارة تحدقان من وجهها الابيض المستدير ومن خلال اطار الكحل الثقيل ••

أم زين هذه أصبحت محط أنظار الرجال ، والنساء فى القرية ، يرمقنها فى اعجاب وفى غيظ فى نفس الوقت • وقد أدركت هى مايعانينه فمضت تداورهن بذكاء غريب فألفتها كل واحـدة ولأمر ما وفى بيت داريا سكينة مضت أم زين تعرض بزنوبة زوجة جمال وكأنها تعرفها : أما أنا فان زوجى لم ينس أهله أبدا ، كان يرسل لهم •• كنت أدفعه الى مساعدة أخته • كذابة والله • ولكنها تواصل رغم ذلك اطراءها لنفسها وتعريضها بزنوبة • تضغط على كلماتها لتصيب مرماها فى قلب شريفة وأمها •

وتمكنت بالفعل من قلبيهما فأنستا اليها ، بينما مضت تتحدث عن العيد فى مصر ، ومباهج العيد والمراجيح وعن كل شىء تدريه أو لا تدريه حديث العالم الخبير ! ••

وتنتهى الزيارة حين يحل المساء ، فينصرفن للفرجة على حلقات الذكر وملاعب الشباب فى ضوء القمر ، ويستمعن الى المنشد يعلو صوته : حتى ولا فى يوسفا •• فى يوسفا •• فى يوسفا والرجال يتطوحون ويذوبون فى ملكوت السماء ، ويغيبون عن الوجدان ، دون أن تغيب رائحة العرقى فى أفواه بعضهم ثم يستريحون ويتربعون على الابراش يحكون نوادر العيد ، ثم ينتفضون من جـديد يرجـون الارض بأقدامهم الشابة والدف يتابعهم بنقراته الخافتة الهادرة تصاحب لعلعة صـوت المغنى : سمراء

يا سمراء مثل الليمون · قد سئمت تلويحات يديك من وراء الشباك ، فاهبطى من عليائك ياسمراء وناولينى يديك !

وخلف الابواب ، وفى الساحة نفسها ، عند الحافة وقفت بعض السمراوات يستمعن الى الكلمات العذبة وقلوبهن تهتز بالطرب ·

وانتهت السهرة ، وشرع الناس ينصرفون ، والأقراص السوداء تدور وتضغط على المقطع الثانى من خوجلى عبد المجيد ـ اسطوانات ميشيان !

ثم راحت الانوار الهامسة تخبو فانوسا بعد فانوس ، فرقد الرجال فى أحضان النساء ، اهبطى من عليائك ·· ناولينى يديك ·· اهبطى لترتفع الهمسات والضحكات الخافتة ، تتصل بين صدور متشابكة وذراع تعبث بخصلات شعر على مفرق وجه أسمر ··

٢٠

الضحى من اليوم الثالث ، النجع لا يزال يتبادل الزيارات ، ونحن وقوف على الشاطىء بملابسنا الزاهية وجيوبنا منتفخة بمناديل صرت فيها قطع الملبس والقروش والهدايا ··

وعلى مدى البصر فوق صفحة النيل مراكب بيضاء تخطر هنا وهناك، ونحن نهلل لها ، ونتقافز فى انتظار دورنا للركوب والتجول فى النيل··

ورست مركب « عوض كتية » على الموردة ، وتوقف الملاح على حافتها ينادى علينا وهو يمسك بالشاغول ويهزه ، فتصلصل الاجراس الصغيرة· صليل الذهب والفضة ، ويهز الراجة فينتفض الشراع ، ويشد الشاغول من جديد فيمتلىء القلع بالنو ثم يتركه ليصفق وكأنه ينادينا ··

المركب مزدان مبرقش ، والبيارق ، تنعكس ظلالها الخفاقة ، فى أغوار النيل ، فى مياه الشتاء الضحلة ··

تواثبنا عبر السقالة الى المركب ونحن نهتف ··

ـ كروج آجا نللى ياعوض · كل عام وانت بخير يا عوض ··
ـ أكون نللى · وانت يابنى وأبوك واهلك جميعا ·

ثم فضضنا مناديلنا ووهبناه ملاليمنا ، وتوقفنا على حافتى المركب نستند على الشاغول والصارى ونرسل ضحكات صاخبة تنداح عبر الماء وترتد الينا فنفرح أيما فرح ··

وأمسك عوض كتية بالدف ينقر عليه نقرا خافتا ثم هادرا ينبه الذين كانوا لايزالون يتسكعون ليهرعوا اليه ··

ثم رفعت السقالة واقلعت سفينة المرح · وأصواتنا تعلو بالضحك والغناء خلف النقرات الداوية بينما صوته الرخيم العميق يغنى للعيد ··

ثم ألقى بالدف ، وبدأ يتلاعب بنا فوق صفحة النيل : يملأ الشراع بالريح · ويدير الدفة فتميل المركب الى جانبها الأيمن وتكاد تغترف من الماء البارد وتنقلب ، ويوشك الشراع المائل أن يمس صفحة الماء ونحن نتشبث باللبان والأمراس خشية الانزلاق فى النيل ، بينما حلوقنا يشقها الضحك المتصل ، فلا نبالى بصرخات العجائز على الشاطىء ودعائهم المتصل: أن نعود ولا نتوغل فى النيل ··

ثم يرخى الملاح شاغوله فينفض النو ، وتنعطف الدفة وتستقيم المركب لتجرى رخاء وتخطو كاليمامة هونا على صفحة النيل ، تحـــدوها أصوات بأنغام حلوة نرسلها وراء نقرات الدف ··

وفجأة يندفع الريس بالمركب الى غابة من السنط متشابكة تميل على الجرف ، فيكاد الشراع يعلق بهـا ويتمزق فنصرخ وننبهه الى الخطأ الذى يرتكبه فيبتسم لنا فى هدوء ، ثم ينعطف فى اللحظة الاخيرة ويوغل من جديد فى النيل ، ويسرى بنا والدف فى يده حتى يرسو بنا فى ابريم ، فى محاذاة دكانة أحمد عبد الله حيث نشـــترى علب الحلاوة الطحينية وصناديق الملبن والحلقوم والبسكويت ، ونعـــاود لهونا ومرحنا الذى لا ينقطع ··

والى الشرق والغرب من كل اتجاه بدت مراكب شراعية أخرى ·· كل واحدة تقل أطفال نجع من النجوع ، يهللون ويملئون النيل بأغانيهم وصيحاتهم المرحة ، ويلوحون لنا فنلوح لهم بتحية العيد ··

وعادت المراكب كلها فتجمعت عند الظهيرة فى خط واحد ، فى محاذاة

الشمندورة الحمراء ، ما بين الجزيرة والضفة الشرقية ، وراحت تتحرك وتتقدم وتتأخر الى أن تراصت وكأنها طابور عسكرى بديع ··

وعلى حافة كل مركب أطفالها المتحمسون يهتفون ··

ــ سنغلبكم ··

فيتحداهم الآخرون فى صيحات دافقة ··· وفجأة ونحن نغرق النيل بصيحاتنا صدرت اشارة البدء على نقرات دف ، فشد كل نوتى شاغوله وأدار الدفة ·· وفغر كل طفل فاه ، وانتفخ كل شراع ، ثم انطلقت المراكب تركض فى خفة على صفحة النيل تسابق الاخريات ·· وعلى حافة مركبنا صمتنا فى حزن ، فان مركبنا أخذت تتقاعس حتى أصبحت فى مؤخرة الصف · والمسافة مازالت طويلة ، فلا بد لنا أن نبلغ القرن الشمالى للجزيرة ثم نعود عند الشمندورة قبل الآخرين ··

هذه مراكب الآخرين تحاذينا فيهتف أطفالها لنا : آفيالوجو ·· آفيالوجو (مع السلامة) ملوحين بأيديهم مرسلين ضحكات الشماتة والفرح ، فنرد عليهم فى حسرة ثم ننقلب على « عوض كتية » نستحثه ونشجعه · ونقدم له كل ما فى جيوبنا من حلوى وقروش ، فيأخذها دون أن يبالى بنا ·· ونصمت قليلا ثم يجن جنوننا ، فنعود نستحثه ويظل هو هادئا ينقر على دفه ، ويرسل نظرة مختلسة الى المراكب الاخرى ، ثم يهمس لنا من بين أسنانه الممسكة بالشاغول : ولا يهمكم ·· سنسبقهم · كيف بالله عليك يا عوض ·· فها نحن فى المؤخرة ؟ ·· ولا يهمكم ·· دعوها تسبقنا الآن ·· وبعد قليل سترون بعيونكم فنهتف له ونطمئن ، الا أن المراكب كلها ظلت تتقدمنا ، فعاودنا القلق والحزن ثم عدنا نصرخ فى وجهه : شرف النجع كله فى يديك ياعوض ·· هيا ياعوض ·· وحياة امك ياعوض !··

ولا ندرى كيف استطاع عوض أن يلتوى على صفحة الماء بمركبه !·· كيف أمكنه أن يتخير مجرى تيار مائى يندفع فى سرعة شديدة الى الشمال ·· الى نقطة النهاية ·· تيار خطر سريع الحركة أخذ يندفع بمركبنا فى سرعة مضاعفة ، وعوض لا يزال يعض على الشاغول بأسنانه ويهمهم · اصبروا ياعيال ·· اصبروا !·· وحاذينا أول مركب وتجاوزناها ونحن ننقر على الدف ونهتف : آفيالوجو ·· آفيالوجو ·· فيلوحون لنا فى أسى ·· ثم حاذينا لمركب لثالثة فالرابعة ، والشاغول لا يزال بين أسنان عوض ··

وها نحن فى القرن الشمالى للجزيرة ، نستدير عنده ونملأ الشراع بالريح ، ونعود نحاذى مركبا ·· لا تزال تتجه الى طرف الجزيرة ··

وتوقفنا عند نقطة البداية من جديد · بينما الآخرون يجاهدون للحاق بنا ، وظل أطفال نجعنا يرقصون ويهللون يقودهم عوض كتية بدفه وصوته الرخيم ··

ثم مالت الشمس الى الغرب ، ورست المركب عند الموردة · وقفزنا الى الارض · وفى عيوننا بهجة وحسرة فى نفس الوقت ، على يومنا الاخير فى العيد ··

وعلى الشاطىء وجدنا أبى « والشيخ فضل » يراقباننا حتى دنونا منهما فصاح أبى بنا :

ـ خشينا أن تغرقوا فى النيل ·· اياك يا حامد أن تنزل الى النيل مرة أخرى ··

فتبسم الشيخ فضل وقال :

ـ دعهم يا أمين ·· فهذه أيام العمر ·· نشقى فى سبيل ساعات مثل هذه ·· ليست كل حياتنا أيام عيد ··

وأمسك بذراع أبى وابتعدا · هو يزك بساقه وأبى يمرجح عصاه ، بينما انفلتنا نحن نعود ، وننعطف الى السكة الزراعية ، من حولنا عيدان القمح الخضراء ، ترسل حفيفها المتصل وتتراقص على هبات النسيم ··

***

وقبل أن انعطف لأشرف على الطريق المؤدى الى بيتنا ، وجدت برعى يتربع فوق ربوة مرتفعة عن الارض ·· وراحتاه تعتمدان رأسه ، وعيناه تحدقان فى اتجاه واحد ـ لا يحيد عنه ، وعلى وجهه وقار ، اتخذه منذ اعتقاله فى السلحليك سمة من سماته ، فابتعد عنا نحن الصغار ، وعاف مشاركتنا فى لهونا البرىء بل مضى يجالس الكبار ، ويحك شفته العليا بالشفرة يستحث شاربه على البزوغ ··

اقتربت منه فى حذر ·· وألقيت عليه التحية فرفع رأسه ورمقنى بنظرة غاضبة ورد التحية فى فتور ··

كنت أتوق الى الافضاء بأسرار فوزنا على الآخرين ، وبراعة عوض كتيه ومخاطرته فى التيار ، الا أن وجه برعى كان ساهما واجما كأن أحزان الدنيا تثقل على صدره ··

عجبت لأمره وقلت : مابك يابرعى ؟٠٠ فانفجر وكأن كلماتى رفعت الغطاء عن مرجل ظل يعمل ويحترق فى صدره ٠٠ انفجر بعد أن هب واقفا على قدميه يصرخ فى وجهى : لورد ياسيدى ٠٠

– ماله ٠٠ اكسرت ساقه الاخرى ؟٠٠

– ليتها كسرت ياسيدى ٠٠ ليته مات ٠٠ هذا الكلب ابن الكلب ٠٠

طاب لى أن أضحك من كلماته٠٠ الا ان نظرته الغاضبة ردت الضحكة الى صدرى فكظمتها وأنا أقول : ربما نجس شيئا فى بيتكم !؟٠٠ اغسله سبع مرات ٠٠ فهكذا قال الشيخ طه ٠٠

– كلا يالكعى الا تعرف ماذا فعل ؟٠٠

– أصابنى الكساح لو كنت اعرف ٠٠ كنت فى المركب مع عوض كتيه ٠٠

فتفرس فى وجهى وكأنه لا يصـــدق ثم هدد : والله والله سأبلغ السماوى عنه فيسمه ونستريح منه ٠٠

– وحياتك يابرعى لاتفعل ، فانه غلبان٠ الا تراه يزك بساقه ٠٠ ؟

وشـــدنى برعى من كمى حتى أجلسنى على الربوة ، وبدأ يقص على قصته مع لورد : أتذكر الخفاش الذى اصطدته من الجبـــل ٠ جففته فى الشمس وصحنته حتى تحول الى مسحوق أســمر ٠٠ وأردت أن أسأله لماذا ؟ لكنه اسكتنى باشارة من يده واسترسل : وراقبت شريفـــة حتى عرفت أين تقضى حاجتها ٠٠ ثم نثرت المسحوق فى نفس المكان أملا أن تمر عليه بقدميها ٠٠ » وسكت ريثما يبتلع ريقه فانتهزت الفرصة لاسأله. ولماذا يابرعى ؟ ٠٠ فقال بصوت خشن : اسكت ٠٠ انت لا تفهم هذه الامور المهم اننى نثرت المسحوق وتواريت هنا أراقب الجو حتى فتح باب بيتها الخلفى وخرجت منه واتجهت الى نفس المكان ، لكنها انحرفت فجأة تتفادى شيئا لم أكن قد رأيته ٠ فوق النقطة التى اخترتها كان لورد قد ظهر فى نفس اللحظة وتوقف واستند الى الحائط بعجزه ومضى يتبول ٠٠

وسكت بينما أنا حائر فى أمره : وما الذى جناه لورد ٠٠ وما الذى اغضبك منه يابرعى ؟ ٠٠ مسكين « لورد » فرمقنى بنظرة غاضبة ثم انفجر يقول بسرعة : لولاه لمرت شريفة فوق المسحوق الاسمر ، لقضت حاجتها عليه ٠ وحينذاك كنت أتوقع كما قال الشيخ الشاذلى أن تجن شريفة بى

فتجرى الى وتطلب منى الزواج ، ولا تتركنى الا وأنا زوجها !! أرأيت ماذا فعل «لورد» •• لوردك الوسخ ؟•• أرأيت ؟•• ألا تدرى ياحامد ان أمها تمانع من زواجها منى •• وان البسطاوى قريبها ويريدها لنفسه ، وشريفة نفسها لا تريدنى ! ••

ورويت له قصة رؤيتى لهما فى السحر بين أشجار النخيل •• فابتسم ثم غامت عيناه فأغلقهما وكأنه يسترجع ذكرى حبيبة دفنت فى أغوار سحيقة منذ أعوام طويلة ••

وفى نفس اللحظة كان باب بيت شريفة يفتح لتخرج منه ، وهى تحمل على رأسها جرة صغيرة ، تسندها بيدها اليمنى ، بينما اليسرى تمسك بجرجار ثوبها الطويل ••

تريث برعى الى أن حاذتنا شريفة فانطلق يتعقبها بينما هى ــ لامر لا يدريه ــ لاهية عنه ، ربما كانت تفكر فى ليلة الامس حين زارهما البسطاوى مع عبد الله الجزار الذى لمح لتوددات برعى لها وحذرها منه•• والا •• ثم قال انها محجوزة للبسطاوى ، وأمرها أن تكف عن الحديث مع برعى ، وغاظها ان أمها انضمت الى عبد الله الجزار ، وانتهرتها وقالت ان برعى صايع لا يرجى منه نفع ••

تذكرت كل هذا وبرعى يتعرض لها فى الطريق فخشيت أن تراها عين فأعرضت عنه ، وأشاحت بوجهها وراحت تتعجل الخطى ، فامتلأ قلبه بالغيظ ، ومد يده يمسك بمعصمها ، فاختطفت يدها بسرعة ، وأمرته فى غلظة ألا يتعرض لها فى الطريق ، وهمهمت بشىء عن عبد الله الجزار ، فانبثقت صورة البسطاوى أمام عينيه ، وهو يعرض به فى السلحليك ، فجن جنونه ، ورفع يده ولطم الفتاة على خدها ، فتوقفت ذاهلة تترنح حتى وقعت الجرة فانكسرت وسال منها عسل أخذ يتبدد فى التراب ، فتطلعت الى الجرة المكسورة ، والى وجهه ، وهو لا يزال يرفع يده ليهوى بها مرة أخرى على خدها فتفادتها ومضت تصرخ : اننى أكرهك •• لو كان جمال هنا •• انت شرانى وصايع كما قالت أمى ••

ودب الذعر فى قلب برعى حين تذكر « جمال » صديق طفولته ، وتساءل كيف سمح لنفسه أن يضرب أخت جمال ! ما الذى دفعه الى هذه الفعلة المنكرة ؟ •• انه البسطاوى الملعون • وأراد أن يقول كلمة رقيقة الا ان الفتاة كانت لا تزال تصرخ : انت صايع وضايع ، فصاح بها : اخرسى • أنا ماضربتك الا لأننى أحبك ••

تحبنى ! فلماذا تضربنى ٠٠ والله لو كان جمال هنا ٠٠

ــ أقول لك اسكتى فلا يسمعنا أحد ٠٠ ثم هذا الحلبى ابن الحلبى ٠٠

ــ الحلبى لم يضربنى بل أنقذ حياتى من الامواج بينما أنت تضربنى وتشتمه ٠

ــ اياك أن تذكرى اســـمه أمامى ٠٠ اياك أن تكلمينى عنه أو عن البسطاوى أو عبد الله الجزار ٠

ومد يده مرة أخرى ليمسك بها ، لكنها أفلتت منه ومضت تعدو الى الخرابة حتى دلفت من باب بيتنا الخلفى ٠٠

وعاد غاضبا يتربع على نفس الربوة ، لا يحدثنى بل ينكت الارض بقدمه ويسب الدنيا ويلعن الناس ، فتركته الى الطريق المفضى الى بيتنا٠٠

وعلى ناصية الطريق رأيت شقيقات شعبان يدلفن الى بيتنا ، بينما فى الساحة الممتدة بين المتجر والشونة ، كان الشيخ فضل وأحمد عودة وأبى وآخرون من النجع يتجمعون حول «الاهرام» يطالعونها فى اهتمام ٠ فتوقفت خلفهم أستمع الى ما يقولون ، وأحاول قراءة العناوين العريضة فى الصفحة الاولى : مجلس الشـــيوخ يناقش التعويضـات ٠٠ التعلية تتم بسرعة ٠٠ أراض جديدة للمنكوبين ٠٠

وفى الصفحة الرابعة : تقديرات حكومة الوفد السابقة مبالغ فيها٠ أزمة البطالة مازالت شديدة ٠٠ الحكومة توزع الدقيق الاسترالى مجانا على الفقراء فى العيد ٠ محاكمة عمال العنابر ٠٠ صدقى باشا يصرح : المياه المخزونة ستحول رى الحياض الى الرى الدائم ، على سرى باشا يسافر الى مناطق التخزين تصحبه عقيلته عند السدة الشتوية الاولى ٠٠ المستر هيس باشا يعلن ٠

وبخط صغير على الركن الأيمن : شكوى من أهالى الدر بتوقيع بدر أفندى ٠٠ فدمدم الشيخ شليب :

ــ اشمعنى ؟٠٠ وأين شكوانا ؟

فابتسم الشيخ فضل وقال وهو يعبث فى التراب : الدر عاصـــمة المركز يا شليب وفيها أفندية ٠ شكاوانا نحن شكاوى فلاحين لا يلتفت اليها أحد ٠ فثار المحامى ، فانه هو الذى كتب الشكوى ، فصرخ : ما أصنى فؤادى ٠٠ وتفرس فى وجه الشيخ فضل ثم وجه اليه نفس السؤال : ما أصنى فؤادك يافضل ؟

كان المحامى يلقى هذا السؤال دائما دون أن يتوقع اجابة من أحد، فانهم لا يدرون ما الذى « أصنى » فؤادهم ·· وما هى أصنى هذه ؟ هو نفسه لا يدرى ! ·· أهو الخزان أم الرفافيس الصاعدة الهابطة فى النيل أمام قرانا تحمل المستر هيس ·· أم هى البرانيط والطرابيش ·

وتمخط الشيخ فضل وبصق على الارض بصقة صفراء ، وتلفت الى جعفر شيخ « المجراب » وهتف : ماذا يريد المحامى أن يقول ؟ فهز الشيخ جعفر كتفه دون أن يجيب ·

ثم قاموا لصلاة العشاء ، فتركتهم ودلفت من باب الدهليز لأجد شقيقات شعبان يتحدثن فى همس مع جدتى ، بينما أمى منزوية فى ركنها، ترسم خطوطها المستديرة ·

وحين دخلت كانت « مسكة » تقول :

ـ على خيرة الله ·· بعد اسبوعين ان شاء الله ··

وهمست جدتى ·

ـ ان شاء الله ·

وسكتن حين دخلت جميلة عليهن تحمل العشاء

٢١

صفحة النيل ناعمة ملساء تبرق برماح من النور تنثال عليها مائلة هنا وهناك ، ثم يهب النسيم ويركض برقة فوق سطح الماء فيجعده ويحيل المجرى كله الى جسد بديع راقص، يترقرق فى العيون مثلما يترقرق فيهـــا موسيقى الألوان المتبدية على شـاطىء الجزيرة · وعلى الضفة الشرقية أمام نجع صغير من نجوع أبريم ··

نوار الفول الابيض يتسق مع خضرته المخملية ، وســنابل القمح نوشوش ثم تهتز مثل رءوس العذارى ، وتتطلع فى طموح الى أشـــجار

النخيل الباسقة المطلة على ساقية ، تربع جابر شقيق شعبان فوق هوديتها، يلسع البقرتين بكرباج رفيـع ، فتدوران فى سرعة بينما الصبى يلسع ظهريهما ، مفتونا بالقواديس الحمراء التى راحت تتواثب مع السلبة أمام عينيه فى سرعة محمومة ، لتغوص من جديد فى البئر العميقة ٠

ثم ترتفع يد أخيه نعمان من فوق سنابل القمح الغضة تلوح له : كفى ! فيقفز من الهودية ، ويعترض طريق البقرتين فتتوقفان ، ثم يصعد على الترس الكبير، ويحل وثاق البقرتين ، ويهبط بهما من مصطبة الساقية ويقودهما الى الحظيرة القريبة المنتصبة خلف الجدول الكبير ٠ والتقى به نعمان على باب الحظيرة فسأله :

ـ انتهينا بسرعة ٠٠ أروينا الارض كلها أم ٠٠

ـ كل الأحواض والحمد لله ٠ نحن هنا منذ السحر ٠٠

ـ أنمت فوق الهودية كعادتك ياجابر ؟

ـ كلا ٠ عيناك منتفختان وأنت فى حاجة الى النوم ، سهرت طويلا بالليل ٠

ـ الواجب ياجابر ٠ شعبان سيتزوج ولا بد من أداء الواجب ٠

ـ الحمد لله ٠ فكل شيء على ما يرام ٠٠ وهل سيأتى الافندية ؟

ـ سيأتون ٠ ولا بد أن يكون الحفل جديرا بهم ٠ ذلك هو ماجعلنى أسهر بالليل ٠ فقد رجانى شعبان أن أبذل كل جهدى فزرت عبده الفرنساوى فى بيته ، فى منتصف الليل أطلب منه أن يشرف على المطبخ، فالرجل شاطر وخدم الخواجات كثيرا ويمكنه أن يقدم أشهى طعام ٠

وصمت ريثما يغلق باب الحظيرة على البقرتين ، ثم فرك يديه وهو يقول : وأبلغت السفرجى باشا رجاء أبى أن يكون ضيفنا فى هذا اليوم ليتصدر المائدة مع أبى الى جوار عمدة ابريم وقته وبقية الضيوف ، فهو يعرف آداب المائدة ، وفى امكانه أن يروى لهم نوادره فى السراى وهم يأكلون ٠٠

ـ سيكون أبى فخورا بضيوفه ٠

ـ هو جدير ٠٠ أليس شيخ حصة ٠٠ أما شعبان فسيكون سعيدا للغاية ٠٠ هيا ٠٠ هيا لئلا نتأخر ٠

وانطلقا فى الطريق الزراعية بين صفين من عيدان القمح والفول يتحدثان عن نوادر ليلة الجلوة والنقوط والاغانى التى ملأت النجع ليلة البارحة :

ـ أرأيت العروس ؟

ـ نعم ٠٠ بنت ناس طيبين ٠٠ الحمد لله ٠٠

وأسرعا الخطى حتى بان لهما البيت الكبير بأسواره وأشجار النخيل المطلة فوقه ، ترمى ظلالها على الباحة الممتدة أمامه ، تنعقد فوقه سحابات من الدخان يعرفان أنها تنبعث من الكوانين المشتعلة منذ الصباح يشرف عليها عبده الفرنساوى ، يشخط ويلقى أوامره بكلمات نوبية متعثرة ٠٠

وفى الباحة نفر من شباب العائلة ينهمكون فى اعداد صيوان كبير يرتبون فى جوانبه أرائك وعنجريبات وكراسى ، ويفرشون بينها سجاجيد عريضة ، وأبراشا خوصـــية ملونة ، بينما أبوهما يلقى أوامره ويشير بخيزرانته ، ويلتفت الى سفرجى باشا ويسأله : ألا ترى هـــذا المفرش لائقا ؟

ـ لائق جدا ولكن السجادة تحت المائدة مكرمشة ٠٠

فتركه وصاح فى غلام صغير ٠٠

ـ عبده ٠٠ تعال هنا ٠

وأنهى اليه أوامره ثم استدار يواجه الطريق المتعرجة ، من الشمال الى النجع ، يتطلع فى قلق ثم يلقى نظرة على الصيوان ويهتف : الحمد لله ٠٠ كل شىء قد أعد ، ستأتى معى على الضفة نستقبل الاغراب ٠٠ أم تفضل البقاء هنا يا أفندى ؟

ولم يجب الافندى على الفور بل انطلق فى الصيوان يدور بعينيه فى كل ركن ويأمر بزحزحة عنجريب ، وبنقل أريكة الى مكان آخر ، أو بنقل حفنات من الرمل الأصفر ٠٠ ثم هداه تفكيره وصرخ فى جابر الذى دخل الصيوان خلفه ٠

ـ أيمكن يا جابر أن تغرس هنا ـ على جانبى الباب ـ فروع شجرة : سنط أو أثل ، وعيدان فول بنوارها ٠

وفكر قليلا ثم قال :

ـ واياك أن يدخل أحد فى الصيوان بعد رش مدخله ٠

ـ حاضر ٠

فاستدار الرجلان وابتعدا عن الصيوان وافترشـــا مصطبة يتبادلان الذكريات ، وهما يشدان فى انفاس شيشة أعدها لهما جابر ، ويطالعان بداية الطريق المتعرجة من الشمال الى البيت الكبير ويتحدثان عن شعبان الذى يستريح فى الداخل تحـــف به الزغاريد والأغانى ونقرات الدف ، ويرحبان بين الفينة والاخرى ، برجال القبيلة ، الذين بدءوا يحضرون من كل نجع ومن الجزيرة ومن القرى المجاورة ، وينزلانهم فى مكان غير بعيد من الصيوان ٠

ثم هب الشيخ عثمان واقفا يستقبل المأذون ويرحب به ، ثم يعودون

الى حديثهم المتصل عن الحفلة وبركات أفندى ، وأشــــجار النخيل التى لم تسجل ، والبيوت التى اعتبرت خارج الكنتور ، والاشاعات المتواترة عن التعويضات • وماذا قال العمدة للمستر هيس حين زاره ، ثم لاح عند المنعطف الشرقى فى الطريق موكب صغير ، تخب دوابه بين حقول القمح، عليها رجال نجعنا ، فتحفزوا وأصلحوا من عممهم ، وتوقفوا عند بداية الطريق ، بينما انتصبت النسوة على عتبة الباب ، يتهيأن لاستقبال الموكب الذى دنا حتى أشرف عليهن فانطلقت الزغاريد ، وامتدت أيدى المستقبلين تصافح ، ولهجت الألسنة بالترحيب :

ـ أهلا بك •• مرحبا بك يا أمين ••

ـ كيف الحال يا حاج عثمان ؟ ••

ـ الحمد لله •• وأنت يا احمد عودة •• والله زمان ••

ـ اعذرنى يا حاج •• فالدنيا تلاهى •• الدكانة والغيط ثم القضية

ـ دائما تحب القضايا يا أحمد •• ليس فيها غير خراب البيوت !•• فضك منها يارجل •

ـ حقا •• فضنا منها •• فاليوم يوم عمار بيوت •• أليس كذلك يا شيخ فضل ؟

فابتسم الرجل وزك بساقه حتى لاصق سفرجى باشا وحياه •

وبينما جابر وصغار عائلة العريس يســوقون دواب الضيوف الى المرابط التى أعدت لها ، اتكأ الرجال على مصاطب أشجار النخيل يشربون الشربات ، ويعاودون حديثهم عن التعويضات والمستر هيس باشا وبركات أفندى ثم استدار أبى الى والد العريس يسأله :

ـ سمعت أنهم سيحضرون •؟

ـ طلبت من العمدة أن يدعوهم • سوف يقبلون ومعهم عمدتكم وعمدة بلدنا ومشايخ الحصة الآخرون فى رفاص •

ـ ذلك أفضل •• سيشهدون كرمنا واحتفاءنا بالضيف •• والحق أنك أجدر الناس ياعثمان •

ـ لا ياشيخ •• على الله التوفيق •

وأقبل شعبان ـ العريس ـ وحيا الجميــع ، وجلس بينهم يتلقى

التهنئة حتى رن فى الجو صفير يتداح من النيل على الشاطىء ويتناهى الى أسماعهم ٠ فهب والد العريس وأبى وسفرجي باشا وأحمد عودة ، فنفضوا ملابسهم وعدلوا وضع عمائمهم على الرءوس ، ومضوا عبر الطريق ، ومن خلفهم العريس ، يطوحون عصيهم ، بينما تجمع فى الباحة عدد من الشباب يتوسطهم المغنى ، ينقر على دفه فى حماس ، ويرسل أغنية جديدة أنشأها للمناسبة ، راحت تتردد من الحناجر ، وتشد النسوة والصغار الى حلقة بدأت تتشكل حول شاعر القرية ٠٠ يرجون الارض بأقدامهم وصيحاتهم٠

وعلى الشاطىء رسا الزورق البخارى ، وقفز منه بركات أفندى ورفاقه ، ومن خلفهم العمد ، فاستقبلوا بالترحاب ٠

وعادوا عبر أشجار النخيل ، وبين صفين من عيدان القمح حتى دلفوا الى الباحة ثم الى الصيوان ، واستقروا على الأرائك يشربون وعبده الفرنساوى يطل عليهم ويدلف الى البيت من جديد ليتبعه فى لحظة عدد من الصبيان يحملون صحاف الأكل والطواجن يرصونها فى نظام بديع على المائدة ، وسفرجي باشا يرمقهم ، ويشير بعينيه الى عبده الفرنساوى ويدلى اليهم بأوامر هامسة ٠

وانتهى الاعداد الصبور للمائدة حتى بدت كباقة من الزهور : مفارش صغيرة مطوية الى جانب الاطباق الصينية اللامعة ، وعلى الشمال واليمين ملاعق وشوك ، ودوارق زجاجية شفافة ، بينما صفت بجانب المائدة حوامل تحمل قللا فخارية ماؤها معطر بما الورد ، وفى الجو رائحة بخور تتصاعد وتخلق خدرا لطيفا فى الرءوس والأعصاب ٠

وقف عبده الفرنساوى صامتا فى ركن ومن حوله الصبيان يحملون مناشف على أذرعتهم ، وأمضى لحظة يحملق فى الصيوان ثم همس مبتسما : مضبوط ياشيخ عثمان ٠

وهنا هب والد العريس ، وأشار الى الشبان الراقصين فكفوا ، ثم استدار للضيوف يلقى كلمة ترحيب ويعلن بدء الحفلة اذ تقدمهم الى المائدة ، فجلسوا يأكلون فى صمت حتى ابتدرهم بركات أفندى :

ــ نظام بديع ، وطعام شهى يا حضرة العمدة ٠

ــ سببه وجودك بيننا يابركات بيه ٠٠ لقد نورتم ٠

وقال والد العريس :

ــ شرفتمونا وزينتم حفلنا ٠

ثم انفلت عبده الفرنساوى يقدم للأفندية نبيذا ، فمضوا يشربونه فى نهم ، يمصمصون بشفاهم ويعجبون من مذاقه ونكهته فى هذه القرية النائية .

ثم انعطف الحديث حين قال سفرجي باشا :

ـ بركات بيه .. ماذا فعلتم بالبيت ؟

ـ ننتظر رد الحكومة .

ـ اذن فقد ضعنا .. يوم الحكومة بسنة !

ـ وماذا نفعل ؟

وضحك ثم أردف : ولماذا بنيت بيتك فوق السفح بعيدا عن الكنتور .

وتدخل عمدة ابريم يقول :

ـ وما الذى أدرانا بالكنتور والمنسوب ؟

فمال بركات أفندى الى أحد الأفندية يسأل :

ـ ألم تنبهه وهو يبدأ البناء ؟ .

ـ كلا .. كان البناء قد اكتمل ..

وقال أحمد عودة :

ـ وأشجار النخيل التى لم تسجل ؟

ـ ان شاء الله سيعمل لها ملحق حين يأتى رد الحكومة .

وسأل الشيخ فضل :

ـ وكيف تقدر التعويضات .. أظن النخلة بجنيه .

وقال عمدة قتة :

ـ لا يا شيخ ، بل جنيهان .. النخلة هى حياتنا يافضل .

ـ ولكنها ليست حياة الحكومة !

وأجاب أحد الأفندية :

ـ الفلوس شحيحة والأزمة متحكمة ، والجنيه ليس قليلا .

وتدخل عمدة ابريم يقول :

ـ ليتهم يعوضوننا عن النخلة بجنيه .. ولكن ماذا يفعل هذا الرجل الذى لم يسجل بيته ؟

ـ بيته لن يغرق .. ويمكن أن يعيش فيه .

ـ أيعيش وحده فى الجبل بين الضباع والوحوش ..

ـ يمكن أن يشترى بندقية .

وكف عمدة قتة عن المضغ وصاح :

ـ بنادق .. كلا ، لا نريد بنادق ولا رصاص عندنا .. كفى ما نعانيه من العصى !

وأدار بركات أفندى الحديث فالتفت الى العريس يقول :

ـ مبروك ياشيخ شعبان .

ـ الله يبارك فيك ياسعادة البيه .. عقبال الانجال .

ـ ان شاء الله حين يكبرون .

وانتهت الوليمة ، واتكأ الضيوف على الأرائك يشربون القهوة وينفثون دخان لفافاتهم ، ويراقبون من خلال فتحات فى الصيوان حلقة الشباب والنسوة الذين استداروا بالمغنى من جديد ، يرجون الأرض بأقدام فتية ، وألحان داوية وزغاريد ترتفع الى السحب .

واستدار اليهم بركات أفندى ورفاقه يملئون عيونهم بمنظر الرقص ويعجبون بالألحان الساذجة البسيطة التى تملأ الجو من حولهم ، ثم ارتفع صوت الشيخ عثمان يقول :

ـ آن الأوان .. هيا يا شيخ صابر .

فتقدم المأذون الى المائدة وجلس على كرسى يتصدرها ، وتقدم وكيل العريس والعروس ولبثوا لحظة صامتين يستمعون الى الشيخ يعقوب يرتل آيات من القرآن حتى ختم وقال : صدق الله العظيم ، ثم تناول شعبان مصحفا مضى يرتل آيات منه فى صوت راعش ويتوقف طويلا عند المقاطع ، فتستقبله بالتشجيع دفقات من الزغاريد .

ثم مد الوكيلان يديهما فتشابكتا تحت منديل أبيض ، ثم أخذا يكرران مايمليه المأذون عليهما :

ـ زوجت موكلى شعبان ابن الشيخ عثمان البالغ من العمر عشرين عاما ، المسلم من جميلة بنت أمين هاشم ، المسلمة البالغة من العمر سبعة عشر عاما .

ـ قبلت على سنة الله ورسوله .

فسجل المأذون كلماتهما في قسيمة الزواج ثم طلب منهما فوقعا بخط عريض . وتريث الشيخ عثمان فى انتظار توقيع العمدتين كشاهدين ثم وقف يعلن فى زهو :

ـ شعبان ياولدى .. أشهد هؤلاء الناس جميعا .. اشهد الله من قبلهم على ما أقول .

ثم تلفت الى اليمين واليسار فى زهو ونشوة وأضاف :

ـ وهبتك بنفس راضية عشرين نخلة .

وأشار الى جابر أن يكتب فمضى يسجل بينما انطلق أبوه يضيف وهو يترنح بالفرح :

ـ وياولدى .. وهبتك بنفس راضية قيراطين فى الحوض القبلى فى الجزيرة ، لا ينازعك عليهما احد من اخوتك ، لا فى حياتى ولا بعد مماتى .

ثم تقدم وعانق العريس وجلس يمسح وجهه بمنديل حريرى ، بينما تقدم ـ بترتيب السن ـ أعمام العريس وعماته وأخواله وخالاته ، يرددون نفس الكلمات فى زهو ، ويهبون أشجارا هنا وهناك وفى نجوع مختلفة ، وشرائح من الارض ، بينما الزغاريد تصاحب كلماتهم .

واستمع بركات أفندى الى كلمات الاهداء ، وتلفت الى زملائه ، ثم تطلع فى عجب الى وجوه الواهبين والواهبات ، والى النشوة التى تعربد فى عيونهم ، والزهو الذى يرفع رءوسهم ويشمخ بأنوفهم وهم يعددون هباتهم ، فأخذ يسأل نفسه : وما فائدة كل هذه الهبات ؟! . كلها للسمك بعد حين قصير ! لقد سجلتها فى دفاترى .. كلها ستضيع .. يالكم من مساكين . لعلها العادة لا يستطيعون التخلى عنها ، العادة التى تحولت الى طقوس يجب أن تراعى تماما مثل مراسم الزواج الشرعية والرسمية ، وسيان ان تضيع الهبات وهى على ذمة واهبيها ، أو على ذمة الموهوب اليهم .. سيان مادامت العادة تبعث كل هذه الفرحة والبهجة فى نفوس الناس !! وتلفت الى عزوز أفندى يهمس واضعا يده فوق فمه :

ـ أرأيت الى هؤلاء .. يالله .. كم هم منتشون وفرحون !

ـ زادهم الله سعادة .. ولكن ما الفائدة ياسعادة البيه ؟

ـ الفائدة يابنى أن يفرحوا .. ألا تراهم فرحين ؟!

ـ رقصة ذبيح !

ـ ذبيح ، أو لا ذبيح كفانا أنهم سعداء ٠

ثم قام بديع أفندى ، ووجه آلة التصوير الى الحفل الراقص ، فأسر العمدة بكلمة فى أذن بركات أفندى ، تلفت بعدها ليرى الوجوه حانقة فأمسك بيد زميله وجذبه بشدة وحال بينه وبين التصوير ٠

ثم لبثوا ساعة يتحدثون ويشربون مشارب من كل لون استأذنوا بعدها ، وقاموا الى الزورق البخارى بينما شرع موكب أبى ورجال نجعنا ، يخب فى الطريق عائدين ٠

وعلى مسافة يسيرة من صيوان العريس كان بيتنا يعـج بالناس ، وجدرانه تهتز بالزغاريد ، وبصياح الاطفال ودعابات العجائز ، بينما حسن المصرى وبرعى وغيرهما من شباب النجع ، يعملون فى الساحة الممتدة بين المتجر والشونة ، يمهدون الارض ويفرشونها بالرمل الأصفر ، وبرذاذ خفيف من الماء ، وينضدون الأرائك والكراسى التى استعيرت هى الاخرى من بيوت النجع المختلفة ، وأنا مثل أم العروسة أروح وأجىء ولا أفعل شيئا ٠٠ ألقى الأوامر ، فيبتسم لى حسن المصرى فى هدوء ، ويتركنى لينشغل فى عمل ما ٠٠ فيمتلىء قلبى بالغيظ ، وأعود مسرعا ، أدلف من باب الدهليز ، لأجد البيت يموج بصفوف من النسوة والفتيات الصغيرات ، يغنين ويرقصن حول العروسة أو ينهمكن فى المطبخ ، حتى حجوبة كانت هناك تعمل وتبرق عيناها من فرط النفخ فى النار ، تحت الكانون ، بينما « بطة » تروح وتجىء بثيابها الجديدة ، وطرحتها الملونة ، تعجن أو تصحن شيئا ، وتطلق البخور ٠ وجدتى تسرع الى الحاصل وترفع غطاء السحارة الكبيرة ، وتخرج شيئا ما تسرع به الى العروسة التى حفت بها شريفة وبخيتة وسـكينة يزغردن ، وينقرن على « الدربكة » نقـــرا خفيفا ، ثم يوشوشن فى أذنها بكلمات تبعث الخجل على وجهها ، فيتغامزن ويضحكن ضحكات عالية ، لا يبالين بى وأنا أرمقهن ، بل اندفعن يلقين النكات على رأسى حتى هربت الى الدهليز لأجد أمى تترك ركنها الازلى وتندفع الى ابنتها العروسة تقبلها وتسدى اليها النصح على مسمع من الأخريات ، فتهز العروس رأسها ٠٠ وهى تقول : حاضر ٠ لاهية عنها بأفكار تنوشها منذ الصباح ٠٠

انها تعيش فى قلق ، تخشى من المجهـــول ، من الليلة الاولى التى تجمعها مع رجل ٠ كانت تروح وتجىء منذ الصباح ثم تنزوى فى ركن لا تبالى بالمحيطات بها من العجائز والفتيات ٠ تبتسم لهن وتستمع اليهن ،

ذاهلة عن نفسها ، فهي منذ الصباح تستمع الى النصائح الغالية : تدخل امرأة عجوز ٠٠ خالة أو عمة أو جارة ، تدنو منها وتقبلها ثم تهمس : مبروك يابنتى ٠٠ الله يبارك فيك ٠٠

اسمعى يابنتى ٠ ثم تمضى فى ثرثرة متصلة عما يجب عليها أن تأتى فى بيتها الجديد وعما يجب أن تدع ٠٠ عليك ألا ترفعى صوتك مادام الرجل قد حل في البيت ، لا تطلقى العنان لصوتك ، تمنعى فى اباء حتى يعرف عزتك ٠٠ أما حماتك فعامليها كما تعاملين أمك ٠ أخوتك لا يجب أن يزوروك الا لماما ٠٠ ولا يجب أن يدخل عشاؤهم على افطارهم ، وليقبلوا عليك بهداياهم ٠ الدقيق والسمن والمؤن التى يظن الزوج أنها تفى أسبوعا ، دبرى أمرك حتى تفى أياما عشرة ٠٠ والغسيل ٠٠ الغسيل أهم شيء ، فالناس لن يقولوا شيئا عنه بل عنك ٠ اشبعى قبل أن يشبع٠ امرضى ــ وقاك الله شر المرض ــ دون أن يشعر أنك مريضة ٠٠

ثم تشعر العجوز أن الفتاة لا تستمع اليها فتلمس كتفها وتقول : مالك تجلسين هكذا كالمأخوذة ، اربطيه وشديه اليك بولد ذكر ٠ زوجك هو الأم هو الأب والشقيق ، فلا تفرطى فيه ٠٠ شرفه هو شرفك يابنتى ٠٠

وتحاول العجوز أن تسترسل ولكن العروس تنهض فجأة وتسرع الخطى الى بطة شقيقتها فى أقصى الفناء وتهمس :

ــ تهلكين يابطة ٠٠ اتركينى أساعدك ٠٠

فالتفتت الصغيرة اليها بحدة ، ورمتها بنظرة صارمة وهى تصرخ « اسمعى ياستى ٠٠ اسمعى ماذا تقول العروس ٠٠ ياشيخة الزمى مكانك واستريحى » ٠٠ ثم فى شيطنة « ستتعبين الليلة كما يحلو لك ! » ٠

وأسرعت الجدة اليهما وهى تضحك وتأمر فى صوت حازم : جميلة ، ارجعى الى مكانك ٠٠ ياعيب الشوم ٠٠ ماذا يقول الأغراب عنا ؟

وهنا لاحت الأم تحاول أن تلعب دور أم العروسة ، تذرع الفناء ، وتبتسم لهذه ولتلك وتتلقى التهنئة ٠٠ وترد بكلمات رقيقة ٠٠ ثم تترنم بأغنيات شبابها ٠٠ فهذه ليلتها هى ، وليست ليلة أحد غيرها ، ليلة بكريتها ٠٠ أول العنقود ٠٠

لقد غير زفاف ابنتها من حياتها المنزوية فراحت تتحرك فى خفة ، وتشترك فى العمل بينما تراقبها الجدة وتحول بينها وبين الكوانين المشتعلة

والتقت العروس بى فى الحوش فاستدارت الى تسألنى : متى تكبر يا حامد وتصبح رجلا لافرح بزفافك ٠

ولم أترك لها فرصة الكلام فقد صحت فيها غاضبا : أنا كبير ٠٠ أنا رجل !!

فضحكت وانقادت لشريفة التى همست فى أذنها : تعالى الى المنصة ٠ تعالى نجرب ، وقادتها بين الضحكات الى آخر الديوانى حيث رفعت منصة ، على يمينها باب ضيق لحاصل صغير ، تراءى فيه طشت واسع للحمام ، وقطعتان من الصابون ولوفتان ٠ وعلى شمالها ، وفى مواجهتها ، وعلى جانبى الديوانى كله أرائك مرصوصة ، مفروشة بملاءات بيضاء ووسائد مريحة ومساند ومتكئات ، وفوقها وعلى الجدران أطباق خوصية وأخرى صينية مزخرفة منكفئة على وجوهها ، وصورة كبيرة للامام على ، يركب فرسا ويدفع رمحا طويلا فى فخذ عمرو بن ود العامرى ، وأخرى للهلالى ، بشاربيه اللذين يشبهان شاربى حسن المصرى ثم مرآة متوسطة تعكس ألوان الأطباق والرمل الأصفر وخضرة السعف الذى انتشر معقودا فى أركان الديوانى ٠

وفى الركن الآخر من الديوانى باب صغير يدلف الى بيت الأدب ، تواريه ستارة ثقيلة تكنس أهدابها الأرض ٠٠

وقفت أتأمل كل هذا وشريفة والعروسة تتغامزان ، بينما سعدية تلح : هيا ٠٠ اجلسى يا جميلة ودعينا نجرب ٠٠ وحين ترددت العروس اندفعت سعدية وجلست على المنصة ضاحكة مطرقة ، وأسدلت شالا واسعا على رأسها وهى تهتف :

ـ تعال ياحامد ٠٠ هيا تزوجنى ٠٠

وراحت شريفة تدفعنى الا أننى أفلت منها ووقفت فى نهاية الديوانى فرحن يضحكن ثم توقفن فجأة على صوت جلبة وصخب فى الفناء ، أسرعنا بعده نتدافع عبر الباب الى مصدر الصخب ٠ ويبدو أن العروس تنبأت بما حدث فانكفأت على الأرض تبكى : فالأم هى التى كانت متكومة على الأرض ٠ ورأعنا أن الدخان كان يتصاعد من رأسها فاندفعت اليها أرتمى على صدرها ، فدفعتنى حجوية بعيدا ، بينما جدتى تنتزع طرحة اشتعلت أطرافها ، من فوق رأس أمى وتهمس ، الحمد لله : كل واحدة الى شغلها ٠٠ بطة ٠٠ لا تبكى يابطة ، ثم رفعت عقيرتها وأطلقت زغرودة طويلة ،

تاركة خالتى أمينة بايا تسكب قطرة من العطر النفاذ على رأس أمى ، فتابعتها الأخريات بالزغاريد ··

وانكفأت أنا على أمى أناديها ، وفجأة تذكرت ليلة القدر ، وندمت وشعرت بنفس الاحساس ، فى صوت بطة المختنق وهى تنحنى علينا نحن الاثنين ·

ومن بعيد كان صوت جدتى يتردد : يابنتى ·· أمك بخير·· قومى·· نفضى ثيابك من التراب ·· عيب ·· الدنيا غيمت والمساء يحل ، والرجال آتون ·· قومى واغسلى وجهك ·· طيب تعالى ·· وشاهديها بعينيك ·· ماذا يقول الناس ؟ وينضم صوت شريفة الى صـــوت العجوز ثم صوت داريا : يا بنت يا « جميلة » ·· أمك بخير ، طرحتها هى التى ·· أرادت من فرحتها بك أن تشعل الكانون ففاجأتها نوبة الاغماء فى غفلة منا ·· لو رأتك أو سمعتك تعاندين هكذا ، سيفاجئها الاغماء من جديد ·· هيه ··

هذه الكلمات الأخيرة جعلت « جميلة » تفيق لنفسها ، فنهضت تتجه الينا فى خطى متعثرة حتى أطلت فى خوف ، ثم اشتركت مع خالتها فى تدليك صدر أمها ، وهى تنـــادى : أمى ·· أمى ·· أنا جميلة ·· أنا العروسة ، أفيقى ·· وفجأة فتحت أمى عينيها ، وانتزعت ابتسامة أشرقت على وجهها ، ثم هبت واقفة وارتمت على صدر ابنتها ، وهى تهمس : سامحينى ياجميلة ·· ما قصدت شيئا ·· سامحينى ! مبروك عليك ، ثم أمسكت بها من خاصرتها وطوقتها بذراعهـــا الأخرى ونحن من حولهما واجمون ، ودلفت بها الى الديوانى فعاود الغناء ضجيجه الصاخب ··

ومرت لحظات عادت الأم بعدها باسمة تتحرك فى خفة ، تحذر أن تدنو من الكوانين المشتعلة ، خشية أن تفسد الحفل من جديد ، الا أنها لم تعد ، لتنزوى فى ركنها الأبدى ، بل مضت تنتقل هنا وهناك ، وتترنم من جديد بأغنيات شبابها ؛ فانطلقت الضحكات من جديد فى الديوانى ، وفى الدهليز ، وعاودت الزغاريد ترن فى النجع ··

ولاحت التفاتة من بطة الى حجوبة ، فمضت تتفرس فيها لتضبطها متلبسة بالشماتة ، لكنها وجدتها تروح وتجىء فى حركة دائبـــة وعلى شفتيها ابتسامة بيضاء مشرقة ··

وامتلأ وجه بطه ، بالدهشة حين رأتها تمسك بالدف وتميل الى ركن ومن حولها بعض النسوة والفتيات تنقر عليه فى خفة وتنغم فى

صوت خافت بالمقطع الأول من أغنية الزفاف ، ثم ترتفع بها فى نغمة عالية حلوة ، وتسكت مشيرة الى الأخريات ، فيندفعن فى أصوات جميلة :

لى أنا وحدى يا أماه ٠٠

يا أماه ،

لأحبائى يا أبتاه ،

يا أبتاه ٠٠

لك وحدك يا أختاه ،

يا أختاه ،

ثم ينخفضن بأصواتهن ليرتفع صوتها من جديد :

لى أنا وحدى يا أماه ،

هذا الثوب الناصع مثل البدر ،

هذا العطر السارح فوق الورد ،

والحناء اللامع فوق الكف ٠

يا أماه ٠٠ يا أماه

فينطلقن من جديد ٠٠ لى أنا وحدى يا أماه ٠٠ لأحبائى يا أبتاه ٠٠ ويعدن الى النغمة الهامسة ، بينما يهدر صوتها فى طبقات عالية :

وليعو كما تعوى الذئبان ٠٠

بين الكثبان من وخز البرد

من لايفرح مثلى

فى اليوم الناصع مثل البدر

يا أماه ٠٠ يا أماه ٠٠

فيتلقفن النغم منهـا ، ويملأن البيت بشـفافية غمرت قلب أمى بالنشوة ، فاندفعت ترقص وتدور حول نفسها ، وقد أمالت رأسها على المنكب الأيمن مندفعة به الى الخلف قليـلا ، بينما يدها اليسرى تمسك بجرجار ثوبها الزاهى ، والنسوة يصفقن لها ، ويرددن على نغمات الدف :

لى أنا وحدى يا أماه

يا أماه ٠٠ يا أماه ٠٠

هذا الثوب الناصع مثل البدر ،

هذا العطر السارح فوق الورد ٠٠

٢٢

النيل هو الحياة ، صاحبة أبد الدهر ، هو الحياة الهادئة ناعمة على مر الزمن ·· فالنيل والهواء والشمس ، وعرق الجباه يحول التراب الأصفر الكالح الى خضرة مخملية باسمة ··

وعلى ضفته فى قريتنا تصلى الناس لله فاطر السموات والارض ولكنهم فى نفس الوقت يعبدون النيل عن حب ، حين يرضى ، ويتقربون اليه عن خوف حين يطغى ، ويتغنون بقوته ·· وينشدون مزاميره حين يهب الحياة··

لم يكن فى مقدورى حينذاك أن أصدق أن هناك من يستطيعون العيش فى بقاع نائية ·· لا يسيل النيل فى نجوعها ·· ولا أن أتصور أن فى مقدور الناس فى الصحراء أن يتزوجوا دون أن يطهرهم النيل من آثامهم ··

فقد وقر فى ذهنى منذ تلك الأيام أنه ليس أجمل من النيل ·· وهو يحتضن فتيان قريتنا فى حنان دافق فى أمسية دافئة أو باردة قبل أن يزفوا الى زوجاتهم ··

فليس فى الدنيا أجمل من الفتى النوبى فى ليلة زفافه وهو يغوص فى النيل عاريا كما ولدته أمه ، لايبالى بلسعات البرد فى الشتاء ولا بمخاطر الموج الأحمر أيام الفيضان ·· ليس أجمل منه الا ·· الا النيل وهو ينساب هادئا بعد أن يعمده لحياته الجديدة ··

أليس « شعبان » جميلا ونقيا ، وهو يرمق النيل فى خشوع ، على الضفة الشرقية ، يلفه غبش المساء ، وينعكس عليـــــه وعلى رفاقه وعلى الماء والساقية والأشجار والتربة السمراء نور قمر باهت مازال يرتفع فى السماء ··

كان لا يزال بملابس الجلوة ، مخضبة عند الكم والذيل ، ببقع حمراء ومن حوله عشرات من رفاق صباه ، ينظرون اليه والى الرجل الاسود

الذى وقف فى صبر نافد يحمل صرة كبيرة ، وفانوسا لم يشعل بعد ، يستمعون الى الكلمات الخافتة التى راح شعبان يتمتم بها : رب وفقنى ، هب لى من لدنك رشدا ·· رب اجعل لى من زوجتى مسكنا ومستقرا ، واغفر لى ذنوبى ·· وامنن على فى ليلتى هذه ·· رب فلتكن السعادة لى ولأهلى ولزوجى ·· واعمر بيتى بذريتى يعبــدونك ويخرون ســجدا أمام جبروتك يارب ، ومد يده ، ومسح بها على وجهه وشفتيه ، ومر بها على شعره من تحت عمته البيضاء ، وخيل لى ولرفاقه وهو يهمس أن النيل يستمع الى رجائه ويفتح ذراعيه له ولهم جميعا ·· فاستأنف دعاءه من جديد ·· الا أنهم استلوا كرابيجهم فجأة وفرقعوا بها فوق رأسه كأنما ينبهونه ويوقظونه من غفوة طالت به ·· ومضى أحدهم يسخر :

ـ يبدو أنك لا تعرف العوم !

واستطرد آخر :

ـ عاش فى مصر طويلا ·· غشيم ! ··

فتنمر العريس لهم وقال :

ـ أتنسون أننى فى صباى كنت أسبقكم جميعا !؟ ··

ـ كنت ·· أما الآن فانك تخاف من لسع البرد !

ثم انهالت دفعة أخرى من الكرابيج فوق رأسه ، تطن فى أذنيه دون أن تمس منه شــعرة واحدة ·· فلم يتزحزح ·· الا أنهم مضوا يصرخون فيه : اخلع ملابس الجلوة والا ··

ـ مهلا ·· اتركونى أصلى ··

ـ بل اخلع أولا ثم صل كما تريد ·· صل بعد أن تغتسل ··

فأسلم أمره ، والتفت الى حامل الصرة يأمره أن يستعد ثم مضى يتجرد من ثيابه قطعة ·· قطعة يلقى بها الى الرجل فيتلقفها فى لهفة ، ويحول بينها وبين الآخــرين الذين أسرعوا يحاولون اختطافها ·· فهى هديته ··

ـ انها هديتى ·· فملابس الجلوة لحامل الصرة ··

ـ ليس كلها ياحمار ··

ـ بل كلها يا أسيادى ·· دعوها لى ··

وانضم جابر اليه ينوشهم بكرباجه بينما العريس يواصل تجريد

نفسه من كل ملابسه ، حتى وقف عاريا تماما ، يستر عورته بيده ، ويتأمل النيل الذى بدا باسما يضحك ويهش له ، تعال يا ولدى ‥ تعال أضمك الى صدرى العريض ‥ تعال يافتاى الحبيب :

وتتوالى الصيحات : انزل ‥ انزل ‥ أرنا شطارتك ‥ والكرابيج تطن فى أذنيه ، فيقذف بنفسه الى النيل ‥ ويرتطم بالماء البارد ‥ ولا تصدر منه آهة واحدة ، فذلك عار لا يحتمله أى رجل ! ثم يألف البرد ويحرك يديه وقدميه فى الماء ويوغل فى النيل ، ثم يغوص ليظهر فجأة فى مكان آخر ‥ ويعاود الاختفاء والظهور من جديد ، وكأنه يقول لهم أرأيتم ‥ مازلت كما كنت ‥ ثم ينقلب على ظهره ‥ فوق سطح الماء ‥ ويرقد كأنما على فراش وثير ‥ ويحرك قدميه فتخلقان دوامة من الزبد الأبيض ، والرفاق على الضفة يهللون ، برافو ‥ برافو ياشعبان ‥ فيواصل فنونه فى السباحة ، يثبت لهم أنه مازال فارس النيل ، لكن صوت النقر على الدف والتصفيق على الأيدى كان يتداح اليهم من النجع ، مؤذنا بتجمع الناس وابتداء الزفة ، فيتواثبون مع الايقاع على الشاطىء ، ويهتفون بالصلاة على الرسول ، ويكبرون ثم يصرخون فيه : أخرج ‥ فقد آن الأوان ‥

ويتمهل شعبان قليلا ، ثم يغوص تاركا خلفه دوامة صغيرة ‥ ليظهر مباشرة أمامهم ‥ فى الماء الضحل ‥ يبطش بكفه ، فيثير رذاذا من الماء ، يتطاير الى وجوههم ، فيواصلون الهتاف بالصلاة على النبى ويردفون : أخرج والا نزلنا لك وضربناك حيث أنت ‥ لا تتهرب ‥ فقفز الى الضفة ليتلقى لسعات الكرابيج دون أن يتأوه أو يتوسل الى أحد ‥

وتلفت الرفاق الى حامل الصرة يستحثونه ، فأشعل فانوسه ومضى يفك الصرة فى تمهل عجيب ، والعريس الذى خرج من النيل يرتعش من البرد ويمد يده ، فناوله بشكيرا كبيرا اختزنه شعبان لمثل هذا اليوم ، ثم مضى يناوله قطعة بعد أخرى ‥ والكرابيج لا تزال تنهال على جسده وترف فى براعة وتلمس بدنه لمسا رفيقا لا يخلو من اللسع ‥ آه يا ابن الكلب ‥ انك تلسعنى ‥ أيريد الملعون أن يجرحنى ليلة زفافى ! ولكن لماذا تشكو ؟ الم تفعل مثلهم من قبل ‥ أبوك لم يتأوه يوم زفافه منذ أربعين عاما حتى لا يحملك عارا . وابنك لن يتأوه، فتجلد واياك أن ترسل آهة واحدة . ولكن هل يتركوننى أزف الى عروسى والدماء تسيل من جسدى ‥ يا للعنة ‥ هذه ليست تقويرة القب بل فتحة الكم ينحشر

فيها رأسى · اسرع يا رجل فانهم سيمزقون جسدى بالكرابيج ، الملعونة تكة السروال يجب أن تتدلى من الامام لا من الخلف ·· اخلع والبس من جديد ·· أتراها يا رب هادئة عاقلة كما تقول مسكة أم انها ·· على كل أهلها ناس طيبون ·· لا أدرى كيف سيكون موقفها من أبى ·· سنفتح سويا متجرا ·· آه يا للملعون ·· هات الطاقية أولا يا جدع ·· لا بد منها قبل الشال والعمة ، واختطفها بسرعة وضغطها فوق رأسه ولف عليها العمة فى أحكام ·· واسدل عليها الشال ·· ولم يبق الا أن ينتعل ، فاتكأ على كتف أخيه جابر ·· وغسل قدميه فى الماء ثم دسهما فى المداس الاحمر البارق فى ضوء القمر ·· والكرابيج لا تزال تطن فوق رأسه وحول رقبته ··

ثم توجه الى النيل وانحنى عليه مفتر الثغر ·· ووجهه الاسمر المستدير يلمع مختفيا فى زحام أبيض من الشقة والعمة والجلباب الطويل حتى بدا فى الاطار المخملى ، نوارة قطن بيضاء تفتحت فى جنة خضراء ·

واستدار — ومن حوله رفاقه — يتقدمهم الفانوس بضوئه الباهت · وانعطف الى السكة الزراعية ، تحرسه العصى المشرعة والكرابيج الصاخبة بفرقعاتها ·

وراحت أشجار النخيل تميل وتهمس كأنما تحييه ، ومضت عيدان القمح توشوش كأنما تزفه ، بينما الرفاق يهللون بالصلاة على النبى ·· فتختلط أصواتهم المرحة بالضجيج الذى حملته الريح اليهم من النجع ·· ضجيج الاقدام التى ترج الأرض أمام الصيوان ، والطار الذى يهز الاعطاف فى الساحة الممتدة أمام الدار ·

ومن بعيد ، من خلال الاشجار لاحت لهم الفوانيس تتحرك لاستقبالهم عند المنعطف ·· ثم أحاطت بهم الجموع تدفعهم دفعا الى الساحة حيث توقف الشيخ عثمان متهلل الوجه باسما فى دعة ·

وتقدم شعبان الى أبيه ، وانحنى على يده يقبلها ، ويمسح بها جبينه ويطلب منه الدعاء·· فمضى الرجل يتمتم : بالرفاء والبنين يا ولدى ·· بالرفاء والبنين !

ثم أمسك بيده ، وأداره فى اتجاه الطريق المتعرجة الى الشمال ·· ثم دفعه الى وسط الموكب ، وهو يهمس : الى السعادة يا بنى ·· وفقك

الله ٠ وقر عينيك بذريتك ٠ فالتف الشباب به ، اخوته ثم أولاد عمه٠٠ فأصدقاؤه من النجوع المختلفة ، رافعين عصيهم متقاطعة فوق رأسه ٠

وأمسك الشاعر بزمام الموقف يواجه العريس رافعا دفه فوق رأسه ينقر عليه بشدة ويحجل بخطاه الى الخلف ٠٠ ويحدو الموكب بصوته الدافيء مزهوا بقامته المديدة وعمته المزركشة ٠٠ والعطر النافذ المنبعث من أردائه ، تختلط به رائحة العرقى المتناثرة من بين شفتيه مع الكلمات المنغومة المتكورة فى حنجرته العميقة والتى تتدفق لتنسكب سحرا فى الاسماع ٠٠ الكلمات قديمة ، لكنه يجددها ويحورها مع المناسبة ويلوى اسم العريس ، واسم عائلته وصفاته وصفاتها، ويذيبها فى النغم الراقص ٠٠ فتطرب القلوب وتميل الاعطاف ، وتتلاشى تجعيدات جباه العجائز وتبدو الفتيات أكثر نضارة في وهج الفوانيس والمشاعل المرتفعة فوق الرءوس ، وتبرق عيون العائلة فى زهو ٠٠ عند مقاطع تتغنى بأمجادها وبساتينها وسواقيها يسلكها المغنى جميعا فى شجرة النسب العريقة الممتدة الى الحجاز ٠

ولا ينسى علم العريس فيمجد حسن تلاوته للقرآن فى الصيوان ٠٠ ويصف خطه الجميل ورسائله البديعة المنمقة ثم يطمئن الى انتظام الموكب فيلقى بالدف الى صاحبه ويكتفى بالغناء يتعالى الى القمر وينصب منه الى الاسماع ٠٠ لا تقطعه الا زغاريد أخوات العريس يطلقنها ٠ وهن ينثرن العطر فوق ثيابه ٠

ثم انعطف الشاعر بالموكب ، ودار به الى الطريق الضيقة الطويلة التى تصطف البيوت على جانبيها ، فتستقبله الزغاريد على عتبات البيوت٠

وعند بداية نجع ـ أول نجع ـ تقدمت عجوز تحمل عصا طويلة ٠ تعترض طريق الموكب ٠٠ وترفع يدها وتزم شفتيها بها ، وتطلق زغرودة ممطوطة ، وتحجل حتى تتوقف أمام العريس تباركه وتدعو له ، بينما قطع الذهب المتراقصة حول عنقها وعلى صدرها تتهامس وتختلط بصوتها العجوز ٠

ثم استدارت الى الشاعر، فتوقف عن ارسال غنائه ، وفضت منديلا وألقت اليه بقطعة فضية ، وهمست فى أذنه باسم ابنها الغائب فارتفع صوت المغنى يهتف :

ـ دايما ٠٠ حسن بن سكينة دايما ٠٠

فرددت الحناجر هـذا الهتاف ثلاثا ٠٠ ومضى الشاعر بعدها يغنى للعريس وللفتى الغائب، بينما انفلتت العجوز ترقص وتدور حول العريس حتى انهكت قواها ، فأمسكت بيـده وقادته ٠٠ فانقـاد الموكب خلفه الى عتبة بيتها ٠٠

وهناك قدمت للعريس « سطل » لبن وهى تهمس :

ـ مباركة لك زوجك ياابن أخى ، ولتكن حياتكما صافية صفاء هذا اللبن ، حلوة حلاوة هذا التمر ٠٠

ودفعت بحفنة من التمر اليه ازدرد منها واحدة ، وهو يتمتم بالدعاء لعمته العجوز ٠٠ ثم عاود الموكب مسيرته المرحة ٠ لتعترض طريقه خالة أو جدة ٠٠ فتندفع « النقوط » وترقص على أغنية يرسلها الشاعر حولها وحول رجالها المغتربين ٠ حتى يرهقها الرقص ٠٠ فتتقدم بسطل اللبن وحفنات التمر ٠ ثم ترسل الزغاريد لتتبع الموكب فى سيره ، الا أن شيئا ما حدث جعل هذه الخالة العجوز تقطب وتستـدير بسرعة الى النسـوة تسبهن ، وقد ارتفعت اصواتهن فى صخب وهى تزغرد ، فامتلأ قلبها بالغيظ دون أن تدرك سببا لصرخاتهن ٠

ثم راحت تضحك وتسخر منهن ٠ حين رأتهن منكفئات يتمرغن فى التراب ، تحاول احداهن ان تنهض فتتعثر ، وتوقف الجميع يسخرون بينما الاطفـال يتقـافزون مثل الشـــياطين ٠٠ ويضربون بأكفهم على أفخاذهم ٠

فلقد انتهز الاطفال توقف الموكب فانسلوا وراء ظهور بعض النسوة وربطوا ذيل جلباب هذه بذيل تلك ، ووقفوا يراقبون من بعيد ما يحدث لهن حين يتحركن ٠٠

وتحرك الموكب وأسرعت واحدة منهن ترقص فاذا بهـا تنكفىء على الارض ، تتبعها أخرى حتى تشكل طابور أسود على الأرض يصخب ويسب الاطفال ٠٠

وتوقف الشاعر عن الغناء وأرسل ضحكة عالية وهتف :

ـ ولماذا تصرخين يا سكينة ٠٠ ارقصى وأنت فى الارض ٠٠

فصاحت سكينة هذه ضاحكة :

ـ فلترقص أمك ياابن الكلبة :

وضج الموكب بالضحك ، ثم عاود زحفه النابض بالبهجة ، لينعطف عند أول نجع فى قرية العروسة · يبدأ بأحراش كثيفة من نبات الحلفا ، وأشجار النخيل المتلاصقة ·

لاح فى بداية النجع شبح يزك بساقه · فوقف يراقب الموكب عن كثب ، ثم لوح بيده الى أشباح كانت تتحرك بين الاحراش ·· اشباح اندفعت بالهراوات والكرابيج الى الموكب وهى تطلق صيحات الحرب · فساد الهرج ·· وتعرض اخوة العريس وأصدقاؤه لهذه الاشباح يدافعون عن الموكب بصيحات حرب أخرى ·· وكرابيج تطن فىالهواء · والعريس يبتسم وكأنه كان يتوقع هذه الحرب المفاجئة ·

وتقاطعت النبابيب فوق الرءوس ، والتوت الايدى بينما النسوة يضحكن ، والشيخ الذى يزك بساقه يلوح بيده من جديد ويصرخ :

ـ هيا ··

فانطلق من بين الاحراش عواء رهيب ·· عواء ذئب تكرر مرة ثم أخرى ·· فألقى فى نفوس النسوة والاطفال رعبا جعلهم ينكمشون ويحتمون بظهور الرجال الذين تحفزوا ·· يتفرسون فى الاحراش · فاصطدمت عيونهم بجسد منكور يمشى على أربعة ، يزوم ويطلق عواءه ، فتقدموا بهراواتهم بينما تجمعت الكلاب تنبح ·

وكادوا يهوون بعصيهم على رأس الذئب ·· الا أنه انتصب على قدميه · ورفع هراوة غليظة بدأ يشق طريقه بها ، بينما صاح جابر : يالله ·· انه برعى اللعين · ودنا الشيخ فضل يزك بساقه ويهتف فى مرح :

ـ برافو ·· غلبناهم ·· برافو ··

فالتفتوا اليه ضاحكين ، ثم استداروا الى العريس ، فوجدوه فى حماية شباب نجع العروس ·

لقد أعد هؤلاء هذه المعركة الهزلية منذ الصباح ·· وكمنوا منذ الاصيل فى الاحراش ليتسلموا الموكب عنوة واقتدارا ·· مدللين بذلك أن العروس ذات منعة ، ورجال يذودون عنها ويحمون زوجها ·

وهمس والد العريس للشيخ فضل :

ـ عفريت يا فضل ٠٠ هكذا كنا نفعل فى أيامنا ٠٠ أما فى هـذه الايام فبهجة الزفاف أعمال صبيانية وأغان لا نفع فيها !٠

ـ لكنها أيام سعيدة ، وما كان فى أيامنا يموت الآن لنجـد غيره ، ألا تعرف أن أمثال هذه المعارك الهزليـة كانت جدية فى قديم العصر ٠٠ أيام الفروسية ٠

ـ عجبا ٠٠ وبالسيوف والرماح يا فضل ، ولـكن هل كانت هناك ذئاب تقف على قدمين وتحارب ؟!

ـ كلا ٠٠ هذا شيء من « تفانين » برعى !

وتوقفا عن الهمس والشـاعر يلعلع بصوته ٠٠ ويذكر لأول مرة واكراما لنجوع القرية التى دخلهـا الموكب اسم العريس مشـفوعا باسم العروسة ٠٠ كان يردد فى نغم هادر لتردد الجموع من خلفه :

انت يا أختـاه انت
يا شعاع البدر انت

ثم تكف الجموع ، فينطلق صوته العميق :

جاء صـيادك ألقى بالشـبك
يا حمـاما طار فى أوج الفلك
فاضحكى للسعد يا أخت القمر

وينقر على الدف لتردد النساء والرجال من خلفه :

أنت يا أختـاه انت
يا شعاع البدر انت

فيخيل للرائى أن الكون كله بمباهجه ومسراته قد ذاب فى هـذا الموكب البديع ٠٠وجوه الشباب من كل نجع باسمة ضاحكة ٠٠ يهزون الارض بأقدامهم ٠٠ والسمراوات فى أبهى زينة ٠٠ والعريس الذى تبدى زهرة بيضاء فى واحة سمراء ، وأشجار النخيل التى حلق البدر فوقها ، تلقى بظلالها الراعشـة على الارض تحت الاقدام والبيوت الطينية ، وهى تبدو سعيدة راقصة فى عيون الراقصين، والنجوم الباهتة٠ ومئذنة الجامع خلف بيتنا ، وشريفـة التى تركت العروس ، واستقبلت الموكب عنـدما أشرف على النجع ، و « داريا » التى انضمت اليه أمام بيتها ، وسعدية،

والعطور النفاذة ورائحة العرقى ودقات الطار ، والكلمات الجميلة الصادحة ، تنفذ الى القلوب ، وتكتسح ماغلفها من ركام التسجيلات ، وشجن الحديث عن بركات افندى والمستر هيس .

فالليلة ليست لهما ، ولا للطوفان، فالليلة لشعبان وعروسه، الليلة ليلة القلوب فلتفرح غير مبالية بأيام الشجن والحزن والطوفان .. كل شيء بدا بهيجا في تلك الامسية الجميلة ، كل شيء كان يبدو سعيدا كلما اقترب الموكب .. وارتفع صوت المغنى وانسكب جليا واضحا فى آذاننا نحن الذين توقفنا بالكلوبات والفوانيس نستقبله عند ناصية الطريق يتقدمنا أبى وخالى والمأذون والشيخ طه .

وتجلى الموكب فى أبهته ونضارته حين دلف الى الباحة الممتدة بين المتجر والشونة ، وتوقف أمام الباب العمومى ، باب بيتنا الكبير يستدبر الارائك والكراسى التى رصت فى الساحة ..

وتقدم أبى ، فحيا العريس واقتاده مرحبا به فى كلمات رقيقة ، ثم بأهله وبضيوفه ، وأحله على منصة عالية يحف به أهله ــ أبوه واخوته ــ بينما انهمكنا أنا وحسن المصرى وأوش الله نقدم الشربات ، وندعوهم الى مائدة قريبة أعددناها للضيوف ، ولا يزال الموكب يغنى ويرقص . ويردد اسم العروسة ، ويتغنى بجمالها وطيب أخلاقها .. انت انت .. أنت أخت البدر أنت .

وتوقفت بين الشاعر وصاحبه أراقب الموكب المهتز وأفكر فى شقيقتى .. ماهى فاعلة فى هذه اللحظة وهى تستمع الى كلمات الاطراء التى يسكبها الشاعر ؟ .. أتراها منتشية أم حائرة شأنها منذ الصباح ؟ .. ووددت لو دلفت لأراها فى هذه اللحظة .. الا أننى تذكرت أن خالتى أمرتنى أن أكف عن مضايقتهن . فبقيت أراقب الموكب الراقص ثم لمت حركة رأيت بعدها الرجال والشبان ، يقفون فى نصف دائرة يكملها نصف آخر من النساء والفتيات الناهدات .

ثم غير الشاعر ايقاعه على الدف الى نغمة مصفقة فانفصل عن الرجال عدد من الشبان يقودهم برعى يتأرجحون ويدقون على الارض بالقدم اليسرى، ويصفقون مع الايقاع . ثم يدقون عليها بالقدم اليمنى ، زاحفين كما يزحف الحمام ، شامخين بأنوفهم ، دافعين مناكبهم الى الشمال واليمين ، يرمقون الفتيات الصغيرات ، حتى توسطوا الحلقة ، وما تزال اكفهم تصفق ، وتهز الساحة ولا تزال أقدامهم ترج الارض .

وفجأة وحين تعالى الايقاع انفلتت شريفة من بين النساء ٠٠ انفلتت مثل نوارة الفول ٠٠ ترقص وقد أمسكت جلبابها عند الخاصرة بيدها اليمنى تطوح بها ، وأمسكت طرف الطرحة بيدها اليسرى ، تغطى بها عينيها حينا ثم تسفر عنهما حينا آخر ٠٠

ومضت تدور وتدور ، وتتقدم الى صفوف الرجال ٠ والشبان الزاحفون يضيقون الخناق عليها حتى بدا المشهد وكأن كل واحد منهم يريد أن يطبع قبلة على جبينها ، وهي لا تزال تميس ، وتدور ، وترمقهم بنظرات ترسلها من خلف جفون مسدلة ، هذا هو برعي يرج الارض بقدمه وعلى عينيه بريق ٠٠ انه لا يستحى بل يهمس : شريفة ! لكنها لا تبالى بل تمر به فى سرعة خاطفة ٠٠ وتتريث عند آخر ، ثم تعود وتدور فيرج الارض ويهز الجو بتصفيقه ويشمخ بأنفه ويقترب ثم يهمس : شريفة ! فلا تبالى ٠٠ فيزداد غيظه ويرمق الآخرين الذين يضيقون الخناق عليها ، فلا يتخلى عنها بل يتراقص بحيث يكون أقرب انسان اليها هى انتى تذكرت حسن المصرى فى هذه اللحظة فأرسلت الى صفوف الرجال الذين لم يشتركوا فى الرقص نظرة عابرة تبحث عنه ، فوجدته يبرم شاربيه ٠٠ ويرسل نظرات والهة الى امرأة أخرى خلف ظهرها ٠٠ فاستدارت ترقص حتى ايقنت أن نظرات حسن المصرى انما تتجه الى داريا سكينة أو الى البيضاء « أم زين » ٠٠ فارتسمت فى عينيها نظرة حائرة ٠٠ ثم راحت ترقص ٠٠ وخناق الشبان يضيق عليها وكأنهم يريدون اختطافها ، يضيق حتى تكاد أناملهم أن تلمس صدرها المنبعج وتكاد شفاههم أن تلامس شفتيها لم يغير ضارب الدف ايقاعه فيتراجع الموج الزاحف وتتراقص هى ٠ وكأنها تخطو على الاثير ٠٠ وتفرش الارض بجرجارها الطويل : وتتراجع فى خفة حتى تلقى بنفسها بين أحضان لداتها من الفتيات اللاتى استقبلنها فى اعجاب ٠

وهمست سعدية :

ــ يا سلام يا شريفة ٠٠ لو رأيت برعى وهو يرقص :

ــ ماله ؟ ٠٠

ــ كاد أن يأكلك كما تؤكل العجوة !

فابتسمت شريفة وهمست :

ــ فليأكلك أنت !

ودهشت حين سمعتها تقول :

ـ يا ريت ·· ليته فعل ·· لكن هل تسمحين ؟

فأشاحت بوجهها ، ثم ردت اليها مصاغها وانفلتت من الصف تسرع الى باب الدهليز ، فقد وعدت شقيقتي ، جميلة ، أن تكون بجانبها ساعة الزفاف ·

كادت تغيب ، وراء الباب ، لولا أن حركة في الموكب جعلتها تستدير وتتوقف على العتبة ·· وتطل على الجمع الراقص لترى ما يدور هناك ·

رأت صف الشبان يزحف كالموج الصاخب ويضيق الخناق على راقصة أخرى أمعنت النظر فيها حتى ارتسم الذهول على وجهها ، فانها لم تكن سعدية كما ظنت ولا بطة ، بل أمها داريا سكينة ! ففتحت فاها واستندت الى كتف الباب لتراها وهي تنثني في دلال فتاة صغيرة في الرابعة عشرة تدق الارض بقدميها ، وتتوقف لتغمض عينا وتفتح أخرى · وتلوى عنقها وتميله الى الخلف لينبعج صدرها ، ثم تدق الارض من جديد وتهز صدرها ، وتتقدم وتسعى كما يسعى الحمام ، لكن في سرعة خاطفة ، وطرحتها تتطاير فوق رأسها ، تنسدل منها لتلامس ردفيها بينما الجرجار حول قدميها يتحرك كما يتحرك ذيل طاووس ، والخلخال لا يرسل الا رنينا خافتا يبعث النشوة في قلوب الرجال فيهتزون ويزدادون تصفيقا بالأيدى ·· يالله ·· يالله · ان في داريا دلالا وجمالا وليونة جسم مازال يغرى الرجال ويسحر قلوبهم ·

وعند هذه الخاطرة تلفتت شريفة الى حسن المصرى ، وغاظها أن وجدته يفتل شاربيه ، ويحدج « داريا » بنظراته الوانهة التى ارتسم فيها نفس البريق الذى ارتسم فيها بين عيدان الذرة ، فأصابها ما يشبه الدوار ، وشعرت بالتهاب لذيذ يشمل فخذها · محل قبضته اللعينة ! فاستدارت ملقية رأسها الى الخلف · وصفقت الباب خلفها وعبرت الدهليز بسرعة الى الفناء ثم الى الديوانى حيث ارتمت لاهثة بالقرب من شقيقتى جميلة التى تهيأت على منصتها فى انتظار الزفاف ، متلفعة بشقة بيضاء خفيفة ، ومن حولها بعض الفتيات يستمعن الى الاغانى المنداحة اليهن من خارج البيت ·

وعرفن من شريفة أن « داريا » هى التى ترقص فى اللحظة التى دخلت فيها الفتاة ، وأنها ترقص كما ترقص أية فتاة · وودت جميلة لو تركت شقيقها وتلصصت عليها لحظة لترى كيف ترقص ·

وتعالت الهتافات ، وتعالى النقر على الدف فان « داريا » ظلت تحوم فى الحلقة وترف ، مسدلة الجفنين مائلة الرأس قليلا ، تميس وتهز الاعطاف ،

وتنسحب خطوة خطوة حتى ارتمت بين أحضان النساء ، باسمة لامعة بحبات العرق ·

توقفت بجانب « أم زين » تلهث وتمسح العرق بطرف كمها ، وترفع عينيها لتراقب الاعجاب فى عيون زميلاتها ، فاذا بها تواجه جسدا عاريا يطل عليها بعينين ساجيتين وفم مفتر يتمتم: واحد ·· أحد·· فكادت تصرخ لولا أنها عرفت فيه « كلو » الذى مد يده ولمس ذراع البيضاء فالتفتت هذه اليه تشهق وتشيح بوجهها وتنكمش ملتصقة بجسد « داريا سكينة » ·

ظهر كلو فجأة فى النجع ، وسرى على ايقاع الدف ، فتوقف خلف النساء ، يلقى نظرة على داريا وهى ترقص ·· ويبدو انها أثارت اعجابه فتسلل الى مكانها يريد أن يقول كلمة ، يريد أن يباركها الا أن عينيه استدارتا الى أم سعدية التى مضت ترقص ، فمضى يبتعد وهو يصفق ويدق الارض بقدميه ، والاطفال لاهون عنه ، ثم توقف عند باب الدهليز ورفع يديه الى السماء وهتف :

ـ واحد ·· أحد ·· صمد !

ودلف الى الداخل مسرعا فارتطم بجدتى ·· وعبر الدهليز الى الفناء فى خطوات مسرعة ، ثم اقتحم الديوانى على العروسة وصويحباتها ·· وانحنى عليها يمسح بيده على رأسها وهو يتمتم : واحد ·· أحد ·· مبروك ·· والفتاة ذاهلة سعيدة فى نفس الوقت ··

وأفاقت على صوتها الذى كان يقول : بطة ، شربات لكلو ·· اسرعى يا بطة ، الا أن كلو قد انفلت يعدو ويطوف بالفناء والمطبخ والدهليز ·· ثم خرج من الباب لا يلوى على شىء فى نفس اللحظة التى كانت أم سعدية تنهى فيها رقصتها ··

ثم توقف الدف عن ارسال دويه فارتفع صوت ينادى بالصلاة على النبى ! صوت نعمان يقود الى الباب العمومى موكب العريس واخوته وأصدقائه ·

ـ أما الباقون فليواصلوا رقصهم وغناءهم ··

فتعالى النقر من جديد بينما موكب العريس يتوقف على الباب الخارجى الذى أوصد دونه بجسدين عملاقين من أتباع عائلة العروسة يعترضان طريق الموكب فى عناد ، لا يباليان بالوعيد ولا يستميلهما وعد ··

ظل الموكب يناوشهما وهما لا يتزحزحان قيد انملة ، وأبي يضحك ويصدر اليهما أوامره فلا يبتعدان ‥ ثم تقدم الشيخ عثمان ودس شيئا في أيديهما ، فابتسما وهتفا بالدعاء للعروسين ، وتنحيا عن الطريق ، فمضى الموكب يعبر الدهليز وهو يرتل نهج البردة ويهمهم بالصلاة على الرسول ٠

وفي الفناء توارى شبح أمي فهي حماة من واجباتها أن تختفي كلما لاح زوج ابنتها ، ولا سيما في الايام الاولى ، فراحت تراقب الموكب الذى أوصد هو الآخر دونه بجسدين لامرأتين هما زوجتا العملاقين الاخرين ‥ وقفتا تعترضان طريقه فحاول شابان من نجع العريس أن يقتحما الطريق عليهما الا أن العريس أشار عليهما أن يتنحيا عن المرأتين ‥ ثم تقدم منهما ونفحهما ريالين ‥ زغرتا بعده وتنحتا عن الطريق ، فاندفع الموكب الى الديوانى المضاء ‥ بين التهليل والتصفيق ‥ والشبان يصفقون أو يطوحون بعصيهم ، وجابر يتلاعب بكرباجه كأنما يحاول أن يبعث الرهبة في قلب شقيقتى التى أطرقت على منصتها ‥

وأخذت أنا أخطو بقامتى القصيرة بين سيقان الرجال أحاول أن أستشف ما يبدو هنالك على منصة شقيقتى أشب على أطراف أصابع قدمى وأشرئب بعنقى واستند على كتف جابر ‥

ولا أدرى لم شملتنى حيرة فى تلك اللحظة ، ثم سألت نفسى ترى ماذا تفعل شقيقتى جميلة هنالك تحت الشقة ‥ أراها تبتسم أم تراها حائرة يملأ الخوف قلبها ‥ أم أنها هادئة كما عهدها الناس ؟٠

ورفعت رأسى لأملأ عينى منها وهى على المنصة ومن حولها الفتيات وهن يتهامسن ويشرن الى العريس الذى بدا مثل الملاك فى ثيابه البيضاء ، ملاك أسمر ، مجنح بشملة بيضاء ترف من حوله وهو يتحرك بخطى ثابتة وعلى ذراعه خنجر وتحت ابطه كرباج طويل وفى يده المخضبة بالحناء سبحة طويلة ووجهه الاسمر المستدير لا يكاد يبين من تحت عمته الكبيرة البيضاء ‥

وأردت أن أقلد الكبار ، فمددت عنقى ، وأطلقت صيحة بالصلاة على النبى ، ولكن كرباج جابر الذى ظل يطرقع به التف حول عنقى ولسعنى لسعة ، كتمت الصيحة فى حلقى حتى أننى تعثرت ووقعت على الارض ‥ أبكى والعن جابر الذى انحنى بسرعة ، ينتشلنى ويجس على عنقى ليطمئن، واحتضننى بعد أن أيقن اننى لم أجرح ‥

وذرفت أنا دمعتين ثم مسحتهما بطرف جلبابى واندسست من جديد بين الرجال أتحسس رقبتى ·· وأراقب الموكب الذى توقف فجأة أمام المنصة ، أمام العروسة التى راحت وهى مطرقة تختلس النظر من تحت شقتها البيضاء التى برزت من فتحتها ، وفوق الرأس ذؤابة من الشعر مثل عرف الديك ··

لعلها كانت تفكر فى حياتها الجديدة ، فى رجلها الذى تراه ماثلا أمام عينيها ·· ما له لا يتقدم فتنتهى من كل شىء ، من هذا العذاب اللذيذ الذى سيقت اليه منذ ساعات طويلة ·· تقدم يا رجل واتركنى أدلف الى هذا الحاصل الذى على يمينى فأتخفف من ثيابى وأستريح كما تستريح مخلوقات الله ·· تقدم فاننى أريد أن أخلص الى حامد الذى جرحه كرباج جابر لكن العريس لا يبالى بها بل يتجه الى القبلة ويصلى فى أناة ، ينهض ليواجهها لحظة صامتا لا يدرى ماذا يقول والصيحات تتعالى من حوله ·· ثم تشجع ومد يده فى بطء · ورفع الشقة البيضاء وامتد بيده الأخرى الى ذؤابة الشعر المرتفعة فوق رأسها ومسها مسا رقيقا ، وتراجع بيده وهو يبتسم للرجال الذين مضوا يتواثبون من حوله ويقودونه من يده الى عنجريب بمساند مريحة يتكىء عليها بينما الفتيات والنسوة المحيطات بجميلة ينهضنها ويسرعن بها الى الحاصل ··

ووقفت أنا مترددا : أأمضى اليها أم انضم الى هؤلاء الذين اصطفوا فى الديوانى ينشدون « النسيب » من اشعار المرغنى ، ورائحة العرقى تفوح من أفواههم ··

ولم تطل حيرتى اذ وقفت بطة على عتبة الحاصل تهمس وتشير ·· حامد ·· انت ياولد تعالى ·· العروسة تريدك ! فألقيت نظرة على شعبان ثم تسللت الى الحاصل لأجد العروسة واقفة فى الركن المقابل للباب تنتظرنى · فتحت ذراعيها حين رأتنى ، فارتميت على صدرها وأنا أقول مبارك ·· مبارك ·· فلم تجب بل رفعت رأسى بيدها ومضت تتحسس رقبتى فى حنان وتهمس ! أجرحت يا حامد ؟

ولا أدرى لماذا طال صمتى فانبرت شريفة تقول :

ـ ياشيخة ·· بلا وسوسة ·· لم يجرح كما ترين ··

فلم تطمئن العروسة بل مالت على تخلع جلبابى لتتأكد من ان جرحا لم يصبنى ، واطمأنت ثم استدارت الى سحارة صغيرة رفعت

غطاءها ودفعت الى يدى بعلبة من الملبن ، وطبعت على جبينى قبلة وهى تقول ..

ـ اذهب الى شعبان فانك رجل ..

ورأيت سعدية تقترب منى وتمد يدها تختطف علبة الملبن منى فاستدرت ونظرت الى باب الحاصل أعبره بينما ارتفعت أصواتهن بالضحك ..

٢٣

لم يعد ساهرا فى النجع الا بيتنا تتسرب منه أضواء خافتة الى الشارع الملاصق ، والينا فى الساحة ..

العروسان ساهران وحدهما فى الديوانى بينما أسهر أنا فى الساحة، أمسك بنبوت أطول من قامتى ، وأتلفع بشملة صوفية ، أراقب الطريق العام بينما جابر وبرعى يراقبان الناحية الشرقية من البيت ..

وبينما نحن نقص نوادر الزفاف لاح فى الظلام فجأة شبح ثم اثنان فثلاثة فتحفزنا نحن وشرعنا أسلحتنا .. ثم ركض برعى وجابر الى الناحية الشرقية واشتبكا فى سرعة خاطفة مع شبح كاد يتسلق الجدار .. طرقعة كرباج ثم آهة سريعة وأصوات ركض ومطاردة عادا بعدهما يهمسان ..

ـ المجرم البسطاوى جاء يتلصص على العروسين . .قليل الحياء .

ـ لو كان فى نجعنا لضربته حتى تسيل الدماء منه !

ـ كفاه ما ناله من لسع كرباجى ..

وتذكرت فى تلك اللحظة نوادر تحكى فى قريتنا بعد كل زواج :

تسلقنا الجدار وفتحنا كوة في السقف فوق سريرهما مباشرة ورأيناهما رأى العين وسمعناها وهى تصرخ ٠٠ رأيناها تدفعه فى صدره وتوقعه على الأرض ٠٠ لقد غلبته !! عجيبة ! ٠٠ فلانة غلبت فلانا ٠٠ أما فلانة فانها لم تنطق بكلمة واحدة الا بعد المعلوم لم تبال بتهديداته ، ولا بالخنجر الذى استله ، ولا بعصاه التى مضى يهشم الأطباق بها ٠٠ أطباق الخوص والصينى ٠٠ استمرت تطبق شفتيها حتى أذعن لمشيئتها ٠٠ أما فى الساعة الفاصلة فانها أطلقت صرخة حادة وغابت عن الوجدان ٠

تذكرت كل ذلك وعرفت لماذا نقف نحن حراسا على البيت ، ففركت عينى اطارد النوم ، وشددت قبضتى على النبوت وأنا أصيخ السمع الى برعى وهو يحكى لجابر قصة غرامه وعذابه ثم رن فى النجع صوت نوح يؤذن لصلاة الفجر ٠٠ وسمعت برعى يسأل جابرا ٠٠

ــ متى يخرجان ٠ الآن أم بعد طلوع الشمس ؟

ــ بعد قليل ٠٠

فسألت أنا ٠٠

ــ والى اين يذهبان ؟

ــ الى النيل !

ــ فى هذا البرد الشديد ! لماذا ؟

فضحك برعى وقال وهو يغمز لجابر٠٠٠انهما لا يشعران بالبرد ٠

ولا أدرى لماذا خجلت من سؤالى بعد هذه الكلمات ، فانزويت أراقب الباب ، والليل من حولى يخلع شيئا فشيئا جلبابه القاتم ٠ يكاد يميط اللثام عن وجه السحر الفاتن ، فبانت رءوس الاشجار جلية واضحة ٠ وتحركت الاعشاش قليلا ، وبكرت عصفورة فشقشقت مرة واحدة وسكتت وأنا ما أزال أراقب الباب ، وأفرك عينى وأوسع من حدقتيهما

واتبعت صرير الباب فجأة ، فقفزنا الى أقدامنا وفتح الباب ، فلم أر الا خالتى أمينة بايا ومعها « مسكة » شقيقة العريس ، تقفان على عتبة الباب ، وتختلسان النظر هنا وهناك على ضوء فانوسين تحملانهما٠ وكأنهما تخشيان شرا على العروسين فى صباحهما الاول : ثم انبرت الخالة تسأل :

ــ هل مر رمضان النجار من هنا ؟ ٠٠

وأجاب برعى بالنفى وهمس لجابر : رمضان النجار هذا عينه تفلق الحجر ، وهى تخشى أن تقع عينه الحاسدة على العروسين فى أول صباح يطلان فيه على الكون معا ٠٠

واستكشف الطريق ثم همس : لا أحد فى الطريق ٠٠ تعالوا ٠٠ فتنحتا عن الباب ، وخطرتا الى الساحة تحملان فانوسا ٠ ومن خلفهما العروسان بنفس ثياب البارحة ٠٠

وسرى موكبهما ونحن من خلفهما ٠٠ فى السكة الزراعية المتعرجة بين عيدان القمح المتمايله على انغام النسيم وبين أجمات النخيل حتى أوفت بنا الى الموردة حيث الفلوكة لا تزال رابضة تحتك بالجرف وتئن ٠

توقفا على الشاطىء ، والفانوسان يرسلان بريقهما رماحا تنثال على سطح الماء الراكد الصافى ، ورماحا تنطلق لتنعكس على الشمندورة التى كانت لا تزال ترتطم بسلسلتها تحاول الافلات ٠

والليل لا يزال يخلع جلبابه الداكن ٠٠ ويكشف شيئا فشيئا من مفاتن الصباح ٠٠ ليفيق الكون على ابتسامته الساحرة ، ابتسامته المتألقة على شفة الشفق الاحمر ٠٠ المنكشفة رويدا رويدا عن ثنايا بيضاء تبرق لينعكس بريقها على سطح الماء ٠٠

والنخلة العجوز التى استراح المماليك تحتها تهمس :

ــ أرأيت يا ابنتى ؟ للمرة المائة أرى الازواج الجدد يقفون على الشاطىء فى صباحيتهم الاولى رأيت أباها وأمها ٠٠

فتضحك النخلة الصغيرة وتعود النخلة العجوز التى استراح المماليك تحتها تهمس :

وهنا وقف فضل وفضيلة منذ ثلاثين عاما ٠ أما النيل ٠ فقد رقد هادئا رقدة الاله ، جبارا كعهد الناس به يرتعش لحظة ــ كعجوز يهرش رأسه مفكرا وينتفض عند الدوامة ، ثم يبتسم للشابين الواقفين على حافته فى خشوع وتبتل :

ثم انحنى شعبان على الجرف ، وخيل لى أن النيل قد ارتفع قليلا ليلتقى به ، انحنى وتمتم بدعاء : فغمس يديه فى الماء ، وارتفع بهما الى وجهه تمسحان عليه ٠

ثم استدار الى «جميلة» يهمس : هيا ٠٠ فمالت هى الأخرى وشربت جرعة ثم مسحت على وجهها وهى ترتعش من البرد ووقفت تدعو لزوجها ولنفسها ولنا نحن أهلها بينما استغرقت الخالة ومسكة فى دعاء مشترك متصل أفاقتنا منه على صوت شعبان يقول :

ـ حسبنا ، فالشمس تكاد تظهر ٠

وانطلقنا نحن الى الغيط وجمعنا حزمتين من عيدان القمح والفول بنواره فتأبطاهما ، وعاودا سيرهما البهيج نتقدمهما نحن الى أن أسلمناهما للديوانى الذى لن يفتح الا فى الظهر ثم يغلق ليفتح فى المغرب ٠ فيتوافد الناس يهنئون ويقيمون حلقات الذكر وينقرون على الدف ٠٠

وتوافدت النســـاء على جدتى فى الأيام الاولى يهنئن ويقــدمن مساهمتهن فى نفقات العرس ، فتأمرنى أن أكتب فى دفتر طويل خصصته لهذا الغرض :

ـ داريا سكينة : خمسة قروش ٠ أصيلة : عشرة قروش ٠ بنت الايه دفعت لها عشرين فى زواج ابنتها فلماذا تدفع أقل ، فتهمس خالتى : معذورة يا عائشة ٠٠ مسكينة ٠٠

وفى اليوم السابع خرج شعبان ـ ولأول مرة ٠٠ يطوف بالنجوع ويتلقى التهنئة والهدايا ٠ أزواجا من الحمـام والدجاج وأطباقا خوصية ملونة ٠٠

وتتالت الأيام وجميلة لا تزال قعيدة الديوانى لا يسمحون لها بأن تعمل عملا ما ٠٠ يكفيها أن تتمنى شيئا فتجاب على الفور ، وتنهض بطة أو شريفة لانجاز ما تريده ٠٠

دارت بطة طوال شهر العسل كمـا تدور النحلة : تخدم وتكنس وتغسل وتعد الطعام ٠٠ وتحلم فى نفس الوقت بزفافها ٠٠ وتستعيد فى نشوة ذكريات هذا الشهر لتحققها يوم زفافها ٠ فقـد أرسل حسـنين ـ ابن عمها ـ من القاهرة الى أبى يطلب يدها هى الأخرى ٠

وانقضى أربعون يوما خرجت بعدها العروسة تتلقى التهانى والهدايا ثم ران فى عينيها وجوم يستمر لحظة ثم ينطفىء حرت فى سببه ، فقـد أسرعت الايام بنا وتقرر أن تبارح جميلة بيتنا الى بيتها الجديد ٠٠

★★★

وجاء يوم الوداع • ومنذ الضحى مضت العروس تطوف بكل ركن فى البيت ، تتأمل الجدران والصوامع وتركع عند مربط نعاجها ومعيزها وتربت على ظهر خروف أصفر « كرجاوى » •• وتناجى « لورد » وهو يزك بساقه خلفها •

وتتعجلها « مسكة » فتقول جدتى :

ـ دعيها يا مسكة فالوداع مؤلم •• انها ترحل عن بيت عاشت فيه طول العمر ••

ثم التفتت الى جميلة تقول :

شعبان زوجك بح صوته يا جميلة ••• أسرعى •

فنهضت العروس وارتمت على صدر جدتها وهى تغص بالبكاء وتبذل الوعود : سأزوركم مرة كل أسبوع •• زورونى انتم ، لا تتركونى وحدى •

وتردد صوت شعبان ينادى عليها فاستدارت بعد أن عانقت أمها واستمعت الى نصائحها متجهة الى الباب والى يمينها بطة ••

أما أنا فقد كنت فى هذه اللحظة أراقب المشهد المؤلم بعينين دامعتين وفى قلبى دوامة من الذكريات والغيرة والالم لقد طافت جميلة بكل ركن فى البيت •• بكل نعجة وخروف ، بكل صومعة وجدار ودجاجة وديك •• بكل انسان الا أنا •• أنا الذى لسع الكرباج رقبتى ساعة زفافها • أنا الذى سهرت الليل وبرده فى سبيل حمايتها ! ••

كانت تتجه الى باب الخروج لتذهب الى الابد دون أن تودعنى وكدت أصرخ : جدتى •• امسكيها •• دعيها تقول لى كلمة واحدة •• ولكننى احجمت وأخذت أغمغم : اذهبى •• لن أزورك •• انت لا تحبيننى • كنت أحسبك •• لن أراك بعد هذا •• سأهرب من البيت كلما جئت لتزوريه •• والله العظيم ••

وأفقت على صوت الجدة وهى تطلق زغرودتها المنشرحة ، وفكرت أن أجرى الى « جميلة » وأعترض طريقها وأمنعها من الخروج • ثم ترددت وقررت أن أختفى فى الفناء •• وبينما أنا استدير دارت « جميلة » على عقبيها تواجه الدهليز والأهل وعيناها غائمتان لا تريان شيئا ، لا تريان هذا الولد الصغير الذى يحدق فيها ذاهلا عن نفسه ناقما عليها ••

وظلت ساكنة تحدق فى كل شيء ، وطال صمتها حتى ظننت أنها أخرجتنى من قلبها الى الابد ، فخطوت أعبر الباب الصغير المفضى من الدهليز الى الفناء الا أن صوتها الرقيق ارتفع يقول : حامد ٠٠ حامد ٠٠

فأسرعت نبضات قلبى ٠٠ وأدرت جسدى كله لمواجهتها ، ففتحت ذراعيها وأسرعت الى تحتضننى والدموع تسيل على خديها : ثم راحت تهمس وأنا أتمرغ على صدرها ، حامد ٠٠ تعال معى ٠٠ زرنا فى كل يوم ٠٠ لا تخف فالطريق عامرة بالناس ٠٠

كان صوتها الحبيب يترقرق فى قلبى وهى تهمس ٠٠ حامد ٠٠ يا شقيقى يا ابن أمى ٠٠ لا تنس ٠٠ ثم لمست بيدها ضفيرتى المسدلة خلف اذنى اليسرى وقالت : لقد كبرت يا حامد ٠٠ ولا داعى لهذه الضفيرة ٠٠ قصها عند « شنبيكة » ٠٠ والخروف الأصفر ربيته أنا لمثل هذا اليوم ٠

وتردد نداء شعبان فطبعت قبلة على جبينى ثم نهضت ، وفى عينيها دموع وألقت نظرة جديدة على كل شيء ٠ واجتازت الباب الخارجى لتنضم الى موكب وداعها ٠٠ الموكب الذى رافقها يحمل أمتعتها ، الموكب الذى استقبل فى نجعها بالزغاريد ٠

وهناك ، وقبل أن تخطو العروس أولى خطواتها فى البيت ، أمرها الشيخ عثمان والد العريس بالوقوف لحظة فتريثت الى أن ألقى الشيخ بخروف كبير عند قدميها وذبحه وأسال دمه على العتبة لتخطو فوقه العروس ٠

وعاد بنا الأصيل ـ بعد أن تركنا العروس فى بيتها الجديد ـ الى نجعنا ٠٠ وعند مشارفه تلكأت وانفصلت عن أبى ، واستندت الى جذع نخلة أفكر فى مصيرى بعد رحيلى هذه الأخت وبعد أن تتزوج بطة ، ثم تداعت الصور وتمثل لى بركات أفندى وقلمه العجيب ، ومصطفى ومدرسته ، وأخذت أقارن بينه وبينى ، بين مدرسته وكتابى ٠

وفجأة وكأنما كنا على موعد برز مصطفى من جانب الطريق فأخذت ألوح بيدى وأجرى حتى لحقت به ٠

تصافحنا ثم مضينا نتسكع ونثرثر فى كل شيء : لقد نقل الى السنة الثانية وسيمتحنونه بعد شهور وينتقل الى السنة الثالثة فالرابعة ثم القاهرة ٠

حدثنى عن العنب اللامع ومذاقه الحلو « واليوسف أفندى » فتحلب ريقى ، وتمنيت لو وافق أبى فأكون معه فى نفس المدرسة ..

ووجدتنى أسأله ..

ألا تحس وأنت هناك بالشوق الى أختك وأمك ؟ فهرش فى رأسه وقال فى وقار ..

ـ أحس به .. لكننى أراهم مرة فى كل أسبوع .. الخميس والجمعة ؟

ـ وهل أستطيع أن آتى معك ..

وقبل أن يجيب أضفت :

ـ لأرى المدرسة والدكاكين والمركز ..

فقال ببساطة متناهية :

ـ ولماذا لا تدخل المدرسة ؟

وأجبت فى حزن ، أبى لا يريد ، فصمت الفتى واستأنفنا سيرنا ، فى السكة السلطانية لصق أحراش الحلفا ، والمساء يرخى قتامته ، الرمادية على النجع وعلى أعمدة التليفون والبرق .

والصقنا أذنينا بهذه الاعمدة ، نصيخ السمع الى كركرة جوفها ، كانت الكركرة تعلو فى جلبة حتى خيل لنا أن جموعا من الناس تتلاحى على مقربة منا حول أشجار لم تسجل وبيوت لم يدونها بركات أفندى ..

وربما كان بدر أفندى الذى طال الحديث عنه فى نجعنا يتحدث .. وهنا وجدتنى أسأل مصطفى .. وهل تعرف بدر أفندى . وقبل أن يخرج مصطفى يده من جيبه ليجيب وهو يلوح بها تناهت الينا صرخات محتدمة ترتفع من نفس المكان الذى ارتفعت منه منذ شهور .. يوم كسرت ساق الشيخ فضل ..

فتساءلنا : ماذا جرى هنالك ، دون ان نتحرك أو نعدو كما عدونا خلف مندوهة منذ شهور ..

وأجاب أحد العابرين ، وكأنما كنا نسأله..شريحة أرض لا تستحق بارة واحدة ، عمك الشيخ فضل والجزار يقتتلان بسببها ، وبصق على الارض فى اشمئزاز ثم أردف : لعنة الله على الارض وعلى الناس ، ومضى

فى اتجاه الجامع بينما مرق من جانبنا فى سرعة نبوت طويل يحمله برعى وهو يبرطم بكلمات غير مفهومة فأخذنا نهتف ونصيح به ..

– برعى .. برعى !

فلم يبال : بل انعطف هائجا مثل الثور الى السكة الزراعية المتعرجة ..

٢٤

هبت الريح وامتلأ الشراع ، فأقلعت السفينة بنا ، تعبر النتوء الشرقى ، وتتجه الى الطرف الشمالى للجزيرة ، وأنا أحدق فى الشاطىء وافكر فى هذه الرحلة التى أعد لها أبى منذ الأمس ، حين تذكر كلمات العروسة فى الدهليز يوم الوداع فأمسك برأسى وتلمس ضفيرتى الطويلة بيده ونادى :

– عيشة .. غدا موعدنا مع « شبيكة » ..

فأجابت ، وبسمة الرضا ترتسم على شفتيها : شىء لله يا شبيكة ..

وانبرت تعد الفطائر والهدايا ، بمساعدة « بطة » .. ولم تأو الى فراشها بالليل الا بعد ان حزمت بعض الامتعة وأعدت كل شىء لرحلتنا هذه الى « شبيكة » ، هذا الشيخ الذى أقيم له مقام مرتفع ، على قمة جبل عالية فى « الدر » ، يتبرك به الناس من كل قرية ، يذبحون له القرابين، عند الطهور أو الزواج ، أو يوفون بنذر قطعوه على أنفسهم ، ويعودون والرضا يشع من عيونهم ..

مجرى النيل يتسع ، والشاطىء يصعد فى بطء ، الى الجنوب بينما حسن المصرى يهدىء من روع الخروف « الكرجاوى » الذى ربط بحبل الى الصارى ، فمضى يثغو ويحاول الفكاك من وثاقة .. ويحتك بظهر جدتى التى استدبرته ، لاهية عنه ، فى حديث متصل مع أحمد عودة ، وأبى عن

شبيكة ومعجزاته ٠٠ والحديث كله زهو وفخر ٠٠ فليس شبيكة الا جدا أكبر لعائلتهما ٠ كان وليا مقربا الى الله ، يعبر النيل فى قفزة واحدة ٠٠ أو يخطو على سطح الماء فى يسر ، تماما كما يخطو الناس على الارض ، أو يتكىء على فرو يعوم به فى المجرى ، يهبط أو يصعد به فى النيل دون حاجة الى معدية أو فلوكة ، أو ينفلت فى الجبال حيث لا زرع ولا ضرع ولا ماء ٠٠ ويتكل على الله فى الهجير ، فتظلله الغمامة ٠٠ وتمطر له السماء فيرتوى ، وتقع الطيور مشوية عند قدميه ٠٠

مضيت استمع الى حديثهما فىسرور بالغ مزدوج ، فسوف أزور هذا الولى ، وأقص ضفيرتى عند أعتـابه ، وآكل من لحم هذا الخروف الـذى سيكون مباركا بفضله ، فتزداد قـوتى لأصبح فى قـوة برعى ، فأصرع البسطاوى وعبد الله الجزار ٠٠

وفى نفس الوقت ، يمكننى بعد زيارته أن أرى مدرسة مصطفى فى الدر ٠٠

أدرت هذه الامنيات فى ذهنى ، وأنا أحدق فى المجرى الواسع ، فحرت فى أمر « شبيكة » الذى كان يعبره فى قفزة واحدة ٠٠ ربما كان المجرى فى أيامه ضيقا ضيق جدول ساقيتنا الكبير ، ربما كان هو كبيرا كبر الجبال ! ٠٠

ووجدتنى أسأل جدتى فى فضول : كيف أمكن له ذلك ياجدتى ، فقالت: باذن الله ياولدى٠ وقهقه أبى وقال: كان رجلا طويلا واسع الخطوة قويا يشرب كوز سمن فى الصباح وآخر فى المساء ، أيام كان كوز السمن رخيصا ٠ ثم انطلقوا يتحدثون عن أيام زمان ورخص أيام زمان: كان الربيع رخصا تلتهمه الابقار ٠٠ فتدر اللبن والسمن ، والأرض خصبة تجـود ٠٠ وأشجار النخيـل عفية تهب فى كرم ثمارها ٠٠ أما الآن فكل شىء فى حكم العدم : لماذا ؟ ٠٠ كثر الناس ٠٠ أم ان الله ناقم علينا ؟

وتنهد أبى وهمس : وأيامنا هذه أسعد من أيام هؤلاء ٠٠ وأشار الى ، فانبرت جدتى تقول ربنا موجود ٠٠ فعاد ابى يقول :

ــ ألا ترين ؟ ٠٠ هذه الاراضى لن تكون لنا ٠٠

واشار الى الشرق ثم التفت الى الضـفة الغربية واردف : وهنـاك ليس الا الرمل الاصفر ٠٠ لا زرع ولا نبات ٠٠

فأدرنا رءوسنا الى الضفة الغربية : صفراء قاحلةعالية • تنحدر من كثبان الرمل والتلال الصغيرة المتناثرة، وتنتهى على الجرف بمغارات سوداء، يسيل من أطرافها ماء بارد يصب فى المجرى ، ولا يمتد خلفها غير الصحراء الخالية الا من « كرن نوج » القصر الأثرى الرومانى • القديم بقمة المتثلمة والذى أشار اليه أبى ليقول فى صوت غاضب :

– خبرنى يا أحمد •• أيمكن أن ينبت شيء فى هذه الضفة القاحلة؟•

– اذا آراد الله ••

وردد عوض كتية النوتى كلماته وأردف :

– باذن الله ••

الا أن أبى قاطعه بقوله :

– لكنه لم يرد ، فجعلها صخورا وكثبانا وأخاديد •• أنظر بالله عليك ، أنظر ما وسعت عيناك أن تبصرا ، هل تجد الا نباتات الموت •• الا الصبار •• حتى العاقول لا ينبت هناك •

وفرك أحمد عودة يده وأشعل سيجارته من عقب لفافة حسن المصرى، وجال بطرفه فى الضفة الغربية وقال :

– لم يجرب أحد حظه هناك بعد • •

وأمعن بناظريه ثم أردف : أى أرض يمكن أن تجود مع الخدمة •• وبدون خدمة يمكن أن تتحول الارض الخصبة السوداء الى أرض قاحلة شاحبة •• حتى هذه الضفة الصفراء يمكن أن تخضر ••

فصاح أبى : هذه مغارة شياطين لا تأنس اليها الخضرة •• لا يأنس لها الا السحالى والثعابين والضباع ، والصبار والعفاريت ••

فاستعاذت جدتى ، ومضت تطوف بيديها على رأسى ترقينى ، وهى تتمتم بينما واصل أبى حديثه : شتلات النخيل ستختنق فى قبضة الصخور •• كلا •• لا مقام لنا هناك •• لو طاوعتمونى لاخترنا مكانا بعيدا ولطاب عيشنا وعيش أبنائنا ••

وهنا ولأول مرة منذ اقلعت بنا السفينة تدخل حسن المصرى فى أدب ليقول : ولماذا لا ترحلون ؟••

وعاد يعبث بالشاغول ويدير الدفة وأذنه تتلقف سؤال أبى :

ـ والى أين يا مصرى ؟

فأجاب على الفور ودون وعى : الى الصعيد . أرض الله واسعة ..

وحدجه أبى بنظرة ثم قال فى صوت مستريب :

ـ ولماذا لا نرحل الى السودان ؟ هنالك اخوتنا نفس اللون ، والقبائل لها نفس الجد ، والأرض واسعة ..

وفكر حسن لحظة ، وتمثل له الصعيد بمطارداته وبوليسه وأدغال قصبه فارتعش صوته وهو يقول :

ـ انرأى رأيك يا أمين .. الجنوب أحسن !

وأمن أبى على كلماته ، وراح يروى خبرا سمعه من أحد المداحين السودانيين : المهدى يرحب بالنوبيين فى السودان ..

واعترض أحمد عودة يقول :

ـ الميرغنى وليس المهدى هو الذى رحب بنا .

ثم انتصب مستندا الى الصارى ، يحدق الى الشمال والشرق . فقد عبرنا المنحنى الشمالى .. ولاحت لنا الدر ، فظلل أحمد عودة عينيه وحدق فى الجبل ، فرأى نقطا صغيرة مثل الخنافس تتحرك وتعبر الجبل ، من طرقه المتعرجة .. وقال وكأنما رأى ملامح الناس : ذلك هو الشيخ فضل والجزار ومعهما .. آه .. من الذى معهما ؟.. الولدان برعى والبسطاوى ، يقودهم الشيخ جعفر الى المركز ..

واستدار الينا يقول : نفذ صبر العمدة فساقهم الى المركز ..

وهمست جدتى :

ـ وعلام البهدلة .. كان الاولى أن تعقدوا الصلح بينهما ..

وهتف أحمد عودة :

ـ لم يوافقا . لعنة الله على بركات افندى ودفاتره ..

ولم يكمل جملته بل تنهد وألقى بسيجارته للأمواج فى صبر نافذ ..

وفى هذه اللحظة كانت الدواب السارية على الجبل قد اختفت عن أنظارنا ، بينما السفينة تتجه برأسها الى شواطى الدر التى بدت بمبانيها

ونجوعها ، كبيرة ذات حقول صفراء متماوجة ومآذن عالية ترتعش في حدقات عيوننا كلما اهتزت المركب بنا على صفحة النيل ..

ورست بنا المركب في محاذاة غابة من النخيل تتبدى قبة شبيكة البيضاء من خلالها سامقة هنالك الى الجنوب تبعث الرهبة في النفس .. ومن أمامها .. الى الشمال والشرق وفي امتداد سفح الجبل والسهل كانت تمتد نجوع «التتراب» والتنكياب (الغربياب) والبزرجناب ونجوع الخليلية والكرباشية والسرودية ..

وبينما خالي أحمد عودة يعدد أسماء النجوع والقبائل مدت السقالة فنزلنا الى الشاطيء لنجد في استقبالنا الشيخ غلاب أحد أقارب العائلة.

بتنا عند هذا الرجل ليلتنا ، وصحونا في الفجر لنتجه الى الجبل ، حيث القبة البيضاء المطلة على الكون قائمة في غبش أضواء الفجر .

وعند السفح المزدحم بالناس الذين وفدوا من كل قرية يتبركون بأعتاب « شبيكة » ، دون أن يتطاولوا ليبلغوا قبته توقفنا جميعا . جدتي وأبي يتضرعان الى مقام الولي أن يسعدنا ، ويفضون الى سدنته برغبتنا التي دفعتنا الى عبور الجبل، فتقدموا بنا الى مكان قريب من القبة، وهنالك نحر الخروف الاصفر وسالت دماؤه على الصخور قربانا لولي الله ..

ثم امتد مقص واجتز ضفيرتي التي لفتها جدتي في قطعة من الحرير الأصفر دستها في صدرها وهي تتمتم بالدعاء ..

وفي ضحى اليوم التالي عاد أبي مع جدتي ، بعد أن تركني في الدر مع أحمد عودة وحسن المصري بعد أن توسلت وتضرعت اليه ..

وما أن غابت المركب عن أنظارنا حتى بدأنا نحن نوغل في القرية نحو الشمال يقودنا الشيخ غلاب الى أن حاذينا كوبرى « أبو زقان » ، فتوقفنا عليه برهة نتأمل الاخدود العميق الذي ينفلت تحت الكوبري لينحدر من الجبل الى النيل ..

وسأل حسن المصري :

ــ هل يرتفع الماء في هذا الاخدود ، فيصلح لري الارض ..

فقال الشيخ غلاب :

ــ كلا .. هو يابس طول العام ..

وأضاف كأنما تذكر شيئا :

ــ مرة واحدة منذ سنوات ، انحدر من هذا الاخدود سـيل جارف حطم الاشجار والبيوت وكل نبات ..

وابتلع ريقه واستطرد :

ــ وبات الناس فى العراء وجاعوا.. لكن الله جبر بخاطرهم فتبرع النـاس فى مصر والاسكندرية والمدن المختلفـة بألوف الجنيهـات لاغاثة المنكوبين ..

ــ عفارم ..

ــ لكن المنكوبين رفضوا هذه الألوف ..

ــ عجائب يا شيخ غلاب .. عجائب !

ــ رفضوها واشترطوا ايداعها فى خزانة مديرية أسـوان لتنفق من ريعها على أبناء النوبة المتقدمين المعوزين فى المدارس ..

وهز حسن المصرى رأسه فى اعجاب ، وأراد خالى أن يقول كلمة الا أنه صمت وهو يلمح الشيخ فضل يزك بساقه ومن خلفه عبد الله الجزار وبرعى والبسـطاوى يقودهم الشيخ جعفر وبرعى حثيثـا الى الكوبرى يريدون عبوره مثلنا ..

وألقوا بالتحية حين اقتربوا منا ثم استداروا يهنئوننى على قص ضفيرتى وتبركى « بشبيكة » وزياراتى لمقامه !

وسارت الجماعة تعبر الكوبرى ، وأنا من خلفهم أستمع الى كلماتهم: قال أحمد عوده يسأل : وماذا قال المأمور يا شيخ جعفر ؟ فأجاب هذا : ألم أقل لكم انه رجل طيب ؟ لقد نصحنا بالصلح ، فالتفت أحمـد عودة الى فضل والجزار يسألهما : أليس الصلح أفضل لكما بدلا من البهدلة فى المركز ، وقبل أن يجيب أحدهما انبرى البسـطاوى يقول : وكيف يتم الصلح .. أليس الشيخ فضل محقوقا ؟ فابتدره الرجل : اخرس يا ولد .. دع الـكبار يتكلمون .. حتى عبـد الله الجزار نهره بشدة .. فزم شفتيه وتراجع خطوات وانحاز الىالناحية الشرقية من الطريق وهو يغمغم، بينما استأنف الشيخ جعفر يقول : ونحن الآن فى طريقنا الى بدر افندى .. فقد دعانا الى بيته ليتدبر الامر بنفسه .. كان مع المأمور واستمع الى المشكلة فقرر أن يتدخل فى الصلح .. أتأتى معنا يا أحمد ؟..

وأشار الى بيت الرجل وقال :

ـ حجة وتجارة ٠٠ فتتعرف على الرجل فقد ذاع صيته ٠٠

وقبل أن تدلف بنا الطريق الى كوبرى « أبو زقان » اقترب برعى منى ، وعبث فى جيبه ثم دفع بيده ، أمام عينى بعقد جميل من الخرز يلمع، اشتراه بالامس من الدر ، وهمس فى أذنى : أليس عقدا جميلا يا حامد؟ ٠٠ فقلت : ليس أجمل منه ٠٠ هل اشتريته لأمك ؟ فهمس من جديد : كلا يا عبيط ٠٠٠ سأهديه الى شريفة !

فتذكرت على الفور مسحوق الوطواط و « لورد » واللطمتين اللتين أغضبتا شريفة ، وصراخها فى وجهه : أنت صايع ٠٠ وتبسمت فى يأس ٠٠ ويبدو أنه أدرك ما جال بخاطرى فقال فى صوت خافت ٠٠ كلا ياحامد انها ستنسى الحادث ، ولن تعود الى ذكره فهى تحبنى أنا وليس هذا الجلف ، وأشار الى البسطاوى الذى كان بعيدا عنا يخب فى الطريق كأنه ليس واحدا من الجماعة السارية فيه ٠٠

ووصلنا الى ميدان « أبو زقان » ٠٠

الميدان صغير ومستدير الا أنه يغص بأشجار الجميز الوارفة وذقن الباشا والأثل الملقية ظلالها على أديمه المتجعد بأقدام السابلة ، ونحتها أزيار فخارية حمراء ٠٠

ووقفت أتأمل الميدان والمبانى المرتفعة أمامه ، تفتح أبوابها عليه !٠

« مكتب البريد » حيث يعمل بدر افندى ٠ يخرج ويدخل منه أناس من أشكال وألوان مختلفة ٠٠ وبينما نحن ننعطف أمام هذا المكتب سمعت خالى أحمد عودة يقول :

ـ حسن : خذ حامد معك الى السوق ٠٠ وعد به بعد ذلك الى بيت بدر أفندى ٠٠ هناك تجدنا ٠٠

فأمسك حسن بيدى ودار بى فى الميدان ، حول مبنى البريد الى أن حاذينا حائطه المقابل لرصيف النيل ومرساة الباخرة التى ترد من الشمال مرة فى كل أسبوع تحمل البريد والطرود والمسافرين ٠٠

وأمام المرساة مباشرة ، وفى مواجهة النيل كانت المحكمة والمركز يتصل بينهما وبين مكاتب الموظفين فناء واسع ينتهى الجانب الشرقى منه بسلحليك وسجن صغير ليس فيه سجين واحد ٠٠

واستدار بي حسن الى شارع جانبى أطل علينا فيه بناء كبير ، صلصل منه صوت جرس ونحن نكاد نعبر الطريق أمام بابه الكبير ..

فتذكرت أحاديث مصطفى عن هذا الجرس الذى مضى يصلصل فى دوى يفوق صلصلة عشرات الاجراس الصغيرة المعلقة على صارى المراكب الشراعية فى يوم عيد ..

أيقنت أننى أمام المدرسة فتلكأت ثم طلبت من حسن أن نتوقف قليلا فقبل على مضض ، فرحت أنا أراقب المدرسة فى فضول ..

ومرت لحظة بعد أن سكت الجرس ثم فتح الباب الكبير ، ليندلق منه الى الشارع عشرات من الصغار فى سراويل قصيرة مختلفة الالوان يتأبطون كتبا ، ويمسكون فى أيديهم مساطر وأقلاما ، ويلكزون بعضهم بعضا ، ويتقاذفون فى شيطنة غريبة ، فيملئون الشارع ضجيجا يصم الآذان ..

ثم فتح الباب من جديد وخرج منه الى الشارع أربعة رجال استرعوا انتباهى : اثنان فى ملابس مثل ملابس بركات أفندى ، يتوج الطربوش رأسيهما والآخران يتخذان زى الشيوخ : جبة زاهية وقفطانا لامعا يشدانه الى الخاصرة بحزام عريض ، احدهما حليق الذقن والشارب ، ما يزال فى مقتبل العمر ، بينما الآخر قد تخطى مرحلة الشباب .

ومضى الأولان يتهامسان بينما ابتسم الشيخ الاول الشاب لنكتة أرسلها زميله ، غير أنه زم شفتيه فجأة ثم صرخ فى صوت آمر ارتعدت له مفاصلى :

ـ خليل . انت يا ولد يا خليل . تعال هنا .

فذعر الصبية الذين كان الشارع يموج بهم ، ورمقوا زميلهم الذى كان يتواثب فى الشارع ، ويشوط بحذائه الاسود ذى الرقبة العالية حجرة صغيرة أخذ يدحرجها من أول الشارع الى آخره ، وهو يحجل ويصرخ فى مرح اختنق فجأة على شفتيه حين دوى صوت الشيخ فتوقف عن لهوه ، ومد يده بمنديل يمر به على طرف الحذاء ، يزيل خدوشا بيضاء احدثتها الكرة الصخرية ، قبل أن يقبل على الشيخ مطرق الرأس.

وأمسك الرجل بشحمة أذنه اليمنى، ومضى يفركها فى قسوة بينما الغلام يستجير : والنبى يا شيخ مرسى .. وحياة ابنك صالح . لن أعود الى تمزيق حذائى .. لن أعود .. والنبى ..

وقال الشيخ : ارحم أمك المسكينة ٠٠

وأهوى أحد الافندية بمسطرته على رأس الولدوقال وهو يبتسم :

ـ خلاص ٠٠ الولد تاب ٠

ولم يستجب الرجل ، بل مضى يفرك ويفرك أذن الغلام الذى استمر فى ارسال صرخاته : والنبى يا مكى افندى تبت ٠٠ والنبى يا شيخ يس٠ الا أن هذا كان قد ابتعد مع الافندى الآخر ليدلفا الى مكتب التلغراف ٠٠

اذن فهذا هو الشيخ مرسى الذى حدثنى مصطفى عنـه ٠٠ كم هو قاس هذا الشيخ !

ورمقنا الشيخ بنظرة مستفسرة وهو يتجاوزنا فهفهفت منه رائحة عطرة الى أنوفنا ، ولكزنى حسن بكوعه وأمسك بيدى وانعطف بى ٠ وأنا ما أزال أحدق فىالمبنى وأتسـاءل : لا بد أن الفصول هنـاك خلف هذا السور ، وفيها الكراسى والادراج والطباشير والتخت السوداء المعلقة على الجدران ٠٠ ولكن أين مصطفى ؟

ومضى حسن المصرى يصعد بنا طريقا متعرجا حتى استدرنا حول المدرسة فلاحت لنا خلفها بحيرة ضحلة تحف بها أشجار السنط والأثل والجميز ، وعمـارة ذات طوابق ثلاثة يتعرج من خلفهـا طريق ترتفع على جانبيه دكاكين متباينة الشكل ٠

وتلقانا أحمد شور ٠٠ صـاحب المطعم بابتسامة عريضـة فجلسنا نلتهم أرغفة بيضاء وقطعا صغيرة من اللحم نتصيدها من طبق الفاصوليا العائمة فى الصلصة الحمراء ٠

وخلصنا بعد ذلك الى مقهى حامد نشرب شايا مرا ثقيلا عافته نفسى، وأردت أن أطلب من حسن المصرى شيئا آخر الا أنه كان لاهيا عنى بأفكار يجترها ، ولمحت على وجهه أمارات مثل تلك التى رأيتها ليلة « فكيهة » أيام موسم البلح ٠

وسمعته يتنهد ويشير الى الجرسون ويهمس فى أذنه بكلمات قال بعدها : ابق هنـا يا حامد وسوف أعود ٠ وقبـل أن أحتج كان قد ترك المقهى بينما الجارسون يشيعه بتلعيب حاجبيـه ويقول : أمال يا عم ٠٠ « دنجل شوفو » وحرت فى أمر « الدنجل شوفو » هذه ولم أدرك معنى

لها الا بعد زمن طويل : مجرد مكان للسمر عند سفح الجبل يصخب سحابة النهار بجواريه ويسهر حتى منتصف الليل على ضوء الكلوبات ، وعلى أنغام الدف والحان تنبعث من أصوات مبحوحة : خدينى باليمين أنا راقد شمال تفوح منها رائحة العرقى والخمر ..

وعاد حسن بعد ساعة وأمسك بيدى ، فعدنا من حيث أتينا الى ميدان « أبوزقان » ثم الى بيت بدر أفندى وانضممنا الى الجماعة التى افترشت المصطبة الخارجية يحلقون بالاستاذ بدر ، كما ظلوا ينادونه طوال جلستهم هناك .

رجل نحيل قصير القامة ، بشارب طويل يغطى شفته العليا ويرسم ظلالا على وجنتيه الضامرتين وتضيف الى سمرته .. وعينين متقدتين بالذكاء ، بان فيهما ألم ربما كان سببه مرضا يشكو منه .

والرجل يرتدى بدلة رصاصية وقميصا أبيض تسترخى ياقته على بداية صدره ، بينما يلتف حول رقبته رباط تختفى أطرافه فى صديرى من نفس لون البدلة . وعلى رأسه طربوش طويل أزاحه الى الخلف قليلا فبانت صلعة خفيفة فى مقدمة رأسه .

كان حين وصلنا يشد على يد شاب طويل تشوب سمرته حمرة خفيفة .. كانت الريبة والقلق يكسوان وجه الاستاذ وهو يقول له :

– اياك يا حسين .. اياك والا ..

فما كان من حسين هذا الا أن زوى ما بين حاجبيه وزم شفتيه ..

وكرر الأستاذ تحذيره وأضاف :

– سوف أرسل لك بعد أن تصل الى مصر أمازلت تعيش فى غرفة السطح فى عابدين ..

فهز حسين رأسه بالايجاب وأسرع وهو يتمتم : غدا تروون عنى الحكايات .. الصبر الصبر ! .. الزم الصبر !

وتريث الأستاذ الى أن اختفى حسين وعاد الى مجلسه مقطب الجبين، فبدا وكأن هموم الدنيا تنصب على رأسه . وخيل للمرء وهو يستعيد حديثه عن الطوفان أن هذا الطوفان لن يحل الا به هو دون غيره من عباد الله .

تحدثوا طويلا عن البيانات والشكاوى التى يكتبها صباح مساء، فوق معالجته لمشاكل الطلبة المغتربين فى سوهاج وأسيوط والسعيدية وحلوان وكلية كتشنر الطبية فى الخرطوم ٠

ويبدو ان الرجل كان قد عقد الصلح بين الشـــيخ فضل والجزار فقد سمعته يقول وهو يشير اليهما : فى مثل ظروفنا يجب علينا أن نتناسى كل شىء ٠ يجب ألا نتنازع على شريحة صغيرة من الأرض ستكون فى جوف الطوفان بعد زمن قصير ٠

وطلب منهم جميعا أن يقرأوا الفاتحة ، وما كادوا يقولون آمين حتى قال الأستاذ ٠ انت يا شيخ جعفر تعرف كيف تم الصلح ٠ الجزار يزرع الشريحة ويستفيد منها ، أما الشيخ فضل فتسجل الشريحـــة باســمه جزاء لما اقترف الجزار حين كسر ساقه ٠

وحاول رجال نجعنا أن ينصرفوا بعد ذلك الا أن بدر أفندى قال لهم : كلا ٠ فأنا أريدكم فى مسألة أخرى ، وبدأ يستعد للكلام ،الا نه قطع حديثه وهب واقفا يستقبل الشيخ مرسى والشيخ يس ومكى افندى والمصرى أفندى وبعض الآخرين أفسح لهم مكانا على المصطبة ٠

وأدار الشيخ مرسى عينيه فينا ، فقال الأستاذ بدر :

ـ لا مانع فانهم منا وليسوا علينا ٠

فبدأ الشيخ مرسى يتكلم ويسرد قصة طويلة عن المدرسة الابتدائية فى الدر وكيف أنشأها رجال من النوبة يشكرون : حسن عجيب وعلى بك خيرى ومكاوى الطرابيشى ٠٠ أنشأوها هى ومدارس النهضة النوبية فى الاسكندرية من ملاليم وقروش جمعوها من النوبيين ، وجلبوا لهـــا المدرسين ، ثم سعوا عند رجال الحكم والانجليز متشفعين بكل رجـــل يعرفونه حتى ضمت الوزارة هذه المدرسة اليها وبدأت منذ سنين تنفق عليها وتبعث بالمدرسين وتدفع مرتباتهم ٠٠٠

وسكت الشيخ مرسى بينما يرتشف جرعة من الشاى فواصل مكى أفندى حديثه :

ـ والآن فان الوزارة تريد أن تغلق المدرسة ٠

وبدون وعى صاح الشيخ فضل :

ـ ولماذا ٠٠٠ لماذا ؟

فتلفتوا اليه وأساريرهم تهلل لهذا الاهتمام الذى بدا من الرجل ثم استرسل مكى أفندى :

ـ الحكومة لم تقصر بقدر ما قصرنا نحن ـ أقصد النوبيين ـ فانهم لا يرسلون أولادهم الى المدرسة ٠

وتدخل الشيخ ياسين يكمل الحديث ٠٠

ـ الحكومة تقول ـ عدد التلاميذ فى المدرسة لا يتجاوز السبعين وتزعم أنها لا يمكن أن تتحمل نفقات مدرسة كبيرة وترسل مدرسين الى أقاصى البلاد ، الى المنفى ـ فانها تعتبر بلادنا منفى ـ وقد أنذرتنا انها ستغلق المدرسة ما لم يتضاعف عدد التلاميذ ٠٠

وسكت الشيخ ياسين ليتمخط ، فتدخل بدر أفندى يسأل ٠٠

وماذا ترون ٠٠٠ أنرسل شكوى ٠٠ ولمن نرسل الشكوى ؟

ـ وقال الشيخ مرسى ـ الشكوى لن تفيد والاساتذة يقولون بحلين لا ثالث لهما ـ نسعى لتصبح المدرسة داخلية مجانية وأن نقوم فى نفس الوقت بدعاية واسعة فى مختلف القرى ليرسل الناس أبناءهم الى المدرسة ٠٠

وقال بدر أفندى ـ الرأيان مناسبان لكن أولهما صعب وان كان فى امكاننا استغلال النكبة التى ستحل بنا فى سبيله ٠ أما الحل الثانى فيمكن القيام به منذ هذه اللحظة ٠٠

والتفت الى رجال نجعنا يسأل ـ أليس عندكم كتاب ؟ ٠٠ فهزوا رءوسهم بالايجاب ٠٠ ثم التفت الى أنا وسأل ـ ما اسمك ؟ فأجبت وأنا أتلعثم ثم تغلبت على ارتباكى وقلت : وأنا أريد دخول هذه المدرسة ، فتهللت أساريرهم ، واستدار الى الشيخ مرسى يسأل : ولماذا لا تأتى ؟ قلت ان أبى يريد ارسالى الى الأزهر ، وتدخل أحمد عودة يؤكد : أبوه يصر على ذلك ، ولكنه باذن الله سيدخل مدرستكم ٠٠٠

وارتفع صوتا فضل وجعفر يؤيدان خالى ٠ واكتفوا بهذا القدر وتركونى وأنا ما أزال أحاول الكلام وعادوا يتحدثون عن الحلول المناسبة وانتهوا الى الكلمات التى أكدها بدر أفندى :

ـ سنرسل الى مصر ونكتب فى الصحف ، ونكتب الى الناس فى

كل القرى نستحثهم على ارسال أبنائهم ٠٠ وعليكم أنتم فى قريتكم أن تقنعوا الناس ٠٠

فأمنـــوا على كلامه رغم انهم يعتقـــدون أن الناس فى قريتنا لاهون عن المدرسة وشئونها ، ولا يعرفون عنها شيئا وانهم مشغولون ببركات أفندى وبالمصيبة التى يتوقعونها ٠٠

وتهامس المدرسون قليلا مع بدر أفندى واتفقوا على كل شىء بشأن المدرسة ، ثم عاد الحديث من جديد الى الطوفان فقال بدر أفندى :

ــ الناس يجب أن يهتموا بمسألة التعويضات ٠٠ وبالأماكن التى يرحلون اليها عندما يتم الطوفان ٠

وارتفع صوت الشيخ جعفر يسأل :

ــ ولماذا يقيمون الخزان ليخربوا بيوتنا ؟! أراضيهم واســـعة ٠٠ فلماذا لا يغرقون جزءا منها ؟!

وابتسم بدر أفندى وقال :

ــ الخزان يبنى فى أنسب مكان يا شيخ جعفر ٠٠ وبنـــاؤه أمر لا بد منه ٠٠ فسوف تروى مياهه أراضى واســـعة يقتات منهـا ملايين الناس ٠٠

وقال جعفر من جديد :

ــ سيعم الخير هناك ونموت نحن من الجوع ٠

ــ هذا يجعلنا نطالب بأرض جديدة ٠٠ وتعويضات مجزية ٠٠

وتنحنح وابتلع ريقه وحل رباط ياقته واستطرد ٠

ــ لكن يبدو أن حكومة صدقى لن تصل بنا الى بر الأمان ٠ فهى تعرف أن الناس عاطلون يتشوقون الى المليم والقرش ٠٠ فتتعسف وتعمل على تخفيض التقديرات الأولية التى أعدتها حكومة الوفد للتعويضات ٠

وهنا تدخل فى الحديث الشـــيخ عبد الغفور رئيس لجنة الوفد بالدر :

ــ لا شىء ٠٠ لا شىء ٠٠ صدقى لن يقدم لنا شيئا ٠٠ الداهيـــة

ابن الداهية ·· حتى الدموع لن يذرفوها علينا ·· لو كان النحاس باشا لتبدل الحال ·

وانتهز الجزار فرصته فقال بصوت خشن :

ـ آه ·· لو كان اللورد كرومر ··

فقاطعه أحمد عودة بحدة : لعنة الله على كرومر ·

فسكت عبد الله الجزار على مضض ، ثم راح بدر أفندى يعدد أسماء قرى تزمع الحكومة أن تبيعنا فيها أرضا جديدة · تكلموا عنها وكأنها أماكن رهيبة : الطود والزينية ، ودار السلام وجبل السلسلة فتساءل الرجال :

ـ وهل يقبلنا الناس ·· وعاداتنا ليست مثل عاداتهم ··

وأنشب الشيخ فضل أنامله فى التراب ·· واشتمه وتركه يتسرب من بين أنامله وقال :

ـ والأرض هناك ليست مثل أرضنا ··

فاندفع عبد الله الجزار يسأل :

ـ ولكن لماذا لا نرحل الى السودان ·· المهدى يرحب بنا هناك ·

فانبرى الاستاذ يتكلم فى حماس :

ـ مجرد اشاعات ·· صحيح ان السودانيين اخوتنا ، صحيح الأراضى واسعة هناك ولكنها تموت من العطش ، والذين يحكمون هناك ليسوا الا انجليز حمر الوجوه يكرهون الجميع : المصريين والسودانيين ويكرهوننا نحن سواء بسواء ·· انهم يريدون استغلال نكبتنا لينقلونا الى السودان ·· ثم يدعون على مصر حقوقا ، أنسيتم حادث السردار ؟!

ـ لعنة الله عليهم ··

وبصق فى اتجاه الجنوب وأضاف :

ـ لعنة الله عليهم ··

ولم ينته الحديث الا بعد أن نادى بدر أفندى على ابنه كامل الذى هرول اليه ، فأمره أن يسلم بعض البيانات للضيوف ·

وعندما هب رجال نجعنا وقوفا يشدون على يده ويودعونه قال لهم :

ـ مأذون قريتكم يأتى كل أسبوع هنا ·· يمكنكم أن ترسلوا أى شكوى عن طريقه ·· واذا وصلنى أى شىء من مصر أرسله اليكم مع المأذون ·· وسأوصى بكم عوض أفندى وكيل البريد فى ابريم ·· شرفتمونا ·

***

ولا أدرى لماذا أصر أحمد عودة على عبور الجبل فى الظلام ، اذ لم نتريث الا ساعة ·· استأجرنا فيها دابتين ومضينا جميعا نشق طريقنا عبر الجبل حتى حاذينا شبيكة · فتوقف الرجال عند مقامه يقرأون الفاتحة ، ثم أخذت حوافز الدواب تنقر على الأرض الجبلية الصلدة وهى ترتفع على كثيب وتنخفض بنا فى أخاديد ، لا نصادف فى الطريق الا شجيرات الصبار القاتمة ، وآثار أقدام الضباع ، وهياكل عظمية تبرق فى ضوء القمر ·

وتشبثت بظهر خالى فى خوف حين اندفعوا يقصون نوادر صادفتهم فى رحلات مثل هذه مع الذئاب والثعالب والثعابين ··

وقبل أن ننحدر فى نهاية الجبل ـ عند مشارف القرية ـ قال الشيخ جعفر :

ـ الخير هو ما تم يا فضل ··

فصاح الشيخ فضل :

ـ الحمد لله ·· الخير فيما اختاره الله ·

بينما صمت الجزار صمتا مريبا ثم قال :

ـ على خيرة الله ··

ولم ينبس البسطاوى ولا برعى بكلمة ·· فان أحدا لم يصلح بينهما ، وانحدرت بنا الدواب تخب فى الطريق العام حتى اقتربنا من النجع ، وصرنا عند مشارفه ، وحينذاك ارتفع صوت لورد ينبح وكأنه يرحب بنا ، ومضى يتفرس فينا ثم هدأ حين ميز أشخاصنا ··

ودلفت الى الدهليز وألقيت نظرة على أمى متكورة فى ركنها ، ثم صعدت الى العنجريب · ووجدت جدتى قد أفاقت على صرير الباب ·· وهمست فى أذنها : سأدخل المدرسة يا جدتى ، فهكذا قال بدر أفندى· فمدت يدها وتحسست موضع الخصلة وقالت : ان شاء الله ·· نم الآن يا ولدى ، فطبعت قبلة على جبينها ·· وارتميت الى جانبها ألوك ذكريات اليوم السعيد ·

٢٥

وتواتر الحديث فى النجع عن مصر ، والأندية النوبية فيهما وعن الاشاعات المتعاقبة والتقديرات المجحفة للتعويضات والتهب احساس الناس بالظلم ، فنفثوه على صفحات طويلة، يكتبها المحامى أو مأذون القرية أو يحملها اليهم هذا المأذون أو برعى من بدر أفندى ، يتلونها على المصاطب وفى الساحات أمام المتاجر ، ثم يوقعونها ويرسلونها الى المسئولين فى القاهرة ٠

كان برعى يتريث فى الساحة ــ فى كل مرة ــ حتى تتم التلاوة ، ثم يحملها الى مكتب البريد فى ابريم ، حيث يتم تسجيلها وارسالها ٠

وقد بدا برعى فى هذه الأيام ٠٠ مزهوا بمهمته الجديدة ، فخورا بها ، يتعالى علينا نحن صغار النجع ، فلا يجالس الا الكبار ، ولا يحلو له الا حديثهم ، وان كان لا يفهم منه الا القليل ٠

تعلم برعى الكثير من كلمات بدر أفندى وارشاداته ، فبدأ يهتم بالمشكلة عموما ٠٠ لا يشوب تفكيره الا القلق الدائب الذى يفترس قلبه على مصير حبه ، والا التفكير الدائم فى شريفة ٠

اعترض طريقها بعد يومين من عودته من الدر وأهداها عقد الخرز اللامع ، فتقبلته بسرور ، وتناست اللطمة التى أوجعتها ، ولكنها رغم تقبلها هذه الهدية ونسيانها لقسوته لم تعد تراه كثيرا ، فهو فى غالب الأحوال يستقل مركبا شراعيا يحمله هو والمأذون الى الدر ، ويرحل اليها عبر الجبل ، وقد يلتقى فى الدر بصديقه أحمد محمود وبعشرات من الشبان أمثاله يفدون من مختلف القرى لنفس الغرض : يحملون الرسائل والبيانات الى بدر أفندى ومنه ٠

ما زال برعى صغيرا ٠٠ الا أنه فارع الطول يملأ العين بالثقة ،

لا يتكلم الا فى حزم ، فقد تعلم كثيرا من خبرة الحياة بعد أن هجر الكتاب، وتنحى عن مشاغباتنا نحن الصغار مع أطفال النجع الآخر ٠

ورغم كثرة تنقلاته مع المأذون ، فانه ظل يسهر على زراعة أبيه ويساعد خاله « فضل » الذى ساءت حالة ساقه ، وبدأ اهتمام البنات به يشتد حتى أن سعدية كثيرا ما كانت تعترض طريقه ، وتتبادل معه الدعابة دون حرج ، حتى الكبار من رجال النجع بدءوا يعاملونه كما يعامل الكبار ، الا أنهم رغم ذلك كانوا لا يتركونه يتصرف الا وفق مشيئتهم فانحصرت مهمته فى نقل الرسائل الى الاستاذ بدر أو الى مكتب البريد فى ابريم ٠٠ مجرد مرسال !

وقف مرة أمام مكتب البريد فى ابريم ٠٠ يطل من الكوة المفتوحة فى الجدار ، ويحمل فى يديه عددا وافرا من العرضحالات مضى يتصفحها ريثما يفرغ له عوض أفندى ، فلاحظ أنها خالية من توقيعات الرجال ٠٠ لقد نسى المأذون ذلك ٠٠ ولا بد له أن يعود ٠

وتردد لحظة ثم سأل عوض أفندى :

ـ انتظرنى فأعود الى البلد ثم أرجع ؟

فابتسم الرجل فى وجهه وسأله : ولماذا ؟ ألا تريد أن ترسل هذه الشكاوى ؟!

ـ أريد ارسالها ، ولكن أسماءهم ليست هنا كما يحدث فى كل مرة ٠٠ هل يمكن ارسالها بدون الأسماء ؟

فهز الرجل رأسه بالنفى وأعاد الاوراق اليه وهو يهمس :

ـ ولكنها يا ولدى مستعجلة ! ونحن سنغلق المكتب بعد حين والنجع بعيد ٠٠ وغدا الجمعة !

واستند برعى الى الجدار حائرا لا يدرى ماذا يفعل ٠٠ أيعود بها بعد غد أم ٠٠٠

وكاد اليأس يديره على عقبيه ليعود الى النجع ، لولا صديقه أحمد محمود الذى ظهر فى هذه اللحظة ، وحياه بحرارة ثم لاحظ حيرته ، فمضى يتندر بالتبويزة المرتسمة على وجهه فازداد وجومه وحيرته حتى سأله أحمد :

ـ فيم هذا العبوس يا برعى ٠٠ أمات أحد ؟ فهمس برعى كلا ٠٠

لكن الأسماء ليست هنا ·· والمكتب سيغلق بعد لحظة ولا أدرى ماذا أفعل !

وتمعن صديقه فى الأوراق ثم قال :

ـ ولماذا لا توقعها انت بدلا منهم ؟

فارتسمت الدهشة على وجهه وهو يسأل وهل هذا ممكن !

وتردد ثم أضاف :

ـ أنت لا تأخذ المسألة مأخذ الجد يا أحمد !

واتسعت عيناه بالدهشة مرة أخرى حين قال صديقه :

ـ ممكن وأبوه يا جدع ·· ألست رجلا مثلهم ؟ فيم يتميزون عنك ؟ ·· أنت تعرف القراءة والكتابة ·· وامضاؤك خير من بصمات الأصابع

ـ ولكن الرجال سيثورون ، خصوصا الشيخ أمين ، فهو رجل موسوس ، والجزار سيظن اننى عملت فيهم ملعوبا ·

ـ كلام فارغ ، وقع ولا تبالى ·· المهم أن تصل هذه الشكاوى ··

وتردد برعى لحظة ، ثم تناهى اليه صوت وكيل البريد :

ـ ماذا قلت ؟ ·· أهلا بك يا أحمد ·· أوجدتما حلا ·· أم أغلق المكتب وانتهى ؟!

فحزم برعى أمره وتناول الاوراق واستدار بها الى الكوة وركزها على حافتها ، ومضى يبلل القلم الكوبيا بلعابه ، ووقع على كل واحدة باسمه فى خط جميل واضح ·

وتردد قبل أن يسلمها وسأل : ولكن هل ترضى الحكومة باسم شاب صغير مثلى ؟

فصرخ فيه أحمد :

ـ ما زلت تخطرف يا برعى ! ومن أدراهم أنك صغير ؟

فسأل برعى من جديد :

ـ وهل يكفى اسم واحد ··

وذهل حين امتدت يد صديقه تختطف الأوراق منه ، ليوقعها

باسمه فى سرعة غريبة وهو يضحك : اسم واحد ·· اسمان ماذا يهم ؟ طبعا الأسماء الكثيرة أفضل ·· لكن ماذا أفعل الآن ؟ ··

وقبل أن يسلمها أمال ورقة منها الى ضوء الشمس الغاربة يقرؤها بسرعة ، ثم رفع رأسه وسأل : من الذى كتب هذه الشكوى ··

فأجاب برعى :

– هذه كتبها الشيخ صابر · نقل فيها جملا من خطبة للنحاس باشا !

فابتسم أحمد وقال :

– انها شكوى قاسية الكلمات تهاجم صدقى باشا وتتهمه بالخروج على البريد ، وعلى المسلمين ·· عفارم ·· هكذا تكتب الشكاوى والا فلا ·· لم يتعود المأذون أن يكتب مثل هذه الشكاوى فكيف واتته هذه الفصاحة والجرأة على الحكام ؟!

ثم ناولها جميعا لوكيل المكتب ، واستدارا يتحدثان عن بدر أفندى وشهامته ، وتواضعه رغم أنه أفندى كبير « قد الدنيا » ، ولقد التقيا فى بيته كثيرا ·· أو فى الطريق اليه عبر الجبل ·· واجترا ذكرياتهما فى الدر مع شبان صغار مثلهم التفوا بهم هنالك ، شبان من مختلف القرى: عبد العال من « الجنينة » ، ميرغنى والحارس من « أرمنا » ، واسحق من « توماس » ·· كلهم كانوا مثلهما يحملون رسائل الرجل الى قراهم ·

وانفلت أحمد فى حديث طويل مشحون عن المشكلة التى يعانى منها النوبيون · كان ينسى نفسه ويتكلم بلغة القاهريين ، ثم باللغة النوبية حين يستمهله برعى أو يستفسر ·

كان أحمد يكبر برعى بعامين · وكان يعى بالقضية كلها ويعرف حدودها · وصل فى دراسته الى الثالثة الابتدائية فى الدر ثم قطعها عند وفاة أبيه ، ورحل الى مصر أعواما ثلاثة عاد بعدها الى القرية ، ولم يبارحها منذ سنتين ، يداوم الاطلاع على الصحيفة التى لا تصل الا فى الباخرة مرة فى كل أسبوع ، ولا يخلو جيبه من كتاب ·· يخطب فى كل المناسبات ويندد بصدقى ، ولا يخفى ميوله الوفدية ، بينما برعى يكاد لا يعى شيئا ، لا يكاد يحس شيئا ، غير أن مصيبة ستحل بقريته ، ان طوفانا مثل طوفان نوح سيبتلع داره ودار شريفة ·· أما لماذا سيحل الطوفان · ومن أين يقبل وكيف ، ولماذا يتمهل رغم كثرة الحديث

عنه .. وماذا يفعل اذا ما حم القضـــاء ، فليس الا أنوارا غائمة فى رأسه ، الا انه كان يدرك أن هذه الشكاوى والعرضحالات انما ترســـل الى أصحاب هذا الطوفان ، بعد أن يوقع عليها رجـــال النجع والنجوع الأخرى ، وها هو اليوم قد أناب نفسه عنهم ولربما وضع الله سره فى أضعف خلقه ، فاستجاب لشفاعته !

هذه الشكاوى تسترحم حينا فى رقة ثم تشتد وتعنف حينا آخر كما هو الحال فى هذه المرة ، وتتكلم طويلا عن التعويضات وتطـــالب بجنيهات أربعة للنخلة الواحدة . وتلح فى طلب شراء أرض جديدة فى أماكن خصبة وعامرة .. أو تستفسر عن البقاع الجديدة التى ينتقلون اليها .. وقد تعترض على بلاد فى الصعيد حددتها الحكومة .

وقد سأل برعى صديقه فى هذه الأمسية عن هـــذه البقـــاع ، واسترعى انتباهه أن رأى صديقه يختلف عن رأى بدر افندى ، فلقـــد همس صديقه كما همس الجزار : خير لنا أن نرحل الى السودان ، فهناك أناس طيبون ، وجوههم مثل وجوهنا .

ورفع برعى رأسه فى دهشة وسأل :

ـ وماذا يهم ذلك ؟

ـ ماذا يهم .. كيف يا برعى ؟ .. انك لم تسافر بعد الى هناك .. فى السودان لن يعيرنا أحد بسواد وجوهنا كما يفعلون فى القاهرة .

ـ وماذا يفعلون ؟

ـ يضحكون علينا فى الطرقات .. هناك رجل اسمه على الكسار ، يسمى نفسه بربرى مصر الوحيد ! والعيال يجرون خلف أكبر كبـير منا وهم يصرخون : البربرى أهو .. البربرى أهو ..

فانطلق برعى يضحك ويقهقه حتى أمال رأسه الى الخلف فقـــد تذكر كيف طارد هو وبعض صبية النجع رجلا أحمر الوجه يســـمونه عدو الشمس ، وراحوا يرجمونه بالحجارة وهم يصرخون الأحمر أهوه .. وعجب لأمر الناس يبيحون هنا ما لا يبيحونه هناك فالوجوه السوداء شاذة فى القاهرة .. أما هنا فالوجوه الحمراء هى الشاذة غير المألوفة ..

وصمت وهو يتخيل نفسه فى شوارع القاهرة والعيال يحيطون به مثل الشياطين ، ويختطفون طربوشه أو عمته ويتصايحون من حوله ، فوجد نفسه يغضب ويكور قبضته ويصرخ : أولاد الكلب .. لو فعلوا

بى ما قلت ، أخلع رقابهم ، أجلدهم بالسـياط كما كنت أفعل بأطفال نجع السورداب فقط لو تجرأوا ..

وضحك أحمد مليـا ، ومن الذى يتركك تفعل ذلك فهنـاك البوليس والعساكر .

ـ العساكر ! وماذا يخيفنى منهم ..

وتذكر العسـاكر الذين رآهم فى الدر ، يدبون على الطريق ، ويلهثون من فرط السمنة وكبر السن فسخر منهم ومن صديقه الذى يحذره منهم ! ترى ماذا يفعل العيال فى القاهرة بجمال ؟

ومر أسبوعان ، ثم رأى برعى نفسه يدب على نفس الطريق لكن خلف ركوبة خاله الشيخ فضل تتجـه به ومن حوله عدد من رجال النجع الى مرساة الباخرة فى ابريم ؟ اذ قرر أن يسافر اليوم الى مصر فى الباخرة العائدة من حلفا ليعرض نفسه على الاطباء هناك ، فقـد عاودته آلام شديدة فى ساقه ، لم تجد معها الضمادات ولا التفصيد ولا التجبير ولا الحمصة التى غرزها فى جلد ساقه لتمتص الدماء الفاسـدة وتأبى كثيرا لا يريد السفر رغم الحاح أبى .. ثم رضخ أخيرا وركب دابته واعتزم الرحيل متحسرا على نجعه ، وودع الناس وفى عينيه سحابة من الدموع ، وفى سـاقه وجسده ألم ممض .. ثم أقلعت الباخرة به ، وعيون الناس معلقة بها حتى غابت عن الأنظار ..

وامتطى برعى ركوبة خاله عائدا وفى قلبه ألم يعتصر كيانه . حيرة مستبدة . ترى ماذا يفعل « الحكماء » بسـاق خاله . الطبيب الله . ليته استمع الى نصيحتى فلم يرحل . كم كنت أود أن افاتحه فى أمر شريفه فهو على عكس أبى بشوش . وأين تقع المستشفى النمساوى فى مصر ، وكيف أرسـل له الخطابات . هناك تمورجى من أقاربنا يعمل فى هذه المستشفى كثيرا ما أرسل لنا زجاجات القطرة وبرشام الديك والشمشم وأنواعا ناعمة ناصعة البياض من القطن .. سأكتب له .

وهل سيقدر لى أن أسافر الى مصر فى يوم من الايام كما سـافر خالى ، وكما رحل جمال شقيق شريفة . فابتعد عن الأهل والخلان . وعن النجع كله .. لكم أحب النجع وأهل النجع .

وأرخى اللجام لركوبته ، وأرخى العنان فى نفس الوقت لافكاره ، فعاش فى دوامتها ، يحترق بنارها . ووجد نفسه يتساءل : وما الذى

يربطنى بالنجع ؟ ‥ ليس كل شيء فيه جميلا ، ليس كل الناس أخيارا ، ولكنه رغم ذلك حبيب الى القلب ․ وها هو قد كبر ولم يعد يعبث كما يعبث الاطفال ، وها هم الصغار الذين أسلموه قيادهم من قبل يطيعون أوش الله اليوم ، ومازال بكر يصيد العصافير ، ولم يعد هو بقامته الطويلة وشاربه الذى بدأ يطل على شفتيه جديرا باللعب مع العيال ، ولا الانطلاق فى طرقات النجع كما كان يفعل منذ زمن غير بعيد ، ولكنه بدلا من ذلك يخالط الكبار ويهز رأسه كما يهزون ، ويلف عليه عمة كبيرة كما يلفون ، ولم يعد فى وسعه أن يدخل أى بيت كما كان يفعل قبل أن يطيل هذا الشارب ويميل صوته الى الخشونة ․ حتى شريفه لم تعد تستدعيه الى بيتها لاصلاح العنجريب أو السقف منذ أن أفسد لورد الجو بينهما ․ حتى العقد الخرزى لم يجعلها تدعوه الى كوب شاى ! تناهى اليه انها صدت البسطاوى كما صدته هو ، لكنها فى نفس الوقت / تفتح قلبها له ․ فما الذى يشده الى هذا النجع وهمومه وبلاويه التى لا تنتهى ؟ ‥ كم أنت سعيد هناك يا جمال فى مصر ‥ لكنك فى نفس الوقت ملوم فقد نسيت ․ ويلى ياجمال ․ فشريفه هذه التى تناساها هى التى تشده الى النجع بل أن النجع رغم كل همومه حبيب اليه بسببها ‥

ولماذا لا يتقدم للزواج منها ؟ أهو عبد الله الجزار الذى يحول بينه وبين بغيته ؟ أم أن شريفة نفسها لا تريده ‥ أم هو أبوه الذى يعارض رغبته ؟ انه حائر حقا فى أمر هذه البنية ، لعل حسن المصرى يشغل بالها ويداعب أحلامها فهى لا تصده رغم استنكاره هو لدخوله بيتها ؟ والبسطاوى رغم صدودها يغشى بيتها المرة بعد الاخرى ․ كم هو حانق على أبيه الذى قال فى سورة غضب حين عرف رغبته : ولماذا تتزوج هذه الفتاة البائسة ؟ ‥ أمها نجسة ركبتها الديون يا برعى ․ فضك من هذا الحديث ولا تذكره مادمت حيا ․ ثم لمح الى حسن المصرى والى الجزار وقرابته لها ․ وأراد هو أن يتمرد لكنه سكت على مضض وقد ازداد تصميمه على الظفر بأمنيته ‥ بشريفة يضمها الى صدره ‥

وها هو الرجل الوحيد الذى يشفق عليه ويوافق على زواجه من شريفة حبا واكراما له وفى نفس الوقت مكيدة منه للبسطاوى والجزار قد رحل الى مصر ‥ فمن له بعد رحيله ؟

***

وفى اليـــوم الخامس من رحيل فضل أفاق برعى من نوم القيلولة والشمس تكاد تغيب ونظر فى الديوانى ثم قام وغســـل وجهه وارتدى جلبابه البوبلين المقلم ذى الكمين الواسعين ، ونفض الغبار عن عمته ولفها حول طاقيته المزركشة ، وأمسك بعصا ذات مقبض نحاسى ، وأغلق الباب خلفه وتحول الى الطريق يهيم فيها فوصل الى المتجر والقى التحية على أبى وابتاع قرطاسين من السكر والشاى ، ودسهما فى جيبه وانصرف بينما أبى يتأمله ويفكر فى الأمارات الغريبة البادية على الفتى ليغمغم لنفســـه والفتى يختفى عن ناظريه : لقد كبر وأصبح رجلا • فيه الكثير من خاله الشيخ فضل ــ أعاده الله بالسلامة • انضجته مشاويره الى الدر والى مكتب البريد فى ابريم • وتنهد وأردف : ليت حـــامدا ينمو كمـــا نما هذا الصبى ••

ومضى الفتى الأسمر يغذ سيره الى بيت داريا سكينه ، غارقا فى أفكاره الا أنه توقف فجأة اذ لمح شبحين عند نباتات الحلفا على يمينه ، يلفهما غبش المساء ، شبح رجل ينحنى على فتاة ، يمسك بها من يدها وهى تقاوم فى دلال ، فاقترب منهما فى حذر الا ان قدمه داست على أعواد هشة ، فشعرا به وانفلتا هاربين ، واختفيا عن ناظريه ، وتركاه ذاهلا يتساءل : ترى من هو •• والاخرى من هى ؟ •• لعله البسطاوى •• ثم أسرعت دقات قلبه ترتفع الى رأسه مثل خنجر حاد يمزقه حين قال لنفسه : ولعلها شريفة ــ الملعونة بنت الملعونة •• اذن فهذا هو ما ترمى اليه •• العبث مع البسطاوى ؟ ولكن لماذا تظلمها •• أأنت على يقين ؟ •• كلا •• لعل الشبح لغيرها •

وقرر أن يطمئن فساقته قدماه فجأة الى أرض نباتات الحلفا ، فخاضها مختصرا الطريق ، واستدار حولها ليلحق بهما وهما يوليان ، فاذا به وجها لوجه أمام البسطاوى • أما الفتاة فقد انعطفت الى الخرابة الملاصقة لبيت داريا سكينه واختفت فى الظلام عن ناظريه •• جن جنونه •• انهـــا اذن شريفة مادامت تندس فى الخرابة لتدلف منها الى البيت •• بنت الكلب •• فلتكن الفضيحة •• ولكن على أن أتأكد •

وهنا تخلى عن مطاردة البســـطاوى وهرول الى بيت سكينة وطرق الباب طرقات عنيفة جعلت داريا تطل من فرجته ويداها ملطختان بالعجين !

تأملت وجهه فى استطلاع ، فدفع الباب ونحاها عن طريقه وهو يقول : خذى هذين القرطاســـين ، ثم اندفع الى الديوانى وهو ينادى : شريفة •• شريفة ، وداريا تسرع من خلفه مذهولة •

وتوقف فجأة أمام المصطبة الداخلية ، فلقد فوجىء بها راقدة على شفتيها ابتسامة ‥ اذن فلقد ظلمتها ، ومن أدراك يا مغفل ؟ لعلها تتصنع النوم ، وود رغم ذلك لو انكب عليها يقبلها لكن وجه داريا ، كان يطل عليهما ثم رفعت صوتها تسأل :

ــ ماذا هناك يا برعى ؟

فالتفت اليها مرتبكا وتلعثم :

ــ لا شىء ‥ فقط سمعت انها مريضة فقالت وهى تشهق :

ــ بعيد الشر ‥ أنهكت نفسها ونامت هنا منذ العصر ‥

فتراجع الى الخلف ، يكبت الرغبة العارمة فى صدره ، وقال وفى صوته حشرجة : خالتى ‥ أريد شريفة ‥ فقالت : شريفة أختك .

فقال دون وعى :

ــ لا أريدها أختا !

وأضاف بعد تردد : أريدها مع أمى فى البيت !

فقالت وفى صوتها استطلاع : ولكنكما مازلتما صغيرين !

فوجد قامته تشرئب ، وسمع صـــوته يصرخ : لست صغيرا ! فقالت مستسلمة : أبوك يمانع ‥ ثم هناك البسطاوى والجزار ‥ فهما من اقاربنا ولهما الكلمة يا برعى !

فقال على حين غرة : البسطاوى ‥ اسفخص عليه .

ولاحظ دهشتها وأضاف : البسطاوى يدور ويلف حول كل البنات . رأيته منذ لحظة ‥ ثم كف عن حديثه ‥

واستيقظت شريفة على صوتيهما ولكنها واصلت رقادها تصيخ السمع اليهما ، فأدركت مغزى زيارة برعى وحارت فى أمر نفسها : ترى بم تجيب لو سألوها ؟ ‥ فبرعى من شباب النجع ولن تجد خيرا منه ‥ لكنه ضربنى ومرت بيدها على الخد الايسر ، ثم لمست العقد الخرزى حول عنقها فأحست بالراحة لملمسه ولكن شيئا ما طفق يلتهب فى خدها فهى لا تزال تشم رائحة العرق وعيدان الذرة . والشاربين والقبضة العنيفة ‥ تبـــا لك ياحسن المصرى فلقد تذكرت نظراته الوالهة الى أمها داريا سكينة يوم زفاف « جميلة » وهى ترقص وتدور فى الحلبة كأى فتاة صغيرة ! انه غريب

لا تعرفين أصله ولا فصله ٠ هل ترضين بالزواج منه ٠٠ انه حلبى وأبيض ولكن ماذا فى ذلك ؟ الم يتخذ جمال من بيضاء غازية زوجة له فى مصر ؟ ٠

ترى ما الذى يمكن أن يقوله جمال لو عرف أن أخته تتلهف على حسن ٠ ؟ كل الناس ظالمون ٠٠ حتى جمال ظالم لا يرحم ٠٠ الم ينسنا ؟ الم ينس أمه ؟ ٠٠ وجاءها صوت برعى يرن فى الديوانى : البسـطاوى حمار ، فقالت لنفسها : صحيح ٠ لكنه قريبى هو والجزار يا برعى ٠٠ لقد وهبنا الجزار قيراطين مالحين ٠ الزرع قد مات ٠٠ أكله الملح ولكنه سيصبح فى الموسم المقبل ٠ لهما فى عنقنا جمائل ٠٠ لا تصخب هكذا فقد طلب البسطاوى يدى فصددته كما صددتك أنت ، الا انهم مازالوا يلحون ٠ أنا أعرف انه يلاحق سعدية ٠٠ كم أتمنى أن يتزوجها فأخلص منه ٠٠ فهو ثقيل على القلب ٠٠ ثم انعطف بها تفكيرها الى أمها ، ترى ما الذى تفكر فيه داريا ؟ انها توازن لتختار ٠٠ البسطاوى فى نظرها أوفق زوج ٠٠ فهو ميسور الحال بينما برعى فى نظرها ولد صايع ٠٠ انها لا تعرف اننى أمقت البسطاوى !

وتناهى اليها صوت برعى : لماذا يا « داريا » سأكون هنا فى موضع جمال ! ستعيشين معنا ٠

تناهت اليها هذه الكلمات فأيقنت أن العبوس قد ران على وجه أمها ولربما قالت لنفسها : فى موضع جمال !؟ ليس هناك انسان يمكن ان تجعله داريا فى قلبها موضع جمال !

وارتفع صوت أمها راعشا يقول :

ـ ولكننا لابد أن نسأل : « جمال » ٠٠ وربما صبرنا قليلا لنرى ماذا يكون وراء البسطاوى ! ٠

وكفت عن الكلام فقد تجددت الطرقات على الباب وتناهى اليها صوت الجزار ، فأسرعت شريفة تخرج من الباب الخلفى فتبعها برعى ، وهى تمشى بسرعة متجهة الى بيتنا هاربة من الجزار فانشرح صدره وناداها من خلفها ثم هرول حتى لحق بها وقال :

ـ شريفة ٠٠ أسمعت ؟ أم كنت نائمة طول الوقت ؟ ٠٠ لماذا تهربين من الجزار ؟ ٠٠

قالت فى صوت ناعس :

ـ أنا لا أهرب .. انما أردت زيارة بطه . فهى تريدنى ان أكون دائما بجانبها منذ أن رحلت شقيقتها « جميلة » فكرر عليها سؤاله الاول : أسمعت قولى لداريا ؟

فأشاحت بوجهها ثم قالت وهى تقفز فوق حفرة تجمعت فيها مياه متسخة : سمعت ،ولكننى لا أريد ان اتزوج .. ثم أشفقت عليه حين وجدته مقطبا وقالت : ربما أفكر فى الامر ! .. ولكن .

فمد يده ليمسك بها الا انها انفلتت منها تجرى الى بيتنا . وأراد أن يلاحقها ، الا انه توقف ذاهلا عن نفسه .. ثم انبعث يسبها ويسب أمها .

وقال لنفسه من شدة الغيظ : سعدية أجمل منها وقريبة المنال . لماذا لا أتزوجها كيدا فى شريفة وأمها ؟ . ياسلام .. ربما تفكر فى الامر ! كأنك بنت العمدة أو بنت بركات أفندى ، وكأننى عبد حقير ؟! سعدية أجمل . ناهدة، عفريته تلعب بالبيض والحجر . ست بيت . فلأتزوج منها لأرى شريفة تذوى من الغيرة .. وتولول كما تولول الثعالب فى الجبال ، حين يشتد بها البرد والجوع ..

وأطرق لحظة ثم قـال لنفســه متحسرا : لكن سعدية تحتك بكل الشباب .. حتى حامد الصغير لم ينج منها .. رفعته الى صدرها وغامت عيناها كما قال حامد .. وربما كانت سعدية هى التى كان البسطاوى يميل عليها منذ لحظات .

سعدية الاخرى بنت كلب !

وبخيته ؟! .. انها جارية بنت جارية . لا تلائمنى . أما بطة فقد طلبها ابن عمها حسنين وسرعان ما تتزوجه وتنزح معه الى مصر .. كلا ليس أمامك الا شريفة .. ولكن علام تتكبر هذه الفتاة . سيسبقنى اليها البســطاوى ، والجزار يتحدث الآن مع داريا فى هذا الامر هنالك حيث تركتهما . والله والله سأكتب لجمال .

وهنا توقف حائرا ، فهو لا يعرف عنوانا له فى مصر .. ثم انعطف فكره عند ذكر مصر الى خاله الذى رحل وتمنى لو عاد فى هذه اللحظة . وقرر أن ينزل من غد الى غيط خاله ليرويه فانه لم يرو منذ أيام طويلة وسيهلك الزرع من العطش .

مجرد التفكير فى خاله الشيخ فضل أعاد اليه هدوء نفسه فاستكان .

وألقى بالحجرة الصغيرة التى كانت فى يده بعيدا ثم ترك الخرابة الملاصقة لبيت داريا سكينة ، واتجه الى بيت المأذون فى نهاية النجع ليسأل عن بدر أفندى ، فقد مرت أيام طويلة دون أن يعرف شيئا عنه ٠

★★★

انتهى من رى أرض خاله ، ونفض يده من الطين ثم غسلها فى المياه المتبقية فى الجدول الكبير ٠ الغريب انه لا يرى أحدا فى الحقول ، فالوقت وقت الظهيرة ٠٠ وقد آووا الى بيوتهم ليتناولوا طعامهم ٠٠

وظلل عينيه بيده ونظر فى اتجاه الشاطىء وتساءل : ولكن ما الذى يجرى هناك عند النتوء ؟ ومد بصره فرأى رفاصا راسيا تخفيه أشـــجار النخيل والاثل ٠٠ ولم يستطع أن يعرف متى رسى ولماذا ؟

وقرر أن يعرف كل شىء ، فانطلق بالبقرة الى الحظيرة وأغلق عليهـا الباب ، ثم انسل الى الطريق العام ورأى فى بدايته الشيخ صابر مأذون القرية ٠ ومن حوله أربعة عساكر ، وغفيران ٠ فاندفع اليهم يريد أن يسأل المأذون عن الاخبار ، فانه لم يجده البارحة عند المساء فى بيته ٠

ظل يمشى اليهم دون أن يلاحظ أن أحد الخفيرين ، يلوح له بيده ، دون أن يلاحظ نظرات المأذون المحدقة ، بل ربما ظن أن المأذون يستدعيه ليفضى اليه بأخبار الدر وربما حسبه سيستقل الرفاص الراسى على النتوء الى الدر مع هؤلاء العساكر الذين يعرف برعى اثنين منهم ، فقد رافقا بركات أفندى ودخن البانجو معهما ، على مقربة من مصطبة العمدة ٠٠ فلماذا لا يسلم عليهما :

ودنا واقترب حتى حاذاهما ، فرأى لمحات من الخوف ترتسم على وجه الخفيرين ، ولكنه لم يبال بل اندفع اليهما ٠ وقال أحدهما شيئا باللغة النوبية كرره حتى سمعه :

ـ كنتام ! ٠ دافيمى ! ٠ لا تأت ! ٠ ابتعد ! ٠ كنتام ! ٠

ولم يدرك برعى أن الرجل يحذره الا فى اللحظة الأخيرة ، فاستدار ليعدو الا أن اثنين من العساكر كانا أسرع منه اذ تقدما منه ، وأمسكا به من معصمه بشدة ، تفوق قدرته على الافلات وأمراه أن يتبعهما مع المأذون الى الرفاص فقال فى صوت جاف :

ـ لماذا ؟ ٠

ـ مطلوب فى الدر ..

ـ من الذى يطلبنا ؟

فزم العساكر شفاههم وهم يدفعون بهما الى الرفاص .. وفى اللحظة الأخيرة وعلى السـقالة لمح برعى شريفة تحمل « الكوبيه » النحاسى ، وتنعطف فى السكة الزراعية متجهة الى الموردة ، فصاح بها : وو شريفة.. وو شريفة داريا .

فتلفتت لتراه بين العساكر ، وتوقفت ذاهلة لا تعى شيئا وأرخت يدها دون أن تشعر عن الكوبيه ، فتدحرجت على الأرض ترتطم بالحصى ، والحجارة الصغيرة محدثة صوتا امتزجت به الكلمة الأخيرة :

ـ خبر كاتيجي .. بلغى الخبر ..

وأدار الرفاص قلاباته فحركت الماء ، وهى تجتاز به النتوء الشرقى وتحفر مجرى مائيا أبيض ينداح وينداح ويرتطم بالشمندورة الحمراء التى مضت تغالب السلسلة الغليظة ، التى تشدها الى القاع .

وقبل أن تنتهى شريفة الى النجع وتروى للناس مارأته بعينيها كان الرفاص قد اجتاز القرن الشمالى للجزيرة وانعطف عند المنحنى الشمالى يتجه برأسه الى شاطىء الدر ليرسو .

وما هى الا ساعة حتى كان برعى والمأذون وأحمد محمود وعدد كبير من شباب القرى المختلفة يحشرون فى سجن المركز هنالك فى الدر . فى حجرة وحيدة واسعة ذات باب حديدى غليظ مرتفعة النوافذ معتمة ، ليس فيها عنجريب أو دكة فظل برعى على قدميه ثم رقد على الأسفلت وفى ذهنه دوامة هائلة من الأسئلة :

لماذا جاءوا به ؟ . وما الذى يريدونه ، ومتى يعود الى النجع .. ومن هو حسين طه هذا الذى أخذ اسمه يتردد ، بعد أن نطق به المأمور ؟..

ومضى يلوك على لسانه : حسين .. حسين .. حتى غمره النوم فتوسد ذراعه فى سبات عميق ؟

٢٦

قبل ذلك بأيام قصيرة ، وفي غرفة صغيرة ، فوق ســـطوح عمارة كبيرة تطل على شارع البستان وعماد الدين ، تمدد حسين طه على سرير سفرى صغير دون أن يكلف نفسه عناء خلع حذائه البنى اللامع ، ولا بنطلونه الرمادى ، وقميصه الناصع البياض الذى كشف .. من خلال فتحته على الصدر .. عن بشرة سوداء تتشرب بحمرة داكنة .

رقد وقد جحظت عيناه الواسعتان تحدقان فى السقف كأنهما تتأملان حشرات البق الزاحفة بين الأعمدة الخشبية ، تتخذ منها منطات تقفز منها الى السرير في مهارة فوق الوصف ، لكن صاحبنا لا يشعر بوخز هذه الحشرات اذ غرق فى أفكاره التى لا يستطيع المرء أن يدرك أغوارها الا اذا تأمل وجهه المدبب الأسمر المشرب بحمرة ، وشفتيه المنفرجتين دائما عن كلمات يهمس بها ، ويديه اللتين ، بين الفينة والأخرى ، .. يرفعهما من تحت رأسه ، ويكورهما ويطوح بهما فى الفضاء كأنما يطارد أشباحا تلوح له أو يهدد انسانا ما ويخيفه ..

انه يبدو وكأنه يعد خطبة نارية يلقيها فى مأتم سياسى بعد اغتيال أحد الباشوات أو كأنه سيطرد الانجليز بكلماته اللافحة !

واذا ماطافت عين المرء بالغرفة لرأى على جدار منها جاكتة من نفس لون البنطلون ، وطربوشا طويل القامة بجانب طربوش أخضر . ومن تحت الجاكتة ـ على الحائط نفسه ـ صفحة عريضة من جريدة « الجهاد » تشير عناوينها العريضة الى مناقشات فى مجلس الشيوخ تتخللها صور للوزراء ، ثم صورة كبيرة لدولة الرئيس ..

ثنى حسين ركبته فجأة ثم تململ فى مرقده ، ونهض برأسه قليلا ، واتكأ بيده اليمنى على السرير الذى أخذ يئن ، ثم دلدل قدميه وجلس

واجما برهة انتصب واقفا بعدها ‥ وتراءى ، وهو يذرع الغرفة الضيقة ، شابا طويل القامة عريض المنكبين ، شعره يحاكى حبات الفلفل وعلى وجهه أمارات قلق واصرار فى نفس الوقت ٠ ثم تحرك لسانه ومضى يهمس: قلت لهم أن الذى يألفونه لن يجدى ، لابد من عمل حاسم ‥ يتكلمون عن الدستور كثيرا ، ولا يفعلون شيئا جديا لاستعادته ٠

وتأمل السقف مليـــا واسترسل : أما الآخرون هنالك ـ وراء الشلال ـ فانهم لا يعرفون شيئا غير كتابة الالتماسات الركيكة الى مراحم دولته ‥ تبا لهم من بلهاء ! ‥

وصمت قليلا وهو يهبط الغرفة ويصعدها ، ثم توقف أمام مرآة صغيرة يتأمل وجهه ٠ ثم عاود حديثه الخافت المحموم : أما أبى فقد باع نفسه ‥ تربى فى أحضان الانجليز فى السودان وعاد الى مصر حين أحيل الى المعاش ليلعب لعبته ، بينما أهله هالكون بعد حين ‥

وعاود تأمل السقف مستغرقا فى تفكيره ، وتذكر الاحاديث التى دارت بينه وبين بعض الشـــبان من لـونه ، من الذين يكتبون تلك الالتماسات ، ومن غير لونه من الذين يتحدثون طويلا عن الدستور ‥

ـ قلت لهم لا فائدة فيما تفعلون ‥

ـ ولكن ماذا تريد منا أن نفعل ياحسين !؟

وتفرس فى وجوههم كأنما يعجب من سؤالهم وصرخ :

ـ لابد من ضربة مميتة ، لابد من انسان جسور يريح الأمة منه ، فهمس أحدهم : ولكن هذا يضر بالقضية ‥ هناك العشرات من أمثاله ‥ وتذكر أنه فى هذه اللحظة ‥ عند هذه الكلمات تلفت حوله ليتأكد أن الذين حوله شبان مخلصون ليس بينهم جاسوس ، واطمأن فقد كان هناك عدد من أصدقائه وبعض عمال عنابر السبتية الحانقين على دولة الرئيس فمضى يقول :

ـ لابد من انسان جرىء ‥ أين النخوة والشهامة ياناس ‥ الى متى نظل راكعين ؟ قلب أسد ‥ من أكل قلب أسد هو الذى يمكنه ، وكف فى خجل حين تذكر أنه الوحيد من بين الجميع ، الوحيد الذى أكل قطعة صغيرة من قلب أسد هنالك فى السودان ‥ عند بحر الغزال ‥

ثم تزايلت تلك الوجـــوه من مخيلته ، وقد عاود هبوط الغرفة وصعودها ، وانبعثت بدلا منها صور جلسائه فى النادى النوبى الذى

ينتصب خلف محكمة عابدين ، فى محاذاة كركون عابدين ، وفوق سينما ايديال الوطنية وتذكر تفرسه بعينين محمومتين فى وجوه كل الشبان السمر الذين ظلوا يتكلمون ويمسكون بالقلم يهزونه وكأنه سيف أو بلطة ! ثم يكتبون الالتماسات الرخوة ، ثم تذكر أيامه فى كلية غوردون فى الخرطوم ، وكيف رفع العلم المصرى وأنزل العلم الانجليزى فى ١٩٢٤ أيام اللواء الأبيض .. ترى ماذا هم فاعلون بعلى عبد اللطيف . مازال يتذكر حديث أبيه عن النوبة المصرية حيث كان مولده ، والباخرة التى أقلته مطرودا من السودان الى هذه النوبة .. مازال يتذكر خطب سعد وكلمات بيرم عن فؤاد .. عفارم يابـــيرم .. أليس فؤاد هذا هو الذى استدعى الجيش فترك السودان لقمة فى يد الانجليز ؟! لعنة الله عليه .. وتذكر بدر أفندى ووقاره وكلماته الناهية التى كادت تثبط همته .. تذكر يوم كان عنده منذ شهور فى الدر .. ثم هز رأسه بشدة ليطرد صورته فللرجل سحر لا يقاوم ..

وتوقف فجأة أمام الجاكتة وتفرس فى صفحة الجهاد .. ثم انتزع الجاكتة والطربوش الأحمر القانى وارتداهما على عجل ، وجس جيبه ثم أوصد الباب من خلفه ومضى يهبط سلم العمارة ، وحيا مكوجيا على يسار الباب وبقالا على يمينه ، واخترق شارع عماد الدين وانعطف عند ناصيته الى شارع الساحة ومضى فيه حتى حاذى أرض شريف وانعطف الى اليسار ومشى فى شارع عبد العزيز والتقى فى الطريق بصديق تبادل معه كلمتين هامستين .

ـ آن الأوان ، ستنتظرنى بالعربة ..

ـ بالتأكيد .. بالتأكيد ..

ثم مضى بعد أن شد على يده مسرع الخطى الى سوق هنالك فى أول الموسكى دخلها فى حذر شديد يتلفت حوله ، ومر على الواجهات حتى وجد ضالته فدخل ..

ولم يكن فى وسع المرء أن يدرك ما الذى كان يعنيه هذا الفتى الأسمر حين دس ما اشتراه بين صفوف جاكتته وشعر صدره .. كان شيئا لامعا أخفاه بسرعة بعد أن خطا خطوتين بعيدا عن المتجر ، ثم أسرع الخطى فى ميدان العتبة من حيث أتى ، وتوقف حتى اشترى جريدة « البلاغ » وعاود سيره وهو يفر بسرعة صفحاتها الستة عشر ، وتوقفت عيناه عند صفحة الأدب ، ورجع منها الى الصفحة الرابعة لتستقر عيناه على سطور قرأها

فتأكد من الخبر ، ثم طوى الجريدة وأودعها جيب سترته ، وعاود خطاه على مهل وهو يفكر ٠٠ أيذهب الى بيت ذلك الشاب فى معروف ؟ زوجته البيضاء رفيقة ٠٠ ولكن مالى ومالهذه الزوجة ؟! فان على كاهله رسالة يجب عليه ان يؤديها على الفور ، وهو لا يملك وقتا لمثل هذه الترهات ٠٠ أما الزوج فلطيف ، خالى شغل منذ مدة طويلة ٠ أسمر طويل القامة مثله ، ملابسه تكاد تكون مفصلة على قده وكسمه ٠٠ عال ٠٠ ورآه مرة بالقفطان الأبيض يتوسطه الحزام الأحمر ، ورآه مرة فى مناسبة أخرى بالبدلة المقصبة أيام عمل سفرجيا فى بيت أحد الوزراء فى مصر الجديدة ٠٠ نفس البيت الذى التقى فيه بزوجته البيضاء ٠٠ ورآه ينفق عن سعة أيام « المكسب » أما اليوم فالازمة متحكمة فى مصيره وفى مصائر مئات بل ألوف من أمثاله الذين أصبحوا لا يفعلون شيئا الا لعب الورق فى المقاهى والانتظار الى أن يستدعيهم أحد ليعملوا « ظهورات » فى حفلة أحد الباشوات أو فى وليمة من ولائم الذئاب كما اعتاد هو أن يصفها ٠٠ وقد مد له يد العون فأبى مرات وتقبلها مرات أخرى فى تأفف ولن يخيب له اليوم رجاء ٠٠ وقد يمنحه هو جنيها كاملا يعوض به قفطانه اليوم مع الحزام ٠٠ لابد اذن من زيارته فى غرفته البغدادلى التى يعيش فيها مع زوجته البيضاء فى معروف خلف المستشفى النمساوى منذ تركا شبرا هربا من أهل الزوج ، ومر بالنادى ــ خلف محكمة عابدين ــ وكاد يدخله الا أنه لعن خاش النادى وقرر آلا يدخله ولو للحظة واحدة حتى لا يزعزعوا ايمانه ٠٠

وهشت البيضاء فى وجهه وأعدت فنجانا من القهوة قدمته وهى تبتسم بعينيها الحلوتين فعف عن النظر اليها ، وجس مابين سترته وصدره ثم نشر البلاغ على طاولة ، وأخذ يقرأ فى انتظار الزوج بينما هى تروح وتجىء تقلب هذا الوعاء أو تسقط ملعقة أو تشعل وابور الجاز ٠٠

« البلاغ » تتحدث عن الأزمة : فى الصين يأكل الناس بعضهم من الجوع ٠٠ رئيس الصين يبكى ٠٠ فى أمريكا يرمون فى البحر الدقيق والتفاح والبن ٠٠ السلع تبور وتفسد على الأرصفة وفى المتاجر فى كل بلد ٠٠ البطالة بالملايين فى أوروبا ٠٠ هندرسون يصرح ٠٠ الوفد يطالب بدستور ١٩٢٣ ، مكرم يخطب فى جماهير طنطا ٠٠ مجلس النواب والشيوخ يناقشان التعويضات ٠٠ شفيق باشا لا يجيب ٠٠ آخر محاكمات عمال العنابر ٠ أرامل شهداء العنابر يقدمن شكوى ٠٠ أهالى الدر يشكون ٠٠ عامل يوزع منشورات ٠٠ قبض عليه ٠٠ « لأ » هى الكلمة الوحيدة التى

يرددها : مصيره السجن ! صبرى باشا يسافر الى موقع الخزان ٠٠ مساحات جديدة من الأرض ٠٠ البولمان يعد لدولة الرئيس ٠٠ الى الثغر ٠

ثم أمعن فى قراءة مقال للدكتور طه حسين ، وآخر لعباس العقاد بعنوان : « ان كنت ريحا فقد لاقيت أعصارا » ٠٠ ثم خلص الى صفحة الفن ونجوم المسرح ومنيرة المهديه ودولت أبيض ٠٠ وبدا أنه منزعج ، فما باله يقرأ كل هذه الخزعبلات ٠٠ وعاود الى صفحة الادب ٠٠ العقاد هائل الا ان فى أسلوبه شيئا من اسمه ٠٠ طه حسين أجمل لولا أنه يعيد ويبدى فيما أعاد وأبدى ، ليته ــ هو ــ يكتب مقالا بمشاعره الملتهبة كالتهاب الشمس عند مدار السرطان الذى يمر « بكرسكو » قريته على مبعدة من الدر ٠٠ ليته ولكن من يسمح له بنشر مثل هذا المقال ٠٠ كلا ٠٠ الوقت ليس لكتابة المقالات « أخى ابراهيم طيب » أما أبى ٠٠ ليتنى لم أولد لمثل هذا الأب ، فهو يزهو بالبكوية تماما كما يزهو الطاووس بريشه !! ولا أدرى ماذا سيكون رد الفعل عنده ٠٠ كل الناس سيعجبون بى ٠٠ ليتك يابيضاء تكفين عن هذا الضجيج ٠ ولماذا تأخر زوجك اللكعى ٠ مازال العلم الاخضر الذى رفعه على مبنى كلية غوردون يرفرف فى قلبه وان داسه الانجليز بأقدامهم ٠٠ وليرتفع علم آخر هنا ٠٠

وأفاق على الباب يفتح فى غرفة البغدادلى فوق سطوح العمارة ، خلف المستشفى النمساوى فى معروف ٠٠ نفس الغـــرفة التى تضمهما هو والبيضاء ٠٠

وأقبل جمال ، نحى زوجته عن البــاب وهو يقول : انك تذكريننى بشريفة وأنت تلحين ٠٠ حاضر ياست ٠٠ سأجد عملا فى أقرب وقت ٠٠ اليك عنى ياشيخة ٠٠ أقصرى الشر يازنوبة ٠٠ وتراجعت وهى تقول وكأنما كانت ناسية : الله ، الاستاذ هنا ياجمال ٠ ينتظرك منذ ساعة ! فتهلل جمال وأقبل على حسين يحيى وقد ارتسمت ابتسامة عريضة على وجهه الاسمر الشاب الذى يشبه وجه شريفة لولا بروز عظمتى الوجنة قليلا ؛ بل انه يشبهها تماما لولا طول القامة : شفتاه مثل شفتيها وأسنانه ٠٠ الا أنها مصفرة من أثر التدخين ٠

وخلص من التحية وانفلت اليها يقول . زنوبة ٠٠ شاى للأستاذ يازنوبة ؛ ثم جلس الى جانبه على كرسى بثلاثة قوائم والرابعة جريحة مثل ساق لورد ٠٠ الا أنه أسند الكرسى من جانبه الجريح الى الحائط واستدار يكرر : شاى للأستاذ ٠٠ فقال حسين ــ ياسيدنا ٠٠ متشكر ٠٠ الست قامت بالواجب ٠٠ شربت قهوة ٠٠

ـ وماله ٠٠ لازم تشرب شاى ٠٠

وحارت زنوبة اذ أنها لا تملك سكرا ، فقد نفضت السكرية فى فنجان القهوة منذ حين ٠ الا أنها تستطيع أن تستعير قالبين من الجارة غير أن الاستاذ أراحها باصراره ، فعادت الى الركن الآخر تطرز مفرشا جديدا تبيعه للست الرومية التى تسكن فى نفس العمارة ؛ بينما مضى الشابان يتهامسان ربع ساعة قام بعدها جمال وأعد لفة قدمها للاستاذ الذى وضعها تحت ابطه وخرج ٠٠

وما أن اغلق الباب خلفه حتى انبعث جمال يضحك ويقهقه ويفرك يدا بيد ، فأقبلت عليه تهمس : ما الخبر يا حبوب ؟! فواصل قهقهاته غير ملق بالا اليها فانحشرت فيه وهى تهمس ثم تضـحك ٠٠ شربات والنبى يا أسمر وانت تضحك ٠٠ فزاد من قهقهته حتى مدت يدها ووضعتها على فمه ٠٠

كانت تتصرف وكأنها تملك زمامه تمـاما ، وحين رغب عن الافضاء بسره قطبت جبينها الحلو واظهرت الغضب فأذعن وقال :

ـ تصورى ٠٠ الاستاذ ترك فى يدى جنيها ٠٠ جنيها كاملا ٠٠

فابتسمت وغمزت وهى تقول : كتر خيره ٠٠ ابن ناس ٠٠ أمك داعية لك ٠٠ فقال فى نفور : أمى ٠٠ دعيها وشأنها ٠٠ المسكينة لم يصلها منى خطاب منذ سنين طويلة ٠٠

وأشاح بوجهه واردف : مسكينة داريا ٠٠ الديون ركبتها كما يركبك الزار ٠٠ فصاحت ٠٠ بعيد الشر ٠٠ أنا لا يركبنى الزار ٠٠ الذى يركبنى هو خلو الشغل والجوع !! ٠٠ وأضافت بعد صمت : وما دام حسين أعطاك جنيها فلماذا تسخر منه ؟٠٠

ـ أبدا ٠٠ أنا لا أسخر منه ٠٠ أنا أضحك لانه أخذ القفطان الابيض والحزام ٠٠

فلم تملك نفسها وضحكت هى الاخرى ضحكا متصلا هوت بعده على الارض وهى تقول : ربما يقيم حفلة تشخيص مثل على الكسار ٠٠ ليتنى أراه بالقفطان فهو دائما شيك ٠٠ ليتنى أراه فى زى سفرجى ٠٠٠ اذن لما اعتبرته أعلى مقاما من زوجى المحبوب جمال ٠٠

ـ اخرسى ٠٠ قطع لسانك يا بنت ٠٠

فلوت بوزها ثم زامت : عدنا الى الغيرة التى لا فائدة منها ، علام الغيرة وربنا لم يفتح عليك بولد ؟ ٠٠ شاب ليس فى صلبه أولاد ؟

ـ أنا ؟ والله انك انت العاقر ٠٠ لا تلدين ٠٠ مصيبة ٠٠

ـ أنا ٠٠ فشر ٠٠

وكادا يتشابكان الا أن ورقة الجنيه الخضراء على الطاولة استرعت انتباهها فتلقفتها واستدارت الى جمـــال وارتمت عليه تقبله قبلة طويلة امتصت غضبه فاستراح الى صدرها ثم خطا خطوة وأحكم اغلاق باب الغرفة وأسدل على الشباك ستارة متهرئة بينما هى تمد يدها تزيح عن رأسها منديلا برتقالى اللون ظل يحتبس شعرها ، فتهدل وارتمت خصلات ناعمة منه على الوجه فمضت تنفضـــها بزفرات هامسة بينما مضى هو يطوقها بذراعيه ، ويميل عليها ليطفىء الزفرات بقبلات دافئة ، نسيا معها الجوع والنكد الذى يطالعهما فى كل لحظة ، حين يتذاكران خيبات الامل التى يلقاها جمال ٠٠ وهو يبحث عن العمل ٠٠ أى عمل منذ شهور طويلة ٠٠

٢٧

الساعة الثامنة والنصف فى الصباح ٠٠ فناء المحطة مزدحم يملؤه صوت القاطرة بدوى صاخب ٠٠ الناس يتدافعون ٠٠ أبواق السيارات ، تنفذ الى الآذان من الميـدان خارج المحطة وتختلط باحتـكاك الأقدام على أسفلت الارصفة ٠٠ الشيالون يروحون ويجيئون مقوسى الظهور تحت أحمالهم الثقيلة ٠٠ الموظفون ببدلهم الكاكيه يصرخون هنا وهناك ٠٠ القطار الراحل الى الاسكندرية يصطف على اهبة السفر ٠٠ وعلى غير العادة هناك عربات فاخرة ملحقة بالقطار يسطع لونها الفضى ويبرق فى ضوء الشمس بينما نفر من ضـباط وعساكر البوليس على رأسهم حكمدار القاهرة يتجهمون فى وجوه الناس ، ويضربون حصارا حول تلك العربات ، وثمة شبان لامعون يتلفتون فى كل اتجاه بحركات

مفضوحة ويسجلون فى مفكرات صغيرة بعض الملاحظات ، الجو مشحون بالقلق والترقب ..

وداخل عربة من عربات البولمان الفاخرة ، عند مؤخرتها وفى الصدارة عدد من الحرس ، مهندمون لامعون يرعب الانسان مجرد لمسهم أو الاقتراب منهم . فوجوههم صارمة وحزينة فى نفس الوقت ، يشخصون بأبصارهم فى قلق وكأن أشباحا خافية تتلاحق أمامهم .. أشباح تتشنج أناملها على مقابض مسدسات صامتة خرساء وخناجر ومدى قاطعة .

ومن الحرس من كان يفرك عينيه ويوسع من حدقتيهما لتشمل نظرته محيطا أوسع .

ومن أمام عربات البولمان عربة أكل تبرق كأنها دمية من الفضة ، وقد نهض على شرفتها وداخلها عدد وافر من الخدم والحشم والسفرجية بقفاطينهم البيضاء أو أرديتهم المقصبة بالذهب يزجون فراغهم بالتطلع الى وجوه الناس ويكادون يقفزون كلما رأوا رجلا أسمر يدنو منهم ، فجدير بهم لولا الرسميات أن يتخلوا عن مواضعهم ليحتضنوا أى انسان من بنى جلدتهم .

ومن بينهم شاب جاحظ العينين ، قلق النظرات يحاول أن يهدىء من روعه بتأمل الغادين والرائحين فى نظرات تعكس ألما باطنيا يعانيه ولهفة لا مزيد عليها .

وجهه الأسمر مسرح لكل أنواع الاضطرابات التى لا تكشفها الا عين خبير ، فانه كثيرا ما يوجه نظراته الى وجوه الآخرين على الرصيف مستغرقا فيهم كل الاستغراق ..

وكان واضحا أنه يتفادى النظر فى وجوه أولئك الافندية المهندمين الذين ظلوا يتفرسون فى الرصيف ويسجلون شيئا فى مفكراتهم ، أما الضباط فقد كانوا لاهين عنه بتأمل اناس من شاكلة أخرى يتوجسون الخوف منهم .

وفجأة أحس الفتى بقلبه ينخلع من صدره ، وعيناه تطوفان فى المشهد الجميل الذى كان يتحرك أمامه ، فى الشعر الفاحم الناعم المنسدل على المنكبين فى استرخاء مريح ، يحيط بهالته البارقة وجها مستديرا كالبدر لسيدة فى مقتبل العمر .. كل ما فيها مرسوم بدقة وكأن فنانا تأمل الطبيعة فى وجهها وجسدها وأزال عيوبها برتوش من روحه ..

كانت تسرى فى تمهل شديد وزهو بالغ تنعكس من عينيها الزرقاوين بسمة هادئة ليست خليعة وان فاضت بالانوثة والاعتداد ، والى جانبها امرأة فى منتصف العمر وأخرى كهلة تسيران فى خطى متمهلة وتحدقان دائما فيها هى ، وبين ذراعى احداهما قطة جميلة ناعمة الفرو هادئة مثل سيدتها ، تتفرس بغطرسة فى الغادين والرائحين ، وبدا واضحا أنها الصديقة المدللة للهانم التى مسحت من عينيى الفتى الأسمر كل قلق فطفق يملأ ناظريه منها غائبا عن كل شيء حوله ·· ثم أفاق على صوت يهمس ، ديدى هانم حرم على باشا المهندس وكيل وزارة الاشغال والمشرف على تعلية الخزان · ست عظيمة ، اشتغلت فى قصرها ، لم تحاسبنا أبدا على المليم كما تفعل الاخريات ·· تنفق فى حفلاتها مئات الجنيهات ولا تبالى·· فساتينها تصل من باريس ·· أمال ·· بنت ناس أكابر ··

وصمت الهمس حينا ثم عاد يقول : أترى تلك القطة ؟ انها «بوسى»·· تتكلف فى كل شهر ما يعادل مرتبك ومرتبى لسنة كاملة · دكاترة وحقن وحمام ساخن وخادم ··

أصغى الفتى الأسمر الى الهمسات الاولى وتاه من جديد فى أحلامه النزقة الحلوة ، ثم استرد أنفاسه ومضى يعاتب نفسه ، انشغلت بهذا العرض الزائل عن مشاغلك وهمومك · قلت لهم ان أسلوبهم لا يجدى ·· ثم جس ما بين قفطانه الابيض وصدره واطمأن وجال ببصره فى الحرس والشبان اللامعين على الرصيف ·· سيكون للحادث دوى ، ثم يستريح الشعب · وقد يكف الطوفان ··

وتنبه من تأملاته على هرج صاخب ساد فناء المحطة ثم الرصيف ، فرأى الناس والحمالين والباعة يدفعون دفعا بدباشك البنادق ويحشرون فى شريط ضيق بعيدا عن العربات الفاخرة المتحفزة للانطلاق ··

وأطل الشاب الأسمر فرآه مقبلا ومن حوله عدد من ذوى الكروش والثياب الانيقة والياقات المتصلبة حول الرقاب ، وأربطة العنق التى تنغرز فيها على الصدر أحجار كريمة فى شكل دبابيس بارقة ··

كان يتقدمهم مهيب الطلعة ، ذكى الملامح ، حاد النظرات ، يتلفت كثيرا هنا وهناك ، باسما فى ثقة يشوبها حذر فسره الفتى الاسمر بدكتاتوريته وخوفه من مغبة استبداده بالشعب ومأساة عمال العنابر ، ومعركة الدستور ومظاهرات الطلبة الصاخبة وبشكوى الجائعين ·

وحدق الفتى الأسمر فيه خشـية أن يكون قد أخطأه ، وفرك عينيه ليزداد يقينا فاطمأن ٠٠ فهذا الذى يمشى فى خشوع الى يمينه متأخرا عنه بنصف خطوة هو على باشا المهنـدس وكيل وزارة الاشغال ، وزوج الفاتنة ٠٠ أما الثانى الذى على يساره فهو وزير المالية ،والثالث محمد شفيق باشا وزير الأشغال نفسه ، أما هو فدولة الرئيس : صدقى باشـا ، مخ كبير ، واقتصادى كفء ٠٠ لكن خساره الحلو لايكتمل ٠٠ لقد رآه من قبل فى هذا الزى وشاهد رقبته هذه ، رقبة مليئة ، انه معجب بهذه الرقبة٠٠ أحقا ما يروى أن زوجته تذيب شبشبا على رأسه كل ليلة ؟ مستحيل ٠٠ والا فلم كل هذا الاستبداد بالشعب ! ؟ ٠٠ انه ولا شك رجل قدير تحتاج اليه مصر لكن ٠٠ خسارة ٠٠ ليته يعدل عن سيرته القبيحة ٠٠ اذن لأصبح أفضل أداة فى يد الشعب ٠٠ فى وجه قصر الدوبارة والسراى ٠ لكن ذيل الكلب لا يستقيم حتى ولو ٠٠ ذيل الكلب ٠٠ تعبير جميل ٠٠ الغريب أن لهذا الذيل رقبة سـميكة ولذيذة فى نفس الوقت ٠٠ ومد يده عند هذه الخاطرة وتحسس ما بين القفطان والصدر فكاد يجرح يده ٠

واستقر دولة الباشا فى مقعده وأشار الى أحد الضباط وأصدر اليه أمرا صدع له على الفور ٠

ثم دق ناقوس صغير وسعلت القاطرة ومضت تنفث دخانا غيم لحظة على سماء المحطة ثم انطلقت أسوار المحطة وأعمدة البرق والأبنية والعربات فى الشارع تعدو فى سرعة جنونية الى الخلف ٠

وأخذ السفرجية يروحون ويجيئون ، يوازنون خطاهم مع حركات القطار ، ويحملون المرطبات الى الهانم ودولة الرئيس ورفاقه ، ثم يعودون بالأكواب والأوانى الفارغة ٠ وقد رسموا على شفاههم ابتسامات لا تفارقها أبدا ماداموا فى الخـدمة ٠٠ قد تفارقهم وهم بين أطفالهم ٠٠ أما الخدمة فلا ٠٠ لقد تدرب كل واحد منهم على مهنته حتى أتقنها بعد شـقاء ، ومر باختبـارات عديدة عرف منهـا كيف يقدم صحاف الأكل والمرطبـات فى رشاقة ، وكيف يهمس بالشـكر حين يستقر البقشيش فى يده ، وكيف ينأى بنفسه بعيدا فى اللحظة التى يهم فيها الباشا بالحديث الهامس الى من يصاحبونه وان تعلموا على مر الزمن ــ كيف يفهمون الكلمات المتناثرة التى تصل الى أسماعهم وكيف يربطون بينها ويدركون مقاصدها ٠٠ كانوا يطالعون وجوه السـادة فيدركون فى لمحة واحدة أهم غاضبون ناقمون فيبتعدون ؟ أم راضـون فيقبلون عليهم بالخدمة الطيبة والطاعة والانحناء المدروس ثم يتشفعون بهم فى ساعات الصفاء ٠

لكن الباشا فى هذا اليوم متكور الوجه عابس لا يبتسم ، يشرب كوب الماء المثلج فى لحظة على غير عادته ويقذف به بعيدا فيلتقطونه ويبتعدون عنه ..

ومن خلف الباشا فى العربة ومن أمامه فى الصدارة مضت العيون اليقظة تراقب كل حركة وتتفرس فى كل وجه ، وصاحبنا ـ الفتى الأسمر ـ يعد الدقائق والثوانى ويحس كل دقيقة تمر أن شجاعته تتسرب منه وتخونه لتحل محلها رقة انسانية لا لزوم لها فى مثل هذا الموقف : رجل وانسان مثله .. فيلسوف اقتصادى ورئيس وزارة وزعيم حزب وزوج وأب تجرى الدماء ساخنة فى عروقه .. خلقه الله وقدر له الحياة ثم يأتى هو ـ حسين طه ـ متسللا ليقوم بفعلته .

وود فى لحظة لو انه تخلف هنالك على الرصيف .. على نفس الرصيف الذى مشت عليه الفاتنة .. آه .. أتراني أعيش حتى أراها من جديد ؟ ! .. ثم اختلطت بصورتها صور أشجار النخيل .. نخلته بالذات التى افترش ظلها فى كرسكو ـ قريته ـ وصور الشواديف والسواقى ، فضاعت الملامح الآسرة فى ملامح أخرى متجهة عابسة تذرف الدمع .. تلاشى وتزايل كل ما هو جميل فى قبضة القدر المحتوم ، ثم تخيل النادى القابع خلف محكمة عابدين ، واستعاد صورة العلم الذى رفرف يوما ما هنالك فى السودان ، وتذكر برقية الملك يستدعى فيها الجيش من السودان واستعاد مناقشات الدستور وعمال السبتية الذين دفنوا أحياء فغلى الدم فى صدره ، وتدفق فى عروقه فمضى يدق دون وعى منه على صفحة معدنية مدسوسة بين قفطانه وصدره .. ثم ألقى نظرة من الشباك على الحقول والأشجار والدواب المسرعة لتختفى وراء العربة ثم القطار كله : هذه الحقول الواسعة ترويها مياه يعرف هو منبعها .. رآها وهى ما تزال شابة تتدفق وتنحدر فوق الصخور فى هدير أبيض .. رآها تتلاطم عند المفرق فى الخرطوم ، فى المكان الذى يتزاوج فيه النيل الابيض بالنيل الازرق الهابط من هضاب الحبشة موطن أمه ، وهى نفس المياه التى تسيل أمام قريته كرسكو تكاد لا تروى الا شريحة ضيقة تختنق ما بين الشاطىء والسفح ، وهى نفس المياه التى يعترض خزان أسوان مجراها فتتراجع بنفس المياه التى يريدون لها : زوج هذه الفاتنة ودولة الرئيس ومن خلفهما الاسياد الحمر ـ أن تتراجع فى طوفان هادر يكتسح كل شىء أمامه .. وغدا حين يتم ذلك سيتسع نطاق هذه الحقول وتزدهر وتحبل مثنى وثلاثا فى السنة الواحدة وتصب الخير فى جيوب هؤلاء الانذال من الباشوات .. بينما الآخرون من

الشعب هنا وهناك يشرفون على الهلاك ٠٠ أنا أفهم أهمية الخزان وضرورته ولكننى أفهم أيضا أهمية أن يتم هذا كله فى ظل حكومة دستوريه، حكومة من الشعب ٠٠ أن يتم وعلى الدست أناس يحسنون تدبير مصائر الناس وخصوصا اذا كان هؤلاء الناس يضحون بكل شىء ، بكل ما يملكون ٠٠ يالهم من انذال ٠ انظر بالله الى وجهه الاحمر الطلى طلاوة وجوه النساء ، يوشك الانسان أن يعتقد بأن شعرة واحدة لم تنبت على خده ٠٠ ومد راحة يده اليمنى ومر بها على خده ٠٠ ثم همس لنفسه : يالهم من ناعمين هادئى البال ٠٠ كلا ٠٠ وجه دولة الرئيس لا ينم عن الهدوء ، فالذين فوقه يركبونه ويرهقون بدنه ، والذين تحته يهزون الكرسى فيكاد يميد به ٠ أنا واحد من الذين تحته فليعرف من أنا بعد حين قصير ٠٠

ولكن كيف يمكننى أن أترك هذه العربة الملعونة بعد أن ؟٠٠ ودفعه السؤال الى القاء نظرة من الشباك ، فحدق ببصره وأطال فاذا بالعربات تعبر شبرا البلد ثم تصل قليوب وتجتازها دون أن تلقى بالا اليهـا ٠٠ وها هى تقترب من بنها ٠٠ اذن فقد مضت أربعون دقيقة طويلة منذ بدأت الرحلة المشئومة ! يبدو انها رحلة الى جهنم ، وقد آن له أن يستريح من السر الذى يثقل صدره ٠٠ ثم أما كان الاوفق لى أن أتفق مع شـبان آخرين الى جانب الشاب الوحيد الذى ينتظرنى بعربته عند محطة بنها ؟! غلطة ٠٠ لكم أنا ساذج ؟!٠٠

السر الذى يحتضنه منذ شهور يكاد يخنقه ٠٠ وها هو يكاد يهمس به لهؤلاء الآخرين من ذوى الوجوه السـمراء ٠٠ أتراهم يخـونونه أم سيكتفون بتثبيط همته ؟! آه لو أدركوا ما أنا فيه ، وما أنا اليه ؟ اذن لاشفقوا على ولوسدونى فى صدورهم اذا ما قدر لى ، ولكن صه ٠٠ انهم يسمعونك ٠٠

وابتسم الرجل الاسـمر الكهل ذو القفطان المقصب بالذهب ، فى وجهه ، وقدم له سيجارة اختفى بها خلف ساتر يبتلع دخانها فى عصبية، ترى لماذا لم يسأله أحد من هؤلاء السمر عن اسمه رغم انه جديد بينهم؟!٠ لماذا لا يقولون لى ٠٠ من أنت ٠٠ ربما ظنوا ٠٠ ربما ٠٠

هذه محطة بنها تبدو من بعيد ولا بد له من اراحة صدره ، فتحسس ما فوق صدره ، وتحفز واستجمع كل شجاعته ، ولم يعد يذكر شيئا غير الظلام والامواج المتلاطمة التى تحيق بأشجار النخيل ـ وتصفع الشاطئين فى هدوء قاتل ٠٠ لم يعد يتذكر وجه الفاتنة ولا زنوبة ٠٠ كل شىء قد

انحصر فى مخلوق واحد هو هذا الباشا الذى يسترخى هنالك فى مقعده الوثير وفى هؤلاء الضباط الذين يتفرسون فى كل وجه وفى وجوه بعضهم، وفى رقبة الباشا ٠٠

وجاءت اللحظة الفريدة التى كان يتعجلها ، فقد تراجع كل السفرجية الى الخلف يسدلون الستائر لاستقبال غبار المحطة المندفعة الى القطار ، ثم رن نداء : ميه ياولد ٠ صوت دولة الرئيس ! فتقدم بسرعة وحمل كوب الماء على صفحة فضية غطـاها بمفرش أبيض مطرز الحواشى ٠٠ ومر أمام المرآة الكبيرة ، فرأى وجهه من خلالها كئيبا لا يليق بمواجهة الباشا فوسع ما بين شدقيه ، وأبرز أنيابه البيضاء ٠٠ وتقدم خطوة خطوة ثم نقـــل الصفحة من يده اليمنى الى اليسرى ٠٠ المهنة وأصولها تقضى أن يقدم كل شىء باليمنى ٠٠ ما من سفرجى فعل ما أقدم عليه ، الا أن يده اليمنى هى القادرة على انزال الضربة ، فلابد من اخلائها من الصينية ومن الحمل الذى لا لزوم له ، فليس من حق هذا الباشا أن يشرب ٠٠ كفاه ماشرب فى دنياه وليرو ظمأه هنالك فى جهنم ٠٠ لعنة الله عليه والرحمة لى ياربناه ٠

وغاب كل شىء عن ناظريه ، الا رقبة الباشا حتى حسب انه ما من أحد غيره فى العربة ٠٠ وغير تلك الرقبة ، فأخذ يدنو وهو يحمل الماء فى يسراه ويمد الاخرى فى حذر الى فتحة قفطانه على الصدر ، ويستقر بها على مقبض البلطة الصغيرة اللامعة ، وتراءى له الباشا فى هـذه اللحظة غافلا عن كل شىء منهمكا فى تصفح جريدة ، فرنسية أو انجليزية لايدرى ، مليئة بالارقام ، فتشجع ودنا منه فى خطى متعثرة وعيناه تتقدان بالعزم٠

وفجأة ودون أن يدرى لماذا ٠٠ تذكر الفـــاتنة فاختلطت صورتها بصورة الرقبة ولكنه هز رأسه بشدة ليطرد هذه الصورة ثم وجد نفسه على بعد خطوة واحدة من الباشا فانطلق بيده اليمنى من فتـحة القفطان ودفعها بالبلطة الصغيرة الحادة فوق رأس الباشا المائل الى الامام ٠٠

وتخيل الدم ينبثق من تلك الرقبـة تخيله يســيل ، وتخيل أعمدة الصحف وصورته ، صورة وجه أسمر وشعر مثل حبات الفلفل الى جانب صورة الباشا ، ثم أهوى بالبلطة فى قسوة ولكن يده شلت فجـأة ٠٠ امسكت بها قبضة حديدية هائلة ٠ قبضة تلوى ذراعه بقوة خارقة ، ثم امتدت قدم وضربت ساقه ضربة قاسية تدحرج بعدها الى الارض وفى اذنيه رنين البلطة يصلصل حوله ٠٠ ثم أحس انه يهوى الى بئر سحيقة الاغوار، وان كابوسا ثقيلا ينيخ على صدره ! ولولا هذه الركلات اللعينة والرفسات فى بطنه واضلاعه لنام !

وحانت منه التفــاتة جانبية الى مكان البــاشا وهو يتفادى احدى الركلات فوجده ممتقع الوجه زائغ النظرات ، والعرق يتصبب على جبينه ورقبته بل ومن ياقة قميصه الحريرى ، كان الباشا يرتعش ولايلفظ بكلمة واحدة الا ان يده اليسرى كانت تشير اليه هو فى عجب واستنكار فالباشا لم يتصور فى يوم من الايام أن تأتيه الضربة من واحد مثله ، بوجه اسود٠٠ لقد توقع الشر دائما الا من الوجوه السوداء ، فانه لم يعتبرهم فى يوم من الايام اناسا يتطاولون للتفــكير فى أمور الدنيا وفى الظلم ويفكرون فى الانتقام ٠٠ توقعه دائما من وجوه أخرى بيضاء رسم عليها القــدر ماركة حزبية مسجلة ٠٠ كلا ٠٠ لا بد أن هذا الشاب الاسود مجنون ! والا فما الذى دفعه الى هذه الجريمة ٠

وفى هذه اللحظة وحدها تذكر الشكاوى والعرضحالات المكدسة فى الوزارة مرسلة من الدر ، ومن تلك القرى النوبية النــائية ، وتذكر انه لم يقرأها أبدا ٠٠ ربما كانت هى السبب

واحس الفتى الاسمر والباشا يشير اليه بخوف شديد ، وبرعشة تدب فى كل ذرة من جسده ٠٠ هناك فقرة من سلسلة الظهر ٠٠ فقرة خلف القلب مباشرة تنبض بعنف كأن مسمارا ضخما قد دق فيها ، وحلقه قد جف ولسانه لم يعد يتحرك ٠٠ لماذا كل هذه الرعشة ٠٠ أأنا خائف بعد أن تخيلت نفسى بطلا أم أن الغضب من الفشل هو الذى يثــير كل هذه الشحنات الرعديدة فى مفاصلى ؟ كلا فاننى ما أزال بطلا ٠٠ انه السجن المؤبد ٠٠ بل انه الاعدام ولكننى لا أبالى ٠٠

واستسلم لحزن مباغت ، وأحس بقبضة باردة تعتصر قلبه وتشل مخه وتجمد فروة رأسه ٠٠ يالى من أبله غبى ٠٠ ما الذى اتى بى الى هذه العربة الملعونة ٠٠

وداسته الاحذية وأدمت الركلات واللكمات وجهه وجبينه ٠٠ كليتاه كادتا تتمزقان ، فان أحد الضباط مضى يدفع حذاءه المدبب فيهما حاول أن يصرخ ولكنه لم يسمع صوتا أو صرخة تخرج من حنجرته فاستكان لمصيره، واستسلم للركلات فلا بد لها من نهاية ٠٠ كم يــود أن تنتهى كل هذه المهزلة ٠٠ ويا للمصير الذى يحاكى لون التراب ٠٠ سأموت وسوف يعيش الباشا ولن يكف الطوفان رغم ذلك أو ربما كان بدر أفندى على حق ٠٠

وتوقفت العربات عند بنها وشعر ان نبض قلبه قد توقف : وأحس

بملمس الكلبشات البارد حول معصمه وهم يدفعونه دفعا الى رصيف المحطة ويحيطون به من كل مكان ..

قفطان جمال تمزق ، أما الحزام الاحمر فقد انتزع منه خشية أن يشنق نفسه به . والطربوش أصبح عجينة متكورة شائهة ..

وعلى الرصيف رأى الفاتنة شاحبة الوجه فبدت فى ناظريه بشعة لا جمال فيها ولا سحر . كانت نظراتها جامدة هالعة وفى نفس الوقت مزدرية ..

ومر أمامها والعساكر يسوقونه فانكمشت الى الخلف كما ينكمش المرء حين تقع عيناه على ثعبان أو عقربة أو خنفسة حقيرة . فاطرق برأسه والجنود يدفعونه دفعا ويصفعونه على قفاه : ابن الكلب .. يا بربرى الكلب .. وديتنا فى دهية ! ومن خلفه كان كل السفرجية ، حتى الرجل الكهل يساقون مقبوضا عليهم والى جانبهم بعض عمال القطار ..

والناس على الرصيف حشروا فى شريط ضيق مضوا يتطلعون اليهم كما يتطلع الناس الى موكب غريب يعرض للفرجة ، ويتبعونهم بعيون متسائلة حتى استقروا والكلبشات فى أيديهم فى مكتب الضابط القضائى فى المحطة ..

واقبل الباشا بعد أن استعاد رباطة جأشه وتفرس فى وجهه ثم لكزه بطرف حذائه وقال فى نعومة : ولد يابربرى .. من الذى حرضك

ـ ..

ورن صوت الباشا من جديد ..

ـ والله سأعفو عنك .. طيش شباب لا أكثر .. سأعفو عنك .. لو ساعدتنى ..

ثم سأل فى ذكاء وهو يغمز بعينيه ..

ـ أهو النحاس . دعنا منه .. أهو الجندى مضبوط .. هو بالذات الذى حرضك ..

وهنا هز الفتى الاسمر رأسه بشدة ، وأجاب فى صوت واثق :

ـ كلا .. فان أحدا لم يحرضنى ..

ـ هل انت مصر على هذا ياولد ..؟

ـ مغفل ‥ تريد أن تتستر على المجرمين !

ـ لا أتستر على أحد ‥ أنا وحدى المسئول ‥

فبصق الباشا فى وجهه ، وهب واقفا واتجه الى القطـار فى نفس اللحظة التى اقبلت فيها قوة كبيرة بقيادة حكمدار بنهـا اقتادت المتهمين فهكذا أصبحوا يلقبون الى عربة كبيرة حشروا فيهـا حشرا ومن حولهم سناكى مشرعة تلمع وبنادق ومسدسات تسدد فوهاتها الى صدورهم ‥

وأمست القاهرة لتلمح بطرف خفى ساهر عربة كبيرة تحمل وجوها سوداء تمر بهم على ميدان بوابة الحديد تماما أمام كازينو البسفور ثم تعبر بهم فوهة شارع أبو اصبع لتتوقف بحمولتها عند بوابة سجن الأجانب ‥

وألقى بهم جميعا فى زنازين ضيقة انفرادية لا يرون ضوء الشمس الا من خلال النوافذ ولا يسمعون من جوف القاهرة الا همهمة العربات وقاطرات المترو وزفير قطارات السكة الحديدية ‥

وفى كل يوم كانوا يأتون ويرهقونهم فى سين وجيم ‥ واتخذ حسين طه سياسة الصمت لا يفوه فى كل مرة الا بكلمات بسيطة ‥ كنت وحدى ‥ لا أحد ‥ الباقون مظلومون ‥ ليس فيهـم من يعرفنى ‥ تسللت وحدى الى العربة ‥ القفطان ‥ اشـتريته بنفسى ‥ هؤلاء لا يعرفون شيئا ‥ لم يحرضنى أحد ‥ أنا بنفسى قررت ، بنفسى نفذت ‥ أخطأت ‥ أخطأت حين فشلت ‥

وفى احدى الامسيات عاد حسين الى السجن من حيث كانوا يحققون معه ليجد عددا أكبر من الزنازين مشغولة بأناس آخرين وبنفس الوجوه السمراء ومن خلال ثقوب المفاتيح تطلع خلسة اليهم فلم يتعرف عليهم ‥ فقد كانوا اما منـكفئين على وجوههم واما مولين وجوههم الى النافذة ‥ بعضهم كان ببدلة والآخرون بجلاليب وعمائم ‥ ولكن كيف أتوا بهم ومن أين ؟ أهم من رجال النادى النوبى القائم خلف محكمة عابدين أم انهم من الاسكندرية ؟ لا يدرى الا الله ‥ حتى سيد جمال الذى تسلل اليه ؟ لم يقل له شيئا ‥‥ وقد وعـده أن يتلقى رسائله ‥ يا له من شجاع . لعنـة الله على الفشل ، جر معى وفى ضربة واحـدة كثيرين من الأبرياء الى هذا المأزق الذين يعيشون فيه دون ما ذنب ارتكبوه . وعلى عاتقى أنا وحدى تقع مسئولية انقاذهم ليجاهدوا حتى بطريقتهم العقيمة .

وحز فى صدره انه قابل أباه فى التحقيق فى موقف شائن لا يتمبله

العقل ·· فقد دخل الرجل عليه فهب واقفا ليحييه والكلبشات فى يديه فاذا بالرجل يشيح بوجهه ثم يستدير ويبصق على وجهه ويخرج ·· لكنه توقف عند الباب واستدار اليه والى وكيل النيابة والحرس وفتح شفتيه ليعلن فى صوت مرتفع تبرأه منه هو : هذا الولد الجاحد المجرم ! ! ثم انطلق خارجا لا يلوى على شيء ودون أن يودعه · أتى بجسده الضخم وقد علق نياشينه على صدره ، لم ينس مدالياته التى حصل عليها فى السودان من الحاكم العام قبل أن يحال الى المعاش ··

هذه النياشين أصبحت جدارا بينه وبين أبيه ، ليته سرقها حينما كانا فى السودان وقذف بها فى النيل عند المقرن ·

وبكى وهو يتذكر أباه وكلماته القاسية وترك الدموع تنثال دون أن يحاول ايقافها ، ثم استلقى على السرير ملصقا ظهره بالملاءة البيضاء ووسد رأسه على راحتيه · ومضى يحدق فى السقف ، ثم أحس بظلمة باطنية غريبة أسدل عليها جفنيه فوجد نفسه يهوى فى حب عميق تملؤه وحوش ضارية تصرخ فى وجهه تعلن براءتها منه ·· ثم صك أذنيه صوت غريب يصرخ عاليا فى كلمات واضحة ، فأخذ يصيخ السمع حتى وجد فيه صوته هو ·· كان يهتف فى اصرار ··

ـ أنا وحدى المسئول ·· أنا وحدى أنا ·· وحدى ·

وضاع صرير الباب فى دوى صوته ، ثم أطل عليه السجان وهزه من كتفه ففتح عينيه وسمعه يقول فى صوت أجش : اسكت حتى لا توقظ الآخرين ·

فهب جالسا على سريره يسأل فى اصرار : ومن هم الآخرون ·

لكن الصوت الأجش كان قد بارح المكان فلم يجد الا الباب الغليظ والصمت الأسود فارتمى على سريره من جديد ، جاحظ العينين مقطب الجبين حائرا لا يدرى متى سيكون الفجر ·

٢٨ عرفوا سبب اعتقالهم ، وايداعهم فى سجن الأجانب · حاول أحدهم اغتيال صدقى باشا، فى عربة البولمان وفشل، وربطت الحكومة بين الحادث وبياناتهم وشكاواهم المختلفة ، وبرقيات بدر أفندى الساخنة ، فساقوهم مكبلين بالحديد من الدر ومن أسوان والقاهرة والاسكندرية الى هذا السجن ، بعضهم مازال فى « سلاحليك » مركز الدر ، بينما البعض فى حجرة مركز أسوان ·

وفى زنزانته ، الأولى على يسار الداخل من بداية السجن ، بدا فتانا الأسمر وقد نضا عنه قفطان جمال ، وعاد الى بدلته الرمادية . كان يستيقظ قبيل الصباح ، ويصلى ثم يؤدى بعض التمرينات الرياضية ، ويتناول افطارا خفيفا ، يقوم بعده يذرع الغرفة وهو ينفث دخان سيجارته ، ويتوقف بين الحين والآخر عند الباب الغليظ الموصد يطل من خلال ثقب فيه على الردهات المحدقة بفناء السجن ، فيلمح فى بعض الاحيان طرف بدلة أو زر طربوش ، أو عمامة بيضاء ، وقد يلمح شاربا رفيعا مدببا ، يجتاز أمام الباب بسرعة ، ليوصد بابا آخر خلفه ·

كم ود لو استوقف واحدا منهم ليصرخ بكلمة تشجعه أو ليتلقى منه همسة تسوق الراحة الى قلبه .

وأبى : ما زال سادرا ·· فهل قرر أن يجحدنى الى الأبد ؟ تبا له ! فهو لا يعرف معنى للأبوة ! فلماذا أنجبني اذن ؟ لأعانى فى هذه الحياة القاسية ؟؟

وفى أحدى سرحاته الفكرية تذكر بدر أفندى ، فأطل من ثقب الباب ، فلمح طربوشا يتوقف أمام عينيه لحظة ، فصرخ عاليا : أنا حسين . لم أقل شيئا عنكم ، ماذا قلتم أمام النيابة ؟ ثم توقف عن الصراخ ، فقد تحرك الطربوش بعيدا ، وانزوى وترك نفسه فريسة

لافكاره وارتد الى سريره وارتمى عليه فى يأس ، وانثنى يحدق فى مصباح النور وخيوط العنكبوت التى التفت حوله ، ولم يدرك أن بدر أفندى يقبع فى الزنزانة التى على يساره وأن الأستاذ سليمان عجيب هنالك ، والا لظل ينقر لهما على الحائط كما كان يفعل فى الخرطوم مع رفاقه فى السجن .

ثم دفعته الذكريات الى الخزان ، ثم الى الشطئان الشعبانية التى تظللها غابات أشجار النخيل والى ميدان أبو « زقان » فى الدر ، الى بيت بدر أفندى ، وتذكر حديثهما هنالك على المصطبة فى احدى امسيات . فقد ظلا يتحاوران ، هو بحماس فائر ، والرجل بحكمة لا تخلو من الحماس ، ينهاه وقد رفع سبابته الى وجهه ، عن ارتكاب الحماقة التى أعتزمها ، وهو مازال يذكر الكلمات التى صرخ بها فى وجه الرجل :

ـ منطق عجائز يا أستاذ بدر !

ولم يغضب الرجل ، بل قال له فى هدوء :

ـ حسين ـ انت مازلت صغيرا !

وهز رأسه فى عجب وأردف : اذا ما قطع الذنب ، ظلت الأفعى تنفث سمها ياحسين .

وقاطعه هو فى حماس : لست أنوى قطع الذنب ، بل الرأس . الرأس . أسمعتنى ؟

واجابه الرجل فى هدوء : تخال الذنب رأسا ياحسين . مازلت بعيدا عن الفهم .. دعك من هذا الحديث الذى لا طائل تحته .

ـ وأى شيء أهم مما نحن فيه ؟

ـ هذا البيان . أعد صياغته ، واكتبه بخطك الجميل . واذا وجدت بيتين من الشعر لحافظ ابراهيم ... خرج البيان قويا . خذ .

وتناول البيان منه ، ومر عليه فى سرعة ، ثم أعاده ويده ترتعش كأنما لدغته عقربة ، ثم قام لينصرف غاضبا ، وخاف بدر أفندى من مغبة غضب الشاب فقال كأنما يذكره بشيء : وأبوك ما رأيه فى كل هذا الأمر ؟

فاستدار اليه وقال فى صوت حانق : أبى ! انه رجل الحكومة ولا رأى له .

تذكر كل ذلك وتساءل : ترى ماذا يقول الرجل عنى وهو جالس على مصطبته هنالك فى الدر ؟ ثم فغرفاه فجأة وقال لنفسه ... كم أنا ساذج ! لا بد أنه هنا . الطربوش الذى رأيته من ثقب الباب لا بد طربوشه ، وسليمان عجيب ! هل تركوه دون اعتقال ؟ كلا فهو وفدى يؤمن بالنحاس ايمانه بنفسه ، ولكن النحاس بعيد عن الحكم ، ولا طائل تحته الآن . ثم ما للنحاس ولتلك القرى النائية ؟ ماذا يهمه غرقت فى أليم تلك القرى أم اخضرت ؟! يقولون أنه كان قاضيا فى الدر ويروون عنه الأساطير . حكم على نفسه مرة بغرامة .. ياللعدل ! ولكنه الآن لا يفعل شيئا غير الخطب ، هو ومكرم . الا أن تقديرات حكومته الأخيرة للتعويضات كانت تبدو مجزية .

ونهض الى الباب واتكأ عليه يفكر فى الذين من حوله فى الزنزانات الضيقة . ماذا يقولون عنه ؟ وما الذى أفضو به أمام النيابة ؟ أتراهم قالوا كل شيء عرف به هو فى المنتديات ؟ وفكر لحظة ليقول : كلا لا يمكن . وتخيلهم وهم يواجهون الناس فى الدر ، فى القرى بعد أن يعترفوا عليه ، فعاد يؤكد : كلا لا يمكن !

ثم اختلطت صور الرجال بصور زنوبة وجمال ، ثم صورة الفاتنة التى تفرست فى وجهه بازدراء ، وهى تلاحظ الكلبشات فى معصميه على رصيف بنها — ترى هل يعود فيرى ذلك الوجه ؟ وهل يلتقى بزنوبه يوما ؟ مالك بها ؟ دعها وشأنها فانها لغيرك . ثم خطر له سؤال : ترى لماذا لم يتزوج وقد بلغ الثلاثين ؟ ومضى يستعرض حياته وانتهى الى قرار . خير له أنه مازال أعزب بلا زوجة وأولاد يقللون ويقيدون حركته ! وماذا هم فاعلون به ؟ أيلفون الحبل حول رقبته ؟ ... أم يرسلونه الى الليمان فى طره ، تلسعه سياط الشمس وتهرى كتفيه الحجارة ويعشى الجير عينيه ؟ أليس الموت أفضل ؟! لعنة الله على الفشل . وتذكر على عبد اللطيف وما يعانيه فى صبر .. فقال ليتنى فداؤه وتخيل نفسه فى دور بطولى ، يفتدى فيه هذا الزعيم الذى سجنه الانجليز ، فاستسلم لخيالاته حتى هدأت نفسه ، ثم أصاخ السمع قليلا ، فقد ظن أن صوتا يعرفه قد تناهى الى سمعه .. صوت بدر أفندى ... تماما فى الزنزانة التى على يساره يطلب ورقة وقلما .

وأسرعت قدمان ، وفتح باب ، ثم أوصد ، وهدأ الصوت المرتفع ، وبدا هو ينقر على الحائط الا أن أحدا لم يستجب له !

فقد انهمك الرجل ، يكتب شكوى من سوء المعاملة ويطلب مصحفا

يقرأ فيه · وطوى الشكوى ، ثم بدأ يكتب جوابا الى ابنه كامل ، وهو يهمهم لنفسه كالمجنون .. لقد نفذ وعيده . لكم نهيته . ليته أستمع الى النصح · خسارة !

وتذكر الرجل نجع النجيلية « فى الدر وأبناءه وصعد زفرة حارة · ثم مضى يملى على القلم عبارات حارة يضيفها الى الشكوى : قتل فرد جريمة لا تغتفر ، أما وأد أمة فمسألة فيها نظر !!

وفى الزنزانة الأخرى الملاصقة الى اليسار بدا عجيب شابا أبنوسى الوجه فى ملامح فتية ذكية ، وقامة طويلة ، يحدق فى فضاء الزنزانة ويفكر فى المصيبة التى حلت به وحلت بهم جميعا ··· فعرقلت كل مشاريعه ومشاريعهم ·

ونودى على حسين فتلصص عليه من ثقب الباب وهم يقودونه للمرة العاشرة الى النيابة وعاد الى سريره وغرق فى تأملاته وتذكر أيامه وهو يعمل مدرسا فى « الدر » ويستذكر دروسه فى القانون ، مجهدا نفسه حتى نال الليسانس ، ثم تذكر أيام طوافه فى الحملة الانتخابية هنالك فى القرى النوبية ، ومازال الهتاف له يطن فى أذنيه : الطير يقول : سليمان عجيب . الطير يقول ··· ومازال يتذكر أيامه الأولى فى مجلس النواب بين زملائه النواب وهم يتفرسون فى وجهه الأبنوسى ، ويتندرون به ، وتذكر اجاباته اللاذعة الساخرة حتى ألفوه والفهم فى نهاية الأمر !

وتساءل : أتراني أحقد على حسين ؟ وأجاب بسرعة : كلا ، فليس الا بطلا ضاقت به الحيل فانتهى الى الفشل . وتعسا لأبيه ! . أهذا أب ؟! وهرش رأسه متفكرا ، ثم همس .. الولد فى حالة صعبة لابد من محامين أكفاء يرسلهم الوفد ·

ثم مد يده الى حلقه ، اذ أحس بظمأ شديد ، ظمأ يكاد يقتله ، فدفع بالماء فى جوفه دون جدوى ، فان الظمأ الذى يعانيه لا يقتله الماء القراح . لعنة الله على هذا السجن ، وعلى صدقى وعليك يا حسين . لقد حرمونى من جلستى فى بار اللواء . ثم غامت عيناه ، ومضى يوقع بقدمه على الاسفلت ، ويغمغم : يا خفافيش أقبل الصبح وشيكا فادبروا ··· ثم راح يوقع التفاعيل على أصابعه !

***

وفى مكان غير بعيد ، وعلى سرير فى احدى المستشفيات رقد الشيخ فضل يتأوه وقد حسر عمته عن رأسه ، فان ساقه راحت تنز ألما . ولعنة الله على الأرض وعليك يا عبد الله الجزار .. عند نهاية الساق آلام شديدة يحس بها تصعد الى كل جسمه والى نافوخه .

لقد أفاق منذ لحظة من تأثير البنج . ولم يكن قد علم بعد أن الأطباء قد انتهوا من بتر ساقه ، والغريب أنه أحس منذ أفاقته بالألم فى نفس الساق ، أحس بثقلها تحت البطاطين وبخدر مؤلم يسرى فيها وفى الأصابع ..

وبالامس زاره أقاربه يحملون الهدايا . ويواسونه بكلمات طيبه . ثم انصرفوا بعد أن منحوه قطعا فضية كثيرة « يمشى حاله » بها فى المستشفى ! لقد زاره شقيق عبد الله الجزار الذى يعمل بوابا فى عمارة فى الزمالك ، وقد بعث ظهوره فى مخيلته ذكريات قفزت به عبر المدينة والحقول الشاسعة والكبارى والجسور والشريط الحديدى الى الشلال ثم الى النجع نفسه . ما الذى جعله يتذكر زوجته « فضيله » وبرعى ؟ ربما ظهور شقيق الجزار ... وربما هذه الممرضة الرومية هى التى جعلته يتذكر امرأته فمضى يعقد المقارنات بين النساء فى مصر وفى البلد ، والغريب أنه فضل نساء قريته على جميع نساء العالم !

وتداعب ذكرياته الى داريا سكينه وشريفة والحاج برعى عليه قبل أن يرحل ليسعى الى أبيه فيقبل زواجه من الفتاة ... لكن هذا « العكروت » لم يرسل حتى جوابا واحدا . ترى ما الذى أعاقه ؟ أتراه ما يزال يجرى خلف شريفه ؟ أم أنه اشتبك من جديد مع البسطاوى ؟ اننى قلق وحائر . ولكن ما الذى يجعلنى ألومه ؟ فأنا منذ أسبوعين لم أرسل خطابا واحدا ... لقد ظللت أبحث عن جمال ، حتى حسين النجار لم أستطع الالتقاء به ليرشدنى الى مكانه ، وها أنا طريح السرير فى المستشفى . قالوا : انهما عزلا من شبرا .. الى أين .. ؟

ثم قفزت صورة برعى مرة أخرى الى ذهنه ، فهو يحب الفتى ، قفزت لأن أحد المرضى سعل فى عنف سعالا يضغط على صدره . فتذكر على الفور : دولحظ دولحظ .. ومضى يعنف برعى فى مخيلته : لماذا لم يرسل ليستفهم عنه ؟ ... أنا نفسى لم أرسل لهم أن الاطباء قد قرروا ..

ومد يده ... يتحسس ساقه فلم يجدها فامتلأ بالتقزز والرعب، وتصور نفسه يسعى فى النجع على ساق خشبية ، فاظلمت الدنيا فى

عينيه ، واشتد أنينه حتى سمعت الممرضة اليه تبتسم وتهدىء من روعه .

ولو أوتي الشيخ فضل بصيرة تجتاز الابعاد لعبرت به مصر كلها وقفزت به فوق التلال ، ولفتحت أمام عينيه باب السجن الصغير خلف مركز الدر ، ليرى هناك فتاه منطرحا على الأسفلت بعيدا عن نجعه يجتر أحزانه .

لقد سمع فضل ، وهو طريح ، أن رجلا ... شابا أسمر حاول أن يغتال صدقي باشا ، فانتشى للنبأ ، وان عاودته الكآبة للفشل . أما أن يقبض على برعى بسبب هذه المحاولة فأمر لم يكن يمكنه أن يتصوره .

***

وهنا لك في الدر ، في الزنزانة الوحيدة الملتصقة بالسحليك جلس برعى في نفس اللحظة على الأرض معتمدا رأسه بين راحتيه يفكر في الأحداث التى جرت لهم .

أدرك بعد التحقيقات التى أجريت معه بحضور الشيخ مرسى أن حسين طه حاول قتل رئيس الحكومة ، أن بدر أفندى قد سيق مثله الى السجن في مصر . وفهم أن اسمه الذى وقع به على البيانات مع أحمد محمود سبب اعتقاله هو واحمد وبعض الشباب الذين أعتاد الالتقاء بهم عند بدر أفندى منذ شهور . انهم يسألونه في المركز هل يعرف حسين طه وهل يعرف دولة الرئيس . أى رئيس هذا الذى يتكلمون عنه ؟ انه لا يعرف الا رجال النجع : العمدة وداريا سكينه وابنتها شريفة والبسطاوى وبعض هؤلاء الشبان . نعم انه يعرف بدر أفندى ، قالها رغم تحذير المأذون له . ولكن ما شأنه بدولة الرئيس ، انه لم يسمع حتى باسم حسين طه الذى يرددونه في أسئلتهم !

وتذكر وهو يعتمد رأسه بين راحتيه كم كان جسده يرتعش وهو يجيب على المأمور بكلمات متعثرة مختلطة ، ولا يدرى لماذا كانوا يضحكون كلما قال كلمة بالعربية ، عربية حسن المصرى . كان أمام المأمور مثل الأبله تكاد دموعه تخون رجولته ... آه لو رأته شريفة على هذه الصورة ، اذن لا نتهت كل أحلامه ، ومازال يذكر أن المعاون كان يردد بعد كل كلمة يلفظ بها هو : أنت بجم ولا تفهم شيئا ورغم ذلك ،

ورغم أنه لا يفهم شيئا فقد أبقوه هنا مع أحمد محمود الذى يفهم ، ومع المأذون وصحابه الصغار من مختلف القرى .

ولم يشعر الفتى فى الزنزانة بجوع ولا بظمأ ، فقد تكفل أهالى الدر برعايتهم ، يحملون اليهم طعامهم ، وبراد الشاى الساخن باللبن فى الصباح وفى الضحى ، وفى الأصيل بعد القيلولة .

وزارهم من النجع أحمد عوده والشيخ أمين ، حتى البسطاوى جاء مرة وقال أن المحامى قد سيق مكبلا بالحديد الى أسوان ، والنجع كله يطالب العمدة بالتدخل عند المأمور للافراج عنه .

ظلت الصور الغريبة تنثال على مخيلته مشوشة مختلطة ومرعبة . توهم معها أمورا لم يختبرها أحد فى قريته . جبا يلقون به فيه حيا كما فعل أبناء يعقوب بيوسف الصديق الذى عاش فى السجن سنوات طويلة بعد ذلك !

وهؤلاء الصحاب والمأذون ، أيكونون معه فى نفس الجب ؟ أم يدفعون بهم الى قاع النيل أحياء فتنهشهم الأسماك وتتلاعب الدرافيل بأجسادهم ؟!

ومد يده ، وستر بها عينيه حتى لا يرى تلك الصورة البشعة التى تراءت له ، صورة رجال من نجعه يصرخون والأسماك تعض فى أجسادهم ، ثم تهالك على الأرض ، بينما المأذون يروح ويجىء فى تمتمة دائمة يرتل من سورة يس يتعلل بها ويبعث الشجاعة فى قلوب الآخرين

ثم أطل من الباب الضيق وجه حموى ، جاء لزيارتهم يحمل لهم أخبار النجع . الشيخ فضل لم يرسل جوابا بعد ، سعديه وبخيته وداريا يسلمن عليكم ، زوجتك سبيله يا شيخ صابر بخير كلنا ، حتى العمدة كل يومين هنا فى المركز ، وقد أكد أنه زاركما ، حامد وأوسمن الله وبكر يريدون أن يأتوا معكم .

وتوقع برعى أن يردد الرجل اسم شريفة ، ولكنه لم يفعل ، فعاوده اليأس ، ولم يعد يستمع الى كلمات المأذون ، ولا الى المناقشة التى تدور بينه وبين أحمد محمود عن الطوفان والتعويضات والرحيل عن المنطقة ، فان قلبه كان يغالب حنينا الى النجع والى المتجر وحامد الصغير . وتذكر حسن المصرى . الحلبى طليق وحده هنالك ! خلا الجو له وللبسطاوى ليعبثا كما يريدان فى غيبته . وعند هذه الخاطرة رفع رأسه فجأة الى

ماذون يسأل : أيمكن لحسن المصرى أن يتزوج من البـلد ؟ فعلت لابتسامة وجه المأذون ساخرا من هذا السؤال الصبيانى ، لكنه رأى لاصرار فى وجه برعى فأجاب : كلا الا اذا كانت جارية • ولكـن لمـاذا تسأل ؟ وتردد برعى لحظة ثم همس : لا شيء ، فقط أردت أن أعرف • ونكزه أحمد محمود ، وأضاف : أبدا • مستحيل ، فأحمد يعرف حب برعى لشريفة وغيرته الشديدة ، ولذلك فانه مضى يتندر به بينما انزوى هو فى ركنه ليستمع الى اصطخاب الموج ، ووشوشة أشجار النخيل خلف السلاحليك ، ثم اختلط بكل ذلك صوت قلابات باخرة وخفقات شراع • ولا يدرى لماذا استقرت مخيلته على صـورة شريفة ملقـاة على النتوء الشرقى ممزقة الثياب ، تتنفس فى صعوبة وهى تغالب الموت • وتساءل ما الذى بعث بهذه الصورة الى ذهنه ؟ أهى مريضة ؟ ولماذا لم يرد حموى أن يذكر اسمها ؟

وأغفى ليجد يده فى المنام تمتد لتلمس خصلة شعر مرتفعة فوق رأس شريفة ، مثل ذؤابة الهدهد وفى ليلة زفاف ! •

***

وعبر الجبل والمنحنى الذى يفصل الدر عن القرية ؛ كان الناس واجمين ؛ يتساءلون عن مصير الأولاد • زوجة المأذون تكاد تقتل نفسها من الحزن عليه ، وأم برعى كادت تقذف بنفسـها الى النيل ، الا أنها اكتفت بالدعاء من الله أن يبتلى بالكساح كل الذين تسببوا فى المصيبة التى حلت بولدها ، شالت النيلة والرماد على شعرها ، وراحت تجوس الدروب من نجع الى آخر لتنتهى الى دار العمدة ، تربض عندها باكية لحظات ، وتشد شعرها الأشيب ، ثم تهب فجأة لتعود ، حتى أقسم زوجها ألا تبارح دارها •• والرجل نفسه يعجب كيف تم له أن يعزم ويحلف بالطلاق • لقد نهض من مجلسه على طرف المصطبة قرب الباب ، نهض فى عزم حين رآها تلطم خديها ، وتهب منطلقة الى الخارج ، فاعترض طريقها ، وحاولت التملص منه ، لكنه فتح شفتيه فى عزم واشرأب على كعبيه ، ومط عروق رقبته وأطلق صوته المتشرخ : على الطلاق ثلاثا لو خرجت من البيت ! وفغرت هى فاها ، وهمست : الطلاق ! يالله ! خمسون سنة لم يطلقنى فيها والآن ، الطلاق ! انه يمزح ، لكنها رأت فى عينيه شرارة الغضب ؛ فدارت على عقبيها مسلمة قيادها له ؛ ترتعش كلما تذكرت كلمة الطلاق ، بينما أحس الرجل أن الشباب قد تجدد فى

فى عروقه ؛ وأن كلمته مازالت العليا فى البيت ، واعتاد منذ ذلك أن يقول لها اذا مابكت : اخرسى يابنت .. ، فتخرس ، وتمسح دموعها بسرعة قبل أن تسيل على خديها الأجوفين ؛ وتسدل الطرحة على شعرها الأبيض ، ولا تعود الى البكاء الا حين يبارح البيت وهو يتوكأ على عصاه .

وتتالت الأيام بالناس وهم يتوقعون فى كل ساعة أن يرتد المأذون وبرعى والمحامى اليهم ، ثم اعتادوا الانتظار ، وعادوا ينهمكون فى مشاغلهم ، فان عيدان القمح كانت قد ناءت بحملها من السنابل ، فعادت الحقول تزدحم بهم من صباحية الله الى مسائه ، ثم يعودون مرهقين يتساءلون عن المأذون والمحامى وبرعى فتى النجع الصغير .

ثم تباعدت الايام ، حتى وجد أهل برعى والمأذون أنفسهم مضطرين الى استئجار الناس ليضموا غلالهم ، وعرفوا قيمة برعى فى هذه الايام فاقسم ابوه ألا يغلظ له اذا ما عاد سالما ، وأن يسلمه كل شئون البيت وأن يتهاون معه الا فى مسألة شريفة . ألم يكسر أقاربها ساق خاله ؟! وكم نحن مشتاقون الى هذا الخال . ماذا فعلت مصر بساقه ، ولجأت فضيلة الى أبى ، فأعارها حسن المصرى يساعدها فى ضم القمح ، ورفضت أن يمد لها البسطاوى يد المساعدة . ألم يكسر ساق زوجها !؟ وعكفت داريا وشريفة على حقلهما الصغير ، وضمتا العيدان المتناثرة . فقد أكل الملح معظم العيدان ، ولم تحصدا الا كيلتين ، ثم مضتا تجهدان نفسيهما عند الناس لتحصلا فى نهاية اليوم على ربع أو نصف كيلة ، وقلباهما مازالا ينزان بالألم . كانتا تستريحان عند الظهر وتتذكران جمالا وتبكيان حظيهما المنكود .

ولا يدرى المرء ما الذى ينتاب شريفة بعد أن غاب برعى ؟ أتناسته ؟ أم أنها تذكرته وبكت عليه ؟ . لقد ازداد جمالها فى الشهور الاخيرة ، فاكتمل جسدها واستدار وبرز نهداها ، وتحولت عن تضفير شعرها فى جدائل تلتصق بفروة رأسها ، وتركت له العنان لينسدل على ظهرها فى ضفيرتين كبيرتين بعد أن اتخذت من شعر البيضاء « أم زين » نموذجا لشعرها .

كانت تبكر فى الصباح ، وتغسل وجهها بقطعة « الصانلايت » الصغيرة التى تخفيها فى السحارة ، ثم تبل شعرها بالشاى من الغلاية ،

ـ جسمه في عناية بالفلاية التي اشترتها من حسين فييس وتحلي جيدها
ـ بعقد الخرزي ـ هدية برعي ـ وتسدل طرحتها ، وتمضي خلف أمها
تكدح طول النهار ثم تعود في المســاء غاضبة عابسة لسبب لا تدريه
داريا سكينه » • فقد نشــب في صدرها صراع تعرف مأتاه وتجهل
المخرج منه ! فهي دائبة التفكير في ديون الشــيخ أمين التي لا تنتهي ،
وخيل لها أنها لو تزوجت أراحت أمها ونفسها من عناء كل هذه الديون •
وقد يئستا من جمال وحوالاته التي لا تجيء • وفوق ذلك فان جسدها
بدأ يسومها العذاب ، فقد سهرت يوم زفاف جميلة طول الليل تفكر في
كل ما يمكن أن يحدث بين رجــل وامرأة • ثم تلك الســيدة البيضاء
وأحاديثها الشيقه عن الحب في مصر !

وما زال حسن المصري يرتاد بيت البيضاء ولا يدخل بيت شريفة الا
لماما • انه يتحاشاها لأمر لا تدريه ، بينما الشوق يقتلها الى لمسة واحدة
مثل التي أفلتت منها بين عيدان الذرة • كانت تتخيلها ، وتشعر بخدر
لذيذ يسري في كل جسدها ، فيبتهج صدرها في سذاجة ثم تنتبه لنفسها،
وتعض على شفتها السفلى ، وينشط من جديد عقلها المكدود ، وتقرر أن
برعي أنسب زوج لها ولكنه فقير غلبان • وربمــا حملها التفــكير الى
البسطاوي فتقبله زوجا في خيالها، يبسط عليها حمايته ، فأهله موسرون،
وهو من أقاربهــا ، وما الفرق بينه وبين برعي ؟ الا أنها تحترم برعي
لشجاعته ولرجولته • ثم يقفز قلبها الصغير الى القمة ، يصرخ : أنا هنا •
ماذا تريدين أن تفعلي بي ؟ حسن المصري هو كل شيء • فتعود الى التشوق
لقبضته على فخذها ، فيعاودها الخدر اللذيذ ، فترتبك خطاها ، ويختلج
جسدها برعشة مفاجئة •

لاحظت ذلك جدتي وهما جالستان حول الرحى ، فهمست لها: قومي
يا بنتي ، أعدي لنفسك فنجانا من الشاي • مالك ساهمة حائرة ؟ أتفكرين
في جمال ؟ يحرسك الرب يا ابنتي • جمال سيعود بعد حين ، لا تهلكي
نفسك من أجله • قومي يا شريفة فسوف تعود بطة لتساعدني • قومي
أنت •

وقد زاد من آلامها تلك التعاسة التي بدأت تخيم صباحا ومساء على
وجه أمها • «داريا» قد تركت شئون البيت على عاتقها ، ولم تعد تذهب
الى المتجر ، بل ترسلها هي لتلاقي الشيخ أمين وديونه • أمها لم تعد تنشط
في العمل كما كانت تنشط من قبل ، فسريعا ما تتركه وتجلس لتندب
حظها ، وتدعو على جمال ، وقد تنهال عليها هي بالسباب المقذع حتى ودت

المسكينة لو خلصها أحدهم حتى ولو كان البسطاوى ! البسطاوى الذى شدد من تعرضه لها فى كل مكان ، يتودد اليها لا سيما بعد أن غاب برعى عن الميدان .

وكادت تستسلم لولا وقاحته التى لا تبارى ، فقد أراد الكثير مما لا تستطيع فتاة شريفة أن تمنحه . انه لا يأبه أبدا بالقيل والقال ، ويعتقد أن قراطيس السكر والشاى تمهد طريقه فى أى مكان ومع أية فتاة .

البسطاوى قبل ذلك كان يترك حديث الزواج لخاله عبد الله الجزار. أما الآن فانه هو الذى يثرثر عنه ، ويمد يده الى صدرها وهو يقول : ما المانع أن تكونى زوجتى ؟ فتبتعد عنه ، وتختفى من طريقه وهى تلعن وتسب أباه .

وتراكمت الهموم على رأسها حتى وصلت الى حالة من اليأس فى أصيل أحد الايام بعد نزاع بينها وبين الشيخ أمين حول ديون أمها، وقررت أن تغرى البسطاوى ليتزوجها بسرعة حتى يريحها من كل شيء !

وطدت العزم على ذلك ، الا أن هذا الامل نفسه انهار تماما فى أصيل اليوم التالى ، حين ساقتها قدماها الى المرور بالقرب من تحويشة عبد الله الجزار .

كانت تمضى الى جانب سور التحويشة الذى يحيط ببستان نخيل يملكها الرجل . ودون أن تدرى وجدت نفسها تطل من السور الى الداخل ، فرأت بين أشجار النخيل شبحين يتهامسان : فتاة حاسرة الرأس سقطت طرحتها على منكبيها فى اهمال ، تستند الى جذع نخلة ، وتلقى برأسها الى الخلف ، فينبعج صدرها ، تياهة بشبابها الغض ، وأمامها وعلى مد الذراع منها شاب طويل ينحنى عليها . ثم تقدم هذا الشاب خطوة صغيرة جعلت جسدها محشورا بينه وبين جذع النخلة .

ولم تدر شريفة ما الذى جعلها تتوقف وتستمع الى همساتهما ، فقد ملأ ما سمعته قلبها بالألم والخوف والسأم .

كان الفتى يقول لها : سعدية : هبينى قليلا ــ فترد الفتاة لاهثة : من أى شيء يابسطاوى ؟ فيصمت الفتى ، وكأنه يستجمع ارادته ويهمس: من الجنة ياسعدية ! من عجوتك الطرية ! ويكف الفتى عن همسه، ويقترب منها يكاد يهصرها ، فتهمس : حسبك .. أطلب الجنة من شريفة ! أنت تجرى وراءها .. رأيتكما بعينى . التهمها كما تلتهم العجوة الطرية . صدرها مثل صدرى ووجنتها .. بل هى أحلى منى .. لكنها رغم كلماتها هذه كانت تميس بقدها وتتمايل مبعدة خصرها ، مدنية ، فى نفس

[illegible] وجهها من وجهه ، بينما يتقلص وجه البسطاوى ويربد ويتحول [illegible] ذئب مفترس ، فلا تولى هاربة ، ولا تزيد على كلماتها الا بآهة متدللة ، [illegible] أخرى عن شريفة : قلت لك دعنى • امض الى شريفة • انها تنتظرك فى البيت ، فى الحاصل أو فى الخرابة الملاصقة لبيتها • أنت غشيم ! شريفة تلعب بك وببرعى وحسن المصرى • ألا تراهما فى بيتها ؟ لماذا لا تذهب اليها ؟ انها أجمل منى ! وكلكم مفتونون بها •

وقال البسطاوى ، وكأنه يستنكر كلماتها : شريفة ! وأين شريفة منك ؟ انت أجمل ألف مرة منها • ومد يده الى صدرها ثم أردف : أنت بيضاء مثل البدر • أما هى • فليست الا جارية سوداء ، هى قريبتى ، ولكنك أجمل منها • أمها نجسة ، لقد طلبت منى أن أستر عورتها ، ووسطت عبد الله الجزار ولكننى رفضت • تعالى ياسعدية • وانهال عليها فغامت عيناها ، ومدت يديها تحمى ما بين فخذيها ، بينما هو يمد يده ليعتصر رمانتيها •

وفى هذه اللحظة أفلتت شريفة قبضتها على باب التحويشة ، فوقعت على الارض ، هى والباب ، فانبعث دوى من ارتطامهما ، فتنبها ، وراحت سعدية تعدو ، بينما وقف البسطاوى يتلفت حوله ، ثم أطلق العنان لساقيه خلف سعدية •

ونهضت شريفة الى قدميها ، وأحست بدموعها تنسال على خديها • ابن الكلب •• يقول أنه رفض الزواج منى ؟• أمى طلبت منه أن يستر عورتى ؟ سعدية أحلى منى ألف مرة ! لست الا جارية سوداء ! آه لو كان جمال هنا! وأين برعى ليحشو فمه بالتراب ؟• حسن المصرى وبرعى يعبثان بى !!! بنت الكلب !

وكان فى ظاهر يدها خدش تسيل منه الدماء فأخذت تمتصه بين شفتيها ، وهى تغوص فى دوامة أفكارها : ليت برعى هنا ، وهل رأتنى سعدية ؟ أم انها لم تتبين وجهى ؟ وهل رآنى البسطاوى ؟

وعادت وهى تشعر بالحمى تسرى فى جسدها ، وقلبها ينتفض بالغضب وبالحنين الى برعى ، مسكين •• انه محبوس ، ولا أدرى متى يعود ؟!

واستدارت عند المنعطف لتجد نفسها وجها لوجه أمام البسطاوى الذى أخذ يتعرض لها ، فأشاحت بوجهها عنه ، ثم لكمته فى صدره ، ومضت تعدو ، حتى وجدت نفسها منطرحة على المصطبة الداخلية تجهش بالبكاء •

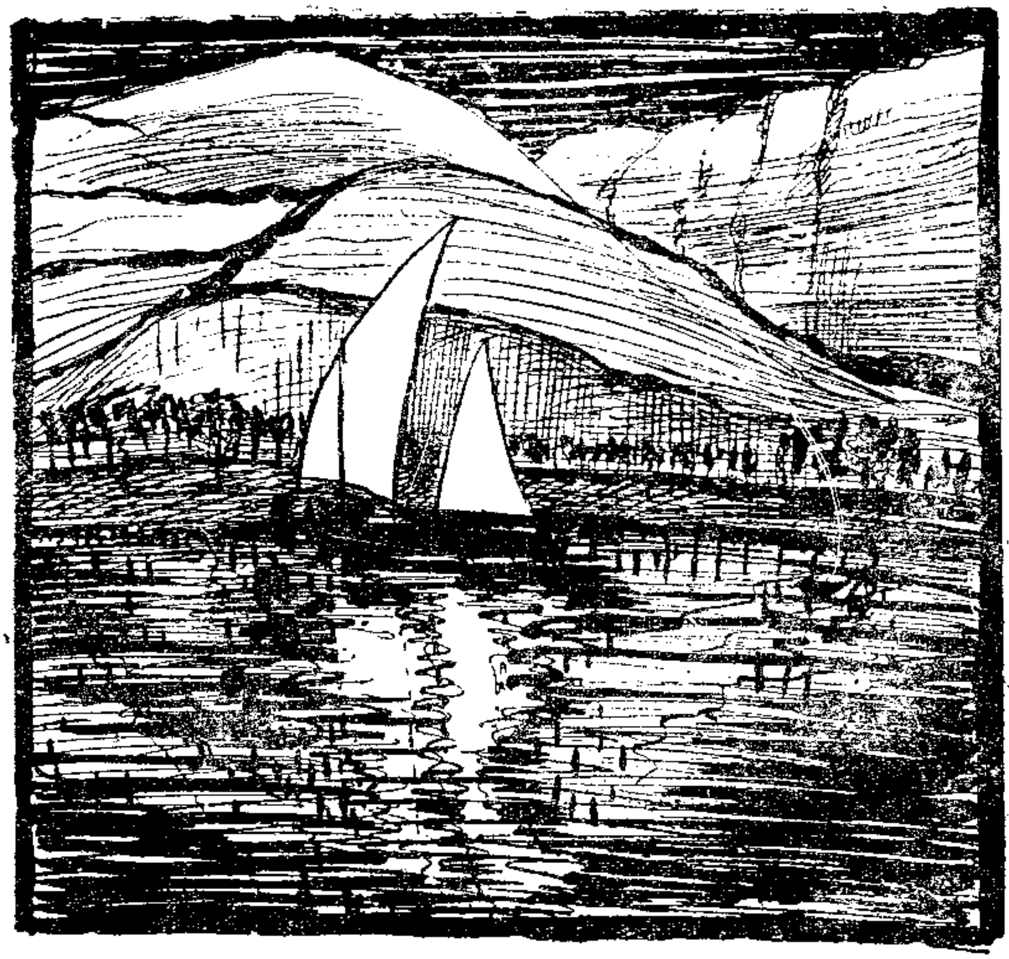

٢٩ ومن جديد عادت الشمس الملتهبة تجلد ظلال النخيل ، وترهق الأبدان وتميل بها الى الدعة بعد كدح متصل منذ الصباح .
ومن جديد طوق جيد كل نخـــلة بعقود حمراء تشوبها نقط خضراء سرعان ما تحولت الى صفرة باهتة ، ظل لونها يميل الى الاحمرار حتى جفت العناقيد ، وتيبست الثمار فناءت بحملها ونفضتها الى الارض . ثم أهلت الفوانيس فى السحر تتصيد ما بين أشجار النخيـــل ، لتعود خابية النور أمام ضوء الشمس .

واخضرت الجزيرة ، حتى لم تعد تبين الا كباقة خضراء ، ونشرت وريقات اللوبيا خضرتها الطاغية فى كل مكان ، ورست المراكب السوداء على المرافىء ، وتسلق عم نوح كل نخلة ، وتجمع الناس تحتها يحتضنون السباطات المتساقطة ، ومشت الدواب بين الشاطىء والمتاجر ، وانطلقت

المزامير ، ووشوشت الغوايش الزجاجية على المعـــاصم ، وسرت الطوافىء الزاهية فى زنفال ، ودخل « الحلب » قريتنا من الشمال الى الجنوب ، والتقى حسن بفكيهة ذات ليـلة ، وشطبت صفحـــات من دفتر الاستاذ واليومية بالكوبيا ، ونقلت سطور الى دفاتر أخرى ، وصرخت المشاجرات فى الحلوق ، وبكت داريا سكينه حظها العاثر ، فابنتها لم تعد تميس بين الحقول وأشجار الحقول ، بينما سعديه تتنقل مثل الفراشة ، والبسطاوى من خلفها كأنه ذيل جرجارها ! «شريفة طريحة الفراش تشكو داء لا تدرى الأم مصدره ولا نهايته ، فمضت تهلك نفسها بين أشجار النخيل لتعود فى الاصيل تضم الفتاة الى صدرها فى حنان بينما تنشج الصغيرة : خلاص يا أماه ٠٠ لا فائدة ترجى منى ، فتقـــول من بين الدموع : بعيد الشر يا ابنتى ٠ ما زلت مثل جمار النخل ٠ لا تخافى ٠٠ لو أكلت شيئا ٠ وتدنى ملعقة خشبية ملأتها بالعصيدة من فم الفتـــاة ، فتنحيها بيدها وتهمس : رأيت فى المنـــام يا أماه أننى أقضم حزمة من الحلبة الخضراء ، فتتركها فى يد « بطة » وتسرع وتجرى بين الحقول ، والظلام يغشى النجع ، وتعود لاهثة لترمى بالحزمة بين يدى فتاتها ، بينما تدخل جارة تهمس : الحمد لله ٠ مالك يابنتى سليمة بعافيتك ٠ باسم الله ما شاء الله !

فتهمس المسكينة وهى تغالب آلامها : الحمد لله ياخالتى فضيلة : ثم تسيل دموعها على خديها ، فيلصقون لبخة القرطم على جبينها ويقولون: سخونيه ٠٠ لا شىء غير سخونيه ، تزول باذن الله ٠

وتتسمع خالتى أمينه بابا الى دقات قلبها من ظهرها ، وتدير عينيها لتؤكد لنفسها أن الفتاة فى خطر ، ولكن شريفة لا تعرف ما بها ٠ انها لا تحس بألم ما فى مكان محدد من جســدها ٠ كل ما تحس به هو أن شعرها يتساقط على الوسادة وفى يدها ، فتبكى وتشعر بالهزال ، وتحس أنها مقبلة على الموت ، وتروح أحيانا فى غيبوبة ، ثم تهلوس : سعدية ٠٠ «البسطاوى» ٠٠ التحويشة ٠ الجنة ٠٠ يالفخذى ٠٠ يده كانت قاسية بين عيدان الذرة ٠٠ اشطبها يا أمين وحياة ابنك حامد ٠٠ برعى ٠٠ أين برعى ؟ ٠٠ مسكين يا جمال ! وتطلق صرخة ثم تفيق لتحدق فى النسوة المحيطات بها ٠

وتسألها أم سعدية : مالها سعدية يابنتى ؟ فتسكت شريفة ، بينما سعدية تراقبها بعينين واجفتين من خلف رأس أمها ، وتشير اليها وكأنها تقول : لم أقل شيئا عنك ٠٠ أسترينى حرام عليـــكى يا شريفة ٠ أنت تموتين وسوف يحاسبك الله ! غير أن شريفة لم تفهم شيئا ، بل مضت

تحدق فى وجه سعدية ، وتتمنى أن تكون بين يديها مرآة لتقارن بين وجه سعدية ووجهها • وتحدق أم سعدية فى وجه ابنتها وتتنهد فى حيرة •

وتقترح فضيلة استدعاء جمال ظريفة ليقيم زارا لشريفة ، فتتضرع هذه اليهن ألا يفعلن • فجمال ظريفه يتطلب نفقات كبيرة ، فيكتفين بتعليق حجاب على ضفائرها وعنقها ، ثم يلهثن هنا وهناك بحثا عن الوصفات • وجاءت الست آسيا المولدة ، ومضت تعتنى بهـــا كأنها ابنتها غير انها لم تتماثل للشفاء •

وفى احدى الامسيات ، وهن من حولها ، رنت زغرودة هتفت سعدية بعدها : المأذون وبرعى دخلا النجع منذ لحظات ، ففتحت شريفة عينيها على هذه الكلمات ، وتألق بريق غامض فيهما ، وعاودها التفـكير فيما رأته بعينها فى تحويشة الجزار وفيما سمعته بأذنيهـا ، وتمنت لو انتقم لها برعى قبل أن تموت •

★★★

وخرجت القرية كلهـــا الى مفارق الطرق تســتقبل المأذون ورفيقه الصغير • وراحت أم برعى تعدو وتركض حافية وقد انتفش شعرها الابيض حتى ارتمت فى أحضانه والهة تبكى بحرقة ، والفتى يربت على ظهرها ، ويطلب منها أن تكف عن البكاء ، فهو لم يعد طفلا صغيرا • بينما مضت زوجة المأذون ترمق زوجها فى ذهول ، وتدفع أناملها فى جسده تتأكد من وجوده حيا أمام عينيها •

سارت خلفه تقول : هوى ••• هوى ••• لا تنطق باسمه ولا تشكو فهى راضية ، لم تشعر بجوع عند غيابه ، فقد تكفل الناس بها ، لكنها شكت شيئا غريبا لم تكن تحس به أبدا ، شكت طوال غيابه حنينا اليه ، الى لمساته ومداعباته ، وهاهى تمشى خلفه كما يمشى عبد وراء سيده ، يلمس ثيابه بيده ، وتتمنى أن يتركه الجميع ليفرغ لها •

ورأى الناس برعى فأيقنوا أن شيئا ما قد تغير فيه ، شيئا ما لا تخطئه العين وان كانت لا تستطيع أن تسميه ، شيئا مرتسما على ملامحه وحركاته يرسل ومضات من بين حدقتيه ، فانه اليوم أميل الى الصمت ، وقد تزايل عنه الوجوم ، وامتلأ قلبه بجرأة وثقة فى النفس عــاد بهما من تلــك الزنزانة •

جلسا عند الساحة أمام المتجر ، وأديرت فناجين الشاى ، وأفرغــت كئوس الحديث •• والله سلامات ، كفارة ياشيخ صابر •• كفارة يابرعى،

والسجن للرجال . ماذا فعل ــ العساكر بكما ؟ أشربتما شـايا هناك أم أنهم تركوكما للصداع ؟

وطفقا يرويان النوادر عن المأمور والمعاون والشاويش عتريس وبعزق أبو رحاب . وقالا ان المأمور كان يمر عليهم ويحييهم واقفا ، ويسألهم عن أحوالهم ، الا أنه كان يضحك كثيرا مثل المجانين ! وقال صابر ان المأمور قال لبرعى : أنت بجم فضحك برعى وهتف : بل قالها لك ياشيخ . قل الحق ولو على نفسك ! وضحك الناس ، بينما أخذا يتبـادلان النظر ، والناس ترمقهما فى اعجاب ، فان ابنين من أبناء النجع قد عادا من رحلة غير مأمونة العواقب ، بعد أن تعاملا مع الحكام .

ولمحنى برعى أندس بين الصفوف ، وصوب نظرة الى وكأنه يسأل : أين شريفة ؟ وشعرت بنفور منه ، فانه لم يعـد برعى الذى أعرفه منذ الصغر . قد تحول الى شىء آخر لا أستطيع العبث معه كما كنت أفعل منذ عام واحد .. قد شد على يدى كما يفعل الكبار ، ولم تصافح قدمه قدمى . ولم يرسل النوادر التى اعتاد أن يرسلها . أصبح معتدا بنفسه منتشيا ، ولكنه ، رغم ذلك ، بدا قلقا فى مجلسه ، تدور عيناه فى الغبش تستقران على وجه فتاة ، وتعودان الى تكرار نفس السؤال : أين شريفة ؟ وخيل لى أن أرنبة أنفه كانت تتقلص ، وأن البريق الذى فى عينيه ينطفىء ويخبو فى تلك اللحظات . ثم نفد صبره ، وأدنانى منه وكاد أن يوجه السؤال المرتقب هامسا ، لولا أن لاحقه الرجال بالاسئلة عن التعويضات والطوفان وصدقى باشا . انهم كبار ، ولكن فتاهم الصغير قد خالط الحكام، وتحدث مع الشاويشية العالمين ببواطن أمور الحكام . ولم يشأ هو أن يترك المأذون يتكلم فمضى يشرح : التعويضات ستكون قليلة . لا يا شـيخ . الحكومة ليست فقيرة . ولكننا نحن الفقراء وبعيدون هنا . وقال المأذون : والبعيد عن العين بعيد عن القلب ! لا يا أخينا . ربنا معنـا . ولكن بدر أفندى سيزيد التعويضات . مسكين بدر أفندى ساقوه مكبلا بالحديد الى مصر ! وهتف المأذون : المهم أن نجد أماكن نستقر فيها بعد الطوفان .. سنعيش هنا . وأشاروا الى السفوح . لا ياناس... أنعيش مع الضباع والذئاب؟. بل نستطيع أن نستقر فى «كران نوج» على الضفة الغربية .

ولأول مرة تراءى كران نـوج بصحاريه المترامية من حوله كمسكن لهم ، فالطوفان لن يبلغ الصحراء ، والمعيشة هناك أفضل من الرحيل . سوف يسـتطيعون مشاهدة نخيلهم غارقة تهتز بجريدها الأخضر فوق الماء . كلا . الطود أفضل وكوم امبو . دعونا نشهد بلاد الله والقطرات !

وبرعى حائر فى أمره وأمرهم جميعا ، ويود لو تخلص منهم ليندفع لا الى بيت أمه بل الى بيت شريفة • وتدور عيناه فى الناس ، ثم يطمئن حين يرى البسطاوى وحسن المصرى بينهم • وصرخ أحدهم : ليت الخزان يتهدم ••• لا ياشيخ •• تغرق مصر اذا ماتهدم ؟• مصر أم الدنيا ، ملح الله فى أرضه •• وفيها أولياء الله ! ولكن لماذا لا يحولون الماء المتراجع خلف الخزان الى الصحراء من خلال الخيران ؟ ، أمر الله • هكذا أراد الله ولا راد لقضائه •

وفى هذه اللحظه لاح المحامى من بعيد يطوح بعصاه ، وينسل بين أشجار النخيل ، يتجه اليهم بخطى ثابتة ، فتهللوا وهبوا واقفين يستقبلونه بالأحضان : كفاره •• حمد الله على السلامة • بينما مضى هو يعانق الآخرين • ثم جلس الى جوارهما يروى ، فى لغة فصيحة ، كيف أفرج عنه منذ يومين فى بندر أسوان ، وكيف استقل رفاصا رسا به عند النتوء الشرقى •• رفاصا عائدا الى حلفا يقوده « كنزى » يعرفه •

وطفق يروى كيف جعل الحكمدار يرتعش شارباه • كانا يهتزان مثل ضفيرتى فتاة صغيرة • ومضى يروى الكثير عن المحاكمات التى سيجرونها لحسين طه وقص لهم قصته كاملة ، قصة محطة بنها ، والبلطة الصغيرة اللامعة ، وكيف رحلوه من بنها الى مصر • بنها بلدة صغيرة مثل بلدتنا• كلا • انها بندر كبير ولها حكمدار مثل حكمدار أسوان •

ثم دس يده فى جيبه وأخرج ورقة عريضة أجفل برعى حين رآها• ومضى يقرأ فى الصمت الذى أحاط به : بيان من النادى النوبى بالقاهرة • نريد تعويضات مجزية وأرضا ومساكن جديدة • ومضى البيـــان يعدد المظالم ، ويطالب بمحاكمة عادلة لحسين طه أبو زيد الذى يتهمونه بمحاولة اغتيال صدقى باشا •

واستمع الناس الى البيان واجمين ، وهم يتطلعون الى وجه المحامى ، ولا يلاحظون أن شيئا ما قد تغير فيه ، شيئا لا يستطيعون تحـــديده ؛ والبيان يهدر على شفتيه يرسم صورة قاتمـــة لمصير ديارهم • ستتهدم الدور ، وتغوص ملايين أشجار النخيل ، وتنبش الامواج جثث موتانا ، وينتشر البعوض والبلهارسيا والانكلستوما وأمراض العين ، ويعم الوباء ، وتفسد الاخلاق ، وتكثر الهجرة • خراب وقطران وزفت لا قطران ولا زفت بعدهما • حياة مهببة لا تليق حتى بالثعالب • والأرض كلها ستمتلىء بالدود يسرح فيها • كل شىء سيكون عفنا تزكم رائحته الأنوف •

وانفض السامر فى منتصف الليل ، والوجوه صارمة حزينة يزيد من حيرتها ضوء الفانوس الباهت والشـوارب الغليظة التى لم تشذب ٠ وآوى المأذون وبرعى الى داريهما ، بينما انطلق المحامى الى دار العمدة ٠

وأبت أم برعى أن تتركه يبارح البيت فى الصباح ، وأقسم الاب أن يمكث الضحى واليوم كله فى البيت ، فالناس سيأتون لزيارته : كفارة يابرعى ٠ سلامات ، والله سلامات ٠ فمكث طول النهـار على مضض ، يشدون على يده ، ويشد على أيديهم ، ثم سمح له أبوه أن يشرب قليلا من عرقى البلح ٠ فكم كان الرجل ذو التسعين فرحا بابنه ، يأمره أن يحكى للناس قصته مع المأمور ، فيعيد تلاوتها ، ويزيد عليها فى كل مرة من خياله ، فيقول الرجل مؤنبا : نسيت هذه فى المرة السابقة ٠ أعدها . فيعيد وهو يفكر فى الوقت نفسه فى اللحظة التى ينتهى فيها أبوه من زهوه حتى يبارح البيت ٠ فقد كان مهموما بعـد أن أسرت اليه أمه أن شريفة ترقد فى الفراش مريضة منذ مدة طويلة ، فراح يعد الثوانى والدقائق ٠ ثم انتهى به مطاف الحكايات الى القيلولة ، فقام يحاول النوم عبثا ، الى أن استحالت الشمس فى الافق الى لهب أحمر ، الى قرص يلقى ظلال الاشجار طويلة على الارض ، فارتدى جلبابه « البوبلين » وترك الدار ، واتجه فى خطى ثابتة ومر بشـــجرة الجميز يطوح بكمه الواسع ، ويهز عصاه ، ترى كيف حالها ؟ وكيف ستلقاه ؟ أمنكفئة على وجهها تبكى أم راقدة على ظهرها وقد جحظت عيناها ؟ فهكذا رأى المحمومين يفعلون ٠ وهل حقـا ركبها الجن كما قالت له أمه ٠٠ أم ٠٠ ؟

واقترب من البيت ، ورأى داريا سكينه تنفلت وتخرج من الباب دامعة العينين لا تلقى اليه بالا ، فتركها وأحس بقلبه ينقبض ، وألقى نظرة متلهفة الى البيت ، فوجد شيئا ما حزينا يخيم عليه مع ظلال المغيب ، فما من ضحكة بل وجوم ! وأمسك بالباب من ضبته الخشبية ودفعه فصر صريرا موحشا ٠ نقطة واحدة صغيرة من الشحم كافية لاسكات هذا الباب عن أنينه ٠ واســتمع الى عرق ينبض خلف أذنه اليسرى ، فضغط عليه بأصابعه ، ثم دخل من الباب الى الدهليز ٠

ورآهن فى نهاية الدهليز ، كومة من الثياب السوداء تبرز منهـا أكف معروقة تروح على كومة أخرى تنطرح على « عنجريب » ٠

وأحس بالكلمات تتكور فى حلقه ، وتتزاحم ، ولا تريد الفكاك من بين شفتيه ، الا أنه تمكن فى النهاية أن يبتلع ريقه ويهتف : احم٠ دستور

يا أهل البيت • فتلفتن نحـــوه بعيون ذاهلة ، وابتسمن لتحيته ، ثم أطرقن ، فدنا منهن ، ومال على الفتاة : يقول شريفة •• شريفة •

وحملقت بعينيها • كانتا واسعتين كبيرتين تبرزان بشكل مخيف فى وجه معروق زال عنه اللحم حتى بان نحيلا يملأ كف اليد ، وحاولت أن تنهض بعد أن أرسلت شهقة جافة الا أنها تراجعت الى الخلف ، وارتمت على الوسادة من جديد •

ـ شريفة • مابك ياشريفة ؟

وصمتت قليلا ثم همست : لا شىء • حمد الله على السلامة • ثم عادت الى الصمت تبتلع ريقها ، وتتنفس فى صعوبة ، ثم أغلقت عينيها • فتلفت الى الأخريات • فأشرن اليه : سخونية بسيطة ستزول •• لا شىء غير ذلك •

وود لو انكب عليها يقبلها ، لكنه تراجع الى الخلف يتمتم بأدعية حفظها من المأذون هنالك فى الزنزانة بينما أطلق العنان لدموعه ، واستمع الى صوت فتاته وهى «تجض» من الالم ، فأحس أن الارض تميد به ، فلم يستطع البقاء لحظات أخرى ، فانطلق الى الباب • وفى الطريق أمسك بقطعة حجر صغيرة تعثرت فيها قدمه وقذف بها فى اتجاه لورد الذى كان قد أقعى ، ولوى ذيله بين سـاقيه الخلفيتين ، ومضى يرفـع رأسه الى السماء ، ويعول عويلا محزنا انقبض له قلبه ، فطارده حتى ابتعد به عن بيت شريفة •

٣٠

وتصوصمو أسلاك البرق بين القـــاهرة والقرية ، وتصـــعد البواخر فى النيل ، وتهبط بين الشلال وحلفـــا ، ترسم على الشاطىء ألوانا شتى بشرياتها ، وتذيب الضـــوء فى أغوار النيل ٠

والأيدى تتناقل وريقات صفراء ، برقيـــــات من مصر ، من أناس عائدين الى الوطن ، ورسائل كتب على أغلفتها : فوق الشـــلال ٠ حضرة المحترم ٠٠ من أعيان « قته » ثم تحت العنوان بخط مائل رقم عريض لا أدرى لماذا أصررنا دائما على كتابته على كل غلاف فوق خط متعرج ينتهى بذيل ٠٠٠ بدوح ١٢٤٨ ٠

وسألنا أحمد محمود مرة عن بدوح هذا فضحك ثم قال : تعــــال نسأل عوض أفندى ٠٠ وكنا حينذاك أمام مكتب البوستة نستلم خطابات أهلنا ٠

قلنا للرجل : لماذا نكتب بدوح ١٢٤٨ على كل ظرف ؟ فتأملنا قليلا ثم قال :

ـ بدوح هذا ياولدى هو اسم الجن الذى يحمل البريد بين البلاد ٠

وازدادت حيرتى وقلت : لكن البريد يأتى فى الباخرة ٠ فلم يجب الرجل ، بل تركنا وانحنى على أوراقه ، ومضى يهمهم ، بينما انصرفنـــا نحن نحمل رسائل ذوينا ٠٠ والرسائل كثيرة فى هذه الايام ٠ وهى بشأن منازعات حول شريحة ضيقة من الأرض يدلى فيهـــا المغتربون بآرائهم ويفوضون فلانا لفض هذه المنازعات ٠ هكذا كان مجلس العائلة فى مصر يحكم ، وحكمه لابد أن ينفذ ، فتتـــلاقى رءوس أهل الخير فى النجع ، وتتم المصالحات بقبلة يطبعها رجل على رأس رجل آخر لمجرد أنه أكبر منه سنا ٠ ثم يعود الوئام ليتجدد النزاع من جديد ٠

والبرقيات تعلن اما عن وفاة عزيز يقام له مأتم يثرثر الناس فيه عن الطوفان والاراضى الجديدة ، واما عن قدوم عزيز مغترب ·

وفى أصيل كل احد من الاسبوع يترقب الناس فى نجعنا أن تصل الباخرة ، وينتظرون مقدم الشيخ فضل بعد ابلاله من مرضه ·

ووصلت البرقية تعلن قيامه من مصر ، فطليت واجهة بيته من جديد وفرش الديوان بالرمل الأصفر وأعيدت أطباق الصينى الى موضعها على الجدران وأخرجت فضيلة ، منذ الظهيرة ، كل هدومها من السحارة ، وهبطت بها الى الشاطىء ، وركزت على الجرف صخرة صلدة مستديرة ، ثم وضعت عليها قطع الثياب ، ووقفت عليها تدلكها بقدميها ، أو تفركها بقطعة حجر أخرى · ونشرت الملابس على غصون الأشجار ، وانتظرت حتى تجف تراقب الأصنيل ، وحل المساء فجمعت غسيلها ثم واجهت النيل تدعو الله وكأنها تعتقد أنه يسكن فى أغوار النيل ، تدعوه أن يصل الزوج الغائب سالما ، ثم تتلفت حولها ، وتلتقط قطعة من القرميد الأحمر مضت تحك بها كعبيها ، تصنفرهما فى قسوة حتى احمرا بعد أن زالت كل الشقوق الجارية فيهما · كل زوجة يمكنها أن تتحمل أية قسوة مادامت تنتظر زوجها العائد من مصر ·

ومر يومان ، اذن بعدهما فى الناس أن الباخرة تجتاز المنحنى الشمالى ، وتكاد تبلغ النتوء الشرقى ، فهرع الناس الى المحطة النيلية فى ابريم ينتظرونها ·

داريا أيضا تنتظر ، فقد اعتادت منذ شهور أن تنتظر الباخرة وجمال رغم أن أحدا لم يعلن لها مقدمه · كانت تقف على الشاطىء تنتظر وفى عينيها دمعة حائرة ثم تعود مهيضة الجناح تداوى ابنتها · وألف الناس محنتها ، فبكوا مثل بكائها ، وحار الناس حيرتها ، وهاهى ترقب الباخرة بعينين والهتين ، تتمنى أن ترى جمالا على ظهرها ·

دنت الباخرة ، وتمخطرت على النيل حتى رست عند المرفأ ، ومدت السقالة ، وفى مقدمتها وقف الشيخ فضل بقامته المديدة ، لم يتغير من قسماته الا تجاعيد صغيرة أضافت شهورا مضنية قضاها على سرير المستشفى الى عمره · وخطا خطواته الأولى ونحن نراقبه ثم تعثر ، وكادت ساقه تنفلت منه الى اليم ، لولا أن تداركه عوض افندى · فردة واحدة من مداس أحمر أخذت تلمع فى احدى قدميه · أما الاخرى فكانت حدوة حديدية تلمع هى الاخرى ، وتبدأ منها ساق خشبية اعتمد الرجل عليها فى

اصرار ، فراحت تدك على خشب السقالة ، وتبعث رنينا حز فى قلوب الجميع ، حتى تزاحمت الدموع فى العيون ٠

وبدا الشيخ فضل متجهما ، تتقلص عضلات وجهه ، رغم محاولاته المتكررة ليرسم بسمة على شفتيه يستقبل بها أرض الوطن ٠

اذن فهذا هو الشيخ فضل ، رجل النجع ، والذى رحل منذ شهور بساقين ، احداهما جريحة عاد بدونها وبساق خشبية يشدها الى فخذه بسيور من جلد وقماش ، يزك عليها فوق السقالة ، ويخاف عليها خوفه على لحمه ودمه ٠

وانتهى الى الشاطىء وتوقف لحظة ، واندفعنا اليه نحتضنه ونرمق ساقه الأخرى فى نظرات متلصصة خشية أن نجرح أحاسيسه ، ونفسد عليه بهجة العودة من الغربة بسلامة الله ٠

ولاحظ وجوم الناس ، فأراد كعادته ، أن يبدده فابتسم فى عيونهم ، وشرع يتندر على نفسه ويوبخ الناس : مالكم حزانى ؟ أمات الناس جميعا أم اختطفت الذئاب عيالكم ؟ يا للتكشيرات ٠٠٠ مثل تكشيرات القرود ! أم أن الطوفان حل بكم دون أن ندرى ؟ وصمت وجال فى الناس بناظريه ثم أردف : أم انكم حزانى من أجلى ؟ وانحنى ، وكشف الجلباب عن ساقه الجديدة ، وأضاف مبتسما ٠ مالها ، حلوة ورخيصة ٠٠ لا تكلف شيئا ٠ رمضان نجار السواقى يستطيع أن يصنع لكل واحد منكم سيقانا جميلة مثلها ، قصيرة ٠٠ وطويلة ٠٠ ومتوسطة ــ اذا أردتم وبالتفصيل وحسب الطلب ، ثم لاحظ أن الوجوم مازال يرين على الوجوه فأطلق ضحكة وأضاف : ثم هى لا تقبل الجروح ، ولا يسيل منها الدم ، ولا ينبعث منها الوجع ، واذا كسرت يمكن اصلاحها بمسمار هنا أو هناك، قلت لكم ان رمضان النجار ٠٠٠

وانطلق المأذون يهتف : حمد الله على السلامة يارجل ٠ ولا يهمك يا فضل ٠٠ البركة فيك أنت يا مجدع ٠ وأضاف احمد عودة : ارادة الله ويجب علينا أن نقبلها ، فهتف الرجل فى صوت لا يبالى : وماذا فى يدنا لو لم نقبلها ؟ فصاح المأذون من جديد : استغفر الله يارجل ، لا يريد الله الا الخير ٠٠ لعل مصيبة أخف من أخرى ٠ من يدرى ! أحمد الله يافضل ٠

فضحك الرجل وهو يزك على ساقه الجديدة وصاح : الحمد لله على كل حال ٠٠ نحمده ونشكره ٠٠ تنفعنى فى خناقة أخرى ٠ وبدأ الناس يضحكون ، فشعر بالرضا بينما تجاسر شاب صغير وهتف : لكن حين

تنام ، عليك يا عم فضل أن تخفيها فى الحاصل أو « بيت الأدب » حتى لا تصل اليها فضيلة • وأدرك الرجل ما يعنيه الفتى ، فبادره على الفور قبل أن يضحك الرجال : ولكن قل لى ياولد ، قل لى من الذى يغطى أمك بالليل ؟ ودوى الشاطىء بالضحك ، بينما تلعثم الشاب وأجاب فى نبرة ضاحكة : انه ابى يافضل ، انك تعرفه •• عريض وطويل يمكنه أن يغطى أى شيء ! فرنت الضحكات من جديد لتغوص فى ثنيات صفير الباخرة وهدير قلاباتها ، وهى تستدير لتتوسط مجرى النيل ، وتصعد فيه الى الجنوب ، الى حلفا •

ولاحظ الناس أن فضلا يخاف شيئا ما على ساقه كما يخشى الناس على سيقانهم السليمة • اذ راح يخطو بها فى حذر مخافة أن تغوص فى الوحل أو تنغرز فى شق من شقوق الأرض •

واتكأ الرجل على برعى دو الحظ ، حتى أسلمه الى فلوكة عادت به الى الموردة ، فسرى منها ، مع الميل ، الى بيته ، فتحلق به الناس كما تحلقوا باحمد عوده يوم عودته — وسألته داريا سكينة نفس السؤال : جمال ••• هل رأيت جمالا ؟ وعادت ، والحسرة تأكل قلبها ، لتكذب على شريفة الطريحة على فراش المرض • أبشرى ياشريفة ، الشيخ فضل قابل جمالا •• كلا لم ير زوجته البيضاء ! التقى به فى الطريق ولكنه « خالى شغل » ووعده خيرا حين يجد عملا •• آه يا بنتى لو عاد جمال • شدى حيلك لتستقبليه على قدميك •

والفتاة تعرف أن أمها تكذب ، فتصمت وتذرف دمعة ، وتغوص من جديد فى غيبوبتها ، بينما تدور الاحاديث فى بيت الرجل كما دارت دائما فى العامين الاخيرين حول المصير الذى يتوقعونه • وقال فضل :

— كان معى رجل فى الباخرة ، حزروا ، ولكل واحد منكم سيجارة ماكينة لو عرفتموه !

ومضوا يخمنون فى حماس ، ثم غلب حمارهم ، فسألوه : من هو ؟ فقال بعد ان لعت بسمته : رجل عظيم •• كبير كبر الدنيا •• قالوا : المستر هيس باشا ! كلا •• أقول لكم انه رجل عظيم تقولون لى عن النصرانى • قالوا : سفرجى باشا الملك ؟ وضحك الناس جميعا فان سفرجى باشا لم يبرح القرية وكان من بين مستقبلى الرجل • وحاروا فى أمر الرجل الذى رافق الشيخ فضل فى سفره ، وقالوا ، وهم يضحكون : لماذا •• لماذا تتعبنا وتصدع أدمغتنا يا رجل ؟ قل لنا من هو وفضك من هذا الملعوب !

وتبسم الرجل فى زهو ، وقال بعد أن تنحنح ، بدر افندى • فلمعت عيونهم فى تطلع بينما استرسل : أطلقوا سراحة بعد أن أثبت براءته بنفسه ودون محام ! وأعادوه الى وظيفته ، وسوف يتسلم كل فلوسه من الشهور السابقة •

فحمدوا الله فى صوت واحد ، وراحوا يرفعون أكفهم الى السماء ، ويدعون للرجل ولذريته وذرية ذريته بالسعادة وطول العمر •

وقطع المأذون دعاءهم وسأل : وحسين طه ماذا فعلوا به ؟ أأفرجوا عنه هو الآخر ؟ وصمت الجميع يترقبون الاجابة فى لهفة ، وجاءت الاجابة مخيبة لكل رجاء : سبع سنين اشغال شاقة !

فصاحوا فى حزن : مسكين ياولداه ! ومضى فضل يروى لهم كيف ساقوا حسينا الى الليمان مكبلا بالحديد ، وكيف مشى بين صفين من الجنود رافع الرأس ، والجرنالجية يصورونه • حلقوا له شعر رأسه حلاقة زيرو ••• مسكين •

ــ وهلا تشفع له أبوه ؟

ــ كلا بل تبرأ منه ، ونشر بذلك اعلانا فى الجرانيل •

وانبرى أبى يقول : لعنة الله عليه •• ضناه وفلذة كبده ثم يتخلى عنه عند الشدة ! وصرخ المحامى فى أسى : ما أصنى فؤاده ، ثم أطرق صامتا ، بينما راحوا يحدجونه بنظراتهم ، فانهم لم يسمعوا منه هذه الكلمة منذ عاد من حجز أسوان •

ثم عاودوا حديثهم عن التعويضات ، وأجمعوا أن جنيهين للنخلة الواحدة تعويض يمكن أن يقبلوه •

ولمحنى الشيخ فضل ، وقربنى منه ، وحدثنى عن خالى عثمان ثم سأل :

ــ ألم تذهب بعد الى المدرسة ؟

ــ كلا يا عم فضل •• لم أذهب بعد !

ورمقت أبى بنظرة جانبية ، بينما مضى فضل يسأل : ــ

ــ ومازلت تذهب الى الكتاب ؟ وكيف حال الشيخ طه ؟

ــ نعم • أما الشيخ طه فقد كان مريضا حتى ظن أنه يشرف على الموت •

وروع الرجل ، الا أن المأذون أضاف : لا تخف فقد تماثل للشفاء ، وعاد يتربع على مصطبة الكتاب ، وان كان لا يزال يعانى من ضعف الصحة ‥ انه الكبر يا فضل عافاه الله ٠

فصاح فضل : كبر ! أتحسبه عجوزا ياصابر ‥ لقد حضر وقعة الدراويش وهو لا يزال صبيا صغيرا ٠ عافاه الله ٠ لن أستريح الا بعد أن أزوره ٠ ثم التفت الى من جديد وسأل :

ـ وكيف حال عيشه جدتك ؟

قلت : انها بخير ٠ كانت هنا ، ولكنها لم تستطع أن تراك يا عم فضل ٠

ـ سلم لى عليها يا ولدى ‥ قل لها اننى سآتى لأشرب فنجال القهوة ٠

فقد كانا صديقين يتبادلان قراءة الفنجال لبعضهما فى ساعات الأصيل ٠

والتى قلت انها بخير هى التى ترقد الآن على عنجريب المرض تتأوه « وتجض » من الألم وتلمس ركبتها اليمنى فى أسى وتحدق فينا ٠ فى الأم وفى بطة وفى أنا ‥ كأنما تشبع ناظريها بنا ثم تهمس :

ـ لك الحمد يارب ‥ شكة ابرة ولا شىء غيره ثم لا أستطيع الحراك ! لك الحمد يا رباه ‥ حامد ‥ دلك ساقى يا حامد ٠

فأمضى أدلك ساقها وفى عينى دموع ٠ ولا أدرى لماذا اعتبرت نفسى مسئولا عما حدث لها ! انها تموت ولا أدرى كيف أحتمل الحياة بدونها ‥ أنا الذى اعتدت منذ الصغر أن أنام الى جانبها فوق عنجريب واحد تشدنى الى خاصرتها بحبل متين خشية الذئاب ، أنا الذى اتخذت منها أما بعد أن تباعدت عنى أمى ، وتباعدت عنها ٠ ها أنذا أعض على شفتى وأنا أدلك ساقها كلما تأوهت ، وأتذكر ما تسميه هى شكة الابرة ٠ فلم تكن شكة ابرة بل مصيبة لا ندرى كيف يمكن للناس أن يتفادوها فى حياتهم ٠

والشكة كانت بسيطة وسريعة ، ولكن قاتلة ٠ كنا نعود معا فى أصيل أحد الأيام ـ بعد عودة الشيخ فضل من بيت شقيقتى جميلة التى كانت فى شهرها التاسع ٠

كانت تمسك بيدى وتروى لى حدوتة عن أميرة شكتها ابرة فنامت

سنين طويلة حتى أيقظها أمير تزوجها ، وتريثت ريثما تنعطف فى الطريق الزراعى وتجتاز حرشا صغيرا تلتف به أشواك العاقول والحسك البرى ، وفتحت شفتيها ، وهى تستدير نحوى لتكمل قصتها فاذا بهما تطلقان صرخة داوية تنكفىء الجدة بعدها على الأرض تمسك بركبتها وهى تشير الى الحرش ، الى شىء اسطوانى طويل لامع بلون الفضـــة يزحف ملتويا الى حجر بين الأحراش •

وصرخت أنا فى رعب : يالله • ثعبان ؟ ماذا جرى يا جدتى ؟ •

واختفى الثعبان فى مكمنه • لقد داست الجدة عليه دون أن تدرى ، فانتقم لنفسه ، قفز الى ركبتها ، وغرز فيها أنيـــابه ، ثم مضى مسرعا ليختفى فى جحره ، بينما هى تتأوه ، وتشكو من برد يلسع ركبتها •

وعدت بها الى البيت فانطرحت على العنجريب تطل عليها أمى وبطة والخالة أمينة بايا •• بعيون والهة •

وقصصت عليهن ، وأنا أبكى ، ما جرى لجدتى ، فأسرعت الخالة تستدعى رمضان النجار فاقبل مهرولا ، وفى يده موسى حادة فصد بها ركبة الجدة بعد أن ربط ما فوقها وتحتهـــا بحزامين غليظين ، ثم ألصق شفتيه بالجروح الصغيرة يمتص منها دما يبصــــقه على الأرض مع السم الناقع ، ثم انصرف بعد أن أمرنا بأن نسقيها محلول السكر والليمون •

لكن جدتى لم تستعد صحتها أبدا• بل مضت تذبل حتى غـــار خداها ، وجحظت عيناها ، واحمرتا ، بل راحت يداها وساقاها تتراخيان حتى أنها لم تستطع أن تحركها •

وزارها فضل ، وجاءت جميلة ، رغم آلام الحمل ، تسهر على رأس الجدة التى راحت تتكلم عن الدنيا الغرورة ومتاعهـــا الزائل ، وتنصح الشقيقتين نصح راحل لن يعود •

وأمرتنى مرة أن أستدعى لها الشيخ طه ، فعدت به وهو يرسل سعالا حادا •• ويبصق •• ويداه ترتعشان من اثار المرض الذى ألم به •

انحنى الرجل عليها يلمس جبهتها بيده الراعشة يحاول أن يهون عليها الأمر ويعشمها فى رحمة الله الواسعة •

وصبرت حتى خلص من دعائه ثم قالت : ياطه •• لى رجاء عندك

ــ قولى يا عيشة ونحن طوع أمرك •

فطافت بعينيها فى وجهـــه ، وفى وجوهنا ، ثم قالت بعـــد آهة أطلقتها :

ــ اقرأ سورة ياسين على قبرى يوم أموت ٠

فارتبك الرجل وقال : بعد عمر طويل ٠ قالت : زارتنى روح أمى ومضت تقبلنى وتستدعينى الى زيارتها فى بيتها الجديد ، فعرفت ان الأجل قد دنا ، ولا فائدة ترجى من الدنيا ٠٠ عليك يا طه أن ترعى حامـدا ، وأن تمن على هؤلاء ، وأشارت الى الشقيقتين والأم وأضافت : ببركتك ٠

وتنحنح الرجل نحنحة باكية راعشة وهمس : أنهم أولادى ، لكن لا تقولى كل ما تقولينه ٠ بل أنا الذى أتمنى أن تروى أنت الصبار على قبرى حين أموت ٠ لقد كبرت ولم تعد ساقاى تحتملان جسدى ٠

وأرسل سعالا حادا ملأ بالرذاذ وجوهنا ، ثم دعا لجدتى بطول العمر وانصرف بعد أن لمس جبينها البارد بيده ٠

ومر شهر ، ثم مات الرجل ، فبكاه النجع ، وخرجت القرية كلها تشيع جنازته ، وأغلق الكتاب ، فخلصت لجدتى أدلك ساقها ، وأسـند ظهرها على صدرى ، وأسقيها محلول السكر وهى تبكى الشيخ طه وتترحم على روحه وتأمرنى بزيارة قبره بابريق الماء لأصب الماء على الصـــبار عند رأسه وفوق القبر نفسه ٠

فاعتدنا بعد ذلك أنا وأش الله وصالح أن نزور المقابر صباح كل جمعة ، نترحم على الرجل ، ونقرأ آيات فوق رأســـه والصمت ، صمت الموتى ، يلفنا من كل مكان ٠

وعدت مرة لأجدها ، مغطاة ببطانية ثقيلة ، ومن حولها الأم واجمة وبطة بعد أن رحلت جميلة الى بيتها لتعود فى صباح اليوم التالى ٠

كانت تتنفس بصعوبة ، والبطانية من فوق صدرها ترتفع وتنخفض فى حركة دائبة ملأت قلبى بحزن ثقيل أناخ على صدرى بكلكله ، فوقفت على رأسها أذرف الدمع وأمرتنى الأم ، بنظرة ، أن أقرأ شيئا ، فمددت يدى ، ووضعتها على رأس الجدة ٠٠ ورحت أهمهم ، وتريثت الجدة حتى أنتهى ، ثم أمسكت بيدى وهى تهمس فى صوت خافت متقطع : حامد ، اقرأ سورة يسن على قبرى صباح كل جمعة ٠

وزارها الشيخ فضل ، والمأذون وأحمد عوده ، وذرفوا دموعا حاولوا

جاهدين أن يخفوها عنا ثم انصرفوا · وازدادت العلة عليها عند الظهر ، وغشيت عينيها قتامة ، حتى أنها لم تعد تميزنا الا بأصواتنا · وواتتها صحوة أمرتني فيها أن أستدعي أبي ، فأسرعت وعدت به ، فأمسكت بيده وراحت تهمس : لاتقم للحزن على وزنا يا أمين اذا ماجاء حسنين · يجب عليك ان تزوج « بطة » واياك أن تغضب بنتي مرة أخرى ، انها مريضة ·

وأطلقت يده ، بينما مضى يقول : حاضر يا عيشة ، على العين والرأس فأشارت الى بطه ، فدنت منها ، وأمسكت بيدها ، وهمست :

ـ أقسمي بحياة أمك ألا تؤجلي زواجك بسببي ·

ـ لا تقولي شيئا يا أماه ، ستعيشين ، وأي فرح يحلو لي بعد أن ترحلي يا جدة ؟!

وبكت الفتاة في حرقة الا أن صوت الجدة عاد حازما رغم خفوته :

ـ احلفي يا بطة بحياة أمك ·

وازاء اصرار الجدة أقسمت الفتاة بصوت باك فاستراحت الجدة وقالت : ـ

ـ روحي ستزغرد لك من بيتي الجديد ·· هناك في الجنة !

وصعدت بنظرها الى السماء ، ثم فاجأتها اغماءة أفاقت بعدها لتمسك بيد أمي وتهمس في حشرجة بادية :

ـ اياك أن تتركي البيت لضرتك اياك !

ـ لن أتركه · ألم أعش فيه معك ؟ ألم نبنه معا طوبة بعد طوبة ؟

وأجهشت بالبكاء وهي تؤكد : لن أتركه لأحد ·

ـ لا تتركيه حتى يأتي الطوفان ·

فقالت الأم في هلع : ولن تتركيه أنت يا أم · ستعيشين فيه وتستردين صحتك · والطوفان ! لا طوفان · زارني شبيكة بالليل في المنام ، وبشرني أنك ستعودين الى قدميك وسخر مني حين سألته عن الطوفان ·

ـ رحمه الله ، فلقد كان وليا يتكشف الغيب له !

وعادت تمسك بيدى ، وتطلب منى أن أقرأ شيئا على رأسها تخفف آلامها ، فرحت أهمهم بالآيات التى حفظتها من نفس السورة التى طلبتها من الشيخ طه ومنى بعد موته ، وطفقت هى ترمقنى فى اشفاق من خلال عينيها الذابلتين .

وأحسست وأنا أقول : حتى عاد كالعرجون القديم ، أن يدها تتشنج على يدى ، فتلفت لأراها ترتمى على الوسادة ، وكأن رأسها قد انخلع عن رقبتها المعروقة ، ثم تراخت اليد ، وأطلقت بعدها حشرجة هدأت بعدها .

وذهلت الأم لحظة أطلقت بعدها صواتا عاليا دوى فى النجع كله ، ثم انكفأت على نفسها منزوية فى الركن ترسم الخطوط المستديرة ، وتذرف عليها الدموع فى صمت مستسلمة لا تفعل شيئا بينما الاقدام تتحرك من حولها .

أما أنا وبطة فقد انكفأنا على الجدة نطوقها وننادى : أفيقى ياعيشة! لا تتركينا ! حتى أقبلت الخالة ، وأمرتنا فى حزم أن نتركها تستريح . فعبرت باب الدهليز ، ومضيت فى الطرقات أبكى ، والدنيـــا تخال لى جحورا مليئة بالسحالى والثعـــابين ، وبت منذ ذلك الحين أكره الألوان البارقة بلون الفضة ، وملمس الثوب الناعم اذا كان من هذا اللون ، تنزلق عليه اليد .

لقد ماتت الجدة صديقة الطفولة بسبب ثعبان ، فلماذا خلقتنا يارب وخلقت الثعابين وكل هذه الهوام فى نفس الوقت ؟

وبكى الناس عليها فى النجع ، وراحوا يعددون مآثرها ، كرمهـــا وتقاها وبرها على الفقراء ! وطفقوا يتحدثون عنها فى المأتم الذى أقيم لها أياما سبعة يزدحم فيه المعزون من النجوع الأخرى ومن « عنيبة » قرية أبيها حيث ولدت . لقد جاء هذا الاب الذى بلغ المائة أو تزيد من عمره يتلقى التعازى ومن حوله أشقاؤها !

وتحدث الرجال فى اليوم السابع عن الطوفان والتعويضات ، ثم عادوا الى ذكرياتهم عن الشيخ طه ، ومضوا يعددون أسماء الذين تعلموا على يديه ، ويتكلمون عن صغارهم الذين يهيمون فى الطرقات بعد أن اغلق الكتاب ، وتساءل الشيخ جعفر : ألا نستطيع فتح الكتاب من جديد ؟

وأجاب أبى : من الذى سيتولاه ويتولى الصغار بالرعاية ؟

فلابد من رجل شيخ يدير الكتاب ، يتعهد بتربية صغارهم ، فالكتاب هو المكان الوحيد الذى يتعلمون فيه .

وكاد رأيهم فى نهاية الامر يستقر على ارسالنا ، نحن الصغار ، الى كتاب الشيخ يعقوب فى ابريم ، الا أن الشيخ شليب أهل عليهم فى هذه اللحظة ، وألقى بالتحية ، وجلس الى جوار أبى والشيخ فضل الذى لم يكن قد اشترك بكلمة واحدة فى المناقشة التى دارت حول الكتاب .

وفاجأته الفكرة فى اللحظة التى انتهى فيها شليب من تحية الرجال فصاح بها على الفور : الحمد لله ، ليتول الشيخ شليب شئون الكتاب .

الكتاب فى بيت الشيخ طه . وشليب صهر الرجل : زوج ابنته ، والمرحومان الشيخ طه وأبوه علما الناس فى نفس المكان ، نفس الكتاب الملاصق لبيته .

ومن الحق أن شليبا لم يختم القرآن ، ولكنه يجيد القراءة والكتابة بخط حسن ويعرف الحساب . أليس تاجرا صغيرا ؟ سنتكفل بشـئون بيتك ، لا تخف يا شيخ .. هناك تلاميذ كبار يكونون عرفاء لك .

ووافق الرجل ، وقرءوا الفاتحة معه . ومن غد يوم السـبت يعاد فتح الكتاب ، ولكن لابد من حصر جديدة لفرشها . حاضر .. سنعد لك هذه الحصر فى أسابيع قليلة .

وانتهى المأتم وحملنا ألوف القطع من الحصباء والزلط التى ترحمنا عليها منذ الصباح الى قبر جدتى . ثم عدنا واجمين من دار الأبدية تبلل الدموع عيوننا لنجد جابرا ينتظرنا فى الساحة الممتدة أمام المتجر .

رآنا فهب واقفا فى الحال ، وأقبل علينا وحيانا وهو يقول :

ــ مبروك جميلة رزقت بولد ...

٣١

وكرت الأيام ، وتتالت الأسابيع ،والشهور ، وانقلب الشتاء البارد الى ربيع أخضر ، ومع الأيام تأرجحت آمال النـــاس ، وتصوراتهم ، بينما الأزمة تأخذ برقابهم وأسعار البلـــح تنخفض ، والمغتربون يملئون المقاهي في عابدين ليل نهار لا عمل لهم ، يرتزقون منه ، يضيعون قروشا قليلة يكسبونها من « الظهورات » فى المقاهى وفى استطلاع ورق « اللوتريا » •

وأخذت البـــواخر ترسو على المرافىء كالحة خاوية لاتحمل أمـــلا ما لقلوب الناس الذين اعتادوا انتظاره ، وألفوا ترقب الرســـائل عند مكاتب البريد ليعودوا الى النجوع وأيديهم خاوية ، فلا طرود ولا رسائل، حتى أصبح ما عاشت داريا سكينة تشكو منه وتبكى له هم كل الناس منذ باتوا فى مجاعة حقيقية ، فذبلت الوجوه ، وراح الاطفال يلتهمون البلح المر قبل أن يصبح بسرا يستسيغ المرء مذاقه ، وأرسلت الحكومة صدقاتها• بضعة أطنان من الدقيق الاسترالى « العلامة » تنال منه كل عائلة حفنتين أو ثلاثا • وغل التجار أيديهم فوق أن رفوفهم خلت من السلع ، ولم تعد أقلام الكوبيا تشطب الا سطورا قليلة من دفتر الاستاذ واليومية ، وتكدس ما تبقى فى رفوفهم من طرح وفوال وكريشه والسادة • وركدت سوق السكر والشاى اذ لم يعد معظم الناس يشـــترونهما ، والذين يشـــترون الشاى يكتفون بشربه وقد وضعوا بين أشــــداقهم ثمرة بلح أو تمرتين يستحلبونها مع الشاى المر • تدر الشاى فى النجع ، الشاى الذى أصبح أفيون الناس منذ أن ألفوه فى الصبا وفى المهود •

وهل تأتى الطوبة فى المعطوبة ؟ قد لا تأتى فى كل مكان ، ولكنها أتت فى معطوبتنا نحن فى هذه الايام ! اذ هجمت على القرى جحـــافل لا تحصى ، جيوش صفراء تطن فوق الروءوس ،وتحط الرحال على الجريد والسنابل وتأتى عليها فى لمح البصر •

فمن الشرق ومن الجنوب ومن بين شعاب الجبال راحت أرجال الجراد توغل فى النجوع ، وتحجب ضوء الشمس وتتهاوى على الزروع ، ولا تبقى على شىء أخضر ٠

وتلقينا نحن الصغار فى النجع أرجال الجراد الغازية بالترحيب ، ورحنا نطاردها ، ندق على الصفيح لان آباءنا يدقون عليها ، ونشعل النار فى العاقول والحسك لأن اباءنا يشعلونها ، ثم نقيم الولائم حولهـــا ، ونزدرد الجراد الذى تتهاوى منه المئـــات والالوف فى النار لتحترق ، فنقرمشها ونحن نرسل صيحاتنا المرحة ، ثم ننقلب لنحزن كما يحزن الآباء ٠

ومع الطوبة التى نزلت فى المعطوبة أخذ الناس يتطلعون الى الطوفان والى التعويضات ، يتشوقون الى الملاليم تشوقهم الى الحياة نفسها ، وأصبح الجـدل حول تقدير عادل للتعويضات يخفت ليحل محله التطلع والتشوق اليها أيا كانت تقديراتها ٠ لم يكونوا يريدون بالطبع أن يبيعوا أملاكهم بثمن بخس ولكن البطون الجائعة بدأت تهيىء العقول لقبول ما يأتى به القدر ، فكيف يمكن لرجل مثل نوح تهرأت ثيابه وتعرت ابنته الوحيدة « مندوهه » أن يقاوم الى أن ترضخ الحكومة لتقدير عادل ؟ ٠

وأدركت حكومة صدقى ما كان الناس يعانونه من تشوف وجوع ، فأوغلت فى تعسفها ، فاعتبرت تعويضات الوفد مبالغا فيها ، ونهبا لأموال الدولة ، فخفضتها الى الربع ، ومضت تلوح للناس بالجنيهات الخضراء ٠

وأحس ابناء القرى المتعلمون فى الدر ، وفى القاهرة وفى كل المدن بما يعانيه الناس فى كل مكان من يأس وجوع ، فراحوا هم ورسلهم بداية من رجال النادى النوبى ، فقير والباقر ، وعجيـب وجمال والطرابيشى نهاية الى الرجل الصامد فى الدر : بدر افندى والمدرسون من حوله يكتبون البيانات أو يطوفون بالقرى ، يحضون على المقاومة ، ويستصرخون الضمائر أن تفيق لنفسها وللمصـير البائس الذى يعد لها ـ وبدءوا الاتصـالات بالنواب والشيوخ ، ونجحوا فى كسب عطف رجل منهم عمل مأمورا فى زمن مضى فى الدر فعرف الكثيرين من أبناء النوبة ، وقف وحده فى مجلس الشيوخ يندد بتقديرات حكومة صدقى وتعسفها مع النوبيين ، واستغلالها المشين للأزمة الاقتصادية ، فاعادت كلمات هذا الرجل ـ الشـيخ أبو الفضل الجيزاوى ـ أملا كان قد خبا فى بعض القلوب ٠

وباتت دواوين الحكومة تغص بالمتشفعين ، والالتماسات ، وأصبح

المستر هيس ملكا غير متوج يجلس فى الجيزة على عرش مصـــلحة الرى والمساحة ، يسعى اليه الناس ليزيد من تقدير تعويضاتهم ، فيهش ويبتسم لهم ، ثم يشير الى الطرابيش ، وكأنما يقول لهم : نحن الانجليز لا شأن لنا بمشكلتكم • هؤلاء هم المســئولون ، ويلوى شفتيه وهما تلوكان الغليون فى حركة ذات مغزى ، فيعودون خائبين ، يصخبون ويجدفون ، ثم يغرقون همومهم فى كئوس الطافيا اذا وجدوا الى ذلك سبيلا •

وبدأت الصحف لأول مرة تنشر صورا لنسائنا متشحات بالطرح ، وصورا لنخيلنا ومرافينا •• صور عجيبة •• كانت صور أناس وأشجار وبيوت يرين عليها البـؤس الذى يرين على وجـوه أشقياء حـكم عليهم بالاعدام •

رغم هذه الهموم فان النجع كان يمرح لحظـات يعود بعدها الى الكآبة ، اذ يتزوج القليلون فى قريتنا أو فى القرى المجـاورة الأخرى ، فيتناسى الفلاحون آلامهم لحظات يتراقصون فيها • ثم بدأ بعض الرسـل يخطبون فى هذه الحفلات ، احمد محمود والشيخ صابر والمحامى يدعون الى تعويضات عادلة ومعاملة طيبة لحسين طه فى سجنه •

واستمع « مداح » ســودانى لهذه الخطب مرة ، وبدت الحيرة فى عينيه وهمس فى أذن جاره : شنو يقولون ؟

ــ التعويضات يازول والطوفان •

ــ وأين تذهبون اذا ما حل بكم هذا الطوفان ؟

ــ نرحل هنا وهناك •

فصلى « المداح » السودانى على النبى وقال بعد تفكير عميق :

ــ السودان واسع ياناس ، هناك فى رحاب الميرغنى تجدون البركة والخير ، فلماذا لا ترحلون الى السودان ؟ حبـابكم عشرة • الميرغنى ولد النبى يرحب بكم •

وانبرت الاصوات تصلى على النبى وعلى آله وتبع التابعين « رضى الله عنهم أجمعين « آمين » ، الا أن القليلين هم الذين استطابوا فكرة الرحيل الى السودان بينما دافع آخرون عن الهجرة الى الصعيد ، وصمتت جمهرة النـاس وهزوا روءوسهم فى أسى • ان مجرد فكرة هجر ديارهم كان يأكل قلوبهم ، فيطوونها على غيظ ، ويصمتون لا يريدون ملاحاة ضيف، أو نزاعا يشجر بينهم أمامه •

وبدا أبى برما مهمـــــوما ، فالدكانة توشك على الافلاس • ديونه تتراكم على الناس على أمل موسم جديد ، وديون عبد الراضى مختار فى أسوان والحاج على سلطان فى بولاق تتراكم بدورها عليه ، وتنيخ على صدره وصدر أحمد عوده •

وكانت حجوبة قد بدأت تشترك فى ادارة المتجر ، فعرفت هموم الرجل عن كثب وراحت تبحث عن حل ، ويبدو أنها وجدت بعض الحل فى شخصى، فأشارت مرة بطرف خفى الى وقالت تسأل أبى : ولماذا لا يسافر حامد الى مصر ؟ لقد كبر •

ودهشت أنا ، وقلت لماذا أسافر ؟ أنا لا أريد الالتحاق بالازهر •

فقالت وعيناها تومضان فى خبث : اطمئن وســـافر ، ولا تدخل الازهر •

قلت : وهل التحق هناك بالمدرسة مثل التى فيها مصطفى ؟

قالت ، بعد أن تفرست فى وجهى وقاست بنظرتها طول قامتى : بل ستعمل هناك مثل كل الناس ، وترسل طرودا الى أبيك •

وعجبت من حديثها فاننى لم أكن قد فكرت فى مصر من هذه الزاوية الغريبة ، أن اشتغل مثلما يشتغل جمال ، أن أتوه فى مصر مثلما تاه • ورغم أن مصر ارتفعت فى عينى وهى تحدثنى ، بلدا غارقا فى بحار النور، وفى أردية قصيرة على أجساد النساء ، فاننى كرهت مصر ، وبدت « الدر » ومدرستها أجمل منها ألف مرة ، فقمت حانقا ، وعبرت باب المتجر الى الساحة ، والتقيت بخالى وارتميت عليه أبكى ، فربت على رأسى فى حنان وطمأننى وهو يقول : لا تشغل نفسك ، فلن تشتغل فى مصر كما يشتغل جمال ، بل ستذهب الى المدرسة ان شاء الله ومسحت هذه الكلمات بعض شجونى فقبلت يده وهو يبتسم لى فى طيبة ورقة بالغة تعود أن يعاملنى بها منذ أن ماتت جدتى •

***

ومرت شهور ، واستحال البلح الأخضر فاحمر ، ونمت عيـــدان الذرة ، وناءت بالقناديل ، فتفتحت الآمال فى قلوب النـــاس ، ومضـــوا يتطلعون الى السماء خشية أن تهجم أرجال الجراد من جديد ، وراحوا يتناقلون ، وهم يدبون على الطريق الزراعى بين حقول الـــذرة أخبـــار التعويضات • لقد خفضت الى الربع ، ولكن ما زال القرار الرسمى بها لم

يصدر بعد ، والأخبار تترى عن قانون لنزع الملكية ستصدره الحكومة مصحوبا بهذا القرار الرسمى عن التقديرات الأخيرة للتعويضات • ولم يعد بركات افندى يجوس الديار بدفاتره ، فقد سجل كل شيء ولم يعد له عمل فرحل • والناس يقولون ان افندية آخرين سيحلون بالقرية بعد أن يصدر هذا القانون ليصرفوا التعويضات •

وفى انتظار صدور هذا القانون نشط بدر افندى ، والرسل يكتبون الشكاوى والعرضحالات ، ونشط المأذون والمحامى وبرعى فى النجع يحضون الناس على توقيع هذه الشكاوى •

وحل الخريف وضم الناس محصولا جيدا ، وجاء الموسم ، ودخل الجلب قريتنا من جديد ، والتقى حسن المصرى بأخرى غير فكيهة ، وسار كرنفال الغوايش والمزامير بين النخيل ، ثم رقدت الأرض تستريح وتستعد للشتاء •

وبينما أعود مرة فى أصيل يوم من الحقول ، التقيت بالشيخ شليب على دابته • فحاولت أن أختفى ، لكنه لمحنى واستدعانى اليه ، فأقبلت ألثم يده ، ووجدنى ساهما فقال : أما زلت تبكى جدتك ياولدى ؟ رحمها الله • لماذا أنت حزين ؟ عوضك الله عنها خيرا فى أبيك وأمك • قلت ان حجوبة عادت تتحدث عن سفرى الى مصر • قال : حدثنى خالك عن الحاقك بالمدرسة ، وقد نهيتك عشرين مرة عن التفكير فى هذا الموضوع • أبوك نفسه لا يرضى بذهابك الىمصرلتشتغل ، فمازلت صغيرا •

ومد يده الى رأسى وفرك بها شعرى ، ثم سأل : وأين برعى ؟ هل رأيته فى مكان ما ؟ ابحث عنه ، واذا ما وجدته قل له اننى والشيخ صابر ننتظره فى الدكان •

فمضيت أبحث عن برعى ، ومازال حديث الشيخ يطن فى أذنى ، والتقيت فى الطريق بسعدية تعود من طريق النيل وعلى رأسها «كوبيه» نحاسى يبرق فى ضوء الشمس الغاربة وتسيل منها قطرات على نحرها فيلمع ، وعلى صدرها فتبل ثيابها •

ومن خلفها كان البسطاوى يسوق بقرة خاله الجزار ، يتبعها باسما ويبدو أنهما ــ هو وسعديه ــ قد التقيا على الشاطىء بين النخيل بعيدا عن العيون ، فقد تطورت العلاقة بينهما حتى أن أم سعدية بدأت ترى فى البسطاوى زوجا لابنتها •

وسألت سعدية : هل رأيت برعى عند النيل ؟

قالت : لا . وأضاف البسطاوى : يقولون انه ذهب الى الجبل ، فتذكرت فى الحال غزوات برعى للجبل يبحث عن الثعالب ، فقد أشيع أن داء شريفة لا علاج له الا اذا أكلت لحم ثعلب جبلى يشوى على نار هادئة فلم يعد برعى فى الشهر الأخير يلقى بالا الى المناقشات الدائرة عن التعويضات ، بل أخذ على عاتقه مهمة البحث عن هذا الثعلب واصطياده ليكون شفاء لشريفة حبيبة قلبه على يده هو .

لقد ضمر برعى وأصبح الدمع دائما يتألق فى عينيه ، كلما تحدث الناس عن مرض شريفة الذى لاينتهى ، فقد تحولت المسكينة الى عود هش يكاد يطير اذا ما نفخت فيه ، وراحت حالتها تزداد سوءا على مر الأيام ، فهاهو الربيع قد تحول الى صيف قائظ تحول بدوره الى الخريف دون أن تقوم من رقادها الطويل ! وجدير ببرعى وهو يرى فتاته تذبل أن يذرف الدمع ، وأن يسعى هنا وهنالك ابتغاء وصفة أو تميمة عند الناس ، أو لصيد ثعلب برى ، ثم يعود من رحلاته ليطل عليها فى هلع فتشفق عليه وتهمس :

ــ ماذا تريد منى يا برعى ؟ ها أنذى أموت !

فيذرف الدمع ، ويتنهد ، ثم يشيح بوجهه ، ويخرج ، لينفلت الى السفوح ، وفى يده شرك كبير وفى جيبه خنجر حاد .

التقيت به عائدا من الجبل ، يحمل ثعلبا بريا يسيل الدم من رقبته فأنهيت اليه أمر شليب ، فهمس وكأنه يمشى فى مأتم : سألحق به فى الحال .

وحينما دلف برعى الى الدكان ، كان الرجال يتحلقون بالشيخ شليب والمأذون يطالعون فى أصوات خافتة مرتعشة أرقاما اجمالية عن التعويضات . كانوا واجمين يثقل الحزن رءوسهم وقلوبهم وهم يطالعون الوقائع المصرية .

وصاح أبى ويده تدق على بنك الزنك :

ــ اذن فقد عملها الداهية !

وحملق خالى فى النخيل عبر باب المتجر وقال :

ــ لعنة الله عليه .

وبصق الجزار فى اتجاه الشمال ، وسوى عذبته حول اذنه اليسرى وهتف : حكم الله ولا راد لقضائه ، فانبرى الشيخ صابر يقول : قضاء الله يا رجل ؟! هـذا ليس قضـاه ٠ الله عادل ورحيم ٠ وتردد حمـوى وأضاف كل شيء مكتوب ، والمكتوب لازم تشوفه العين ، وانفجر الشيخ جعفر ، مكتوب ؟! مكتوب أن نموت يارجل ؟ ٠٠ لا ياشيخ ٠٠ ليس الله ظالما ٠ أما الشيخ فضل فقد ربت على ساقه الخشبية ذات الحدوة الحديدية، وحملق فى وجوه رفاقه وفى عينيه نبرات غضب ، فقد كان يكظم غيظـا يهد الجبال ، بل بدا وكأنه يريد أن يصرخ، أن ينطح شيئا ما بدماغه ، أن يضرب أحدا بساقه الخشبية ، أن تطول أظافره الى مخالب يود لو غرزها فى رقبة أحد الناس ، بينما أقبل المحامى وألقى نظرة على الارقام ، وصاح

ـ انا دككنا الجبال دكا دكا ! فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟! ٠

وحملق فى وجوه الآخرين ثم قال : ألم أقل لكم ؟ ثم انتزع ورقة من فوق زنك البنك ومحبرة وقلما وأخذ يكتب محموما والرجال يلتفون به ، كل يقدم اقتراحا ٠ ومضى هو يكتب ويكتب لايأبه بثرثرتهم حتى أوفى على الصفحة ، وشرع يقلبها ليكتب على ظهرها فاستمهله الشيخ فضل بعد أن حبا قليلا اليه ، ثم أنشب أظافره فى الارض ، وعاد بيـــده محملة بالتراب يتجه به الى الورقة لينثره عليها حتى يجف الحبر ، لكنه تريث وعرج به على أنفه يتشممه قليـــلا مقطب الجبين ، ثم ترك ذرات التراب تتسرب من بين أصابعه الخمسة فى تؤدة وصبر حتى غطت الصـــفحة ٠ بينما المحامى ينتظره فى صمت ودهشة ٠

ومن بعيد ، من بين نخيل نجع « السموارداب » كانت بعض الدواب تدنو من الساحة ، وعلى ظهورها رجال بملابس متباينة ، ترجلوا مباشرة أمام باب المتجر ٠ كان بينهم الرجل ذو الشارب الطويل والقامة النحيلة، وقد استبدل بالبدلة جلبابا من الحرير الأبيض بياقة تنسدل بأذنين مدببتين، على جانبى رقبته ، وكان فى عينيه نفس الاحساس بمرض عضال لايفيق منه ، ولكن ما من شيء آخر تغير فيه ، فالسجن لم ينل منه ٠

ترجل هذا الرجل ـ بدر افندى ـ ومن خلفه نفس الشيخ الذى فرك شحمة اذن الغلام فى الدر أمام المدرسة ، ومن خلفهما الشيخ ياسين ٠

وانبعثت المدرسة الى مخيلتى حين رأيت الشيخ مرسى ، وظننت أنهم أقبلوا للحديث مع أبى بشأنى وبشأن المدرسة ، وأيقنت أن مسعى حجوبه

وما تعده لى من مصير سيخيب فى هذا المساء ، الا أن ذلك لم يكن مقصدهم فى تلك الأمسية ·

وهب الرجال وقوفا يرحبون بالضيوف ، ويفسحون لهم مكانا رحبا على دكة عالية مرتفعة على يمين البنك ، ثم أديرت فناجين القهوة فمضوا يتحلبونها فى هدوء ، ثم انكبوا من جديد على الوقائع المصرية الى أن طواها بدر أفندى ، وقذف بهـا على البنك ، وهو يصرخ : هذا هو الظلم بعينه. ظلم لا يرضى الخالق ولا المخلوق ·

وتفرس فى عيون الناس وهم يستمعون الى الشيخ مرسى يقول :

ـ يجب أن نقاطع لجان التعويضات حين تجىء فلا نصرف ما لم تعدل التعويضات ·

وهز الناس رءوسهم بينما استطرد بدر يقول :

ـ الوقائع تقول انها ستنشر القـــانون فى عدد آخر ، وستنشر أسماء أعضاء اللجان ، وعما قريب سيأتون ، ويجب علينا ألا نتعامل مع هذه اللجان فما رأيكم ؟ امنعوها بالقوة عن صرف مليم واحد ·

وهز المأذون وبرعى رأسيهما فى اعجاب شديد بالرجل الذى عاد يسأل من جديد : ما رأيكم ؟ ثم أطرق لا ينتظر اجابة ، فقد كان يعرف طباع القرويين ، فانهم مجاملون وقد يقولون : نعم · فتكون الاجابة التى يقصدونها كلا ، وقد يهزون رءوسهم فتكون علامة الرضا آ ·

ورمق الرجل ، فى دهشة ، ساق الشيخ فضل وحدوتها الحديدية، فسأله عن حاله · وأجاب الرجل يشكره ، ثم مد يده وكبش فى التراب وعيناه تبرقان فى نبرات غاضبة تعبر عن اليأس والحزن ·

وبين دهشة الضيوف وحيرتهم ، رفع الرجل يده وهتف فى صوت دوى فى النجع : اللهم لا نسألك رد قضائك ، بل نسألك اللطف فيه

٣٢

وأخيرا جاء يوم قررت السماء أن تبتسم فيه لداريا سكينه وابنتها شريفة فقد أبلت هذه من علتهـــا ، وأخذت تسترد نضارتها ، وبدأت الغمازتان ترتسمان من جديد على خديها ، وتكسبانها جمالا يأخـذ بالقلوب ، فيشرع البسطاوى يحوم حولها من جديد ! فصدته فى قسوة • وبدأت سعدية رغم ذلك تظن بهــا الظنون ، تتهمها بأنها تتصيد البسطاوى منها •

ودون جدوى سعت بطة وبخيتة بينهما •

وعادت داريا تأمل أن يعود جمال ، فان الباخرة أخذت تصب فى القرى بصنوف من العائدين رحلوا منها منذ سنوات طويلة ، ولكنهـــا كانت تعود فى كل أسبوع تندب حظها • وفى هذه الأمسية كانت داريا وابنتها عائدتين الى بيتهما من المتجر بعد حساب عسير بينهما وبين أبى • عادتا واجمتين تتساندان • وبينما هما تحاذيان الخرابة الملاصقة لبيتهما قفز بينهما شيء صرختا اذ لم تتبيناه فى غبش المساء لأول وهلة ، وظنت شريفة أن البسطاوى يقتحم طريقهما ، وظنت داريا أن غولا قد خرج عليهما من الخرابة فشرعت تطلق صرخة داوية الا أنها حبستها ، فقــد عرفته من صوته : واحد • أحد • صمد ، ومن الشعر الغزير المنسدل بين فخذيه ، فاطمأنت بالا ، وابتسمت له فتتبعهما على عقبيهما حتى دلف معهما الى الدهليز ، فطاف بكل جدار ثم توقف عند كرباج طويل لم تغيرا مكانه منذ أن رحل جمال ، فانتزعه وطرقع به فوق رأسيهما ، وطلب زيتـــا دهن به على الكرباج وأعاده الى مكانه ، وانفلت خارجا لا يستجيب لندائهما، فلبثتا صامتتين تتأملان رسم قدميه على الأرض ، وتحدقان خلفه ، ثم ارتمت الأم فجأة بين أحضان ابنتها وهى تهمس من بين الدموع : شريفة ، تذكرنا الله • سيرسل جوابا •

ولم تلفظ باسم جمال ، لكن الفتاة أدركت ما تعنيه أمها فقالت : ليته أرسل يا أماه ، ليته ٠٠ فكم أنا مشتاقة الى أخباره ٠

وربتت الأم على كتفها وقالت : بل سيطلق البيضاء يا بنتى ٠ سيطلقها ! قلت لك سيطلقها !

وراقبتها الفتاة عن كثب ، ثم قالت ، بشكل فجائى ، : ولماذا لا تقولين يا داريا انه سيعود ٠ فشدت الأم من قامتها ، وعجبت كيف لم نواتها هذه الفكرة قبل شريفة ، لكنها احتضنت الفتاة ، ثم مضت تتحرك فى البيت تحجل وترقص وتترنم : سيعود ٠ قلت لك سيعود يا شريفة ٠ أما رأيته يطرقع بالكرباج فوق رأسينا ؟

وبدأتا تنتظران الباخرة فى لهفة ، ومع كل باخرة كانتا تفقدان الأمل وتستسلمان لليأس وتعودان الى العبوس والبكاء فى اشفاق من الأحداث التى كانت تتالى ، أحداث تتطلب سواعد الرجال ٠

★★★

واستدارت الشمس ثم لفظ عام ١٩٣٢ أنفاسه الأخيرة ، وولد العام الجديد ، وعند مولده ، فى ضحى اليوم الأول منه غصت دار العمدة بالناس من كل نجع ٠ والدار فسيحة يتصدرها دهليزان ينتهى أحدهما بالسلحليك ، والدهليز الأول فرشه العمدة بالعنجريبات والكنبات المكسوة فى ألوان زاهية ساذجة وبكراسى الخيزران تتوسطها ترابيزة من الخشب الأبيض عليها مفرش أبيض لم يتبقع بعد ٠

وعلى طول حائط هذا الدهليز ـ وفى هذا اليوم بالذات كانت أوراق عريضة معلقة أقبل الناس يطلون عليها بأمر العمدة يقرءون فى أصوات عالية أسماء سكان النجوع ، ويقرءون أمام كل اسم رقما ٠

ونادى أحدهم على اسمى وهتف : منزل ٠ أربع غرف مسقوفة فى حالة جيدة وحوش واسع ، اثنان وثلاثون جنيها ٠ ونودى على جمال ابن داريا سكينه : منزل خمس غرف وحوش غير مسقوف ، أربعة وعشرون جنيها ، وقيراطان بالحوض القبلى بنجع الزينية ، عشرة جنيهات ٠ مائة وخمسون نخلة ، ثلاثون جنيها ٠

وتتالت الأسماء والأرقام ، والقرويون يهزون رؤوسهم ، ويمصمصون شفاههم ٠ بعضهم كاسف البال حزينا ، وبعضهم بهروا بالأرقام والجنيهات التى ترن فى الدهليز ، جنيهات كاملة لم يلمسوها بأيديهم منذ عشرات السنين ، وها هى تسعى اليهم ٠ اذن فالديون ستسوى والأطفال سيكتسون والزيجات ستتم ٠

هؤلاء بدءوا يتطلعون فى لهفة الى تعويضاتهم كعلاج لجراح غائرة فى صدورهم وبطونهم فمتى يصرفونها ؟

وبين هؤلاء كان يتجول رجل من القرية المجاورة ينظر اليهم فى ازدراء . هذا الرجل توقف أمام الجزار ، ورمقه بنظرة قاسية ، ثم رفع يده يسكتهم ، فاصاخوا السمع الى كلماته ، يالهم من بلهاء ! أهذه هى التعويضات التى تتشوقون الى صرفها ؟! مجانين ! بيوتكم وأشجار نخيلكم وسواقيكم وقبور موتاكم .. كل هذا مقابل لا شىء ؟!

فصاح به الجزار : وماذا نفعل يا وابور ؟ وصرخ حموى : يا سيد أحمد وابور قل لنا ماذا نفعل ؟! الفلوس حلوة ونحن مدينون للتجار . الفلوس تمشى الينا برجليها ثم نرفضها ؟ أهذا كلام يا وابور ؟! فرمقهما الرجل فى احتقار وصرخ من جديد : مجانين . أنتم مجانين . فساد الهرج من حوله ، وانبرى برعى والمأذون يصرخان فى الناس .

ويشقان طريقهما الى الرجل ليقفا الى جانبه . وهتف برعى متذكرا كلمات الأستاذ : يجب أن نقاطع التعويضات .

واعتلى المأذون مصطبة الدهليز ومضى يقول : أتدركون معنى هذه الأرقام . النخلة بعشرين قرشا والغرفة بأربعة جنيهات والفدان .. ياهوه! فدان الطين بأربعين جنيها !

وفرك الناس عيونهم ، ولجأوا الى وابور يستفسرون منه عن تفاصيل الأرقام .

وابور هذا رجل متفتح الذهن . رحل كثيرا . ولا بد أن يفهم المرء هوايته من اسمه ، فهو مولع بكل أنواع الماكينات والبوابير ، فهى شغله الشاغل ومدار أحاديثه فى القريتين : قتة وابريم . كان يدور دائما على المصاطب والساحات ، وفى جيبه عينات من التراب يتفرس الناس فيها فيقول لهم : هذه عينة حديد تراب من حديد أسوان « وهذا هو تراب الذهب من جبل العلاقى » . وقد بلغ شغفه بالماكينات حدا جعل الناس يلقبونه بسيد وابور وهو صاحب الطاحونة الوحيدة المنتصبة فى بداية ابريم . تطحن الغلال ، الكيلة بتعريفة أو بيضتين .

تراه دائما وفى جيبه ، الى جانب العينات ، قصاصات من الصحف عليها صور آلات وماكينات ، وهو يحلم دائما بالمشاريع يقيمها من أموال المنكوبين . هنا طاحونة ، هنالك جاراج لاصلاح السيارات فى احدى

المدن ، وقد تشترون أسهما فى الشركات ، وقد تدقون الآبار الارتوازية فى الجبال التى تنتقلون اليها ، وقد تتعاونون وتقيمون طلمبات الميـــاه فى قراكم الجديدة ٠

كان ينام ويحلم بهذه المشاريع ، ويصحو ليتحدث عن الماكينـــات والبوابير حتى لقبه الناس بسيد وابور ٠

هذا الرجل الذى ساد الهرج بسبب كلماته انفلت مرة أخرى يسب الحكومة ، ويلعن أهل القرية الغـــافلين ، ويبين لهم مدى الغبن الذى أوقعته الحكومة بهم ٠ كل التعويضات يا ناس ثلاثة أرباع المليون جنيه ٠ وأشجار النخيل التى سجلت تبلغ وحدها دون البيوت والأرض مليون وسبعمائة الف ٠

وحار الناس فى الأرقام ، ولكن احدهم قال : اى والله صحيح ٠٠ النخلة بأقل من عشرين قرشا ! فعلت الهمهمة ، وتصايح الناس ، وارتفع صوت برعى من جديد : يجب أن نقاطع التعويضات ٠

ـ وكيف نقاطعها ؟

ـ لا تذهبوا الى مكان صرفها ٠

ـ واذا جاءوا الى بيوتنا ؟

ـ أغلقوا الأبواب فى وجوههم ٠

وجاء العمدة يطلب منهم الهدوء ، فانصرفوا الى الساحة أمام الدار ليجدوا المحامى يصرخ : عملها اللص ابن الكلب ٠ لا بد من رفع قضية على رئيس الحكومة ووزير الأشغال ، فتطلع وابور اليه فى سخرية ، وأمره فى هدوء : خذ ٠ إقرأ هذه الورقة ٠ فمرت عينا المحـــامى على الحروف المطبوعة وأحس أن الدنيا تظلم أمام عينيه ٠ لقد صدر القانون رقم ٦ لعام ٣٣ وبمقتضاه تنزع ملكيات كل الناس ٠ قانون يتلوى فى بنـــود كثيرة أخذ المحامى يتلوها فى صوت مرتعش ٠ ليس من حق أحد أن يرفع دعوى على الحكومة بسبب نزع الملكية ولا بسبب تقدير التعويضات ٠

ـ وماذا نفعل اذن ؟

ـ نشكو الى الله ، نشكو اليه سبحانه وتعالى ٠

وأشار وابور اليهم يطلب الصمت ، فواصل المحامى قراءة الكلمات المطبوعة على الورقة ، ومن حق الناس أن يتظلموا الى مهندس الرى المختص والى لجنة اعادة التقدير ، فانفرجت بعض الاسارير ، فقد أدركوا أن فى

وسعهم أن يتظلموا ، ثم انصرفوا متفرقين وجماعات والحيرة مرتسمة على وجوههم ٠

واتفق المحامي وسيد وابور على كتابة هذه التظلمات ليرسلها الناس موقعة باسمائهم الى لجان التظلم فى أسوان أو فى الجيزة حسبما نص القانون ، وفى الطريق التقى وابور بداريا سكينه مطرقة ساهمة ، فمد يده اليها ورفع رأسها وهو يقول : مالك يا خالتى ؟ فلم تجب بل أجهشت بالبكاء فقال : ألم يصلك جواب من جمال يا خالتى ؟ فقالت : الناس جميعا يعرفون مصيبتى وخيبتى فى ولدى ، فلماذا تسألنى يا وابور ؟ كم أحبه ! سجلت كل شيء باسمه ٠ فقال : ومن الذى يصرف تعويضاته اذن ؟ ٠ قالت فى اعتداد : أنا داريا ، سأصرفها ٠

ـ لا يجوز ذلك فقد كتبت كل شيء باسمه كما تقولين ٠

ـ ولكننى أمه والعمدة يعرف ٠ كل الناس يعرفون أننى أمه داريا بنت سكينة عثمان زوجة المرحوم أبيه ٠

فضحك الرجل وقال : الحكومة لا تعرف شيئا من ذلك ، ولن تصرف التعويضات الا لجمال ٠ فنظرت اليه فى ارتباك وحيرة ، ثم شهقت ولطمت خديها ، وهى تهمس فى كلمات متقطعة : عبيطة ٠٠ طول عمرك عبيطة يا داريا ٠٠ رحت كالهبيل وسجلت كل شيء باسمه ، باسم جمال الذى لا يعود ، جمال الجاحد ٠ الهى يا جمال ٠٠ لكنها كفت عن الدعاء عليه ، والتفتت الى وابور الذى كان فى هذه اللحظة يسير الى جانبها وقالت : لكن العمدة سيقول للحكومة اننى أمه ٠ فقال فى هدوء : صدقينى يا داريا ٠٠ لن تصرف الحكومة شيئا الا له أو لك اذا أرسل توكيلا باسمك ٠

وأحست المسكينة أن الدنيا تحاربها ، فانطوت على نفسها تبكى وتعول والمأذون يواسيها بكلمات طيبة ، وينصحها بأن ترسل له فى مصر بسرعة تشرح الأمر له ليعود ، أو ليرسل توكيلا ٠ وانعطفت هى تركض الى بيتها ، بينما مضى المأذون وبرعى يتهامسان ويبحثان الطريقة التى يمنعان بها الناس من صرف تعويضاتهم ، وكعادته صاح برعى : نمنعهم بالكرابيج ٠ سنقف لهم فى الطرقات والعمدة نفسه سيكون معنا ٠٠

وحين دلفت أنا من باب الدهليز فى الأصيل وجدت داريا سكينة وابنتها شريفة فى بيتنا تنتظران عودتى ومعهما البيضاء الست أم زين ٠

وتهللت أسارير الأم حين رأتنى ، وأقبلت على ترجونى أن أجلس فى الحال ، وأسطر لها رسالة الى حسين النجار فى مصر ، فانتزعت ورقة من الكراسة التى أكتب فيها ، ومضيت أكتب بلغة متكسرة رسالة

استرحام كلها دموع تمليها البيضـــاء على قلمى كلمة كلمة : أمك داريا سكينة ترجوك يا جمال ، يا فلذة كبدى · ترجوك أن تعود · داريا لا تريد شيئا منك ولا شريفة · كل شيء سجل باسمك فى دفاتر التعويضات · والتعويضات لن تصرف الا لك · أمك يا جمال تنتظرك فى كل أسبوع على المحطة ، وتعود حين لا تجدك ، وتبكى طول الليل بين أحضان شريفة · أمك يا جمال تحبك أكثر مما تحبك زوجتك ، فكتبت فى دفاتر الأفندية كل شيء باسمك · البيت وأشجار النخيل والقيراطين المرهونين · أمك يا جمال تنزل كل يوم الى شاطىء النيل وتدعو لك · واذا كان قلبـك لا يطاوعك أن تترك زوجتك وتعود فارسل توكيلا ، وسوف أتسلمه وفى العين دموع وفى القلب حرقة يا جمال ·

ملحوظة : شريفة كانت مريضة وشفيت والحمد لله وتهـــديك ألف ألف سلام ·

وعلى الظرف : مصر · عمارة بحرى : حسين النجـــار ·· بواب · مصر المحروسة ·· بدوح ١٢٤٨ ·

٣٣

ـ لا يا جمال ·· اليك عنى فانك لم تعـــد تحبنى ·· والا لوجدت عملا ·· وأشاحت بوجهها · وحدقت فى الجدار ثـم أردفت : اتركنى أعود لعملى ، ثم لملمت بأناملها خصلات شعر تناثرت على الخدين ، ومضت تغالب الدموع ، وتندب الحظ العاثر الذى أوقعها فى جمال الذى كان فى هذه اللحظـــــة يجلس على سرير تهرأت

مرتبته تغطيها ملاءة بيضاء نظيفة تشوبها زرقة خفيفة ، يتأمل وجه زنوبة التى مضت تغمغم بعد أن ارتفعت الى السرير وفي يدها قطعة كبيرة بيضاء من العجين تلصقها هنا وهناك على الحائط تتصيد حشرات البق •

كان يفكر فى حبه وغرامه الجارف لزنوبة ، الحب الذى لم يهـــدأ بعد زواجهما فرفع رأسه يراقب جسدها ويزداد هياما بها وهى تتحرك بيديها فوق رأسها ، فيبرز النهدان يتحديان القميص البمبى الذى حبست فيه جسدها الفاتن ، ورغم افتتانه بالجسد الفائر فان الارهاق كان بأديا على ملامحه السمراء كما ارتسم يأس لا نهاية له فى عينيه •

فقد أخذت المسكينة تركب أعصابها وتثور لأتفه سبب ، وقد اشتبكا بعد دقائق فأعملت أصابعها فى عنقه حتى خربشته وأسالت الدم من منكبيه ، ثم راحت تدق على صدره كما يدق الناس على باب موصد وتصرخ بين دقة وأخرى •

ــ جمال • طلقنى يا جمال !! لم أعد أحتمل هذه الحياة •

ــ زنوبة • اعقلى يا بنت ، حكمى مخك •

ــ وأين مخك أنت ؟ • حكمه اذا كان لديك •

ــ لو كان فى دماغى مخ لما تزوجتك وتركت كل أهلى •

ــ أهلك ! وهل لك أهل ؟ ولماذا لا يساعدونك ؟

فأمسك بها يحتضنها فتطامنت وقالت : ثم أنك لا تتركنى ، تأخذك الغيرة فتأبى أن أعود الى عملى فى مصر الجديدة ، فى قصر الباشا • القصر كان مباركا علينا نحن الاثنين • ألم نتعارف هناك يا جمال ؟

ــ عيب يا زنوبة • أنت حرمة وأولاد الحرام وأولاد الباشا كثيرون وأخشى عليك منهم •

ــ تخشى على منهم ولا تخاف من الجوع ولا من البهدلة ؟

وصمتت لحظة ثم أضافت :

ــ أتذكر يا جمال متى اكلنا اللحم آخر مرة ؟

ــ اصبرى يا زنوبة • اشتريت اليوم ورقة لوتارية • لعلها تكسب ونأكل ما نشتهيه •

ــ هيء هيء يادلعدى • لوتارية • موت ياحمار •

وشهقت وحدقت في وجهه وأردفت :

اياك يا جمال • لماذا تأكل عيناك مصاغى ؟ •• اياك •

ـ لا شيء يا زنوبه انما أمتع نظرى بصدرك الفاتن •

ومد يده الى الرمانتين ، وأضاف : تبارك الخلاق يازنوبة •

فصاحت في يقظة : نعم ياسى جمال • كل مخى بحلاوة • صدرك وتبارك الخلاق ثم المصاغ ! •• جحا أولى بلحم توره ياجمال • جحا أولى يادلعدى •

وابتسم الفتى وتطامن ، فقد كان يعرف أنها تحبه ، وانها تستطيع أن تضحى بكل شيء في سبيل حبها ، وليست مشاجراتها الا أمرا طارئا بسبب تعطله وسرعان ما تفيق من شجارها لترتمى فى أحضانه ، فيداعب بأنامله صدرها وشعرها الناعم الجميل • لقد اعتزم اليوم أن يبيع مصاغها، وأراد أن يفاتحها لولا هذا الصراخ المتصل الذى بادأته به ، فقرر أن يسلك طريقه من خلال ذكرياتهما الحبيبة فمضى يتغزل بسذاجته الريفيــة فى كل ذرة من جسدها وهي تزداد صمتا ثم تغرق وتغوص فى ذكريات ليال دافئة أمضياها معا فى غرفتهما هذه وفى بيت الباشا قبل أن يتزوجا •

وألقت بقطعة العجين جانبا ، وغسلت يديها ، وارتمت الى جانبه على السرير ، فأيقن أن فرصته سانحة ، فمال عليها وطبع قبلة على جبينها ، فتبسمت وكأنما تدعوه الى ثغرها ، فضمه بين شفتيه ثم مضى يهمس :

ـ عدت تلوين بوزك •• خبرينى بالله : أأنت فى حاجة الى هــــذا المصـــــاغ ؟ جيدك عاريا أحلى عندى •• المصاغ يحجب عن العين نضارة بشرتك الصافية • ومعصمك عاريين فيهما من الجمال فوق ما تتصورين ••

وقام الى الحائط ، وعاد بمرآة رفعها أمام عينيها وهمس :

ـ اخلعى هذا المصاغ وانظرى •• جربى •

فنحت يده ، وتنهدت ، ثم لفت عنقه بذراعيها ، ورفعت رأسها قليلا عن الوسادة وقبلته وهي تقول : لا ياجمال • كله الا المصاغ • فراح يهمس : فداك عيونى يازنوبة • عما قريب أجد عملا ، وحين ذاك أشترى لك أضعاف هذا المصاغ • أنظرى ، أليس من الموضة القديمة ، بلدى ؟

وساد الصمت لحظات مضت زنوبة تفكر فيها مقطبة جبينها • ثم قفزت فى خفــة ، من السرير الى الأرض ، وعقدت البرقع والعروســـة

النحاسية المذهبة على أرنبة أنفها ، والتفت بملاءتها ، وراحت تخطر أمامه ، ثم توقفت وهى تقول :

ــ افتح فمك مثل العبيط ٠ لماذا تجلس هكذا تتفرج على ؟ قم واستعد للخروج ٠

ــ الى أين ياغزالى المحبوب ؟

ــ الى الصاغة ٠

فقفز قلبه وشعر أن جوعه قد انتهى ، فقام على ساقيه واحتضنها وهى تتملص منه فى دلال ٠ ثم صفقا باب غرفة البغدادلى خلفهما ، وتركا معروف ، وعبرا ميدان سليما باشا ، ثم العتبة ، وعرجا على شارع الازهر ٠ والفتى الاسمر يتلفت حوله فى حذر يترصد عيون الناس السابحة على جسد زوجته ، ويكظم الغيظ حين أخذ الأطفال يصيحون من خلفهما سيب النعجة يا خروف ٠٠ أما هى فلم تعد تأبه بمثل هذه المشاغبات ، بل كانت تسر بها وترويها فى الليل على مسامعه ٠

وازداد غيظه وهو يستمع الى صبيان المقاهى يتندرون بلونه ، ويشبهونه فى ردائه الأبيض ببرغوث غاص فى كوب لبن ، وينعطفون نحوها يمطون شفاهم فى قبلات يرسلونها على الأثير : محبة فى النبى ٠٠

وتنقلا من صائغ الى آخر ، ساعة كاملة عادا بعدها وقد تعرت هى تماما من حليها تمشى الى جانبه حزينة تفكر فى مصيرها مع جمال ، هذا الفتى الأسمر الذى تحبه ، والذى ساء حظه فلم يعد يجد عملا ٠ انه يحبها حب العبادة ، مقطوع لها فهو لا يعرف أهله ، ولا يزورهم منذ تزوجها ، ولا يزورونه ، وليس هو الملوم ٠ فقد أجبرته هى على هذا مستغلة جمالها وحبه العارم ، بل لقد حالت بينه وبين الاختلاف الى مقاهيهم ضنا بالقروش التى يكسبها من شغل الظهورات ، واذا كان جمال لا يوافق على عودتها الى قصر الباشا فمن فرط حبه لها وغيرته عليها ، وتبا للعمل فى قصور الباشوات ٠ أبناؤهم شياطين ٠ لديهم بنات صديقات وفلوس ، لكنهم يتعرضون حتى للخادمة ، وبالذات اذا كانت جميلة مثلها ، ومازالت هى تذكر الابن الاكبر للباشا حين حشرها فى المطبخ يريد أن يعريها ، ويعبث بها وهى تقاوم ولا تصرخ خوف الفضيحة ٠ ثم دخل الطباخ فأنقذها منه ! والابن الاصغر وأبناء العم كلهم أرادوا أن يعبثوا بها ، ولولا الصدف العارضة لنالوا منها ما يريدون ، أما الآن فأنا ست لها زوج يصونها من كل بهدلة ٠ لعنة الله على الجوع ٠

وتساءلت وهما ينعطفان عند العتبة ، ترى أكنت على حق حين قطعت ما بينه وبين بنى عمه ومقاهيهم ؟ انه يحبهم ويحبنى ويعانى من مقاطعته لهم ، ويتألم كلما تذكر داريا وشريفة • لو كان على صلة بهم لساعدوه فى محنته •• كنت عبيطة • حتى حسين الذى نفحهما جنيها عمل عملته السوداء مثل وجهه ، وغيب فى الليمان يقطع الحجارة مثل زوج خالتى • كنت آمل أن يتوسط أبوه عند البيه فيجد عملا لجمال • المغفل كان يظن أننى أغريه • كان ذلك واضحا فى عينيه •• مسكين •• ظل أمينا على شرف جمال رغم كل ذلك • وكم كدنا أنا وجمال نموت فى جلدنا بعد أن قبض على حسين • لقد استخدم قفطان جمال فى ارتكاب جريمته ، لكن الحادث مر بسلام ، وأثبت حسين أنه جدع والحمدلله •

راحت تجتر أفكارها صامتة ، وجمال يدب الى جانبها ، يفكر فى حظه العاثر الذى ألقى به فى براثن هذه المدينة العاتية ، أما كان الأولى بى أن أعود الى أمى والى شريفة التى ربما تكون قد كبرت ؟ كم يحن اليهما وكم تتعذبان بسببه ! ، فقد قطع رسائله عنهما ارضاء لزنوبة • سأرسل لهما دون أن تعلم • ومازال يغيظه أنه لم يثبت بعد فحولته بمولود • وحدق فى وجهها فوجدها ساهمة ، فوضع يده على منكبها وهتف • الصبر ياست •• الصبر وعما قريب يأتى الفرج • فلم تجب بكلمة واحدة الا أنها انعطفت بوجهها اليه ، وتبسمت ومضت تتأمله • كانت قد عبرت بخيالها مجاهل لا تعرف عنها شيئا الا من أحاديثه الطويلة عن قريته وأمه وشقيقته وتذكرت فى هذه اللحظة أمها التى ماتت وهى تعمل فى القصر العينى تمورجية • ماتت من « الموراتزم » وراحت تتساءل ، ترى ما شكل أمه ؟ وهل شريفة خفيفة الدم مثله ؟ أم تراها تعفر شعرها مثل لداتها ، هنا فى عابدين ، بالرائحة الكريهة ، رائحة الصندلية ؟ •

ولا تدرى لم أحست بالاشفاق عليهما فى هذه اللحظة ، مسكينتان ! اننى أتعذب من البؤس الذى أعيش فيه ، فما بالهما هنالك فى آخر بلاد الله ؟ لابد أنهما جائعتان جوع خالتى فى البلد بعد أن سجن زوجها • أرسلنا جمالا ليعمل فى البيت حتى يقيم أودهما ، وها أنا قد أجبرته على قطع علاقته بهما ، مرة واحدة استطاع حسين النجار بواب عمارة بحرى أن ينتزع جنيها منه أرسله لهما • مسكينتان ! رحمة الله عليك يا أمى • كنت تنصحين النساء دائما بحب أهل أزواجهن ، حسين النجار لا يعرف أننا فى معروف منذ عزلنا من شبرا •

وأحست أن قلبها ينز بالألم والاشفاق على أمه وشقيقته ، فتفرست

فيه ورأته مهموما طال وجهه وعبس ، انها تكرهه حين العبوس ، فميزة جمال الوحيدة هى خفة دمه ومرحه ورجولته · أتراه غاضبا عليها بسبب أمه ؟ · وفجأة ، وكنتيجة لتقلب نزواتها ، قررت أمرا طوت عليه صدرها · قسمة ونصيب · الفقر يذل الرجال ، لعنة الله على الفقر · وكادت أن تسر اليه ، وهما فى الطريق ، بقرارها الجديد ، ولكن جمالا لكزها قبل أن تحرك شفتيها وهمس : تعالى ندور حول جنينة الأزبكية من الجانب الآخر فنختفى من وجه حسين النجار فانه يغذ السير الينا · وحانت منها التفاتة الى الخلف ، فرأت الرجل يلهث وراءهما ، وكادت أن تسرع الخطى الا أنها أثارت دهشة جمال حين أخذت تتمهل فى مسيرها ، بل تجره الى الخلف وهى تهمس : لماذا نهرب منه ياجمال ؟ عد الى أهلك · اننا لم نسرق ·· فهمس فى عجب : أعود الى أهلى ·· ماذا تقصدين ؟ أتركك وأعود اليهم ؟ مجنونة · قالت : كلا ·· سنختلط أنا وأنت بهم · انهم لم يسيئوا الينا فى شىء · أنا التى أسأت اليهم ··· سامحنى يا جمال ··

وأطل حسين النجار عليهما ، وهو يصرخ فى لهاث : يابنى آدم ، أنا دخت عليك · بحثت عنك أسبوعا كاملا فى كل مكان حتى رأيتك هنا فى ميدان الأوبرا خذ ··

وعبث فى جيب الصديرى وأخرج جوابا ، فتوقف جمال ليقرأه ، بينما اتجه حسين النجار الى زنوبة يحييها ، فلاقته بطرف باسم ، وقالت : لا فائدة من القراءة فى الطريق ، تفضل الى مسكننا فى معروف ·· تفضل ··

وألقى جمال نظرة جانبية عليها تعبر عن الدهشة والعجب ثم ساروا فى صمت حتى عبروا ميدان سليمان باشا ، ودخلوا معروف ، وارتقوا السلالم ، وبلغوا حجرة البغدادلى فوق سطح العمارة ·

وأعدت هى فنجانين من الشاى ، واتكأت على السرير تستمع الى حديثهما عن البلد ، وجمال مازال ممسكا بالجواب · ثم فضه ومضى يقرأ والدموع تتألق فى عينيه حتى أوفى على غايته ، فاعتمد رأسه بين راحتيه غارقا فى أفكاره لايلقى بالا الى الرجل ولا اليها ، فتقدمت منه واختطفت الجواب ، وفحصت خطه المتعرج ، وتأملت كلمتين أذابتهما قطرات الدموع، فرق قلبها ومضت الى نهاية الغرفة ، وتوقفت الى جانب المرآة الصغيرة فبدت وكأنها تتأمل وجهها هناك ، الا أنها مدت يدها الى صدرها ، وأخرجتها بمنديل صغير مطوى فضته ، وعادت تدفع بجنيه كامل الى يد جمال ، وهى تهمس فى صوت متهدج : أكتب لهما ياجمال ، أرسل لهما

هذا الجنيه . قل لهما ان زنوبة ترسل لهما هذا الجنيه « هه يا عم حسين ماذا تقول ؟ » .

وفغر بواب عمارة بحرى فاه ، وعجب من تغيرها المفاجىء ، فزال الحقد من قلبه وتنهد وقال : بنت أصل .. الرك على الأصل ..

وهمس جمال : سأرسله لكنهما تطلبان عودتى . ولا فائدة من البقاء هنا ، ولن أغيب الا شهورا أصرف فيها التعويضات ثم أعود ، مبلغ كبير ولن يصرفه غيرى أو أمى اذا أرسـلت لها توكيلا . مارأيك ؟ أم تسافرين معى . خير لنا أن نسافر معا .

فتفرست هى فى حسين تقرأ على وجهه ما يجول فى خاطره ، فلم تتبين شيئا ، وانثنت الى زوجها تثبت عليه نظراتها ، فانها تعلم ما الذى يدفعه الى مثل هذا الحديث، أن تسافر معه . لماذا يريد أن يحملها معه الى آخر بلاد الله ؟ انه يغار عليها ويخشى أن تعود الى قصر الباشا ، الى الذئاب كما تعود حسين طه أن يسميهم . وقرأت الاصرار فى وجهه ولكنها قالت بعد صمت : ياه ، بلدك بعيدة ، ستة أيام سفر بلياليها ! وردد الضيف من بين أسنانه : لتكن فرجة وفسحة ياست . فضحكت معجبة بكلمة ست هذه ، فكشفت عن ثناياها البيضاء ، وقالت فى دلال وقرف : ولكن هل يسرهما رؤيتى ياعم حسين ؟ قال : سيحبانك مادام جمال يحبك ياست . ثم سكت الرجل موقنا أنه يكذب . فهما لن ترحبا بها ، وان كانتا ستكرمانها اكرام الضيف حبا فى جمال ..

وتركهما الرجل بعد حين ، وتريثت ريثما سمعت وقع خطاه على السلم يتلاشى فمدت يدها تخلع حذاء جمال ، وتدلك قدميه ، وتدغدغ باطن القدمين الى أن تعالت قهقهاته ، واستثير فنهض يدفعها فى صدرها ، وفار الدم فى شرايينه وهى ترتكن على السرير وأحس بخدر لذيذ حين احتكت أنامله بجسدها البض وبالرمانتين اللتين أثقلتا صدرها البديع ، وهمست فى دلال : لا يا جمال ليس الآن ، ولكنهما رغم ذلك اندلقا على السرير ، ثم مضى الهمس بينهما يملأ الحجرة الضيقة بسحر غاصا معـه فى غيبوبة ارتشفا من خلالها كأس الهناء ، ثم غرقا فى النوم وقد تشابكت الصدور .

٤٣

الذين قرأوا اسماءهم وهم فى دار العمدة وأخذت بألبابهم المئات بدأوا يفيقون ويحسون أن حياتهم كلها ، أن الأرض التى عشقوها منذ الصبا ، وأشجار النخيل والبيوت لم تعد لهم ، وأن فى الحكومة من يكيد لهم ، فبات الواحد منهم يسير فى الطريق الذى يشق المزارع من الشاطىء الى السفوح الشرقية ويتأمل ذرات التراب التى تشكل شريحته من الأرض ، ويتنهد كما يتنهد انسان رقد ابنه الوحيد على فراش الموت ، ويعد على أصابعه ما يجتنيه كل عام من أرضه ومن كل نخلة يملكها ، ويعقد المقارنات بينها وبين تقديرات الحكومة لأثمانها فيحس بالغبن ، ويشعر بالثورة والعجز فى نفس الوقت ، ويسرى فى كل بدنه احساس بأنه يستغفل ، فتجحظ عيناه ، ويتفرس فى شريحة الأرض والنخلات من جديد ، ثم يلقى بنظرات ساهمة غاضبة فى اتجاه الشمال ٠

فهكذا شق الشيخ جعفر وأحمد عودة وأبى « أمين كلثومة » هذا الطريق ، يسيرون فى تؤدة لأن الشيخ فضل كان يمشى معهم بساقه الخشبية فى حذر وبطء ، فان ملتقى هذا الساق بالفخد أخذ منذ فترة يسبب له ألما يثير فيه احساسا بالاغماء ٠

سار بينهم ووجهه يطالع الرجال فى ذلك الأصيل من شتاء عام ١٩٣٣ بمشاغل كثيرة فوق آلامه تعتصر قلبه وكان نصلا حادا قد غاص بين ضلوعه ٠٠ وبدا منظرهم وهم يسيرون فى صمت منظر أناس عائدين من المقابر ، فقد زموا شفاههم لا يتكلمون ، بل يحدقون فى عيدان القمح النامية وشجيرات الفول المتمايلة وفى الأفق البعيد ٠

وبدت شفاههم وكأنها صمتت منذ لحظة قصيرة فهى منفرجة قليلا ، ولعلهم تكلموا كثيرا ، ووصلوا الى نقطة يحسن لهم السكوت عندها ٠ أيقولون لا أم يقولون نعم ؟ أيرفضون صرف التعويضات أم يقبلون ؟ كل

واحد منهم كان يصمت فى انتظار أن يدلى الآخرون برأيهم ليزن الأمور على حقيقتها • أيمشون فى ركاب بدر افندى وأنصاره أم ينكصون على أعقابهم فى منتصف الطريق ؟ وماذا يكون مسلك الحكومة ؟ أتجـرهم الى زنزانة المركز فى الدر كما فعلت ببرعى والمأذون والافندى نفسه أم أنها ستترفق بهم احتراما لحرمة السن والمقام ؟•• وهل يجديهم فيما هم فيه ما يطالبهم به الأفندى وبيانات النادى فى مصر والاسكندرية ؟ على بك أبو زيد ليس من رأيهم • أما الآخرون فيسيرون فى ركاب الافندى ويحترمون رأيه • ولكن يبدو أن الأفنـدية ، وهم الموظفون الذين يضمنون راتبا شـهريا ، لا يدركون حقيقة الأمور ، فالفلوس شحيحة وما باليد حيلة ، والجـراد وسوء المحصول وانخفاض اسعار البلح والمجاعة • كل ذلك الذى يدفع الناس فى كل النجوع والقرى فيوشكون للرضوخ ، كل ذلك لا يدركه الأفندية ولا يحسون به • انهم يمنون الناس بتقدير أسخى لممتلكاتهم ، الا أن الفلوس المعروضة ليست فى علم الغيب بل فى متناول اليد ، فيغلق التاجر أمين كلثومه وأحمد عودة وكل تاجر آخر فمه حين يستوفى ديونه، ويشطب قلم الكوبيا ولأول مرة منذ عشرين سنة آخر سـطر فى دفتر الاستاذ واليومية حتى يقضى الله أمره •

كل واحد منهم كان يفكر بطريقته الخاصة • فالشيخ أمين وأحمد عودة كانا يفكران فى ديونهما ، وسوف يستوفيانها على داير المليم وزيادة اذا ما صرف الناس تعويضاتهم ، ولكنهما ، فى الوقت نفسه ، يعرفان ما فى التقديرات من اجحاف وغبن فيتأرجحان ، ويصمتان طويلا ، ولا يدليان برأى ما خشية أن يغضبا الآخرين •

ولأول مرة منذ قطعوا حديثهم صاح الشيخ جعفر فى نبرة غاضبة : ملعون أبو الدنيا وما عليها ! فالتفت اليه أبى فى تحفز وكأن أمه هى التى لعنت وصرخ : استغفر ربك يا جعفر ، فارادة الله ستكون • الله يارجل •• ولم يذعن جعفر بل مضى يجادل : الله الله •• دائما تقولون الله •• انه رحيم بعباده ولا يريد بنا الشر • فازداد وجه فضل تجهما ، وتأمل فى الرجلين وهو يكز على أسنانه دون أن يقول كلمة واحدة بينما انطلق الجزار يقول : لن يـكون فى وادينا ربيع أخضر ، ثم صـمت كأنما يفكر وأردف : والعلف اليابس لا يجدى • من أين أذبح لكم ؟ ونظر اليه أبى فى عجب وهمس كأنما يردد الكلمات لنفسه : بع لنا لحما ميتا كما فعلت منذ شهور ! فغضب الجزار ، وصاح : لحم ميت ! حرام عليكم يا هوه • أأنا مسلم أم نصرانى ؟ والتفت الى الشيخ جعفر وأضاف : اللحم كان

جملي وبطة الغشيمة لم تعرف كيف تطبخه • وعلى أية حال كل اللحوم ستكون ميتة بعد الطوفان !!

وبدا واضحا أنهم يفيضون فى الحديث عن أى شىء غير النقطة التى توقف عندها حديثهم • أيقبلون أم يرفضون ، رغم أن المسألة ملحة وعاجلة ؟ • لقد سمعوا « الشيخ صابر » يخطب الجمعة فى كلمات ومعان متصلة بحياتهم ترددت لأول مرة فى جامع القرية • تكلم عن الظلم ومقاومته ، وتحدث عن عمر بن الخطاب ، الا أنه فى نهاية الخطبة ردد آية احتار هو نفسه فى تفسيرها وتكييفها حسب المناسبة : « واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » • فمن هم هؤلاء المترفون ؟ ولا مترفون ولا حاجة يا شيخ صابر • قالها النجار وقالها العمدة وقالها هو بعد حين •

لقد اعتادوا حل مشاكلهم ، مشاكل القرية فى براعة ، الا أنهم اليوم يواجهون مشكلة معقدة • وعقول الافندية وحدها كما زعموا هى الكفيلة بحلها • وليت « حسين طه » نجح فى اغتيال صدقى باشا لاستراحوا اذن من تصديع الأدمغة ولتلاشت المصاعب •

الشمس تذهب خوص النخيل وتصبغ السماء بشفق أرجوانى شفاف ينعكس فى ايقاع جميل مع النسمات الرطبة التى تلفح وجوه الرجال • وهناك تحت الصخرة المعلقة على كتف الجبل فى محاذاة النتوء الشرقى شوهد طابور من الدواب يتحرك تنوء بحملها الثقيل ، ومن حولها رجال يحملون أثقالا أخرى ، ومن خلفهم الخفر والجنود • وبدت على ظهور الدواب والرجال مكاتب ومناضد ومفارش وأسرة وصلت فى الرفاص منذ الضحى ، وأفرغت عند النتوء فى الظهر • وعلى ظهر جمل استقرت خزانة حديدية ثقيلة تسهر عليها بنادق مشرعة فى وجوه الناس الذين تجمعوا على عتبات البيوت يرمقونها بعيون ذاهلة • هنالك الفلوس ، على ظهر الجمل ، فلوس التعويضات يحملونها الى بيت العمدة • وهؤلاء هم الافندية الذين سيصرفون التعويضات • رجل قصير القامة أشيب الفودين ، عيناه تختفيان خلف عوينات سميكة يهبط بها اذا ما أراد تحديق البصر الى أرنبة أنفه • وظيفته رئيس لجنة التعويضات • مضى رفاقه ينادون عليه بالقاب مختلفة : الأستاذ غطاس • غطاس بيه • غطاس افندى • سعادة البيه •

وغابت القافلة عن العيون ، لكن الرجال لم يتحدثوا عنها بل حار فى أذهانهم سؤال لم يلفظوا به : ما الذى يراه العمدة فى كل ما يدور

حوله وفى لجنة الصرف التى تمضى لتستقر فى دواره ؟ هو والمشايخ لم يقولوا كلمة واحدة الا الشيخ جعفر الذى مضى يصيح فى كل مكان : يجب أن نفعل شيئا ، ولا يسميه ، ولكن أين هذا من رأى يبديه العمدة ؟ أليس رأس أكبر عائلة فى القرية ان قال نعم قالت العائلة معه نعم ، واذا ما نهى انتهت عن كل شىء ، ولكنه لا يفوه بكلمة واحدة ، بل يزم شـــفتيه ، وان كان البعض ، الذين يفهمون ، قد أدركوا من تلميحاته وحركاته أنه يشير عليهم بمقاطعة الصرف .

واشتدت حيرة الرجال ، وهم يراقبون الخزانة الثقيلة تهتز على ظهر الجمل ، وتمشى كأنما على قدمين لتستقر فى بيت العمدة ، وأمعنوا النظر فى وجوه بعضهم دون أن يقولوا كلمـــة واحدة . التقيت بهم عند البقعة التى تعلو فيها الأرض لترتفع الى السفوح ، وأقبلت عليهم فتلقانى أبى بوجـــه باسم ووضع يده على رأسى وقال : أين كنت ؟ قلت : كنت عند مصطفى افندى ! فقطب جبينه وغمغم : أفندى ! مرة أخرى عند مصطفى ! ألم أقل لك عشرين مرة ؟ الشيخ شلبيب يشكو منك مرة أخرى . وألقى نظرة فى اتجاه خالى وأردف : أصبح بليدا منذ التقائه بهذا الولد .

وتمنى الشيخ فضل نفس أمنياته القديمة ، وتحـــدث عن الازهر والجبة والقفطان الشاهى اللذين سأعود بهمـــا ليتحلقوا بى فى دروس الدين ، فأحسست ازاء ذلك بنفور شديد ، بل شـــعرت بالدموع تقفز الى عينى ، وأدرك أحمد عوده ما أعانيه ، فدفعنى من ظهرى وهو يقول : عد الى البيت . كلا يا فضل انه لا يريد الأزهر ، وغمغم الجزار : يريد اذن أن يكون فلاحا . ولكن لن تكون هناك أرض يا ولدى حامد !!

ومال الشيخ فضل الى الارض ، وأنشب فيها راحة يده ، وعاد بها تحمل حفنة من التراب تركها تتسرب من بين أنامله فى اتجـــاه الريح ، وتمعن خالى فيما يفعله وهمس فى صوت حزين : ستقتلك الأرض يافضل، فقال هذا : انا اليها راجعون . وواصل أبى حديثه معى : بهرتك المدرسة يا حامد ، وأضعت ســـنة بحالها دون حفظ ، بل ان الشـــيخ يقول انك تنسى ما حفظته .

وفكر قليلا ثم أردف كأنما وجـــد حجة قوية : والمدرسة فى الدر أغلقت ، ولا ندرى متى يعيدون فتحها ؛ يقولون ان الحكومة ستنتهز فرصة الطوفان وتغلقهـــا الى الابد . وهمس خالى : لعلهم يفتحونها باذن الله .

وزاد الأمر وضوحا حين أكد : على كل فان اغلاق المدرسة هو ما يتخوف منه الشيخ مرسى ، ولكننى كنت فى عنيبة بعد وفاة عيشة ورأيت رجال الحكومة يبنون المدرسة والمركز والمحكمة والســوق فى أرض فضــاء بين عنيبة ومصمص •

وقبل أن أتحرك لاعود رمقنى الشيخ فضــل باســما وســألنى أتصرف التعويضات يا حامد أم ترفضها ؟ فضحك الجــزار وســأل : انه صغير وما شأنه بالتعويضات ؟ وردد الشيخ فضل : البيت الكبير مسجل باسمه • ونظر الى الجزار فى حسد وهمس : اذن فأنت غنى ؟ فأرسل أبى ضحكة خافتة وقال : الغنى غنى النفس يا عبد الله •• ثم لكزنى خالى بيمينه وهو يردد الســـؤال نفسه ، وتذكرت أنا كلمات برعى والمأذون وبدت المسألة جلية فى مخيلتى ، مسألة بسيطة أهتف بها كما هتف بها برعى لكننى تريثت ، فلم أكن أعرف رأى أبى وخالى فحرت فى أمرى • لم أكن أحس بالازمة التى يعانيها الرجل ، ولم أعرف أن المتجر على وشك الافلاس • كل ما أدركته هو أن الرفوف تخلو يوما بعد يوم وان المنازعات تتزايد بين التاجرين وعملائهما • وقد أحسست مرة بنفور شديد من أبى، يوم صحبنى معه الى بيت داريا سكينة يطالبها بالديون • أصر على اقتياد كل ما استطاعت تربيته من معيز فى موسم الذرة فلم يبق لها ولابنتهــا الا واحدة كانت شريفة تدللها وتسميها معزتى •• معزة لامعــة الشعر بغرة بيضاء على الجبين ، يتدلى من فكها الاسفل عثنون صغير كسا وجهها بوقار مضحك • حتى هذه كان أبى يريد أن يأخذها، فبكت الفتاة، وراحت تستعطف ، وانضممت اليهــــا حتى تركها أبى ، ثم انصرف وهو يصرخ فيهما : كتر خيرنا • احمدا الله • وداريا تجيب فى كلمات متعثرة : كلها أيام ونصرف التعويضات ونسدد كل الديون يا أمين •

تداعت هذه الصورة فى مخيلتى ، وهم يرددون السؤال الذى لم يستطيعوا الاجابة عليه ، ثم برز برعى أمام عينى وهو يردد : التعويضات قليلة • فأخذت أجول بعينى على وجوههم فوجدت خالى ما يزال يبتسم لى وينتظر اجابتى على سؤاله ، فعزمت وقلت : ارفض صرف التعويضات. فضحكوا جميعا دون تحفظ •• ثم ردد أبى : يا لكم من صغار لا تدركون من أمور الحياة شيئا • وقاطعه فضل : انهم هم الذين سيلحق بهم الضرر يا أمين • فقد عشنا حياتنا ، أما حياة حامد والصغار فهى التى تتــأرجح اليوم على كفة الميزان •

وأحسست بالاعتزاز ، فقد أصبح لى رأى أقوله تماما مثل الكبار ،

وشعرت بالامتنان لأمى التى أصرت على تسجيل البيت الكبير باسمى فلولاها لما سألنى أحد ، هل أقبل صرف التعويضات أم أرفضها ؟ وشجعتنى كلمات الشيخ فضل فقلت دون وجل : أنا لن أصرف التعويضات الا اذا زادوها مائة جنيه • ونظرت الى الجزار وقلت : أما أنت يا عم عبدالله فيمكنك أن تصرف ما دمت تريد !• فانطلقوا مرة أخرى ضاحكين ، وانكفأ الشيخ فضل على الارض اذ افلتت ساقه الخشبية منه حينما اهتز جسده بالضحك ، فأسرعوا اليه وأقالوه من عثرته ، فاتجه لى ، وربت بيده على رأسى وراح يردد : عفارم يا حامد • ولد من صلب ولد • باسم الله ما شاء الله ، وكأنك بدر أفندى • لا أزهر ولا حاجة ، ابعث به الى المدرسة يا أمين •

فتجهم أبى ، وانتهرنى ، وذكر الرجال بقصة ضاربة الودع التى أكدت أننى سأقف أمام المحاكم مرات ثلاثا ، فصرخ فضل الماساوى يقاطع أبى : حرام عليك يا أمين ، كذب المنجمون ولو صدقوا •

وانشغلت أنا عنهم بتصوراتى للمدرسة الجديدة والمصاعب التى تقف فى طريقى اليها ، وكنا قد بلغنا الطريق التى تنتصب أعمدة البرق على جانب منها ، فتوقفنا قليلا عند الشونة نستمع الى صوت المؤذن يدوى من فوق مئذنة الجامع خلف بيتنا ، فأخذ الرجال يتمتمون بالدعاء ، ثم انصرفوا الى الجامع ، بينما انصرفت أنا الى المتجر حيث كان «اشن الله» يباشر العمل •

وعاد الرجال من الجامع ، وبينما كانوا يهبطون فى الدرب المتعرج أقبلت داريا سكينة عليهم متهللة تتطاير طرحتها من حولها فتكسبها صورة غامضة • كانت تصرخ : جواب يا شيخ أمين • جواب من جمال ولدى ! ومن خلفها كانت شريفة تسرع لتلحق بها وعلى وجهها شك وخوف • لعلها كانت تفكر فى المأساة التى طالعتها فى أول خطاب تلقياه منذ عامين ، وانتهى أحمد عودة من قراءة الرسالة على ضوء فانوس ، فاطلقت داريا زغرودة ملأت النجع كله ، ثم احتضنت ابنتها ، ومدت يدها بالحوالة الى أبى وصاحت :

أعد لى معيزى يا أمين كلثومة • لقد أرسل جمال وسوف يرسل فى كل شهر •• معيزى يا أحمد عودة • وصمتت لحظة ، وتناست معيزها تماما ثم قالت : وسوف يعود يا أمين ، فالرسالة كانت تقول انه يفكر فى العودة • ولاول مرة عرفت داريا وشريفة مدى حبه للبيضاء التى

تصيدته في مصر ، ووجمتا قليلا عندما علمتا أنها هي التي أرسلت الجنيه لهما ..

وكما أن للحزن دموعا فان للفرحة دموعا مضت تسح على وجه شريفة وهما تعودان الى دارهما فى خطى راقصة .

وأطلت بطة من الباب عليهما تسأل ما الخبر ؟ فجذبتها شريفة الى صدرها وهي تهمس : تعالى لنسهر سويا . سأساعدك فى اعداد ثيابك فلا تعتذرى بها .

وسرى الموكب الصغير يطلق الزغاريد ، وعرف النجع كله أن جمالا أرسل جنيها كاملا لأمه « داريا سكينة » .

٣٥

الساحات والمصاطب والمتاجر ومكاتب البريد فى كل قرية تحولت الى منتديات صاخبة يتجمع فيها الناس ، ويتحدثون عن اللجنة وغطاس بيه وأمثاله فى كل مكان . لكنهم ، وكعادتهم ، كانوا لا يطرقون الموضوع مباشرة بل يدورون حوله بأمثال شعبية يتعسفون فى نسبة بعضها الى النبى ، وقد تسبقها على شفاه البعض : قال سبحانه وتعالى ، ثم يروون طرفا من أخبار مصر ، يرددونها بأسلوب يجعلك تعتقد ألا صلة بينها وبين ما يعانون ، ثم يتوقفون عند مشارف المشكلة ، ويظلون الى ساعات متأخرة من الليل يحجمون ويقدمون حتى ينفد صبرهم .

وفى الصباح يمرون على دار العمدة ، ويطلون على مقر اللجنة ، ويستعيذون بالله من الشيطان الرجيم ، ويتمنون على الله أن ينهى عذابهم الذى بدا أزليا لا يزول .

وفى هذه المنتديات دار برعى والمأذون والمخامى ووابور كما يدور النحل . واليها قصد غطاس بيه مرة بعد أخرى ومعه رفاقه يحاور القرويين

ويداورهم ليلة بعد أخرى . كان يتنحنح ثم يبتلع ريقه ، ويهبط بعويناته الى أرنبة أنفه ، ويعيد عليهم تلاوة القانون رقم ٦ لعام ١٩٣٣ :

- القانون يامحترم يقضي بنزع الملكيات نزعا كاملا الا فى توماس وتوشكى غرب وأبو سمبل وبلانة وأرمنا ، هذه البـلاد لن يكون النزاع كاملا فيها ، ولن يصرف الا نصف التعويض ، وهى البلاد التى ستقام فيها مشاريع صيفية للرى ، على حساب النصف الثانى يامحترم .

- وبلدنا يا أستاذ ؟

- البلاد الاخرى مثل بلدكم تنزع ملـكيتها نزعا كاملا ، وتصرف تعويضاتها كاملة ، ولكم الخيار فى الرحيـل الى أى مكان تفضلونه ، أو البقاء هنا على الجبل .

ويصمت قليلا ، ثم يهز عويناته على أرنبة الانف ويستطرد :

- والحكومة ستساعدكم فى الانتقال اذا أردتم .

فيقول الشيخ فضل : ولكن التعويضات قليلة ، فبماذا تشير علينا ياسعادة البيه ؟

فيخلع الرجل نظارته يمسح عليها بمنديل ، ويشرح : حسب القانون يامحترم من حقك أن تتظلم الى لجنة المساحة ، وسوف تكون معنا هنا لجنة تظلمات خاصة .. صبرك بالله .. دعنى أشرح لك .. بعد أيام ستكون معنا هذه اللجنة قبل الصرف الذى سيتم بعد أن تسوى كل الحسابات .

وتدخل المحامى هنا فى غلظة : ولماذا لا نرفع الدعوى على الحكومة نفسها ؟ ومتناسيا الكلمات المطبوعة التى تلاها على الناس بنفسه !

ولا يميل القرويون الى رأيه ، فانهم لا يدركون كيف يمكن للمرء أن يتجرأ ويرفع دعوى على الحكومة نفســها ، فيوجهون اليه نظرات مؤنبة وكأنما يقولون : أسكت ياشيخ ، جعلت رقابنا مثل السمسمة أمام البيه! ثم يعلو صوت رئيس اللجنة - غطاس بيه - القانون يامحترم يحرم ذلك، لكن المحامى لا يقتنع بل يكابر : أنا أعرف القانون أفضل من معرفتك له ، فيضحك الافندية فى أدب ليواصل رئيس اللجنة حديثه : لا يامحترم : القانون يؤكد أنه ليس من حق أى كائن أن يرفع دعوى على الحكومة بسبب نزع الملكية أو تقدير التعويضات . الدعاوى ممنوعة !

ويسود الهمس والهمهمة ثم تعلو الاصوات فيهز غطاس أنامله فى

وجوههم محذرا : ٠٠ اسكت يامحترم ٠ استمع لكلامى أفيد لك ، لكنهم لم يسكتوا بل صاح صوت ٠٠ فماذا نفعل اذن ؟ يا ٠٠ يا محترم من حقكم أن تتظلموا ٠ عشرين مرة وأنا أردد هذا الكلام ٠٠ نعلم فى المتبلم٠

وسكتوا موقنين أنه ليس أمامهم الا أن يحرروا التظلمات كما فعلوا من قبل ، وأن ينتظروا الرحمة من السماء واعادة التقدير من المستر هيس ومهندسيه ٠ وبدا التذمر واضحا على وجوههم ، فركب الخوف كل الافندية فعادوا أدراجهم ، وتلكأ العمدة يطالع وجوه الناس ، ويتركهم يطالعون وجهه ، ثم تبع الموظفين فى خطى مسرعة ٠

وأحس الناس أنهم يغوصون فى اليم عند دوامة هائلة لا تلوح لهم فيها حتى قشة تافهة يتعلقون بها ٠ أحسوا انهم تائهون فى صحراء لا نهاية لها ٠ صحراء من الأحاجى والألغاز والأرقام وبنود القانون ومختلف اللجان ٠

ولحق سيد وابور بالافندية عند مصطبة أخرى ، ووقف يستمع مليا الى أحاديثهم ، ثم هتف بالناس : اذن فليس أمامنا الا أن نعتصم أمام اللجنة ، ونرفض صرف التعويضات ٠٠ وفى انتظار ذلك علينا أن نغرق اللجان ورجال الحكومة بتظلماتنا ٠

فهز غطاس بيه يده محذرا ، ثم بارح المكان الى مصطبة أخرى ، ونشط المحامى ورفاقه فى هذه الايام فكتبوا التظلمات ودفعوا بها الى أسوان والجيزة ٠ وأخذ بدر أفندى يحل فى هذه القرية أو تلك ٠٠ ساعة يحرض الناس على مقاطعة الصرف ويكتب لهم نماذج جديدة للتظلمات ٠

وجاء يوم كانوا يتوقعونه ، وفيه بينما الرجال يعودون بأبقارهم وفئوسهم متجهين من الغيطان الى السفوح الشرقية فى غبش المساء ، دوى صوت فى النجع ينادى عليهم : يا أهل الزينية يا أهل الزينية ! فركزوا الفئوس على الارض وأصاخوا السمع : يا أهل الزينية٠ ثلاثة أيام وبعدها، فى يوم السبت اذهبوا جميعا الى بيت العمدة ٠ وماذا سيكون فى بيت العمدة ؟ كانوا يعرفون الاجابة ، لكنهم كانوا يتساءلون على اجابة أخرى تنحدر اليهم من السماء ٠ وظل الصوت يتردد فى النجع : من يوم السبت صباحا ستبدأ اللجنة فى صرف التعويضات ، فانطلق السؤال يتصاعد الى الأدمغة ، انفجر كما ينفجر البركان : أنقاطع أم نصرف التعويضات ؟ نصرف ونتكل على الله ! لا يا ابن الكلب نمتنع ٠ انت يا داريا لن تصرفى قبل أن يعود جمال فاسكتى ٠ اياك يا عبد الله ، اياك أن تفعلها ٠٠

صبرك بالله ٠٠ ما هى الا أيام حتى تقبل الحكومة زيادة التعويضات !

وخرج الشيخ فضل من بيته بعد أن سمع النداء ، وأخذ يدب بساقه الخشبية فى الدروب ، يطرق باب كل بيت ، ثم عاد وتربع فى الساحة الممتدة بين المتجر والشونه ينتظر حتى أقبل الناس عليه ، فطفق يشرح لهم أهمية مقاطعة اللجنة ٠ أعرف أن الجوع كافر ، لكن فى امكاننا أن نصبر أياما ٠ الديون ! سينتظر الشيخ أمين عليها ٠٠ لا تخافوا ٠ الحكومة لن تعتقل أحدا الا اذا كان وحده ٠ وماله ؟ السجن للرجال ٠٠ وهل يضيع حق وراءه مطالب ؟ امتنعوا عن الصرف وسيتم كل خير باذن الله ٠

وهز الناس رءوسهم هزات اعتبرها فضل « رضا » وسر لها برعى الذى توقف عن كتب يراقب خاله فى اعجاب وزهو ٠ وكاد المجلس ينفض الا أن المأذون انبرى يقول : ولماذا لا نقرأ الفاتحة على ذلك ؟ فوجم البعض الا أنهم رضخوا فى نهاية الامر ، ووضعوا مصحفا كبيرا ركزوا أكفهم عليه، وقرءوا الفاتحة وأقسموا ألا يصرفوا الا معا ؛ وتمتموا : آمين ٠ الا أن عبد الله الجزار تلكأ ٠٠ ثم وجد العيون تحدق فيه فقال : آمين فى صوت خافت ٠

٣٦

وهذه هى دار العمدة ، فسيحة يترامى خلفها بستان تهتز فيه أشجار النخيل وتنمو بعض الخضر تحت سيقانها ، وفى محاذاة الجدار المقابل للطريق العام تجرى مصطبة عريضة ترتفع عن الأرض ، وتطل عليها أربع نوافذ ، ينفذ منها ضوء الشمس الى الدهليز خلال الجريد المتقاطع ٠ ثم الى غرفة السلحليك ومعه نسمات رطيبة تهب من الحقول عبر الطريق العام ٠

وثمة تعديلات أدخلت على الدهليزين ٠ فقد أعدا كمكاتب للموظفين ترفرف عليهما ستائر خفيفة أخذ الموظفون يطلون من خلالها على الناس ،

ستائر تحجب فى نفس الوقت نظرات القرويين عنهم ٠٠ والأرضية فرشت بسجادتين عريضتين ، وتحت النوافذ مباشرة ، ومن حولها رصت مكاتب وكراسى للموظفين ، أما غرفة السلحليك فقد قسمت الى مكتبين خصص أحدهما للخزانة ، بينما اتخذ غطاس بيه من المكتب الثانى مقرا يدير منه أعمال لجنة التعويضات ٠

وعلى المصطبة الخارجية ، وفى غرفة الخزانة عساكر يقفون على أهبة الاستعداد لتفريغ رصاصاتهم فى صدر كل من يحاول الاقتراب من الخزانة الثقيلة ، أما الخفر فقد ارتدوا جميعا ، منــذ جاء الموظفــون ، ملابسهم المضحكة كاملة ، يمر عليهم العمدة وشيخهم ، وبعض مشــايخ الحصص يأمرونهم بالسهر على راحة الغرباء ، ويبعدون عن الضيوف جموع الناس التى بدأت تطل فى دهشة ، وتلح فى السؤال عن المصير الذى ينتظرهم ٠

العمدة ومشــايخه يحسون بالحرج ، فهم وكلاء الحكومة ورجال الضبطية والمــكلفون بأمن اللجنة وموظفيها ، وعلى عاتقهم اكرام وفادة الغرباء ، ومواجهة أهل القرية لتنفيذ أوامر ضابط صغير جاء من المركز ليلقى أوامره هنا وهناك مزهوا بشبابه ، قليل الخبرة بعــادات الناس وتقاليدهم ٠

العمدة والخفر والمشــايخ من رجال القرية ، نبتوا وعاشوا فيها ، يعرفون كل الناس ويدركون المصير الذى ينتظرهم والناس ٠ أراضيهم وقبور أجدادهم ذات الشواهد الحجرية البيضاء ستغوص فى اليم كمــا تغوص أراضى الآخرين ! ويكنون مثلهم المشاعر نفسها حيال الموظفين ، وما دام الناس يجأرون بالشكوى من التقديرات المجحفة لتعويضاتهم فان العمدة والمشايخ جديرون مثلهم بالشكوى ، وان كانوا فى الوقت نفسه يدورون حول الموظفين فى خبث ، ويولمون لهم ويسهرون على راحتهم ٠

استدعى العمدة « عبده بتيت » ونفرا من الرجال عمــلوا فى مصر وتقاعدوا فى البلد منذ سنين ، ورجاهم أن يشرفوا على راحة رجال الحكومة، فمضى واحد يعد لهم طعاما شهيا يتفنن فيه ، وراح آخر يعد لهم شرابهم ٠ قهوة وشايا ٠ بينما انبرى آخرون يخدمونهم فى المكاتب ، ورغم ذلك فان العمدة حائر ، وخليق به أن يرفع يديه الى السماء أن تنقذه من الورطة التى تردى فيها دون ذنب جناه ٠ فمنذ أيام كان قد عبر المنحنى الى الدر عن طريق الجبل ، واجتمع بين لفيف من عمد القرى الاخرى «ببدر افندى» الذى حدثهم طويلا عن الطوفان والتعويضات ، وتعســف حكومة صدقى باشا فى تقديراتها ٠

وطاف بهم الحديث فى كل مدار الى أن طلب منهم الرجل أن يقسموا قسما لا يرجعون فيه : أن يتركوا الناس أحـرارا فلا يضغطون عليهم ان لم يحضوهم على مقاطعة لجان الصرف مقاطعة كاملة ، حتى تتخذ الحكومة موقفا عادلا يرضون عنه • والرجل كان لبقا ، فأدار الحـديث فى فطنة لمعرفته بظروفهم ، فلم يشر عليهم ولو من طرف خفى ــ بالامتناع عن صرف تعويضاتهم الا أن أحد العمد بدا أثنـاء القسم والحديث كله متململا ، يتحرك كثيرا فى مجلسه ، وينفث دخان لفافاته فى عصبية ظاهرة ، وحين حانت الفرصة رفع صوته يسأل ، وهو يطرق برأسه الى الارض :

ــ ولكن يا أستاذ بدر • لامؤاخذة لو سمحت لى يابدر افندى •

واتجه بدر أفندى اليه فى اهتمام وواصل الرجل حديثه :

ــ وماذا نفعل نحن العمد ؟ أنقاطع الصرف أم نقبـل عليه ؟ فانك سيد العارفين بأوضاعنا ؟

ويبدو أن بدر أفندى كان يعرف الاسباب التى حملت الرجل على مثل هذا التساؤل ، فصمت طويلا وهو يدير حبات مسبحته ، ويحدق فى عيون الآخرين ليقرأ فى بريقها لهفة لسماع رأيه فى المعضلة التى يواجهونها • ثم مر بأنامله على شاربه المدبب فى حيرة ومس رباط رقبته ، ومضى يتكلم فى صـوت هادىء رزين : اتبعوا ضمائركم • والناس على دين ملوكهم ، وخصوصا بعد المجاعة والجراد ، وانخفاض أسعار البلح كما تعلمون ، فهزوا رءوسهم معجبين بالرجل الذى لم يؤثر السجن فيه ، وأحسوا أنه مثلهم ــ معرض للأخطار نفسها ، بل ان الحكومة قد تنتزعه من وظيفته التى تدر عليه مالا لا يستهان به ، وقد تقاضيه الحكومة وترسله الى الليمان كما فعلت بحسين طه منذ شهور ، وهاهو رغم ماكابده ورغم المرض الذى يعانيه يتحدث اليهم فى حماسة ، ويتنقل من قرية الى أخـرى يحرض ، ويشعل نار المقاومة فى أناس يعرف أن الجوع يهز قواهم ومقاومتهم • انه رجل عجيب ، ولذلك فانهم عاشـوا فى تلك اللحظة يرمقونه فى اعجاب واشفاق موقنين أنه لا يعمل لمصلحته بل لمصلحتهم جميعا ، فاستداروا الى وجوه بعضهم يطالعون فيهـا شـيئا يريدون أن يتأكدوا منه ، ثم هزوا رءوسهم وكأنهم قد وافقوا على كل كلمة قالها الرجل • ثم نهضوا بعد ذلك يعبرون الطريق العام ، ويجتازون الجبل الى قراهم ، وعلى وجوهم ترتسم امارات تشير الى أنهم سوف يتصرفون وفق ما أوصاهم الأستاذ به •

وليس عليهم الا أن يوعزوا للناس تلميحا دون تصريح ، مع الاندفاع

فى تكريم الموظفين حتى لا يظنوا بهم الظنـــون • ولقد أدار بعضـــهم على المصاطب ، وفى هدأة الليل ، أقراصا سوداء تهدل مثلما يهدل الحمام : عصفور حصان للولد • الحزمة بمليم يادرة •• خذينى باليمين •• باليمين أنا راقد شمال •

وبرغم ما أحس به من راحة ازاء ضيافته وباطمئنان الموظفين فقد بدا العمدة واجما وهو يواجه من فوق مصطبته جموع الناس الذين ربضوا بعيدا عن الدار ، عبر الطريق يحملقون فى رءوس الموظفين المرتسمة على ستائر النوافذ •

وطاف المنادي بالنجوع مرة أخرى ليلة الأمس ، وتعالى صوته يطلب من الناس التوجه الى دار العمدة عند مشرق الشمس ليصرفوا تعويضاتهم • وظل العمدة موقنا ، مثل غطاس بيه وموظفيه ، أن أحدا من النجوع لن يمس عتبة الدار •

ولكنهم جميعا رجالا ونســـاء وصـــغارا كانوا هنـــالك منذ بزوغ الشمس ، لقد وفدوا لا من نجع واحد بل من جميع النجوع راجلين أو راكبين •

وتساءل العمدة : ترى لماذا أقبلت كل هذه الجموع ؟ ولماذا يتجمعون هنالك عبر الطريق • لماذا جاءوا يفترشون الأرض كأنما هم فى مأتم •• ولا يقتربون ؟ لماذا يربضون هناك مثل القطيع صامتين كأنهم سيعيشون هنالك الى الأبد ؟ أتراهم يخافون من الغدر ، ان يحنث أحدهم بالفاتحة التى قرأها على المصاطب فيخترق سياج المقاطعة ؟

وفى اللحظة نفسها أطل غطاس بيه من النافذة ، وألقى نظرة عجلى على الجموع ، وعاد بطرفه الى التلغراف الذى ورد له ليلة أمس ، أسرعوا فى الصرف • انتهوا منه فى أسابيع فتوترت أعصابه ، وسب ولعن خاش الصرف والدنيا وهؤلاء السود الذين يحرنون كما تحرن الحمير • أدمغتهم مصفحة ، أدمغة من حجارة لا تلين • ولكنه رغم ذلك يأمل أن يتقدم مخلوق واحد ، مجرد انسان ولو كان كسيحا ليكسر النحس ويصرف تعويضاته ، وحينذاك ستدور العجلة فيتدفق الناس • ولا يستطيع أحد الوقوف فى طريقهم • وانتشى من هذه الخاطرة ، وابتسم لنفسه ، ثم عاود النظر الى الجموع ، واعتمد رأسه بين راحتيه وأغرق فى التفكير • ترى ماذا تفعلين وحدك الآن يانرجس فى مصر ؟ مسكينة ، وماذا تفعل أمك ؟ هيه هؤلاء الكلاب السود • ثم حانت منه التفاتة الى الخزانة التى كان قد فتح بابها

منذ لحظات يطمئن عليها ، فومضت الأوراق الخضراء الجديدة فى عينيه • وواتته فكرة قام على الفور لينفذها ، فمد يده الى رزمة كبيرة من الأوراق الخضراء ودفع بها فى جيب معطفه ، واندفع يعبر الطريق ، وعلى جانبيه الضابط والحرس يتبعهم العمدة فى وقار ، اندفع حتى دنا من الجموع ، فتوقفوا عن اللغو الذى كانوا فيه منذ الصباح ، وهبوا الى أقدامهم ، واستداروا بعيونهم الى موكبه الصغير ، ثم توسطهم الرجل ورفع يده اليمنى فوق رأسه وحيا ، فردوا بهمهمة غامضة لم يفهمها لكنه شرع يتحدث : « نحن هنا يامحترمون لخدمتكم ، جئنا الى بلدكم النائية هذه لنكون تحت تصرفكم ، فلماذا لا تتكرمون بتيسير مهمتنا ؟ ! لنا ياجماعة أولاد مثل أولادكم الصغار يتلهفون على عودتنا ، واذا تغيبنا طويلا طال شقاء هؤلاء الصغار اذ يقلقون على مصيرنا ، أنتم تعرفون لوعة الغريب على أولاده ، لماذا تنظرون الينا فى غضب ؟ نحن لسنا الا موظفين مثل أبنائكم ، نأكل عيشنا بالعمل ونعيش كثيرا حياة الغربة •

وصمت بعد أن مس وترا داميا فى قلوبهم ، بعد أن ذكرهم بأبنائهم المغتربين والذين لا يعودون ، فأصاخوا السمع لمزيد من كلماته مشفقين عليه : التعويضات سخية وليست مجحفة ظالمة كما يشيع البعض •• اسألوا حضرة العمدة •

وأشار الى الرجل باحترام ، فهز هذا رأسه علامة الموافقة ، وتريث حتى استدار غطاس بيه ليواجههم ، ويغمز لهم بعينيه : لا تصدقوه ، اياكم أن تصدقوه ، بينما عاود الرجل حديثه فى بطء وثقة أكبر ، الا أن الرجال عادوا واجمين لا يســـتبين الرجل على وجوههم أثرا واضحا لكلماته ، أنظروا الى هؤلاء الموظفين ، كثيرون منهم يتقاضون ستة جنيهات وأقل ، تعويض عشرة أو خمسة عشر نخلة ! وأياديهم هى التى ستصرف لكم مئات الجنيهات مقابل هذه الأشجار وهذه البيوت الطينية وشرائح الأرض الصغيرة التى تكدحون فيها ، وأشـــار بيده الى البيوت فى غير احتفال ، فسرت همهمة فى الناس وبدا الغضب على وجوههم الداكنة ، وأحس الرجل أنه قد مس جرحا فى قلوبهم ، فعدل من لهجته الساخرة ، ومضى يحدثهم من جديد فى لهجة ودية جعلتهم ينصتون اليه ، ويحدقون فى وجهه فاغرى الأفواه ، وقد ازدادت عيونهم لمعانا فى اللحظة التى قرر الرجل فيها أن يخاطب جوعهم فدفع بيده فى جيبه ، وعاد بها تحمل رزمة الأوراق المالية الخضراء ومضى يفرها أمام عيونهم ، أوراق جديدة لامعة ، ترسل حفيفا مثل حفيف أوراق الأشجار ، مغرية وجميلة ، تنفذ الى

قلوبهم وأدمغتهم الحائرة ، فالكثيرون منهم ، الا الذين عملوا سعاة في البنوك ، لم يروا طوال حياتهم كل تلك الأوراق الخضراء الزاهية دفعة واحدة • لقد اعتادوا المقايضة ، كيلة بلح بكيلة ذرة وعشرون مترا من الدبلان بعشرين كيلة من التمر • أما العملات الفضـــية القليلة التي يحصلون عليهـا من أولادهم فقد اعتــادوا أن يودعوها في سحاراتهم لا يصرفون منها الا عند الحاجة الماسة ، وهاهم يشاهدون فجأة رزمة كبيرة من الأوراق المالية الخضراء الزاهية وخيل لهم أن في وسعهم أن يشتروا بها الدنيا كلها ، فلماذا لا يطيعون هذا الرجل ؟ •• لماذا لا يصرفون ؟•• نفس السؤال الذى تردد في أدمغتهم •• ينبعث في هذه اللحظة ، وينفجر في صدورهم ورءوسهم • وأخذت حناجرهم تتحرك ، وراحوا يتبلعون دفقات اللعاب التى سالت حيال المشهد الجميل الذى ترقرق في عيونهم •

وراحت داريا التى لم تقع عيناها في يوم من الأيام على ورقة خضراء كاملة ، راحت تهمس :

ــ وونور ••• يارب ••• كم هى كثيرة ؟ •• وونور !

ولكزها الشيخ فضل ، وقال فيما يشبه الهمس : اختشي ياوليه • لا تفضحينا ، فغضت من نظرها ، وانزوت في ركن تجتر أحزانهــــا وأحلامها ، وتفكر في جمال ورسالته فمتى يعود هذا الولد العاق ؟!

ويكاد عم نوح يندفع من بين الجموع ، ليختطف الاوراق الزاهيــة لولا نظرات العمدة والضابط والحرس الذين أحاطوا بغطاس بيه ، فاستكان وأخذ يبتلع ريقه في سكون ، ثم مضى يجتر ذكريات حياته القاسية • انه مازال يذكر أنه دفع لأهل زوجته مهرا خمسة أرادب من القمح ، وأنه تقاضى مهرا لابنته الكبرى التى ماتت عشرة أرادب •• كما أنه لا يتوقع أن يتلقى مهرا لابنته الصغيرة مندوهة أكثر من ذلك • فلماذا يعزف اليوم عن صرف التعويضات ؟ وارتفع صوته فجأة من بين الجموع وهتف :

ــ اتركونا ياناس نصرف تعويضاتنا ونستريح •

وأراد أن يواصل هتافه الا أن المأذون ــ الذى كان قريبا ــ مد يده وأغلق فم الرجل ، وقاده بعيدا بين نظرات مستنكرة وأخرى حائرة الى مكان قصى •

ولاحظ وابور ، الذى أقبل منذ لحظة ، أن غطاس بيه يكاد يمســك بناصية الناس ، فقرر أن يتحداه ، ولا سيما بعد أن سمع العمدة يهمس بالنوبية للواقفين من حوله ماراجارا ••• « كذب » •• لا تصــــدقوه

فتقدم خطوتين الى الامام وتوقف على مسافة قصيرة من رئيس اللجنة وقال في صوت محموم :

ـ تسمح يا غطاس بيه ، كم تبلغ كل التعويضات ؟!

ـ تعويضات بلدتكم كبيرة وافرة والحمد لله ٠

ـ أريد أن أعرف تعويضات كل القرى فى اجمالها ٠

ـ ومن أدرانى يا محترم ؟ اظن أنها تبلغ حوالى ٨٠٠ ألف جنيه ٠

ثم تقدم واجتاز « وابور » ومضى يلوح بالأوراق المالية أمام عيون الناس ٠٠ الا أن « وابور » لاحقه : وهل هذا مبلغ كبير ؟ ، فاستدار الرجل اليه وصاح : ياهوه ٠٠ مليون جنيه ! لو كانت لى لبنيت قصرا فى الاسكندرية أنزل فيه صيفا وآخر فى أسوان أنزل فيه شتاء تماما كما يفعل البارونات ، ثم وجه كلامه الى وابور ٠

ـ مليون أو ٨٠٠ ألف جنيه يامحترم قـــدر ميزانية امارة شرق الأردن !

وهمهم الناس : شرق الأردن ! ماهى شرق الأردن هذه ثم ماذا تريد أن تقول ياوابور ؟! فضنا من هذا الحديث ٠ غطاس بيه مازال يقول : مبلغ كبير ثم تمتنعون عن صرفه وأخشى أن تحس الحكومة بأزمة مالية ، بعجز فى الميزانية ، فتقتطع من تعويضاتكم والاشاعات كثيرة ولا يدرى الانسان ما الذى يأتى به الغد ٠ وبدأ الناس يزومون ، بينما انتهز وابور الفرصة وقال :

ـ وكم نخلة سجلتها الحكومة ؟ سجلت مليونا وسبعمائة ألف نخلة ٠ تعالوا نعمل حسبة وسنجد أن النخلة لم تقـــدر الا بعشرين قرشا ، ذلك اذا تركنا البيوت والأطيان جانبا وقبور آبائنا وأجدادنا كذلك ٠ ثم واجه غطاس بيه ومندوب المساحة الذى ترك المكاتب منذ لحظة ليقف الى جـــانب رئيس اللجنة وصرخ : معنى هذا أن الحـــكومة تسرقنا !

ـ تسرقكم ! كيف تسرقكم الحكومة يامحترم ؟ ألا تعرف أنك تشتم الحكومة ؟ ٠ أخشى أن يغضب حضرة العمدة ٠ أخشى أن يغضب حضرة الضابط ٠

وهنا أحس العمدة بالتهديد ، فاندفع حتى تجاوز رئيس اللجنة

وأولاه ظهره .. ومضى يخاطب الناس بصـــوت أجش ، عميق آمر : انصرفوا الآن . وأضاف ، باللغة النـــوبية : لا تحرجونى أمام هؤلاء الأغراب .

فعادوا جماعات ومتفرقين يتواعدون على اليوم التالى ، ويغرقون فى دوامة الحيرة والارتباك ، فقد أسالت الأوراق المالية لعابهم ؛ بينما كلمات وابور ألهبت عقولهم بسياط من نار : النخلة بعشرين قرشا اذا ماحسبنا البيوت والاطيان خارج العملية كلها .. ياللظلم !.

وانكبوا فى الليل يتجسسون على مقر اللجنة ويكتبون الشـكاوى والتظلمات .

وجاءت داريا الى المتجر وقد ربطت حول رأسها عصابة سميكة تتوجع وتشكو من الصداع ، وتتردد فى ذكر ما جاءت بسببه ، ولأول مرة منذ شهور طويلة تنازل أبى عن لهجته القاسية ، وتودد اليها ، فلم يطالبها بديونها !

فعادت وهى تحمل الشاى والسكر اللذين جاءت فى طلبهمـــــــا ، ومدت يدها فى طريق العودة وفكت العصابة السميكة من حول رأسها كأن الشاى وملمسه قد بعثا البرء فى جسدها .

***

وجاء رئيس لجنة المساحة فى رفاص وأرغى وأزبد .. وعاد بخفى حنين ، وأعقبه مأمور المركز فعاد حتى بدون هذين الخفين ، ثم رسا رفاص آخر نزل منه مدير المديرية ، وتلطف مع الناس فتلطفوا معه ، الا أنه لم ينل غير وعود أبرق بها الى مصر ، ثم جاءهم النائب على بك أبو زيد ، جاء وقد علق على صدره النياشين التى منحها له الحاكم العام فى السودان قبل أن يحال الى المعاش ويعود الى مصر لينضم الى حزب الحكومة فيكون نائبها عن الدائرة . ولم يعرفه الناس بل مضوا يتهامسون : من هذا ؟ فأسر اليهم السفرجى باشا : ألا تعرفونه ؟! انه على بك أبو زيد . ولأمر غاب عن ذهنه وجدهم الصدر المرصع بالنياشين حين وقف أمامهم بقامته الطويلة وجسده العـــريض وشـــعره الأبيض الوقور اللامع من تحت طربوشه واجمين ، يستقبلونه فى فتور ، ولا صوت الا ذلك المنبعث من ضجة الخفر والجنود ، وترحيب العمدة والمشايخ . وتنحنح الرجل ، ورفع يده بالتحية فاستجابت لها همهمة خافتة أحس بها ثم تكلم : يا أولادى .. سمعت أنـــكم ممتنعون عن صرف التعويضات . ويشـــيعون أننى لم أساعدكم ، أننى لم أقف الى جـــانبكم . والحقيقة أننى لا أحب الكلام

الكثير • فقد تركت ذلك للشبان • الحقيقة أننى أسوى ليكم من تحت تحت •

ووجد الناس صامتين ، يديرون عيـــونهم فى وجهه ، فتلعثم ثم قال : دولة الرئيس يحب النوبيين ، ولـــولاه لكانت التقديرات أقل بكثير • حكومته تعطف على أولادها النوبيين ، ولا تسمح بانزال أى ظلم بهم • انها أعدت لكم أراضى فى « الرديسية » وفى الطود ، وفى دراو وكوم امبو وطلمبات رى هنا اذا ما أقمتم ولم ترغبوا فى الرحيل •

واستمعوا اليه فى أدب وصمت ، فأحس الرجل أنهم راضون ، فاسترسل فى كلماته ذات اللهجة السودانية حتى أوفى على غاية كلامه ، وأخرج منديلا حريريا يمسح به جبينه ، وعيناه تتفرسان فى وجوههم ، ثم زاموا وغمغموا – ولكنه ، برغم الغمغمة ، استمع الى كلمة واحدة تتردد ، سؤال واحد ألقاه المأذون وبرعى فتتردد بسرعة : أين حسين ابنك ؟ وكيف تبرأت منه ؟ • فغضب ، ولكنه تجاهل الأمر ، واستدار ومعه مرافقوه ، وانصرف الى دار العمدة ليرحل الى غير رجعة •

فشلت كل المساعى ، ودب اليأس فى قلب غطاس بيه • وفى قلب مندوب المساحة والموظفين فأخذوا يزجون فراغهم بالتندر على النـــاس ولعب الورق ، وهم يتطلعون الى الخارج عبر النافذة عل واحـــدا منهم يقترب ويخترق سياج المقاطعة •

وقد خيل لغطاس بيه فى احدى الليالى – فى منتصف الليل – وبعد أن آوى الى فراشه أنه سمع أصواتا تتهامس تحت شباكه مباشرة ، فأصاخ السمع ، ولم يتبين الا اسمه يتردد بين كلمات نوبية كثيرة لم يفهمها ، ثم ارتفع صوت العمدة ينتهر امرأة راح صوتها يتهدج ، وكلماتها تختنق بالدمع ، فقفز من العنجريب الى الارض ، والتف بعباءته ، وفتح الباب ، وخرج ليكتشف الأمر بنفسه ، فاصطدم بالعمدة عند المدخل العمومى متجهما يغمغم لنفسه بكلمات لم تصل الى مسمعيه •

ووقفا وجها لوجه برهة من الزمن • فالرجل قـــد بدأ يشك فى العمدة • وخيل له فى اللحظة التى التقيا فيها أن امرأة ما جاءت لتقابله هو فى الليل ، لأمر يتعلق بالتعويضات • وأدرك بغريزته أن العمدة قد حال بينها وبينه ، فتميز غيظا ثم همس فى صوت مستريب : أين تلك السيدة ؟ •

وبانت الدهشة والارتباك فى الوقت نفسه على وجه العمدة ، لكنه قال :

ـ سيدة ! وكيف تأتى سيدة الى بيتى فى منتصف الليل ؟ عيب. ليس فى البلد امرأة واحدة تلاقى غريبا فى منتصف الليل .. ولا يجب أن يسمع أحد فى البلد مثل هذه الكلمات من رجل كبير المقام مثلك ..

فأحس غطاس بيه أنه قد تورط فى أمر يمس تقـاليد الناس ، وشعر بمكر العمدة فانسحب معتذرا عما بدر منه .

وتريث العمدة حتى أيقن أن الرجل قد عاد الى مرقده ، وتسلل خلف داره ليجدها هناك تبكى فى صوت مكتوم ، وقد وقف على رأسها شبان يهدئون من روعها ، ثم راحت تقول فى صوت خافت حالما رأته : جمال لن يعود يا أحمد حسين ، وأشارت الى العمدة الذى انحنى عليها وقال : عودى الى بيتك ياداريا فلن يصرف تعويضاتك أحد غير جمال . وسوف أرسل له ، والغريب عيب أن تلجئى اليه . كيف سمحت لك بنتك أن تأتى فى منتصف الليل وحدك ؟ ..

ـ تركتها نائمة وتسللت ، فربما رق الرجل لدموعى وصرف لى.

ـ كيف تصرفين والناس جميعا لا يصرفون ياولية ؟

ـ اننى جائعة . جـائعة . والديون تتراكم على رأسى يا أحمد حسين .

وأضاف شيخ الخفر : حرام عليـك ياولية ، لولا أن رآك حضرة العمدة قبل أن تطرقى على الشباك لكانت الفضيحة . امرأة تقابل أفنديا فى منتصف الليل !!! لو كان جمال هنـا لما فعلت ذلك .. اياك أن تحضرى هنا مرة أخرى .. لا نريد أن نراك هنا أبدا الا يوم نستدعيك . فهمت أم لم تفهمى يامجنونة ؟ ..

فقالت فى صوت متشرخ :

ـ فهمت ، ومادام العمدة سيرسل الى جمال ليعود ، فليست بى حاجة الى مقابلة الغريب .

وقامت تنصرف الا أن العمدة استمهلها ، وأشار الى ابنه ، وأسر فى أذنيه بكلمتين أسرع الفتى بعدهما الى الداخل ، وعاد ومعه الجارية تحمل على رأسها كيلتين من الذرة أسلمتها لداريا وقال العمدة :

ـ عودى الى اذا ما انتهيت من الكيلتين ٠

وتأبت داريا قليلا ، ثم انصرفت فى ظلام الليل وقد حملت هديتها على رأسها بعد أن أكدت للعمدة أنها ستسدد حين التعويضات ، وتسللت الى بيتها ، وفتحت الباب لتجد ابنتها تتلفت هنا وهناك مذعورة حتى أنها هبت تستعيذ من الشيطان حين سمعت صرير الباب ، فأدركت داريا مخاوف ابنتها فقالت : لا تخافى ياشريفة ، أنا داريا سكينة ٠

وتفرست الفتاة فيما تحمله أمهـــا ، وغرزت يديهـــا فى الذرة ، ووجهت الى أمها نظرة متسائلة ، وقصت عليها الأم ماحدث خلف دار العمدة ، فلوت بوزها وهى تغمغم : آخر الزمن أصبحنا شحاتين ٠٠ لهفى عليك يا أبى ٠٠ لهفى عليك ياجمال ٠ افتضحنا ٠٠

وراحت تنشج وتلطم خديها ، فانبرت الأم تخفف من لوعة الابنة الباكية :

ـ وماذا نفعل ياشريفة ؟ تزوجى البسطاوى !

فارتجفت الفتاة ، وانكفأت تبكى حظها العاثر ٠ ولاح لها برعى وهى لا تدرى أنه قد شهد ماحدث لأمها من مكان قريب ، وقد امتلأ قلبه بالخزى ٠

وراحت تبكى حتى أغفت ٠ وفى الضحى كانت عنـــد بطة تشكو همومها ٠٠ فقد أصبحتا صديقتين لا تفترقان ٠ وقد ازدادت الألفة بينهما منذ بدأت بطة تعد ثياب زفافها تساعدهما سعدية ٠

وقضين اليوم كله يحكن الثيـــاب ، ويخضـــــن فيما كان الرجال يخوضون فيه ٠ تكلمن عن الطوفان فى سذاجة ، وعن النخيل وشباب النجع ، وانبرت سعدية ، التى اشتهرت بلسانها المسحوب الطويل ، تقول :

ـ وابن عمك يابطة ٠ هل رأيته ؟

ـ كلا ياسعدية

ـ غريبة ٠ تتزوجينه دون أن تعرفيه ؟ ٠٠ وماذا تفعلين اذا ما اتضح لك أنه عجوز فى سن أبيك ؟

ـ وهل ترفضين اذا ما تقدم لك ياسعدية ؟

ـ أنا لا يكفيني عجوز ، أنا لا يكفيني الا شاب قوى مثل الثور ، شاب سرح ، شارب من بز أمه ، أو من ماء البحر وهو نائم !

وترددت لحظة ثم قالت وهى تحدج شريفة بنظرة جانبية : شاب مثل برعى ! •

فأحست بطة بالحرج وقالت بسرعة : أو مثل البسطاوى • علاقتكما يا سعدية معروفة أما برعى فهو لغيرك • لا تكونى طماعة ••

وضحكتا بينما لزمت شريفة الصمت • فهى حانقة على سعدية منذ تحويشة الجزار ، منذ حديثها عنها وعن أمها مع البسطاوى •

والتفتت بطة اليها بوجه باسم وراحت تداعبها : مالك حزينة ؟ أتفكرين فى برعى فقالت الفتاة بسرعة : أصابك الله بالعمى قبل زواجك • لماذا تخطرفين بهذا الكلام الذى لا فائدة فيه ! أنا لا أفكر فى أحد • غيرى أولى بالتفكير •• موتى أنت من شدة التفكير فى حسنين •• أهو عجوز أم هو شاب سرح مثل الثور أم صغير نحيل !

وأدركت سعدية أنها تعرض بها فتجهمت وأرادت أن تثور ، ولكنها خشيت أن تفضحها شريفة بقصة التحويشة وتصنعت أن الابرة قد انغرزت فى اصبعها وراحت تتأوه وتمص اصبعها بين شفتيها ، لكنها لم تملك نفسها رغم ذلك بل مضت تقول : ربما كان البسطاوى هو الذى يشغل بعض الناس ، فحدجتها شريفة بنظرة قاسية جعلتها تطرق برأسها الى الارض ، حينما راحت بطة تقول : سعدية ، أنت محقوقة •• أنت تعرفين أنها تفكر فيه •• الهى يبتليك بمرض لا تفيقين منه • لماذا تكذبين ؟ انها لا تميل الى البسطاوى ولا تطيقه • فانبرت سعدية تقول : وما له البسطاوى ! شاب سرح • أليس رجلا مثل برعى وحسن المصرى •

فصاحت شريفة :

ـ معلوم • رجل ليس مثله رجال • خصوصا اذا ما حشر جسد واحدة بين جسمه وجذع النخلة فى تحويشة الجزار •

وهبتا واقفتين وكادتا تشتبكان لولا أننى كنت قد فتحت باب الدهليز ودلفت منه ، وفاجأتهما وهما تدفعان بطة التى توسطتهما ، لتتخلصا الى ضفائر بعضهما •

ودخل أبى ورائى ، فعدن الى الصمت فجأة ، وانهمكن فى تطريز

الثياب ، ثم قامت شريفة وانصرفت ، بينما بقيت الأخرى حتى خرج أبى من الباب الخلفى ، فارتمت على صدر بطة تبكى ، وتكذب شريفة وتنعتها بكلمات بذيئة ملأتنى بالغيظ فقلت :

— لا تصدقيها يابطة فانها تكذب · سعدية طول عمرها كذابة ·

فانتهرتنى بطة : فأمسكت بحفنة من التراب ضربت بها وجهيهما ، وعدوت اجتاز الباب العمومى الى الطريق ، ثم الى بيت شريفة أروى لها ماحدث ·· وكيف دافعت عنها ، فانحنت على ، وطبعت قبلة على جبينى وهى تهمس :

— برافو ياحامد ··

٣٧

وفى خضم الأحداث التى عاشتها القرية نزل حسنين فى بيت ابن عمه في النجع · فمنذ أسبوع رست الباخرة التى أقلته من الشلال في « عافية » على الضفة الغربية ، فى مكان لا ينأى كثيرا عن كران نوج · ومنها عبر النيل على مركب شراعية بيضاء ، رست به عند النتوء الشرقى ، فاستقبله رجال النجع وحملوه فى زفة كبيرة لينزل ضيفا مكرما علينا ، وليستقر فى بيت ابن عمته صالح ·

طويل القامة ملء الجسد لامع الســواد · وسيم الطلعة الى لونه الأبنوسى البارق · يهش ويبش فى وجوه الناس ولا يبخل عليهم بنكاته ونوادره · فهو يتمتع بموهبة نادرة فى التعرف على الناس والتودد اليهم· يستدير به الناس دقائق ، ولا ينهضون الا واثقين أنهم أصدقاؤه منذ عشرات السنين ··

عاش فى القاهرة طويلا يعمل فراشا مع أبيه فى السكة الحديدية ، وتطبع بطباع أهل القاهرة ، حتى انك تحسبه برغم لونه الأبنوسى واحدا

عنهم لا يكاد يختلف عنهم فى شىء · فالمرح يطفو من قلبه على وجهه · ثم يجرى فى لسانه كما يجرى الماء طليقا فى الجداول · يرسل النكتة البارعة فتنتعش القلوب ، وتزول من الجباه آثار الكد والشقاء الذىعاش الناس فى نجعنا يرزحون تحته ·

ولم يكن غريبا اذن أن يصبح حسنين فى الساعات الأولى من وصوله ينبوع سمر لا ينهى · يستديرون به ويسألونه عن مصر أم الدنيا · وعن التعويضات والتعسف فى تقديرها وظلم صدقى باشا ، وهل تجدى شكاواهم أم لا ؟ · فاذا به يحول الساحة الى ضحكات عالية · فقد مضى يقول :

ـ شكاوى ! تطلبون فيها تقديرا جديدا ؟ أتعرفون ما الذى ستفعله الحكومة ؟ ستقدر عود القمح بجنيه كامل · وجذع النخلة بمليمين ·

قالوا كيف ذلك ·· أهى عمياء ؟

والله انها عمياء عمى الدببة · اسمعوا ماحدث لى حتى تصدقوا ·

وقال الشيخ فضل : وماذا حدث لك ؟

قال : أنا وأبى نعمل فى مكتب واحد ، وأرادت الحكومة أن تعرف سن كل واحد منا · وطلبت من أبى شهادة ميلاده · قال : اننى لا أملك شهادة · أما أنا فقد أخفيتها ·

ـ فماذا فعلت الحكومة ·· هل طردتكما ؟

ـ أبدا ·· أرسلتنا كل واحد على حده الى دكتور لتسنيننا ·

ـ عال ·· ريال والتسنين يكون على المرام ·

وأطلق حسنين ضحكة وقال :

ـ وقرر الدكتور أن أبى يبلغ خمسة وثلاثين عاما ·

ـ عال ·· صغروه ·· لابد أنه دفع جنيها كاملا ·· وماذا قال دكتورك ؟

ـ قال ان عمرى خمسة وأربعون عاما !!

وضجت الساحة بالضحك ، بينما انبرى حموى يقول : تستاهل

لابد أنك لم تدفع الا مليما • وقال الجزار : ولعلك أخذت منه بقشيشا ، والله كلامك صحيح على الحكومة : مجنونة أو غشيمة ••

واستدارت نسوة النجع به فى بيت ابن عمته يسألن عن الأزواج والأبناء الغائبين فمضى يلذعهن بنكاته • فملأن الجو ضحكا ناعما نديا • ينبع من القلوب •• وسأل احداهن :

ـ صدرك عال • رغم أن لك مثلا عشرة عيال ؟

فأطرقت برأسها ومضت تشكو من العقم •• قالت :

ـ وعدنى زوجى أن يستدعينى فى مصر ويعرضنى على الحكما •

فالتقط حسنين فرصته السانحة وصاح :

ـ زوجك لاشك هو المعيب •• فقد جرب نفسه ••

ورفعت المرأة حاجبيها تتساءل : جرب نفسه ! يالهفى هل تزوج ؟

ـ كلا لم يتزوج •

ـ فى الحرام ؟

ـ فى الحرام • فى الحلال • كله واحد • أنت مسكينة مع زوجك فهو لا يغطيك كما يجب •

ـ وكيف يغطينى كما يجب ياحسنين •

ـ انتظرينى الليلة فى بيتك فى الحاصل القبلى وأفرجك ••

وراح يقلد ويحاكى التصاق المرأة بالرجل ويستلقى على ظهره بينما انطلقن يضحكن وهن يشحن بوجوههن واصطبغ وجهى أنا بأمارات الخجل فنهضت من مجلسى لكنه عاجلنى •

ـ حامد • تعال هنا •• لماذا تهرب ؟

وأمسكن بجلبابي وأنا أحاول التملص ، بينما ابتسم هو وصرخ :

ــ بلغ اختك ياحامد أننى أحب أكل الحمام المحمر ، ولست غولا يأكل البنات • بلغها أن تكف عن التلصص من ثقب الباب • دعها تحضر هنا • ولن أفعل بها شيئا أمام الناس فهى ابنة عمى •

فأطرقت برأسى خجلا بينما ظل هو يرسل نكاته • ذلك أن بطة اعتادت منذ وصـــوله أن تختفى عن وجهه ولا تراه الا من خلف باب متطلعة الى التعرف عليه ، فانها لم تره قبل ذلك • ولاشك أنها مازالت تذكر الطقوس التى كانت شقيقتها تمارسها فى أيام الخطبة • ومازالت قصة أمينة ماثلة فى ذاكرتها •

وبرغم أننى شعرت بنفور من نكاته فى هذه اللحظة فاننى أحببته ، فأخذت لا أفارق مجلسه أبدا وهو يتنقل من مصطبة الى أخرى ، ويناقش الطوفان بطريقته غير المكترثة •

ودهش الناس حين تعرف حسنين ببساطة على غطاس بيه • فما رآه حتى أقبل عليه يحييه : سلامات • ازيك ياغطاس بيه • واتضح للناس أن « غطاس » هذا عمل فى يوم من الأيام صرافا فى السكة الحديد وأن حسنين عمل فراشا معه فى سوهاج •

وراح غطاس يشكو لحسنين همومه ، فمضى يهون من مشاكله ، ثم تحدث مليا عن نرجس الصـغيرة العفريتة : أنت الذى علمتها الشقاوة يا حسنين • والله انها عفريتة من بطن أمها •

وأصبح من الامور العادية أن يجدهما الناس يتمشيان فى العصارى يتذاكران أيام سوهاج ومباهج مصر ويتندران على النجوع • والناس • ويرسلان الضحكات • والناس برغم ذلك لم يظنوا بحسنين الظنون فانه لا يملك ارضا ولا بيوتا هنا يتفق مع غطاس على صرف تعويضاتها أو يغدر بهم فى سبيلها •

واعتدت أن أدور معه هنا وهناك ثم أعود لاقص على عروسه ومن حولها شريفة وسعدية وبخيتة نكاته ونوادره فيضحكن • ويستلقين على الظهور من فرط الضحك • لكننى برغم كل هذا المرح كانت تعترينى كآبة تدوم لحظة • تعترينى وأنا أفكر فى جدتى التى ماتت منذ شهور فأعتقد أن الناس يغدرون بها بل يتزوجون • الا أن صورتها الأخيرة وهى تحمل بطة على القسم بألا تؤخر زواجها كانت تسرى عنى • فأنبعث من جديد أتحرك وأضحك مع الضاحكين ، وأفكر ؛ حين أخلو بنفسى ،

فى البيت بعد أن ترحل بطة كما رحلت جميلة · انها ستترحل لا الى مكان قريب بل الى مصر البعيدة عنا بعد السماء ·· من الذى سيعيش معى فى البيت الكبير غير أمى ؟ وكيف يمكننى أن أحول بينها وبين نوبات الاغماء التى قد تلقى بها فى النار فتحترق ؟ ·

ودامت السهرة فى بيتنا ساعات طويلة كنت واجما فيها · أفكر فى الذى يحدث أمامى من اعدادات نهايتها أن ترحل بطة وتتركنى وحدى · الا أننى وجدت بعض العزاء فى كلمات خالتى أمينة بابا · كلمات وجهتها الى حسنين ·

ـ أنت تعرف الحال ياحسنين · البنت لا تستطيع أن ترحل معك على الفور ·· لن ترحل معك الا حين يقترب الطوفان ، حتى لا تترك أمها وحيدة فانها صاحبة مرض ·

قال : لتبق معها الى الأبد فأنا لا أريدها بعد الزواج ·

وضحكنا جميعا ولكنه استرسل : لتبق حتى الطوفان · فقد نلت أجازة طويلة وسوف أمدها ، وأنا هنا لتطول اقامتى وأتمتع بها · ولكن مالى أراها دائما متجهمة · أتظن أنها ستتزوج غرابا ؟ · بلغيها يا أمينة أننى أحبها ضاحكة · وتساءلت أمينة بابا : وأين رأيتها ؟ هنا فى البيت من فوق سطح البيت المجاور · كانت تستحم ·

ـ حسنين · كف عن الهذر فى موقف الجد ·· انها ستغضب حقا ؛ والاشاعات ·· ماذا يقول الناس ؟

ـ طيب · طيب · اسكتى فاننا لسنا فى مأتم ··

واسترحت أنا لهذا الحديث فسوف يطول بقاء بطة فى بيتنا بعد أن تتزوج ، ولم تبارحنا وترحل بسرعة كما رحلت جميلة · وألقيت على هذه نظرة جانبية فوجدتها سعيدة مشرقة تتحرك وقد حملت وليدها الصغير فى خفة · تهلك نفسها فى العمل · لا تستريح ولو لحظة واحدة ولا تنجو من نكات حسنين · قال لها مرة :

ـ اذا كان زوجك لا يعجبك · فأنا مستعد للزواج من الاثنتين ،

فتوارت عن ناظريه يوما كاملا ·

وهاهى الشقيقة الكبرى تلعب دور الأم وتزجى الى أختها النصائح فى حنان ، وتحدثها عن مصر كأنما عاشت فيها ، وتقص عليها كل ماسمعته من زوجها عن هذا البلد الغريب ·

وبانت السعادة مرتسمة على وجوه فتيات النجع سعدية • وشريفة• وبخيته يكنسن ويجهدن أنفسهن فى اعداد الشعرية والابريج والفشار وفي الغسل ، وكأنهن خادمات لبطة •

سعدية وشريفة لا تتبادلان كلمة واحدة ولكنهما تتنافسان فى العمل ، ولا تسمحان لبطة أن تمد يدها الى أى عمل حتى مضت تقول :

ــ كتر الله خيركما • انشاء الله سأكون خدامتكما يوم زفافكما •

ورمقتها سعدية بنظرة ساخرة ثم قالت :

ــ معارة •• مثل حسين فيبس • ولماذا ؟ والله أنت معارة مثل زوجك حسنين •• أتريدين الحقيقة يابطة •• لو طلبنى للزواج لارتميت عليه • انه يكبرك ولكنه طويل وعريض • يضحك طول الليل والنهار • ليته تزوجنى يابطة •

وصمتت لحظة تتأمل وجه بطة التى مضت تضحك وأردفت •• أما أنك خدامتنا فليس الا كلاما • فسوف تكونين فى مصر حين أزف هنا الى زوجى •

وانتهزت شريفة فرصة صمتت فيها سعدية وقالت :

ستكونين فى مصر تلفين الملاءة الحريرية على جسدك ، وتستحمين بالصابون « أبو ريحة » وتحت الدش وأما نحن فياعينى علينا • سنبقى هنا نجمع « الجلة » ونشيل التراب على رءوسنا •

وراحت بطة تصرخ : والله •• والله ياشريفة •• أنا سأخدمك وأخدم سعدية في أى مكان • سأرسل لكما هدية من مصر أم الدنيا •

ــ كلا • انك ستنسيننا يا شيخة • فمصر كبيرة • والدنيا تلاهى• ألم ينسنا جمال ؟

وقطبت جبينها فأسرعت العروسة تهمس :

ــ لكن جمال رجل ياشريفة • كل الرجال ينسون وأما نحن البنات فهيهات أن ننسى بعضنا •

وغمزت سعدية بعينيها ، وحركت حاجبيها ، وهزت أردافها فى حركة ذات معنى وقالت :

— أما أنا فلن أنسى أحدا · لن أنسى الرجال · كل الرجال ·· حتى الصغار منهم · أليس كذلك ياحامد ؟ ·

وأقبلت على تداعبنى بينما انفلتت شريفة وبطة تبارحان الفناء · وتعبران الدهليز الى الساحة لمشاهدة تفصيل جلبـــاب أعدته شريفة لاحدى الجارات · وتركتانى وحدى مع سعدية بينما جميلة والأم والخالة منهمكات فى الديوان ··

كنت أنا منهـــمكا أيضا فى تنظيف صومعتى الصـــغيرة ·· فاذا بسعدية التى استدار جسدها فى انحناءات بديعة تمسك بى من الخلف وتدير وجهى اليها ، ثم ترفعنى فى حركة فجائية الى صدرها وأنا أحاول أن أتملص دون جدوى ·

مضت تفرك صدرها بصدرى الى أن غامت عيناها ، وتركتنى فجأة ثم تبسمت بسمة انسان يفيق من غيبوبة ألمت به · وابتعدت عنى بسرعة فى اللحظة التى انبعث فيها صرير الباب الخارجى ·

***

وفى الأيام القليلة التى تلت انقطعت سعدية فجأة عن بيتنا ، وألمت بنا جميعا دهشة حين أعلن فى النجع أن ســـعدية تستعد للزواج من البسطاوى فى نفس الليلة التى ستزف فيها بطة !

وأخذتنى الحيرة ·· ما الذى جعل البسطاوى يقرر الزواج على هذا النحو الفجائى ؟ وهل يئس من شريفة ؟ وما هو احساس شريفة ازاء هذا النبأ الغريب ؟ · ولم تدم حيرتى طويلا · لقد أفضى لى برعى بسرهما وهو يستلقى على مصطبة نخلة من نخلات أبيه · أخذ يرويها فى هدوء بال وعيناه تلمعان ببريق الفوز · ولقد شرع فى روايتها بعد أن سب ولعن الجزار وحموى وأقاربهما الطماعين · تناولهم واحدا واحدا بألفاظ تقذعهم · واتهمهم بالتحايل على الفاتحة ليصرفوا تعويضاتهم · فلقد ضبط حموى يتسلل الى دار العمدة ليقابل الموظفين فانكب عليه الشبان يعنفونه حتى يبتعد عن المكان ·

وجاء دور البسطاوى فأخذ ينعته بالولد البـــايظ الذى لا يجدى فيما يجدى فيه الرجال رغم طوله وعرضه · انه ليس رجلا ··

قلت له : البسطاوى سيزف الى سعدية بعد أيام ويصبح رجلا له

بيت وله زوجـــة بينما أنت ماتزال ٠٠ ولم يتركنى أكمل حديثى بل استشاط غضبا وصرخ فى وجهى : ألا تعلم أننى لو أردت الزواج من سعدية لتزوجتها منذ سنة بأكملها ٠٠ أنت صغير ولا تفهم ٠٠ البسطاوى ٠٠ هيه ٠٠ لا أخلاق ولا محافظة على شرف الناس ٠٠ لكنك صغير ولن تفهم ما حدث بينهما ؟ ٠

وقطبت جبينى وأردت أن أنصرف غاضبا لتكراره أننى صغير الا أن فضولا قاتلا تملكنى فمضيت ألح عليه :

ـ بالله قل لى ما الذى حدث بينهما يابرعى ؟ ٠٠ بالله عليك ٠٠

فحدجنى بنظرة جانبية ثم قال فى وقار غاضب :

ـ حجاج العجوز ، جد سعدية ، وعبد الله الجزار ٠٠

ـ أهما اللذان اتفقا على تزويجهما ؟

ـ أيوه ٠٠ أسكت حتى تعرف ٠٠ كانا يمران فى عصر يوم بمحاذاة تحويشة الجزار ورأياهما هنالك ٠٠ فاتفقا ٠٠

ـ ماذا كانا يفعلان هناك يجمعان البلح أو الوقود ؟ ٠٠

ـ بلـــح ! أى بلـــح يالـــكعى ؟ ألا تعـــرف ٠٠ كان قد رفع ثيابهـــا واحتضنها وهى تلهث مثل الكلاب ، مستندة الى جذع نخلة ٠٠

وتذكرت على الفور ماكانت شريفة تهرف به فى ساعات مرضها منذ شهور ٠٠ سعدية ٠٠ البســـطاوى ٠٠ تحويشة الجزار ! فقصصت له قصتهما ٠ فهز رأسه فى غضب وقال : اذن فانها لم تكن المرة الأولى ٠٠

وشهدت برعى ، لأول مرة منذ شهور طويلة ، يضحك كما يضحك الصغار ، فرحا لا تطيقه الدنيا ولا تسعه ، وكأنه هو الذى تقرر زواجه بعد أيام ٠ فقد استراح من البسطاوى ولن يعود هذا البسطاوى خطرا على أحلامه وأمانيه فى شريفة ٠

★★★

تتأسى الناس غطاسا ولجنته ساعات من حياتهم ، فاهتزوا على نغمات الدف وهزوا الســماء بتصفيق الأكف ، ورجـــوا الأرض بأقدامهم ٠ وتراقصوا والبدر يبتسم فوق هاماتهم ، بل كان غطاس نفسه وبعض موظفيه بين الذين أطلقوا صرخات الاستحسان ٠

وزف حسنين الى بطة ومد يده ومس ذؤابة الشعر المرتفعة فوق رأسها كما يرتفع تاج الهدهد .. وتطلعت أنا الى موكب الزفاف فى هذه المرة بخطى أكثر ثباتا وبادراك ، اذ كنت على مقربة من العريس نفسه ، ورأيت يده ترفع الشقة البيضاء وشهدت بطة مطرقة مسدلة الجفنين ، ورأيتها وهي تلوذ بنفس الحاصل فى سرعة البرق .

وفى بيت أم سعدية حدث الشيء نفسه . تقدم البسطاوى فى موكبه والدف ينقر من حوله ورفع الشقة البيضاء نفسها وسعدية تسدل جفنيها وترمقه من تحتهما ثابتة الجنان لا ترتعش ولا تخجل . وربما أحست بنشوة غريبة تسرى فى بدنها ، وهي تتلقى لمسة يده على تاجها الفاحم . ويقولون انها ابتسمت فى رضا بعد أن استدار العريس .

ثم ضمها الديوان ويقولون : انها شاغبته طول الليل بفنون من الصمت والدلال حتى وضع فى يديها جنيها كاملا . استنامت بعده لغزله وتودداته . ثم أرسلت صرخة صغيرة أنهت حياتها كعذراء .

وفى الصباح حين ألمت بها صاحباتها مضت تحكى لهن فى مرح متأوه ماحدث بينها وبين عريسها فى ليلتهما الأولى وكيف جعلته يجن بها ويضربها بالكرباج دون أن تبوح هى بكلمة واحدة ..

وشمرت عن ساعديها تعرض عليهن آثار الضرب ثم تساءلت : وماذا فعلت الأخرى ؟ لا نعلم شيئا فانها لم تقل كلمة واحدة عن ليلتها الأولى ، ولكنهن يعتقدن أنه تغلب عليها بنكاته ونوادره ..

ومضى السمر فى بيتنا كل ليلة حول حسنين يتحفهم بنوادره وحكاياته بين رشفات الشاى ، ثم ينزلقون دون أن يشعروا الى غطاس بيه ولجنته والى المشاكل المعلقة فوق رءوسهم .. أيصرفون أم يمتنعون؟ ثم بعد الصرف هل يبقون أم يرحلون ؟ . وقال حسنين مرة :

ـ بلا بلد ، بلا كلام فارغ . أتركوا كل شيء واهجروا الديار . فسوف تصبح خرابا ينعق فيه البوم . البلد تطهق وتقتل الانسان . كئيبة يدب فيها الحزن على قدمين .

وقالوا له : معلوم طول عمرك فى مصر .. معلوم ياعم ..

ـ ياسلام على مصر أم الدنيا .. وجوه سمحة ومناظر تشرح القلب ..

ومد الشيخ فضل يده وأنشب أصابعه فى التراب ، وربت بيده الأخرى على ساقه الخشبية وقال :

ـ ولكن الأرض يا حسنين عزيزة · تماما مثل الأبناء ·

ـ الأرض ·· الأرض ·· وماذا تملكون ؟ شرائح لا تزيد عن أذن حمار ·· ثم تصرخون : الأرض ·· الأرض وكأنما تملكون الأبعديات· أنا بنفسى سأشترى أرضا فى الطود ·

ـ وأين الطود · ؟

ـ بالقرب من الأقصر أبو حجاج ·

ـوهل يجرى النيل أمامها ؟

ـ كلا · النيل بعيد ··

ـ وهل فيها مشروع ؟

ـ ولا مشروع ·

ـ اذن فالأرض قاحلة لا تنبت زرعا · أرض بدون ماء ليست الا تربة للموتى · مأتم · جسد بلا روح · ياشيخ فضك من هذا الحديث ·

ـ ولكن الأرض هنـــاك بتراب الفلوس ·· الفدان بجنيهين ·· يابلاش أرض شديدة لم تزرع منذ أيام نوح عليه السلام ·

وأطرق فضل وكأنه قد تذكر قصة حام ووجهه الأبنوسى · وتفرس فى وجه حسنين وكأنما هو حام بوجهه اللامع ثم رفع رأسه وقال :

ـ وهل نحفر آبارا فيها ؟

ـ كلا · بل ستقيم الحكومة مشروعا للرى ··

وقهقه الشيخ فضل · فانه لايصدق أبدا أن حكومة الباشوات يمكن أن تفعل شيئا غير اغراق الناس وسرقة حياتهم وكد عمرهم · حـــكومه لصوص ·· وحرامية !

وعاد حسنين يلح عليهم أن يهـجروا المنطقة كلهـــا الى بلاد الله الواسعة ، ثم مضى يتندر على ساق الشيخ فضل وعلى مهارة النجار الذى أعدها له من خشب الورد · وأخذ يقلد فضيلة وهى تستعد لاحتضان فضل فى منتصف الليل ·· ما الذى تفعله المسكينة مع هذه الساق ؟ يقولون انهـا تدهن الساق بالسمن حتى تطيق ملمســه · ويشيعون أنها

ضاقت بها مرة وأرادت أن تكسرها وترمى بها فى النار لولا أن تداركها الله برحمته فى آخر لحظة ٠

وتلقى فضل دعابته بمرح ونادى عبر الديوانى ٠٠

ــ بطة تعالى يابطة ٠ اخبرى زوجك أن ساقى لا تؤذى أحدا ٠ تعالى ٠ ورنت الضحكات ناعمة فى الحاصل الصغير ٠٠

وفى هذه اللحظة دخل القاعة برعى والمأذون واجمين موهومين يصعدان الزفرات الحارة ، وحدق الرجال فيهما موقنين أن شرا مستطيرا قد حدث فى دار العمدة ، الا أنهم أطبقوا الشفاه ، ثم حاولوا المضى فيما كانوا فيه من مرح ٠ غير أن المأذون انفجر كما ينفجر البركان فى وجوجهم : المنحوس ابن الكلب ٠٠ عملها ابن الكلب ! وران الصمت لحظة راح المأذون بعدها يردد الكلمات نفسها ٠ يصاحبها برعى بايقاع حزين على يديه يفركهما ويدق بهما على صدره ٠ وضاق حسنين بهما فصاح :

ــ ما الذى حدث ياصابر ؟ ولد يابرعى ما الخبر ؟

والذى جرى كان مفجعا ٠ انغرز فى قلوبهم كما تنغرز النصال الحادة ، فقد هتف المأذون :

ــ عمدة (٠٠٠) ياسيدى صرف ٠٠

ــ صرف ٠٠ صرف ٠٠ فى داهية ٠٠

قالها حسنين ثم صمت بعد أن لاحظ الوجوم والتحفز على وجوه الناس من حوله ٠ وجوه صامتة عابسة ٠ ترتفع بعيونها لتراقب حركة الشيخ صابر الذى ارتمى على دكة عالية يمسح عرقا تصبب على جبينه رغم برودة الجو ٠٠ ودفع الشيخ فضل « برعى » فى صدره وقال :

ــ برعى ٠٠ قل لنا كيف تم ذلك ؟

وتطلع برعى الى الوجوه فابتأس فوق ابتئاسه ، وراح يحكى فى كلمات متقطعة لاهثة ماتناهى اليه من أخبار الدر ٠ منذ أيام رسا فى الدر رفاص نزل منه المستر هيس ، الرجل الذى رطن معه عبده الفرنساوى باللاوندى ٠ وكان حانقا فمضى يصرخ هنا وهناك دون جدوى : بات ليلته فى استراحة المركز ٠ ثم بكر فى الرحيل الى (كروسكو) ٠ ٠ليلتقى بالرجل ٠٠ كان يعرف أن العمدة متورط فى مشكل ، فقد سجل باسمه أطيان جماعة من الكشاف ودأب على تعجل

صرف التعويضات عنها قبل أن يتمكن خصومه من اقامة الدليل على بطلان ملكيته لهذه الاطيان. ويقولون: ان المستر هيس عرف من الشكاوى التى أرسلها الكشاف الى المركز أن عمدة (٠٠٠) سيقبل الصرف ، فزاره فى بيته وسهر معه • ولم يبرح القـــرية الا بعد أن عقد اتفاقا صريحا مع الرجل • يزيد الخواجة تعويضـــاته • ويتكفل بشطب كل القضايا التى ترفع ضده ، ويتعهد العمدة من ناحيته أن يفك الحصار المضروب حول اللجنة فى قريته وأن يحض الناس على صرف تعويضاتهم.

– لعنة الله عليه •• نصرانى ابن كلب ••

قالها الشيخ فضل ثم استدرك :

– ولكن الذنب ليس ذنبه • اللوم كله يقع على الرجل الذى باع نفسه • فانبرى المأذون يقول :

– والمصيبة أن « بدر أفندى » حينما علم بالحادث عجل فالتقى به ، وراح يستعطفه بل عرض عليه أن يعقد صـــلحا بينه وبين الكشاف • ولكنه وعد دون صدق • وفى الصباح عند طلوع الشمس عرض نفسه على رئيس اللجنة وصرف تعويضاته ومن بعده تقاطر الناس واحدا بعد واحد • وانتهت اللجنة من عملها فى يومين وحزمت أمتعتهـــا وهجرت القرية الى حيث لا يدرى الناس •

– المتعوس ابن المتعوس • مأواه جهنم باذن الله ••

– بل سيكون الجزاء عادلا بافضل وعاجلا • سيصاب بالعمى فى حياته ألم يحنث بالفاتحة ؟!•

وصاح المأذون :

– داهية أن يعرف الناس فى بلدنا بالخبر فيتقاطرون هم أيضا على اللجنة !

فأحس برعى بندم شديد منذ توقف بحسن نية عند كل مصطبة يشرح الخبر ويذيعه ابتغاء فضح الرجل ، وتحذيرا للنـــاس من مصيره الأسود ••

وران الصمت والوجوم ، وحاول حسنين أن يطلق احدى نكاته • فأشاحوا عنه عابثين ثم قاموا ينصرفون واحدا بعد واحد • وعلى وجوههم أمارات حزن وقلق وحيرة تثقل صدورهم •

وناموا نوما قلقا حتى أشرق الصباح •

وقبل أن تنتشر أشعة الشمس في الوادى كان برعى ووابور والمأذون وعدد من شباب النجوع الأخرى قد ضربوا حصـــارا محكما حول دار العمدة ، يحولون دون وصول الناس اليها ويراقبون الموظفين وتحركاتهم فى صبر ، ويبتسمون حين يجدون العمدة يطل عليهم من النافذة ليلقى اليهم بنظرة تشجيع ٠

فالجموع تنتظر اشارة البـــدء لتعبر الطريق الفاصل بينهم وبين اللجنة فى سرعة البرق ولتطرق على أبواب اللجنة لتصرف وتستريح من كل هذا العناء دفعة واحدة ٠

فنسوا حقولهم ٠ فلم يعودوا يروونها الا فى الليل ٠ ولاحظ وابور وهو يتنقل بين القريتين أن الخور قد بدأ يدب فى النفوس ٠ وأدرك أن الطعنة التى وجهها عمدة (٠٠٠) للقضية يمكن أن تنفذ الى كل الصدور ٠ فأمسكت به حمى الشكاوى والتظلمات والتنقل السريع على المصاطب ٠

وألقى بدر أفندى بثقله فى المعركة فمضى يتنقل بين القرى ، ولا يعود الى المكتب الا ليرسل البرقيات والبيانات الى كل مكان ٠

وعلى طول الخط وفى كل مكان كان الرفاص نفسه يرسو لينزل منه نفس الوجه المتقع يضحك فى وجوه الناس ، ويتندر معهم ويبدى اعجابه الشديد بعاداتهم وكرمهم وشهامتهم وينسبهم الى العرب والاتراك ٠٠ فاستمال قلوبا وخطب ود القليلين بايغار صدورهم واثارة حفيظتهم ضد المصريين ٠

وفجأة وفى أصيل أحـــد الأيام والرجال يخترقون طرقات النجع عائدين الى بيوتهم وحقولهم بعد أن يئسوا من محـــاصرة دار العمدة ، رفرف العلم الأخضر فوق سارية رفاص أبيض رسا عند النتوء الشرقى ٠ وقفز منه الى الشـــاطىء الوجه المتقع نفسه ٠ فدب الذعر فى قلوب بعض الناس يخشون أن يطب عمدتهم فى « الحية » ٠٠ المنصوبة له ٠٠ بينما أمل الآخرون أن ينهى الرجل الأحمر عذابهم بكلمة واحدة ٠

ولكن الفريقين من الناس فوجئوا فى صباح اليوم الثانى برحيل العمدة مع الشيخ حسين الى الدر ٠

ومر يومان أشيع بعدهما أن العمدة قد رحل الى أسوان ٠ فارتبك الناس ٠ ثم عادوا يتجمعون صفوفا حول داره يراقبون مقر اللجنة بقلوب واجفة مذعورة ، ينتظرون أية اشارة من ابن العمدة الذى أخذ يصرف الأمور فى غيبة أبيه ٠

٣٨

وفى غيبة اعمدة عاشت القرية فى مشاحنات وصدام لا ينتهى، بينما فى بيتــه تدب الحركة نفســها : غطاس بيــه وموظفوه يلعبون الورق · ويطلون على الجمــوع من خلف الســتائر · والابن الشاب ، ابن العمدة ونائبه وزوجة العمدة يعيشون فى رعب دائم خشية أن يعود الوجه الأحمر من جديد ·

وقد ظل الرجال والنســاء يعســكرون أمام الدار فى مجمــوعات تتنــاوب الحراســة فلم يجرؤ أحد على اختراق ســياج المقــاطعة · الا أن الرجال كانوا ينصرفون عند الأصيل ، يتناقلون الأخبار التى ترد اليهم من هذه القرية أو تلك ·· فى شمال كرسكو وجنوبها ما زالوا صامدين · وفى الغرب : توماس وعافية ما زالوا يقاومون · ثم دار الهمس عن قرية فى أقصى الجنوب عند حدود السودان ·· حيث شجت الرءوس أمام مقر اللجنة وسيق بعض الناس مكبلين بالحــديد الى المركز ··· والبيانات والشكاوى لا تزال تنهال على مكاتب الحكومة فى مصر ، والبواخر لا تزال تقذف الى المرافىء باعداد كبيرة من الشبان العائدين لصرف تعويضاتهم ، ولجان المساحة ومندوبو اعادة التقدير لا يتحركون ، بل يتركون الناس يفرغون شحناتهم فى بيانات وتظلمات تلقى فور وصولها الى سلة المهملات ليحرقها الفراشون النوبيون والسعاة دون أن يعلموا من أمرها شيئا ، والمســتر هيس وحــده مع عــدد من كبــار رجال المساحة يتصرفون بجرأة وينصبون الفخاخ لاغراء الناس · وما زال برعى والمأذون والمحامى ووابور يكذبون الاشاعات بل يختلقون غيرها مؤكدين أن القــرى كلهــا صامدة ، ويتلون عليهم رسائل مشجعة تأتيهم من النادى فى مصر · ومن بدر افندى فى الدر ·

ولكن فى أمسية من الأمسيات تناهى الى الاسماع فجأة خبر غريب

اهتز له الناس · لقد صرف الجزار ·· عبد الله الجزار صرف تعويضاته ·· يا للملعون ·· وكم صرف ؟ زاده مندوب المساحة خمسين جنيها ·· هكذا قال نوح فى لهجة انسان يريد أن يعرف وقع الخبر على الناس · الا أن برعى اعتلى مصطبة عالية أمام بيت الشيخ جعفر وصرخ : أنت كذاب· الجزار لم يصرف · اياكم أن تقتربوا من دار العمدة ·

وطوح بالنبوت فوق رأسه متهددا متوعدا وصاح من جديد : كذابون · الجزار رأيته فى الصباح · لم يصرف ·· لم يصرف حتى العصر وليس هناك صرف بالليل ··

واندفع صوت أجش يقول ·· أنت نائم يا سيدنا فى العسل ·· الكلوبات حولت الليل الى نهار هناك ··

ـ كلوبات ··! سنكسرها · تعالوا نكسرها ··

ودون أن يعى أطلق عواء الذئب رهيبا تردد صداه فى النجع فأثار نباح الكلاب ودفع « أوش الله » الى الوقوف على عتبة المتجر ليردد العواء نفسه · ولسبب لا يدريه على وجه التحديد انطلق برعى يسب ويلعن العمدة ونائبه · ولم يسكت الا حين صاح به المأذون : العمدة ماله يا برعى ؟· بل أمسك به من كتفه يهزه ليفيق من النوبة الهستيرية التى ألمت به : العمدة أبى أن يتفق مع الخواجة الانجليزى فساقوه الى اسوان· الله يعينه · حتى أخباره لم نعد نعرفها · وظهر وابور فى هذه اللحظة ورأى «برعى» يطوح بالنبوت · يكاد يبطح الرءوس ورأى الناس يتدافعون حوله يحاولون انتزاع النبوت بينما المأذون يتعلق بذراعه ، وأدرك وابور أن « برعى » هائج كالثور ·· مجروح الكبرياء ·· ألم يكلفه بدر افندى بالحيلولة دون اختراق سياج المقاطعة · انه لن يصدق أن أحدا قد غدر به · فمضى يصرخ : كلا أنتم كذابون · الجزار لم يصرف · وزمجر حتى اختنق حلقه بالدموع وتهاوى على المصطبة وهو لا يزال يسب الناس · لقد فاجأته حالة هستيرية عجيبة · المسألة كلها عنده مسألة كرامة وجدعنة · لقد خانه الناس وخانوا معه بدر افندى · كلاب · بهايم تماما كما وصفهم المحامى عشرات المرات · وليست هناك قوة تجعله يصدق أن الجزار قد تجرأ وحنث بالفاتحة التى قرأها · واقترب وابور منه وهمس: اهدأ يا برعى لنتدبر أمورنا · لقد تسرب آخرون الى اللجنة وأنت تصرخ هنا كالمجنون ، ثم أمسك به من كتفه ومضى يهمس من جديد : اهدأ · يا ولدى ستجن · ما عليك أنت لقد سعيت وسعينا وقد نفشل · ألم

يفشل حسين طه ؟ كل الناس يخسرون · ألم تخسر أبدا يا ولدى فى لعبة « الطاب » أو الحجلة ؟ فلم يجب الغلام بل ومضت عيناه ببريق غريب هب بعده واقفا يصيخ السمع ، ويمد بصره الى منعطف الطريق · فمن هناك ارتفعت جلبة أخذت تعلو ، فاستداروا جميعا على أعقابهم يمعنون النظر ، ويحدقون من خلال الظلام لتقع أبصارهم على نفر من الرجال يستديرون بواحد يناقشونه الحساب فى أصوات عالية : ستعمى ما دمت قد حنثت بالفاتحة · سيصيبك الكساح · خراب ذمة وبيوت يا رجل يا ضلالى ·

فاقتربوا منهم ليجدوهم مستديرين بعبدالله الجزار ، يطل عليهم بوجهه الكالح تلمع عليه حبات العرق رغم لفحات النسيم · كان خائفا يحاول الافلات من الذين أحاطوا به · وفى عينيه أمارات خزى ومذلة ·

وتفرس برعى فى وجهه وأدرك كل ما كان يعتمل فى صدر الرجل: لا شأن لكم بى · اتركونى استرح منكم ومن العذاب · اننى لا أعرفكم · لست من نجعكم وسأرحل بعيدا عنكم · ومد برعى يده وأهوى بها على وجه الرجل فى لطمة قاسية بدأت بها معركة جمعت الناس من كل درب · حتى البسطاوى ترك عروسه وجاء والحناء لا يزال يبرق فى كفيه يمسك بهما نبوتا تطوحان به فوق الرءوس ··

وازدحم المكان وارتفع الصوات · ثم تمكن أحمد عوده ونوح والشيخ جعفر من فض المعركة ·

وتلفت الناس ليجدوا الجزار يعدو الى بيته ، وهو يضم الى صدره قميصه ليطمئن على أوراقه الخضراء المودعة فى جيب الصديرى · والتقى به الشيخ فضل · فواجهه برعشة تشمل جسده · بعثتها نظرات الاحتقار التى ومضت فى عينى غريمه الحادتين · فلم يبال بل مر به سريعا ليدلف من باب بيته ويرتمى على المصطبة الداخلية ·

وفى الطريق العام كان المحامى والمأذون وبرعى يسرعون الخطى فى لهاث ·

وهذه هى دار العمدة من جديد : الستائر مرفوعة · والكلوبات تفرش الارض بنور كشاف حول الظلمة الى نهار · وهؤلاء هم الناس يتسللون الى داخل اللجنة ثم يعودون واجمين وقد وضعوا أيديهم على صدورهم ويتلفتون ، وكأنما هم لصوص يعودون بعد غزواتهم الليلية ·

وانهال برعى ورفاقه بالسياط على ظهور الناس • فانبعثت آهات وصرخات بعثت الذعر ، فى قلب الضابط الصغير ، فهب من مكانه الى جانب الخزانة الثقيلة وانتصب على عتبة الدار ، يصدر أوامره ، فدوت طلقات الرصاص وتطايرت فوق الرءوس تشيع الفزع والرعب •

انبعث صوت الرصاص غريبا فى القرية • أول رصاصة سمع الناس دويها • أول دوى من نوعه ردد الجبل صداه • انهم لم يسمعوا صوتا مثله من قبل الا فى المدن • ذاكرتهم تعى صوت الدوى على الطبول وارتطام ألواح الخشب بالماء أو انهيار جدار : أما هذا الصوت البارق فانهم لم يسمعوه قط ، الا الذين عاشوا فى الصعيد أو فى قرى الوجه البحرى أو العجائز الذين حضروا الدراويش •

انبطح المحامى على الأرض حين سمع الدوى • أما برعى فانه قد التقط بشكل غريزى حجرا صغيرا قذف به فى وجه العساكر • وقلده الرجال فانهال الزلط والطوب ودوت الرصاصات • وخدشت ساق برعى خدشا بسيطا أثار جنونه • فاندفع الى العساكر فى مغامرة جنونية كادت تقتله لولا أنه ارتطم بجسد المحامى الذى كان قد انبطح على الارض ، وسمع ، وهو يتمرغ فى التراب ، صوت نائب العمدة : حضرة الضابط •• ما هذا يا سعادة البيه ؟ اسحب عساكرك والا سوف يحدث ما لايحمد عقباه • وأشار الى الخفر الذين كانوا يسرعون الى المكان مصوبين بنادقهم الى العساكر •

وأحس الضابط الصغير بحمق أوامره • فصاح فى رجاله : كفى •• انسحبوا الى الخلف • بينما اندفع نائب العمدة يقول للناس : كفى •• عودوا الى بيوتكم •

ثم شددت الحراسة على مقر اللجنة ••

★★★

وباتت القرية ليلتها ساهرة لا تنام وما زال بعض الناس متماسكين لا يريدون أن يقتربوا الى مكاتب اللجنة فظلوا يقسمون على ذلك ، الا أنهم برغم ايمانهم كانوا موقنين أن شيئا ما لن يوقف مد الناس الذين سيصرفون منذ غد • ان جسر المقاطعة قد كسر الى غير رجعة !

وراحت داريا تدور هنا وهناك ، وتتخذ مظهر الحريصة على مصالح النجع ، وتسب وتلعن عبد الله الجزار ، فحدق الشيخ فضل فيها مرة وقال

فى سخرية : نجسة ٠ كل شىء باسم جمال ولا تستطيع المنكودة أن تصرف ٠ لو كان فى يدها لصرفت فى أول لحظة ٠ ألم تكن هى التى حاولت أن تلاقى « غطاس » فى منتصف الليل ؟

وانطلق حسن المصرى يحكى عن الرصاص فى بلاده : أما هنا فطلقتان من الرصاص ··· لعب عيال! مضى يحكى والناس لاهون عنه وعن الرصاص الذى بعث الرعب فى قلوبهم بمشاغلهم ·· ماذا يفعلون فى غد؟

منذ أيام مضت بدت المقاطعة قمة صاعدة ، ثم أخذت الرياح تقتلع منها الحجارة الصغيرة ثم الصخور الكبيرة وتزيح عنها الرمال حتى بدت عارية تنخر العاصفة فى قلبها ٠

ولم يعد أحد يذكر اسم بدر افندى ٠ ألم يخذلوه ؟ أولى بهم أن يتناسوا الرجل ويتركوه يعيش آلامه وحده يتجرع مرارتها فى كأس طافحة ٠ وبدأ يتردد على الألسنة : الجوع كافر ٠ ولو كان الفقر رجلا ·· آه ·· لو كان رجلا ٠ قالها المأذون فى حسرة ورددها برعى بعد أن حفظها وكتبها المحامى فى رسالته الى النادى والى الصحف ٠

ومر يومان ٠ ثم يوم ثالث ورابع ٠ والجسر يتحطم واليأس يدب فى قلوب دعاة المقاطعة فاستكان المأذون يصلى ، ويذكر الله وعاد وابور الى طاحونته مهزوما يهز رأسه فى أسى ، ويلقى على الناس نظرة ازدراء ٠ أما برعى ·· فقد مضى يغرق أحزانه فى العرقى يعب منه ·· ثم يندفع الى الارض ·· يكدح طول اليوم ٠ ويحوم حول شريفة ٠

وأخذ المتجر يستوفى ديونه ٠ ولأول مرة شهدت فى درج البنك عشرات من الأوراق الخضراء الجديدة تبتسم فى دلال وترسل حفيفا ممتعا كلما مستها يد ٠ وأخذ قلم الكوبيا فى يد أحمد عودة يشطب السطور الاخيرة فى نشوة ويمزق الصفحات ٠ الوحيدة التى لم يمتد القلم الى صفحتها هى داريا سكينة التى راحت تعيش فى قلق متصل ، تعدو الى مقر اللجنة ، تستعطف دون أمل ، وتعود خائبة تدعو على جمال وعلى زنوبة ، وتمسك بخناق شريفة وكأنها المسئولة عن شقائها !!

وتلفت أبى مرة الى أحمد عودة : أنصرف نحن غدا يا أحمد ؟ قال : صبرك بالله علام العجلة ٠ دع الناس يصرفون وماذا نخسر لو صبرنا ؟

ـ لا شىء ولكننا ـ لو صرفنا ـ نستطيع أن نتدبر أمورنا ٠

***

وفى ضحى اليوم التالى . مضى بى أبى الى دار العمدة .. بعد أن ارتديت أحسن ثيابى .. وأنا أحس بنشوة غريبة . فسوف أصرف كما يصرف الكبار تعويضاتهم - لا فرق بينى وبين أبى ولا الشيخ فضل . حتى برعى لم يصرف مثلى أنا .

واخترقنا صف العساكر . وتخطينا عتبة الباب ، ودلفنا الى الدهليز لنجد الشيخ جعفر يطل على رأس غطاس بيه ويحدثه باهتمام فى مشكلة داريا سكينة . ويبدو أن صبر غطاس كان قد نفد اذ احتقن وجهه وقال :

- نقول لكم تور .. تقولون احلبوه .. يا هوه .. لا بد من توكيل

ثم رفع رأســه وشملنى بنظرة نافذة . وارتد يرمق أبى ويحييه ويسأل .

- الاسم أظنه أمين .

- نعم يا سعادة البيه .. أمين هاشم .

ثم أخذ يعبث فى دفتر كبير بسرعة غريبة وهو يهمهم حتى توقف عند صفحة عريضة فيها سطور قليلة يتصــدرها اسم أبى ... سطور بالاحمر والازرق وجنيهات وقروش وملاليم . أمامها خانات لم تملأ بعد .

ومد الرجــل يده ووضــع تحت صفحتين أو ثلاث شرائح من ورق الكربون ، وأخذ يكتب بسرعة ويهمهم بأرقام . ثم توقف ليقول :

- أليست هذه أملاكك ؟

ومضى يعدد عــدد أشــجار النخيــل وغرف البيتين الكائنين بنجع الزينية والقراريط التى نملكها فى الحوض البحــرى . وهز أبى رأســه بالايجاب . فاستدار البيه الى الخزانة الثقيلة وسحب رزمة من الأوراق المالية ، ومضى يعدها بسرعة فائقة جعلت عينى تتحركان بنفس السرعة . ثم وضعها فى يد أبى الذى أخذ يعدها بدوره حتى اطمأن ودفع بها فى جيب الصديرى .. ودفعنى الى الامام حتى أوقفنى أمام رئيس اللجنة : اسمك حامد ؟ نعم .. هو ابنى .. البيت الكبير مسجل باسمه .. ثمانى غرف . وحوش وأربع حجرات مســقوفة . البنــاية جديدة يا ســعادة البيه .

وأمرنا الرجــل أن نوقع . ثم طلب منا أن نبصم فبصــمنا ووقع جعفر شيخ الحصة من بعدنا . ثم اندفعنا الى الخارج لنجد الشيخ «فضل» ينتظرنا فأخذنا ندب فى الطريق لنعود الى النجع .

كنت أود أن أنطلق الى أمى بأقصى سرعة حتى أضع الجنيهات الاثنين والثلاثين فى يدها ، فهى التى أصرت على تسجيل البيت باسمى ، وظللت ممسكا بها فى جيبى فى حرص غريب • وبدلا من الاسراع الى النجع أصر أبى والشيخ فضل على تنكب الطريق العـام الى شاطىء النيل يشيران الى البر الغربى • الى الرمال الصفراء والقفار المحدقة بكران نوج •• وقال فضل :

ــ يمكن أن نعبر النيل غدا لنشهد المكان بأعيننا ••

وأجاب أبى : اذهب أنت يا فضـل أما أنا فاننى أخـاف من ذلك القصر • والقفر الذى حوله • اذهب أنت •

ــ سـنعمرها يا أمين • الأرض الصـفراء ستخضر • قلت لك اننى لن أرحل من هنا • ستمتد بيوتنا على البر الغربى • على تلك الارض المرتفعة التى لن يبلغها الطوفان •

وأخذت أنا أمعن النظر فى الهضبة المرتفعة حول كران نوج ، وأتخيل البيوت هنالك ، فسرت فى جسمى رعدة • ثم تبعتهما وهما يتحركان فى بطء حتى حاذينا النتوء الشرقى ، وهنا قربنى أبى منه ومد يده الى جيبى، وانتزع جنيهاتى ودسها فى جيبه وأنا أحدق فيه مشدوها • كنت أفكر فى أمى • فهى التى أصرت على تسجيل البيت باسمى • فلماذا يأخذها أبى ؟ ، ولكنه طيب خاطرى حين قال : لا تخف يا حامد • قل لامك اننى سأحتفظ لك بها الى يوم سـفرك الى الأزهر • فسكت على مضض ••• وأردت أن أقول شيئا الا أن المشهد الذى فاجأنا فى النيل استرعى أنظارنا جميعـا • فاستدرنا لنرى صـنادل سوداء طويلة تقطرها بواخر صـغيرة تصعد النيل • مزدحمة بأمتعة ثقيلة تكاد تغوص بها فى اليم •

وعلى النتوء كان مصطفى يراقب الصـنادل ، ويلوح لهـا بمنديل أبيض فابتسم أبى وقال : هذا الولد مجنون • فأجاب فضل : لعله يلوح لأناس يعرفهم فى البواخر •

ودنونا منه وفاجأناه فأصيب بارتباك • قال لنا وهو يتلعثم : عزال المدرسة •• وصمت • ثم أضاف : الصنادل تنقل عزال المدرسة من الدر الى عنيبة •

ــ ولماذا ينقلونها يا مصطفى ؟

ــ الى المدرسة التى يبنونها فى عنيبه يا عم فضل ••

وضحك أبى ، ووقفا يراقبان الصنادل بينما انضممت أنا الى مصطفى أشد على يده فى حماس ، وشعرت وأنا أشد على يده أن عنيبة هى الأمل الذى يجب أن أسعى اليه ٠

وتريثنا حتى غابت الصنادل عن أنظارنا ، وعدنا الى الطريق الزراعى نخترقه ، حتى أوفينا على السفوح المرتفعة حيث كانت تصطف بيوتنا الطينية ٠ وتوقفنا عند باب الشونة فى ذهول فقد انطلقت داريا تخرج من بيتها وتندفع الينا وهى تهتف ٠٠ أمين ٠٠ أمين يا كلثومة جمال سيعود ٠ وسنصرف التعويضات ٠

وتلقيناها بالابتسام ، ثم تناولت منها البرقية وقرأت فيها : انتظرينا على المحطة : جمال ٠٠ فقال الشيخ فضل : داريا ٠٠ جمال لن يعود وحده ٠٠ لكنها لم تأبه بشىء ٠ بل مضت تخترق النجع تصفق وتهتف وتزغرد ٠٠ ثم ارتدت الى بيتها ٠٠ ومن خلف الجدران تناهى الينا صوتها : زغردى يا بنت يا شريفة ٠٠ زغردى يا بخيتة ٠٠ جمال سيعود٠

وانطلقت الزغاريد فى دفقات حنونة ٠ ودبت أقدام الناس تعبر الطريق الى بيت داريا سكينة ٠ ومنذ الصباح ستطلى الجدران من جديد ٠ ويرتب البيت لاستقبال العائد الجديد ٠

ولن تمضى أيام طويلة حتى يقف جمال أمام غطاس افندى ٠

٣٩

وجاء اليوم الموعود ووقفت داريا وشريفة ولفيف من رجال النجع ونسائه على شاطىء النيل عند مرسى الباخرة ٠ يظللون عيونهم بالأيدى ويراقبون حركة الباخرة التى ملأت النيل بأضوائها الزاهية وهى تعبر النتوء وتتوسط النيل ثم تميل برأسها لتتطامن على المرسى بعد لحظات ٠

تساندتا بقلبين واجفين تتعلق عيونهما بالباخرة وكأن الحياة كلها

تعيش على متنها .. كيف يكون لقاؤه ؟ وهل يأتى وحده أم تأتى معه البيضاء ؟ . تبا لهذه الغجرية لماذا تتبعه الى آخر بلاد الله ؟.. ليته عاد وحده حتى نتمتع به وحدنا .

وتهادت الباخرة أمام عينيهما .. ثم أوقفت محركاتها وارتطمت بالشاطىء واهتزت وهى تطلق نفيرا داويا اندفع الناس معه الى السقالة التى مدت من الباخرة الى الشاطىء . وأطل جمال بوجهه الأسمر وبسمته الوادعة اللطيفة وقامته المديدة . كان قد ترك طربوشه فى مصر ولف على رأسه عمامة بيضاء من فوق طاقية زاهية الألوان .

وتفرست داريا فيه وهو يلوح لها بيده فانخلع قلبها ، فالى جانبه كانت فتاة طويلة بيضاء نحيلة واسعة العينين ترتدى جرجارا طويلا أعدته فى مصر وعلى رأسها طرحة خفيفة ملونة تنسدل فوق شعرها الفاحم الجميل ، وتسترخى على كتفيها ، ويلتقى طرفاها على صدرها فوق رمانتين بارزتين .

انها تتشبث به وتلقى نظرات سريعة على الشاطىء وأجمات النخيل، وتبدو مذعورة كاسفة البال وكأنها تتساءل : ياه .. كل هذه الوجوه السوداء التى لا تبين فى الظلام .

وخطا بها جمال الى الشاطىء وهى ترتد الى الخلف كأنما تريد ألا تبارح الباخرة . وعند السقالة ألقت داريا نفسها عليه تعانقه وتبلل وجهه بالدموع وتصرخ : جمال .. حلم أم علم يا ولدى ؟! جمال أنا أمك يا جمال يحرسك الله .. هل عدت حقا ؟ جمال .. أم أنا واهمة ؟..

وتوقفت زنوبة عند خطوتها الأولى على الشاطىء تمعن النظر فى حماتها وفى شريفة مرتبكة تسأل نفسها : كيف يكون استقبالهما لى ؟ انهما ولا شك تكرهان زوجة أبعدت عنهما «جمال» سنين طويلة عاشتا خلالها فى حنين جارف اليه . يا لهذه الام لكم تحبه ! وما الذى تقوله تلك الفتاة ؟ انها ترطن ولا أفهم كلمة واحدة من كلماتها .. أتراها تسبنى وتنفر جمالا منى .. كلا انهما لم تفرغا لى بعد ..

وتنبه عبده بتيت الى زنوبة ، فأقبل عليها يقول أهلا بالست .. شرفت البلد .. بلد جمال .. متشكرة .. محسوبك عبده الفرنساوى عم جمال . كيف حالك ؟ الحمد لله يا عم عبده .. بنتك زنوبة . خدامتك .

وتعارفا على الفور ثم جذبها الرجل الى جمال وأمه وشريفة وتنبهت هذه اليها • ومضت تحتضنها فى غير ود ثم جاء دور الأم التى حدقت فيها لحظة ثم شــدت على يدها فى غير ود • فطفرت الدموع الى عينى زنوبة وأخذت تحبسها حتى لا تسبب ضيقا لجمال •

الا انها استطاعت فى أيام قليلة أن تألف البيت وجدرانه المتشققة وأن تأنس اليهما • لقد هدأتا وأخذتا تكرمان وفادتها ولا تسمحان لهـا بأى عمل • ومضى جمال يهون عليها ما تلاقيه من عنت أمه وشقيقته حتى قررت أن تكسبهما الى جانبها بنفسها •

ولم يكن غريبا أن تقول شريفة لامها بعد اسبوع : لسانها مثـل السكر • وأشهى من السكر • فقالت أمها : مكارة يا شريفة •• بنت مصر •••

فقد مضت زنوبة تقص عليهما فى كل ليـلة نوادر مصر وحكايات لا تنتهى عن سيدنا الحسـين والسـيدة زينب والسـينما والتيـاترو والتراموبات حتى ألفتاها وان ظلتـا تنقمان عليهـا تصيدها لجمال وابعاده عنهما كل هذه السنين •

انها على كل حال ضيفتهما وزوجة جمال • وها هو قد عاد وكفاهما أنه قد عاد بها أو بغيرها •

***

ودخلت الاوراق الخضراء الجديدة بيت داريا ، وراح جمال وجاء الى المتجر يحاسب أبى ويسدد ديون أمه حتى اسـتوفاها على آخر مليم • وارتسمت البسمة على وجه داريا وشريفة ولم تعد تترقرق فى عينيهما بل حلت الفرحة محلها •

واستجمعت شجاعتى مرة وقصصت على أمى كيف انتزع أبى مالى وأودعه فى جيبه فذرفت دمعتين وعادت الى خطوطها المسـتديرة ترسمها فى أناة • حتى أصابها الكلال •• فنامت نوما متقطعا أخذت تهذى فيه بكلمات مبهمة •

ورغم النفور الذى كنت أشعر به نحو بيتنا الكبير ، فقد أخذت ألوذ به فى هذه الأيام كثيرا •• أتمتع بدعابات حسنين ونوادره وأشاغب بطة التى لم تكن قد ألفت نوادره بعد ••

وقد عاد الصفاء بيننا وبين حجوبة ، فان هذه قد اقتنعت أنه لافائدة ترجى من نزاع يستعر بينها وبين ضرتها حول بيت حكم عليه بالاعدام ، بيت سوف يكتسحه الطوفان فلم تعد تغشـاه كما كانت تفعل قديما • ولم تعد تسخر من أمي واغماءاتها ، بل تجنبتنا ولا سيما بعد أن أيقنت أن أبي قد نقل الى جيبه جنيهاتي التي صرفتها تعويضا عن هذا البيت الكبير ••

فأخذت تنظر الى فى اشفاق وتقول : كل شيء الى زوال يا حامد • البيت الكبير والبيت الصغير • فأهز رأسي وأداعب محمود الصغير ••• أدغدغ باطن قدمه فيضحك ويبرطم بأصوات مبهمة لا تفهم •

ولم تعد حجوبة تردد أحاديثها عن ارسالى الى مصر لأشتغل • فان احوال المتجر تحسنت منذ أخذ الناس يسددون ديونهم • وعادت الرفوف تزدحم بالطرح الملونة والفوال وبأنواع الحلوى المختلفة •

وبدأ النـاس يتجمعـون كل ليلة فى الساحة الممتـدة أمام المتجر يتحدثون عن المصير الذى يتوقعونه • وعن الطوفان • ومتى يكون ؟••

٤٠

وعادت الحياة تجرى كما كانت تجرى • الرجال يتسـلقون النخيل • والأطفال يمرحون فى ظلالها ، والنساء ينزلن الى النيل وقد ركزن على حوايات فوق الرءوس كوبيهات نحاسية يتوهج عليها ضوء الشمس ، وتسيل منها قطرات الماء تنحدر فوق النحور وتبل الثياب وتلصقها على النهود •

وعلى الأرض التى تعرت من عيدان الذرة أكوام من العلف تجف ، وتحزم حزما صغيرة معدة للرحيل ، بينما المتاجر تعفر الشـون بالرماد لاستقبال البلح • وقد بدأت الطلائع الأولى للمراكب الشراعية السوداء تصعد فى النيل لترسو على المرافىء من جديد • وعـاد النيـل الى ثورته

فبدت أمواجه كاسرة تكاد تقتلع النتوء وتحمله بعيـدا الى الشـمال ، وتضرب قوائم السـواقى والشـواديف ضربات عاتية تبعث الرعب فى قلوب الناس ٠

وعدنا نحن الصغار الى صوامعنا نعد لليالى الساحرة حين تنطلق الفوانيس ترسم هالات مضيئة حول أقدام فتيـة تدب حتى تصـل الى أجمات النخيل ٠

ووقفت أنا حائرا امام صومعتى الصغيرة لا أدرى ماذا أفعل ؟ فقد تزوجت الشقيقتان ورحلت احداهما بينما الأخرى تنتظر يوما قريبا ترحل فيه الى مكان بعيد ، ولم تعودا تهتمان بالصوامع ولا بالفوانيس ، وقد مات بعـدهما فى نفسى سحر الفجر والصـومعة الصـغيرة ، فضربت على جانبيها بعنف وركلتها وأنا أقرر ألا شأن لى بعواء الذئب ولا بالسهر بين النخيل ٠ وما زلت أعـدو الى الكتاب وأعـود منه وقد دميت قدماى فى الفلكة ، اذ تحولت الآيات منذ لقائى بمصطفى الى طلاسم لا تستقر فى ذهنى ، بل أصبحت اعافهـا واجترها لتتسرب من ذاكـرتى حين يأمرنى الشيخ بتلاوتها ٠

والقرية هى نفس القـرية والنخيل هى ذات النخيـل وسـاقيتنا ما زالت تدور فيها بقرتنا والشواديف ما زالت تركع وتقوم ٠٠ ولم يتغير فيها شىء غير ثقوب فى الدلاء رتقت منذ حين ٠

ما من صورة تغيرت فى قريتنا ٠ حتى بيوتنا ظلت كما كانت٠ ما من شىء تغـير الا هؤلاء الشـبان الذين عادوا من أرض الغربة وملأوا القرية بنوادرهم ، والا زنوبة التى استقرت فى بيت جمال تجتذب أنظار وأفئدة الناس بما تصطنعه من حنو وعناية بالمرضى والأطفال ٠ تغسل كل جرح وتضمده وعلى شفتيها ابتسامة حلوة ، وتنال اعجاب الناس واحترامهم حتى ألفوها وتمنوا لو عاشت معهم الى الابد ، غير أنها كانت تعرف أنها لم ولن تتمكن من قلوبهم ٠ فانهم لم ينسوا بعد أنها قد تصيدت فى مصر واحدا من شباب النجع كان جديرا أن يتزوج واحدة من بنـات النجع ، ولن تنسى داريا وشريفة أن زنوبة أبعدت عنهما جمالا سنين طويلة ذاقتا فيها مرارة الحرمان والبؤس ولوعة الشوق ٠

كل شىء جائز وممكن الا زواجهـا من جمـال ٠ وقد يحبها هؤلاء الرجال وقد يشتهونها ويلتهمونها بعيونهم ، وقد يتمنون لو تمددوا الى جانبها ساعة من الليل الا أنهم رغم ذلك لا يغفرون لها ما فعلته بجمال ،

ولا جدوى ، لا فائدة ترجى اذا عن لهـا أن تصرخ فى وجوههم : أحببته وتزوجته وما زلت أحبه ٠٠ وفى سبيله أتيت الى دياركم النائية هذه ٠ لا فائدة ٠ ليس عليها الا أن ترضى بما قسمه الله لها من رضا واعجاب هؤلاء القرويين ٠ انها غريبة فى هذا الوطن ولولا جمال ، لولا أنها تخلو اليه اذا ما جن الليل تبكى فى أحضانه لحسبت نفسها تعيش فى جحيم لا يطاق ٠ فأين مصر وجنات مصر من هذه القرية الكالحة الضيقة٠ الغريب أنهم يحبون قريتهم هذه كما يحبون نساءهم ٠ قالت لجمال مرة وهما فى الفراش : أمك تكرهنى يا جمال ٠٠ فهمس بعد ان تثاءب : كفاك تخريفا يا زنوبة ٠ انها لا تكرهك ٠ فارتفقت كوعهـا ، وأطلت عليـه تهمس فى حزن :

ـ النساء يفهمن ما فى عيون الأخريات يا جمال ٠ انها تمقتنى ٠

ـ انها لا تمقتك بل تغار منك ، فأنت بيضاء جميلة بينما هى سمراء عجوز ٠

ـ حتى شريفة افتح عينى عليها فجأة فاضبطها تراقبنى خلسة وفى عينيها حيرة ٠

ـ أنت الملومة يا زنوبة ٠ لماذا تفتحين عينيك عليها فجأة ٠ المسألة يجب أن تترك للزمن ٠

ثم أطبق شـفتيه وتظاهر بالنـوم ، وأرسـل شخيرا خفيفـا من منخريه ٠ لكنها اكتشفت خدعته الساذجة فضربت ساقه بساقها وهمست فى دلال : حان الوقت يا جمال ـ فمد يده الى صدرها يدغدغ رمانتيها ، فضربت على يده وهى تقـول : أقول لك ان الوقت حان ، فتمـد يدك الى صدرى ! يا لك من ماكر ٠٠ يجب أن نعود الى عشنا فى معروف ٠٠، فضحك وسخر منهـا : قولى عشـتنا يا شيخة ٠ فزوت ما بين حاجبيها وهمست : لا أطيق الحياة هنا يا جمـال ٠ التعويضـات انتهينا منها ٠ وليستنا فى حاجة اليك ٠ فصمت مليا ثم لكزها وهو يقول : اسكتى فأنت لا تدرين شيئا ، يجب أن نبقى حتى تستقرا فى مكانهما الجديد ٠ حينذاك نعود الى مصر ونعمل ، فرقصت الفرحة فى عينيها وقالت : لنعمل ! اذن فقد وافقت أن أعود الى قصر الباشا ولن تصيبك الغيرة ٠ ففرك أذنهـا وقال : كلا ـ لن أسمح لك بالعمل ٠ فتأملته على ضوء القمر المتسلل من خلال الكوة وشهقت وهى تهمس : لا تعبس هكذا يا حبوب ٠ ثم أخلدت الى الصمت لحظات غامت فيهـا عيناها وحملتهـا الذكريات عبر الـكثبان

والحقول الى معروف ، الى كل مجالات مصر ، فأرسلت تنهيدة صعدتها من قلبها وقالت يا سلام كم أحن اليك يا مصر ، فتثاءب وأمرها : نامى . ملعون أبو الدنيا ، ملعون ابو مصر . نامى يا ست .

وفيما عدا جمال فانها لم تأنس لأحد من الرجال الا عبده الفرنساوى . فكم استقرا على عتبة البيت يتذكران مصر وشوارعها والحفلات التى أقيمت فى مصر الجديدة وقصر البارون امبان وفى الزمالك . واستهجن جمال فى أول الأمر صلتها بعبده الفرنساوى ، لكنه تطامن بعد قليل . فزنوبة يكاد يقتلها الملل والسأم ، فلماذا لا يترك لها متعة هذه الصداقة مع رجل عجوز تأنس اليه .

وفيما عدا زنوبة والشبان الذين وفدوا وحفلتى الزفاف والجنيهات الخضراء فان كل شىء فى القرية ظل كعهدنا به اذا ما ألقى المرء نظرة عابرة على الناس وحياتهم . أما اذا تعمق هذه الحياة فانه سيحس بالتغير الحقيقى الذى أخذ يضطرم فى قلوب الناس . لقد عاشوا فقراء لكن باسمين ، تغربوا كثيرا وتفرقوا وعانوا الآلام ، ولكنهم كانوا يعرفون دائما ، وهم فى أرض الغربة ، أنهم عائدون يوما الى بيوتهم ليناموا نومتهم الاخيرة فى جبانتها العمومية .. أما اليوم فانهم يشعرون أن كل شىء ، ان حياتهم كلها تتسرب قطرة قطرة .

فمنذ شهور كانت النوادر والنكات ، وحسين فييس وأحلامه الوردية الكاذبة ونوار الفول وأريجه فى الحقول ، والموسم وفرق الحلب وضاربات الودع والباخرة وتوقع الرسائل والطرود والخلود الى الزوجات اذا ماانتصف الليل ، والدف وأنغامه ، هو الذى يصبغ الحياة بألوانه الساحرة فيبسمون لها سعداء رغم الفقر والجوع . أما اليوم فان حياتهم فى مهب الريح لا تراها فى عيونهم الا قلقا يلمع ، وهواجس تنوء الصدور بها فتطفح على الوجوه غضونا تضيف الى السنين وتحنى الظهور ، وتقلص الشفاه وتعجل بخطاهم الى القبر .

تأمل فى رفاق العمر هؤلاء الذين وقفوا على الشاطىء عند الموردة يطلون على النيل يقيسون أبعاد مجراه ويقارنون بينه وبين المنسوب الذى سيبلغه الطوفان .. تأمل فقد يطالعك وجه المأذون والجزار وفضل وعوده بغضون كثيرة وشفاه مزمومة ..

لقد أصبح الصمت داء يعانون منه ، فلا يتبادلون الا كلمات قليلة عن مصر والنادى وبدر افندى طريح الفراش .

ـ مصيبة ٠٠ لا قبل للناس بها ٠ شيء يكفر ٠ حتى بدر افندى أقعده المرض ٠

فانعطف الجزار برأسه فى سرعة وقال : استغفر الله يا صابر ، مصائب الغير أدهى وأمر ٠ أجارك الله من عذاب الضمير ، وسكت ليطالع نظرات التأنيب فى عيون الآخرين : صفاقة ! حنث بالفاتحة ٠ وعاد يتكلم عن الضمائر ! واغتم حين قال الشيخ فضل : حقا يا صابر ٠٠ لكل الناس مصائب يبتلون بها لكن مصيبتنا من النوع « الدكر » الذى لا مثيل له ٠ وهز رأسه قليلا وعاد يقول : أن تغوص سفينة بمن فيها من نساء وصغار فى يوم عيد مصيبة ، أن يحترق بيت ٠٠ لكن الدنيا تظل رغم ذلك بخير٠

وحار الجزار وهتف متعجلا : مصائب وحرائق وخير ـ فضك يا رجل من الفلسفة ٠ فتجهم فضل فى وجهه واسترسل: الدنيا تظل بخير رغم ذلك ٠٠ صبرك بالله يا عوده فاننى لا أتفلفس ٠٠ أجل الدنيا تظل بخير ما دام هناك آخرون يقدمون العون ، ما دام اليتامى الذين غاص آباؤهم فى اليم يلاقون العطف منك ومنى ٠

وبصق ثم أنشب أظافره فى التراب ومضى يرسل كلماته الحزينة : الذين لم تحترق بيوتهم يساعدون فى ضرب الطوب وحفر الأساس وتقليم الجذوع ويقيمون بيوتا للمنكوبين ٠

وصاح الجزار من جديد : والله اننى لا أفهم ما تقول يا فضل ٠ فهتف الرجل غاضبا ٠ ومتى كنت تفهم ؟ ألم تحنث بالفاتحة يا رجل ؟ ألم تصرف قبل كل الناس ؟ لماذا تحشر نفسك فى كل حديث ؟ واستدار الى أحمد عودة ، حين أطرق الجزار برأسه الى الأرض ، وقال : لكن المصيبة التى تتهددنا مصيبة لا مقيل منها ، فسوف يحل الطوفان بنا جميعا دفعة واحدة ٠ كل واحد سيكون مسئولا عن نفسه ، لن يتمكن أحد من مساعدة غيره ، سنكون جميعا مثل السمك يهيج ثم تلقى الشباك عليه دفعة واحدة ٠

وفغر الرجال أفواههم وأطبقوا الشفاه على كلمات ارتفعت الى حلوقهم ، ثم نفض الشيخ فضل يده من التراب كأنما ينهى حديثه ٠ وربت بهما على ساقه الخشبية ومضى يزك بها مبتعدا عن رفاقه دون أن يقول كلمة وداع ثم تبعه الآخرون صامتين ٠

★★★

وفى المساء ، وعلى المصاطب وعند ساحات المتاجر ، كانوا يتجمعون ويتلاحون ويحاولون البحث عن أفضل الطرق لاستثمار جنيهاتهم الخضراء : ويقفز وابور بينهم فتحتدم المناقشة ، هاتوا فلوسكم وسوف تكسبون الذهب • مقهى فى أسوان • جاراج فى الاسكندرية • بوفيه فى أحسن ميدان فى مصر أو الاسكندرية • قمينة للفحم من أخشاب السنط يا بشير عثمان •• بئر فى الغرب تزرع الأرض أو سوق فى القرية الفلانية بالأقصر ، يبتاع منها المسافرون ، لكن القطار لا يقف هناك • وماله ؟ سنطالب بانشاء محطة هناك • طيب دعونا من كل ذلك • ألا نستطيع تربية الماشية •

فيشيحون عنه بوجوههم ولا يفكرون الا فى اختزان أوراقهم الخضراء فى السحارات • الا بشير عثمان فقد انحاز اليه وقرر أن يحفر بئرا فى الصحراء •

وغمغم نوح : لو اشترينا مليون شتلة نخل من السودان • ها • ها •• سوف تموت يا نوح والكراديف فى أحضانك ، فيصمت الرجل ويجتر أحزانه • بينما يلتفت أحمد عودة لأبى ويهمس : اشتريت أرضا فى الطود• ونشر خريطة من مصورات المساحة أمام عينى أبى ومضى يشير بعود ثقاب هنا وهناك : الحوض نمرة ٥٠ فى الطود • الفدان بجنيهين • فيمعن أبى النظر فى الورقة ولا يدرك شيئا مما يقوله ، واذا أدرك فانه لا يؤمن بكلمة واحدة من حديثه : صحيح أن الارض بور لم تركبها المياه بعد • ولكن الفدان بتراب الفلوس •

ويكاد أبى يقتنع الا أنه يتردد وهو يذكر قصة حجاج جد سعدية الذى جمعت العائلة له تعويضاتها فراح وجاء ورشا موظفى المساحة وعاين الارض وعاد دون أن يقدم حجة تمليك واحدة ، فظنوا به الظنون • انه فى مصر قابع فى الجيزة يتشفع ، والأسرة تنتظر وتلطم الخدين متأملة حبات الذهب التى بدأت تبرق حول عنق زوجته العجوز • لقد خانهم الرجل • كلا ان الرجل لا يمكن أن يخونهم ، ولكنه مبذر والموظفون يضحكون عليه ويبتزون أمواله •• مسكين • لا يا أحمد • لن أشترى أرضا الآن • لكن الاسعار سترتفع بعد قليل •• كلا • كلا •• قلت لك اننى لن أشترى أرضا يا أحمد •

وقال نوح : كلا • •أنا لن أشترى فى الصعيد •• سوف يقتلوننا هناك • لماذا لا نشترى فى بلانه ؟ فى الجنوب بالقرب من « أبو سمبل »

هناك اخوة لنــا ، ولن يبلغ الطوفان أراضيهم • أنا ومندوهه سنرحل الى بلانه اذا قدر لنا أن نشترى هناك •

وهز أبى رأسه حائرا ثم قال لفضل : الغرب أفضل عند كران نوج• فتبسم الرجل وربت على ساقه ثم على ظهر أبى وانصرف الى بيته •

★★★

وأقبل الموسم وما زالت الحـيرة والارتبــاك يسودان عقول الناس ، فاستقبلوه فى فتور ، واخترق الحلب قريتنا من شـــمالها الى جنوبها ، فلم يحفل بهم الا الصغار وحسن المصرى الذى التقى بضاربة الودع فى الخرابة الملاصقة لبيت داريا سكينة• وشكت المراكب الشراعية السوداء من الكساد وران الوجوم على وجه باشرى فبدا حزينا لايبارح سفينته الا لحظات قصيرة يتردد فيهــا على دكانة أبى : النخل كيف يا شيخ أمين : ارادة الله • بعد سنين لن تكون هنا نخلة واحدة • فى « دابود » الصخور تخنق كل شتلة نحملها من هنا أو من السودان •

واستدار الرجال به يعجبون من حديثه عن النخل ولا يصدقون أن أشجارهم سوف تموت ، لقــد عاشت مئات السنين وســوف تصمد الى الأبد • لا يا رجل •• لا تيأس من رحمة الله • سوف ننتقل الى الغرب ونراها من هناك ثم نلقحها وننتظر ثمارها كما كنا نفعل فى كل موسم• وأراد الرجل أن يجادلهم لولا أن قاطعه الشــيخ فضل : باشرى • نحن فى حاجة الى مراكب شراعية تحملنا الى الغرب •

وحمى النقاش وهز باشرى رأسه وقال: بعد شهر أقود الى مراسيكم مراكب كبيرة تشترونها• أما البيوت فى الغرب فانكم ستبنونها بأنفسكم• كلا •• لن نتمكن •• نحن نريد أن نبنيها بسرعة •• اذن فسوف أتكفل بذلك ••• لقد انتهى ألوف البنائين والحجارين من عملهم فى التعلية •• وعادوا الى الـكلح •• قريتهم •• اننى أعرف الـكثيرين منهـم • ناس طيبون •

وتذكر حسن المصرى شيئا فتغضن وجه وأربد ، وكز على أسنانه سيبنون لكم بيوتا كالحة • الأفضل أن تأتوا ببنائين من سوهاج •

ولم يبال به أحد الا باشرى الذى قال: لكننى لا أعرف السوهاجيين•

★★★

وعند الأصـيل من اليوم التـالى أعد باشرى سفينته فجمع حبالها وفرد أجنحتها البيضـاء وتوقف هو وولداه على حافتها يطلون فى اشفاق على الشاطىء الاخضر ، الشاطىء الذى عادوا اليه عشرات المرات ، الشاطىء الذى لن يعودوا اليه بعد ذلك .

ثم أقلعت السفينة فأخذت أشجار النخيل تصعد نحو الجنوب فى تثاقل شديد وأمسكت بالشراع غصون تقبله فى عناق حار ، وارتفع بحر ، ابن باشرى الى الصارى وأزاح الفروع وفك الشراع من اسـارها فامتلأ بالريح ، ومضت السفينة تجرى مع التيـار حتى تجاوزت النتوء وألقت بنفسها بين أحضان المجرى الواسع ، والرجل ما يزال على حافتها ، يطل على الشاطىء الطينى الأسـمر وعلى الرجال الذين وقفوا يلوحون ، بينما أطل « بحر » على النيـل يدرس تعرجاته ودواماته . فقـد قرر باشرى الحاقه بعمل ما فى رفاص أو يخت بأمل هفـا قلبه اليـه دائمـا أن يتمكن ابنه من قيادة باخرة من هذه البواخر التى تمخر النيل بين الشلال وحلفا .

وتريثوا حتى غابت السـفينة السـوداء وراء الأفق عنـد المنحنى فانعطفوا الى الطريق الزراعية يدبون عليها صامتين لا يتبادلون الا همهمات قليلة غامضة .

وتبدى عند بداية الطريق شـاب أسمر انحلت عمـامته وتطايرت حول كتفيه ، تهتز كلما لكز حماره أو أوجع ظهره بكرباج قصير فى يده اليمنى ، فتلفتوا اليه ولمحوا على وجهـه أمارات حزن ثقيل ، وعلى ثيابه غبار سفر ، فتوقفوا يراقبونه حتى دنا منهم ، فتعرف عليه المأذون وصاح: أحمد .. ماذا وراءك يا أحمد محمود ؟! أهو الطوفان يا أحمد ؟

فلم يتوقف الفتى بل أسرع بركوبتـه يجتـازهم ، الا أنه انعطف بوجهه اليهم وهتف فى صوت مختنق : انا لله انا واليـه راجعون ... لقد انتهى الرجل . فصـاح به الشيخ فضـل : ماذا تقول ياولدى ؟ من الذى انتهى ؟.. فتلفت الى الخلف ، وهو ما زال يلـكز ركوبته ، وقال فى حزن تلمع الدموع فى نبراته : بدر افندى . مات عند الظهر فى بيته ! ومضى لا يلوى على شىء بينمـا ترنحت قدما الشيخ صـابر ، فجلس على الأرض يذرف الدمع بين كلمات حزينة دارت فى حلوق الآخرين .

ومد الرجال أطراف أصابعهم الى العيون يكفكفون دموعا ساخنة تألقت فيها وأطرقوا بالرءوس خاشعين للقدر العاتي ٠٠ انا لله وانا اليه راجعون ٠٠ لا حول ٠

وبدت القرية واجمة حزينة ٠ وكأنها في مأتم كبير وتحركت أقدام وأسرجت ركائب مضت بالرجال عبر الجبل يجتازونه الى « النجيلية » في الدر ، الى بيت الرجل يلقون على جسده المسجى نظرة وفاء قبل أن يواروه التراب ٠

٤١

وأقيمت المآتم في كل نجع ، وأطلق برعي لحيته وهام في الطرقات شهرا كاملا ٠٠ ينطلق من النجع الى الجبانة يترحم على كل الموتى ٠ فهم أحباؤه بعد أن كره الأحياء ! ألم يخونوا الرجل الذى افتداهم بحياته ؟ ألم ينقلبوا عليه ؟؛ تعسا لهم جميعا ٠٠ لماذا يعيشون وقد مات الرجل ؟! الحياة ليست الا مقبرة ٠

غير أنه انقلب بعد وقت قصير ، فأزال لحيته وجال وصال في أماكن اللهو كأنما يغرق آلامه في بحر عميق الأغوار، ولم يعد الناس يرونه الا في صحبة جمال والندمان من شبان مصر العائدين ، يغرقون همومهم في كئوس العرقي وأنواع أخرى من الخمر سالت في قرانا لأول مرة في حياتها على جروف النيل ٠ فقد رست على الشطئان مركب شراعية مزدانة بالأعلام والبيارق تفوح منها رائحة غريبة تنبعث من دنان رصت في قاعها ٠ وهرع اليها الفتيان من كل نجع وعادوا وبين طيات ثيابهم زجاجات الزوتس والكونياك يتجرعونها على ضوء القمر ، قبيل اقامة حلقات الذكر !

وانفلت برعي من نجع الى نجع، بل من قرية الى أخرى يزور صحاب

الزنزانة وفى رفقته المحامى وجمال · وعادوا يقصون النوادر والروايات المضحكة عن النجوع التى زاروها والقرى حلوا ضيوفا على ندمائها ·

ففى قرية الى الجنوب خبا نفر من الشبان زجاجاتهم فى سلال من الخوص الملون حملوها الى المقابر يفرغون الكئوس على مشهد من الاجداد والاباء الراقدين ، ونبات الصبار المتجهم الحزين الذى لم يبال بضحكاتهم العالية · ثم أخذ السكر بهم كل مأخذ فترنحوا هنالك وجلسوا يتبادلون الزهو بالجنيهات الخضراء التى حصلوا عليها· سنصرفها فى أيام ثم نرحل الى مصر ، لا ياشيخ · هل الدنيا الا الخمره · ماذا تقول ؟ والله انه ليتوضأ بالخمر ·· شخشخ ركبه ·· نعم رأيتها ســـكرانة تترنح وتكاد تعرى نفسها أمام الخدم · أليست أميرة ؟ أمثالك هم الذين يدخلون النار · أما هى ! ·· أما هــذا الرجل فولى من أولياء الله يشرب الخمر فتصل الى حلقه محرقة ، ثم تتحول الى لبن لا اثم فيه ·· اللهم لا تجعل خمرتى لبنا ·· مساكين هؤلاء الراقدون ·· انهم لم يشربوا الا العــرقى ·· لا مؤاخذة ·· عن اذنك ·

وقام الفتى يترنح وفى يده زجاجة كاملة ، انعطف بها الى قبر أبيه حيث وقف خاشعا يتمتم : كم أنت ظامىء يا أبتاه ! اننى أعترف بجميلك ·· لقد ورثت عنك كل هذا خد ·· اشرب يا أبى ! انك لاتعرف مذاق هذه الخمر ·· خذ ·· انها لاتسكر ·· كلا ليست زجاجة عرقى ·

ومضى يهز يده بقطرات الخمر من الزجاجة التى أمالها فوق القبر ، فوق الشاهد والصبار وقطع الحصباء : ولترتو عظامك حتى النخاع ·

وضج برعى والمحامى بالضحك ثم تجهما ، يراقبان فتى آخر داكن السوداء غليظ الشفتين مثقوب المنخر والأذن يتجه بخطى مترنحة الى أحد القبور حتى توقفعليه فى غضب يتمتم : نخلتان وبيتواحد تهدم وقيراط واحد ! لـكم عذبتنى فى الحيــاة ·· أنت لا تستحق غير الموت · وأهوى بعنق الزجاجة على القبر يطعن أباه ، فى القلب والبطن حتى خيــل له أن الدماء تسيل من جسد أبيه ·

ولقد سالت الدماء اذ تشرخ باطن يده وظاهره فتخضبتا بلون أحمر ارتاح له الفتى ، فأطلق قهقهة عالية لم يفق منهــا الا وقطعة حجر صغيرة صلدة ترتطم بصدره فتلفت حوله يسأل : من الذى يضربنى · ابنالكلب ·· أبى كان أحسن اب · أنا جدع · وهاج يريد البطش ببرعى ·· وحار

الندمان فى الحجارة الصغيرة التى انهالت عليهم فى غبش المساء ،وظنوا أن الأرواح تطاردهم ، فقاموا فى فزع يتعثرون فى طريق العودة . وهناك عند منحنى السفوح لمحوا الجسد العارى ينفلت مسرعا الى البيوت ، وهو يرمى بحجارته الصغيرة فى كل اتجـاه .. واحد .. صمد .. أحد .. طراخ !

***

وخيل لى فى تلك الايام أن برعى نسى شريفة وغرامه بها ولكنه انعطف مرة الى سعدية التى راحت تميس أمام عيوننا وغمز بعينيه كأنما يقول : مسكينة .. وقعت فى بسطاوى . انها غاضبة عند أمها منذ يومين !

وأطرق لحظة ثم قال : سوف أفاتح جمالا ، فاذا ما قبل تزوجت قبل الطوفان . فهززت رأسى تماما كما يهز الكبار رءوسهم وقلت فى وقار : أسرع حتى لا تفلت منك . ففرك أذنى وهو يضحك وهمس : تفلت منى ! مستحيل أنا وراءها للنهاية . كنا على المصطبة الداخلية فى بيتهم حينذاك، وقد هبط المساء منذ لحظات يغشى الفناء بظلامه لولا نور خافت ترسـله مسرجة فى يد أمه التى مضت تتحرك بين المطبخ ومخدع الاب ، فنظر اليها مليا واقترب وجلا وهمس : أمى . سأذهب لمقابلة جمال .. ما رأيك ؟ فتفرست فيه وأشارت الى المخدع فى يد مرتعشة وكأنها تقول : الرأى رأيه يا برعى ، فارتد كاسف البال وانكفأ على المصطبة يفكر ثم هب واقفا وارتدى جلبابه البوبلين وأمرنى : عد الى بيتك واياك أن تقول شيئا عنى هناك . سوف أذهب الى جمال .. اياك !

وتأبط زجاجة كان يخفيها فى حاصل التبن وانفلت الى تحويشة الجزار ، فقد تواعد جمال وندماؤه اللقاء هنالك بين أشجار النخيل .

وحياهم ثم انطرح على الأرض ومضى يقارعهم الكأس صامتا ، ويعب الخمر دون أن يسعل كأنه مدمن قديم ، ويستمع الى نوادرهم عن مصر . وعجب لهم حين قال أحدهم . مكثت طويلا هنا يازين .. أأنت خالى شغل ؟ كلا بل لقد سافر الكلاب الى سويسرا ؟ الـكلاب ! أتراه كان يخدم كلابا مثل لورد ؟ . ثم قهقه عاليا حين اتضح له أن ندمانه يلقبون كل مخدميهم بالكلاب !! .

ثم أخذه الصـمت ومضى يفـكر : سوف أفاتحه الآن . وكاد يهتف بجمال ، الا أن شيئا ما أمسك بلسانه . ألا ترى يا مغفل أنه سكران

طينه ؟ • وراح يرمق جمالا باعجاب ويشرب وفى ذهنه دوامة الحيرة : أيطلب يد أخته فى الحال ؟ أم يؤجل ؟ ولكن ماذا سيفعل اذا رفض ؟ ولماذا يرفض ؟ ألم يكن صديق صباه ؟ لكن شد ماتغير جمال • وتخيله فى أحضان زنوبة ثم تخيل نفسه فى أحضان شريفة فتحلب ريقه وانتشى ، ولعبت حميا الخمر فى رأسه وأرسل أغنية جميلة استمع اليها الرفاق فى نشوة • حتى زين ابن البيضاء الذى لم يفهم كلمة واحدة من اغنيته مضى يهلل له • عجبا لهذا الولد • ألا يعرف ما يدور بين أمه وحسن المصرى • لكنها اشاعات •• مجرد اشاعات •

وعاد الى الكأس والتفكير : متى تنتهى يا جمال ؟ • ان فى قلبى سرا أريد أن أنفضه عن صدرى فأستريح •• متى ؟ انك لاه عنى بنكاتك ونوادرك عن الست الكبيرة العجوز التى ارتمت عليك تفوح رائحة الخمر من بين شفتيها حين نام الناس فى القصر • والست الصغيرة التى وقفت أمامك عارية •• أمامك فى الحمام دون حياء •

وحانت الفرصة حين مال جمال على زين يأمره : اجمع بعض الكراديف يا زين واشعل النار • فالدنيا برد • فهب زين وبعض الندمان واقترب برعى يهمس : جمال ••• أريدك فى مسألة هامة •

ـ حاضر • فى الحال • اصبر •

وعب جمال كأسا ثم عاد اليه : هيه يا برعى ماذا تقول ؟ فجمع شجاعته وكور الكلمات فى حلقه ليقذف بها مرة واحدة ، الا أن شيئا غريبا حدث فى اللحظة التى حرك شفتيه فيها ، فقد انبعثت فى النجع جلبة حبست الكلمات فى حلقه وأطارت نشوة جمال ورفاقه فهبوا من مجلسهم يشبون على أقدامهم على سور التحويشة ويشرئبون بأعناقهم متسائلين ؟

وانزعج برعى ، ولكنه قال هامسا : لا شئ يا جمال • انه كلب يطارده العيال •

ـ كلا يا برعى • تأمل فى الساحة أمام المتجر • هناك رجل يصرخ بكلمات عالية • تعال راقب الأمر بنفسك • اسمع ماذا يقول ؟

ودنا الصوت الداوى من التحويشة • واتضحت نبرات الرجل • نبرات محمومة تدوى فى النجع : ١٥ يوما •• انذار من الحكومة ، ١٥ يوما !

واشرأب برعى بعنقه وأصاخ السمع واخترق غبش المساء بناظريه، فرأى الشيخ فضلا يعبر شريحة الارض المزدحمة بالحلفا يزك على ساقه الخشبية متمهل الخطى حتى تعثر بجدول مردوم وأفلت ساقه فانكفأ على الأرض مرسـلا آهة قصيرة أنشب بعدها أنامله فى التراب كأنمـا يبحث عن شيء ضاع منه ، فقفز برعى من السور الى الطريق وأسرع اليه ومن خلفه جمال ورفاقه ومضى يصرخ : ما بك يا خالى · أأنت مريض ؟ ساقك ؟ هذه هى الساق · ولم يقل الرجل كلمة واحدة بل أشار فى اتجاه الساحة الى الرجل الذى استدار به الناس وصرخاته الهستيرية : ١٥ يوما وبعدها الطوفان ·

ودلفوا الى الساحة فى اللحظة التى كان أحمد عوده يقول فيها : عملها ابن الكلب ·· احتفلوا فى أسوان بالسدة الشتوية الأولى ! وماذا نفعل يا « وابور » ؟ وأجاب هذا فى صوت مختنق بح من صرخاته الداوية: يجب أن نعزل بسرعة الى أى مكان حتى لا يفاجئنا الطوفان ·

وران الصمت لحظة بدت فيها الوجوه مقطبة عابسة ارتسم عليها ما كان يعتمل فى صدور الرجال والنساء من ألم وخوف : يا لله · خمسـة عشر يوما ثم نتفرق ! البعض الى الغرب وآخرون الى الصـعيد أو الى الجنوب ؟

كانوا واجمين · وكانوا كتلة من اللحم تسرى فيها شحنات الغضب والحقد والعجز واليأس واختلاجات البكاء ·

وعبر باب المتجر بالقرب من الشونة تمايلت أشجار النخيل فى أسى ترنو الى السـماء فى حزن صامتة صمتا قطعتـه نخلة سامقة : مدى جذورك فى الأرض حتى لا تقتلعك الأمواج ، وأنت أيتها الصغيرة ارتفعى الى السماء قليلا حتى لا تختنقى ·

وفى المتجـر كان الرجال يشـبون بأقدامهـم يطـالعون فى أوراق النتيجة المعلقة على الحائط يعدون على أصابعهم ما بقى لهم فى ديارهم من أيام ·

ولمعـت الدموع فى العيون ، وأطـرقت الرءوس ثم انفلتوا يعبرون الساحة ثم الطريق الى بيوتهم ·

٤٢

يمكنك أن تعتقد وأنت جالس على حافة السفينة الشراعية أن القرية خالية لا يتحرك فيها أحد ، فان غابات النخيل الكثيفة تحجب عن عينيك ما فيها من صخب وأشجان تغور في الصدور وترتسم على الوجوه .

فمنذ أن تنادى الناس بالانذار ازدادت هذه الوجوه عبوسا ، ودب الشيب المبكر في بعض الرءوس . وراح الرجال والنساء يهرعون هنا وهناك . ويذرعون القرية من الشمال الى الجنوب كأنما يطوفون بها المرة الاخيرة ، ويتلاقون عند مفترق الطرق ويتهامسون كأنما هم في مأتم : دنيا . سبحان مغير الأحوال . يفرجها الله . ويتطلعون الى السماء في ضراعة .

وأخذ المحامي وسيد وابور يعترضان طريقهم صائحين : علام هذا الجرى هنا وهناك ؟ استعدوا فالايام تجرى .

ــ وماذا نفعل ؟

ــ هدوا هذه البيوت . انقلوا أمتعتكم الى الغرب .

ــ لكن مهلة الانذار قصيرة .

ــ اشتغلوا وسوف نطلب مهلة .

ــ ممن نطلب المهلة يا وابور ؟

ــ من الحكومة .

ــ حكومة ! أية حكومة ! لن تسأل عن شكوانا .

***

وتوقفوا أمام دار العمدة حين شاهدوه مستندا على كنبة عالية

مفروشة يبتسم لابنه ولنائبه ويلقى اليهما بكلمات خافتة عن الانذار .
فتريثوا حتى فرغ لهم فحيوه بقلوب صافية فقد أحبوه منذ رحيله الى
أسوان بأمر المستر هيس .

كان قد عاد قبل أن ترحل اللجنة بيوم واحــد وعلى وجهه آثار ما كابده فى أسوان على يد الحكمدار والمدير الذين اتهماه بتحريض الناس على مقاطعة التعويضات ، فتخلص من أسئلتهم بلباقة وبمزيد من التملق والثناء . وأمراه أن يعود ليكون أول انسان يصرف تعويضاته ... حاضر يا سعادة الباشا .. الأمر أمرك !

ثم تعلل بمرض أصابه وبقى فى المستشفى أياما حتى وافته الأخبار تؤكد أن الناس قد بدءوا يصرفون فاتصل بالمدير والحكمدار وأوهمهما أنه امتثل لأوامرهما وأرسل للناس من فراشه ليصرفوا تعويضاتهم .

ثم عاد واللجنة تكاد تنهى أعمالها وكان آخر انسان تسلم أمواله وها هو حائر مثلهم لا يدرى ماذا يفعل .

وأفسح لهم مكانا على المصطبة يقلبون الأمر على وجوهه المختلفة دون ترتيب فى أول الأمر ، فان كل انسان كان يبدى رأيا ثم يعدل عنه . كانوا يبدأون من نقطة وينتهون عند غيرها دون أن يصلوا الى قرار ما : حتى سئموا النقاش فأخلدوا للصمت لحظات استدار فيها الجزار الى المحامى بعد أن أرســل رذاذا من فمه تناثر على وجه المحامى وقال : سأبقى هنا أنا وصغارى .. هنا فوق الجبل ..

ولم يصدق أحد فان الجميع كانوا يعرفون أنه كذاب ويخفى أمر رحيله المزمع الى مكان بعيد . فانه لم يعد يحب الناس كما أن الناس لم يعودوا يحبونه فلماذا يبقى معهم ؟ ولماذا يرحل اذا ما رحلوا ؟ ..

وتفرس المحامى فى وجه الجزار ومد أصبعا كأنما يريد أن يفقأ عينيه وصاح :

ــ الى متى تكذب يارجل ؟ ابنتك أنبأتنى البارحة أنك راحل الى طنطا .

فتظاهر بالدهشة ثم أطلق ضحكة قال بعدها : والله انك عبيط يا محامى .. أتصدق فتاة مجنونة مثل ابنتى ؟ وتأمله برعى قليلا فى عجب ، ثم تفرس فى وجوه الآخرين وقال : وكيف يرحل الذين يريدون الانتقال الى الصعيد ؟ فوجموا لهذا السؤال . صحيح أن غطاس بك قال

لهم مرة أن الحكومة ستساعدهم في الانتقال ، ولكن يوم الحكومة بسنة ، وقد يأتى الطوفان قبل أن تفكر فينا . فاستداروا الى العمدة يتوقعون اجابته .

قال : اطمئنوا .. لقد اتفق الحكمدار معى على ارسال صنادل تقلكم الى الصعيد .

قالوا : متى ياحضرة العمدة ؟

قال : أيام بسيطة ثم ترسو الصنادل على شواطئنا .

وقال وابور : عال بقيت المهلة . الا ترى ياحضرة العمدة أن نبعث ببرقية طويلة نطلب مهلة أخرى نرفقها بشكوى مفصلة .

واعتمد الرجل رأسه بين راحتيه ، مطرقا برأسه يفكر فيما قاله وابور ثم رفع رأسه ليقول :

أكتبوا البرقية والعرضحال فورا . وسوف أطلب من المأمور بنفسى هذه المهلة غدا .

وهنا تدخل سفرجى باشا فى الحديث بنحنحة عالية أدارت الرءوس نحوه ، فانشأ يتكلم فى أناة وصبر وكأن الطوفان لن يحل بهم الا بعد قرون . بسمل وصلى ثم انطلق يسرد ذكرياته عن القصر والكلمات النوبية التى تعلمها الملك على يده . وتكلم عن الباشوات وعاداتهم ، وماذا يشتهون وكيف يشربون : محمد محمود باشا صعيدى . قلينى أحب تركية اسمها بلقيس ، والنحاس هليهلى . أما زيور فيصلى وهو سكران . وصدقى مكار ولكنه انحنى أمام الملك وقبل أياديه يوم تولى الوزارة وانتهى الى أن المسألة كلها موكولة الى الله والوساطة وكتابة التماس الى مراحم دولة الرئيس والسدة الملكية .

ثم تمخط وسكت وراح يرمق الناس وكأنما قال الكلمة الفاصلة التى هم فى حاجة اليها . ورغم أن ذكرياته جميلة ومغرية فان الناس لم يفهموا معنى لها ، لكن الجزار انبرى يقول : عفارم عليك يا افندى . قصر الدوبارة هو المكان المناسب لشكاوانا .

وابتسم العمدة ، فاطمأن الجزار ، الا أن وابور اندفع يقول : الا قصر الدوبارة . أتريد ياحضرة العمدة أن يقول الناس فى « الجرانيل » أننا لجأنا الى الانجليز .. لعنة الله عليهم . والتفت الى عبد الله وقال ضاحكا : يا عبد الله انك لا تنسى الشهرين اللذين خدمتهما فى قصر

الدوبارة . فالانجليز انجاس ... والله انجاس . بلا قصر الدوبارة . بلاها يا أخي .

ثم انكب المحـــامي يكتب وأسرع برعى بما كتبوه بعد أن تأكد من توقيعاتهم الى مكتب البريد فى ابريم . : فالمسألة مســـتعجلة ياولد . اياك أن تتأخر .

ويبدو أن نبيا ما قد طاف بالقرى يزين لها كتابة هذه الشـــكاوى وبرقيات الاحتجاج . فانهالت على دور الحكومة فى أسوان والقاهرة . ففى كل مكان ، فى القرى ومختلف البنادر والمدن تزاحم النوبيون على مكاتب البريد يرسلون الشكاوى والاحتجاجات عبر الاسلاك حتى بلغت أربعين ألفـــا فى الأيام الخمسة الأولى تلقـاها الموظفـون دون اكتراث وأودعوها سلة المهملات .

وقد تجرأ النـــاس فى الدر وفى بعض القرى فطالبوا بالافراج عن حسين طه الذى أوصـــدت الأبواب فى وجهه فعاش مع المجرمين يقطع الحجارة فى ليمان طره .

ويبدو أن الناس كانوا لا يؤمنون بجدوى هذه البيانات والشكاوى فى مصيبتهم ، واثقين أن صدقى باشا لن يكترث بها . ألم تنشر الصحف صورته وهو يقص الشريط الحريرى فى أسوان ايذانا بالسدة الشتوية الأولى .

لقد بدأت الجفون الحديدية الغليظة تنسدل جفنا بعد آخر على عيون الخزان الواسعة ذات الرموش الجرانيتية الصلدة . فراحت المياه ترتد الى الخلف تغرق القرى الشمالية وتملأ خور رحمة ثم تفيض على الجانبين ، وتسرع الى الجنوب تكتسحه شبرا بعد شبر . وها هو النيل يرتفع مربد الوجه كالحا على الشطئان . ولن تجديهم برقيات الاحتجاج فتيلا ، فالحكومة لن تبالى بها . فانفلتوا يقتلعون أشجار السنط ويكومون العلف الجاف على الشـــاطىء ـ ويهدون ســـقوف البيوت وينتزعون الأبواب ويتعـاقدون مع أصحاب المراكب الشراعيـــة ويتجولون على كثبان الرمل فى الغرب حـــول « كران نوج » يتخيرون الأماكن التى ســــوف يستقرون فيها .

وها هو حسن المصرى وبرعى وجمال يعملون منذ الصـــباح فوق

ساقيتنا يفكون تروسـها ، بينما أنا جالس على الهودية المرتكزة فوق الأرض أرقبهم متطلعا الى النيل الذى عرفت منبعه وميماته السحرية وعيونها الثلاث فى مكان ما من أرض الجنة .

وغاصت بى ذكرياتى الى ماض بعيد فتخيلته وهو يبتلع شريفة . وتصورته هائجا مائجا يندفع دائما الى الشـمال ويرتطم بالفلوكة التى ما تزال رابضـة أمام عينيى فى الموردة ، تواجه الجـزيرة التى وقف « اش الله » على شاطئها يساعد أباه فى اقتلاع شادوف من مكانه ، ثم يتسلق الجدار الى سقف يقتلع جذوعه ويلقى بها الى الارض .

كل شيء فى قريتى يتهـدم : السـواقى والشـواديف والبيـوت والحظائر : كل شيء يتلاشى .

وأفقت على صوت جمال : حامد . اجمع هذه الحبال فسـوف نحتاج اليها . فقمت أجمعها وأكومها على الشاطىء وفى قلبى حزن ثقيل .

وحانت منى التفاتة الى الشرق فرأيتهما تقبلان : زنوبة وشريفة . تحملان وعاءين نحاسيين يتوهج ضوء الشمس عليهما فيلقيان بريقا أصفر على وجه السمراء وسحرا غريبا على وجه البيضاء . ودنتا من الموردة . وتوقفتا تتهامسان : زنوبة . لا تقولى شيئا لجمـال ، فان حسن المصرى غريب لا أهل له ولا هو من ولد العم ولا الخال . ولا هو من النجع . انه حلبى وسوف يقتلنى جمال اذا ما عرف .. اياك يازنوبة .

ـ كلام فارغ . وهل كان جمال من جنسى ولونى .. انه القلب يا شريفة يميل فيتزاوج الناس .

ـ لكن برعى يريدنى . أنظرى اليه ستدركين حبه .

ـ ولماذا لا يتقدم لجمال ؟

ـ تقدم لأمى فصـدته لعل البسطاوى يتزوجنى .

ـ ياه .. أوف .. تقيل الدم . الحمدلله أنه تزوج من سعدية .

ـ كان غريبا زواجهما الفجائى يازنوبة .

ـ ربنا أمر بالستر .

وتنبهتا لوجودى ، فأطبقتا الشفاه ، ومضتا تعبثان بقدميهما فى الماء ، بينما الرجال لاهون عنهما فى فك التروس والقواديس وتكويمها على الجدول الكبير . لكننى دنوت منهما أتأمل وجه زنوبة الأبيض أتوسم

فيه وجه زوجة خالى عثمان فى مصر . وقررت أن أسألها عن شىء ما لأسمع صوتها الجميل . الا أننى توقفت فجأة حين رأيتهما تتجهان ببصريهما الى الشمال ترقبان خطوطا سوداء تتحرك على سطح الماء ، وتنفث دخانا كثيفا يتعالى الى السماء . ليتبدد فى قبضة الريح . وراحت الخطوط تكبر وتعلو وترج النيل بطنينها حتى بدت قافلة طويلة من الصنادل تجرها بواخر سوداء صغيرة .

وتهشم قادوس فى يد برعى وهو يصرخ : الصنادل يا جمال . لقد جاءت الصنادل . ثم انطلق ينادى عبر الحقول . صابر .. ياشيخ صابر . جاءت الصنادل يا صابر . ومن خلفه جمال وحسن المصرى يعدوان الى النتوء الشرقى ، فاليه كانت تتجه باخرة صغيرة انفصلت عن القافلة بصندلها الطويل الأسود لترسو عنده . بينما القافلة تواصل طريقها الى الجنوب .

وصرت الأبواب فى الجزيرة وتطلعت عيون النساء والرجال فوق شاطئها الى القافلة ، وانقبضت صدورهم فسوف تحمل هذه الصنادل أعزاء تشتتهم فى أماكن نائية .

واستلقى بحارة الباخرة على الرمل يحدقون فى اتجاه زنوبة وشريفة اللتين توارتا خلف جذع ، تتلصصان عليهم وعلى الباخرة والصندل الطويل . بينما انهمك برعى يسأل عن الباخرة وكيف تتحرك قلاباتها ، فتركوه حائرا دون جواب ، بيد أنه تأكد أن الصندل سيقل المهاجرين الى الطود غدا أو بعد غد .

وعدنا أنا وبرعى فى المساء نتحدث عن الباخرة والصنادل حتى انعطفنا الى الطريق العام . ومن هنالك لاحظنا ، فى دهشة وعجب ، شيئا غريبا يرفرف فوق متجر ابى : شريطا أبيض طويلا بين ساريتين عليه كلمات عريضة باللون الاحمر .

وأدرك برعى سبب وجومى ، فأراد أن يبدد الصمت بكلمة فقال: جاء رجال الصحة وأغلقوا المتجر . وهززت رأسى فى كبرياء وأنا أقول : كلا . ألا ترى الباب مفتوحا ؟ .. وها هى بطة وزوجها يخرجان منه ويعبران الساحة الى دهليزنا . فأمعن النظر فيهما وفى الشريط ثم همس : تعال نقرأ .. آه .. المحل .. ثم تمايل الشريط مع النسيم فاختلطت الكلمات والحروف .

ودنونا من الساحة ودخلناها . وتوقفنا عند الباب نرتفع بعيوننا الى الشريط الأبيض ونقرأ الكلمات : المحل منقول الى البر الغربى . ٢٥٠ مترا قبلى كران نوج .

وأصابنى الوجوم رغم أن هذه الكلمات تكررت أمامى منذ يومين حين "مسك الشيخ شليب بكراستى يكتب : بعد أيام ينتقل الكتاب الى كران نوج .

وغابت الشمس وانسدل الظلام كثيفا على النجع وعلى الشريط الأبيض ، والعمدة ورجاله ما يزالون يدورون فى النجوع يأمرون الذين اعتزموا الرحيل بالتأهب .

وتجمع الناس من جديد فى الساحة يتساءلون عن المصير ويتناقشون فى أسعار النقل بالمراكب وظلم أصحاب هذه المراكب . وتوقفوا عن الحديث حين أطل عليهم مأذون القرية الشيخ صابر ، فأفسحوا له مكانا وتركوه يرتشف فنجان الشاى دون سؤال .. ثم مال عليه أبى يسأل : ومتى ترحلون يا صابر ؟ غدا باذن الله .. عند المساء يا أمين .

ـ حسنين سيسافر غدا . وسوف ترحل معه بطة .

ـ أيرحلان فى الصندل معنا ؟ .

ـ كلا ـ بل على الباخرة النيلية الى الشلال ومنها الى مصر .

وأحسست بانقباض فى صدرى . بطة سترحل وأبقى أنا وحدى مع الأم وأمراضها . يالله كم هى قاسية هذه الحياة . وطفرت الدموع من عينيى فسالت حتى شعرت بمرارتها فى حلقى . وزاد من مرارتها تلك الكلمات الحزينة التى أخذ الرجال يتبادلونها : غدا .. ياصابر .. لماذا لا تؤجل الرحيل ؟ مصيبة .

ـ مشيئة الله . هكذا أراد ولا راد لارادته . كم أود أن أبقى معكم الى آخر يوم . لكن الصنادل ..

ـ وهل يسافر أبوك أم ما يزال مصرا على البقاء هنا ؟ .

ـ مايزال ياعم امين .

ـ والحاجة ؟

ـ ستبقى معه . انها تخاف من القاطرات والعربات والبواخر فلكم عانت منها أيام الحج .

ـ لعلها تريد أن تركب « زبلن »

واستضحك الناس فلم يرسلوا الا ضحكات فاترة ٠

★★★

وقبل أن تبزغ الشمس كان الرجال والنساء يتجهون الى بيت المأذون يقتلعون الأبواب ، ويحزمون الأمتعة ، وينقلون بعضها الى بيت أبيه ٠

وقبيل الظهر كانت جدران بيته مثل جدران كران نوج ، معتمة رغم السقف الذى رفع ، فتأملته لحظة ، استندت بعدها الى جدار أرسل نشيجا خافتا اختلط ببكاء سبيلة زوجة المأذون ٠

٤٣

بدأت الشمس تميل وتتوارى خلف شواشى النخيل ، تملأ القرية بلون الذهب متوهجة على قضبان معدنية مغروسة فى الأرض ترسم الكنتورات المائية التى يبلغها الطوفان ٠

وأخذ شىء ما يغيب فى عيون الرجال والنساء كلما تعرت بيوت جيرانهم من كل شىء متحولة الى كائنات ممسوخة ترسل الرعب فى العيون ، فان الشمس الغاربة تقرب معها ساعات الوداع فى المساء ، مضوا يحبسون الدمع ، ويرسلون آهة بعد أخرى ، ويطوحون بعصيهم فى الفضاء بينما شفاههم تتمتم ٠٠ لا اله الا الله ٠ سبحانه الباقى وحده ٠٠ هيلا هوب ٠ أسرع يابرعى ٠ وأنت يا اش الله خذ هذا « اللحاف » ضعه فى تلك السحارة ٠ حسن يا مصرى شد حيلك يا سبع ٠٠

هكذا مضى الشيخ جعفر يصيح بنا ، ونحن نساعد الشيخ

صابر وزوجته سبيلة فى حزم أمتعتهما ونقلها الى النتوء الشرقى حيث رسا الصندل الطويل .

وانتهى كل شيء . فبدا بيت المأذون مهجورا خاليا الا من التراب وجحور تسرح العقارب والخنافس منها فى كل اتجاه . ثبتت عليه عيون الناس الدامعة فى حسرة وأسى صامتين صمتا قطعه صوت المأذون : تعالى . فقد آن لنا أن نسير . فجاءت مختنقة الخطا متثاقلة ، مطرقة الرأس وقد أحنت قامتها النحيلة ثم استدارت فجأة ورمشت بعينيها اللتين أحمرتا بلون الدم ، وتلمست الجدار بيد بينما اليد الأخرى تحيط بصغيرها المتشبث بصدرها فى نهم ، ثم انحنت على العتبة تقبل مواقع الأقدام وتنشج فى صوت مسموع : ليتنا بقينا .. لن أرحل يا صابر ، ثم راحت تبكى أمها وأباها اللذين ماتا منذ أعوام : التعساء يأماه لا يبلغون شبيكة . التعساء يا أبتى لا يفرحون . والغلابة ما من أحد يرحمهم . من لنا غيرك يارب .. هيء .. هيء .. وونور .. يارب ..

وأخذ الطفل يصرخ فلم تبال به . بينما زوجها يرمقها بعينين جامدتين ووجه عابس لا يقوى على احتمال بكائها ولا على الاقتراب منها .. انه لا يسمع حتى صرخات أحمد عوده : انتشلها من الأرض يا صابر .. لا تتركها تقتل نفسها من البكاء . فلم تبدر منه حركة تشير الى انه سمع بل مال الى جذع نخلة استند عليه متهالكا يبكى هو الآخر .

ومن بين الجموع تقدمت فضيلة تأمر سبيلة فى حزم : هاتى الولد يا سبيلة ولا ترضعيه لبن الحزن . فتطلعت اليها فى دهشة ، وتركتها تنتزع الصغير من بين يديها ، فاستدارت به الى برعى ثم عادت تحتضن سبيلة فى قوة تنهضها وتسير بها فى خطا متمهلة تهذى هذيان الحمى : أين بيتى ؟ .. حتى مصاغى سرقه صابر .. والسحارة .. سحارة أمى « هيء . هيء »

والرجال ، يرمقونها فى وجوم وصمت ، ولا يفعلون شيئا فقد انشغلوا عنها بدموعهم يخنقونها بين الجفون . متأثرين بهذا الفراق الوشيك ، وتوقع وداع أليم الشيخ صابر ، الرجل الذى أحبوه ، الرجل الذى عقد زيجات أبنائهم وبناتهم والذى عانى مرارة الحبس فى المركز من أجلهم .

وها هم يقتلعون أقدامهم ويسيرون فى خطا متثاقلة حول الزوجين، يسطفون الى الطريق الزراعية ويتوقفون حين يتوقفان لتأمل كل شيء من جديد ؛ شرائح الأرض وساقية البئر والحلفا .. وأشجار النخيل.

ومن النجوع الأخرى سارت على نفس الطريق مواكب أخرى تمضى متأنية . تتوقف بين الفينة والأخرى كأنما هى جنازات تحمل نعشا ثقيلا الى الجبانة العمومية .

وفى السكون الذى لف النجع .. السكون الذى لا تقطعه الا نهنهات سبيلة وصراخ وليدها انبعث صوت شائخ يركض على طول الطريق : صابر . ولدى . خذنى معك يا صابر ..

وهمهم أبى : مسكينة .. العجوز تجرى لاهثة . توقف ياصابر.

فاستدار وتوقف ؛ حتى اقتربت العجوز وارتمت فى أحضانه تمرغ رأسها بصدره ؛ ثم لحق بهما الأب ليمسك هو الآخر بكتف المأذون ليرمقه بعينين دامعتين تسحان على لحيته البيضاء .

ــ مع السلامة يا ولدى .. مع السلامة .

ــ مع السلامة . سامحنى يا أبى . ودعتك فى البيت حتى لا أحملك آلام الفراق .

وها أنت .. ما علينا . لماذا لا تأتيان معى ؟ ..

وانبرت العجوز تصرخ : سوف آتى معك وأترك العجوز وحده .. سأتركه تركه..ولم يصدق صابر كلمات العجوز فلسوف تتراجع. أنها لا تستطيع مغادرة النجع .. انها تريد البقاء .. هنالك فى الغرب . لتطل منه على النخيل والوطن القديم . أما أن ترحل فأمر صعب . انه يتركهما وسوف يعود لاقناعهما .. ليته لم يشتر تلك الأرض فى الطود .. ليته بقى . ولكن ..

واستأنف الموكب سيره حتى توقف على النتوء يواجه الباخرة الصغيرة والصندل بين مواكب أخرى سبقته الى النتوء .

وولت سبيلة ظهرها للباخرة ؛ واستدارت تواجه قريتها . مضت تتفرس فى كل نخلة وفى الشمس الغاربة التى تذهب خوصها ؛ وظلال الأصيل الطويلة . ولا يدرى المرء كم من الصور والذكريات انسالت على مخيلتها فى تلك اللحظة .. لعلها تصورت نفسها طفلة صغيرة تلعب بين

هذه الجذوع منذ عشرين عاما ، ولعلها تصورته ــ زوجها ــ يلعب معها لعبة العروس فى ظهيرة يوم تحت غصون هذه الشجرة . لكم مضى يقبلها حينذاك والفتيان يستحثونه . ولعلها تصورت الفانوس فى ساعات السحر .

وهنا بالقرب من هذا النتوء توقفا هى وصابر فى صباحيتهما الأولى . ومن هذا الطريق عادا الى بيتهما الجديد والشمس تداعب عيونهما باشعاعاتها الدافئة . انها حياة كاملة تلك التى تتسرب فى هذه اللحظة أمام عينيها . فهاهى تمضى على هذا الصندل الى غير رجعة . تمضى الى بلاد نائية لا تعرف شيئا عنها . لك الله يا صابر . لماذا تكبدنا كل هذا الشقاء ؟ أنت أدرى بالذى قالته البيضاء . أنت أدرى بقصص حسن المصرى عن الصعيد . هناك لا يخرجن من بيت الا محمولات فى نعوش . هناك يقتلون الناس فى الظهر الأحمر . هناك الرصاص . وهؤلاء الأعزاء جميعا أحياء . حتى هذه التى تقبل نحوى فى احجام ــ لخصومة بينى وبينها لأنها لم تعز فى أمى ــ حتى هذه يصعب على القلب فراقها .

وتذكرت أمها . فأرسلت نشيجا متصلا .. ليتنى زرت قبرها اليوم قبل الرحيل . ليتنى فعلت ذلك قبل أن تلتهم الأسماك جسدها الطاهر . ولكن الأوان قد فات . ولا مناص من الرحيل . سامحينى يا أماه .

والقت نظرة على الناس . على أمين كلثومة ، وأمينه بابا ، والشيخ فضل وفضيلة وبرعى وأبيه وأمه .. فاختنق صدرها وانقبض . الجميع كانوا واجمين .. وعيونهم دامعة . فان كل واحدة مضت تتصور نفسها وهى تفارق الأحباب . تنتزع من بين أحضانهم وترحل .

ومضت الشمس تغوص خلف كران نوج بينما طار سرب من الغربان ارتفع فى حدقات العيون وأعولت الريح تصفر بين أجمات النخيل ، وتماوجت صفحة النيل وطفقت « الشمندورة » الحمراء تلمع وتتراقص عند الدوامة الهادرة . وتعالت صيحات الأطفال وصراخ النساء . وانطلق من الباخرة صفير مثل عواء الذئاب . فأقعى لورد وأرسل نباحه المطوط . وتعالى صوت الربان ، فوق ذلك كله ، فى حزم : تعالوا فقد حل المساء ــ لابد من الرحيل . فاخترق نداؤه شغاف القلوب ، فأقبل كل واحد وواحدة يعانق صاحبه . وعلى مقربة

من الرجال صغار يبكون فى عناد . صغار تعودوا أن يلعبوا فى الساحات معا حتى يغيب القمر ولن يلتقوا من جديد . فعرفوا الأسى والحزن الثقيل فى تلك اللحظة . فمنذ غد فى المساء حين يتجمع الصغار فى الساحات سيفتقدون لداتهم الذين رحلوا . وهذه فردوس وسعيدة وأمينة يهاجرن فكيف لهم أن يعاودوا لعبة العروس بدونهن ؟ .

ولمحت طفلا صغيرا يتجه فى احجام الى طفل آخر من المهاجرين بينهما خصام بدآه فى الكتاب ، وظننت أنه سينتقم منه . الا أنه ارتمى على صدره باكيا يقول : سامحنى يا فوزى . ما عليك يا صادق ... لكنك شتمت أمى .. وانت شتمت أبى .. خالصين وافترقا والدموع تتألق فى العيون .

وارتمت بطة وجميلة فى أحضان المهاجرات وذرفن الدمع ثم عادتا مسرعتين ، فبطة راحلة هى الأخرى فى منتصف الليل مع زوجها الى مصر ، ولسوف تقلع بهما الفلوكة الى المحطة النيلية . ومضيت أراقبهما وفى قلبى أسى ، فاننى أعيش فى ألم يشتد ساعة بعد ساعة منذ تقرر رحيلها .

وانتزع حسنين نفسه وعاد ، بينما أقبلت سعدية تجرجر جلبابها الطويل واتجهت الى حيث وقفت صديقتها خديجة مولية الباخرة والصندل ظهرها واجمة تذرف الدمع وداعا للنجع وأهله وتعانقتا . ثم خلعت سعدية عقدا خرزيا ، وأحاطت به عنق خديجة فارتسمت بسمة مشرقة على ثغر هذه ثم مدت يدها الى بطن سعدية وقالت . ولد انشاء الله . فتبسمت وهمست : ولد أو بنت .. كله من عند الله . فلم تضع خديجة فرصتها المتاحة فقالت : أو من البسطاوى ... أمازالت غاضبة ؟ كلا فقد عدت اليه من أجل الجنين ... برافو .. ومن أجل .... فأطلقت سعدية ضحكة عالية كانت هى الضحكة الوحيدة التى أطلقت على الشاطىء منذ ساعات .. ويبدو أن بوما قد أفزعته الضحكة الصافية فأرسل نعيقا مروعا انداح فى الوادى يغطى على صوت الشمندورة الحمراء المرتطمة دائما بسلسلتها .

وتعالى صوت الربان من جديد .. هيا . لقد آن وقت الرحيل . واستدارت الباخرة الصغيرة محركة قلاباتها فى دوى ، مرسلة رذاذا من الماء تعالى الى الشاطىء ، وشمخت بأنفها ثم أرسلت دخانا كثيفا مضت معه تقطر الصندل الطويل الغاطس فى النيل ، فطبع الشيخ صابر قبلة الوداع على جبين أبيه وعلى رأس أمه . ثم التفت الى زوجته فى حزم :

تعـــالى ياسبيلة • وجذبها من كمها الواسـع فتشبثت بالارض وارتمت تنتحب وتقبل الوحل والطمى • ثم دفعتها أمينة بايا دفعا حتى وقفت مع زوجها على حافة الباخرة تشيع الوادى بنظرات حائرة •

وقبل أن ترفع السقالة اندفع الجزار وراء رجل كان يبتعد متكئا على ساقه الخشبية ، أمسك به من الخلف وقال متهـدج الصوت : سامحنى يا فضل • لعنة الله على الأرض • فرق فضل ولان وترك الرجل يحيطه بذراعيه ويبلل صدره بالدموع وهمس : القلب للقلب رسول ياعبد الله• امض فى سلامة الله •

وأطلقت الباخرة من جديد صفيرها طويلا ممطوطا • ومضت تشق النيل بقلاباتها وتترك خطا أبيض من ورائها حتى فارقت الشاطىء وأوغلت فى المجرى العريض • ووقف المهاجرون على حافتها يلوحون وفى أصواتهم دموع بينما وقفنا نحن على الشاطىء نلوح ونلوح حتى غابت الباخرة خلف المنحنى الشمالى فعدنا أدراجنا وفى قلوبنا حزن ثقيل مثل الرصاص • وفى عيوننا بريق غريب يلمع بالغضب • وبجانبى كان يخطو برعى وقد أمسك بيدى لا يريد تركها حتى بلغنا الطريق الذى يحازى بيوتنا •

وهناك فوجئنا بمشهد غريب • فان أعمدة البرق والتليفون كانت قد هجرت الطريق • فلم يعد هناك عمود واحد • ولم تعد القاهرة تصوصو لقريتنا • وتلفتنا لنجد الاعمدة منطرحة على الارض • متراخية الاسلاك • فقد جاء عمال الحكومة منذ ساعة يقتلعون الاعمدة بسرعة يرتفعون بها الى قمم الجبل الشاهق ويشدون بينها الاسلاك •

ولمحت حسنين يدلف من باب الدهليز فانطلقت خلفه لأجد أمى فى ركنها ترسل نظراتها الحانية الطويلة الى بطة ثم ترتد بطرفها الى الارض وتعبث بأناملها فى التراب • بينما الأختـان توشوشان فى الركن الآخر فانضممت اليهما واختلطت دموعنا ونهنهاتنا تخلق جوا حزينا فى الدهليز•

ونهضت بطة واتخذت سمة الام ، ترمقنا من خـلال الدموع وتأمر شقيقتها الكبرى : لا تتركى حامد وحده ياجميلة • حاضر يابطة •• وأمى اياك أن تغيبى عنها طويلا • فسوف يقتلها الحزن •• وأنت ياحامد ••

وانبرى صوت الاخرى يقول : اهتمى أنت بنفسك يا بطة ، فأنت راحلة الى أرض الغربة • اياك أن تنسينا • اياك والعناد • زوجك هو الأب والشقيق • أنت تعرفين أبى وزوجته • لا تعودى اليهما • حسنين رجل مثل السكر •• اياك أن تفرطى فيه •• حامد مايزال صغيرا ، وأبوك عجوز وقد يفارقنا ، بل لقد تمكنت منه حجوبة منذ الآن ، ولا معين لنا الا الله•

ومن بعده زوجك وزوجى . حتى يصبح حامد رجلا ..

وقلت هنا فى صوت متهدج : بطة . لا تخافى فاننى رجل . فتضاحكتا وأحاطتانى بذراعيهما وبللتا وجهى بالدموع .

وجاءت ساعة الوداع حين تقدم الليل ووقفت الأم وجها لوجه...أمام بطة ابنتها الصغرى ، ترمقها فى دهشة وعجب لترتمى بعد لحظة على صدرها تبكى بكاء هز كل جسدها . وصممت لأول مرة أن تصحبنا الى الفلوكة والمحطة النيلية .

وعلى المحطة وحين أهلت الباخرة ذات الثريات الكهربائية والعائدة من حلفا ركب شقيقتى الصغرى جنون. فانطلقت تبكى وتصفع كل من يحاول الاقتراب منها معتزمة العودة الى النجع فرارا من الباخرة ومن الرحيل .. ووقف زوجها حائرا لا يدرى ماذا يفعل . ثم تدخلت أمينة بابا وأحمد عودة وأعادا العروس الجامحة الى صوابها . فانعطفت علينا تقبلنا لترتمى على صدر أمها لحظة سارت بعدها مطرقة الرأس الى السقالة الى أن وقفت على حافة الباخرة تراقبنا بعينين غائمتين .

وغابت الثريات الكهربية عن أنظارنا فأظلم الكون حتى بدا كل شيء قاتما حزينا .. كل شيء فى طريق عودتنا كان واجما . حتى الدهليز كان حزينا كئيبا معتما لولا المسرجة الصغيرة التى مضت تلقى ظلالها على السحارة الخشبية التى احتفظت فيها أمى بكل ذكرياتها الصغيرة .

٤٤

لم يبق الا يومان . والناس يتحركون فى هلع ما بين السفوح والشاطىء وعلى ظهورهم أحمال ثقيلة يلهثون تحتها، يسرعون الخطى كأنهم فى سباق مع الثوانى والدقائق . والنيل يرتفع فى كل لحظة يكاد يبلغ قمة الشاطىء . وعلى صفحته عشرات المراكب تجرى بين الشرق والغرب غاطسة فى النيل الى غور بعيد ، تصفق بأجنحتها البيضاء وتجتاز النتوء بأحمالها وتستدير عند الطرف الشمالى

للجزيرة تاركة الشمندورة الحمراء وراءها لترسو على الضفة الغربية فى محاذاة كران نوج · وتفرغ شحنتها ثم تعود الى البر الشرقى حيث تجمع الناس على أكوام من الأمتعة المختلفة : أبواب غليظة وسحارات خشبية ثقيلة وجذوع نخل وحصر متعددة الأشكال ، وصوامع وأبراش وأطباق خوصية ملونة وغلال وغرارات بلح ·

وعلى الشاطىء الشرقى كان يحتدم الفصال بين الناس والمراكبية الذين انتهزوا ضيق الوقت فراحوا يغالون فى أجورهم موقنين أن الناس سيرضخون لمشيئتهم · فما هى الا ساعات ويبتلعهم الطوفان ·

وتريث عم نوح حتى رسا بمركبه فترك مندوهة عند العفش – وخطا نحو المركب وقال : مرسال يا ولدى ·· اتفقنا على اليوم · سوف أدفع لك أجرك ·

فعبث مرسال بالشاغول وألقى بالمدراة على الشاطىء وصلصل بالهلب وغرسه فى الأرض ثم قال فى صوت أخنف : قلت لك على الأجر · وأنت لا تريد أن تدفع · يحسن بك أن تتفق مع عوض كتية يا نوح · فاننى مشغول كما ترى بعينيك ·

وأطرق العجوز لحظة ثم انبعث صوته يقول : أنت تعرف يامرسال أننى لا أملك عفشا كثيرا : ثلاثة أبواب وسحارة صغيرة · علبة لا تسع شيئا وعنجريبين · وبعض الأبراش والأطباق ··· أما مشيتى فقليلة ·· معزتان وخروفان صغيران ضاعران وأزواج من الحمام والدجاج ·

وأضاف بعد تردد : وبقرة وحمار أصغر منها ·

– قلت لك يا نوح ·· للعفش وللماشية نقلة أخرى ·

– تساهل معى يا مرسال · أنا رجل فقير ·

– الله الغنى يا نوح ·· أنا أفقر منك · كان جدى عبدا وأبى لم أرث عنه شيئا ·

ومضى يفكر : العجوز يظن أننى استغفله ·· ألا يعلم أن الشيخ صادق صاحب المركب يحاسبنى حساب الملكين والموسم موسم شغل وقد لا أجد عملا بعد الموسم · لم يبق يا نوح الا أن تنقدنى كيلتين من البلح ! ثم ارتفع بصوته · قلت لك سبعة جنيهات ولن تنقص مليما · ثم تدخل أبى رقبل مرسال أن يتقاضى خمسة جنيهات · واستدار يساعد الشيخ

جعفر فى شحن أمتعته. ثم تريث لحظة شرب فيها فنجان شاى فى استهانة شديدة فى رمضان ونقر على الدف وأدار الدفه الى الغرب وأوغلت المركب فى النيـل حتى تجـاوزت النتوء ثم اسـتدارت عنـد الطرف الشـمالى للجزيرة .

وارتد أبى بطرفه الى الشرق وتأهب لاستقبال حسن المصرى وأحمالا ثقيلة جاء بها من بيت حجوبة . ثم انهمكا فى ترتيب العفش وربط النعاج والمعيز حتى لا تفلت منهما فى الحقول المقفرة .

وعلى الجرف عند الساقية المتهدمة كانت عائلة جمال تكوم أمتعتها .. بينما انكفأت زنوبة على الجدول الكبير تذرف الدمع وفى صدرها دوامة من الذكريات والحيرة أفاقت منها فجأة على صرخات داريا تسبها . لقد عاشتا منذ أيام الصرف فى نقار متصل حار له جمـال متناسيا أنه السبب فى نقارهما . ألم يرضخ لنزوات زنوبة فاختلس لهـا من أمه جنيهات عشرة ارضاء لزوجته وتعويضا عن المصاغ الذى باعته فى مصر .

ولم تبال زنوبة بصرخات حماتها . فاندفعت اليها هذه تدفعها فى صدرها وعيناها تتقدان بالغضب .. انهضى الى العمـل . قومى يا بنت يا زنوبة .. فاستشـاط غضبها عنـد هذه الـكلمات . لكنها أشاحت بوجهها تطيل حبال الصبر . وأصمت اذنيها تفكر : بنت يا زنوبة ! متى سمعت يا زنوبة هذه الكلمات ؟ بنت يازنوبة ! تكررت هذه الكلمات على مسمعيها صباحا ومساء هنالك فى قصر الباشا فى مصر الجديدة — كانت الست الكبيرة تنادى من مخدعها يا بنت يا زنوبة فتسرع اليها خفيفة الخطى بالكريم والبودرة . وهذه هى داريا التى تفوح منها رائحة الجلة والعرق تردد نفس الكلمات . يا بنت يا زنوبة !.

وكان صبر داريا قد نفذ ، فأهوت على خدها بلطمة أطارت صوابها. فهبت مثل هرة برية متوحشة وأنشبت أظافرها فى عنق داريا ثم طرحتها أرضا غير مبالية بصرخات شريفة .

ودب الجنـون فى رأس جمال ، وأمسك بكرباج غليظ أهوى به على زنوبة فى ضربات أسـالت الـدم من سـاعديها . فانطرحت على الأرض تنشج : طلقنى يا جمال. طلقنى. فانحنى عليها يأمر : انهضى يا مجنونة. اغسلى يديك من الدم . انهضى .

ثم مال عبده الفرنساوى عليها وارتاحت لمرآه فاستقامت على عجزها

تشرب كلمات الرجل العجوز الذى مضى يطيب خاطرها بكلمات حلوة اعتاد أن يلقيها فى آذان النساء ٠

وعاد جمال يقول : انهضى يا ست ٠ دعينا نرحل ٠ فهزت رأسها بشدة وهى تقول : كلا لست راحلة ٠٠ سأبقى مع عم عبده حتى أرحل من هنا : طلقنى يا جمال ٠ طلقنى ٠ فابتأس وقطب جبينه وأحس بالغضب على أمه يأكل قلبه ٠ لكنه زم شفتيه وانصاع لعبده الفرنساوى الذى غمز له بعينيه ٠٠ اتركها الى غد فسوف يستقل هو نفس المركب مع الشيخ أمين ٠

وعند الضحى فى اليوم التالى وفوق نفس الشاطئ تهيأ أبى لصلاة الفجر التى نام عنها فاتجه الى القبلة ورفع يديه الى اذنيه يكبر لكنه راى فى هذه اللحظة اش الله يندفع صارخا : عم امين ٠ أمين يا كلثومة ٠٠ فعدل عن صلاته ٠ ومضى يرمق الغلام الذى توقف أمامه لاهثا يشده من كم جلبابه ٠ يريدونك هناك ٠ عمتى فاطمة تصرخ وتضرب حسن المصرى بالمغرفة ٠ واستمع أبى الى هذه الكلمات فى دهشة ٠ ثم غمغم : المجنونة٠ بينما اندفعت أنا فى الطريق ، وانطلق هو من خلفى غارقا فى آلامه وأفكاره ٠ فلقد أبت أمى ، فى عناد ، أن يرفع سقف البيت وكررت للمرة العاشرة أن الطوفان لن يبلغ بيتها ٠ ألم يزرها شبيكة فى المنام يفضى اليها بالنبأ السعيد ؟٠ فحاول هو مرة بعد أخرى أن يثنيها فلم يفلح ٠ فترك البيت الكبير معتزما خلع أبوابه ورفع سقوفه واقناعها هى بالرحيل فى آخر لحظة قبل الطوفان بيوم واحد ــ اليوم ــ وهو الذى أوعز منذ الصباح الى حسن المصرى أن يحتال عليها ويبعدها عن البيت بحجة ما ليرفع السقوف والأبواب فى غيبتها ٠ ويبدو أن حسن وبرعى قد اصطدما بها فثارت ووقفت على عتبة البيت تذود عنه بمغرفتها ٠

كانت حاسرة الرأس مهوشة الشعر ٠ تسد الباب بجسدها وتطوح بالمغرفة وتذودهما عن البيت وتأمرهما فى كلمات غاضبة أن يبتعدا وتلعن أباهما ٠ بينما خالتى أمينة بايا وسيدة من الاعراب النازلين فى الجبل الذى لن يبلغه الطوفان تحاولان تهدئة روعها ٠

وتجاهل أبى توسلات أمينة والأعرابية فاندفع يصرخ فى نبرات غاضبة نافذة الصبر : ماذا تريدين يا مجنونة يا بنت الـ ٠٠ فقلت باكيا: كلا يا أبى٠٠ دعها وشأنها ٠ انها مريضة٠ قال : مريضة ٠ انها مجنونة٠٠

اخرس أنت · فاحسست بوخز فى قلبى من وقع هذه الكلمات ووددت لو كف أبى عنها لكنه مضى يهذر بها وهو يتقدم نحوها فى حذر بينما هى تهيات تطوح بسلاحها وتسدد ضربات عشواء أبيه أخذ يتحاشاها · واقترب منها وأنا ما أزال أصرخ : دعها وشأنها يا أبى · دعها ى · سوف ·· انها مريضة · ولا أدرى ان كانت كلماتى قد أثرت فى أبى أم أنه خشى مغبة ما كان مقدما عليه · فقد لان واستكان وتوقف يقول فى صوت رقيق : فاطمة · ألا تعرفين أن البيت سيغوص فى الطوفان ؟· سيتهدم يا فاطمة· فلم تجب بل شددت قبضتها على المغرفة وراحت تراقب فى صمت شبح امرأة تبدى هنالك عند بداية نجع المجراب وعلى كتفها طفل صغير · فقد كانت تتوقع زيارة من ابنتها جميلة ·

وتريث أبى قليلا ثم استرسل فى حديثه : هنالك فى الغرب ··· سأبنى لك بيتا جديدا لك ولحامد ، فتبسمت وكأنها تقول : خداع · سوف تبنيه لحجوبة · فهى الزوجة الصغيرة · أما أنا فاترك لى هذا البيت ·· وارتفع صوتها يقول : لن يرفع سقف بيتى ·· سوف أعيش فيه وسوف يبقى معى حامد ·· فانه رجل ··

وتأملنى أبى فى دهشة وأنا أمسك بيده وأهزها وأهتف : دعها· سوف أبقى معها · وتدخل برعى بكلمتين لم يبال بهما أحد · ثم تدخلت أمينة بايا تقول : عيب يا فاطمة · ماذا يقول الناس عنا اذا تركناك هنا وحدك · كيف نتركك وحدك للطوفان ؟ حامد مازال صغيرا ··· تعالى يا فاطمة · وفى اللحظة التى كانت جميلة تدلف فيها الى الساحة متجهة الينا برزت حجوبة من خلف المرتفع الذى كانت الشونة منتصبة عليه تلوح بيدها وتصرخ : هوى ·· هوى ·· المركبان تستديران حول الجزيرة ·

ويبدو أن كلمات حجوبة ومرآها قد أثارا كوامن فى صدر أمى فقد طوحت بالمغرفة فوق رأسها ثم اربد وجهها ، ومالت واستندت الى كتف الباب ، وتهاوت على العتبة مرسلة آهة خنقتها فى الحال أصوات ارتطامها بالأرض ، وراحت تركل الباب وتذيب بين شفتيها سائلا أبيض يغلى كالحشرجة وتكبش فى التراب · وانكفأت عليها أبكى بينما أبى عابس يذرف الدمع مستندا الى جذع نخلة وأخذت أمينة وجميلة ــ التى وصلت فى نفس اللحظة ــ تدلكان جسدها وترشان الماء على وجهها ··

ومرت لحظات حسبتها دهرا أفاقت الأم بعدها تتلفت بعينيها

الجاحظتين تبحث عن المغرفة التى كان حسن المصرى قد اختطفها وأخفاها عن متناول يدها . ثم تأملت وجه جميلة المبلل بالدموع ، فأشفقت ثم نهضت وأسلمت نفسها لذراع ابنتها .. فدلفتا من باب الدهليز .

وتبعتهما حتى توقفت الأم عند ركن فى الديوان فارتكنت الى الجدار تقول : هنا جاءنى المخاض فيك يا جميله ! ولا أدرى مالذى جعل جميلة تقول : كلا يا امى . لقد ولدتنى فى البيت القديم يا امى . فقطبت الأم ثم فردت جبينها بيد وقالت فى ياس : انت صغيرة يا جميله لا تدركين.. كيف تعرفين وقد كنت حينذاك مثل كف اليد . وسكتت البنت حين تحركت الأم لتتوقف عند ركن آخر: وهنا ولد حامد . أتذكرين ؟ مسكين .. كاد يموت هنا بسببى . واجهشت بالبكاء. حين تذكرت كيف ارتمت على جسدى الصغير وهى ترضعنى وراحت فى غيبوبة طويلة . وتواريت أنا خلف الباب دامع العينين بينما ابتعدت بها جميلة الى ركن آخر فى الحاصل جلستفيه الأم تحكى على مسامعأمينة والاعرابيةذكريات حياتها. كيف رفعت جدران هذا البيت ، وكيف ساعدت الزوج . ثم عن مولد جميلة وزواجها وبطة ورحيلها وحامد الذى حرمه الله من حنانها . مسكين . كانت تتكلم وفى عينيها دموع وحول شفتيها غضون وتجاعيد. وسكتت لحظة ترشف الماء بصوت مسموع . فانبرت جميلة تقول : أمى .. تعالى معى الى الغرب — فى خيمتى . لا تذهبى مع حجوبة .. شعبان طلب منى . فتفرست فيها لحظة . ثم هزت رأسها وقالت : يا بنتى لك بيت تعيشين فيه مع زوجك ولى بيت ، هو هذا البيت .

وتريثت جميلة تفكر ثم قالت : واذا ما نجا البيت من الطوفان عدنا اليه يا أمى !. وبدا لها واضحا أن الأم لم تقتنع ، ولن ترضى بمبارحة بيتها . فاستنجدت بخالتها والأعرابية ولبثن ساعة حتى وافقت الأم العنيدة على حل . تسمح للزوج أن يخلع سقوف البيت والأبواب ويترك لها الحاصل تعيش فيه مع حامد ، واذا لم يكن هناك طوفان عاد السقف وأعيدت الأبواب والا فسوف أعيش لوحدى هنا .

وابتسمت الأعرابية وقالت: تعالى معى الى الجبلاذا ما جاء الطوفان. تعالى معى الآن . فهزت رأسها تتمنع بينما قالت الخالة : غريبة . الشيخ فضل يعتزم البقاء أيضا الى غد .. لا أدرى ماذا جرى لعقول الناس . الطوفان يسرع الى النجع . وهناك من يريدون البقاء . فقالت الأم : اذن فسوف نسلى بعضنا حتى تعودوا من الغرب .

وما هى الا لحظات حتى أخذ حسن المصرى وبرعى يهدمان السقوف ويخلعان الأبواب بينما انهمك أبى ومرسال وعوض كتيــة على الشاطىء يشحنون أمتعة البيوت الثلاثة فوق المركبين حتى بدتا فى نهــاية الأمر قبتين هائلتين تربضان تحت الشراع الأبيض السامق ٠

ثم وقفنا على الشــاطىء نلوح الى أبى الذى اسـتقل سفينة عوض كتية بينما استقلت حجوبة ومحمود الصغير مركب مرسال الذى أخذ ينقر على الدف نقرات أخذت تنداح فوق الشطآن بين أجمات النخيل ثم تخفت رويدا رويدا كلما تحركت سفينته توغل فى المجرى العميق، فى مواجهة الجزيرة الغارقة لتجتاز النتوء الشرقى ٠

وها هو يهب واقفـا على حافة الســفينة الموسوقة يرتفـع بنقراته مودعا شطآن الشرق بألحان داوية : افيالوقو ٠٠ افيالوقو ٠٠ مع السلامة ٠٠ مع السلامة ٠

ومن خلال نقرات الدف ارتفع صوت أبى يقول :

ــ لا تفارق أمك يا حامد ٠ سنعود غدا لنقلكم الى الغرب ٠ فتبسمت أمى ابتسامة واهنة وقالت :

ــ بل ستعودون أنتم جميعا الى البيت الكبير ٠

٠

٤٥

ومضت السفينتان تتسابقان حتى تجــاوزتا النتوء الشرقى وألقتا بنفسيهما فى المجرى العريض ٠ ثم بدأت سفينة عوض كتيه تندفع فى سرعة أكبر تاركة مرســال فى سفينته يسب الحظ العاثر ويلعن عوض كتيه الذى اعتاد توريطه فى مآزق تجعله عرضة لسخرية الكبار والصغار ٠ فها هو ينفلت بحمولته فى سرعة وعليها الشيخ أمين وحسن المصرى يرمقان سفينته البطيئة فى دهشة وذهول ٠

فعند مؤخرة مركب عوض تماما تحت مقبض الدفة اتكأ أبى ، يمد بصره ويراقب حركة السفينة الاخرى ويمعن النظر فى شبح زوجته ، وفى الدست النحاسى الكبير القائم بين الأمتعة حتى ركبته هواجس أخذ يهز رأسه بشدة ليطاردها ، ثم انهمك فى تحريك ســـبحته الطويلة التى اصطنعها من حبات الخروع ، وغرق فى أوراد يتلوها بصوت خافت • ثم عاودته الهواجس فهب واقفا على قدميه ينادى عبر الماء •

ـ مرسال • شد حيلك يامرسال •

فاستدار النوتى بجسده وصاح : الشدة على الله •

قالها فى غيظ ، ثم عاد الى همومه • بينما أخذ أبى يسلى صيامه بهمهمة غامضة وعيناه تراقبان التلال الغربية ، يتعجل مغيب الشمس فقد أمسك بحلقه ظمأ شـــديد يكاد يدميه ويجرحه ، أو ترتدان الى مركب مرسال التى أخذت تتلكأ ، وتتأملان الدست النحاسى الكبير والشمس تتوهج عليه بأنوار متراقصة تجعدها الامواج العاتية •

وفى ذلك الدست كان محمـــود الصغير تطل عليه حجوبة وزنوبة تداعبانه ، وتخشيان أن ينفلت منه فينزلق الى اليم ، ومن حولهما أمينة بابا وعبده الفرنساوى ينهمكان فى حديث عن مصر وزوج غائب لم يعد منذ سنين ، لاهيين عن المد العارم الذى يواجه السفن والقوارب المائجة فى المجرى العريض •

ورفع أبى رأسه الى السماء فوجدها مربدة تكتسحها ريح تهب نشطة من الغرب وتشتد لحظة بعد أخرى ، تسوق أمامها سحبا داكنة ، تحجب قرص الشمس المـــائلة الى الغروب حينا ، وتسفر عنها حينا آخر ملقية أضواء باهتة على الخيام والرمال والقصر الأثرى الرومانى القديم •

فأحس بانقباض يعتصر قلبه بعث فيه ندما أخذ به كل مأخذ : ليته استقل المركب الاخرى معهما •• مع حجوجة وابنه الصــغير فليسا الا فى رعاية جمال وعبده الفرنساوى • وعبده لا يعرف كيف يحرك يده فى الماء بينما جمال مفتون بزوجته البيضاء مشغول بنقارها مع أمه • وها هى

سفينته تتوسط المجرى الغربى العميق بعد أن اسـتدارت حول القرن الشمالى للجزيرة ، وانفلتت متجاوزة الدوامة تتجه لترسو على البر الغربى وما هى الا خطوات حتى يشرع حسن المصرى وعوض فى تفريغ شـحنتها على الجرف العـالى ، وربما انتهيا من ذلك قبل مغيب الشمس ، بينما السفينة الأخرى ما تزال تتلكأ وتختفى عن عينيه خلف أجمات النخيل الغائصة ـ حتى خصـورها ـ فى الجزيرة التى وطىء الطوفان وهادهـا المنخفضة منذ الليل ، فجعل يشرئب بعنقه يبحث عنها ثم ضرب بيده على صدغه وقال : وما الذى جعلنى أوزع عفشى على المركبين ؟ لـماذا لم أترك السفينة الأخرى لجمال والفرنساوى وأمينة • لماذا ؟ كان فى وسعى أن أشحن كل شىء هنا فتكون الزوجة والطفل الصغير معى • فليرعهما الله بعنايته • ثم تمتم بالدعاء وهو يخطو على السقالة الى الجرف العالى ، ليتوقف هناك لحظة يرمق الطرف الشمالى للجزيرة بعين واجفة حتى بان الشراع السامق مهتزا فوق الأمواج الهائجة ، فاطمأن واستدبر الشاطىء ومضى فى خطى متثاقلة مرهقة الى خيمته التى أعدها منذ أيام يستريح قليـلا حتى ترسو السفينة قبل مغيب الشمس ، فلسوف تحل حجوبة بعد لحظات فى الخيمة وتعد افطارا لصيامه • وقال : أغمض عينيك يا أمين علك تنام لحظة تفيق نشطا بعدها •

الا أن جفنيه لم ينسدلا على عينيه • حاول أن ينام ومع كل محاولة كانت المخاوف تنثال على قلبه رماحا غائصة ، مخاوف ضاعف منها هدير الدوامـة وارتطام الشـمندورة بسلسلتها ، ثم هذه السحب الداكنـة الزاحفـة الى الشرق والشمس التى كادت تغيب وفرقعـات البيوت التى أخذت تتهـاوى فى نجـوع الشرق • ترى ماذا تفعلين الآن يا فاطمة ؟ وحامد ماذا يفعل ؟

واسـتقام جالسـا على الرمل عند هذه الخاطرة : المخبـولة • لماذا تركتها هناك ؟ تريد أن تهلك نفسها • فلماذا تركت الولد حامدا معها ؟ ثم ها هى الأمواج تشتد وتعلو وترتفع بحجوبة ومحمود وتنخفض •• وظلل عينيه بيده وامتد ببصره فوق الأمواج وغمغم : يبدو أن حبالا غليظة تشد المركب الى قاع اليم فلا تتحرك ، فهى ما زالت هناك بالقرب من الدوامة وعلى بعد خطوات من الجندل الثانى فى النيل •

وهب واقفا على باب الخيمة يحدق فى المجرى العميق الممتد ما بين الجزيرة ورمال الشاطىء الغربى ، ولقد ارتفع الطوفان مثل جدران سميكة عالية والأمواج تتدافع لأول مرة من الشمال تكتسح الأمواج المستكينة

لزاحفة من الجنوب وتطأ الجروف فى قســوة وتحاصر البيوت ، وتهوى بالجدران مثيرة غبارا داكنا ينعقد تحت السحب تخترقها بصعوبة أسراب من الأوز العراقى تسرع صامتة لتحط رحالها على الغصون هاربة من الريح التى أخذت تعوى مثل الذئاب • وها هى سفينة زوجته تتأرجح فى قبضة الأمواج والدوامة والسحب والريح •• لعنة الله عليك يا مرسال ! تحول ركاب سفينتك الى اشباح فى أضواء الشمس الباهتة البادية قرصا أحمر ملتهب الحواشى تتكىء خلف التلال الغربية لتغيب •

ولا يدرى لماذا أخذته غفوة النوم فى هذه اللحظة ، تماما قبل مغيب الشمس ، قبل أن يؤذن نوح • ولا يدرى كم طالت غفوته ، لا يدرى الا أنه أفاق على جلبة ، على صوات يتعالى وينداح فى المجرى العريض، فوق هدير الأمواج وقهقهة الدوامة ليخترق طبلة أذنه • ففرك عينيه ونهض يجرى ، لا يبــالى بالصخور الناتئة برءوســها من الرمل ترتطم بقــدمه الحافية وتدميها •

ومن حوله كانت الأقدام تتدافع من كل خيمة ، من كل نجع ، وخيل له أن هناك جماعات من النــاس تركض حتى من ابريم ، قرية الخيــام المترامية الى الجنوب من كران نوح •

وتوقف لاهثا على الجرف العالى يحيط به نســوة ورجال وأطفــال صغار ينوحون ، ويشقون الجيوب ويحثون التراب على الرءوس ، ولمح الدموع فى عينى داريا وشريفة اللتين راحتا تعولان وترسلان فى نغم مختنق عديدا مسجوعا تبكيان الأب الذى مات والأخ الذى اختنق وتلعنان زنوبة فلولاها لما عاد جمال الى الشرق •• لولاها ! وغير بعيد ربضت أم عجوز وأخت كهلة ، أم وأخت الفرنساوى تبكيــان وتذرفان الدمع فى صمت بينما أخذت بنــات الخالة تعولن •• بينما الرجال يجرون هنــا وهناك ، يتنادون عبر الخيام ويقفزون من الجرف العالى الى الشط المنخفض، ويفكون قوارب من مراسيها ويضربون الماء بالمجاديف ويسبون بعضهم فى صخب• وفوق الموج أشرعة بيضاء تنعطف نحو مركب مرسال متسمعين الصوات والصرخات المنطلقة يخنقها عويل الريح المنطلقة فوق الرءوس وفرقعات البيوت المتهاوية فى أقصى نجوع الشرق الى الشمال • ولا يدرى لم توقف هو دون حراك ؟ ، لم ترك أحمد عودة يصدر الأوامر وحده ؟ لا يدرى أنه ظل برهة ذاهلا ينظر الى النسوة الناحبات فى ازدراء • نسوة لا يعرفن الصبر • ثم تبدت أمامه جميلة مهوشة الشعر لاهثة فقد أخذت تجرى منذ أن سمعت الصوات العالى وتقفز فوق كثبان الرمال ، حتى اندفعت الى

التجمعات الباكيــة ، وجالت بعينيهــا الدامعتين وأذناها تلتقطان نداءات تنبعث من جوف الطوفان •• زنوبة • محمود •• حجوبة •• مرسال ••

رمقها فى نظرة خاطفــة ثم أرسل نظرة غاضــبة الى النيل ، وأحس بقوة هائلة تنبعث من باطنــه ، ترفع قدميــه من الأرض وتدفع به عبر الجرف ، وقد تعالى صوته بالبكاء وتقذف به الى النيل•• يغوص•• ويلقى به الموج على الشاطىء ليحتضنه حموى بقوة ويرفعه الى الشاطىء من جديد ناحبا يبكى حظه العاثر ، يخرف ويسب ويكور قبضتيه يطوح بهمــا فى وجه السماء • ثم انكفأ على صدرها يبكى ويهتف •• لماذا يا رب •• لماذا تركتنى يارب « وونور » أنا عجوز • خذنى • عشت دنياى فخذنى اليك• محمود صغير •• صغير •• وأمه تحبه •• اتركهما يا رب •• لقد ماتت• ماتوا جميعا • لقد انهارت جدران الشرق • جدران البيت الكبير على حامد وأمه •

وتركها ورفع عينيه الى السماء ــ لماذا خلقتنــا ! لماذا وهبتنى عيالى لتأخذهم الواحد بعد الآخــر ؟ الزوجتــان والولدان ! وكل شىء • حتى فلوس التعويضات •• لم يبق شىء •• لا شىء • وانطلق يعدو الى الجرف وهى متشبثــة به ، فتوقف ثم حدجها بنظرة كأنه لا يعرفها وشــعرت بالخوف حين تقدم اليها جاحظ العينين مرتعش الشفاه يتحسس ثيابها ويقول : من ؟ جميلة ••؟ لماذا جئت ؟ اياك ان تقربى هذا المكان • عودى الى بيتك • بيتنا منحوس • يوم جمعة وساعة نحس ! ابعدى •• كلا • تعالى • ابقى الى جانبى • لم يبق الاك ، •• ثم توقف لحظة يبتلع دموعه وقال فى صوت تخنقه الدموع وأين صــغيرك •• أمات هو الآخــر ؟ ، ما لثيابك مبتلة ؟ أنت الأخرى ؟ وبطة ! •• من يدرينى ؟ ربما تدحرجت فى هذه اللحظة تحت عجلات ترام•••يارب وونور لماذا أسلمتنا للشيطان؟ صليت كما لم يصل أحد ! صمت اليوم •• وما زلت صائما يا رب •• أطعمت المحتاجين •• فلماذا تعذبنى فى دنيــاى ؟ لماذا يا رب ؟ وونور • وانكفأ من جديد على صــدرها ينشج كالمجنــون ، فارتفع صوتهــا هى الاخرى بالبكاء يختلط بصوت بنات خالتها ، وتهيــأ لها أن كل كلمــات الرجل صحيحة •• من يدريها ؟ فالبيوت تتهاوى فى الشرق وربما انكفأت الأم فى نوبة من نوبات الاغماء وربما اندلق عليها حامد ، وربمــا انهــارت الجدران فى نفس اللحظة فاختنقا تحت الطين ! تحت الانقاض • وتخيل لها الطوفان العارم طوفانا من التماسيح والثعــابين تنهش جســد أخويها : الكبير والصغير وجسد الخالة الطيبة الشفوق فانطرحت على الارض تسف

فى التراب ثم غشيها ظلام غريب ·· نوبة اغماء ·· أو غثيان لا تدرى ، الا أن أصوات العويل والنـواح وصرخات مثل صرخات المجـانين كانت تتناهى الى أذنيها خافتة وتنبعث فى رأسها ، وتدق فيهمثل دقات المسامير، وليس هذا الا صوت أحمد عودة يقول شيئا أخذت تفيق عليه : كان فى الدست مغشيا عليه لا أدرى · خذه وغطيه بحرام ثقيل · هب ·· هب · مالك يا أمين ذاهلا ؟

وفتحت عينيها ترى أباها يحتضن كومة تقطر بالماء ، يندفع بها الى الخيمة فانتصبت على قدميها وأطلت من الجرف تنهنه وتكاد ترفع صوتها بالبكاء الا أن وجهها الأسمر الطيب تنور بابتسامة واهنة ، فقد رأت أمينة بايا خالتها «مبتلة الثياب» ملطخة الوجه بالوحل ، تتعثر مستندة على ذراع برعى فوق الشاطىء ، فاندفعت تحتضنها وانفلتت مرة أخرى الى حجوبة تعانقها باكية فبدت حجوبة متجلدة متماسكة ، بل لقد ـ ارتسمت على وجهها فرحة تتسلل رغم الوحل والماء وهى ترمق الاب يجرى هاربا بمـا يحمله الى الخيام فاندفعت خلفه تجرى تاركة زوجة الأب ، غير ملقية بالا الى نهنهـات أم الفرنساوى وشقيقته وهما تنـكفئان عليه ، وقد تمدد على الرمل لاهثا يلتقط أنفاسه فى عسر ، ولا الى الجسد الأبيض ، الذى تعرى تقريبـــا من كل ثيــاب ـ الا من السروال ـ والمنكفىء على كتف حسن المصرى · بوجه شاحب مثل الليمونة المعصورة حتى آخر قطرة من الماء : زنوبة ومن خلفها جمال يلهث ، وقد التصقت ثيابه بجسده ·

·· ثم هدأت قرية الخيام وتبين من بين فرقعات البيوت فى نجوع الشرق وهدير الدوامة وصوت ارتطام الشمندورة وأنين الريح ونعيق بوم بين أنقاض كران نوج صـوت قلابات يخت كان يسـتدير عند الطرف الشمالى للجزيرة ، وقد توقفت على شرفاته وجوه بيضاء مضت تسـدد نظارات معظمة الى الشرق والى الغرب تقيس أبعاد المجرى العميق الذى جعل ينتفخ فى كل لحظة ·

وتسللت من بين فرجات البوص فى الخيام أضواء نيران اشتعلت فى المواقد تبعث الدفء فى أجساد الذين أشرفوا على الهلاك فى قبضـة الريح والبرد ·

وأفاقت زنوبة لتجـد نفسـها على صـدر جمـال الذى أخذ يقبلها فانتفضت تتخلص منه لتصرخ : طلقنى يا جمال ·· طلقنى · عد بى الى مصر يا جمال ·· يا جمال ! بينما أطلت حجوبة على محمود الصغير الذى كان يغط فى نوم عميق وتركت العنجريب وما تزال ثيابها مبتلة ، تتجه

الى السحارة وتخرج ثيابا أخرى الا أنها توقفت تصيخ السمع الى كلمات أمين :

ـ مرسال • لعنة الله عليك• كدت تموت •• وكاد الناس يموتون • لماذا لم تسد الثقب قبل الرحيل ؟ قبل الاقلاع بالمركب • لماذا يا عبد ؟

فقد تبين أن ثقبا كبيرا ، سده مرسال بخرقة لطخها بالقار على عجل كان هو السبب فيما حل بالسفينة من نكبة • تسربت المياه خلاله الى جوفها وأثقلت خطاها ، حتى ارتطمت السقاطة بالصخور فانكسرت ، ثم مالت المركب جانحة فوق جنبها الأيمن ، تكتسحها الريح الى جذوع الأشجار الغائصة حتى خصورها فى الجزيرة •

توقفت حجوبة عند السحارة ، وتريثت حتى أنهى الرجل كلماته فقالت : كتر خيره يا أمين ! فلولاه لما عاش محمود • لقد تشبث بالدست الذى طفا فوق التيار وأنفذ حبلا غليظا فى مقبضه شده به الى الدفة وظل يحرسه الى أن أنقذ أحمد عودة ولدنا الصغير • وتشجع مرسال وقال : أتدرين يا حجوبة أن يدى احتكت مرة أو مرتين بكيس الفلوس على صدرك •• لو كان غيرى ••

وشهقت حجوبة عند هذه الكلمات وامتدت بيدها تتلمس الكيس وتخرجه وتلقيه الى أبى فجعل يفتحه ويخرج الأوراق الخضراء • وهو يرسل آهة متحسرة •• فقد وجدها مبتلة وتكاد تتحول الى عجينة خضراء فتمهل وأخذ يعالجها هو وأحمد عودة فى صبر بينما استمر مرسال يروى : لو رأيت حجوبة يا أمين ممسكة بالصارى تصرخ أو أمينة التى تشبثت بمقدمة المركب والدم يسيل من رأسها فقد ارتطم بمقبض مجداف • أما عبده الفرنساوى فكان يرتعش ، بينما جنت زنوبة فى لحظة وألقت بنفسها فى النيل فارتطمت بالباب الخشبى العريض •• باب بيتكم الكبير ، وانحشرت بينه وبين المركب تصرخ •• ثم سكت وحجوبة تسأل : باظت كلها يا أمين • قال : كلا •• اختلطت ألوان بعضها وتمزقت ورقتان • فداؤك يا حجوبة !

ـ فداء محمود يا أمين •

واختفت وراء ساتر من جذوع النخل تغير ثيابها ، وهى ما تزال تسأل عن الجنيهات التى تمزقت !

وفى الضحى ، فى اللحظة التى كانت مركب عوض كتيه تستدير

فيها حول الطرف الشمالى للجزيرة تسرى من الغرب الى الشرق ، الينـا نحن ، تلمست حجوبة الأوراق المالية المنشورة على البرش العريض • ثم مضت تحشرها فى كيس أبيض وبين شفتيها أغنية بيضاء :

ـ لك وحدك يا أختاه ••
لك وحدك يا ولداه ،
هذا الثوب الناصع مثل البدر
هذا العطر السابح فوق الورد •

٤٦

أنا وحدى هنا •• أنا والرعب والشاطىء المرتفع والنيـل المتراجع •• أنا وأشجار النخل والوهاد المنخفضة التى أخذت الميـاه تغمرها ، وأطلال ساقية راحت الأمواج تأكل جدرانها فى كل لحظة •

وليس ينسكب فى أذنى الا خرير الماء وهدير الدوامة ـ الى الغرب ، وارتطام الشمندورة بسلسلتها بينما النيل يرمقنى فى تحد بالغ وكأنه يتحفز لابتلاعى •

أنا وحدى هنا وأشعر أننى لاشىء ، قشة ضائعة فى مهب الريح أو على قمة موج •• واننى لأسأل نفسى : لماذا أقف هنا ؟ لماذا أتيت ؟ قيل لى انك رجل • فرنت الكلمة فى أذنى رنين الطبل وخشيت أن أتراجع أمامهما : أمام أمى والأعرابية • ولكننى رغم ذلك وجهت نظرة حائرة اليهما فانبرى الشيخ فضل يقول :

ـ اذهب يا ولدى •• أما سمعت صرخات الأمس ؟ غرقت سفينة أبيـك ؟ فبـالامس ، فى غبش المسـاء تنـاهت الصيحات الى أسماعنا ، فتساندنا بعد تردد ومضينا نخب فى الطريق الزراعية حتى وقفنا على الشاطىء نرمق الجزيرة التى غطتها غلالة لامعة من الماء نظرة ذهول ،

ونحدق بأبصارنا علنا نستشف شيئا هنالك فى الغرب ، بين الخيام التى بدت معتمة ضئيلة الا من أنوار باهتة ٠

ولم يصــل الى أسماعنا الا هدير قلابات يخــت يتحرك الى الجنوب فى سرعة يكاد يجتاز الطرف الجنوبى للجزيرة ٠٠ أما بين الخيام ، فلم يكن الا الصمت بعد صرخات داوية ٠

مكثنا طويلا عل سفينة أو معدية تعبر المجرى الواسع الينا ، فنعرف ما الذى جرى للذين أقلعت بهم سفينة مرسال فى أصيل الأمس ! وقد ملأ السكون الذى لف الوادى قلوبنا بالرعب ، تضاعف منه همسات النخيل وصرير الجنادب ونقيق الضفادع ونشيش ماء يتسلق الشاطىء المنخفض من حولنا فى صعوبة أحيانا ، وفى يسر أحيانا أخرى ٠ فرحنا نرتعش ونتساند ونكاد نعدو هاربين عند أول حركة مفاجئة ٠ فهناك فى أقصى النجوع بدأت بعض الجدران تتهاوى فى دوى هائل ، فصرخت أمى صرخة كتمتها لتقول : لهفى عليك يا أمين ٠٠ لهفى عليك !

وعجبت لأمر أمى التى لم أتصور أنها تحب زوجها أو تخشى عليه من الموت ! ٠٠٠ كنت أحس أنها تمقته ولا تطيقه ٠٠ وهاهى تبكى عليه فى حرقة ، وتسأل فى الحاح عما جرى للمركب التى أقلته الى الغرب ٠ ووقفت أنا الى جانبها أبكى فى صمت بينما الشيخ فضل يحاول أن يهدىء من روعنا : لا شىء يا فاطمة ٠٠ ألا ترين الغرب هادئا ؟ لا صوات ولا بكاء ٠ كان صخب ثم هدأ كل شىء ٠ ربما مالت السفينة فتعالى صوات حجوبة ثم أنقذوا جميعا ٠٠ تعالى ٠٠ تعالى نعود الى البيت ٠

وزاد بــكاء أمى ونحن نعــود فى الطريق الزراعية من هواجسى فتصورت أبى يغوص للمرة الثالثة وتصورت أخى الصغير تنهش الأسماك جسده وتخيلت خالتى الطيبة تســتقر فى قاع اليم ، وتراءت لى زنوبة الجميلة جثة هامدة ، وبرعى وجمال٠٠كل هؤلاء الاعزاء ٠٠ومضيت أتساءل: كيف تكون الحياة من بعدهم ٠ كيف تكون حياتى بعد أبى ؟ والمدرسة ومشروعات حجوبة التى تصورتها ، لأمر لا أدريه ، تنجو دون غيرها من الناس ، وتذكرت كلمات جميلة لشقيقتها : لا تفرطى فى زوجك فأبوك عجوز وقد يفارقنا وحامد مازال صغيرا ! وتصورت حياتهما بعد ذلك اذا ما مات فازداد نحيبى وغص حلقى بالدموع وأمى تربت على رأسى تحاول أن تكسب صوتها رزانة وثباتا ، والأعرابية وفضل يهونان من مخاوفنا ٠

ودلفنا عبر الدهليز المتثلم والذى لم يعد له باب واجتزنا الفناء المظلم

والديوانى الذى رفع سقفه لنستقر فى الحاصل الضيق طول الليل ، ساهرين على ضوء مسرجة كاد زيتها يجف ٠

ومضى فضل يروى نوادر عن مصر — أيام بترت ساقه — ولا يكف الا وهو يصيخ السمع الى فرقعة ينداح صوتها الينا من أقصى الشمال ليهتف : دوار العمدة ٠٠ كل البيوت فى ذلك النجع المنخفض تتهاوى ٠ أما نحن فنجعنا مرتفع وقد يمضى يوم كامل قبل أن يصل الطوفان الينا ٠

ولمعت عينا أمى ببريق دام لحظة ثم انطفأ وقالت فى همس : قهوة ٠٠ لو شربنا قهوة بن ! فقامت الأعرابية تفتش فى الحاصل ٠٠ وعادت تقول : عندنا سكر ولكن ليس هناك بن ؟ فابتسمت الأم وأطرقت ثم قالت : حامد ٠٠ هل تخاف من الليل ؟ وصمت فأردفت : بيت أم سعدية قريب وعندها بن ٠

ورأت الحيرة ترتسم فى عينى فقالت : ما عليك ٠٠ لقد نسيت ٠٠ ذهبوا منذ يومين ٠٠ وذرفت دمعتين ثم سرت رعشة غريبة فى جسدها تطامنت بعدها الى النوم ٠ بينما بقينا نحن حول نار نستدفىء ونستمع الى الفرقعات صامتين أو نعبر الفناء لنطل على الساحة والمنخفض الذى تزحمه الحلفا لنطمأن الى أن الماء لم يتجاوزها بعد ، ونعود وفى آذاننا نباح « لورد » يختلط به صوت الدوى يتناهى الينا من الشمال وعويل ريح تهب من الجنوب وتمسك بخناق النخيل فى قسوة فترسل أناتها عبر الساحة وتتمايل ليلقى القمر ظلالها مرتعشة فى البحيرة الضحلة الصغيرة التى تشكلت فى أرض الحلفا ٠

وفى الضحى من اليوم التالى ، ونحن فى الساحة نرقب ، تراءت لنا النجوع فى وهج الشمس الساطعة بحيرات صغيرة هنا وهناك ووهادا تملؤها المياه وربى تحدق بها الأمواج ، فلم يعد بيننا وبين نجع السوارداب الا شريط مرتفع يصل ما بين بيتنا والكتاب ، شريط تلاصقت عليه بعض البيوت الخاوية متثلمة تنفذ الرياح وتتلاطم بين جدرانها ٠

وهناك الى الجنوب بحيرات صغيرة أحاطت بشجرة الجميز ومياه شفافه تغمر كل الحقول ، لم ينج منها الا شريط آخر مرتفع يصل ما بين الشاطىء والسفوح المرتفعة التى أطلت منها على مساحات الماء الواسعة ، تجرى طريق عاليه بينها وبين الجبانة العمومية حيث ارتفعت قبة الحاج مكاوى ٠

وعدنا من جديد الى الحاصل ٠ وعادت أمى تتمنى أن تشرب فنجانا

من الشاى وتطلب منى أن أجرى الى بيت سبيلة أو بيت داريا سكينة ٠ ثم تكف وتعض على شفتها السفلى وتهمس فى صوت دامع ٠٠٠ نسيت مرة أخرى ٠٠ لقد رحلوا ٠٠ والهفى عليهم جميعاً ٠

ثم أطرقت برأسها قليلا وسألت فجأة : متى تأتى المركب يافضل ؟ متى نغادر النجع فنرى كل الأحباب ٠٠ جميلة وابنها الصغير واختى أمينة ؟

ومضت تتمتم ونحن نرقبها فى صمت : جاء الطوفان ٠٠ لكن شبيكة زارنى ٠٠ ربما غير رأيه حين رأى جميع الأحباب يرحلون ٠ ثم كفت عن تمتمتها حينما انبرى فضل يقول : حامد ٠٠ اجر عبر هذا الشريط المرتفع الى الشاطىء علك ترى ياحامد مركبا تعبر النيل أو تعرف خبرا عما حدث ٠

ورأى الرعب فى عينى فقال : لا تخف ٠٠ ألست رجلا ؟ ٠ اجر وعد فى لحظة ٠ فأرسلت أمى نظرة حانية من عينيها الواسعتين مسحت بها وجهى فى اشفاق ثم قالت : لا يافضل ٠٠ سوف يخاف ، أو يغرق ٠٠ دعه معنا ٠

وسخر الرجل منها وقال : حامد كبير يافاطمة ٠٠ ألا ترينه رجلا ؟ فلم أنتظر بعد ذلك ، بل اندفعت متجاهلا تحذيرات أمى أعبر الدهليز والساحة الى الشريط المرتفع ، وأعدو الى الشاطىء ومن حولى أمواج تتدافع وألواح خشب تعوم وأطباق خوصية نسيها أصحابها يرتفع الموج بها وينخفض وصفائح فارغة مثقوبة تعوم قليلا ثم تغوص ، وبيوت لم يتبق منها الا جدار واحد ٠ وأحراش نخيل قصيرة لا يبين منها الا أطراف السعف ، فملأنى الرعب لكننى واصلت الركض ، وها أنذا أصل وأقف على الشاطىء وحيدا يقبض الخوف على قلبى ويعتصره ٠

كل شىء غامض حولى ، والبيوت المتثلمة تبدو وكأنها تتمايل لتنام رقدتها الأخيرة ، ومن خلفى عند السفوح تبدو مئذنة الجامع حزينة واجمة ٠ كل شىء يوحى بالأمس الحزين وبغد غامض لا أعرف لونه ولا طعمه ٠ أليس شيئا رهيبا هذا الذى يحدث أمام عينى وهذه الاشباح والرؤى التى تنثال فى خاطرى ٠٠٠ رؤى مفزعة ، رؤى بدأت فى أصيل يوم منذ أعوام ، وقفنا فيه نحن الصغار وعلى رأسنا برعى ، فوق هذا الشاطىء نفسه، نترقب شيئا كنا نتوقعه: باخرة تحمل الطرابيش والوجوه البيضاء ٠٠ ويخيل لى ، وأنا وحدى على الشاطىء أن وقفتى هذه بدأت منذ ذلك الأصيل الذى لفنا فيه السكون ٠ وبدأت أفهم أن لذلك الأصيل

صلة بما هو وشيك الانقضاض على كل شبر فى هذه الأرض ، برحيل الجزار ورحيل أبى وبرعى والمركب التى غاصت بهما !

الصور تزحم مخيلتى ، الصور تتعاقب ٠٠ سعدية وهى ترفعنى الى صدرها ومصطفى الذى مضى يلوح كالمجنون للصنادل وأخت رحلت الى مصر وأخرى الى الغرب ، وأم كانت ، حتى البارحة ، تهمس : غدا يعود أبوك فالطوفان لن يبلغ نجعنا ، ثم عادت لتقول بعد ساعات : متى نرحل الى الغرب ؟ ورجل يتشمم التراب ، وآخر ببدلة رصاصية وشاربين مدببين يخطب فى الناس وآخر يحنث بالفاتحة ٠٠ وعساكر يطلقون الرصاص وقطع الحصباء تتطاير فى وجوههم ٠

وأمامى عبر الجزيرة التى غطتها المياه تماما ، فلم تعد العين تعرف حدودها الا بقمم الأشجار الممتدة فوق الماء خيام تترامى فى الغرب حول كران نوج يجرى بينها الأطفال يعتلون وينقلون أقدامهم فى الرمل ، ونسوة ينزلن الى الجرف العالى ورجال ينحنون ويسوون الرمال لاقامة خيمة جديدة ٠ ويخيل لى أن أبى بينهم وكذلك خالى والشيخ شليب ٠

أنا وحدى هنا على الشاطىء والدموع تتصاعد الى عينى ٠ وها هى فرائصى ترتعد ٠ ولكن الشيخ فضل قال لى : أنت رجل ٠ فهل أعود أم انتظر والام انتظر ؟ ان جولتى التى زعمها فضل تتسرب منى وتنسل من خلال قدمى اللتين أخذتا تترنحان وتهزان جسدى ورأسى لتدور دوامة الخوف بى كل مدار ، وترسم لى خيالات درافيل وتماسيح تشق النيل لتلتهمنى فأستدير لأعدو فوق الشريط الضيق ٠ لكننى أتردد ٠ ثم أتوقف موليا النيل ظهرى ثم يهدأ روعى قليلا حين أرى لورد يركض بساقه الجريحة فوق الشريط ولا يتوقف الا ليطارد ثعبانا يهرب من الماء الزاحف الى جحر فى الجسر المرتفع ٠

وزام قليلا حين أفلت الثعبان منه ورفع ذيله ثم عاود زكه حتى توقف أمامى يرسل أصواتا خافتة ويحرك ذيله ويتمسح بى ٠ ثم توقف فجأة عن كل حركة وأرسل بصره الى النيل فى اتجاه الجزيرة فاستدرت معه لأرى مركب عوض كتبية تستدير عند الطرف الشمالى للجزيرة وتتجه الينا بأنفها فاستعدت رباطة جأشى ومضيت ألوح للسفينة آملا أن يرانى من فيها أيا يكونون ٠

وفى لحظات الانتظار الرهيبة أخذت أربت على رأس لورد وأتمنى لو استطاع هو أن يمد ساقا فيربت على ظهرى ٠

ثم رســت الســـفينة وقفز منها برعى بينما اش الله مايزال على الصارى يصلح حبالا تقطعت ٠

تلقانى برعى ببسمة عريضة حين ارتميت على صـــدره وسألنى : كيف الحال يا حامد ؟ قلت : بخير ٠ فى صوت راعش جعله يضمنى الى صدره بينما أهمس : ماذا جرى بالامس فى النيل؟ قال : كاد أبوك يغوص فى النيل ولكن الحمدلله نجونا جميعا ٠ آه لو رأيت فلوس أبيك : خضراء وكثيرة ٠٠ كانت مثل العجينة حتى فصلها أحمد عودة ونشرها على البرش

قلت ، والدهشة ترتسم فى عينى : ولماذا نشروها ؟ فأمسك بأذنى وقال : ألا تفهم ٠٠ حتى تجف ٠

ـ وكيف حال خالتى وزنوبة ؟ والكل ٠٠ ومحمود الصغير ؟ ٠

ـ بخير ٠ كلهم بخير ٠٠ وأنتم ٠ ماذا فعلتم بالليل ٠ وماذا تقول أمك الآن ؟

ـ لا أدرى ٠ الا أنها لا بد راحلة معنا ٠٠

ـ ولماذا جئت وحدك ؟

ـ الشيخ فضل طلب منى ذلك ٠ هيه ٠٠ كيف حالك يا اش الله ؟.

ـ بخـير ٠

قالها ثم مضى يزك بساقه وهو يسأل ضاحكا : وكيف نام أبو رجل ؟٠ فضحكنا جميعا : حسن المصرى وعوض كتية الا أن نظرة صارمة من برعى أعادتنا الى الصمت ٠ بينما انتقل اش الله الى حديث آخر : والشيخ شليب أقام خيمة الكتاب ٠ فصحت فى وجهه ٠٠ متى أقامها ولماذا ساعدتموه ؟ وضحك برعى من الغيظ الذى ركبنى فصفق بيده متهللا ثم مضى يروى لى قصة المركب ٠ وفى اللحظة التى أخذ يقلد فيها صرخات زنوبة ، ويتندر على حسن المصرى وحركاته الخبيثة وهو يحملها جثة تكاد تموت ، انطلقت من الشرق ، من بين السفوح صرخات دافقة اقتلعت أقدامنا من الشاطىء وقذفت بنا الى الشريط المرتفع نتسابق عليه حتى دلفنا الى الساحة التى أخذت الأمواج تناوشها لنجد أمى والأعرابية على عتبة بيتنا جاحظة العينين تصرخ وتشير الى مكان فى اتجاه نجع السوارداب ٠٠ وهناك رأينا المياه تحيط بربوة صغيرة مرتفعة تقطعت السبل بينها وبين أى مكـــان فى النجعين ٠ وعلى الربوة الصغيرة المرتفعة كان الشيخ فضل يلوح لنا يائسا فصرخنا فى صوت واحد : فضـــل !

كان قد ترك أمي والأعرابية وسار في أنحاء النجع يزور أماكن عزيزة على نفسه ، ولكن المياه اندفعت بسرعة في اللحظة التى كان ينعطف فيها الى درب فى نهاية النجع ٠ وجثمت على كل مكان الا تلك الربوة الصغيرة التى تراءى فيها رجلا ضائعا أفلتت منه ساقه الخشبية فوقف حائرا ثم جلس يتلو آيات من القرآن ويلوح لنا بينما المرأتان تعولان ٠

وقفز لورد الى الماء ومضى يسبح اليه حتى قفز الى جانبه وزام ثم تحول عنه يهاجم خطوطا متلوية كانت تعدو هاربة : ثعابين وسحالى أخذ فضل يبتعد عنها ٠ وأصابنا فزع شديد فان المياه كانت ترتفع وتأكل فى كل لحظة لقما كبيرة من الجزيرة الصغيرة التى جلس عليها الرجل يرمق فى حسرة ساقه الخشبية تعوم بعيدا عنه مع جحافل الماء وآلاف الأمواج التى أخذت تتسابق الى كل مكان فى النجع ٠ وها هو بيت نوح يستقبلها ليتهدم جداره الأمامى فى اللحظة التى كان يتهاوى فيها تماما بيت سعدية وجدران ثلاثة من بيت المأذون ، تتهاوى مثيرة سحابة من الماء تتطاير وغبارا يعلوا فوق القمم المتثلمة التى ماتزال صامدة ٠

وبدت نظرات الرجل من بين الغبار المتصاعد حزينة كاسفة تلومنا وكأننا لا نبالى به وبالجحيم الذى يعيش فيه ٠ انه لا يستطيع أن يسبح منذ أن بترت ساقه ٠ والثعابين من حوله تتلوى وتعلو هاربة ٠ وركبنى خوف شديد وأنا أشاهد تلك الثعابين اذ ارتفعت أمام عينى صورة جدتى والثعبان الذى غرز أنيابه فى ركبتها ٠

ومن خلفى اندفع حسن المصرى وبرعى يجران ثلاثة جزوع ربطوها بحبال قذفا بها الى الماء ثم اعتلاها برعى والمصرى ومضيا يجدفان حتى بلغا الربوة الصغيرة فى اللحظة التى لم يكن قد بقى منها الا مساحة ضئيلة تكاد تتلاشى ٠ وتعلق فضل بعنق برعى ثم اطمأن فوق الجذوع التى استدار بها برعى ٠

وهمهم الرجل بكلمات لم تصل الى سمعي ولا الى سمع أمى والأعرابية اللتين وقفتا وفى عينيهما دموع ويداهما لا تزالان تشيران الى نهاية النجع ٠ الا أن برعى قذف بنفسه فى الماء بعد تلك الهمهمة ٠ وعام حتى أمسك بالساق الخشبية وناولها لخاله ٠

وحين خطا الرجل أولى خطواته على أرض الساحة أطلقت أمى صرخة مرحة عبست بعدها وعادت تدلف من باب الدهليز وهى تغمغم : لعنة الله على الجزار ٠

وهمس فضل : تعالى يافاطمة • هاتى هذا اللحاف • وارفع أنت يا برعى هذا العنجريب • أما سقف الحاصل فاتركوه فليس بذى بال تعالى يافاطمة •

واستدار بعد أن ألقى أوامره وأخذ يزك على ساقه فوق الشريط المرتفع ثم تلفت خلفه ليجد أمى لا تزال فى مكانها لا تريد أن تتحرك • كانت ترمق الجدران فى ذهول • وتطوف بعينيها على الســاحة والمياه المنداحة فيما دونها من الارض ، فتوقف الرجل وصاح :

ـ تعالى يا فاطمة • أنت ترين الحال • الطوفان لن يبقى على شىء •

وهتفت هى فى صوت باك : لنبقى قليلا يافضل فمازال أمامنا وقت ، فقال فى يأس : كفاك عنادا يافاطمة يابنت عائشة •

وهنا أحست أمى كأنما لدغها عقرب • اذ تذكرت أمها وتذكرت انها لم تزر قبرها منذ أسبوع كامل • يا للغدر ! ها هى تريد أن ترحل دون أن تلقى نظرة عليه للمـرة الأخيرة ، فانقبض قلبهـا ومدت يدها وأمسكت بيدى وهى تصرخ : سأزورها أنا وحامد يا فضل ثم ألحق بكم • وانفلتت الى الداخل تبحث عن شىء حتى وجدت ابريقا نحاسيا قديما ، كنا قد نسيناه وعادت به الى منخفض وأمالته حتى ملأته بالماء وهى لاتزال ممسكة بيدى ثم انطلقت تعدو فى اتجاه السفوح الى الجبانة وأنا من خلفها ألهث وأخشى أن تطوقنا المياه فلا نستطيع العودة •

كانت الأعرابية قد تركتنا منذ لحظات وانعطفت قبل الجبانة الى بيتها فوق الجبل ويبدو أنها كانت تراقبنا من كوة فى جدار بيتها المواجه لقبة الحاج مكاوى • فقد سمعتها تهتف : عودا بسرعة • لكن أمى لم تبال بها • بل مضت تركض حتى أوغلت فى الجبانة ووقفت على قبر أمها خاشعة ترتل : قل هو الله أحد ، الآية الوحيدة التى تحفظها والتى تتعثر دائما عند كلماتها • ثم أمرتنى أن أتلو على روح جدتى بعض ما حفظت ،فجلست خاشعا عند الشاهد أرتل صورة الرحمن بينما مضت هى تتمتم : اغفرى لى يا أماه • اغفرى لى ياعيشة •

ووقفت أنا أتأملها • ومن خلال سحابة الدموع التى رسمت كل شىء فى عينى قاتما مظلما ، وجدتها بائسة تبكى ، وتهتز مع نهنهاتها • فرحت أصرخ : كفاك يا أم • كفى ••• الماء يحيط بنا من كل مكان •• ثم طوقتها بذراعىفلم تبال بى بل راحتتنشج بصوت مرتفعوتختلج حتى

أحسست أن نصالا حادة من الألم تنغرز فى قلبى ومؤخرة رأسى فارتفع صوتى بالبكاء يختلط بصوتها ٠

وفجأة ودون أن أدرى وجدت نفسى أنطرح على الأرض وذهلت لأن أمى هى التى طرحتنى أرضا حين تحرك جسدها حركة غريبة تهاوت بعدها الى الأرض غائمة العينين يغلى السائل الأبيض بين شدقيها مثل رغاوى الصابون ٠

وأسقط فى يدى ٠ فانكببت عليها أنادى : أمى ٠ فاطمة ٠٠ أفيقى ٠ وأتلفت فى حزن الى المياه المندفعة نحونا : أفيقى لئلا نهلك ٠ ثم رأيت الابريق النحاسى الذى صببت أمى منه الماء على قبر الجدة وفى حوض الصبار المتجهم الحزين منطرحا عند قدميها اللتين مضتا ترفسان على حافة القبر وتبعثران قطع الحصباء المنسقة فوقه ٠ فالتقطته وملأته ماء ثم عدت أرش منه على وجه أمى دون حساب ٠ أخذت أحرك الابريق فى حركات مجنونة وأنا أهتف : أمى ٠ أفيقى يا أماه ٠ ثم خيل لى أننى أسمع صوتا يهتف بى ٠٠ صوت جدتى ٠٠ صوت واحد من هؤلاء الأموات ٠٠ أم أنه الشيطان ٠٠ انه صوت مبحوح ناعم رغم ذلك ٠ وخشيت أن أدور خلفى خوفا من مواجهة الرعب نفسه ٠ فواصلت رش الماء على وجه أمى والتى كانت لا تزال ترفس بقدميها ٠ ثم تبين لى الصوت وهو يقول : مسكين ٠ ألم أقل لكما عودا بسرعة ٠ وتنفست الصعداء ، تنفس انسان أفاق من كابوس وأنا أرى الأعرابية تنكفىء على أمى وتدلك فروة رأسها بشدة ٠

ومن حولنا كانت الأمواج الصغيرة تتلاحق وتدور حول الجبانة لتحدق بنا من الغرب والشرق ٠ ولم يعد أمامنا الا شريط مرتفع يصل ما بين الجبانة والشريط الآخر المتجه الى الشاطىء ٠

وعند حافة الجبانة وقعت عيناى على مشهد أثار فى نفسى شعورا بالغثيان ، فعلى سطح الماء كانت تعوم أكفان بيضاء وعليها بقع حمراء ٠ ثم تهاوى منزل الشيخ جعفر الذى حجبت جدرانه عن عيوننا الشراع السامق المرتفع على الشاطىء فتكشف لى واضحا ، وأخذت أستعيد هدوئى بعد أن ألقيت نظرة على أمى فوجدتها هادئة لا تحرك قدميها بينما كف السائل الأبيض بين شفتيها بل كفت حشرجتها ، وان بدت كالميتة وراحتاها على صدرها تحاول الأعرابية أن ترفعهما وهى تنادى : أفيقى ٠ وعلى الشريط المرتفع بدا برعى وحسن المصرى يركضان نحونا ، وفوق رأسيهما بدت الشمس قرصا هائلا يغزو ضياؤه كل شبر ويعكس

صورتيهما وصور الجدران المتثلمة فى الماء المندفع حول الشريط المرتفع ٠ بينما بدت هنالك فى سماء نجع السواردا‌ب أسراب شتى من الطيور تحلق وترسل صرخات داوية وترف بأجنحتها مذعورة ٠

وفى الجو رائحة بول وروث بهائم وعفن انبعث من الجبـانة نفسها ضاقت به نفسى ، فأخذت أتعجل خطى برعى وحسن المصرى ٠ فقد عزمت أن أطلب منهما أن يحملا أمى وهى لا تزال فى غيبوبتها الى المركب ٠ لكنها أفاقت فى اللحظة التى وصـلا فيها وجالت بعينيها فى وجوهنا ٠ ثم ارتفقت كوعها وجلست تتمتم : الحمد لله ٠ بينما ملت أطبع قبلة على جبينها وأضع ذراعى تحت ابطها وأنا أقول : هيا يا أمى ٠

فهبت واقفة وألقت نظـرة على قبر الجـدة وعلى قبة الحاج مكاوى واستندت على كتفى وذراع برعى ومضت لاهثة الخطى تعتلى الشريط المرتفع ومن خلفنا الأعرابية ٠

ولوحت الأعرابية لنا بيدها حين أقلعت السفينة ٠ فابتسمت لها أمى وصـاحت : زورينا فى الغرب ٠ فهزت رأسهـا وقالت ؟ سأزوركم عما قريب ٠٠ مع السلامة ٠

وألقى الشيخ فضل بعباءته على أمى ٠ ثم مال على حافة المركب ٠ وأخرج من جيبه منديلا فضه وأخذ يرفع منه حفنة من التراب الى أنفه يتشممها بينما عيناه تذرفان دموعا تنسكب فى النيل وشفتاه تتمتمان : انا لله وانا اليه لراجعون ٠

اتخـذ عوض كتية طريقا آخر لمركبه اذ لم يتجـه بها الى القرن الشمالى للجزيرة ٠٠ بل أدار دفتها واخترق بها الجزيرة نفسها بعد أن طوى شراعها واستعاض عنها بالمدارة والمجداف ٠

واتجه حسن المصرى ببصره الى الشرق وأرسل لحنا جميلا اعتاد دائما أن يغنيه ٠

ـ بلد حبيبى قصاد عينى ومش قادر أعديلها ٠

وتجاوبت معه وهاد الشرق وجدرانه بفرقعات هائلة أعقبتها سحب من الغبار ارتفعت الى عنان السماء ٠

٤٧

كنت متكورا بجسدى فوق العنجريب ، متلفعا بحرام ثقيل يقينى البرد الشديد الذى أخذ ينفذ الينا من خلال البوص وسقف الخيمة ٠

وأفقت فجأة على يد تهزنى ، ففركت عينى وتلصصت من خلال ثقب فى الحرام لأجد أمى واقفة على رأسى تهمس : أفق يا حامد قبل أن يفيق النيل ، لكننى تثاءبت وعدت الى النوم فمضت توقظنى فى اصرارها هامسة فى صوت خافت : أفق يا حامد فقد أمرتنى جدتك فى الرؤيا ٠ فأطارت هذه الكلمات من عينى آثار النوم ٠ وجلسرع وأنا لا أزال متلفعا بالحرام أحدق فى وجه أمى ، وأشفق من سعال متصل حاد يمسك بخناقها ، قالت بعد أن تخلصت منه : جدتك تطلب منك أن تشرب من ماء النيل وهو لا يزال نائما فى السحر !

وضحكت ضحكة قصيرة وهمست : وهل ينام النيل يا أماه ؟ فقالت : كيف لا ينام ، انه يمشى دائما ويتعب ثم ينام ساعة يعود بعدها الى تجواله وطوافه ٠٠ قم ودع الكسل يا حامد فالوقت يمضى ٠

ـ وكيف عرفت يا أماه أنه نائم فى هذه الساعة ؟

ـ جدتك قالت لى فى المنام : أسرعى يا فاطمة ٠٠ دعيه يشرب الآن قبل أن يفيق ٠٠ انه ينام يا ابنتى ٠

وتلفتت حولها خشية أن يسمعها أحد : سوف ترى كيف تشتد عضلاتك وكيف ينمو جسدك لتصبح رجلا فى شهور قليلة !

ثم مدت يدها وجذبتنى اليها ، وأمسكت بيدى وخرجت من باب الخيمة ثم توقفت تتأوه حين لفح البرد الشديد وجهها وراحت تسعل ٠

ومن باب خيمتنا التى تطل على خيمة الدكان ، ومن خلفها خيمة خالى

وخالتى ثم خيمة داريا سكينة وفضل ، تبدت لى قرية الخيام المتلاصقة غافية لا ينبعث منها الا صوت شخير يرتفع ويخفت ، والا همهمة غامضة تنبعث من خيمة البسطاوى وعروسه سعدية ٠

كان لون السحر الباهت يضفى على الخيام صورا غامضة فبدت كأغنام رابضة أو طيور عائمة لا أعناق لها !

ثم فتح باب خيمة وبرزت منه سعدية تحمل صفيحة ماء بينما وقف البسطاوى ينير لها الطريق بفانوس رفعه فوق رأسه ٠ وابتعدت عن الخيمة خطوات طوحت بعدها بالماء من الصفيحة وعادت واختفت خلف البسطاوى فتبسمت أمى وغمغمت : فى رمضان يا سعدية ! وبعد السحور يا بنتى : بينما مضيت أنا أتخيلها بين أحضان زوجها ، فتذكرت صدرها البض يحتك بصدرى ويكاد يخنقنى وأردت أن أقترب من خيمتها ، الا أن أمى أمسكت بيدى واندفعت تنحدر عبر الرمال الى الشاطىء حتى توقفنا عليه فهمست: ألا ترى النيل نائما يا حامد ؟ ٠٠ جدتك لا تكذب ٠٠ لا ترفع صوتك حتى لا توقظه !

ثم دفعتنى فجأة وهى تقول : اشرب ٠٠ قلت :: اشربى أنت ، متخيلا أن جرعة يمكن أن تشفيها من أمراضها ، الا أنها أصرت : اشرب أنت أولا فقد يستيقظ قبل أن تشرب منه ٠ فملت الى الماء ورشفت منه ، ثم نهضت أقول لها : اشربى أنت الآن ياأماه ٠٠ فهو لا يزال نائما ٠ فانكبت تشرب، بينما أخذ احساس غريب ينبثق فى صدرى ، احساس بعضلاتى تنتفخ ، وبحلمة الثدى تتصلب ، وبصوتى يزداد خشونة ٠ كان صوت رجل هو ذلك الذى بدأ ينبعث من حلقى ، فعكفت على نفسى أتخيل قامتى الطويلة وشاربى المدبب ويدى القويتين ٠ وغرقت فى أحلام اليقظة الغريبة ولم أفق منها الا على فرقعات هائلة فى الشرق فهبت أمى بعدها فى فزع وواجهت المشرق فانعكس ضوء الشمس الصاعدة فى عينيها ، ثم انحدرت بهما الى النيل وقالت : أترى يا حامد ؟ ٠٠ انه يفيق من نومه ٠ ثم أخذت تسعل سعالا حادا هزكيانها ، وقفز بالدموع الى عينيها ٠

ورأيت النيل بالفعل يفيق كلما انعكست عليه أشعة الشمس ، وكلما هب النسيم فأيقنت أن عضلاتى ستشتد وأن أمى ستشفى من مرضها ومن هذا السعال بعد لحظات قصيرة ٠

وارتفعت الشمس قليلا فتبين النيل لى على حقيقته : جدارا هائلا

مرتفعا يملأ الوادى كله ويصفع الأشجار والسفوح والجروف العالية فى هدوء قاتل ويكتسح الجدران التى لا تزال متبقية فى الشرق ٠

ويبدو أن أمى أدركت ماكنت أتصوره فقالت : حقا ان الطوفان كاسح يا ولدى ٠٠ تعال ، وأمسكت بيدى وعادت أدراجها الى الخيمة ، ودلفنا فى نفس اللحظة التى كانت تقول فيها حجوبة لأبى : لقد كبر يا أمين ولابد له من عمل ، وسمعته يقول : ياوليه اسكتى ٠٠ قتاح يا عليم ٠٠ اسكتى!

فحدجتهما أمى بنظرة متسائلة ثم أسرعت الى ركنها ، وتلفعت بحرامها ثم رقدت تنام الى الضحى نوما يقطعه سعال مستبد يهز كل جسدها ٠

٤٨

الضحى من نفس اليوم وها هو الوطن الجديد يمتد أمام أبصارنا تلالا صغيرة خلف صفوف ثلاثة من الخيام ٠٠ والتلال تبدو بعيدة تحف برءوسها دوائر من نور الشمس تحوم فوقها وتبعث الرعشة فى القلوب ٠ وتحت أقدامها تركع كثبان من الرمل الأصفر وهضبة تنحدر عبر الخيام لتطل على النيل فى جروف عالية ، والخيام ليست الا أقزاما صغيرة من البوص وفروع السنط والجريد تتلاصق كأنها مذعورة من التجهم المرسوم على الهضبة والكثبان والتلال ٠

وأمام بعض الخيام نسوة افترشن الأرض تلوك ألسنتهن مأساة الأمس وتكف عن الكلام عند كل دوى فى الشرق لتصرخ : أمى ، هذا بيتنا يغوص بالماء ٠

ــ كلا ٠٠٠ لابد هى مئذنة الجامع ٠

فترد أخرى من عتبة خيمتها : بل هى قبة الحاج مكاوى ، فتتميز فتاة من حفيداته غيظا وتصرخ : الشر لا يقوى على الحاج وقبته ، الشر لايقوى !

ـ وكيف لا يقوى ٠٠ أليست القبة من طين وحجارة ؟

ـ لكننى رأيت فى المنـام ملائكة بأجنحـة بيضـاء طوال القـامة يتسورون القبة وينفخون فى الأمواج فتبتعد ، بينما جدى من قبره يبتسم لهم ويرفع يده الى السماء : الحمد لله يارب ٠٠ الحمد لك يا رب ــ بركاتك يا حاج ٠

ثم مدت يدها الى رأس جدتها العجوز تفلى شعرها المخضب بالحناء بينما الصغار يخرجون من الخيام وينتشرون على الرمل ، يجمعون قطع الحصباء ويتشاجرون والشمس من فوق رءوسهم ترتفع وترسل حرارتها الى الرمل رغم برودة الشتاء فينتقلون من قدم الى أخرى ثم يلعبـون الحجلة ٠ والأمهات يلقين عليهم نظرات مشفقة ويهمهمن : مساكين ٠٠ أولاد الفقر ! ثم اشتد صياح الاطفال فجأة واختلطت به كلمات مشهورة : واحد واحد ٠٠ صمد ٠٠ اذ انطلق كلو ينفلت ويمرق من بين الخيام هاربا من الصغار الذين تسابقوا خلفه ليستديروا به الا أنه اختفى فجأة فهتفت داريا سكينة : شريفة ماله اليوم يختفى بمثل هذه السرعة ؟

ـ من يدرينا ٠٠ لعله غاضب علينا !

ـ ولعله يحذرنا من شر ٠

فتصايحن بها من كل مكان : يا شيخة ٠٠٠ أبعد ما حل بنا شر ؟

ثم ظهر كلو من جديد من بين الجدران الطينية المتثلمة ، جدران كران نوج ومضى يركض بين الخيام حتى توارى خلف التلال الغربية ٠ ثم لم يره أحد بعد ذلك فى القرية ٠

★★★

الرجال يخشون أن تهب زوبعة تقتلع الخيام ، وها هم ينقلون الماء فى دلاء ويعجنون الطين ويثبتون قوائم الخيام ، وبين أفواههم كلمات واجمة حزينة ، فانهم لم يفيقوا بعد من أحداث الأمس ٠ ثم انطلق صـوت حاد يصرخ فى ألم فأداروا رءوسهم ليروا عم نوح يحمل مندوهة الى خيمته وهى تتعلق برقبته وتتأوه فقد لدغها عقرب وصاح فضل حين علم بالحادث : تستاهل ٠٠ قلت لها عشرين مرة ألا تلعب فى الجحور ٠

ـ ولماذا تلعب بالجحور ؟ بنت شعنونة !

فضحك أبى وقال : نوح أمرها بذلك ، فهما يبحثان عن جعـارين

وتماثيل أثرية يرسلها الرجل الى مصر أو الأقصر • وقد يجدان كنزا تحت الأرض !

وقهقه فضل ومضى يزك بساقه فوق الرمل هنا وهناك ثم توقف عند بقعة من الأرض تأملها قليلا ثم انحنى عليها ونشب أنامله في الرمل وغاص بها ثم عاد بها بحفنة من التراب أخذ يتشممها مليا ثم استدار بوجهه الى برعى وقال :

ـ هنا يا برعى سوف أبنى بيتنا الجديد ، ثم جال ببصره فى الأرض المنحدرة الى الشاطىء وقال من جديد : ومن هنا حتى الشاطىء ستكون لنا أرض •• قراريط ستة أو سبعة نزرعها !

واستمع أبى الى كلمات الرجل وأطلق ضحكة عالية قال بعدها : يموت الزمار ••• ماذا تفعل يا فضل •• والله ان الأرض ستقتلك ! فالتفت الرجل الى أبى وهمس : ماذا نفعل يا أمين ؟ لابد أن نقوم بشىء طوال الشتاء حتى ينحسر الطوفان عن الشرق فى الصيف • نفسى تتوق يا أمين الى حزمة فجل وقضمة بصل أخضر • ألا تتوق نفسك اليها ؟ ثم أشار الى ما حوله من رمل متجهما وهتف : ألا ترى يا رجل ـ هذه الأرض الضيقة الممتدة مابين عافية وعنيبة أمام الخيام ومن خلفها ، ما من نبتة خضراء واحدة •• تأمل خرافنا •• انها تقتات بالعلف الجاف •• وتجمع الورق المتناثر •• سوف تهزل وتموت •

وحملق أحمد عودة فى الرمال القاحلة ومضى يرسم خطوطا على الأرض مطرقا برأسه يتمتم فى صوت خافت : حتى العاقول والحسك اختفيا من الأرض •• ثم هب الى قدميه وأخذ يتجول فى الأرض ، يتريث قليلا هنا وهناك حتى توقف عند بقعة قال بعدها •• وهنا سنبنى بيوتنا الجديدة والأرض من هنا الى الشاطىء ستكون لنا ••

فصمت أبى وظل ساهما لا يقول شيئا •

وكانت صرخات مندوهة قد هدأت ، وتراءت الست آسيا على باب الخيمة تصرخ فى النساء : العقارب هنا بعدد الرمل يا بنات ولابد أن ينتعل الصغار حتى بالنهار فهززن رءوسهن بينما عاد الصغار يتصايحون ويلعبون لعبة الحرب بعد أن صنفوا أنفسهم جماعتين : نحن الافغان : ونحن الانجليز! متسلحين بأكياس الرمل وقطع الحصباء ، نافخين فى صدورهم وأوداجهم يقلدون دوى قنابل لم يسمعوه من قبل • وراحت القلاع تتهاوى فى الشرق وفى الغرب وتعالت صيحات الصغار : نحن الأفغان • نحن الانجليز •

وقهقه أحمد محمود الذى كان يجتاز نجع الخيام بركوبته وصاح : وما الذى أدراكم بالأفغان يا عيال ؟ فصرخوا فى وجهه : نحن الأفغان • فلكز ركوبته حتى توقف أمام برعى عند باب خيمته وترجل ووقفا لحظة يتهامسان ثم دخلا ولعلهما كانا يتحدثان عن حسين طه •

وطفق فضل يرمق العيال فى اعجاب حتى انتهوا من معاركهم فصاح ملوحا بيده لهم : تعالوا هنا يا عيال ، فأسرعوا اليه يتندرون على ساقه الخشبية ، وهو صامت يبتسم لهم : يا عيال •• ألا تحبون أن تزرعوا شيئا ؟ فقال أحدهم فى شيطنة : نزرع حلاوة !

ـ حاضر يا ولدى •• بعد أن يصل طرد الحلاوة من أبيك •

ـ طيب ازرع لنا بلحة الآن •

ـ حاضر يا ولدى هذه نواة بلح نزرعها هناك •

ومضت الأيادى الصغيرة تنبش فى الرمل وتحفر وتهيىء مكانا للنواة ، وتريث فضل ثم قال : الزرع لا يصلح بدون ماء • أسرعوا بكوز ماء •

فانطلقوا الى النيل وعادوا بكيزان صغيرة ملأوها بالماء يصبونه على الحفر من فوق يد الشيخ فضل الذى أخذ يغرس نواة البلح وحبات من الخروع • ثم توقف ورفع يده الى السماء وهتف : ادعوا معى يا عيال •• اللهم اجعل أرضنا خضراء •• ومر العصافير أن تشقشق فوق هذا الرمل •• آمين •• وسرسعوا من خلفه بأصواتهم الرفيعة •• آمين •• وعادوا يحجلون بينما برزت « داريا » على باب خيمتها ومن خلفها زنوبة وشريفة وغمزت لهما بعينيها وقالت : سأشترى منك يا فضل ملوخية فى يوم قريب •• تعال يا جمال ساعد الشيخ فضل ينوبك ثواب •• وقد يكون لنا نصيب فى الأرض وهمست زنوبة : لا أرض ولا حاجة •• جمال سيعود الى مصر •• أرض ؟

***

وانهمك أبى وأحمد عودة فى شئون المتجر فى خيمة واسعة رصت فى جانب منها الصناديق والصفائح والرفوف بينما انتصب بنك الزنك لامعا فى الجانب الآخر •

وتلفت أحمد عودة الى اش الله يأمره برعاية المتجر ، وانحدروا هم مع الرمل الى الشاطىء حيث رصت جوالات السكر والغلال يحملونها الى

الخيمة فوق ظهورهم وأنا ألهث خلفهم : أنا أستطيع حمل شوال يا أبى ٠ وقرر أبى فى لحظة أن يداعب رجولتى فركز على ظهرى شوالا صغيرا بركت به على الأرض وعرق الخجل يتصبب على جبينى بينما مضوا يهللون : أرنى شطارتك يا حامد ٠٠ شربت من النيل وهو نائم ٠٠ ثم ٠ وأخذت أنا أحتج : الشوال انزلق ٠٠ أنا لم أقع ٠٠ بل هو الذى وقع ، حملونى غيره ٠٠ فلم يبالوا بى ، بل انهمكوا مرة أخرى فى عملهم حتى فرغوا منه ٠

وفى الطريق الى خيمة المتجر اعترض طريقهم رجل صغير القامة نحيل الجسد وقد أمسك بيد غلام صغير مضى يصافح الرجال فى شجاعة والرجل يقول لهم : حفيدى سرور ٠

ـ ماشاء الله لقد كبر ٠٠ متى عدت يا سرور من الاسكندرية ؟

ـ منذ أسبوع ٠

ـ حمد الله على السلامة ٠٠٠ تفضل يا شيخ ابراهيم هناك فى الدكان٠

قال : مرة أخرى يا أمين فأنا فى طريقى الى بشير ، فقد دعانى لمساعدته فى البئر ٠

وصاح أحمد عودة : بشير أطواره غريبة يا ابراهيم ٠٠ ليس فى رأسه ذرة عقل ، كيف حدثته نفسه بحفر بئر فى الجبل ٠

ـ الفلوس فلوسه ولا شأن لنا يا أحمد ٠

ـ العفريت وابور هو الذى يشجعه ٠

ـ لن يجد الماء الا بعد سبعين مترا ٠٠ أو ثمانين مترا !

وانشغلت أنا عن الكبار وأحاديثهم بسرور الذى مضى يحدثنى عن الاسكندرية والخواجة « بيل » الذى يعمل أبوه فى قصره ٠

كنت أتأبط ذراعه وأمضى به على الرمل الى الشاطىء نراقب الجزيرة ٠ وأشار هو الى قمم أشجار فى وسط الجزيرة كانت تهتز فوق سطح الماء وقال : تحت هذه الأشجار كان بيت جدى !

ومن حول الجزيرة كان الوادى كله قد تحول الى بحيرة واسعة هادئة تقوم فوقها رءوس النخيل ، تنسل بينها قوارب صغيرة وقف على حافتها رجال تلمع الشراشر فى أيديهم يكملون قطع سباطات لم يكونوا قد قطعوها حين أخذتهم العجلة يوم انذار الطوفان ٠

٤٩

وصاح اش الله فى صوت مشرق : غدا الوقفة . وردد بكر من بعده : غدا الوقفة وبعده العيد . ورحوا يحجلون بين الخيام ويتصايحون بأغنيات العيد التى ابتسم لها الكبار فى فتور . فانهم لا يستعدون للعيد ولايفعلون شيئا غير لعب « السيجة » منطرحين على الأرض أو قراءة سيف بن ذى يزن من جديد . والتحديق فى حسرة الى الوهاد الشرقية التى تحولت الى بحيرة واسعة . فالماء قد علا حتى أوفى على غايته متشامخا مثل الجدران العالية ، وان لم يستطع اكتساح الهضبة الرملية التى استقرت عليها خيامهم .

لقد صاموا وهاهو العيد يطل عليهم دون أن يتأهبوا له الا ببعض الثياب الزاهية ، أما قلوبهم فواجمة حزينة تقفز على وجوههم السمراء ترسم عليها ظلالا من الأسى والندم الذى أخذ يتسلل الى شفاهم فى كلمات يائسة كلما طافوا بعيونهم على الكثبان والرمال القاحلة .

هذا هو أبى يرفع رأسه بعد أن أكل كلبا من كلاب « السيجة » ويقول :

ـ ليتنا هجرنا المنطقة كلها وتبعناك ياحسنين الى مصر أو تبعناك ياصابر الى الطود فى الصعيد .

وانبرى الشيخ فضل يقول ساخرا : الحال من بعضه يا أمين هنا صخور وفى الصعيد أراض قاحلة .. جرداء . لا ماء يركبها .

وعبث فى جيبه وأخرج للمرة العشرين جواب الشيخ صابر يتلوه عليهم من جديد : لم أر النيل منذ وصلنا . الأرض ترقد أمام عيوننا ميتة .. الناس لا يتكلفون حتى تحيتنا . انهم ينظرون الينا بعيون حذرة واجفة نظرتهم الى غرباء . ربما أجد عملا كمرمطون فى وينتر بالاس بالأقصر . كيف أبى وأمى ؟ . قل لهما يافضل أننى مازلت أدعوهما

للرحيل الينا . بدأنا نكتب الشكاوى نطالب بمشروع للرى يجلب الماء الى أرضنا ، والغريب أن الحكومة تطالبنا بالمال الذى فرضته على أرض لم نتسلمها بعد . سبيله بخير . العيد . عيد الفطر المبارك سيهل علينا فى هذا البلد الغريب . هنيئا لكم عيدكم فى البلد . ويبتسم أحمد عودة عند هذه الكلمات ويقول : أى عيد ياصابر . النفوس لم تفق بعد مما صدمها . عيد !

أين نصلى ؟ .. وليست هناك جبانة ولا قبة الحاج مكاوى .. وأين ملاهينا ومراح صغارنا ؟ . النيل طام لا يمكن ركوبه . عيد !! أى عيد هذا الذى تتحدث عنه ياشيخ صابر ؟ . أنت لا تعرف .. والله انك لا تعرف .

وقال فضل يكمل الصورة الغريبة : ولا قمح نصنع منه الشعرية .. ولا لبن .. وتدخل أبى : وماذا قال الشيخ عبد العزيز فى مسألة الصلاة ؟ .

ومضى يتذكر كيف كانوا يبكرون قبل بزوغ الشمس الى الجبانة ويشخصون بأبصارهم الى القبة البيضاء ثم يفترشون الرمل ويستمعون الى الخطبة وينهضون بعد الصلاة الى المقابر يترحمون على أجداث الآباء والأجداد . ثم يسمحون لأنفسهم بعد ذلك بالمرح والصخب أياما ثلاثة بلياليها . وها هو العيد يعود وفى الصدور شجن وفى العيون قلق لا يريم والقبة البيضاء وارها الطوفان . والبيوت قد تهدمت . وأطنان الأمواج الصغيرة ترتع فوق عظام الموتى . فأين هم اليوم ؟ فما من قبة وما من مقبرة يترحمون عليها . أنهم لم يختاروا بعد مكانا لصلاة العيد وأرواح الاجداد لابد تلعنهم . لماذا لم ينقلوا العظام معهم ؟ !

ورفع أحمد عوده رأسه بعد اطراقة دارت به فى دوامة الذكريات وقال : ولماذا لا يصلى بنا الشيخ عبد العزيز هذا العيد ، هنا على الرمل ، فوق شاطىء النيل ؟و همس الشيخ فضل : قال ان من السنة ان نصلى فى الصحراء خلف الخيام أو البيوت . فقد كان النبى عليه السلام يفعل ذلك بعد أن يترحم فى الجبانة على القبور .

ولكن الجبانة لم تبدأ بعد . فما من أحد مات والحمد لله .

وقال الشيخ شليب : ترى من يكون صاحب أول قبر ؟ فالكل أجل نهاية .

قالوا : اللهم ، أطل أعمار الناس .

وفى نهاية الساحة امام خيمة المتجر كنت أنا وسرور فى حديث منصل يفيض به عن العيد فى الاسكندرية والمراجيح والحلوى وجنينة الحيوانات والفيل أبو زلومة .

***

ومر العيد حزينا كئيبا . اللهم الاصيحات بعض الاطفال وضحكات بعض النسوة فى الخيام وبكاء طفل تهرأت ثيابه ، وصلاة قصيرة لاهثة بعد خطبة طويلة عن الصبر • وألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر ترحم بها الناس على أجداث تخيلوها . أجداث مازالت ترقد فى الشرق تحت أطنان الماء .

***

ثم مر شهران والناس لا يفعلون شيئا غير لعب السيجة واستعادة قصص الأساطير : حام وسام •• واللعنة التى أنزلها نوح على أبناء حام .. وغير ترميم الخيام والتفكير اليائس فى انتزاع أرض من بطن الصحراء والكثبان ، والتأمل رغم ذلك باستخفاف فى مجهودات بشير عثمان الضائعة .وهو لا يبالى بهم بل يمضى فى حفر بئره عشرين مترا ثم ثلاثين دون أن يصادف ماء .. .. بئر عقيم لا تلد الماء !

حتى الشيخ فضل لم يعد يفعل شيئا غير تعهد حبات الخروع والتفكه على النساء والسخرية من المحامى ووابور وبرعى الذين مضوا يكتبون الشكاوى من جديد : نحن منكوبى خزان أسوان .. التعلية الثانية : نتوجه خاشعين الى السدة الملكية ! ويتشاجرون حول المطالب التى يسجلونها فى هذه الشكاوى والتى ينتهون اليها بعد جدال عنيف ليحملها برعى الى خيمة البريد فى أبريم •

وما زال برعى يفكر فى شريفة ويعترض طريقها كلما أمن من جمال، ويتردد فى طلب يدها منه خشية أن يصده • ويعلل تردده بانتظار بناء البيوت •• فانه لا يمكن أن يتزوج فى خيمة ، كما أن جمال نفسه لن يهتم ، فهو مشغول دائما بالنقار المتصل بين زوجته زنوبة وأمه فغدا مثل المخبول منصرفا عن كل شيء اليهما يصلح ما تفسدانه ويتودد الى زنوبة علها تهدأ قليلا . ولا داعى للعجلة فعما قريب سوف نبنى البيوت. فان باشرى قد أرسل جوابا يبشر فيه الناس باتفاقه مع المقاولين والبنائين والحجارين • وما هى الا أيام حتى يقبلوا ويملئوا قرية الخيام بالصخب والضجيج .

ومازلنا نحن الصغار الذين أصبح عددنا قليلا رغم انضمام سرور الينا نترنح فى خيمة الكتاب . ونسرع اليه فى كل صباح لا نعود منه الا فى القيلولة وأكياس الكتب ترتطم بأفخاذنا ولم أعد أنا أحفظ شيئا . فقد انشغلت فى هذه الأيام عن كل شيء بأمى التى ضاقت الشقة بين نوبات اغمائها والتى أخذ سعالها يشتد حتى انتهى بها السعال ذات صباح الى أن تبصق دما أحمر بعث الفزع فى قلوبنا .. قلبى أنا وقلب جميلة التى هجرت خيمة الزوجية وعادت الينا تسهر على أمها التى مضت تذبل وتتضاءل حتى جحظت عيناها واسعتين بين عظمتى الوجنة التى ضمرت .

وفى صبيحة أحد الأيام والشمس لا تزال آخذة فى الصعود ألمت بها اغماءة منكرة لم تفق منها الا بعد لحظات طويلة لتحملق مذعورة فى عيزنا تتلفت هنا وهناك فى أرجاء الخيمة كأنها تفتش عن شيء أضاعته حتى أمسكت بيدى وقربتنى منهـا على غير عادتها ثم تساندت لتطبع قبلة على خدى ولتربت على شعرى وهى تجهد نفسها لانتزاع كلمات تهمس بها فى أذنى : حامد يا ولدى . حين أموت .. فصرخت يائسا : لاتموتى يا أماه . فقالت فى صوت متحشرج : الموت بيد الله يا حامد ياولدى . قلت لاهثا : ليس الآن . لا تموتى . لا ترحلى كما رحلت الجدة . فصمتت تغالب الدموع . بينما انتزعتنى شقيقتى وهى تقول : مالك يا أماه تتكلمين عن الموت . مازلت شابة ! فاتسعت عيناها وقالت : تضحكين على وعلى نفسك يابنتى . لقد أصبحت جدة وشاب شعرى .. هه شابة ..

ومدت يدها الى حفيدها تتلمس رأسه فى حنان وتفرك شعره بينما مضى الصغير يلعب بأصوات مبهمة فى حلقه . ثم عاودت حديثها الحزين .. واذا ما انحسرت المياه فى الصيف لابد أن تبحث ياولدى عن موضع القبر . قبر جدتك . أنت تذكره . وترحم عليها فلكم أحبتك يا ولدى ! أما أنا فقد دنا أجلى ولسـوف ألتقى بها بعد قليل فى رحاب الله ، ثم أستريح .. ووقفت ذاهلا مطرقا لا ادرى كيف أواسيها . بل لقد كنت فى حاجة الى كلمة مواساة تنسكب فى أذنى ، فرحت أبكى وانهنه فى صوت مسموع بح حين تذكرت ليلة القدر التى انبلجت لنا فيها السماء فانقلب شعورى كله الى ندم لا سبيل للتغلب عليه .

ثم أطلق أش الله عواءه يدعونا لملاقاته فى طريقنا الى الكتاب . فقلت من بين دموعى : جميلة . لن أذهب اليوم الى الكتـاب . فبانت

الدهشة على وجه أمي وقالت : اذهب حتى لا يغضب الشيخ منك .. اذهب فذلك سوف يشرح صدرى . وعد فى الحال بعد أن تنتهى لأننى أريدك . ولمحتنى أبكى صامتا . فارتفقت كوعها فوق العنجريب لاهثة .. ثم دفعتنى دفعة واهنة وهى تأمرنى : اذهب وعد فى سلامة الله . فلن أرحل قبل أن أراك . وهمست الشقيقة : اذهب ولا تتعبنا . واذا حدث شيء فسوف نرسل لك لتعود من الكتاب . لا تخف يا حامد .. اذا حدث لا قدر الله ..

وصدقتها وانطلقت الى الكتاب وترنحت فيه أتمتم بلسانى دون أن أعى فان ذهنى ظل مشغولا بالأم وهمساتها الحزينة . وحينما انتهى اليوم انفردت عنهم جميعا . فقد كانوا يتلكأون ويجمعون قطع الحصباء . ورحت أخطو بسرعة على الرمال وفى قلبى احساس ثقيل يتعثر فى كيانى . وخلف أذنى اليسرى عرق ملعون ينبض بقوة . وفى ظهرى تماما خلف القلب فقرة تنز بألم غريب . وفى عينى صورة أمي وشفتيها الذابلتين اللتين راحتا فى الصباح تصبان فى أذنى كلمات قاتمة عن الموت : لكل انسان نهاية . وتذكرت أن جدتى أيضا رددت هذه الكلمات . يبدو أن الناس يعرفون فى آخر أيامهم متى يموتون . فهل عرفت أمي حقيقة انها ستموت ؟ انها ستبارحنا ؟ والا فلماذا كررت نفس كلمات جدتى : لكل انسان نهاية ! ؟

ولأمر لا أدريه رأيت الشمس تظلم فى عينى . والأرض تميد بى فتسمرت فى مكانى أمام كران نوج .. تماما على حافة الخور الذى يخترق الهضبة على يمين القصر الأثرى فجلست على كثيب مرتفع أبكى والريح تعول وترتطم بجدران القصر فى نحيب يرتفع ويبعث الرعشة بين ضلوعى يختلط به صوت الطوفان الخافت وهدير الدوامة وارتطام الشمندورة الحمراء بسلسلتها ونهيق حمار فى تحويشة والد مصطفى .

وفجأة كف كل شيء . ولف الصمت كل مكان ولم تعد أذناى تسمعان الا صراخا عاليا ينبعث من الجنوب ، من نجعنا . صراخا انتزعنى بقوة فأخذت أعدو وأكبو فوق الرمال حتى أشرفت على مدخل النجع المائج بحركة دائبة وأقدام نسوة يتحركن متجهات الى خيمتنا . اذن فانها أمي .

لقد كذبت على يا جميلة .. لماذا ؟ ليتنى لم أذهب الى الكتاب .

ولم أتوقف حين سمعت شريفة تصرخ بى : حامد تعال هنا .

ولم أبال بسعدية ولا بالبسطاوى اللذين اعترضا طريقى بل افلت منهما اتجه راكضا الى خيمتنا ، نفس الخيمة التى انبعث منها صوات جميلة عاليا يشق النجع كله .

ووجدت نفسى فجأة بين ذراعى برعى الذى حملنى حملا وأنا اصرخ وأضرب صدره بقبضتى الى خيمة شريفة التىرأيتها تعدو وبين يديها صندوق خشبى مزخرف تفوح منه رائحة نفاذة . ولم يتركنى برعى ، حين انتهى بى الى خيمة شريفة بل واصل ضغطه على يدى وهو يقول : الصبر يا حامد .. فلكل انسان نهاية .

قلت فى يأس : اذن فقد ماتت أمى . لماذا كذبت جميلة على ؟ ولم يجب برعى بل ذرف دمعتين سالتا على خده ثم تهاوى الى جانبى ، وأفلت يدى دون أن يعى فنهضت واقفا ودفعت زنوبة فى صدرها دفعة طرحتها على الأرض وانطلقت راكضا ، لا ألوى ، الى خيمتنا فى نفس اللحظة التى كان أبى يندفع فيها وبين يديه قطعة كبيرة من الدبلان الأبيض فتفاديته ، واندفعت الى الركن الذى أعتادت الأم أن تنام فيه ، فرأيتها مسجاة فوق العنجريب فى نفس ثيابها ، وعلى ثغرها ابتسامة واهنة تكاد تنطفىء تلقى ظلالا غائرة حول عينيها الواسعتين . ويبدو أنها كانت تريد أن تقول شيئا قبل أن تموت فقد رأيت شفتيها منفرجتين قليلا .. لعلها كانت تهتف باسمى .

وتخلصت من جميلة وحجوبة وارتميت على صدرها أبكى وأصرخ. ثم كان الظلام الذى غشى عينى .. الظلام الذى لم أفق منه الا بعد ساعات عند خالتى أمينه بايا لأجد شقيقتى تطل على وفى عينيها دموع. فقلت لها على الفور : لماذا تكذبين ؟ لماذا لم ترسلى لى فى الكتاب حتى أعود ؟ فولولت باكية وهمست : استرح يا حامد فقد أغمى عليك وأنت تبكى فوق صدرها . ومدت يدها بخرقة بللتها بماء ساخن ودلكت بها جبهتى ، ثم تلفتت الى شريفة : خلى بالك منه . لا تتركيه يخرج . فالنسوة ينتظرننى هناك . وبارحت الخيمة على عجل ، فاستدرت الى شريفة وأنا أسأل : أين أمى ياشريفة ؟ وفوجئت الفتاة بالسؤال فقالت على غير ارادة منها : دفنوها يا حامد واستدركت تقول : رحلت الى الجنة ياحامد ، ثم صمتت وهى تعض على شفتيها السفلى ، بينما انتابنى احساس غريب بأن جسدى خفيف يكاد يطير فى جو الخيمة .. الجو الذى تلاشى فيه كل شىء غير عينين واسعتين ، عينى أمى تحدقان بينما العويل يعلو فى النجع كله يتخلله ترنيم خافت خلته هابطا من السماء .

وتحسنت حالتى بعد اليوم الســـابع ، بعد طقوس المرحمة . فأخذت ألح على شقيقتى حتى صحبتنى معها الى القبر : أول قبر فى موطننا الجديد ، أول قبر سيصلى الناس أمامه صلاة العيد والذى ستنتشر حوله القبور عاما بعد عام .

ووجدت التربة مبتلة . فقد اعتادت شقيقتى أن تزور أمها كل صباح تصب الماء على القبر وتروى صبارا لم ينبت بعد . ووضعت يدى على الشاهد أرتل آيات من « سورة يس » وعند كل مقطع كان جسدى يرتعش ، كل كلمة كانت تخرج لاهثة متقطعة منداة بالدمع خافتة لا تصل الى أذنى . ثم تبدت لى العينان الجاحظتان فرحت أخلط السور والآيات حتى لكزتنى شقيقتى وهى تقول :هيا .

وفى الطريق عند كومة من الرماد ونحن نكاد نتعطف الى صفوف الخيام تعثرت وكبوت على الرماد كبوة حاولت أن أنهض بعدها عبثا ؛ فقد تيبست ساقى اليمنى وانكبت جميلة على تحملنى باكية الى خيمتنا. فتلقانى أبى باكيا ومضى يلقى حراما ثقيلا على جسدى المرتعش .

٥٠

ومضت الحياة من حولى وظهرى ملتصق بالعنجريب . صاخبة فى القرية بما جد عليها . رتيبة مملة فى الخيمة لا يتبدل فيها شيء كما روت أختى . حتى هذيانى لم يكن يتغير . كلمات أبى وشذرات من أحداث حياتى .. لكل انسان نهاية . ثلاث مرات أمام المحاكم . حتى أبى أخذ يطل على مرة فى الصباح وأخرى فى المساء ينصرف بينهما يستشير الناس ويجلب الوصفات والعقاقير المختلفة : شيح .. حرجل .. بخور وينســـون . وتعاويذ لا تقع تحت حصر . وأختى لا تبارحنى . وأمينة بايا تلصق لبخة القرطم بجبينى . بينما حجوبة تعد وجباتنا . وتجس بيدها على جبهتى وترتد والهة تتمتم . لقد اقتنعن جميعا أن مسا من الجن قد أصابنى فى بدنى وروحى . ألم

انكفىء على كومة الرماد قبل رقدتى هذه ؟ أليس الجان يتخذون من الرماد مسكنا لهم ؟ بلى انهم يسكنون الرماد وفوهات المداخن .. يسكنون فى كل ماهو نار . فى كل ماهو متخلف عن النار .

كنت أصحو من غيبوبتى أحيانا لأجد مصطفى أو سرورا يقفان صامتين على رأسى ، ثم ينصرفان ليحل بعدهما برعى والمحامى وأش الله وبكر وصالح رفاق النجع يشجعوننى على ازدراد ملاعق الثريد الساخن ، لأغفو وأهذى بعدها بكلمات متقطعة : المدرسة .. تحويشة الجزار . سعدية . أين بطة ؟ تعالى يابطة . ومن حولى أحاديث فى الخيمة أعى منها القليل وأخرى فى طرقات النجع لا أفهمها .

ولا أدرى من الذى أشار على أبى ؟ ، فقد دخل على يوما يصحب رجلا غريبا أبيض الوجه على سحنته آثار غبار وفى عينيه حمرة مصفرة غريبة تبعث الرعب . قلبنى هذا الرجل على بطنى . ثم مضى ينقر على ظهرى ويقيس الأبعاد حتى توقف بأصابعه عند موضع قال بعده : هنا ياشيخ أمين . الى بمجمرة .. فأعدت له على الفور . فانكفأ عليها ينفخ فى النار وقد دفع اليها برأس مسمار غليظ مضى يحمر حتى بدا مثل جمرة ملتهبة . اندفع به فى سرعة الى ظهرى فوق نفس الموضع الذى أشار اليه . وهو يتمتم : بالشفاء ياولدى .

وشعرت بالنار تلهب ظهرى فأطلقت صرخة عالية ألمت بى بعدها غيبوبة طويلة ورعشة متصلة . ثم أفقت أفتش عن الرجل مرعوبا خشية أن يدهمنى مرة أخرى بمسماره النارى . وقد زارنى الرجل مرتين بعدذلك أدركت فيهما أنه من البنائين الذين وفدوا على القرية منذ أيام وملئوها بالصخب الذى أخذ يتعالى .

فعلى المرافىء الرملية الجديدة كانت بواخر الدلتا الطويلة السوداء ترسو وتصب فى القرية ألوانا شتى من الرجال . فلقد بر باشرى بوعده فازدحمت قرية الخيام بالمقاولين والبنائين والنقاشين والحجارين . نفس العمال الذين عملوا فى تعلية خزان أسوان ، بل لقد حضر بعضهم بناء خزان جبل الأولياء ومكوار . وجميعهم من قرى أسوان الشماليه أو من قرى قنا الجنوبية وبالذات من الكلح .

كانوا يديرون الكلمات فى حلوقهم يلبثون بها هناك ثم يطلقونها على الألسنة الى الشفاه فتخرج مفرطحة خشنة مدغمة لا يكاد يفهمها الانسان وزاد من غرابة الفاظهم ومخارجها تلك الشوارب الكثة والأصوات العالية التى تنحت الكلمات وتمر ببعضها من خلال الأنوف .

وأخذ كل انسان فى قريتنا يتخير مكان بيته ويتفق مع المقاول . ومضى العمال يدبون فى كل مكان ، ينسفون الصخور بالألغام ويقتلعون منها أحجارا يكومونها فى مكعبات كل متر بسبعة قروش . وامتلأ جو النجع برائحة البارود ودوى الألغام . بينما انطلق آخرون يعدون المونة من الطين والمغرة الحمراء والصلصال .

وعرفت النجوع ألحانا غير ألحاننا وكلمات أغان غير كلماتنا ... اسنا وكوبرى اسنا .. خبطنا الهوا نعسنا . اللى شبكنا يخلصنا .. ولا تكف الأغنية الا لتتلوها أخرى : سلم على ، ثم يتغير اللحن ويهـــدر حينا ويلهث ثم يعود الى الصفاء الحزين يخطر ويتداح فوق الهضبة وبين الخيـام ويعبر بالعمـال وهادا وجبالا الى أحبـابهم فى القـرى التى هجروها .. أيا ناعسة وخبرينى ع اللى كاتل ياسين .. ع اللى كاتل ياسين .. يابا .. يابا ع اللى كاتل ياسين .

ماجت الرمال بهم وتجمع الناس فى الاصـــائل يتفرجون على التحطيب . يحاولون تعلمــه على أيدى الوافدين معجبين بجلدهم ولهوهم ساخرين من لهجاتهم .

وفى احدى صحواتى من غيبوبتى مضيت أتساءل : وأين حسن المصرى ؟ فاننى لم أعـد أراه منذ أيام طويلة . وعرفت أنه قد رحـل وهجرنا الى الأبد . ترك القرية خلسة فى احدى الليـالى ولم يعد اليها من جديد . شريفة وحدها التى كانت تعرف قصته الكاملة . القصة التى جعلته يهجر قرية عاش فيها ردحا من الزمن .

فقد كانت فى تلك الأمســية فى مطلع الليـل تتكىء على عنجـريب وتطل من فرجة أحدثتها فى بوص خيمتها على المساء ، والرجال الذين كانوا يروحون ويجيئون . وطفقت تحلم وتتصور حياتها وما ينتظرها فى المستقبل وفى قلبها غموض كانت الأمسية ذات الهلال الباهت توحى به .

وفجأة ، وأمام عينيها الشاخصتين من خلال فرجة البوص تلاقى شبحان توقفا حين وقعت العيون على العيون كأن شيئا ما يشدهما . عرفت هى أولهما ، فهو حسن المصرى ، أما الثانى فرجل طويل القامة عريض المنكبين حاد النظرات . عرفت فيه واحدا من الحجارين الجدد الذين وفدوا على بواخر الدلتا منذ أيام . وأحست فى صوته الخشن غلظة لم تعهدها ، فقد ارتفع به قائلا : حسن ! أخيرا تقع عيناى عليك .

وتردد حسن لحظة ثم قال : من أنت ؟ .

ــ من أنا ! أنسيتنى ياحسن ؟

وصمت متحفزا ، ثم قال ، وهو يدنو ويده تعبث فى جيبه : اذن فأنت هنا ياكلب ، ونحن ندوخ فى البحث عنك . وتراجع حسن خطوات حتى كاد يسد فرجة البوص . وهتف فى صوت راعش خنقته المفاجأة : حمدان ! حمدان !

ــ نعم حمدان غريمك . الدم غالى ياحسن ولو بعد عشر سنوات.

ــ أخوك هو الذى اعتدى على شرفى ولطخه ياحمدان .

ــ وقتلته ثم لذت بالفرار . الذين يقتلون من أجل الشرف لا يهربون ياحسن الا خسيس مثلك .

ــ أما يكفيكم ؟ لقد قتلتم ابن عمى وأخذتم بالثأر .

ــ أبو القمصان ابن عمك . هذا ما تقصده ياخسيس .. جزمة ابن عمى زين الرجال « برقبة » أبو القمصان .

وبدا واضحا أن حسن المصرى كان يتراجع الى الخلف ريثما يستعد لملاقاة عدوه فقد لمعت سكين حادة فى يده فى نفس اللحظة التى كان الآخر يرتفع فيها بخنجر يسدده الى قلب حسن المصرى ، تفاداه ثم عادا يتشابكان . الا أن شريفة كانت قد أطلقت صرختها الداوية المرعوبة . صرخة جاوبتها صرخات أخرى اندفعت بعدها الأقدام من كل مكان .. أقدام رجال النجع والعمال حتى ازدحم بهم النجع . وحيل بين حسن وغريمه وسيق حمدان الى خيمة العمدة . أما حسن المصرى فقد اختفى . وشريفة هى التى فتحت له باب خيمتها ومنها قفز الى أخرى ملاصقة حتى اختفى فى خيمة برعى .

وأدرك أبى كل شىء فكلف برعى الذى ذهب به الى مغارة فى التلال . بعد أن سلمه أبى جنيهات خضراء يستعين بها على الهروب .

وقيل بعد ذلك أنه زار البيضاء فى الليل قبل رحيله . وقيل أنه عبر النيل بقارب ، لينزل عند الأعراب فى رحاب الجبل . وأنه شوهد فى الليل يضرب فى شعاب التلال الغربية . قيل شىء ثم ردد نقيضه فى نفس اللحظة . بينما أبى وبرعى والشيخ فضل يكتمون سرهم ويسخرون من الناس واشاعاتهم .

لقد اختفى حسن المصرى تماما بينما أطلق سراح حمدان الذى أمره العمدة بمبارحة القرية على الفور ، فمضى الى الجنوب يبحث عن غريمه .

ولم يدر برعى ولا جمال مالذى أصاب شريفة فى الأيام الأولى بعد هروب حسن المصرى ؟ فقد عاشت ساهمة واجمة لا تقرب زادا . تطرق الى الأرض ولا تجيب على أسئلة الناس الا بكلمات مقتضبة غامضة .

وأخذ الناس فى النجع يتحدثون عن حسن المصرى وشهامته ويروون حكايات تفيض بالدم والسرقات وثلم الأعراض وأبطالها هؤلاء الوافدين .. حكايات أشعرتهم بالحذر والخوف من الذين يكدحون أمام أعينهم لبناء بيوتهم . وقد حفزهم الى مزيد من الحذر والخوف تلك القصة الغريبة التى تلاها المحامى على مسامعهم فى احدى الأمسيات قبل منتصف الليل والقمر يكاد يغيب ليترك النجع فى ظلام دامس لا يبدده الا فانوس باهت يتدلى من حبل أمام المتجر .

تفرس المحامى فى وجوههم ، فوجدهم متحفزين لسماع قصته فقال : فى وادى العرب بعد كرسكو ، اعتدى واحد من هؤلاء الحلب على أرملة شابة .. كان الرجل هو الذى يبنى بيتها . وقد بناه فى شهر واحد . كانت الأرملة الشابة خلاله تشجعه وتكافئه ببسمة وبشاى تقدمه فى الصباح وعند الضحى . قال لها مرة . أنت حلوة .. فقالت : يا سلام أنت رجل شهم . فلعب الشيطان برأسه وتمنى لو استدفأ بين أحضانها فى الليالى الباردة وراحت الأرملة تسخو عليه . فصاح نوح : بنت الكلب : تستحق القتل ..

وصاح به فضل : أسكت يانوح . دعنا نسمع الحكاية لآخرها ..

فتنحنح المحامى مرة أخرى واسترسل : وفى اليوم الأخير ، اليوم الذى انتهى فيه الرجل من بناء بيت الأرملة فى مكان منعزل عن خيام الناس وبعد أن تفرق عماله ، اقترب الرجل من الأرملة يقول لها : مسكة . قالت .. نعم . وابتسمت ابتسامتها الناصعة . فجن جنونه واندفع اليها وأمسك بيدها بقوة لم تحتملها الا أنها تجلدت وقالت : اننى أعرف ما الذى تريده ، ولكن دعنى أتهيأ لك .. وانصرفت الى الحاصل ، وهو يتابعها ثم أغلقت الباب دونه وهى تهمس : أتركنى حتى أتهيأ .

ومضت تتحرك فى الحاصل تسأل نفســـها : رباه ماذا أفعل ؟ وأحست بعينيه تلتهمان جسدها من خلال ثقب واسع فى الباب فقررت ان تستمهله لحظات ريثمـــا تصل الى حل فأخذت تتعرى من ثيـــابها والرجل يتابعها بنظراته ويلهث قائلا : افتحى ياسمكة . لكنها وقفت فى « الطشت » ومضت تصب الماء على جسدها الأسمر المدملج ونهديها الصلبين ــ فقد كانت ما تزال شابة صغيرة ، مزهوة بقوامها اللدن الجميل .

وأخذ الرجل الذى سمر عينيه فى ثقب الباب يصرخ : افتحى ، ويطرق على الباب طرقات عالية . فخرجت من « الطشت » فجأة وتقدمت الى الباب ترفع مزلاجه وتفتحه قليلا فأطل برأسه من خلال الفرجة ...

ولم يتمالك نوح نفسه فصاح : بنت الكلب العاهرة . أهلكت نفسها الفاجرة .. اسكت يانوح . أطل الرجل برأسه ومد يده يريد أن يوسع من فرجة الباب ، لكنها تشبثت بقبضتها على الباب تدفعه دفعا ، حتى حشرت رأس الرجل بين ضلفة الباب والجدار .. نفس الجدار الذى بناه . وراحت تضغط وتضغط والرجل يصرخ صراخا عاليا مالبث أن خفت حين أهوى على الأرض جثة أرسلت حشرجة مروعة ثم كفت عن الحركة .

ــ برافو .. ست مجدع .. ياسلام ..

قالها فضل وربت على ظهر نوح وهو يهمس : أرأيت يانوح . اياك أن تتركهم يعيشون بمندوهة .

وتحفز البسطاوى عند سماع هذه الكلمات فانصرف حتى يكون فى حراسة سعدية بينما عاد جمال الى خيمته ليطمئن على زنوبة وأخته شريفة .

وراح فضل يسأل : وماذا جرى لها بعد ذلك يامحامى ؟

ــ أبدا لا شىء . جاء أبناء نجعها وألقوا بجثة الرجل فى النيل ، ثم شاعت قصتها ، فتزوجها ابن العمدة .

ثم قصة من هنا وأخرى من هناك عن السرقات والقتل والاغتصاب حتى دب الذعر فى القلوب الا أن المسألة ظلت فى قريتنا مجرد قصص ونوادر حتى كانت ليلة سرق فيهـــا متجر اختى وهى ســـاهرة على فراشى فى نجعنا تذرف الدمع ولا تبارحنى تاركة شعبان وحده هنالك .

كان شعبان ساهرا مع شقيقه ثم عاد ليكتشف أن كل شىء قد ضاع .. الفلوس . الأقمشة . السكر . كل شىء .

هنا تنبه الناس . وبدءوا يتجمعون ويتخذون وسائل الدفاع عن أنفسهم . ولأول مرة استندت البنادق محشوة الى جدران الخيام . على مقربة من صفائح الجاز فى بعض الخيام المتلاصقة . وأخذ الشبان وعلى رأسهم برعى يتناوبون حراسة الخيام بالليل وبالنهار بينما البارود يفتت الصخور والأغانى ترتفع فى كل مكان . حتى انهم لم يصـدقوا أن هؤلاء الرجال المســالمين العاملين فى بناء بيوتهم يمكنهم أن ينهبوا خيامهم ، فنشأت صداقات ،وضحك الناس كثيرا رغم التحفز والترقب.

وبرز بيت من بين الخيـام . ثم ارتفع غـيره . ومضى النـاس يستحثون عمال البناء : أسرعوا . قبل أن يأتى الصيف وتنحسر المياه.

***

وجاء الصيف ومعه كانت قد ارتفعت بيوت عشرة غيرت من سحنة الرمل المربد .

ومع الصيف كانت الجفون الحديدية الغليظة المسدلة على عيون الخزان ترتفع لتتسرب مياه الفيضان من خلالها الى الشمال . ومع كل جفن يرتفع كان النيل يطامن من كبريائه وشموخه ويستدير ليتجـه الى الشمال فى خطى واهنة فى أول الأمر ، ثم فى خطى هائجة مائجة تهدر عند الدوامة وتهز الشمندورة الحمراء بعنف بالغ يجعلها ترتطم بسلسلتها الغليظة التى تشدها الى القاع ...

٥١

وكرت فترة من الزمن منذ أن كان الطوفان والنـاس يلعقون جراحهم . كانوا مثل جيش تبدد فى فلول وتشرد على رمال الصحراء . ثم تحرك الأفندية فى القاهرة وتحرك الرجال فى كل مكان ، فترددت العبـارة التقليدية التى تصـدرت منذ تلك الأيام بيانات وشكاوى النوبيين .. دولتلو .. بعد فروض الاحترام .. نحن منكوبو التعلية الثانية .. ثم تعرض المشكلة فى كلمات دامعة متوسلة . والنهاية : طلمبات رى أو الحاق ابن بوظيفة أو اعادة فتح مدرسـة أغلقت أو بناء مستشفى . كل انسان كان يكتب : نحن منكوبو التعلية ثم ينتهى الى مطالب ذات شأن أو أخرى لا قيمة لها فى نظر المسئولين . لكن الناس جميعا منكوبون ولا حق لأحد أن يحرمهم من هذه الصفة .

ويقـولون أن سـيد وابور طفق يجوب النجوع وبرفقتـه برعى والمحامى وأحمد محمود .

وأنهم توقفوا مرة عند خور فى ابريم يشق الهضبة يجادلون فى قيمة البئر التى يحفرها بشير عثمـان فى الجبل . وارتكزوا مرة أخرى على حافة الخور الذى يجرى منحدرا الى النيل على كثب من كران نوج ، وتأملوا مليا فى الرمال حولهم وفى الوادى الشرقى الذى انحسرت عنه المياه قليلا ، وراحوا يتحدثون عن المستقبل . قال وابور :

ـ هنا عند خشم هذا الخور يمكن اقامة طلمبة رى تتخذ من الخور ترعة لها .

وحدق المحامى فى الخور الجاف مليا ثم قال : أليس غريبا أن تشكو هذه الأرض من ندرة الماء بينما البحيرة تترامى أمام عيوننا من الجبل الى الجبل طوال الشتاء .

وضرب كفا بكف ثم أضـــاف : والغريب أنهم فى مصر يقيمون الجسور لئلا تغوص الأرض !

وأصر وابور على مشروعه ومضى يقول : واذا ما أقيمت الطلمبة هنا فسوف تكتسى هذه الأرض الشاحبة الصفراء بالخضرة ، حتى تلك التلال يمكن أن تغطيها الخضرة .

ورفع برعى رأسه يسأل : ومن الذى يقيم لنا هذا المشروع ؟ وتمعن وابور فى وجهه متشككا ثم قال : الحكومة ياولدى .. الحكومة قادرة على كل شىء .

قال : أية حكومة ؟ نفس الحكومة التى أغرقت ديارنا ! فأضاف المحامى على عجل : والتى نهبت أموالنا . انها لم تقدم لنا شيئا غير عوامة صحية تربط هنا وهناك مرة كل ستة أشهر . وشعر وابور باليأس وأنهما على حق فى تساؤلهما فاستدرك : قد تأتى حكومة أخرى فهتف المحامى : شهاب الدين ! .. آه لو كان من أبنائنا مهندسون وأطباء !

والتفت اليهما يهز أصبعا فى وجهيهما : علينا أن نعلم أولادنا ياوابور ليصبحوا أطباء وأساتذة فيحترمنا الحكام . فلا سبيل الى الاحترام غير المال ولا حيلة لنا فيه ، وغير التعليم . وصمت لحظة وهو يرمق الخور فى دهشـــة : ولكن الآباء يفضلون أرسال أبنائهم الى مصر ليخدموا فى البيوت . ينحنون للذى يستأهل والتى لا تستحق وللبيه الكبير والبيــه الصــغير صغر عقلة الصــباع والست ، والست الصغيرة .

وتنهد وزفر زفرة حارة ثم أردف : آه لو كان فى وسعنا أن نعلم كل أبنائنا . فسكت وتأمل وجه وابور ليرى تأثير كلامه على هذا الرجل عاشق الماكينات . فوجده صامتا يزم شفتيه فى أصرار فسأله ما رأيك ياوابور ؟ قال : التعليم أمره عسير والأسهل أن نعلم أبناءنا فى الورش . وأشار الى أحمد محمــود الذى ظل صامتا وأضاف : هذا المســكين لم يستطع أن يكمل تعليمــه . فتنهد أحمد ثم قال : والمصيبة أن حجوبة

زوجة الشيخ أمين تريد ارســال حامد ليخدم فى مصر .. والولد شاطر .. كيف حاله الآن يابرعى ؟

ـ مريض ومازال يهذى . انه لم يعرفنى بالأمس . شفاه الله .

وقال المحامى من جـديد : لكن الشيخ أمين لم يقرر شيئا بعد ، وان كان يصر على ارساله الى مصر ليدرس فى الأزهر . لكننى أخشى على الولد أن يموت فانه يذبل فى كل يوم .. نصحت أباه أن يبعث به الى أسوان أو مصر فرفض قائلا : ان الله هو الطبيب .

وقال برعى : لو كان أحمـد عودة فى البلد لذهب به الى دكتور . أما أبوه فانه يردد دائما : ماذا فعل الدكاترة لأمه ؟ لا فائدة فيهم ... لقد ضاعفوا مرضها .

ثم أطبقوا شفاههم واستداروا الى النيل يراقبون باخرة بيضاء ذات نوافذ كثيرة تهبط فى النيل قادمة من « ابو سمبل » تحمل ســـواحا تخلفوا الى آخر الموسم . وقد تبدى على ظهرها سفرجيان بقفطانيهما والحزام الأحمر الملفوف حولهما ، فتابعوها بعيونهم حتى اختفت فى محـاذاة المنحنى . ثم عـاد وابور يتكلم عن الورش وهجر الخـدمة فى البيوت وعن التعليم وعدد الصغار المؤهلين له فى الكتاب . وقبل أن ينتهى من أسمائهم هتف برعى وكأنه يفيق من حلم رهيب .

ـ كله الا الخدمة فى البيوت . أفضل الموت هنا جوعا فوق هذه الصخور على اذلال نفسى . السادة يوقظوننا هناك ، كما يقول جمال ، بأجراسهم فى منتصف الليل ويبددون حلاوة النوم ، ويجبرونك على حمل أحذيتهم . كلا ليس فى وسعى احتمال كل هذا الذل . أما الذين يقبلونه فانهم أذلاء .

وأسرع أحمد محمود يتكلم ليرده الى صـوابه : ليســوا أذلاء يابرعى . انهم أهلك وأهلى لكنهم مجبرون . لا تعترض . استمع الى كلامى حتى أنتهى . صبرك بالله .. بعض الناس يابرعى يأكلون لحما نافقا اذا ما عضهم الجوع بنابه .. قرأت يا وابور ان الناس فى الصين حين ألمت بهم المجاعة .. ناس مثلى ومثلك .. أكلوا لحوم اخوتهم . عرق الجبين الذى يكسب مليما شريفا ليس معيبا مهما انحنينا وحملنا للناس أحذيتهم وتحملنا مباذلهم .

وصاح برعى : ولكننى لا أكاد أتصور نفسى منحنيا أمام كلب ..

وتدخل وابور : ألا تذكر كيف سافر جمال الى مصر ؟

ـ ومع ذلك ظلت أمه وشقيقته جائعتين . اتريد يا أحمد أن تذلنا؟

ـ ماشاء الله يابرعي . أنت مازلت شابا صغيرا مثلى لكنك لم تجرب مصر . انما أردت أن أبين أن الناس الذين ينحنون مجبرون .

واختتم وابور ساخرا منهما وقال : علام كل هذا الجدل . انني المح نذرا لمزيد من الهجرة للخدمة فى بيوت القاهرة وفى الحانات والمرقص .. فى كل مكان مشردين .

وصمت ثم أضاف : الجوع كافر يا برعى وأكفر منه صراخ الأطفال الجياع . وقال برعى فى زهو : مازالت فلوس التعويضات فى جيوبنـــا حتى نجد مخرجا . فهمس المحامى فى قهر : سنتان وتنتهى الفلوس ثم نعود الى البواخر تحملنا الى مصر جياعا . وعلى كل فان النـــاس الذين يخدمون فى البيـــوت ويمدون يد العون لذويهم أناس يســتحقون الحب والاحترام . ولا شىء غير ذلك . ونهض برعى واجما . وتركهم على حافة الخور ، وهام فى شعاب الهضبة حتى يتسلل الى خيمتنا ليزورنى .

وقف ذاهلا أمام فراشى . وفى عينيه بريق غامض ودمعة يحتجزها اكراما لرجولته ورحمة بى . فقد كنت لا أزال مستلقيا على العنجريب . أهذى ولا أدرك الا قليلا مما يدور أمام عينى حتى بات النـــاس خيـــالات باهتة تختلط رءوسهم وكلماتهم وحركات أقدامهم بأعمدة الخيمة وسحب الدخان .

اتسعت عيناى وتضاءل وجهى وازدادت ساقى تيبسا فبت لا أستطيع تحريكها . وما من علاج الا الرقى والتعاويذ وجرعات من الينسون وحلب البر .

ثم جاء الشيخ مدبولى . وبرعى لا يزال فى خيمتنا . وجس بيده جبينى واستمع الى رواية أختى عن الحادث وكومة الرماد . ثم رفع رأسه وتفرس مليا فى وجه أبى وهمس : أأقول لك يا أمين أم أنك لن تصدقنى مثل الآخرين ؟ فدب الذعر فى وجه أبى : ماذا يريد الرجل ؟ ماذا يعنى بسؤاله ؟ أيموت الولد يا مدبولى ؟ . أفصح يا رجل .. قل لى أنه يموت والأمر لله . الأمر بيده سبحانه وتعالى . ثم رفع صوته وهمس : هيــه يا مدبولى أليس هناك أمل ؟ .

وقال الشيخ بعد أن هز رأسه : لاشيء ولكن الشفاء بيد الله . وماذا يملك العبد غير الرضى بحكمته . فابتلع أبى ريقه وهمس : اننا نعتمد عليك . أعد لى ولدى .. فلم يجب الرجل الا بعد أن غمغم بكلمات مبهمة.. قال : سأفعل ما يريده الله ولست الامن عبيده . فهتف أبى فى يأس : كل شيء بأمره يا مدبولى . ألا تستطيع .. فتمهل الرجل وتأنى بينما أخذ أبى يذرف الدمع صامتا ، بينما الشقيقة تحدق فى الرجل جامدة الوجه تتمنى أن يقول شيئا يريحها من العذاب الذى يفترسها منذ شهر .

وأخيرا حرك الرجل شفتيه وقال : شفاء ابنك يا أمين فى شيء بسيط . وصمت ريثما سبح باسم الله وصلى على النبى وزاد الأمر وضوحا : بيضة واحدة يا شيخ أمين ، ان الله يضع سره فى أضعف خلقه .. جنى دجاج .. ويزول المرض !

وكفكف أبى دموعه ثم صاح فى جميلة : مالك تقفين حائرة ؟ ألم تسمعى كلامه ؟ اجمعى له عشرين بيضة . فأرسل الشيخ ضحكة خافتة وقال : بيضة واحدة .. ولكن من فرخة سوداء نوحى . وتفرس أبى فى لحية الرجل وقال : الفراخ السوداء كثيرة ! هيا يا جميلة . فتهيأت هذه للخروج من باب الخيمة الى حظيرة الدواجن . فاستوقفها الشيخ يقول : سوداء لا يعكر سوادها أى لون .. تضع البيضة التى أريدها فى صباح يوم من أيام السبت ما بين الفجر والضحى . ليس قبله وليس بعده !

وارتسم الوجوم على وجه شقيقتى فتبدت ضائعة لكنها تحركت الى الخارج تستشير خالتها . خرجت وهى تهمهم : جدتى ثم أمى . ثم ... وكفت عن ذكر اسمى ، خرجت تذرف الدمع بينما اتجه الشيخ الى أبى يأمره : ومع البيضة ، نحن فى حاجة الى ورق عنب . ابحث عنه فى كل مكان والشفاء بأمر الله ، وست صفائح فارغة نظيفة وهون ويد هوز يا أمين ، من النحاس !

وقلب أبى شفتيه ، ومضى يسأل الناس عن ورق العنب . لقد أغرق الطوفان كل تعريشة للعنب الا فى بعض الجهات المرتفعة .. فأين يجد تكعيبة ؟

وكر يومان .. ثم يوم ثالث وأنا لا أزال أهذى وأضج بالألم ..

بينما يد الشيخ تتلمس رأسى • ثم رنت ضحكة مرحة قصيرة أطلقتها جميلة وهى تتلقى شريفة بالأحضان فقد عادت من عافية من عند خالة أمها وبين يديها فرخة سوداء نوحى لا أثر للبياض أو أى لون آخر فى ريشها • وانطلقت ضحكة أخرى فى اليوم الرابع حين عاد أبى من عنيبة فى أصيل يوم يحمل غرارتين صغيرتين ملأهما بورق العنب • وصاح فى الناس : وجدت شجرة عنب عند جده الحمزيلى فى عنيبة • وانعطف الى لورد يربت على رأسه ويهمس : كفاك أنينا يالورد ، حامد سيشفى ، فزام لورد ، وهز ذيله وكأنما يعلن فرحته بالنبأ السعيد !

ولمعت يد الهون النحاسية فى يد حجوبة فقد أعارها لنا عبده الفرنساوى •

وتأمل الشيخ فى كل شىء وأعلن أنه سيقوم بتطبيب الولد فى الحال وارتكز على عجزه وكوم ورق العنب أمام عينيه ، وحط محبرة الى يمينه ومضى يرسم خطوطا غريبة بقلم البوص على كل ورقة من أوراق العنب ، ولسانه يهمهم بكلمات غريبة خافتة يرتفع بها أحيانا ليهتف : أخرج أيها الملعون • أخرج من جسد حامد ابن فاطمة بنت عائشة •• أخرج منه يا رجيم •• ويعود الى همهمته الخافتة ليصرخ •• أخرج منه يا الهى بجاه نبيك ، مره فيشرك جسد حامد بن فاطمة بنت بايا ابن أحمد •

وأطل المحامى مرة غير ملق بالا الى غضب الشيخ من فوق رأس مدبولى على وريقات العنب • واستدار الى برعى يقول •• انه يكتب يا برعى بالسوريانية ، اللغة التى لا يفهم الجان غيرها • لعنة الله عليك يا أمين • ستقتل الولد •• ليت أحمد عودة يعود •

وفرغ الشيخ فى ضحى اليوم التالى من وريقات العنب وصاح فى النساء يأمرهن ، فمضت جميلة تدق وريقات العنب تعاونها شريفة حتى تحولت الى عجينة خضراء لزجة فى خضرتها قتامة كئيبة •

وتأمل الشيخ تلك العجينة ثم هتف مرة أخرى : اضربى البيض يا بنتى •• ثم الى بالصفائح الفارغة نظيفة ، فأسرعت الاقدام هنا وهناك وعادت لترص الصفائح أمام عينيه • فمضى يوزع لقيمات من العجين الأخضر فى كل صفيحة حتى انتهى منها • ثم وزع صفار البيض المضروب بالعدل على الصفائح الستة وأمر بماء ساخن ملأ منه كل صفيحة وراح يقلب العجينة والبيض والماء الساخن بهراوة غليظة ، حتى أرغت وأزبدت

ثم تنفس الصعداء وقال : الآن يأذن الله أن يشفى الولد • ثم أضاف أملاحا وأنواعا من العطارة وانعطف الى جميلة يأمرها فى صوت وقور : فى كل صباح قبل أن تهل الشمس على المعمور وفى كل مساء حين يخرج الشيطان من بئره المهجور ، أقيموا الولد على عجزه ، ثم ارفعوا كل ثوب مخيط عن جسده •

وتوقف وانعطف الى فقد أخذت أهذى وألوح بيد معروفة وأحملق فى الوجوه بعينين جاحظتين وأتمتم : لكل انسان نهاية •• سورة النساء صعبة •• رفعتنى الى صدرها •• شبيكة •• لا • كلا ياحجوبة • لاترحلى الآن • ابعدوا عنى هذا الثعبان وانكب الشيخ يتلو الصمدية • بينما انفلتت الشقيقة تبكى بصوت لايقطعه الا ضربات أبى على كفيه • ثم استكان جسدى حين تصبب منه عرق بارد مضت حجوبة تمسحه بطرف جلبابها ومضيت أنا أتأمل خيالات الأجسام المتحركة أمامى وأراقب من خلال فرجة البوص عوامة كانت تجتاز شريحة النيل أمام خيامنا• وواصل الشيخ مدبولى حديثه من جديد : فى كل صباح وفى كل مساء يصب كوزان من هذا الدواء •• وأشار الى الصفائح على جسده وتفرك فروة رأسه به • ويلمس به على جسده عاريا ، ثم يرتدى ملابسه ويغطى بلحاف أبيض •• أسمعت ياجميلة • فهزت رأسها ، وقام هو يغسل يديه قبل أن يزدرد طعاما دسما أعدته حجوبة وأنا أراقبه فى شهوة عاجزة •

★★★

وراح التعذيب الذى بدا لانهائيا يفترسنى صباحا ومساء •• أمينة بايا تجمع خيوط العنكبوت وترابها من كل خيمة •• من كل مكان •• حتى من بين جدران القصر الأثرى وتزيل قشرة الجرح المتبقى من الكى بالمسمار المحمى ، وتدميه ثم تذر عليه قليلا من التراب العالق بخيوط العنكبوت • ثم تتسلمنى جميلة فتعرينى وأنا أبدى مقاومة هزيلة وتصب كوزين من العفن الذى تعافه النفس على رأسى وعلى وجهها أمارات تقزز ، وتمضى رغم ذلك فى تدليك فروة رأسى بهذا العفن تغترفه من الصفائح الست ، وتتلمس به كل جسدى وتبذل جهدا هائلا فى دعك ساقى المتيبسة • يالله • كم تتعذب هذه الشقيقة • انها تهمل نفسها وتكاد تكون قد نسيت زوجها حتى وليدها الصغير تركته عند بنات خالتها لتفرغ لى أنا وحدى •

جو الخيمة لا يتركه العفن فقد تخمر ورق العنب والأملاح وصغار البيض وتجمع عليها الذباب في جيوش • ثم انبثق القمل من كل مسام جسدى فراحت هذه الحشرات تسرح فى شعرى وتحت ابطى وفوق الحزام، تنفلت من بين أناملى حين أتحسسها ، ولم يعد الذباب يفارق وجهى بل أخذ يتجمع على عينى حتى لم أعد أرى الا من خلاله بعد أن تكل يدى من مطاردته • ومازال الشيخ مدبولى يروح ويجىء • وما زال أبى يغدق عليه ويصله فى تضرع ولا يبالى بنصائح الناس أن يسافر بى أو أن يلحق بالعوامة الصحية عند أية قرية ترسو عندها وقد شجعه تحسن ظاهرى بدا فى حالتى اذ أصابتنى شهية غريبة للأكل دون أن يزداد وزنى • لقد بدأت أختطف الأكل حتى من يد محمود الصغير ولكن ساقى ظلت على تيبسهما لا تتحرك •

ثم رست الباخرة عند المحطة النيلية وعاد أحمد عودة من رحلتـه وأفضى اليه اش الله بما حل بى ، فدخل على الخيمة وعلى وجهه وثيـابه آثار السفر واندفع لايلوى على شىء الى فراشى يتحسس جبينى ليصرخ فى صوت خانق : يا للرائحـة الكريهة •• وطاف بعينيه فى الخيمة وأضاف : وما هذه الصفائح ؟ والقمل والذباب ؟ افتحوا الباب • وأطرقت جميلة برأسها تذرف الدمع وتخشى أن يدخل أبى وخالى مازال يهدر • فمضت تهمس وتقص عليه أنبـاء علاج الشيخ مدبولى الذى كان يدلف من الباب فى نفس اللحظة • ولم ينتظر أحمد عودة حتى تـكمل جميلة روايتها بل انحنى الى صفيحة وطوح بها بعيدا وبالثانية وبالثالثـة حتى انتهى منها جميعا ، ثم انكب على وحملنى حملا الى خيمته • والشـيخ ذاهل لا ينطق الا بجملة واحدة : ستقتل الولد يا أحمـد •• ستقتله واستدار اليه ، وأنا ما أزال متعلقا برقبته ، وأمر : أغرب يا مدبولى عن وجهه وسوف يعيش •• اياك أن تعود •• وخطا بى الى خيمته وأرقدنى ثم أمر بحمام ساخن لى ألقى بعده جلبابا جديدا • ومضى يحرق ملابسى القديمة أمام الخيمة وهو ينادى • اش الله • أطلب من عوض كتية أن يعد مركبه •

وأطل أبى على فراشى الجـديد وهمس : أودعنـاك الله يا ولدى ، واستدار الى أحمد عودة وهمس : حمد الله على السـلامة • فأجـاب فى همهمة ثم قال : سأرحل به الى عنيبة فى الحال • قال : استرح من سفرك حتى الصباح ، فلم يبال به بل قام يسلم على أهله ثم حملنى الى الشاطىء •

واستقر جسدى الناحل على فراش أعد لى تحت « التندة » البيضاء

فى المركب التى أقلعت بنا تصعد النيل الى عنيبة ومن حولها شطئان الشرق التى أخذت المياه تنحسر عنها ، لتلمع جذوع الأشجار فى الظلام حتى تبدت كعيون نائحة تسكب قطرات الدمع فى صبر • حتى الجزيرة كانت أشجارها السامقة قد ظهرت بعد انحسار المياه خضراء تتمايل فى بطء وتتحرك الى الشمال كلما مضت السفينة تجتازها •

وظل أحمد عودة واجما يرقبنى فى أسى حتى رست السفينة فى عنيبة بمحاذاة العوامة الصحية التى اعتادت منذ شهور أن تتنقل بين القرى لتستقر فترة قصيرة من الزمن فى عنيبة تعود بعدها الى طوافها • وتفرس الطبيب فى جسدى الناحل وعينى الواسعتين وشفتى المتشققتين وساقى المتسببة ثم استدار يصرخ : برابرة • بهايم• الولد يموت ياراجل! وانحنى على يجس نبضى ، ثم انطلق فى سبابه من جديد حتى امتلأ وجه خالى ووجه عوض كتية بالذعر فمضيا يقولان فى ضراعة : ما علينا يا سعادة البيه •• اننا نعتمد عليك بعد الله • ثم صمتا وقد تركا دموعهما المنثالة تكمل توسلاتهما حتى قال : الولد مصاب بحمى فى مصاريه ويجب ألا يأكل شيئا الا عصير البرتقال والليمون • أتسمعان ؟ عصير البرتقال والليمون •

ثم عادت السفينة بى وبأقفاص ملأها أحمد عودة بالبرتقال والليمون •

***

وأخذت نوبات الغيبوبة التى ألفتنى تقل يوما بعد يوم مع كل جرعة من الدواء أرتشفها وكف هذيانى ولاحت تباشير الأمل ترتسم على وجهى •• ثم بدأت أعرف اختى وحجوبة وصغار النجع الذين دأبوا على زيارتى •• فهذا هو اش الله • والذى يغطى رأسه بطاقية مزركشة فصالح جلق • وهذا الشاب الطويل الذى حفلت شفته بشارب غليظ فبرعى • أما هذه فشريفة نوارة النجع وهذه الساق هى ساق الشيخ فضل • أما هذا الصدر فهو صدر سعدية •

وفوجئت جميلة ذات صباح وأنا أمد يدا واهية الى رأسها أجذبها الى واحتضنها وأهمس : كتر خيرك يا جميلة •• فلم تجب بل تفرست فى عينى ذاهلة ثم تخلصت منى وانطلقت الى خارج الخيمة تطلق زغرودة ممطوطة ملأت نجع الخيام كله • فأخذت أضحك وأستمع الى زغرودتها والى ألحان البنائين وفرقعات البارود فى الصخور • ثم عادت تتلمس ساقى

ويدى وتملأ وجهى بالقبل وتهمهم : شكرا لك يارب • الحمد لله سلمت يا حامد ، يا شقيقى يا ابن أمى ، ثم تهاوت الى جانب العنجريب تبكى وتتهنه وأنا أحاول أن أهدىء من روعها بكلمات خافتة ثم سكنت وأمالت رأسها وأسندته الى حافة العنجريب وراحت تنام فى هذا الوضع نوما عميقا •

ودخل الرجال والنساء وأدركوا سبب ما ألم بها من نعاس مفاجىء• فراحوا يتهامسون حتى لايوقظوها •

وانتهى الضحى ثم الظهيرة وهى ما تزال غافية ، ثم انتفضت فى الأصيل تعد مع نسوة النجع طعاما للناس نذر به أبى منذ أسابيع لله اذا ما عوفيت •

وانثنت بعد العشاء تطل على حلقة الذكر الهائجة فى الساحة وتنتشى بصوت المداح الذى أخذ الناس يترنحون على أنغامه فى ضوء فانوس باهت ألقى ظلالهم الطويلة المترنحة على الأرض •

٥٩

انحسر الطوفان بعد أن هيمن على الوادى شهورا ثمانية وعادت الأشجار تهتز سامقة ومن تحتها على الأرض ديدان تزحف فى حركات لولبية متلاحقة بين حشائش طويلة تبرق فى ضوء الشمس وتتمايل مع النسيم فى موجات متصلة • وتحركت أيدى وعضلات الرجال والنساء والأطفال بعد خمول طويل • لقد وجدوا عملا يقومون به فأطلقوا العجول وصغار الحملان فى الوادى تجتز النجيل والحشائش فى شراهة ونهم وتسمن تحت بصر الناس لحظة بعد لحظة •

فمن الشاطىء الى السفوح وفى مساحات عريضة وتحت سيقان النخل ، وعلى حافة الخيران والآبار طغت الحشائش حتى تبدى الوادى بحرا من الخضرة المائجة لاتحدها عين ، تنفلت الحملان والخراف بينها فلا تبين

الا بعد أن تشبع . حتى الطريق لم يكن يستبينه المرء الا بصعوبة حتى أن برعى صاح مرة : الحشائش كثيرة . الأرض كلها مغطاة وقال البسطاوى في حيرة وكيف يمكننا أن نزرع الأرض .. وأجاب برعى : بسيطة .. نجتز الحشائش ونعزق الأرض ثم نزرع . أما الحشائش فعلف للماشية نجففه للشتاء .

وراحت المنـــاجل والشراشر والفئوس تلمع وازدحمت القوارب والمراكب بأحمال من العلف تعبر بها النيل من الغرب لتكوم فوق سقوف الخيام وعادت المشاجرات بين الناس . فالجداول والبتون والجســور قد طمستها مياه الطوفان . ولم يعد الناس يعرفون حدودا فاصلة بين شرائح الأرض التى كانوا يملكونها . وما من جدار قائم يتعرفون به على الأرض فارتفعت النبابيت وشجت الرءوس وسيق النــاس الى العمدة . أو الى عنيبة فى المركز ثم راحت الفئوس تعمل ، فما هو الا شهر حتى نمت أعواد الذرة عملاقة فائقة الخضرة عريضة . وقد زرعت داريا وشريفة القيراطين وقطعة الأرض المتخلفة عن سقوط دارهما بعد ان حددتها بصعوبة فى نزاع مع أبى حول أرض الخرابة التى كانت تلاصق دارها . ولولا جمال وحب أبى له لما تمكنت داريا من الخرابة وزراعتها . وهاهى وشريفـــة تجمعان الحشائش من بين عيدان الذرة التى نمت دون ما حاجة الى رى ، وعيناها تراقبان زنوبة التى ارتكنت على صخرة كبيرة تجيل عينيها فى الخضرة الطاغية من حولها ، وعلى وجهها نضارة جددتها هذه الخضرة ووعود جمال بالرحيل وها هو برعى يتوقف عندها لحظة : يا ست . النبى قبل الهدية . أول بلحة حمراء فى الوادى . خذى . فاستملحته . وتقبلت هديته باسمة وودت لو تحدثت معه قليلا . الا أن الخجل ابتعد به وهى ما تزال تمضغ ليتوقف وينادى : شريفة .. خذى .. أول بسر أحمر .. خذى واحدة . فاختطفتها من يده وقسمتها نصفين ناولت شطرا منهـا لأمها وهى تبتسم فى دلال : داريا . هدية من برعى .. ثم انحنت على ساقها تصرخ : يالله . هذه الديدان التى تتسلق ساقى . ونفضت ساقها ثم أسرعت الى جمال الذى كان ينوء بحمل ثقيل من الحشائش غطى رأسه ورقبته ، يسير به منقوس الظهر الى الشاطىء ومن خلفه البســــطاوى وسعدية التى اكتفت ببطنها المنتفخة بجنينها .

ومر شهر والناس يكدحون على الضفة الشرقية يتأملون فى زهو عيدان الذرة التى استدارت كيزانها . ولا يعودون الى الضفة الغربيــة الا حين المساء ، عابرين النيل بالقوارب والفلائك والمعــديات . وعاد

الدفء يبعث نقراته ، يصاحب المراكبية الذين مضوا يتغنون بخضرة الوادى وسمزة العذارى • وتناسى الناس آلام الطوفان ، فالخضرة الباسمة وأعواد الذرة الفارهة والنخيل المطوقة جيدها بالبسر الأحمر والنيل والجزيرة التى تبدت باقة خضراء عائمة فى النيل •• كل ذلك قد بعث السلوى فى قلوبهم فراحوا يتوقعون محصولا وافرا بعد الجدب الذى عاشوه فى الشتاء فتمتلئ الصوامع بالغلال والتمر ••

توقف الشيخ فضل أمام حقله يتأمل عيدان الذرة • ولمح من بعيد رمضان نجار السواقى وصاح به ضاحكا : مسكين رمضان • صامت يدك عن العمل • فأجابه : تماما مثل ساقك يافضل • وتضاحكا ثم راح فضل يقول : لا سواقى ولا شواديف •• الأرض امتلأت بطنها بالماء طول الشتاء وليست فى حاجة الى سواقى ترفع الماء •• ولا شواديف •• ما عليك يارمضان •• فى الشتاء نقيم ساقية فى الغرب • وأشغلك صبيا تحت يدى فحدج النجار ساقه ومضى يضحك حتى انعطف الى الطريق الزراعية•

واستدار فضل يتجه الى الشاطئ وهناك انغرزت ساقه فى الوحل فهوى على الأرض مرسلا آهة قصيرة ثم تمكن من الوقوف وتخليص ساقه من الطين وهو يتمتم : عين الحسود •• يالك من حسود يا رمضان •• اللعنة عليك •• عينك تفلق الحجر ••

وألقى نظرة على النيل وصاح : تعال يا أحمد ياعودة • تعال •• فلحق به أبى وأحمد عودة • فأشار الى النيل هامسا : انه يعلو فى كل لحظة • يعلو بسرعة غريبة • يبدو أن الفيضان سيكون عاليا فى هذه السنة وأخشى •• ثم حدج حقول الذرة بعين مشفقة ـ واسترسل : أخشى ألا نهنأ بالمحصول •

ولم يطق أحمد عوده حديث الرجل فقال : أراك يا فضل تتشاءم •

ـ كلا يا أحمد •• قلبى يحدثنى •• قلبى الذى لم يكذبنى القول مرة واحدة •

وقال أبى فى صوت متحشرج : وماذا نفعل ؟ وهل يمكن أن تخذلنا السماء مرتين فى عام واحد ؟ الله رحيم بعباده يا فضل • ولن يترك هذه الأعواد البارقة الممتلئة تختنق فى شبابها• تأمل بالله يا فضل • أليس هذا من بديع صنع الخالق ؟ فهل يرضى سبحانه وتعالى أن يقتل ويشوه بديع صنعه يا فضل ؟ • اخذ الشيطان يا فضل • اخذه •

فزفر فضل زفرة حارة صعدها وهو يحملق فى النيل · ثم ربت على ساقه وقال :

ـ الانسان يا أمين أفضل خلق الله ولكنك ترى منهم الضرير · ومجدوع الأنف ومبتور الساق ·· والأصـــم والأبكم والأكتع وعـــدو الشمس ·

ثم ربت على ساقه مرة أخرى واسترسل فى صوت هادىء بعد أن تأمل النيل الهائج الثائر يكاد يغرق الجزيرة ويطأ الشطئآن الشرقيــة والنتوء بقدميه ·· اسمع يا أحمد · لماذا لا تعيد بناء الجسر ؟ لقــد كسره الطوفان ·

وما الفائدة يا فضل ؟ كلها شهور أربعة أو أقل ويأتى الطـوفان ليكتسحه من جديد ·

ـ المهم يا أحمد أن ننقذ المحصول وليأت الطوفان بعد ذلك ·

وهز أبى رأسه وتأمل الجسر المطموس وقال : ولكن بنــاء الجسر يحتاج الى مئات الرجال ، وليس أمامنا الا يومان أو ثلاثة · ثم أطبقوا شفاههم على الصمت حائرين لا يدرون ماذا يفعلون · وأخيرا تطوع أبى يقترح : المبانى يمكن أن تصبر يا فضل · قال : ماذا تعنى ؟ المبـانى لا يمكن أن تصبر فالشتاء مقبل · وسكت أبى طويلا فقال أحمد عوده: يمكنها يا فضل أن تصبر يومين · فليأت كل عمال البناء ليبنوا الجسر معنا · وردد أبى فى صوت هامس : ولندفع لهم يومياتهم وزيادة حبتين وصادفت الفكرة هوى فى نفس فضل وقال : والصغار تلاميذ الكتاب يمكن أن يساعدوا · فصاحا فى صوت واحد : لكنهم مازالوا صغارا ·

ـ صغار ! لقد كنا نزرع ونقلع ونعبر النيل عائمين على ظهـورنا ونحن ما نزال صغارا مثلهم ·

وصمتا وكأن الشيخ فضل قد هز كيانهما بذكريات الصبا · ثم عادوا مع شمس الأصيل الى الضفة الغربية وأصبحوا فانطلقت بهم القوارب تحمل عمال البناء والصغار الى النتوء الشرقى ·

وبدأوا يقيمون الجسر والأغانى والمواويل الصعيدية تملأ الجو : بلد حبيبى قصاد عينى ومش قادر أعديلها ·· يختلط بها أصوات ارتطـام

الجذوع والفئوس والطين وسرسعات الأطفال وسباب النسوة وهـــدير الفيضان وصوت الشمندورة ٠

وراحت مندوهة تعد الشاى للناس تحت جذع نخله مصيخة السمع الى الكلمات الغريبة التى أطلقها البناءون فى الوادى ، كلمات مثل كلمات حسن المصرى ٠ وعلى مقربة منها ركز أحد العمال فأسه واتكأ عليها واستدار الى أبى يسأل : متى جاءكم حسن يا شيخ أمين ؟ فتأمله أبى مليا ثم قال : لماذا تسأل ؟ أأنت من بلده ؟ قال : كلا لكن حمـــدان ظل يبحث عنه فى كل مكان حتى التقى به هنا ، وكاد يقتله ٠ وخبط أبى خبطتين بالفأس ثم همس : الحقيقة أننى لا أذكر ٠ سألتنى متى جاءنا حسن ٠٠ طيب ٠٠ متى يا أمين ؟ ٠٠ متى ؟ ٠٠ كان ذلك قبل أن يولد حـامد هذا ٠ وردد الآخر : بالضبط فى نفس السنة بعد أن ارتكب جريمته وولى هاربا تاركا لبدته فى يد الحرمة ٠

وعادا الى عملهما وسياط الشمس تلهب ظهريهما وظهور عشرات الرجال والصغار والنســاء الذين مضـوا يكدحون دون كلل ، يحفزهم النيل الهائج والزرع الأخضر المتمايل ٠ وراح الشـــيخ فضل يرمق المحامى بنظرة قاسية فقد أهمل فأسه وارتقى جذع شجرة عالية تنحنى على النيل مستغرقا فى أفكاره لا يبالى بريح ساخنة تنشط منذ الظهر وتسرع من الجنوب الى الشمال ولا بهدير النيل أو بالألحان المتموجة من حوله ٠ كان يقول لنفسه : وما المصير يا محامى ٠ ألا تتزوج ؟ ٠

وخيل له فى لحظة كف فيها عن التفكير فى مستقبل حياته أنه يسمع طلقات رصاص وصرخات نساء هنالك عبر النيل ، حول كران نوج ٠ فاستدار الى الآخرين فوجدهم راكزين فئوســـهم على الأرض يتطلعون الى الغرب فى ذهول وانعطف اليه يعبر الجزيرة ببصره ويستجلى الأمر من فوق الجذع العالى ويميل ويشرئب بعنقه ٠ ثم رآه الشيخ فضـل يهب واقفا على نفس الجذع ثم يقفز الى الأرض ويهتف كالمحموم : النار ٠ النار يا جماعة ٠٠ حريقة يا هوه ٠٠ يا هوه ٠٠ حريقة ٠

النار ٠ يالله ٠٠ النار ومئات الخيام المتلاصقة ٠ وهذه الريح الساخنة النشطة ٠ ثم ازدحمت صفحة النيل بالقـوارب تركض بهـم الى الغرب والشمس تكاد تغيب ٠

٥٣

القرية لم تعد قريتنا والنجوع ليست نجوعنا والخيام ٠٠ كل شيء لم يعد لنا فالنار تحتدم في كل مكان ، وصفائح الجاز تنفجر وتقذف بنفسها في الهواء ثم تهوى في بقع متطايرة من اللهب وتقفز ناجية بنفسها من خيمة الى أخرى ، فيشتعل العلف الجاف ويحترق التبن المكوم على السقوف في أزيز٠ وتجف العصارة في فروع الأشجار ثم تلتهب لتتفحم ، وفوق كل ذلك بنادق ينطلق رصاصها في كل اتجاه ٠ والناس يهرعون هنا وهناك وقد تدلت شفاههم السفلى ولمعت عيونهم ببريق الغضب واليأس وسطعت جباههم بالعرق الأحمر ينعكس عليه اللهب فيبرق ٠ أيديهم تتشبث بدلاء الماء وأكياس الرمل يقذفون بها في النار التي مضت تسرى من خيمة الى أخرى حتى تكونت في لحظات قصيرة قرية من اللهب تضطرم وتنفخ أوداجها مع الريح المسرعة من الجنوب ثم ينبطحون على الأرض يائسين يكبشون في التراب ويزدردونه دون وعى ، ويطلقون صرخات مرعبة تشق الفضاء وتختلط بصياح النعاج والحمير والأبقار المربوطة في حظائرها في قلب النار المتقدة٠ لورد وحده هو الذي استطاع أن ينقذ نفسه من خيمة كان يأوى اليها فأخذ يزك بساقه يجرى مبتعدا عن النار التي اشتعلت في ذيله وها هو يتهاوى بعد أن أطلق نباحا كعواء الذئب على الأرض ويرفع رجليه الى السماء مستسلما لينام نومته الأخيرة ٠

الأنفاس تتقطع واللهاث يهدر بين الشفاه يشوه كلمات ظل الرجال والنساء يطلقونها : استغفر الله ٠ أتسب الله يا رجل ؟ ٠ اتق غضبه ٠ فلوسي ٠ تعويضاتي ٠ لماذا تركتنا يا رب ؟ ٠ يارب ٠٠ يا رب ٠٠ كلا اتركوني لا شأن لكم بي ٠ دعوني اقتحم النار ٠٠ انها ناري وليست نار أحد ٠ لا تحرموني من النار ٠٠ يا بنت الكلب ٠

قطرات البترول المشتعل تتساقط على الصخور فتشتعل هى الأخرى. حتى الرمل اصبح يشتعل . وها هى داريا تعدو خارجة من خيمة النيران وبين يديها علبة صفيحيه تحرقهما فلا تبالى . تحرقهما فتضغط عليها بشدة . على الجنيهات الخضراء التى تبقت لها بعد أن دفع جمال للمقاول والبنائين وبعد شراء بعض الحلى والمصاغ لنفسها ولشريفه .. اليد تحترق لكنها لا تبالى بل تتلفت هنا وهناك فى حذر حتى لا يراها أحد ثم تتهاوى على الأرض . وتركز العلبة فوق الرمل الأصفر وتعالجها حتى تفتحها . ثم تلم بها اغماءة بعد صرخة هستيرية تطلقها .. لقد احتك الهواء بملمس العلبة الداخلى الملتهب ، بالورق الملتهب .. فاشتعل ورقة ورقة أمام عينيها . وها هى تنهض تهذى وتسب زنوبة وجمالا وشريفة . وتكور يديها توجههما للسماء . انت فعلت بنا كل هذا لماذا ؟ ماذا جنينا . ولم يبال بها أحد . فقد أخذوا يجتازونها يحملون أكياس الرمل ودلاء الماء. ثم تنبهت لطرحتها المشتعلة وألقت بها بعيدا وهى تحس بوخز أليم فى يديها ثم راحت تتأوه وتستغيث منطرحة على الأرض . فانكبت عليها شريفة وزنوبة تناديان : أماه . أماه . فداك يا داريا .. ثم حملتاها الى ركن فى بيتها الجديد . بيت لم يكتمل . لم ترتفع كل جدرانه بعد . كل الناس يتجهون الى الشمال مع الريح مبتعدين عن خيمتنا وخيام بعض الناس حولنا فانها لم تمس لأنها فى صف آخر ، بينما الصفوف الأخرى تلتهب ، وها هو العمدة يمر أمام خيمة المتجر بركوبته ويصيح : ابعدوا صفائح الجاز والزيت والبنادق . لا تتركوا شيئا فوق السقوف ، ثم استدار ينادى : عوض .. عوض ياكتيه . أطلب المساعدة من ابريم وأنت يا اش الله من عافية . أما أنت يا برعى فواصل عملك بارك الله فيك . فقد كان برعى يجرى من الشاطىء الى خيام النار فى سرعة وقد تدلت من حبال على كتفه صفائح ملأها بالماء يقذف به فى النار .. ثم يعود . توقف حين رأى العمدة واستمع الى كلماته وأخذ يعدو . لكن ها هى فضيلة تمسك بعلبة معدنية مثل داريا وتجرى بها لترتكز على الأرض فلمحها برعى وهتف : فضيلة . لا تفتحى العلبة . ألم تعرفى بما حدث لداريا ؟ اسرعى بها الى الماء ، فنهضت ومضت تجرى حتى ألقت بنفسها فى النيل عند الجرف تغوص بالعلبة التى بين يديها فى الماء وتضغط عليها بجلبابها حتى بردت العلبة فرفعتها أمام عينيها وتأملتها ، ثم راحت تدللها ثم ارتفعت الى الشاطىء تفتحها لتقع هى الأخرى بعد صرخة هستيرية ، فقد اكتشفت فى العلبة أوراقا وجوابات كان الشيخ

فضل يحتفظ بها . أما الفلوس فلعنة الله على العلب المعدنية كلها .

واجتازتها واحدة تجرى وقد حملت بيديها مخدة تهشكها وتغنى : لولو .. لو .. لولو .. يا بنتى .. ثم تهاوت على الجرف فاقدة الوعى . دون أن ينتبه أحد لصراخها . فالنار ما تزال تضطرم وترتفع تلالا عالية حمراء بلون الدم ، حمراء مثل جهنم ، ترتفع فوق الخيام التى راحت تأكل أحشاءها ، الفراش والصناديق . النار لا تزال تمد يدها وتضغط على زناد البنادق ، أو تلقى صفائح الغاز الى السماء .. النار لا تكف . النار تزحف بينما النيل يهدر فى الشرق ويكسر الجسور . والشمندورة ترتطم بسلسلتها وتبرق فى ضوء اللهب المنعكس .

يومان . يومان كاملان تجمع فيهما الناس من ابريم وعافية وعنيبة وتوماس يكافحون النار بالرمال والماء حتى هدأت الريح . فخبت ألسنة اللهب وتحولت الخيام الى كومة من الرمال وأشلاء النعاج والخراف التى مضت الكلاب تنهش فيها . وارتمى عمال البناء على الرمال واجمين متذكرين حرائق تلتهم قراهم هى الأخرى المرة تلو المرة دون أن يبالى بهم أحد .

***

ثم عاشت النجوع فى الوجوم . فقد ضاع كل شىء : أعواد الذرة المختنقة فى الشرق تحت وطأة الفيضان والخيام والتعويضات . وخبا بريق العيون وركب الجنون عقول رجال ونساء مضوا يصرخون فى القرية يلوحون بأيديهم للسماء وسادت الكآبة كل الوجوه . حتى وجه سعدية الناضر الجميل بدا حزينا وهى تبكى متاع عرس احترق وجنينا أسقطته حين فاجأتها طلقات الرصاص فى نجع الخيام الملتهبة .

***

ثم بدءوا يكتبون : نحن منكوبى التعلية ، احترقت خيامنا والتهمت النار تعويضاتنا وداس الفيضان زراعتنا . ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء . كانوا ينادون قلوبا ميتة تجلس هناك فى القاهرة خلف مكاتب لامعة لا تبالى عاش الناس من أبناء الشعب أم ماتوا ! ولماذا يبالون وحياتهم تجرى فى يسر ؟ لماذا يبالون وقد بدأت أراضيهم تحبل مثنى وثلاثا فى العام ، وقد زاد محصول القطن والقمح وقصب السكر .

وتملك اليأس قلوب الناس فعاشوا فى مناحة متصلة يبيتون فى العراء ولا يفكرون فى اقامة خيام جديدة . ولماذا نقيمها ؟ فلسوف تحترق من جديد . لكن يد العون امتدت من القرى المجاورة فأقيمت خيام أخرى

واختفت البنادق وصفائح الجاز وتعرت كل امرأة من حليهـا الذهبيـــة ، باعتهـــا لاستكمال بنـــاء بيت لم يكن قد اكتمل بعـــد ٠٠ وارتبكت أعمال البناء فهذه تقول : لا تبنوا لى بيتا ٠٠ سأبنيه وحدى بالجالوص ٠ وهذا يهتف : عشرون فى عشرة أمتار ؟! كـلا اجعلوه عشرة فى خمسـة واكتفوا بما بنيتموه ٠

ومضى الناس يرمقون داريا سكينة وزنوبة بنظرات خنجرية غاضبة، فقد كانتا السبب ٠ تشاجرتا على العلبة المعدنية ذات الأوراق الخضراء ٠ ثم انكفأتا على الأرض بمسرجة مشتعلة تطايرت منها شرارة تلقفتها الرياح ودارت بهـا كل مدار ٠ كانت داريا تطرق حـين تفاجئهـا هذه النظرات المسمومة وتغمغم : ارادة الله٠ زنوبة هى المسئولة أما أنا فولية غلبانة٠٠ ثم تلقى بنفسها على شريفة تبكى حظها العاثر ٠ بينما زنوبة تغمغم: لاشأن لكم بى ، لست من هنا ٠ وجمال حائر وشريفة واجمة لا تطيق نظرات الناس ٠

وعاد جمال ذات مرة ليجد زنوبة تحثو التراب على رأسها وتصرخ : جمال ٠ طلقنى يا جمـــال ٠ عـــد بى الى مصر ٠٠ لم أعد أطيق أمـــك ٠٠ لا أطيق الحياة ٠ عد بى ، والا رميت نفسى فى هذا النيل الهـــائج ، ثم انتزعت نفسها وراحت تركض الى الشاطىء وكادت تلقى بنفسها لولا أن لحق بها جمال وبرعى يحملانها الى خيمتها ٠

وأفاق جمال من ذهوله ، وانتحى بأمه يهمس فى أذنيها : البيت كاد أن يكتمل ياداريا والمصاغ الذى بعناه كاف لاكماله ٠ اسمحى لنـــا أن نعود أنا وزنوبة الى مصر ٠ قالت : طلقها يا جمال ٠٠ دعها تعود وحدها الى أهلها ان كان لها أهل ! ولكنه ظل بهـــا حتى رضخت وهى تقـــول : احلف لى يا جمال أنك لن تنسانا ٠ فأقسم بالله ، قالت له : بقبر أبيك٠ فأقسم بقبر أبيه ٠ قالت انك ستعيننى أنا وشريفة ، سترسل لنا طرودا قال : أنا فداؤكما يا أم ٠٠ سوف أرسل ٠٠ ســـوف أرســـل ٠ ثم بكى واختلطت دموعه بدموعها ٠

وكرت الاسابيع وكل شاب يهمس فى أذن أبيه وأمه أو زوجته : لا مقام لنا هنا يا أم ٠ يجب أن نرحل ٠ الى أين ؟ الى مصر أم الدنيا ٠ نقوم هناك بأى عمل ٠

ثم راحت البواخر ترسو على مرافئنا وهى تصعد النيل ٠ لا ينزل

منها أحـد ثم تهبط من حلفا وتقلع من المحطة النيلية فى ابريم ، وقد وقف على حافتها شباب نجعنا يلوحون للشـاطئين والدموع تلمع فى عيونهم ؛ فأخذ النجع يخلو من كل انسان ، من الشباب والصغار فلم يبق الا العجائز من النساء والرجال والا التجار • حتى الاطفال هجروا النجوع مع آبائهـم ، فلم يعد فى النجع أولئك الصغار الـذين كانوا يحجلون منذ شهور بين الخيام أو يتصايحون خلف كلو • لم يبق الا سرور وأنا وآخر اسمه فتحى •

وها هى سعدية وأمهـا على المحطة النيلية تودعان البسـطاوى • سعدية صامتة تذرف الدمع أما الأم فهى التى تتولى الحديث : لاتنسنا • عيب يا أمى •• عيب : قل للرجل يابسطاوى أن كل شىء قد ضاع •

ثم أوغلت الباخرة فى النيـل واجتازت النجع والبسـطاوى يلوح للنجع بيديه ومن خلفه جمـال وزنوبة التى كورت يديها حين واجهته ، فان داريا لم تودعها بينما رددت شريفة كلمة واحدة : آفيالوقو •• مع السلامة •

ثم جاء الدور على برعى • فهمس فى أذن أبويه وظل بهمـا حتى سمحا له أخيرا • برعى الذى كان منذ شهور يقسم أنه لن يعمل خادما فى أى بيت وأنه يفضل الموت جوعا فى النجع بدل الانحناء لأحد هناك فى مصر • برعى الذى عاش ساعات السجن يناضل مع المأذون وبدر أفندى ، بلغ به اليـأس كل مبلغ ؛ فضحى بكل ما كان يردده ، بكرامته ؛ فقد ابتلعها ليسافر الى مصر يبحث عن أى عمل ولعله قال لنفسه : ربمـا أجد عملا •• فيه صون لكرامتى !

ودنا اليوم المرتقب • وها هو يودع المحامى وسـيد وابور ليعود الى النجع فلا بد له من كلمة قاطعة يسمعها من شريفة • فاقتحم عليها بيتها فى ساعة الأصيل فرمقته بنظرة انسان كان يتوقع هذا الاقتحـام وأطاعته على الفور وتبعته الى الفناء الخلفى واجمة • لعلها كانت تفكر فى حسن المصرى الذى اختفى وفى قبضته المخدرة اللذيذة على فخذها • وربما كانت تفكر فى نفسها أو فيه هو برعى وحياتهـا معه • تبعته فى حذر الى الفناء الخلفى لبيتها الذى لم يكن قد اكتمل بعد • بيتها الذى صبغته الشمس المائلة الى الغروب بلون شاحب • وتوقفـا حين استقبلتهمـا الدواجن بالنقيق والصياح • ثم أخذا يتهامسان : شريفة • هيه يا برعى• أريدك ياشريفة • أريدك••• ألا تريدين أن تقولى شيئا يا بنت الناس ؟

- ......

- قولى كلمة قبل أن أرحل .

- ......

- افتحى فمك . قولى أنك زوجتى .

فلم تجب الفتاة وان كانت عيناها قد لمعتا ببريق الدموع ، دموع الفرح التى أطلقت الرجل الكامل فى ضلوعه فانكب عليها يحتضنها ، وهى تحاول التملص منه فى دلال ؛ ثم مد يده الى صدرها فعاودها نفس الخدر اللذيذ الذى بعثته قبضة حسن المصرى على فخذها بين عيدان الذرة . عجبا لهؤلاء الرجال ، لقد ماتت قبضة الغريب وها هى قبضة برعى على صدرى تبعث نفس الخدر ..

- شريفة !

- هيه يا برعى .

- اقسمى أنك ستنتظريننى .

- ......

وراحت تسأل نفسها .. مم يخاف برعى ؟ ليس هناك غيره . كل الشبان قد رحلوا يا برعى . فسوف أنتظرك .. ولكن متى ؟ ثم ارتفعت بصوتها تقول : مع السلامة .

- قلبى يحترق . كل شىء فى جسدى حترق وأنت لا تجيبين .

فسمحت لنفسها أن تقترب منه خطوة ، ثم انفصلا فجأة وانزوى برعى فى ركن حين دخلت داريا الفناء وفى يدها فانوس مضاء . لقد رأتهما لكنها تجاهلتهما واستدارت الى الركن الآخر تعتنى بدواجنها ، بينما شريفة وبرعى يحبسان أنفاسهما ولا يتكلمان . ومضت داريا تغمغم لنفسها : مسكينان .. يحسبان أننى عمياء .. لقد رأيتكما تتسللان الى الفناء وأنا لا أخشى منك على شريفة يا برعى فأنت رجل . وخشيت أن تكون قد أطالت عذابهما فاستدارت اليهما فجأة ترفع الفانوس فوق رأسها وتقول : شريفة . من هناك يا شريفة ؟ فأجابت بسرعة فى صوت مرتبك : أنا يا أماه . أنا شريفة .

وصمتت الأم لحظة ثم قالت : لست وحدك يا شريفة . فتلعثمت

الفتاة ولم تقل شيئا ، الا أن داريا عاجلتها : برعى هو الذى معك • تعال يا برعى • وساد الصمت لحظة ثم أردفت : تعــال يا ولدى فانك راحل كما رحل جمال • فأقبل الفتى عليها فى حذر متجهم الوجه وأضاءت داريا وجهه بالفانوس ورأت أمارات القلق بادية عليــه فكتمت ضحكة ؛ فقــد سرها أنه يخشاها ، يخشى منها على سره فلكم صدته مفضــلة البسطاوى عليه • وأحست أن عليها أن تلمس جراحه بكلمة طيبة فقالت : برعى ، مالك حزينا ؟ شريفة أختك يا برعى •• كبرتما معا •• وها أنت ترحل ولا تدرى متى تراها من جديد فقد جئت تودعها • وتأملت وجهه الذى أشرق ثم استرسلت فى حديثهــا ولكنك لم تودعنى • كنت ستفلت من الباب الخلفى ••• لكن قلبى يسامحك •• فمن أجل عين تكرم ألف عين • وغمزت فى اتجاه شريفة : وهل ودعت كل فتيات النجع ؟ •• قال لها : كلا لم أودعهن بعــد ، ولم أودع شريفة بعد • كنت أحدثهــا فى زواجنا ياداريا ، فماذا تقولين : على بركة الله يا برعى •• مع السلامة • شدد على جمال حتى لاينسانا •• شدد عليه ياولدى •

قال : أنت أمى وشريفة أخت •• زوجتى عما قريب •• لن أنساكما وجمال لن ينساكما • قالت : ليته طلق البيضاء يا برعى • لاتتركه وحده يا ولدى هناك فى مصر •

ـ على العين والراس يا داريا •

وصمت لحظة وفى عينيه بريق حيرة ، واستدار الى شريفة يهمس : لم تقولى شيئا يا داريا فى أمرنا أنا وشريفة ؟ •

ـ قلت لك : على بركة الله •

فلثم يدها بينما هى تقول : ولماذا لم تطلب من جمال قبل الطوفان؟ كنا أتممنا فرحتنا قبل أن يسافر وتسافر •

ـ كان مشغولا بزنوبة ونقارها معك •

ـ المجرمة ! سبب كل المصائب • على خيرة الله يا ولدى •• وربتت على كتفه ثم عادت وهى تنــادى •• شريفــة •• لا تغيبى مع الدواجن والديوك • عودى بسرعة •

***

وانتصف الليل ۰ ورست الباخرة وأقلعت وعلى حافتها برعى دامع العينين ۰ وقبل أن تجتاز الباخرة به نجعنا ، خيل له أنه يسمع فى الباخرة نفسها صوتا يعرفه ، فاستدار ليراه فى هيئة غريبة : عمة كبيرة بيضاء على رأسه الكبير ، وملابس فضفاضة زاهية على جسده ، ويداه موثقتان بحبل ۰ ومن حوله حارسان يرمقانه فى اشفاق ، ويمسحان اللعاب الذى أخذ يسيل بين شدقيه ۰

كان يردد فى نغم متصل : واحد ۰۰ صمد ۰۰ واحد صمد ۰۰ فدنا منه وتأمل وجهه وقال :

ـ حتى أنت يا كلو ۰۰ !!

ثم ارتد الى حافة الباخرة يراقب النجع الذى أخذ يتلاشى رويدا رويدا حتى غاب عن عينيه ۰

٥٤

اكتمل بيت أبى والمتجر وبيت خالى ، واصطفت خلفه عبر شارع ضيق يؤدى الى الكتاب الذى بنى على عجل من الطين بيوت اكتملت منها غرف آوت اليها بعض العائلات مثل سعدية وأمها وبيوت أخرى لم ترتفع السقوف عليها بعد ۰

وبينما أخرج أنا من الباب الخلفى ، وقد علقت كيس كتبى على كتفى ، وقبل أن أخطو انبعث من خلفى صوت يغلب عليه النعاس : حامد .. ولد يا حامد .

فطويت المصحف الذى كنت أنظر فيه استعدادا لتسميع الماضى على الشيخ فى هذا اليوم وأدرت عنقى الى الخلف فرأيت سعدية حاسرة الرأس تقف على مصطبة عالية لم تردم بعد : حامد تعال ياحامد ۰

وقبل أن أقترب منها تراجعت عن المصطبة الى الباب واستندت

عليه متثائبة ، ترمقنى بنظرات غريبة . فتوقفت عند اطار المصطبة وقلت : ماذا تريدين يا سعدية ؟ قالت : لا شىء الا أن البسطاوى لم يرسل جوابا منذ أن رحل ، وتثاءبت ثم أضافت : وها قد مر شهر كامل ونصف شهر دون أن يفكر فينا .

ـ . . . . . .

ـ وأريد أن تكتب له جوابا .

ثم فتحت الباب تقول فى صوت ناعس : ادخل .. ليست أمى هنا .. فقد باتت فى الشرق ليلة أمس . تعال نكتب خطابا ياحامد .

ـ سأتأخر يا سعدية ويمدنى الشيخ فى الفلكة .

ـ لن تتأخر .. تعال .. أدخل .. اخص عليك .. تعال ..

ترددت لحظة وكدت أخطو خلفها ، وفى جسمى احساس غريب لم أستشعره من قبل وجدتنى أريد أن أسعى اليها . بدلا من أن تسعى الى ، ثم تمثلت الشيخ وفلكته فتسمرت فى مكانى ومضت هى تقول : أمى غاضبة على البسطاوى وأنا أكتب خطابا دون أن تعلم .. تعال نكتبه قبل أن تجىء . تعال . مالك واقفا مثل الهبيل . كبة يا شيخ !

قلت : سأعود فى الظهر وأكتبه لك ، وأسرعت قبل أن تقول شيئا الى الطريق المنحدرة نحو الكتاب وفى ذهنى دوامة غريبة من الأفكار تختلط فيها آيات القرآن المستعصية وأوامر أبى : احفظ من جديد .. كيف ؟ لقد مرت الحمى بازميل حاد ومحت كل سورة وآية من ذاكرتى . تعليمة الصغر ، كما ردد أبى دائما ، كالنقش فى الحجر ، لكن الأزميل قد قوى على النقش ومحا كل آية . محا كل شىء الا القراءة والكتابة والجمع والطرح والضرب . أما السور والآيات ، أما ما حفظت من نسيب الميرغنى فى النبى فقد تلاشى . حتى عدت مثل أصغر واحد فى الكتاب أعاود حفظ القرآن .. لقد كبرت وطالت قامتى ، وأحس أن فى حلمتى ثديبى ترمستين كبيرتين تكادان تمزقان صدرى وأضيق من ملامسة ثيابى لهما .. فقد كبرت وأجدر بى أن أذهب الى المدرسة . وماذا تريد سعدية ؟ وتلفت الى الخلف لأرى ما اذا كانت واقفة على المصطبة أم لا ؟ .. فالتقت عيناى بعينى طفل يصغرنى . وفد الى القرية منذ أيام .. الوحيد الذى عاد من مصر ، صحت فيه : فتحى . اليوم نحتفل .. قال نعم . وفى الظهر ستأتى أمى بالطعام

الى الكتاب . وضحكت متذكرا أيامى الأولى فى الكتاب .. كيف لهوت فى مثل هذه المناسبة ، كيف دللت وزهوت وأنا أراقب أقرانى يأكلون ، فى نهم ، من طعام حملته أمى واخوتى اليهم . حينذاك كنت قد حفظت آيات وسورا حتى بلغت الآية التى تقول : « يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم الذى خلقك فسواك فعدلك ، فى أى صورة ما شاء ركبك » .. وهنا رفع الشيخ يده وقال : كفى يا حامد وانطلق الأطفال يصيحون ماشارا كباكا .. ماشرا كباكا . ودنا أحدهم منى وهمس : كباكا يعنى عيش ، حامد ، أليس عندكم عيش ؟ قلت نعم .. ثم أمرنى الشيخ : قل لستك عيشة انك قد بلغت آية ماشاركبكا ، ومسح على شعرى بيده وكرر رغبته ، فعدت أفضى بالخبر الى جدتى فتهللت أساريرها وقالت : بلغ الشيخ طه أن رغبته على الرأس والعين . ثم انشغل البيت كله يوم ذاك يعدون العيش والفطائر اللذيذة .

وفى اليوم التالى عند الظهر رأيتهن على باب الكتاب يحملن كل هذه الفطائر وهدايا للشيخ وعائلته . وراح الأطفال يتراقصون : ماشاركباكا ، والتفوا بأوانى الأكل يلتهمونه فى صخب وضجيج بينما انصرفن داعيات لى وللشيخ .

واليوم سوف تأتى أم هذا الغلام الصغير واخوته يحملن الفطائر نفسها . وسوف نهيص ونصخب فى الكتاب .

وتذكرت المدرسة ومصطفى الذى قال لى منذ أيام : المدرسة ستفتح فى عنيبة . ولن يمر شهر الا ويكون بين لداته بطربوشه الأحمر وبدلته . ولقد أعد ابراهيم عم فتحى هذا هناك لوكاندة ومطعما لنوم وأكل التلاميذ مقابل أجر زهيد . لماذا لا تذهب معى ياحامد الى المدرسة ؟.

لكن أبى مازال مصرا على رغبته : عاود حفظ القرآن يا ولدى . عاود . فسوف تذهب الى الأزهر . وتعود شيخا كبيرا يستدير الناس بك فى اجازتك ويقبلون يدك .

وها أنذا أعود وأترنح فى الكتاب . ولكنى فى هذا الصباح مبلبل ، أتوقع فطائر فتحى وتداعب ذهنى صورة سعدية ، وأعجب لماذا تثير سعدية كيانى فى هذه الأيام . كنت أخاف منها . أما اليوم فلقد أصبح جسدى يشرئب كلما رأيتها وتذكرت صدرها البض واحتكاكه بصدرى منذ سنين . تتلوها صورة حسن المصرى وهو ينقض على شريفة بين عيدان الذرة وبرعى وهو يهمس لشريفة بين النخيل فى السحر . حتى

مندوهة بنت نوح • عروستى فى اللعب أخذت صورتها تداعب أفكارى وتلح .

ولولا الخوف من حجوبة التى بدأت أحس أنها تتلصص على ، لدخلت اليوم وراء سعدية لأكتب لها جوابا الى البسطاوى ولأتركها بعد ذلك ترفعنى الى صدرها كما تريد .

وجاءت ساعة الفطائر فانشغلنا بها . وقبل أن ننتهى منها رأينا الشيخ يهب واقفا على قدميه يهلل ويرحب بجماعة من الناس أقبلت علينا .

واختلست النظر وتعرفت عليهم على الفور : المحامى ووابور يتوسطهما الشيخ مرسى تسبقه رائحة عطرة • ورقص شىء ما بين ضلوعى حين رأيتهما يجلسون على المصطبة الى جانب الشيخ شليب. وقبل أن ينتهوا من رشفات الشاى كان الشيخ شليب قد صفنا جميعا أمام ضيوفه ليقول : انتهينا من تسميع الماضى منذ دقائق . وقال الشيخ مرسى : وهل يدرسون المطالعة والجمع والطرح والضرب ؟ - فأجاب شيخنا فى زهو : والقسمة أيضا ياسيدنا الشيخ • ثم راحوا يتهامسون بينما نحن نراقبهم والحيرة مرتسمة على وجوههم • ثم تذكرت حديثا جرى أمامى منذ سنين فى الدر على مصطبة بدر أفندى عن المدرسة. وقد تأكد لى ما ظننته . فقد بدأ الشيخ مرسى يمتحننا . أخذ يستدعينا واحدا واحدا • ويأمرنا : اكتب ـ الصبر مفتاح الفرج : لؤلؤة •• تلألأ • من جد وجد • فنكتب نحن على الأرض • والشيخ شليب يرمقنا فى اعجاب • وجاء دور الجمع والطرح والضرب والقسمة ثم جاءت النهاية حين اتجه الشيخ مرسى الى سرور يسأله : اسمك : سرور • واسم أبيك : صالح ابراهيم . وشغله ؟ عند الخواجه بيل فى الاسكندرية . وتدخل الشيخ شليب والمحامى يقولان : ولكنه يقيم فى نجع الزينية مع جده الشيخ ابراهيم . عال .. وأنت ؟ حامد . وأضاف المحامى : حامد أمين . شغله ؟ تاجر .. هنا ؟ .. نعم .

وسأل آخرين ثم هب واقفا وهو يقول : تعاليا معى . فسرنا وراءه أنا وسرور حائرين وشيعنا الشيخ شليب على العتبة وهو يدعو لنا وقد ملأته نشوة غريبة . فها هم الأكابر يهتمون بكتابه . وعلى يديه؛ كما سيروى على مر السنين والأجيال ، سيتخرج موظفون ومحامون ونواب !

ومضينا نتلوى بين الخيام وأكوام الحجـــارة وبيوت مكتملة وأخرى مازال العمال يكملون بناءها حتى أوفينا على النجع وأشار المحـامى قائلا : هذا هو الشيخ أمين والد حامد .

كان أبى متربعا على هودية ساقية يديرها . وأمام الساقية شرائح صغيرة من الأرض الصفراء شقت فيها الجداول ، السـاقية غريبة الشكل . تعاون أبى وأحمد عودة والشيخ فضل على اقامتها . وفضل هو المهندس الذى صـمم بعد أن درس انحدار الأرض وارتفاعها عن النيل . وأقام ساقية صغيرة على شاطىء النيل ترفع الماء الى جدول كبير يصب فى حوض كبير رفعت عليه ساقية أخرى ترفع الماء منه الى جدول كبير يتلوى بين الرمال كما يتلوى الثعبان . الساقيتان كانتـا تدوران لأول مرة فى حياة النجع . وتبعثان فى النجع ، لحنهما الباكى الذى بعث فى عيون النساء والرجال بريق فرح ، فتوقفوا على أبواب الخيام وعتبات البيوت يرمقون السـاقيتين فى أعجاب . ويعجبون بثعبان الماء الذى مضى يتلوى لامعا فى ضوء الشمس . شمس الخريف. ويتخيلون الخضرة التى ستحل مكان الرمل الأصـفر .. الشاحب . وراحوا يضحكون بقلوب صافية لأول مرة منذ الحريق ، بل لقد تخلصت داريا من يد ابنتها وركضت الى الساقية وتوقفت عند رأس الجدول تغنى وتهتف : يسعدك الله يا أمين وأنت يا فضل . سنأكل أنا وشريفة أول قطفة من الملوخية على يدك يا أحمد عودة فحدجها الرجل وقال : ان شاء الله يا داريا .

ويبدو أن فضلا كان يروى نادرة ، فقد أخذ النســاء يرسـلن قهقهة عالية قطعنها فجأة حين رأين موكبنا الصغير يتجه الى الساقية . ومضين يراقبننا بعيون مستفسرة حتى توقفنـا لصـق داريا سـكينة على رأس الجدول فاقترين قليلا حتى لا يفوتهن شىء ممـا يقال . وكانت حجوبة هى أجرأ النساء فقد تقدمت حتى التصقت بنا فى اللحظة التى ترك أبى فيها الهودية ، ومسح يده بجلبابه ليسلم على الشيخ مرسى الذى تحدث معه طويلا عن الساقية والأنواع التى سيزرعونها ، ثم استدار بالحديث فجأة وكلمه عن المدرسة ومشاكلها : ستغلق مالم يزد عدد التلاميذ يا أمين . ماذا تقول ؟ ! الأزهر . لكن الأزهر لن يغلق . المدرسة ، مدرستنا الوحيدة هى التى سيغلقونها . فكر يارجل.

وسكت أبى وبدا على وجهه أنه لم يقتنع بعد ، وأدرك الشـيخ مرسى أنه لابد من شرح وتوضيح فتساءل : وأين الشيخ ابراهيم جد

سرور ؟ وقبل أن يجيب أحد تدخلت جدته تهمس : الشيخ ابراهيم هناك فى الجبل عند بشير عثمان .. فاليوم تدور ساقيته ، مائة مترا وأربعة أمتار . ومدت يدها الى سرور تمسك به وهى تقول : ماذا فعل الولد ؟ فى وسعى تأديبه فى الحال .. ماذا فعل ؟ لقد تعلم الشقاوة على آخر الزمن . وابتسم الشيخ بينما انطلق سرور يؤكد فى لثغة حبيبة أنه لم يرتكب جرما وقال لها الشيخ ، بارك الله فى ولدك ياستى . انما نريد أن نقابل جده . ثم عاد يبدى اهتماما غريبا بالساقيتين والجدول الكبير ولمعت عيناه فى مرح حين رأى الشيخ « فضل » وأحمد عودة . فقد تذكر جلستهما فى الدر على مصطبة بدر افندى وسألهما من جديد عن مشروعهما فأفاض فى الشرح حتى قال : عال .. عما قريب نأكل القثاء والخيار والفجل والجرجير من أرضكم هذه . فانحنى الشيخ فضل أمامهم ووعد : ان شاء الله .. على أن تشرفنا سماحتك بالزيارة . ثم استدار يسأل عن الساقية الأخرى التى قالت عنها العجوز وراح المحامى يشرح : رجل منا يحفر سبعين مترا فى الجبل .

ــ ولا يجد الماء ؟ !

ــ لكنه لم ييأس . بل مضى يعمق البئر ثمانين مترا .

ــ ثم وجد الماء ؟

ــ كلا .. الماء لم ينبثق الا بعد مائة متر .

وكاد الرجل يصفق بيديه مرحا . بل اهتز جسده طربا . ثم مال على أبى : لماذا لا نقوم الى البئر ساعة نقابل فيها جد هذا الغلام . فاحدثكما معا فى المسألة الهامة التى زرت نجعكم بسببها . عصفورتان بحجر واحد .. نرى البئر وصاحبها . ونلتقى بالشيخ ابراهيم وهناك نتفق على كل شىء . هلم معنا .

***

خلف البيوت والخيام وعلى مقربة من الجبانة الحديثة رقدت الأرض الرملية الصفراء تتجهم فى عيوننا الا شرائح صغيرة سويت وأعدت للرى ، تشقها الجداول والبثون والجسور . وفى قلب هذه الشرائح ساقية عالية تلهث ، فوق مدارها اربعة أبقار . ويبدو اننا وصلنا فى

اللحظة المناسبة فان مائتين وأربعين قادوسا أحمر كانت تهبط الى البئر لتعود مثقلة بالماء لتصبه فى الجدول الكبير . وقد تربع على الهودية بشير نفسه يرمق الرجال والنساء الذين جاءوا يحتفلون بمشروعه فى نشوة وزهو يفرقع بكرباج طويل على ظهور الأبقار الأربعة ·· عا .. عا .. عا ..

وتسللنا نحن بين الناس دون أن يلحظنا أحد فى أول الأمر فقد كانت عيونهم مشدودة الى القواديس · كان هناك العمدة وسفرجى باشا وعبده الفرنساوى الذى مضى يهتف : فورميدابل ·· فورميدابل·· هائل !

ودارت القواديس دورتها وعادت تلمع فى وهج الشمس ثم مال أول قادوس وأسال الماء فى الجدول وتلاه قادوس آخر فثالث وهنا انبعث الهتاف والتصفيق المتصل · وانطلق زغرودة مثل رنين الذهب تنداح مع الماء الفضى ليتلوى بين الرمال الصفراء ·

ثم أوقفت الساقية وتجمع الناس حولها يشربون شايا أعد لهم وينفثون دخان لفافات وزعها عليهم بشير بنفسه · ثم استداروا بعيونهم ليروا « وابور » يعتلى ربوة مرتفعة · ومن هناك وكأنه نبى يبشر من فوق جبل تدفق فى حديث حماسى يهنىء ابن عمه بشير بالفوز ، ثم مضى يصور لهم الخضرة التى ستكتسح الصفرة القاتمة المتجهمه من حولهم فراحوا يتخيلون نخيلا سامقا يفرش الأرض بظلاله ، وحقول قمح وذرة ، ثنعموا بلحظة هناء أتاحها لهم بشير والقواديس التى صبت الماء ·

وكاد وابور أن ينهى حديثه ويترك المنصة لغيره ، الا أنه لمحنا : لمح الشيخ مرسى فصاح فى الناس : وليحيا الرجال العاملون .. ليحيا الأستاذ ، مشيرا بيده الى الرجل ثم انهى وابور كلمته بالعبارة التقليدية التى أصبحت على كل لسان : نحن منكوبى التعلية ·· نطالب بطلمبات رى تملأ هذه الصحراء بالخضرة والحياة · ثم أسرع الى الشيخ مرسى يشد على يده ويرحب به بينما الناس يستديرون به .

وشد الشيخ موسى على يد بشير يبارك عمله ثم خلص الى الناس يتحدثون اليه عن الطوفان والحرائق والفيضان وضرورة اعادة صرف التعويضات واقامة طلمبات الرى .

ثم تحدثوا اليه عن الرسائل التى ترد من الصعيد تشكو من الأرض القاحلة التى نزل فيها المهاجرون من أهل القرية . وتكلم الشيخ مرسى عن كل شيء فى لفة سلسة شيقة ثم خلص الى المدرسة حين قال: لو كان الحكام يحترموننا لما نزل بنا كل هذا الشر . وصمت الناس جميعا يحاولون فهم كلماته ومراميها ثم رفع العمدة رأسه وقال : وكيف نحملهم على احترامنا يا فضيلة الشيخ ؟ بالتعليم .. وهل هناك غير التعليم ؟ وسأل العمدة : لكن التعليم يحتاج الى مال كثير .. فأين لنا بالمال . وشرح الأستاذ ان النفقات زهيدة وأنهم فى سبيل حمل الحكومة على تحويل المدرسة الى مدرسة داخلية مجانية يأكل وينام فيها التلاميذ دون مليم يدفعونه . وسرد السفرجى باشا قصة الباقر وجمال وكيف تعلما ثم عادا أستاذين كبيرين يشرفان النوبيين. وكيف يتعلم أولاد الباشوات على يديهما .

وتهللت أسارير الناس فان الأستاذين من القرية الملاصقة ، ثم اندفعوا يتكلمون فى فخار عن أبناء القريتين الذين تعلموا وأصبحوا فى مناصب كبيرة :

ــ تصوروا ، لقد كان أبوه طباخا فى بيت أحد الباشوات ، نجح هو بينما رسب أولاد الباشا ، فسافر الى بلاد الانجليز وتفوق حتى على أولاد الانجليز الأوروباوية .

ــ وفلان .. من مصمص . عاد مدرسا فى مدارس النهضة فى الاسكندرية ، ثم فى عنيبة وسرد لهم الشيخ مرسى قصة المدرسين النوبيين فى المدرسة وكيف يكافحون فى سبيل حماية المدرسة وتعليم الأبناء . فالحكومة تعمل على اغلاقها متذرعة بمختلف الحجج ، ومنها قلة عدد التلاميذ . أنها تقول : النوبيون لا يريدون أن يتعلموا . ولا شك يا ناس أن الباشوات يقولون فى قرارة أنفسهم : واذا تعلم النوبيون أين نجد طباخين وسفرجية وخدما يخضعون لنا ؟ وصاح المحامى ووابور : مضبوط . لقد صرح أحد النواب بقوله ومن الذى يعمل فى بيوتنا اذا ما تعلم هؤلاء . ؟ يحسن أن نفتح لهم مدرسة للطباخين !

وطاف الشيخ مرسى على وجوه الرجال بنظراته وشعر أنه سيفوز فقال :

ـ المسألة فى ايدينا .. الحكومة تقول ان التلاميذ عددهم قليل ، فلماذا لا نزحم المدرسة بتلاميذ من أبنائنا .

وسكت يتأمل تأثير كلامه واسترسل : فاذا ما أرسلت كل قرية اثنين أو ثلاثة من أبنائها زاد عدد التلاميذ فتبطل حجة الحكومة وتستمر المدرسة . أما الآن ..

ثم مال على أبى والشيخ ابراهيم : هذان الولدان خسارة . لماذا لا ترسلانهما الى المدرسة ؟ لن يكلفاكما شيئا يذكر . حرام .

وهز الشيخ ابراهيم رأسه وقال : موافق وسأبعث الى أبيه يافضيلة الشيخ . أما أبى فقد مر بيده على جبهته وعلى صلعته الخفيفة ثم سأل : أليس الأزهر أفضل ياسيدنا الشيخ ؟ . لقد تعلمت فيه سماحتك .

وكنت أراقب وجهه وعرفت أنه يوازن ويفكر بعمق وأنه سيوافق فى نهاية الامر . وأراد الشيخ مرسى أن يعجل باقناعه فقال : الأزهر لن يغلق ، مدرستنا هى التى ستغلق يارجل . وابنك سيكون بجانبك هنا فى المدرسة . أما هناك فى الأزهر فسوف يغترب وقد تلهيه مصر عن دراسته . ومصر كما تعلم مكتظة بالدراجات والعربات والفتيات !

ولم يجب أبى بكلمة واحدة على الشيخ . بل استدار نحوى بين نظرات الناس الحائرة المتسائلة ووضع يده على رأسى وهمس فى صوت مختنق :

ـ غلبتنى يا حامد .. على خيرة الله ..

فابتسم الشيخ وقال : عال ، نلتقى صباح السبت فى عنيبة بعد شهر ..

ولم أعد أنا الى النجع بل الى بيت شقيقتى جميلة أجتر معها سعادتى .

٥٥ المساء يسدل غلالته الرمادية على القرية الجديدة التى سأعيش فيها . أرمقها فى وجوم من مكانى فى هذه اللوكاندة الصغيرة. لوكاندة ابراهيم ، مطعم ومقاعد وحوش واسع مسـقوف أعد لمبيت التلاميذ الغـربـاء . وفى المبنى الطينى نفسه مقهى يصخب رواده حول الورق والنرد ، رواد من ألـوان مختلفة . بينما الصغار يتكئون على دكك عاليـة مع آبائهم يرمقون مثلى فى وجـوم موطنهم الجديد وان نهض بعضهم تواقين الى اللعب والتصـايح برغم نصائح آبائهم .

وها هو خالى أحمد عودة يرمقنى فى اشفاق ويمد يده ينفض غبارا علق ببدلتى الرمادية وينتزع طربوشى يخلصه من قشة انغرزت فى صوفه الأحمر . ويعلمنى للمرة العاشرة كيف أنظف حذائى بخرقة بيضاء أودعها منذ الآن فى جيبى . والنصائح تتلاحق من حولنا : أياك أن تنزل فى النيل . أنت تعلم كم تحبك أملك . وكم أحبك . عد كل يوم خميس ... حاذر أن تتسخ ملابسك . هه ياهجين . أتسمع كلامى أم انت شارد ؟ سرور ما هذا الطين الذى تعبث به ؟ . ألا ترى كيف تلوثت أظافرك ؟ .

وأفيق من شرودى على كلمات خالى : اجتهد فى دروسك والا فأنت تعلم أين تريد حجوبة أن ترسلك . فهززت رأسى فى طاعة . ثم عدت الى شرودى أتأمل القرية الرابضة أمام عيوننا . غابة من النخيل وأشجار الأثل والسنط تغمر مياه الطوفان قاماتها ولا تترك منها الا رءوسا تهتز فى حزن بينما يرتعش الماء تحت الظلال القاتمة المرتسمة على صفحته .

ومن خلف الغابة شراع أبيض تتناهى منه الى أسماعنا نقرات دف ترجع جبال الشرق أصداءها فتنداح على القرية الوادعة لاتشوبها الا فرقعات « الدبش » و « الدوش » وصيحات اللاعبين بالنرد . وعلى يمين اللوكاندة طريق لم ترصف بعد . على جانب منها سوق وحانات ومقاه بينما تصطف على الجانب الآخر بيوت غير البيوت التى ألفتها فى قريتى . بيوت سمراء متصلة ومنفصلة بنيت من حجارة منحوتة ، تدور حولها مظلات خشبية رمادية ، تمر من تحتها ردهات ضيقة يلمع فيها البلاط الأبيض والرمادى ، ونوافذ عريضة يلمع زجاجها ، وعلى افريزها صوانى صفراء عليها قلل فخارية لامعة تنسدل من خلفها ستائر منمنمة مطرزة ، ومن بين الستائر تمتد الى القلل أيد وسواعد بضة تختفى بسرعة . وحول كل بيت سور منخفض تمتد خلفه حديقة لم تزرع بعد . والطريق العام يمر أمام هذه البيوت ينتهى بساحة واسعة تتوسط سوقا ومقاهى وبيوتا ، فى محاذاتها على الجانب الآخر مبنى المركز والمحكمة ومكتب البريد . والجامع الذى تنبثق أمامه فى اتجاه النيل مبان أخرى يتعرج الطريق أمامها ليفضى الى ساحة أخرى ، فى جانبها الشرقى مستشفى لم تعمل بعد وفى جانبها الغربى مبان من نفس الطراز تطل من نوافذها الأيدى نفسها والسواعد البضة . وأمام مبنى المركز الذى رفرف عليه علم أخضر ،

مبنى المدرسة يعترض الساحة تطل عليها نوافذ الفصول ومكتب الناظر وحجرات المدرسين .

درنا أنا وخالى حول هذا المبنى حتى واجهناه ووقفنا نتأمله . كان مبناه الأساسى يبدو خطا مستقيما ينتهى بخطين آخرين أفقيين يشكلان الفصول الواقعة على جانبه الشرقى والغربى .. الفصول كلها تفتح أبوابها على ردهة طويلة من البلاط ترتفع عن الفناء بسلالم أربعة عريضة منعطف منها الى اليمين لندلف الى حجرات المدرسين ، ومكتب الناظر تواجهه حجرتان : المخزن ومكتب المعاون . وننعطف الى اليسار لنطل على عدد من الفصول .

وأمام المبنى الأساسى ساحة صغيرة تنتهى فى الطرف الآخر بالمرافق العامة ودورة المياه . وفى محاذاة هذه الدورة جرس كبير وقف تحته رجل عجوز أسمر فى هندام نظيف يتمتم وفى يده سبحة طويلة من الكهرمان . لقد صلى عم عوض المغرب منذ لحظات تحت الجرس ومضى يتمتم حتى تقدم منه فراش آخر ، شاب صغير ، يحييه ويسأل فى خبث : هل أعددت الجرس ياريس ؟ فنظر اليه الرجل فى استنكار ؛ فمنذ متى يعلم الفراشون رئيسهم واجباته ، وأشاح عنه ، ثم مد يده وصلصل الجرس صلصلة خافتة ، ورمق الشاب بازدراء وقال : فى الساعة الثامنة الا خمس دقائق يدق هذا الجرس لأول مرة فى هذه المدرسة الجديدة ، بارك الله فى مدرستنا الجديدة وفى الجرس . وضحك الشاب وصاح فى خبث : وفى اليد التى تشد الجرس . متى أشده أنا ؟ .

وأطبقا شفتيهما حين دنونا منهما ، وتبادلا التحية معنا وتعارف خالى مع الرجل العجوز الذى طفق يروى فى زهو أحداث عشرين عاما من حياته مع النظار والمدرسين والتلاميذ . قال : لقد كبروا جميعا ، لكنهم لا ينسون عم عوض . أصبحوا موظفين ، بارك الله فيهم ومازالوا يسألون عنى . قال خالى : أطال الله عمرك حتى تراهم جميعا فى مناصب كبرى ، ومازلت قويا بحمد الله ، فتهلل الرجل وقال : الحمد لله يا ولدى .. كنت فى مصر منذ أيام . أتعرف من الذى قابلنى فى شارع أبو اصبع ؟ تصدق بالله لقد عانقنى دون أن أشعر ففزعت ، ثم استدرت اليه لأجده فى بدلته الأنيقة يقبل يدى ! وتخابث محيى ـ الشاب الصغير ـ وقال : من يكون غير ابن عمك ؟ فتجهم وجهه وصرخ فى مرءوسه : اسكت ياولد . واستدار الى خالى واسترسل فى

حماسة : الاستاذ عجيب نفسه .. ثم الأستاذ جمال .. مازلت صغيرا يا محيى ، لا تعرف حتى أصول المهنة ولولا طيبة أمك ونفوذها وفصاحتها لما عشت معنا يافتى .. لقد شهدتك تكبر وشهدت الصغار يكبرون ويتزوجون ، ثم يبعثون بصغارهم الى المدرسة نفسها ... الى أنا يامحيى ليسمعوا صليل الجرس الذى سمعه آباؤهم ، والله يا شيخ أحمد ان هذا الولد لا يفهم .. اسكت .. اسكت يا ولدى . ودار محيى من خلفه ولكزه تحت ابطه فقفز الرجل قفزة عالية وهتف : الله أكبر .. ثم صب غضبه على الفتى المهزار وطرده ، ثم تنبه لى وربت على رأسى وهو يهمس : بارك الله فيك ياولدى . تعال غدا مبكرا فى الصباح قبل أن يدق الجرس . أما الآن فانصرف .. وأخرج ساعة كبيرة من جيبه وتأملها ثم أردف : حضرة الناظر والمدرسون والمأمور سيحضرون بعد دقائق يستعدون لافتتاح المدرسة . وشد على يد خالى وهو لايزال يروى ذكرياته . وقد تقدمنا الى الفناء الخارجى ثم عدنا أدراجنا وفى رفقتنا محيى الذى مضى يشير قائلا : بيت المأمور . بيت الشيخ مرسى والدكتور . انه لم يحضر بعد وهذا بيتى . وأدركت من حديث بينه وبين خالى أن مصطفى ينزل فى هذا البيت ، فاستبد بى حنين الى رؤيته رغم أننى كنت معه فى النجع منذ يوم واحد . ولكن خالى رفض الدخول فاتجهنا الى اللوكاندة نتناول عشاءنا ونستمع الى الجرامافون. ثم نمت والأحلام تداعبنى وتدغدغ جسدى وتبعث فيه خدرا لذيذا .

وها هى السبورة السوداء تلمع أمامى وعليها سطر أبيض : حصة الدين . والشيخ ياسين يلقى علينا درسه الأول . اننى أستمع اليه مرتفقا بكوعى على القمطر وبجانبى سرور . لكننى لا أفهم كلمة واحدة مما يقوله الأستاذ لأن الفرحة الغامرة التى تشملنى لا تترك لى فرصة الاستماع والفهم ...

ثم تعاقبت الدروس وجاءت الفسحة الكبيرة . فانطلق الصغار يتعارفون . ويعقدون أواصر صداقات جديدة .. ويعجبون بملابسهم . كان واضحا أن بعض الآباء قد لفقوا ملابس لأبنائهم . فقد أخذ المدرسون ينظرون اليها شزرا ، حتى ركبنى خوف شديد فرحت أتوارى حتى لا يلاحظ أحد شيئا على ملابسى برغم أنها كانت لاتزال جديدة ومرضية ، لكن الخوف الحقيقى الذى ركبنى فى اليوم الأول والأيام التالية كان خوفا لا يبارحنى البتة . فمنذ أسابيع نجحت فى امتحان القبول ، الا أننى رسبت فى الكشف الطبى على نظرى فعدت باكيا أنهنه وأدب الى جانب أبى فى الطريق الى اللوكاندة يائسا خائب الأمل .

ولكن الصدفة العارضة جمعت بيننا وبين الشـيخ مرسى الذى سأل : الى أين يا شيخ أمين ؟ فأخذ أبى يروى بالتفصيل قصة خيبتى فى الكشف الطبى وقال : ليس فى الأزهر كشف على النظر ، ويبدو أن الله لا يريد له غير الأزهر . فتبسم الرجل ورجانا أن نعود معه .

ولا أدرى ماذا فعل الرجل ، فقد دخل من باب وخرج من باب آخر ، ثم انحنى على ممرض وأشار الى باسما ، وأمرنى أن اقترب منهما ، ثم وقفت أمام اللوحة ، والرجل من خلفى يلكزنى وهو يقول: يمين . شمال . فوق . تحت .

ونجحت .. ولكن سر نجاحى وتآمر الشيخ معى قد خلقا فى نفسى خوفا لا أطيقه خشية أن يكتشف أمرى ، فأطرد من المدرسة ، الا أننى برغم ذلك سعيد وأنا أواجـه هذه السبورة السـوداء وأتأبط كتبى وكراريسى وأحشو جيبى بالأساتيك والمساطر والأقلام وألوى شـفتى بأبجدية اللغة الانجليزية ، سعيد وأنا آوى الى فراشى فى اللوكاندة ، وأذاكر دروسى على ضوء الكلوب الكبير . مائة وعشرون قرشا فى الشهر ثم نأكل ونشرب وننام فى فناء واسع مسقوف على عنجريب حملته من بيتنا !

وصحوت فى ليلة من الليـالى على يد تهـزنى .. وفتحت عينى لأجد « الشيخ مرسى » يطل على ويهمس : غط نفسـك ياولـدى .. ستمرض . خلى بالك يا شيخ ابراهيم ، رمضى يفتش ويبحث مع صاحب اللوكاندة أمر راحتنـا . لقـد اعتـاد أن يراقب حياتنـا ، ودروسـنا واستذكارنا لها وطعامنا ويصلح ما بينى وبين هجين هذا الفتى المتمرد الذى توطدت صداقتى معه برغم تقارنا المتصل .. لقد أصبح الرجل أبا وأما لنا نحن الصغار جميعا .

ومر خميس عدنا فيه أنا وسرور وفوزى ابن عمـدة ابريم الى اهلنا .. خميس وجمعة قضيتهما مع شقيقتى وابنها الصـغير وسمعت الناس باذنى يتهامسون من حولى : جاء الافندى وراح الافندى .. هس .. الافندى ينام ، فامتلأت بالزهو وشعرت بسعادة غامرة وأنا أعود فى أصيل الجمعة الى عنيبة .. حيث المدرسة والشيخ مرسى ورفاق المدرسة واللوكاندة .

ومضت الحياة هانئة باسمة . الساقية تدور أمام بيتنا والارض الصفراء تخضر والناس افاقوا قليلا من نكبة الحرائق والفيضـان والدروس تتلاحق سهلة ميسورة الا الرسم فقد تعثرت فيه ، أرسم

خطا بالمسطرة فيتلوى كما يتلوى الثعبـــــان ٠٠ خطوطى كلها تتعرج ويبدو أن حظى كان يتعرج مثلها ، يبدو أن حلاوة الحياة لا تكتمل الا بمرارتها ، فقـد حل بنـا الخميس الثالث متجهما لسبب لا ادريه . المدرســون النـوبيون جميعـا كانوا واجمين ، يدخلون الفصـول وعلى عيونهم نظارات سميكة ويتهالكون على الكراسى ويلقـون الدروس فى فتور ٠ دخل الشيخ ياســين وأعقبه الشـيخ مرسى وألقيا درسـين قصيرين ثم جلسا لا يقـولان كلمة واحـدة حتى دق الجرس فبارح كل منهما الفصل وفى عينيه أسى . ثم دخل مكى أفندى المسلمانى مدرس الحسـاب وفى يده مسطرة تعود دائما أن يضغط بها طرابيشنا وتهالك على الكرسى ، ومضى يملى علينا مسائل الجمع ولم يتوقف الا حين تناهت الى أذنيه طرقات خافتة على الباب .. أمر سرورا بعدها بفتح الباب ليدخل عم عوض واجما هو الآخر فابتدره الاستاذ : هيه ياعم عوض قال : لا تبتئس يا أستاذ فلعله قد عدل الآن وتناول طعامه . ولربما تحسنت ظروفه فالله لا ينسى عبيـده ٠ وأطرق الاسـتاذ وقال : لقد انتهى اليوم العشرون من اضرابه عن الطعام ، وصحته تتدهور فى كل لحظة كما يقول الجواب يا عوض ، ليته يعدل ، ثم راحا يتهامسان همسا كان يصل الى آذاننا ، وتردد فيه اسم حسـين طه ثم اسـتدار عوض الى الباب وكاد يخرج الا أنه توقف كأنما تذكر شيئا ، فعـاد الى الاستاذ وناوله ورقة صغيرة وهو يقول : حضرة الناظر يطلب هذا التلميذ ، فتأمل الأسـتاذ قليلا فى الورقة ثم نادى : حـامد أمين ، فنهضت مستندا الى حافة القمطر ، فتأملنى الأستاذ ثم استدار الى عم عوض : خذه معك . حضرة الناظر يريدك يا حامد .. زرر جاكتتك .. أزح الطربوش قليلا الى الخلف .

وتبعت الرجـل فى الردهـة الطويلة حتى توقف بى أمام المكتب ومضى ينقر على الباب ثم فتح الباب قليلا وأغلقه من جديد وهو يقول هامسا : يبدو أنه ليس فى مكتبه الآن . انتظره هنا ، ثم ابتعد خطوات واستند الى الدرابزين يتأمل الجرس الكبير بينما أخذت أنا اتمشى فى الردهة قلقا خائفا . وفى هذه اللحظة وحدها أحسست أن فى حذائى عيبـا ، فهى تدك البلاط دكا وتبعث ضـجيجا لفت الى أنظار بعض المدرسين فأطلوا من أبواب الفصول يرشقوننى بنظرات قاسية توقفت بعدها منكمشا استند الى جدار المكتب الخارجى . لقد أبى والدى الا أن يحصن حذائى بحدوة مثل حدوة الحصان فمضت ترتطم بالأرض وتصك الآذان بصخبها .

ومرت لحظات ظلت الردهة فيها هادئة ثم ارتفع صوت عبدالرحمن افندى مدرس الانجليزى يقول فى الحجرة الملاصقة لمكتب الناظر ، فى حجرة المدرسين : لكنهم لن يغلبوا الأحباش وأجابه صوت أجش : هوه .. هوه .. يبدو أنك لا تعرف موسولينى وجيشه وطائراته وغازاته السامة . وارتفع صوت الشيخ « ياسين زنادة » فى نبرة محتدة : لعنة الله عليه وعلى جيشه . ثم ساد الصمت لحظة تردد بعدها الصوت الأجش نفسه : وهل أعلنت الحرب فعلا ؛ فأجاب عبد الرحمن افندى : بدأت دون أن تعلن والنجاشى ملك الملوك يستصرخ ضمير العالم بينما عصبة الأمم لا تفعل شيئا . فقال الشيخ ياسين : وماذا يقول الانجليز : فالحبشة على حدود السودان ؟ .

ـ لا شىء ؟

ـ اذن فالاحباش غنيمة فى يد الطليان .

ـ اللهم اقض على الانجليز وعلى الطليان .. وانصر أمة الأحباش فقد استضافوا رسل النبى صلى الله عليه ورضى عنهم .

أخذت أستمع الى أحاديثهم وأتساءل عن النجاشى والأحباش والطليان ثم رأيت عم عوض يتحفز ويرفع يديه بالتحية ، فشددت من قامتى . وألقيت نظرة فى اتجاه المرافق ، ورأيت البيه الناظر يقبل علينا بوجهه الطيب . لكن خوفا غريبا ركبنى برغم ذلك حين دنا الرجل منا وحدجنى بنظرة متفحصة . ولم يبارحنى الخوف حتى تجاوزنى ودخل مكتبه ثم صاح : هاته يا عوض . فدفعنى الرجل حتى وقفت أمام الناظر واجما . ثم واتتنى فكرة ارتعشت لها : لقد اكتشفوا سر نجاحى فى الكشف الطبى وسوف يعيدوننى الى بيتنا مطرودا ، فطفرت الدموع الى عينى ، فرحت أغالبها وأقضم أظافرى وأبتلعها ؛ ثم رفع الرجل رأسه يتأملنى وسأل فى صوت خافت : حامد أمين ؟ فلم أجب وبدا لى أنه يردد اسما غير اسمى ، فعجب الرجل من ارتباكى وكرر الاسم من جديد ، فلكزنى عم عوض فقلت : نعم .. نعم يا سعادة البيه . فتبسم الرجل ابتسامة طيبة . ثم دس أنفه فى أوراق كثيرة وقال ، وبين يديه ورقة صغيرة . هذا خطاب من الوزارة وتأملنى مليا ثم أضاف : بعدم قبولك فى المدرسة . فلم أفهم شيئا مما يقوله الناظر . وبدا واضحا له أننى لم أفهم فكرر كلماته فى أناة ثم أضاف : لا يقبل فى السنة الأولى من تجاوزوا العاشرة من عمرهم !

وساد الصمت لحظة وقبل أن أقول كلمة واحدة انطلق عم عوض يقول : ولكن هذا الولد عمره لا يزيد عن العاشرة !! فتفحصني الناظر من جديد وقال باسما : أنت ياعوض تحب كل الأولاد خصوصا السمر والسود · كلهم عيالك · ولكن ألا ترى جسمه ؛ ثم طلب منه أن يقترب وعرض عليه ورقة عريضة قال بعدها : شهادة ميلاده · فارتد العجـــوز هامسا : أبوك مغفل · من الذى نصحه بتقديم هذه الشهادة ؟·· مغفل! ثم دفعنى الى الخارج وهو مازال يغمغم : ثلاثة عشر عاما ثم يقدم أبوك شهادة ميـــلاد ! ولم يتوقف الا أمام مكتب المعـــاون وألصقنى بالجدار حانقـــا ثم دخل وغاب لحظة طويلة أطلقت العنـــان فيهـــا لدموعى ، ثم قررت ان استميت هنـــا فلا أبارح المدرســـة ·· وأخذت ألعن النـــاظر وأصب جام غضبى عليه .. لماذا يطردنى ابن الكلب ؟ لقد نجحت فى امتحان القبول . المدرسون جميعا راضون عنى الا مدرس الرســـم والأشغال . لابد أنه هو الذى وشا بى .. ابن الكلب .. ذو الوجـــه الأحمر . وأخذت دون أن أشعر أنهنه بصوت عال رن فى الردهة الطويلة فبرز الشيخ مرسى برأسه ثم تقدم حتى وقف أمامى يقول : من ؟ لماذا تبكى ياولدى ؟ وأطاح بيدى التى كانت تفرك عينى وسأل : من ؟ حامد أمين ؟ ! ماذا حدث ؟ وقبل أن أجيب استدار الى الشيخ ياسين الذى هتف باسمه وقال : تم كل شىء ياشـــيخ ياسين ·· أرســـلت برقية وخطابا مستعجلا ، فتنهد الآخر وقال : لعل وعسى .. ليته يعـــدل فيأكل طعامه .. وهل أرســـلت الى أبيه . ؟ قـــال فى نبرة محتدة : والده !! أتسمى هذا الرجل أبا ؟ لعنة الله عليه ··

وخيل لى أنه قد تناسانى حين بدأ ينصرف وهو يمسح عينيه بمنديل حريرى أبيض فرفعت صوتى بالبكاء فعاد من جديد يسأل : ماذا حـــدث ياولدى ؟ فشرحت له فى كلمات لاهثة مختنقـــة ما فعله الناظر بى ، فاستمع الى كلماتى الدامعة فى صـــبر وتغلب على أحزانى وابتســـم لى وهو يقـــول : بس كده . ولا يهمك .. ارجع الى أهلك وسوف تعود ، ولكن لماذا قدم أبوك شهادة الميلاد ؟ لا تبك وكن رجلا ·· قل لأبيك يرسل شكاوى · وسوف أزوره أنا بنفسى ؛ ثم انصرف من حيث أتى ·

ولم تمض الا لحظة واحدة حتى عاد عم عوض يدفعنى الى الفصل وفى يده قائمة بالكتب والكراريس والمساطر والأقلام التى تسلمتها منذ أسبوع ، ودلفنا من باب الفصل فاتجهت أنا الى درجى بينما انحنى هو على الأستاذ يهمس فى أذنه ·

واستدار الصغار يحدقون فى وجهى الذى بللته الدموع متسائلين فقلت لسرور وأنا أجمع أدواتى : طردونى لكبر السن . فأطرق واجما ويده تتشبث بساقى وكأنه يقول : لا تذهب . لكننى تخلصت منه أخرج وراء عم عوض وأنا أرمق وجه الأستاذ لسبب لا أدريه . فوقف ومد يده وربت على كتفى وغمغم : ما عليك يا ولدى فسوف تعود . ثم اسلمنى عوض الى الطريق وهو يقول : قل لأبيك انك ستعود اذا كتبت شكاوى .

★★★

وعدت الى القرية ودخلت مشارف نجعنا والمساء يسدل غلالته الرمادية فوق الخيام والبيوت ، أتسلل فى طريقى من الشاطىء الى النجع خائفا من نظرات الشماتة فى عينى حجوبة وأبى ، ورحت أقدم رجلا وأوخر أخرى وفى رأسى دوامة من السخط والكراهية والحيرة وصور مدرسين واجمين . ولعنة الله على والده ، وهذا خطاب من الوزارة بعدم قبولك . قل لأبيك يكتب شكوى .

وعلى صفحة النيل أمام بيتنا مباشرة كانت أضواء تلمع ، أضواء زورق بخارى صغير يشد من خلفه شمندورة حمراء يقترب بها من الدوامة الهادرة ، فان الشمندورة الحمراء كانت قد انطلقت من اسارها وعامت فى النيل أسبوعا كاملا الى الشمال وارتطمت بجفون الخزان فأعادوها مكبلة بسلسلة جديدة الى مكانها المعهود ، يشدونها من جديد الى قاع اليم .

وارتميت يائسا بين أحضان خالى ؛ وقد خيل لى فى تلك الأمسية القاتمة أن كل شيء قد ضاع وأن الحمى ستعاودنى ، لكننى سرعان مانمت نوما عميقا أفقت منه فى الضحى لأرى المحامى رابضا أمامى يركز ورقة على ركبته ويكتب .. نحن منكوبى تعلية خزان أسوان الثانية .. الخ ..

٥٦

ومضت الأيام وأنا فى النجع أراقب الخيام تختفى ، والبنائين وهم يرسلون حنينهم فى أغنيات دافقة وأساعد أبى فى تدوين حسـابات المتجر وأحاول بين هذا وذاك أن أتذكر كلمات انجليزية كنت قد بدأت ألوى بها لسانى منذ أيامى الأولى فى المدرسة.

وبلغ الضيق بى حدا جعلنى أنهض أحيانا وأترك الساحة الممتدة أمام بيتنا وأهيم فى الجبل واتوقف عند البئر العميقة التى شقها بشير عثمان فى بطن الهضبة على كثب من قبر أمى ، وأتأمل عيدان القمح القزمية ، وقد قضمت الأرانب البرية بعضها ولفحت الشمس أوراقها فاصفرت ، وأشفق على أبقار منهوكة القوى تنزح الماء من بئر تغوص فى أحشاء الأرض مائة متر .

وفى أصيل يوم وأنا أعبر الفضاء الممتد حول تلك المزرعة لمحت فى العشة الصغيرة المستندة الى جدار الساقية صديقى سرور بجلبابه البوبلين المقلم ذى الياقة المدببة الأطراف على دكة خشبية يتصفح مجلة سمير التلميذ فدنوت منه وقد اشتد بى الحنين الى المدرسة وألقيت بالتحية فرفع رأسه عن المجلة ثم ألقاها جانبا ونهض الى يشـد على يدى بحرارة وقال : تعال .. طلب منى عمى بشير عثمان أن أحرس الغيط حتى يعود ، وأراقب الأرانب البرية وأطاردها بالفرقلة . الى أين يا حامد ؟ قلت : الى بيت أختى . كيف حالك ؟ ما هى أخبـار المدرسة وهل فاتتنى دروس كثيرة ؟ .

ــ فاتك الكثير يا حامد ، ولكننى سأساعدك اذا ما عدت . وماذا تفعل فى بيت اختك ؟ أجلس ..

ـ لا أريد أن أتأخر فاننى أحمل اليها خطابا من مصر أرسلته بطة وزوجها .

ثم جلست وأخذت أتصفح المجلة بينما انشغل سرور بمطاردة أرنب عاد بعدها لاهثا ، ومالبث حتى استعاد أنفاسه وأخذ يروى حكايات هيجت كوامن الشجن فى صدرى . حكايات عن المدرسة واللوكاندة ومشاجرات الرفاق ومدرس الانجليزى ، ومكى افندى وكيف فرك أذنيه . حذار أن تقع فى يده حين تعود فهو دائما يكبس الطرابيش على الرءوس ويأمرنا بالجلوس « ديز » على البلاط بركبنا العارية حتى تدمى . فتنهدت وأنا أقول : من قال اننى سأعود ياسرور ؟ فلم يجب على سؤالى بل قال : أتعرف أن « صالح أفندى جمال » شكل فرقة للكشافة وأنا فيها رئيس جماعة أحمس بينما فوزى رئيس جماعة بعنخى ومصطفى رئيس جماعة أبو سمبل . اننا نقيم الحفلات وحامد افندى يعزف لنا على العود ونحن نغنى .

ـ ماذا تغنون ياسرور ؟ . كلا .. الكلمات مع اللحن ياجدع .

فتنحنح وأصلح حنجرته وراح يغنى : ياثيران اشتغلى اشتغلى.، أن الشغل عدو الكسل . وارتفع صوته ينداح فى الصحراء ويعود الينا رجع غنائه من التلال الغربية .

وقبل أن يكمل لحنه ارتفع صوت أجش : سرور ، ياخيبتى فيك ، الأرانب تأكل الزرع وأنت تغنى ؟ فوقفنا لنرى « بشير عثمان » يطل علينا من باب العشة ومن حوله أحمد محمود والمحامى وسيد وابور . ولا أدرى لم أحسست بضيق حين رأيت وجوههم : ألأنهم قطعوا خلوتنا ؟ أم لأن صحبة سرور متعة بددها ؟ أم لعله ذلك الوجوم الذى ارتسم على وجوههم ؟ كانوا ساهمين ، عيونهم غائرة ترمق الأفق البعيد . حتى أحمد محمود تجاهلنى وتربع على الأرض بعد أن سواها بيده وأخذ ينكث الأرض بخيزرانته المدببة . ثم ساد صمت ثقيل قمت خلاله أريد أن أنصرف من العشة الى بيت أختى قبل أن يحل المساء ، الا أن الكلمة التى قالها وابور وقطع بها الصمت استوقفتنى فعدت أصيخ السمع اليهم . فقد سأله بشير :كيف مات رحمه الله .. ألم يكن شابا ؟ ولم يجب وابور على الفور بل أطرق الى الأرض حزينا يرسم على الأرض باصبعه وجه رجل بطربوش طويل وأذنين طويلتين كأذنى الحمار .. ثم

تمخط وبصق فوق الرسم غاضبا وقال : لا أدرى . لقد كان شابا فهكذا كانوا يقولون أيام الحادث وفى عنيبة . وقال أحمد :

ــ لم أكن أعرف يا وابور وهم يسألوننى عنه هناك فى المركز أنه سيلاقى مصيره فى الليمان بين المجرمين . عجيبة . الخط يبقى زمانا بعد كاتبه .. وصاحب الخط ..

وارتفع بشير عثمان بصوته يقول : دنيا .. وماذا يملك العبد ؟. الانسان ضعيف . أضعف من الناموسة وهل يملك رد القضاء ؟. لكل انسان نهاية يا وابور . لكل انسان ..

واستمر وابور يرسم الأذنين ثم همس فى صوت متشرخ : لكن البنى آدم يموت فى فراشه وبين أهله . لم نسمع أن أحدا مات من الجوع .

وهمس أحمد : انهم يموتون من الجوع .. قرأت أنهم فى الصين .. لكنهم يقولون انه هو الذى قتل نفسه من الجوع . فصاح بشير . قتل نفسه من الجوع ؟ كيف كان ذلك ؟! ثم ساد الصمت طويلا قطعه وابور بكلمات باكية : ظل يقطع الحجارة فى الليمان .. ويعاملونه معاملة المجرمين والكلاب ويضربونه ويشتمونه : يا بربرى الكلب . ويشدون سلاسل الحديد حول خاصرته وفى قدميه .

وصمت قليلا يتأمل وجه زميليه فرأى الحزن المرتسم عليهما ثم وأصل حديثه المحموم : يقولون انه أرسل شكوى الى الحكومة ، ولكنها لم تبال به بل كان العساكر يقولون له : يا بربرى الكلب ... ثم يئس المسكين وأضرب عن الأكل ثلاثين يوما .

ــ وهل تركوه دون طعام ؟ ياولداه !! .

ــ كلا ، بل تعمدوا اغراءه بما لذ وطاب حتى يعدل لكنه أصر . رأسه مثل حجر الصوان الذى لا يلين ، ثم ألقوه على الأسفلت العارى حتى بصق الدم .. الدم الاحمر .. وراح الاطباء يحقنونه ثم كانت النهاية ..

ـ مسكين ! اللهم لا تبتل صديقا ولا عدوا بما ابتليت به حسين .. لابد أنهم دفنوه فى جنازة كبيرة أعدها البيه أبوه .

ـ جنازه ! لقد رفض أبوه تسلم جثته ودفن دون أن يعلم أحد .. وبقى الخبر سرا حتى أذاعه أحد سعاة مصلحة السجون .

ـ لا حول ولا قوة الا بالله .

ـ لقد باع الرجل ابنه فداء ولائه للحكومة .

وبصق بشير بصقة صفراء ومسح شاربه بطرف كمه ثم هتف حانقا : لعنة الله عليه من أب .. ضناه وفلذة كبده !!

ومال سرور على وقال : الشىء نفسه كانوا يقولونه بالأمس فى عنيبة . لقد رحل الشيخ مرسى ومكى أفنـدى ، وجميع المدرسين النوبيين ؛ والفراشين الى الدر . قالوا : انهم سيقيمون مأتما فى الدر وفى كرسكو قرية حسين طه . ولكن لماذا سجن ياحامد فلم أجب ؛ اذ كان الرجال قد وقفوا يودعون بشيرا ويتواعدون على صلاة الجمعة فى غد .. صلاة الغائب . وتلفت الينا بشير وقال : انصرف ياسرور فالشمس تكاد تغيب ... ويبدو أن السماء ستمطر . خيرا وبركة .

فاتخذ كل منا طريقه ، هو الى النجع وأنا الى بيت أختى فى ابريم ؛ ومن فوقى دوى رعد وغيوم تلبدت بها السماء فجأة ثم رذاذ مطر اشتد حتى بلل ثيابى ، وقوس قزح كبير يرتسم عند الأفق ويلقى ألوانه المتداخلة على الهضبة الصخرية المترامية وتتلاشى كلما مالت الشمس الى المغيب ، وبرق خاطف ينير جوف الخور ثم يخبو ليبعث الرعب فى قلبى .

ومضيت أجرى خائفا ، مبتعدا عن المزرعة حتى انعطفت الى الطريق المؤدى الى بيت أختى ، وقبل أن أدلف من بابه رأيت السماء تنبلج بشهاب لامع تماما مثل انبلاجها فوق رأسينا أنا وبطة فى ليلة القدر ؛ ووجدتنى أقول دون وعى : أشف يارباه أمى . أشف أمى يارباه ، ثم سكت فجأة والحزن يعتصر قلبى حين تذكرت شاهد القبر الذى مررت به منذ حين .

٥٧

وكرت الأيام والأسابيع وأنا لا أزال فى النجع لا أفعل شيئا غير مساعدة أبى فى تدوين حسابات المتجر والترنح فى الكتاب وتحمل شماتة حجوبة التى عادت تتحدث عن رحيلى الى مصر ، ومراقبة النيل الطامى والبواخر الصاعدة فيه وكتابة جوابات النسوة العجائز الى الأبناء الغائبين !

وظل الأمل فى العودة الى المدرسة يداعب خيالى فى الأيام الأولى ثم تبدد بمرور الأيام فعشت حياة مليئة بالضجر والتمرد المكبوت ، الا أن الساعات التى كنت أقضيها على هودية الساقية كانت أسعد ساعاتى فقد أعتدت أن أتربع عليها أراقب بقرتنا وهى تدور وتروى الرمال الصفراء ؛ والشيخ « فضل » وهو يزك بساقه الخشبية وقد انحنى ظهره قليلا يتنقل بين الشرائح الصغيرة الخضراء يشتل البصل ويتلمس أوراق الجرجير والفجل وأحراش الطماطم واللوبيا فى نشوة ، ثم يمد يده الى الأرض يعود بها محملة بالتراب يتشممه متقززا ثم يعيده الى الأرض وكأنما يهرب منه ٠

وعلى مرمى البصر وغير بعيد من الساقية حركة أقدام تتدافع وحناجر تهدر بأغانى العمل فمازال عمال البناء يحملون الحجارة والمونة فى صف يدور بين المحجر والمعجنة والمبنى ، يتلقى المعلم منهم أحمالهم ويضرب عليها بالمسطرين ويطلب المزيد فيدورون كما تدور البقرة فى الساقية يرددون مقاطع أغنية بطيئة اللحن ، يرددونها خلف واحد

منهم وقف على ربوة عالية يلوح بيديه ويغنى : فين أميـــل فين أنام ، فتردد الحناجر من بعده فى دوى بطىء : تحت ظل الساسابان : تحت ظل الساسابان .

والخيام تختفى وتحل محلها بيوت ذات أفنية واسـعة وتتغير صورة النجع · صفوف ثلاثة من البيوت المبنية بالحجارة البيضاء تطل على النهر ، وعلى أجمات النخيل العائمة برءوسها على سطح الطوفان · ولولا حركة البناء والأغانى ولولا الساقية التى تدور والشادوف المنحنى دائما ليرتشف من النيل رشفات صغيرة يلقى بها الى الرمال ، ولولا نواح ساقية بئر الجبل التى شقها بشير عثمان ، ولولا شجيرات خروع خضراء تهتز فى قبضة النسيم والريح ويذكرنا حفيفها بأشجارنا فى الشرق ، ولولا رسائل من مصر والمدن يتجمع النـــاس حولى لأقرأها عليهم لدامت رتابة الحياة ومللها القاتل .

حتى داريا سكينة بدأت تبتسم وتضحك · فقد بر جمال بوعده ·· ولم ينس برعى أباه وأمه ، لم ينس داريا ولا شريفة ، فقد أرسل يقول لهما : أنا مازلت عند كلمتى ، فتبسمت شريفة ولعل خدرا لذيذا سرى فى صدرها عند النهدين .

أما البسطاوى فقد ابتلعه زحـــام المدينة ولم يرسل كلمة واحدة الى سعدية وأمها ، نسيهما فارتسم القلق على وجه الزوجة الصغيرة . فبدت تعيسة كما كانت شريفة وأمها منذ عامين ، ولعل البسطاوى قد انشغل فى مصر بما انشغل به جمال ، لعله التقى بواحدة · وسعدية لا يمكن أن تنسى كيف كان يطارد كل فتيات النجع ، فما الذى يمنعه هناك فى مصر ؟ انه طليق · ليتها تمكنت من السفر معه ·· لكن ··

ولعل انقطاع أخباره هو الذى جعلنى دائما أفكر فى سعدية التى لاتزال جميلة تفكيرا أخذت أنكره على نفسى ثم أعود اليه ·· أستعذبه وأطيله .. فاننى كنت لا أراها الا وتنبعث فى مخيلتى صورتها وهى ترفعنى الى صدرها منذ أعوام أربعة ، ولاتتركنى الا بعد أن تغيم عيناها ، فأتمنى أن أرقد على ذلك الصدر البض ، ولكننى برغم ذلك كنت أخشى الاقتراب منها خوفا من حجوبة التى أخذت تتلصص على وتشى بى عند أبى ، وظللت أتجنبها حتى وجدتها مرة تعترض طريقى ، فى أصيل خميس من يناير عام ١٩٣٥ ، أصيل شديد البرودة تعول فيه الريح .

كنا وحدنا . فقد آوى النـاس الى بيوتهم ولا أدرى ما الذى جاء بها فى تلك اللحظة التى كنت أعود فيها من أبريم الى النجع . أكانت تترقب عودتى أم أن الصدفة وحدها هى التى جمعت بيننا فى ذلك الأصيل ؟

حاولت أن أتجنبهـا لكنها سدت السبيل أمامى وقالت : تعال يا حامد لنكتب جوابا الى البسطاوى .. فارتبكت ولكننى تداركت نفسى وهمست : ليس الآن ياسعدية فاننى مهموم لا أستطيع كتابة جواب . غدا ..

ـ مهموم . كفى الله الشر ، ولماذا ؟ بسبب المدرسة ؟ ولماذا تشغل نفسك ؟ ولا يهمك يا شيخ . ألست رجلا مثل البسطاوى وبرعى ؟ ورنت كلمة « الرجل » .. « ومثل البسطاوى » فى أذنى رنينا عجيبا ، ونفذت الى قلبى ولكننى تأهبت لأقول لها : دعينى هذا المساء وغدا أكتب لك جوابا ، الا أن البريق الذى لاح فى عينيها والشعاع الذهبى الذى ألقته الشمس الغاربة على وجهها وشعرها من خلال طرحتها والريح التى دفعت بجلبابها الى الخلف فضاق فوق الصدر وانطوى بين الفخذين ، والكائن الجديد الذى أخذ يشرئب فى جسدى ويبعث احساسا غريبا ملتهبا بالسعار يشدنى اليها .. الا أن كل ذلك جعلنى انسى كل تعلاتى وأهمس : وأمك أليست فى البيت ؟ فتبسمت ثم همست :

ـ لكنها فى سابع نومة ولن تفيق الا مع الفجر .. تعال . فأمى نفسها تريد أن تكتب جوابا الى أبى !!

همست بهذه الكلمات باسمة ومازالت الريح تطوى جلبابها بين فخذيها ثم استدارت الى بيتها فى خطى متثاقلة فتبعتها دون تردد من خلال الباب الخلفى ثم دارت بى فى كل الغرف وعرفت أنها كانت تكذب فان أمها لم تكن هناك ، وتوقفت بى عند عنجريب وتأملتنى ثم استدارت تلقى بطرحتها على السحارة وقد أسندت قدمها الى العنجريب كاشفة عن ساقيها .. وأردت أن أبدد الصمت فقلت : الجواب ياسعدية . ؟ أين الورق ؟ فقد كنت خائفا ..

ـ الورق .. !

واستقامت لتتجه الى السحارة مارة بى فى طريقها ، لكنها توقفت فجأة أمامى وطوقتنى بشدة متوقعة أن أقاوم كما كنت أفعل منذ أعوام

مضت الا أنها سرعان ما أدركت التغير الذى طرأ على جسدى وأحست بانسعار الملتهب فيه وشعرت بجسدى يشرئب ويتحفز لأول تجربة فاندلقت بصدرها البض على صدرى ، تضغط عليه فى قوة لاهثة وتطلق صرخات قصيرة مكتومة ثم انطرحنا على العنجريب ،وأحسست أننى أغوص فى عالم من الرؤى ، عالم يتبدد فيه الخوف ، لتحل محله الثقة والزهو ، عالم تلين فيه سعدية بين ذراعى تقاوم قليلا لتستثيرنى . ثم تستسلم لتهتف : أصبحت رجلا يا حامد . رجلا مثله .. منذ شهور وأنا أريدك أن تكتب لى جوابا وأنت لا ترضى . أكتبت جوابا لمندوهة أو لشريفة يا حامد ؟ قلت لاهثا وفى سرعة : كلا . ثم انفصلنا لحظة مطرقين برأسينا الا أنها عادت تطوقنى بذراعيها فأخذت أقاوم وقد ركبنى ندم عجيب ، ركبنى احساس بالاثم وشعور يدفعنى الى أن ألقى بنفسى فى النيل وأغوص فيه لأطهر روحى وبدنى ، موقنا أن أبى وحجوبة ، أن كل انسان يرانى قبل أن أغوص فى الماء سيكتشف جريمتى على وجهى وفى عينى .

ثم انبعث صرير باب موحش ، وصوت مبحوح ينادى : سعدية .. أين أنت ؟ أليس حامد هو الذى دخل البيت معك ؟ فتركتنى وأسرعت الى الباب الخارجى بينما قفزت أنا من السور الخلفى وأخذت أجرى الى النيل تتعقبنى صور من العار حتى خلعت ملابسى على الشاطىء وغصت فى النيل وعدت مسرعا وأنا أرتعش من البرد اختبىء فى تحويشة البهائم أمام المتجر .

ووقفت هناك أراقب الساحة من فرجة البوص . وهالنى أن اسمى يتردد على كل لسان . فهذا هو صوت أبى يجلجل : أين غار هذا الولد ؟ وصوت خالى وحجوبة ، ثم صوت المحامى الذى توقف مباشرة أمام فرجة البوص ينادى .. فكتمت أنفاسى ، وأنا ألعن حجوبة التى وشت بى . لابد أنها قد تلصصت على ولعلها لاحظت شيئا على وجه سعدية .

لكن الكلمات التى أطلقها المحامى أوقفت تيار أفكارى السوداء هذه ، فقد أخذ يقفز من رجل الى أخرى وينادى : حامد . أين هذا المغفل ؟ ثم يضيف فى زهو : ألم أقل لكم ؟ الشكوى التى أكتبها تردع الحكام فى مصر ... كلمات ... يا سلام على يدك وخطك وفصاحتك يامحامى . كلمات مثل النار تفتت القلوب القاسية . فأدركت أنهم يبحثون عنى لسبب آخر ولعل الشكوى التى كتبها المحامى عن الفيضان

قد نشرت فى الصحف ولعل أبى يريد منى أن أقرأ للناس هذا الخبر ! فتسللت من مكمنى ووقفت أمام المحامى فتلقفنى صائحا : مبروك يا ولد ··· تعال قبل يدى · مبروك · عدت الى المدرسة يا حامد !

وأحاط الناس بى بينما وقفت أنا واجما لا أدرك شيئا مما يقولون ، ثم تقدمت خالتى أمينة بابا وأمسكت برأسى تهمس : الا تسمع ياحامد ؟ مالك لا تفهم ؟ ستعود الى المدرسة مع مصطفى فى يوم السبت !

وأضاف المحامى : أنه لا يصدق . خذ هذه الورقة . أرسلها الشيخ مرسى مع مصطفى اليوم . خذ ! .

حينذاك فقط أحسست أن فرحة غامرة تعربد فى صدرى فتركتهم وأطلقت العنان لساقى عائدا الى أبريم ، الى بيت جميلة ، أزف اليها الخبر السعيد : سأعود الى المدرسة فى عنيبة يا شقيقتى ، يا أمى الحنون !

وتأهبت للرحيل فى أصيل الجمعة وبعد أن ودعت أهلى قفزت على الركوبة ، اهمزها لتنطلق بى الا أن الشيخ « فضلا » اعترض طريقى يزك بساقه الخشبية ، وعلى وجهه ابتسامة عريضة نورت وجهه الطيب ، فترجلت أشد على يده ، فصافحنى الرجل بيد قوية خشنة ، بينما مد يده الأخرى ، وهمس فى صوت عميق :

ـ لتكن أنت ياحامد أول من يأكل من هذه الأرض .

ودفع بحزمة كبيرة من البصل الأخضر الى يدى ، فانكببت على يده أقبلها الا أنه جذبها بسرعة وقال :

ـ خذ · وهذه عشر حبات من الطماطم للأستاذ ·· مازالت خضراء يا حامد ·

فاحتضنت الهديتين ثم قفزت الى ظهر ركوبتى من جديد تنطلق بى الى الطريق العام وتخب فى الرمال الصفراء ...

وقبل أن يختفى النجع رأيت النيل يبرق بثريات باخرة تصعد النيل ، ثم حانت منى التفاتة جانبية الى الشمندورة الحمراء فوجدتها ترتطم ارتطاما شديدا بالسلسلة التى تشدها الى قاع اليم ··· ترتطم ثم تهدأ ، لتعاود النضال من جديد ·

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
بالقاهرة
١٩٦٨